Marfat.com

الكامل في التاريخ

لابن الأثير

دار الكتاب العربي
بيروت

Marfat.com

الكامل في التاريخ

الكامل في التاريخ

للامام العلامة عمده المؤرخين أبي الحسن علي بن أبي الكرم
محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد
الشيباني المعروف بابن الاثير
الجزري الملقب بعز الدين
المتوفى سنه ٦٣٠ هـ

الجزء التاسع

عُنِيَ بمراجعة أصوله والتعليق عليه
نخبة من العلماء

وتميزت هذه الطبعة بفهارس شاملة

الناشر
دار الكتاب العربي
ص.ب: ٥٧٦٩-١١ بيروت

Marfat.com

Marfat.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الكتاب العربي

الرملة البيضاء - ملكارت سنتر - الطابق الرابع تلفون: ٨٠٠٨٣٢ ٨٠٠٨١١ ٨٠٥٤٧٨

تلكس: ٤٠١٣٩ L.E. كتاب برقياً: الكتاب ص.ب: ٥٧٦٩ - ١١ بيروت - لبنان

Marfat.com

الجزء التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

✡(ثم دخلت سنة ست وثلاثين وخمسمائة)✡

(ذكر انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا وملكهم ماوراء النهر) ثم ذكر أصحاب التواريخ فى هذه الحادثة أقاويل نحن نذكرها جميعها للخروج من اختلافها وعدتها فنقول فى هذه السنة فى المحرم وقيل فى صفر انهزم السلطان سنجر من الترك الكفار وسبب ذلك أن سنجرا كان قتل ابنا لخوارزم شاه أتسز بن محمد كما ذكرناه قبل فبعث خوارزم شاه إلى الخطا وهم بماوراء النهر يطمعهم فى البلاد ويروج عليهم أمرها وحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر فساروا فى ثلثمائة ألف فارس وسار اليهم سنجر فى عساكره فالتقوا بما وراء النهر واقتتلوا أشد قتال وانهزم سنجر وعساكره وقتل منهم مائة ألف قتيل منهم اثنا عشر ألفا كلهم صاحب عمامة وأربعة آلاف امرأة وأسرت زوجة السلطان سنجر وتم السلطان منهزما إلى ترمذ وسار منها إلى بلخ ولما انهزم سنجر قصد خوارزم شاه مدينة مرو فدخلها مراغمة للسلطان سنجر وقتل بها وقبض على أبى الفضل الكرمانى الفقيه الحنفى وعلى جماعة من الفقهاء وغيرهم من أعيان البلد ولم يزل السلطان سنجر مسعودا إلى وقتنا هذا لم تنهزم له راية ولما تمت عليه هذه السنة الهزيمة أرسل إلى السلطان مسعود وأذن له فى التصرف فى الرى وما يجرى معها على قاعدة أبيه السلطان محمد وأمره أن يكون مقيما فيها بعساكره بحيث إن دعت حاجة استدعاه لأجل هذه الهزيمة فوصل عباس صاحب الرى إلى بغداد بعساكره وخدم السلطان مسعودا خدمة عظيمة وسار السلطان إلى الرى امتثالا لأمر عمه سنجر وقيل إن بلاد تركستان وهى كاشغر وبلاد بلاساغون وختن وطراز وغيرها مما يجاورها من بلاد ماوراء النهر كانت بيد الملوك الخانية الأتراك وهم مسلمون من نسل أفراسياب التركى إلا أنهم مختلفون وكان سبب إسلام جده شبق قراخاقان انه رأى فى منامه كأن رجلا نزل من السماء فقال بالتركية ما معناه أسلم تسلم فى الدنيا والآخرة فأسلم فى منامه وأصبح فأظهر إسلامه فلما مات قام مقامه ابنه موسى بن شبق ولم يزل الملك بتلك الناحية فى أولاده إلى أرسلان خان بن محمد بن سليمان بن داود بغراخان بن إبراهيم الملقب بطيغاج خان بن أيلك الملقب بنصر أرسلان ابن على بن موسى بن شبق فخرج على قدرخان فانتزع الملك منه فقتل سنجر قدرخان كما ذكرناه سنة أربع وتسعين وأربعمائة وأعاد الملك إلى أرسلان خان وثبت قدمه وخرج خوارج فاستصرخ السلطان سنجر فنصره وأعاده إلى ملكه وكان من جنده نوع من الأتراك يقال لهم القارغلية والأتراك الغزية الذين نهبوا خراسان على ما تذكره إن شاء الله وهم نوعان نوع يقال لهم أجق وأميرهم طوطى بن داديك وقوم يقال لهم برق وأميرهم يقال له قرغوت بن عبد الحميد فحسن الشريف الأشرف بن محمد بن أبى شجاع العلوى السمرقندى لولد أرسلان خان المعروف بنصر خان طلب الملك من أبيه وأطمعه فسمع محمد بن خان الخبر فقتل الابن والشريف الأشرف وجرت بين أرسلان خان وبين جنده القارغلية وحشة دعتهم إلى العصيان عليه وانتزع الملك منه فعاود

Marfat.com

الاستعانة بالسلطان سنجر فعبر جيحون بعساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة وكان بينهما مصاهرة فوصل إلى سمرقند وهرب القارغلية من بين يديه واتفق أن السلطان سنجر خرج إلى الصيد فرأى خيالة فقبض عليهم فقررهم فأقروا أن أرسلان خان وضعهم على قتله فعاد إلى سمرقند فحصر أرسلان خان بالقلعة فملكها وأخذه أسيرا وسيره إلى بلخ فمات بها وقيل بل غدر به سنجر واستضعفه فملك البلد منه فأشاع عنه ذلك فلما ملك سمرقند استعمل عليها بعده قلج طمغاج أبا المعالى الحسن بن على بن عبدالمؤمن المعروف بحسن تكين وكان من أعيان بيت الخانية إلى الآن إلا أن أرسلان خان اطرحه فلما ولى سمرقند وكان هذا حسن بن أخت سنجر لم تطل أيامه فمات عن قليل فأقام سنجر مقامه الملك محمود بن أرسلان خان محمد بن سليمان بن داود بغراخان وهو ابن الذى أخذ منه سنجر سمرقند وكان هذا محمود ابن أخت سنجر وكان قبل ذلك سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد وصل الأعور وهو كوخان الصينى إلى حدود كاشغر فى عدد كثير لا يعلمهم إلا الله فاستعد له صاحب كاشغر وهو الخان أحمد بن الحسن وجمع جنوده فخرج إليه والتقوا فاقتتلوا وانهزم الأعور الصينى وقتل كثير من أصحابه ثم إنه مات فقام مقامه كوخان الصينى وكو بلسان الصين لقب لأعظم ملوكهم وخان لقب الملوك الترك فمعناه أعظم الملوك وكان يلبس لبسة ملوكهم من المقنعة والخمار وكان مانويا ولما خرج من الصين إلى تركستان انضاف إليه الأتراك الخطا وكانوا قد خرجوا قبله من الصين وهم فى خدمة الخانية أصحاب تركستان وكان أرسلان خان محمد بن سليمان يسير على ستة عشر ألف خركاة وينزلهم على الدروب التى بينه وبين الصين يمنعون أحدا من الملوك أن يتطرق إلى بلاده وكان لهم على ذلك جرايات وأقطاعات فاتفق أنه وجد عليهم فى بعض السنين فمنعهم عن نسائهم لئلا يتوالدوا فعظم عليهم ولم يعرفوا وجها يتصدونه وتحيروا فاتفق أن اجتاز بهم قفل عظيم فيه الأموال الكثيرة والأمتعة النفيسة فأخذوه وأحضروا التجار وقالوا لهم إن كنتم تريدون أموالكم فعرفونا بلدا كثير المرعى فسيحا يسعنا ويسع أموالنا فاتفق رأى التجار على بلد بلاساغون فوصفوه لهم فأعادوا إليهم أموالهم وأخذوا الموكلين الذين كانوا بهم لمنعهم عن نسائهم وكتفوهم وأخذوا نساءهم وساروا إلى بلاساغون وكان أرسلان خان يغزوهم ويكثر جهادهم فخافوه خوفا عظيما فلما طال ذلك عليهم وخرج كوخان الصينى انضافوا إليه أيضا فعظم شأنهم وتضاعف جمعهم وملكوا بلاد تركستان وكانوا إذا ملكوا المدينة لا يغيرون على أهلها شيئا بل يأخذون من كل بيت دينارا من أهل البلاد وغيرها من القرى وأما المزدرعات وغير ذلك فلأهلها وكل من أطاعهم من الملوك شد فى وسطه شبه لوح فضة فتلك علامة من أطاعهم ثم ساروا إلى بلاد ماوراء النهر فاستقبلهم الخاقان محمود بن محمد من حدود خجندة فى رمضان سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة واقتتلوا فانهزم الخاقان محمود بن محمد وعاد إلى سمرقند فعظم الخطب على أهلها واشتد الخوف والحزن وانتظروا البلاء صباحا ومساء وكذلك أهل بخارا وغيرهما من بلاد ماوراء النهر وأرسل الخاقان محمود إلى السلطان سنجر يستمده وينهى إليه ما لقى المسلمون ويحثه على نصرتهم فجمع العساكر فاجتمع عنده ملوك خراسان صاحب سجستان والغور وملك غزنة وملك مازندران وغيرهم فاجتمع اليه أكثر من مائة ألف فارس وبقى العرض ستة أشهر وسار سنجر إلى لقاء الترك فعبروا إلى ماوراء النهر فى ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وخمسمائة فشكا اليه محمود بن محمد خان من الأتراك القارغلية فقصدهم سنجر فالتجؤا إلى كوخان الصينى ومن معه من الكفار وأقام سنجر بسمرقند فكتب اليه كوخان كتابا يتضمن الشفاعة فى الأتراك

Marfat.com

القارغلية ويطلب منه أن يعفو عنهم فلم يشفعه فيهم وكتب اليه يدعوه إلى الإسلام ويهدده إن لم يجب اليه ويتوعده بكثرة عساكره ووصفهم وبالغ فى قتالهم بأنواع السلاح حتى قال وإنهم يشقون الشعر بسهامهم فلم يرض هذا الكتاب وزير السلطان طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك فلم يصغ اليه وسير الكتاب فلما قرىء الكتاب على كوخان أمر بنتف لحية الرسول وأعطاه إبرة وكلفه شق شعرة من لحيته فلم يقدر يفعل ذلك فقال كيف يشق غيرك شعرة بسهم وأنت عاجز عن شقها بإبرة واستعد كرخان للحرب وعنده جنود الترك والصين والخطا وغيرهم وقصد السلطان سنجر فالتقى العسكران وكانا كالبحرين العظيمين بموضع يقال له قطوان وطاف بهم كوخان حتى ألجأهم إلى واد يقال له ديرغم وكان على ميمنة سنجر الأمير قماج وعلى ميسرته ملك سجستان والأبطال وراءهم فاقتتلوا خامس صفر سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكانت الأتراك القارغلية الذين هربوا من سنجر من أشد الناس قتالا ولم يكن ذلك اليوم من عسكر السلطان سنجر أحسن قتالا من صاحب سجستان فأجلت الحرب عن هزيمة المسلمين فقتل منهم مالا يحصى من كثرتهم واشتمل وادى ديرغم على عشرة آلاف من القتلى والجرحى ومضى السلطان سنجر منهزما وأسر صاحب سجستان والأمير قماج وزوجة السلطان سنجر وهى ابنة أرسلان خان فأطلقهم والحسام عمر بن عبد العزيز بن مازة البخارى الفقيه الحنفى المشهور ولم يكن فى الإسلام وقعة أعظم من هذه ولا أكثر ممن قتل فيها بخراسان واستقرت دولة الخطا والترك الكفار بما وراء النهر وبقى كوخان إلى رجب من سنة سبع وثلاثين وخمسمائة فمات فيه وكان جميلا حسن الصورة لا يلبس إلا الحرير الصينى له هيبة عظيمة على أصحابه ولم يسلط أميرا على أقطاع بل كان يعطيهم من عنده ويقول متى أخذوا الأقطاع ظلموا وكان لا يقدم أميرا على أكثر من مائة فارس حتى لا يقدر على العصيان عليه وكان ينهى أصحابه عن الظلم وينهى عن السكر ويعاقب عليه ولا ينهى عن الزنا ولا يقبحه وملك بعده ابنة له فلم تطل مدتها حتى ماتت فملك بعدها أمها زوجة كوخان وابنه محمد وبقى ماوراء النهر بيد الخطا إلى أن أخذه منهم علاء الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتى عشرة وستمائة على ماذكرت إن شاء الله تعالى.

﴿ذكر مافعله خوارزم شاه بخراسان﴾ قد ذكرنا قبل قصد السلطان سنجر خوارزم وأخذها من خوارزم شاه أتسز وعوده اليها وقتل ولد خوارزم شاه وأنه هو الذى راسل الخطا وأطمعهم فى بلاد الإسلام فلما لقيهم السلطان سنجر وعاد منهزما سار خوارزم شاه إلى خراسان فقصد سرخس فى ربيع الأول من السنة فلما وصل اليها لقى الإمام أبا محمد الزيادى وكان قد جمع بين الزهد والعلم فأكرمه خوارزم شاه إكراما عظيما ورحل من هناك إلى مرو الشاهجان فقصده الإمام أحمد الباخرزى وشفع فى أهل مرو وسأل أن لا يعترض اليهم أحد من العسكر فأجابه إلى ذلك ونزل بظاهر البلد واستدعى أبا الفضل الكرمانى الفقيه وأعيان أهلها فثار عامة مرو وقتلوا بعض أهل خوارزم شاه وأخرجوا أصحابه من البلد وأغلقوا أبوابه واستعدوا للامتناع فقاتلهم خوارزم شاه ودخل مدينة مرو سابع عشر ربيع الأول من السنة وقتل كثيرا من أهلها، وممن قتل ابراهيم المروزى الفقيه الشافعى وعلى بن محمد بن أرسلان، وكان ذا فنون كثيرة من العلم وقتل الشريف على بن اسحق الموسوى وكان رأس فتنة وملقح شر وقتل كثيرا من أعيان أهلها؛ وعاد إلى خوارزم واستصحب معه علماء كثيرا من أهلها، ومنهم أبو الفضل الكرمانى وأبو منصور العبادى والقاضى الحسين بن محمد الأرسابندى وأبو محمد الخرقى الفيلسوف وغيرهم ثم سار فى شوال من السنة إلى نيسابور فخرج إليه جماعة من فقهائها وعلمائها وزهادها وسألوه أن لا يفعل بأهل نيسابور مافعل

Marfat.com

Marfat.com

بأهل مرو فأجابهم إلى ذلك لكنه استقصى فى البحث عن أموال أصحاب السلطان فأخذها وقطع خطبة السلطان سنجر أول ذى القعدة وخطبوا له فلما ترك الخطيب ذكر السلطان سنجر وذكر خوارزمشاه صاح الناس وثاروا وكادت الفتنة تثور والشر يعود جديدا وإنما منع الناس ذوو الرأى والعقل نظرا فى العاقبة فقطعت إلى أول المحرم سنة سبع وثلاثين فأعيدت خطبة السلطان سنجر ؛ ثم سير خوارزم شاه جيشا إلى أعمال بيهق فأقاموا بها يقاتلون أهلها خمسة أيام ثم سار عنها ذلك الجيش ينهبون البلاد وعماوا بخراسان أعمالا عظيمة ومنع السلطان من مقاتلة أتسز خوارزم شاه لأجل قوة الخطا بما وراء النهر ومجاورتهم وملك خوارزم شاه هذه البلاد وغيرها من خراسان .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة ملك أتابك زنكى بن آقسنقر مدينة الحديثة ونقل من كان بها من آل مهراش إلى الموصل ورتب أصحابه فيها . وفيها أيضا خطب لزنكى بمدينة آمد وصار صاحبها فى طاعته وكان قبل ذلك موافقا لداود على قتال زنكى فلما رأى قوة زنكى صار معه . وفيها عزل مجاهد الدين بهروز عن شحنكية بغداد وواليها قزل أمير أخور وهو من مماليك السلطان محمود وكان له بروجرد والبصرة فأضيف إليه شحنكية بغداد ثم وصل السلطان إلى بغداد فرأى من تبسط العيارين وفسادهم ما ساءه فأعاد بهروز إلى الشحنكية فتاب كثير منهم ولم ينتفع الناس بذلك لأن ولد الوزير وأخاه امرأة السلطان كانا يقاسمان العيارين فلم يقدر بهروز على منعهم . وفيها تولى عبد الرحمن طغايرك حجبة السلطان واستولى على المملكة وعزل الأمير تبر الطغرلى عنها وآل أمره إلى أن مشى فى ركاب عبد الرحمن . وفيها توفى ابراهيم السهاوى مقدم الإسماعيلية فأخرجه ولد عباس صاحب الرى فى تابوته . وفيها حج كمال الدين بن طلحة صاحب المخزن وعاد . وقد لبس ثياب الصوفية وتخلى عن جميع ما كان عليه وأقام فى داره مرعى الجانب محروس القاعدة . وفيها وصل السلطان إلى بغداد وكان الوزير الزينبى بدار السلطان كما ذكرناه فسأل السلطان أن يشفع فيه ليرده الخليفة إلى داره فأرسل السلطان وزيره إلى دار الخلافة ومعه الوزير شرف الدين الزينبى وشفع أن يعود إلى داره فأذن له فى ذلك وأعاد أخاه إلى نقابة النقباء فلزم الوزير داره ولم يخرج منها إلا إلى الجامع . وفيها أغار عسكر أتابك زنكى من حلب على بلاد الفرنج فنهبوا وأحرقوا وظفروا بسرية الفرنج فقتلوا فيهم وأكثروا فكان عدد القتلى سبعمائة رجل . وفيها أفسد بنو خفاجة بالعراق فسير السلطان مسعود سرية إليهم من العسكر فنهبوا حلتهم وقتلوا من ظفروا به منهم وعادوا سالمين . وفيها سير رجار الفرنجى صاحب صقلية أسطولا إلى أطراف أفريقية فأخذوا مراكب سيرت من مصر إلى الحسن صاحب أفريقية وغدر بالحسن ثم راسله الحسن وجدد الهدنة لأجل حمل الغلات من صقلية إلى أفريقية لأن الغلاء كان فيها شديدا والموت كثير . وفيها توفى أبو القاسم عبد الوهاب ابن عبد الواحد الحنبلى الدمشقى وكان عالما . وفيها توفى ضياء الدين أبو سعيد الكفرتوشى وزير أتابك زنكى وكان حسن السيرة فى وزارته كريما رئيسا . وفيها توفى أبو محمد بن طاوس إمام الجامع بدمشق فى المحرم وكان رجلا صالحا فاضلا . وفيها توفى أبو القاسم اسمعيل بن أحمد بن عمر بن أبى الأشعث المعروف بابن السمرقندى ولد بدمشق سنة أربع وخمسين وأربعمائة وكان مكثرا من الحديث عالى الرواية .

﴿ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك عماد الدين أتابك زنكى قلعة أشب وغيرها من الهكارية﴾ فى هذه السنة أرسل أتابك زنكى

Marfat.com

جيشا إلى قلعة أشب وكانت أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمنعها وبها أموالهم وأهلهم فحصروها وضيقوا على من بها فملكوها فأمر بإخرابها وبناء القلعة المعروفة بالعادية عوضا عنها وكانت هذه القلعة العادية حصنا عظيما من حصونهم فخربوه لكبره لأنه كبير جدا وكانوا يعجزون عن حفظه فخربت الآن أشب وعمرت العادية وإنما سميت العادية لنسبة إلى لقبه وكان نصير الدين جقر نائبه بالموصل قد فتح أكثر القلاع الجبلية.

﴿ ذكر حصر الفرنج طرابلس الغرب ﴾ وفى هذه السنة سارت مراكب الفرنج من صقلية إلى طرابلس الغرب فحصروها وسبب ذلك أن أهلها فى أيام الأمير الحسن صاحب أفريقية لم يدخلوا أبدا فى طاعته ولم يزالوا مخالفين مشاقين له قد قدموا عليهم من بنى مطروح مشايخ يدبرون أمرهم فلما رآهم ملك صقلية كذلك جهز إليهم جيشا فى البحر فوصلوا إليهم ثامن ذى الحجة فنازلوا البلد وقاتلوه وعلقوا الكلاليب فى سوره ونقبوه فلما كان الغد وصل جماعة من العرب نجدة لأهل البلد فقوى أهل طرابلس بهم فخرجوا إلى الأسطول فحملوا عليهم حملة منكرة فانهزموا هزيمة فاحشة وقتل منهم خلق كثير ولحق الباقون بالأسطول وتركوا الأسلحة والأثقال والدواب والآلات فنهبها العرب وأهل البلد ورجع الفرنج إلى صقلية فجهزوا أسلحتهم وتجهزوا إلى المغرب فوصلوا إلى جيجل فلما رآهم أهل البلد هربوا إلى البرارى والجبال فدخلها الفرنج وسبوا من أدركوا فيها وهدموها وأحرقوها وأخربوا القصر الذى بناه يحيى بن العزيز بن حماد للنزهة ثم عادوا.

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة خرج حسن أمير الأمراء على السلطان سنجر بخراسان. وفيها توفى محمد بن دانشمند صاحب ملطية والثغر واستولى على بلاده الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وهو من السلجوقية. وفيها خرج من الروم عسكر كثير إلى الشام فحصروا الفرنج بأنطاكية فخرج صاحبها واجتمع بملك الروم وأصلح حاله معه وعاد إلى مدينته ومات فى رمضان من هذه السنة ثم إن ملك الروم بعد أن صالح صاحب أنطاكية سار إلى طرابلس فحصرها ثم سار عنها. وفيها قبض السلطان مسعود على الأمير ترشك وهو من خواص الخليفة وممن ربى عنده وفى داره فساء ذلك الخليفة ثم أطلقه السلطان حفظا لقلب الخليفة. وفيها كان بمصر وباء عظيم فهلك منه أكثر البلاد.

﴿ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة﴾

﴿ذكر صلح الشهيد السلطان مسعود وأتابك زنكى﴾ فى هذه السنة وصل السلطان مسعود إلى بغداد على عادته فى كل سنة وجمع العساكر وتجهز لقصد أتابك زنكى وكان حقد عليه حقدا شديدا وسبب ذلك أن أصحاب الأطراف الخارجين على السلطان مسعود كانوا يخرجون عليه على ماتقدم ذكره فكان ينسب ذلك إلى أتابك زنكى ويقول هو الذى سعى فيه وأشار به لعلمه أنهم كلهم كانوا يصدرون عن رأيه فكان أتابك زنكى لاشك يفعل ذلك لئلا يخلو السلطان فيتمكن منه ومن غيره فلما تفرغ السلطان هذه السنة جمع العساكر ليسيروا إلى بلاده فسير أتابك يستعطفه ويستميله فأرسل اليه السلطان أباعبدالله بن الأنبارى فى تقرير القواعد فاستقرت القاعدة على مائة ألف دينار يحملها إلى السلطان ليعود عنه فحمل عشرين ألف دينارا أكثرها عروض ثم تنقلت الأحوال بالسلطان إلى أن احتاج إلى مداراة أتابك وأطلق له الباقى استمالة له وحفظا لقلبه وقعود السلطان عنه كان سببه حصانة بلاده وكثرة عساكره وأمواله ومن جيد الرأى مافعله الشهيد فى هذه الحادثة

Marfat.com

فإنه كان ولده الأكبر سيف الدين غازى لا يزال عند السلطان سفرا وحضرا بأمر والده فأرسل إليه ثانية وأرسل إليه نائبه بها نصير الدين جقر فيقول له ليمنعه عن الدخول إلى الموصل والوصول إليه فهرب غازى وبلغ الخبر ولده فأرسل إليه يأمره بالعودة إلى السلطان ولم يجتمع به وأرسل معه رسولا إلى السلطان يقول له إن ولدى هرب خوفا من السلطان لما رأى تغيره على وقد أعدته إلى الخدمة ولم أجتمع به فإنه مملوكك والبلاد لك فحل ذلك من السلطان محلا عظيما .

﴿ ذكر ملك أتابك بعض دياربكر ﴾ وفى هذه السنة سار أتابك زنكى إلى دياربكر ففتح منها عدة بلاد وحصون فمن ذلك مدينة طنزة ومن ذلك مدينة أسعرد ومدينة حيزان وحصن الدوق وحصن مطليس وحصن بانسبة وحصن ذى القرنين وغير ذلك مما لم يبلغ غيره هذه الأماكن وأخذ أيضا من بلد ماردين مما هو بيد الفرنج حملين والموزر وتل موزر وغيرها من حصون جوسلين ورتب أمور الجميع وخلى فيها من الأجناد من يحفظها وقصد مدينة آمد وحانى فحصرهما وأقام بتلك الناحية مصلحا لما فتحه ومحصرا لما لم يفتحه .

﴿ ذكر أمر العيارين ببغداد ﴾ وفى هذه السنة زاد أمر العيارين وكثر لأمنهم من الطلب بسبب ابن الوزير وابن قاورت أخى زوجة السلطان لأنهما كان لهما نصيب من الذى يأخذه العيارون وكان النائب فى شحنكية بغداد مملوكا اسمه أيلدكز وكان صارما مقداما ظالما فحمله الإقدام إلى أن حضر عند السلطان فقال له السلطان إن السياسة قاصرة والناس قد هلكوا قال ياسلطان العالم إذا كان عقيد العيارين ولد وزيرك وأخا امرتك ، فأى قدرة لى على المفسدين وشرح له الحال فقال له الساعة تخرج وتكبس عليهما أين كانا وتصلبهما فإن فعلت وإلا صلبتك فأخذ خاتمه وخرج فكبس على ابن الوزير فلم يجده فأخذ من كان عنده وكبس على ابن قاورت فأخذه وصلبه فأصبح الناس وهرب ابن الوزير وشاع الأمر ورؤى ابن قاورت مصلوبا فهرب أكثر العيارين وقبض على من أقام وكفى الناس شرهم .

﴿ ذكر حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه ﴾ قد ذكرنا سنة اثنتين وثلاثين مسير سنجر إلى إلى خوارزم وملكه لها وعود أتسز خوارزم شاه إليها وأخذها وما كان منه بخراسان بعد ذلك ، فلما كان فى هذه السنة سار السلطان سنجر إلى خوارزم شاه فجمع خوارزم شاه عساكره وتحصن بالمدينة ولم يخرج منها لقتال لعلمه أنه لا يقوى لسنجر وكان القتل يجرى بين الفريقين من وراء السور فاتفق فى يوم من بعض الأيام أن هجم أمير من أمراء سنجر اسمه سنقر على البلد من الجانب الغربى فلم يبق غير ملكه قهراً وعنوة وكان مثقال الناجى هجم من الشرق فانهزم مثقال عن البلد وبقى سنقر وحده فى البلد فقوى عليه خوارزم شاه أتسز فأخرجه من البلد وبقى سنجر وحده واشتد فى حفظه ، فلما رأى السلطان قوة البلد وامتناعه عزم على العود إلى مرو ولم يمكنه من غير قاعدة تستقر بينهما فاتفق أن خوارزم شاه أرسل رسلا يبذل المال والطاعة والخدمة ويعود إلى ما كان عليه من الانقياد فأجابه إلى ذلك واصطلحا وعاد سنجر إلى مرو وأقام خوارزم شاه بخوارزم .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة سير أتابك زنكى عسكرا إلى مدينة عانة من أعمال الفرات فملكوها . وفيها فى المحرم توفى أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك بن أحمد الأنباطى الحافظ ببغداد ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة . وفيها توفى أبو الفتوح محمد بن الفضل بن محمد الإسفرايينى الواعظ من أهل اسفراين من خراسان وأقام مدة ببغداد يعظ وسار إلى خراسان ، فلما مات حضر الغزنوى عزاءه ببغداد وبكى وأكثر فقال بعض

Marfat.com

أصحاب أبى الفتوح للغزنوى كلاما أغلظ له فيه فلما قام الغزنوى لامه بعض تلامذته على حضور العزاء وكثرة البكاء وقال له كنت مهاجرا لهذا الرجل ، فلما مات حضرت عزاءه وأكثرت البكاء وأظهرت الحزن قال كنت أبكى على نفسى كان يقال فلان وفلان ، فمن يعدم النظير أيقن بالرحيل وأنشد هذه الأبيات :

ذهب المبرد وانقضت أيامه ٭ وسينقضى بعد المبرد ثعلب
بيت من الآداب أصبح نصفه ٭ خربا وباق نصفه فسيخرب
فتزودوا من ثعلب فبمثل ما ٭ شرب المبرد عن قليل يشرب
أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه ٭ إن كانت الأنفاس مما يكتب

وفيها توفى الوزير شرف الدين على بن طراد الزينبى فى رمضان معزولا ودفن بداره بباب الأزج ثم نقل إلى الحربية . وفيها توفى أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى النحوى المفسر و (زمخشر) إحدى قرى خوارزم .

٭(ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وخمسمائة)٭

﴿ذكر فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية﴾ فى هذه السنة سادس جمادى الآخرة فتح أنابك عماد الدين زنكى بن آقسنقر مدينة الرها من الفرنج وفتح غيرها من حصونهم بالجزيرة أيضا وكان ضررهم قد عم بلاد الجزيرة وشرهم قد استطار فيها ووصلت غاراتهم إلى أدانيها وأقاصيها وبلغت آمد ونصيبين ورأس العين والرقة وكانت مملكتهم بهذه الديار من قريب ماردين إلى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وسن ابن عطية وحملين والموزر والفرادى وغير ذلك وكانت هذه الأعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين وكان صاحب رأى الفرنج والمقدم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر وكان أنابك يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذر عليه ملكها لما عمى عليه من الحصانة فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ إلى قصد بلادهم فلما رأوه أنه غير قادر على ترك الأرتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر حيث إنه محارب لهم اطمأنوا وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات إلى بلاد الغربية فجاءت عيون أنابك إليه فأخبروه الخبر فنادى فى العسكر بالرحيل وأن لا يتخلف عن الرها أحد من غد يومه وجمع الأمراء عنده وقال : قدموا الطعام ، وقال : لا يأكل معى على مائدتى هذه إلا من يطعن غدا معى بباب الرها فلم يتقدم إليه غير أمير واحد وصبى لا يعرف لما يعلمون من إقدامه وشجاعته ، وأن أحدا لا يقدر على مساواته فى الحرب ، فقال الأمير لذلك الصبى ما أنت فى هذا المقام ، فقال أنابك دعه فوالله إنى أرى وجها لا يتخلف عنى وسار والعساكر معه ووصل إلى الرها ، وكان هو أول من حمل على الفرنج وحمل ذلك الصبى وحمل فارس من خيالة الفرنج على أنابك عرضا فاعترضه ذلك الأمير فطعنه فقتله وسلم الشهيد ونازل البلد وقاتله ثمانية وعشرين يوما فزحف إليه عدة دفعات وقدم النقابين فنقبوا سور البلد ولج فى قتاله خوفا من اجتماع الفرنج والمسير إليه واستنقاذ البلد منه فسقطت البدنة التى نقبها النقابون وأخذ البلد عنوة وقهرا وحصر قلعته فملكها أيضا ونهب الناس الأموال وسبوا الذرية وقتلوا الرجال فلما رأى أنابك البلد أعجبه ورأى أن تخريب مثله لا يجوز فى السياسة فأمر فنودى فى العساكر برد ما أخذوه من الرجال والنساء والأطفال إلى بيوتهم وإعادة ما غنموه من أثاثهم وأمتعتهم فردوا الجميع عن آخره لم يفقد منه شىء إلا الشاذ النادر الذى أخذ وفارق من أخذه العسكر فعاد البلد على حاله الأول

Marfat.com

وجعل فيه عسكرا يحفظه وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التى كانت بيد الفرنج شرقى الفرات ما عدا البيرة فإنها حصينة منيعة وعلى شاطىء الفرات فسار إليها وحصرها ، وكانوا قد أكثروا ميرتها ورجالها فبقى على حصارها إلى أن رحل عنها ماذكره إن شاء الله تعالى .

﴿حكى﴾ أن بعض الحكماء بالأنساب والتواريخ قال كان صاحب جزيرة صقلية قدأرسل سرية فى البحر إلى طرابلس الغرب وتلك الأعمال فنهبوا وقتلوا وكان بصقلية إنسان من العلماء المسلمين وهو من أهل الصلاح وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان ، وكان أهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب ، ففى بعض الأيام كان جالسا فى منظرة تشرف على البحر وإذ قد أقبل مركب لطيف وأخبره من فيه أن عسكره دخل بلاد الإسلام وغنموا وقتلوا وظفروا وكان المسلم إلى جانبه وقد أغفى فقال له الملك ياغلان أما تسمع ما يقولون . قال : لا . قال : إنهم يخبرون بكذا وكذا أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها ؟ فقال له كان غاب عنهم وشهد فتح الرها ، وقد فتحها المسلمون الآن . فضحك منه من كان هناك من الفرنج فقال الملك لا تضحكوا فوالله ما يقول إلا الحق ، فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها ، وحكى لى جماعة من أهل الدين والصلاح أن إنسانا صالحا رأى الشهيد فى النوم فقال له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بفتح الرها .

﴿ذكر قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين على كوجك قلعة الموصل﴾ فى هذه السنة فى ذى القعدة قتل نصير الدين جقر نائب أتابك زنكى بالموصل والأعمال جميعها التى شرق الفرات وسبب قتله أن الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجى ولد السلطان محمود كان عند أتابك الشهيد . وكان يظهر للخلفاء والسلطان مسعود وأصحابه بالأطراف أن هذه البلاد لهذا الملك وأنا نائبه فيها . وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليخطب له بالسلطنة ويملك البلاد باسمه . وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة ونصير الدين يقصده كل يوم ليقوم بخدمة إن عرضت له فحسن له بعض المفسدين طلب الملك وقال له إن قتلت نصير الدين ملكت الموصل وغيرها من البلاد ولا يبقى مع أتابك زنكى فارس واحد فوقع هذا منه موقعا حسنا وظنه صدقا فلما دخل نصير الدين إليه وثب عليه من عنده من أجناد أتابك ومماليكه فقتلوه وألقوا برأسه إلى أصحابه ظنا منهم أن أصحابه يتفرقون ويخرج الملك ويملك البلد وكان الأمر خلاف ماظنوه فإن أصحابه وأصحاب أبيك الذين فى خدمته لما رأوا راسه قاتلوا من بالدار مع الملك واجتمع معهم الخلق الكثير ، وكانت دولة أتابك مملوءة بالرجال والأجناد ذوى الرأى والتجربة ، ثم دخل إليه القاضى تاج الدين يحيى بن الشهرزورى ولم يزل به يخدعه ، وكان فيما قال له لما رآه منزعجا يامولانا لم تحرد من هذا الكلب : هذا وأستاذه مماليك والحمد لله الذى أراحنا منه ومن صاحبه على يدك وما الذى يقعدك فى هذه الدار قم لتصعد القلعة وتأخذ الأموال والسلاح وتملك البلد وتجمع الجند وليس دون الموصل مانع فقام معه وأصعده القلعة فلما قاربها أراد من بها من النقيب والأجناد القتال فتقدم إليهم القاضى تاج الدين وقال لهم افتحوا الباب وتسلموه وافعلوا به ما اردتم ؛ ثم فتح الباب ودخل الملك والقاضى إليها ومعهما من أعان على قتل نصير الدين فسجنوا ونزل القاضى وبلغ الخبر أتابك زنكى وهو يحاصر قلعة البيرة وقدأشرف على ملكها فخاف أن تختلف البلاد الشرقية بعد قتل نصير الدين ففارق البيرة وأرسل زين الدين على بن بكتكين إلى قلعة الموصل واليا على ما كان نصير الدين يتولاه .

Marfat.com

(ذكر عدة حوادث) فى هذه السنة قبض السلطان مسعود على وزيره البروجردى ووزر بعده المرزبان ابن عبيد الله بن نصر الأصفهانى وسلم اليه البروجردى فاستخرج امواله ومات مقبوضا . وفيها كان أتابك عماد الدين زنكى يحاصر البيرة وهى للفرنج شرق الفرات بعد ملك الرها وهى من أمنع الحصون وضيق عليها وقارب أن يفتحها فجاءه خبر قتل نصير الدين نائبه بالموصل فرحل عنها وأرسل نائبا الموصل وأقام ينتظر الخبر فخاف من بالبيرة من الفرنج أن يعود إليهم وكانوا يخافونه خوفا شديدا فأرساوا إلى نجم الدين صاحب ماردين وسلموها له فملكها المسلمون . وفيها خرج أسطول الفرنج من صقلية إلى ساحل أفريقية والغرب ففتحوا مدينة برشك وقتلوا أهلها وسبوا حريمهم وباعوه بصقلية على المسلمين . وفيها توفى تاشفين بن على بن يوسف صاحب المغرب وكانت ولايته تزيد على أربع سنين . وولى بعده أخوه وضعف أمر الملثمين وقوى عبد المؤمن وقد ذكرنا ذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة . وفيها فى شوال ظهر كوكب عظيم له ذنب من جانب المشرق وبقى إلى نصف ذى القعدة ثم غاب . ثم طلع من جانب الغرب فقيل هو هو . وقيل بل غيره . وفيها كانت فتنة عظيمة بين الأمير هاشم بن فليتة بن القاسم العلوى الحسينى أمير مكة والأمير نظر الخادم أمير الحاج فنهب أصحاب هاشم الحجاج وهم فى المسجد يطوفون ويصلون ولم يرقبوا فيهم إلا ولا ذمة . وفيها فى ذى الحجة توفى عبدالله أحمد بن محمد بن عبدالله بن حمدويه أبو المعالى المروزى بمرو وسافر الكثير وسمع الحديث الكثير وبنى بمرو رباطا ووقف فيه كتبا كثيرة وكان كثير الصدقة والعبادة . وتوفى محمد بن عبدالملك بن حسن بن ابراهيم بن خيرون أبو منصور المقرى فى رجب ومولده فى رجب سنة أربع وخمسين وأربعمائة وهو آخر من روى عن الجوهرى بالإجازة . وفى ذى الحجة منها توفى أبو منصور سعيد بن محمد بن عمر المعروف بابن الرزاز مدرس النظامية ببغداد ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة وتفقه على الغزالى والشاشى ودفن فى تربة الشيخ أبى إسحاق .[1]

﴿ ثم دخلت سنة أربعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر اتفاق بوزابة وعباس على منازعة السلطان ﴾ فى هذه السنة سار بوزابة صاحب فارس وخوزستان وعساكره إلى قاشان ومعه الملك محمد بن السلطان محمود ووصل إليهما الملك سليمان شاه بن السلطان محمد واجتمع بوزابة والأمير عباس صاحب الرى واتفقا على الخروج عن طاعة السلطان مسعود وملكا كثيرا من بلاده ووصل الخبر إليه وهو ببغداد ومعه الأمير عبدالرحمن طغايرك وهو أمير حاجب حاكم فى الدولة وكان ميله إليهما فسار السلطان فى رمضان عن بغداد ونزل بها الأمير مهلهل ونظر وجماعة من غلمان بهروز وسار السلطان وعبدالرحمن معه فتقارب العسكران ولم يبق إلا المصاف فلحق سليمان شاه بأخيه مسعود وشرع عبدالرحمن فى تقرير الصلح على القاعدة التى أرادوها وأضيف إلى عبدالرحمن ولاية أذربيجان وأرانية إلى مايده وصار أبو الفتح بن دارست وزير السلطان مسعود وهو وزير بوزابة فصار السلطان معهم تحت الحجر وأرسلوا بك

(١) وفيها توفى عمر بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن على بن الحسين بن على بن حمزة بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، القرشى العلوى ، أبو البركات الكوفى ، ثم البغدادى ، سمع الكثير وكتب كثيراً وأقام بدمشق مدة ، وكان له معرفة جيدة بالفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب ، وله تصانيف فى النحو ، وكان خشن العيش ، صابراً محتسباً ، توفى فى شعبان من هذه السنة عن سبع وتسعين سنة رحمه الله تعالى .

Marfat.com

أرسلان بن بلنكرى المعروف بخاص بك وهو ملازم السلطان وتربيته وصار فى خدمته عبدالرحمن ليحقن دمه وصار الجماعة فى خدمة السلطان بالصورة لا بالمعنى والله أعلم .

﴿ذكر استيلاء على بن دبيس بن صدقة على الحلة﴾ فى هذه السنة سار على بن دبيس إلى الحلة هاربا فملكها وكان سبب ذلك أن السلطان لما أراد الرحيل من بغداد أشار عليه مهلهل أن يحبس على بن دبيس بقلعة تكريت فعلم ذلك فهرب فى جماعة يسيرة نحو خمسة عشر فمضى إلى الأزيز وجمع بنى أسد وغيرهم وسار إلى الحلة وبها أخوه محمد بن دبيس فقاتله فانهزم محمد وملك على الحلة واستهان السلطان أمره أولا فاستفحل وضم إليه جمعا من غلمانه وغلمان أبيه وأهل بيته وعساكرهم وكثر جمعهم فسار إليه مهلهل فيمن معه فى بغداد من العسكر وضربوا معه مصافا فكسرهم وعادوا منهزمين إلى بغداد وكان أهلها يتعصبون لعلى بن دبيس وكانوا يصيحون إذا رأوا مهلهلا وبعض أصحابه (ياعلى كله) وكثر ذلك منهم بحيث امتنع مهلهل من الركوب ومد على يده فى أقطاع الأمراء بالحلة وتصرف فيها وصار شحنه بغداد ومن فيها على وجل منه وجمع الخليفة جماعة وجعلهم على السور لحفظه وراسل عليا فأعاد بأننى العبد المطيع مهما رسم لى فعلت فسكن الناس ووصلت الأخبار بعد ذلك أن السلطان مسعودا تفرق خصومه عنه فازداد سكون الناس لذلك .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ حج بالناس هذه السنة قايماز الأرجوانى صاحب أمير الحاج نظر واحتج نظر بأن بركه نهب فى كسرة الحلة وأن بينه وبين أمير مكة من الحروب مالا يمكنه معه الحج . وفيها اتصل بالخليفة عن أخيه أبى طالب ما كرهه فضيق عليه واحتاط على غيره من أقاربه . وفيها ملك الفرنج لعنهم الله مدينة شنترين وماجة وماردة وأشبونة وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الأندلس وكانت المسلمين فاختلفوا فطمع العدو وأخذ هذه المدن وقوى بها قوة تمكن وتيقن ملك بلاد الإسلام بالأندلس فخيب الله ظنه وكان ماذكره . وفيها سار أسطول الفرنج من صقلية ففتحوا جزيرة قرقنة من أفريقية فقتلوا رجالها وسبوا حريمهم فأرسل الحسن صاحب أفريقية إلى رجال ملك صقلية يذكره بالعهود التى بينهم فاعتذر بأنهم غير مطيعين له . وفى هذه السنة توفى مجاهدالدين بهروز الغيائى وكان حاكما بالعراق نيفا وثلاثين سنة وبرتقش الزكوى صاحب أصفهان ، وكان أيضا شحنة بالعراق وهو خادم أرمنى لبعض التجار . وتوفى الأمير أيلدكر شحنة بغداد والشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن الخضر الجواليقى اللغوى ومولده فى ذى الحجة سنة خمس وستين وأربعمائة وأخذ اللغة عن أبى زكريا التبريزى وكان يؤم بالمقتفى أمير المؤمنين وتوفى أحمد بن محمد بن الحسن بن على بن أحمد بن سليمان أبوسعيد بن أبى الفضل الأصفهانى ومولده سنة ثلاث وستين وأربعمائة . وروى الحديث الكثير وكان على سيرة السلف كثير الاتباع للسنة رحمة الله عليه[1]

---

(١) وفيها توفى على بن أحمد بن الحسين بن أحمد ، أبو الحسن اليزدى ، تفقه بأبى بكر الشاشى ، وسمع الحديث وأسمعه ، وكان له ولأخيه قميص واحد ، إذا خرج هذا لبسه وجلس الآخر فى البيت عريانا ، وكذا الآخر . وفيها توفى موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر ، أبو منصور الجواليقى ، شيخ اللغة فى زمانه ، باشر مشيخة اللغة بالنظامية بعد شيخه أبى زكريا التبريزى ، وكان يؤم بالمقتفى ، وربما قرأ الخليفة علية شيئا من الكتب ، وكان عاقلا متواضعاً فى ملبسه ، طويل الصمت كثير الفكر ، وكانت له حلقة بجامع القصر أيام الجمع ، وكان فيه لكنة ، وكان يجلس إلى جانبه المغربى معبر المنامات ، وكان فاضلا لكنه كان كثير النعاس فى مجلسه ، فقال فيهما بعض الأدباء : =

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر ملك الفرنج طرابلس الغرب﴾ فى هذه السنة ملك الفرنج لعنهم الله طرابلس الغرب وسبب ذلك أن رجار ملك صقلية جهز أسطولا كثيرا وسيره إلى طرابلس فأحاطوا بها برا وبحرا ثالث المحرم فخرج إليهم أهلها وأنشبوا القتال فدامت الحرب بينهم ثلاثة أيام . فلما كان اليوم الثالث سمع الفرنج بالمدينة ضجة عظيمة وخلت الأسوار من المقاتلة . وسبب ذلك أن أهل طرابلس كانوا قبل وصول الفرنج بأيام يسيرة قداختلفوا فأخرج طائفة منهم بنى مطروح وقدموا عليهم رجلا من الملثمين قدم يريد الحج ومعه جماعة فولوه أمرهم فلما نازلهم الفرنج أعادت الطائفة الأخرى بنى مطروح فوقع الحرب بين الطائفتين وخلت الأسوار فانتهز الفرنج الفرصة ونصبوا السلالم وطلعوا على السور واشتدالقتال فملكت الفرنج المدينة عنوة وقهرا بالسيف فسفكوا دماء أهلها وسبوا نساءهم وأخذوا أموالهم وهرب من قدر على الهرب والتجأ إلى البربروالعرب فنودى بالأمان فى كافة الناس . فرجع كل من فر منها وأقام الفرنج ستة أشهر حتى حصنوا سورها وحفروا خنادقها ولما عادوا أخذوا رهائن أهلها ومعهم بنومطروح والملثم ثم أعادوا رهائنهم وولوا عليها رجلا من مطروح وأخذوا رهائنه وحده واستقامت أمور المدينة وألزم أهل صقلية والسفن والروم بالسفر إليها فانعمرت سريعا .

﴿ ذكر حصن زنكى حصن جعبر وفنك ﴾ وفى هذه السنة سار أتابك زنكى إلى حصن جعبر وهومطل على الفرات وكان بيد سالم بن مالك العقيلى سلمه السلطان ملكشاه إلى أبيه لما أخذ منه حلب وقد ذكرناه فحصره وسير جيشا إلى قلعة فنك وهى تجاور جزيرة ابن عمر بينهما فرسخان فحصرها أيضا وصاحبها حينئذ الأمير حسام الدين الكردى البشنوى وكان سبب ذلك أنه كان لايريد أن يكون فى وسط بلاده ما هو ملك غيره جزما واحتياطا فنازل قلعة جعبر وحصرها وقاتله من بها فلما طال عليه ذلك أرسل إلى صاحبها مع الأمير حسان المنجى لمودة كانت بينهما فى معنى تسليمهما وقال له تضمن عنى الأقطاع الكثير والمال الجزيل فإن أجاب إلى التسليم وإلافقل له والله لأقيمن عليك إلى أن أملكها عنوة ثم لاأبقى عليك ومن الذى يمنعك منى فصعد إليه حسان وأدى إليه الرسالة ووعده وبذل له ماقيل له فامتنع من التسليم فقال له حسان فهو يقول لك من يمنعك من قتالى ومن يمنعك منى فقال يمنعنى منه الذى منعك من الأمير بلك فعاد حسان وأخبر الشهيد بامتناعه ولم يذكر له هذا فقتل أتابك بعد أيام وكانت قصة حسان مع بلك ابن أخى أيلغازى أن حسانا كان صاحب منبج فحصره بلك وضيق عليه فبينما هو كذلك فى بعض الأيام يقاتله جاءه سهم لايعرف من رماه فقتله وخلص حسان من الحصر وقد تقدم ذكره وكان هذا القول من الاتفاق الحسن ولما قتل أتابك زنكى رحل العسكر الذين كانوا يحاصرون قلعة فنك عنها وهى بيد عقاب صاحبها إلى الآن وسمعتهم يذكرون أنهم لهم بها نحو ثلثمائة سنة ولهم مقصد حسن وفيهم وفاء وعصبية يأخذون بيد كل من يلتجىء إليهم ويقصدهم ولايسلمونه إلى طالبه كائنا من كان قريبا أم غريبا .

= بغداد عندي ذنبها لن يغفرا * عيوبها مكشوفة لن تسترا
كون الجوالبقى فيها عليا * لغة وكون المغربى معبرا
ماسورللكنته يقول فصاحة * ويوم يقظته يعبر فى الكرا

﴿ ذكر قتل أتابك عماد الدين زنكى وشىء من سيرته ﴾ فى هذه السنة لخمس مضين من ربيع الآخر قتل أتابك الشهيد عماد الدين زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل والشام وهو يحاصر قلعة جعبر على ما ذكرناه قتله جماعة من مماليكه ليلا غيلة وهربوا إلى قلعة جعبر فصاحوا على من بها من أهلها من العسكر يعلمونهم بقتله وأظهروا الفرح فدخل أصحابه إليه فأدركوه وبه رمق (حدثنى والدى) عن بعض خواصه قال دخلت إليه فى الحال وهو حى فحين رآنى ظن أنى أريد قتله فأشار إلىّ بأصبعه السبابة يستعطفنى فوقعت من هيبته فقلت يامولاى من فعل هذا فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه رحمه الله . قال وكان حسن الصورة أسمر اللون مليح العينين قد وخطه الشيب وكان قد زاد عمره على ستين سنة لأنه كان لما قتل والده صغيرا كما ذكرناه قبل ولما قتل دفن بالرقة وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته عظيم السياسة لا يقدر القوى على ظلم الضعيف وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلأت أهلا وسكانا (حكى لى والدى) قال رأيت الموصل وأكثرها خراب بحيث يقف الإنسان قريب محلة الطيالين ويرى الجامع العتيق والعرصة ودار السلطان ليس بين ذلك عمارة قط وكان الإنسان لا يقدر على المشى إلى الجامع العتيق إلا ومعه من يحميه لبعده عن العمارة وهو الآن فى وسط العمارة وليس فى هذه البقاع المذكورة كلها أرض مراح قال وحدثنى أيضا أنه وصل إلى الجزيرة فى الشتاء فدخل الأمير عز الدين الدبيسى وهو من أكابر أمرائه ومن جملة أقطاعه مدينة دقوقا ونزل فى دار إنسان يهودى فاستغاث اليهودى إلى أتابك وأنهى حاله إليه فنظر إلى الدبيسى فتأخر ودخل البلد وأخرج بركه وخيامه قال فلقد رأيت غلمانه ينصبون خيامه فى الوحل وقد جعلوا على الأرض تبنا يقيهم الطين وخرج فنزلها وكانت رياسته إلى هذا الحد وكانت الموصل من أقل بلاد الله فاكهة فصارت فى أيامه وما بعدها من أكثر البلاد فواكه ورياحين وغير ذلك وكان أيضا شديد الغيرة ولاسيما على نساء الأجناد وكان يقول إن لم تحفظ نساء الأجناد وإلا فسدن لكثرة غيبة أزواجهن فى الأسفار وكان أشجع خلق الله أما قبل أن يملك فيكفيه أنه حضر مع الأمير مودود صاحب الموصل مدينة طبرية وهى للفرنج فوصلت طعنته باب البلد وأثرت فيه وحمل أيضا على قلعة عقر الحمدية وهى على جبل عال فوصلت طعنته إلى سورها إلى أشياء . وأما بعد الملك فقد كان الأعداء محدقين ببلاده وكلهم يقصدها ويريدون أخذها وهو لا يمتنع بحفظها حتى أنه لا ينقضى عليه عام حتى يفتح من بلادهم فقد كان الخليفة المسترشد بالله مجاوره فى ناحية تكريت وقصد الموصل وحصرها ، ثم إلى جانبه من ناحية شهرزور وتلك الناحية السلطان مسعود ، ثم ابن سقمان صاحب خلاط ثم داود ابن سقمان صاحب حصن كيفا ثم صاحب آمد وماردين ثم الفرنج من مجاورة ماردين إلى دمشق ثم أصحاب دمشق فهذه الولايات قد اختاطت بولايته من كل جهاتها فهو يقصد هذا مرة وهذا مرة ، ويأخذ من هذا ويصانع هذا إلى أن ملك من كل من يليه طرفا من بلاده وقد أتينا على أخباره فى كتاب الباهر فى تاريخ دولته ودولة أولاده فليطلب من هناك .

﴿ ذكر ملك ولديه سيف الدين غازى ونور الدين محمود ﴾ لما قتل أتابك زنكى أخذ نور الدين محمود ولده خاتمه من يده وكان حاضرا معه وسار إلى حلب فملكها وكان حينئذ يتولى ديوان زنكى ويحكم فى دولته من أصحاب العمائم جمال الدين محمد بن على وهو المنفرد بالحكم ومعه أمير حاجب صلاح الدين محمد الباغيسيانى فاتفقا على حفظ الدولة وكان مع الشهيد أتابك الملك ألب أرسلان ابن السلطان محمود فركب ذلك اليوم وأجمعت

Marfat.com

Marfat.com

العساكر عليه وحضر عنده جمال الدين وصلاح الدين وحسنا له الاشتغال بالشرب والمغنيات والجوارى وأدخلاه الرقة فبقى بها أياما لا يظهر ثم سار إلى ماكسين فدخلها وأقام بها أياما وجمال الدين يحلف الأمراء لسيف الدين غازى بن أتابك زنكى ويسيرهم إلى الموصل ثم سار من ماكسين إلى سنجار وكان سيف الدين قد وصل إلى الموصل فلما وصلوا إلى سنجار أرسل جمال الدين إلى الدزدار يقول له ليرسل إلى ولد السلطان يقول له أنى مملوكك ولكن نبغى الموصل فإن ملكتها سلمت إليك سنجار فسار إلى الموصل فأخذه جمال الدين وقصد به مدينة بلد وقد بقى معه من العسكر القليل فأشار عليه بعبور دجلة فعبرها إلى الشرق فى نفر يسير وكان سيف الدين غازى بمدينة شهرزور وهى أقطاعه فأرسل إليه زين الدين على نائب أبيه بالموصل يستدعيه إلى الموصل فحضر قبل وصول الملك فلما علم جمال الدين بوصول سيف الدين إلى الموصل أرسل إليه يعرفه قلة من معه فأرسل إليه بعض عسكره فقبضه وحبس فى قلعة الموصل واستقر ملك سيف الدين البلاد وبقى أخوه نور الدين بحلب وهى له وسار إليه صلاح الدين الباغيسيانى مدبر أمره والقائم بدولته وحفظها وقداستقصينا شرح هذه الحادثة فى التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية .

﴿ذكر عصيان الرها لما قتل أتابك﴾ كان جوسلين الفرنجى الذى كان صاحب الرها فى ولايته وهى تل باشر ومايجاورها فراسل أهل الرها وعامتهم من الأرمن وحملهم على العصيان والامتناع من المسلمين وتسليم البلد إليه فأجابوه إلى ذلك وواعدهم يومايصل إليهم فيه وسار فى عساكره إلى الرها وملك البلد وامتنعت القلعة عليه بمن فيها من المسلمين فقاتلهم فبلغ الخبر إلى نورالدين محمود بن زنكى وهو بحلب فسار مجدا إليها فى عسكره فلما قاربها أخرج جوسلين هاربا عائدا إلى بلده ودخل نور الدين المدينة ونهبها حينئذ وسبى أهلها وفى هذه الدفعة نهبت وخلت من أهلها ولم يبق بها منهم إلا القليل وكثير من الناس يظن أنها نهبت لما فتحها الشهيد وليس كذلك وبلغ الخبر إلى سيف الدين غازى بعصيان الرها فسير العساكر إليها فسبقه الملك نور الدين إلى البلد واستباحه وهم فى الطريق فعادوا . ومن أعجب ما يحكى أن زين الدين عليا الذى كان نائب الشهيد وأولاده بقلعة الموصل جاءه هدية أرسلها إليه نور الدين من هذا الفتح وفى الجملة جارية فلما دخل إليها وخرج من عندها وقد اغتسل وقال لمن عنده تعلمون ما جرى لى فى يومنا هذا قالوا لا قال لما فتحنا الرها مع الشهيد وقع فى يدى من السبى جارية رائعة أعجبنى حسنها ومال قلبى إليها فلم يكن بأسرع من أن أمر الشهيد فنودى برد السبى والمال المنهوب وكان مهيبا مخوفا فرددتها وقلبى متعلق بها فلما كان الآن جاءتنى هدية نور الدين وفيها عدة جوار فيها تلك الجارية فوطئتها خوفا أن تقع مثل تلك الردة .

﴿ذكر استيلاء عبدالمؤمن على جزيرة الأندلس﴾ فى هذه السنة سير عبدالمؤمن بن على جيشا إلى جزيرة الأندلس فملكوا مافيها من بلاد الإسلام وسبب ذلك أن عبدالمؤمن لما كان يحاصر مراكش جاء إليه جماعة من أعيان الأندلس منهم أبوجعفر أحمد بن محمد بن حمدين ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التى هم فيها لعبد المؤمن ودخولهم فى زمرة أصحابه الموحدين وإقامتهم لأمره فقبل عبدالمؤمن ذلك منهم وشكرهم عليه وطيب قلوبهم وطلب منهم النصرة وطلبوا منه النصرة على الفرنج فجهز جيشا كثيفا وسيرمعهم وعمر أسطولا وسيره فى البحر فسار الأسطول إلى الأندلس وقصدوا مدينة أشبيلية وصعدوا فى نهرها وبها جيش من المشمين فحصروها برا وبحرا وملكوها عنوة وقتل فيها جماعة وأمن الناس فسكنوا واستولت العساكر على البلاد

وكان لعبد المؤمن من بها .

﴿ ذكر قتل عبدالرحمن طغايرك وعباس صاحب الرى ﴾ فى هذه السنة قتل السلطان مسعود أمير حاجب دولته عبدالرحمن طغايرك وهو صاحب خلخال وبعض أذربيجان والحاكم فى دولة السلطان وليس للسلطان معه حكم وكان سبب قتله أن السلطان لما ضيق عليه عبدالرحمن وبقى معه شبه الأسير ليس له فى البلاد حكم حتى أن عبدالرحمن قصد غلاما كان للسلطان وهو بك أرسلان المعروف بابن خاص بك بن بلنكرى وقد رباه السلطان وقربه فأبعده عنه وصار لايراه وكان فى خاص بك عقل وتدبير وجودة قريحة وتوصل لما يزنه بعقله فجمع عبدالرحمن العساكر وخاص بك فيهم وقد استقر بينه وبين السلطان مسعود أن يقتل عبدالرحمن فاستدعى خاص بك جماعة ممن يثق بهم وتحدث معهم فى ذلك فكل منهم خاف الإقدام عليه إلا رجلا اسمه زنكى وكان جاندارا فإنه بذل من نفسه أن يبدأه بالقتل ووافق خاص بك على القيام فى الأمر جماعة من الأمراء فبينما عبدالرحمن فى موكبه ضربه زنكى الجاندار بمقرعة حديد كانت فى يده على رأسه فسقط إلى الأرض فأجهز عليه خاص بك وأعانه على حماية زنكى والقائمين معه من كان واطأه على ذلك من الأمراء وكان قتله بظاهر جنزة وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود وهو ببغداد ومعه الأمير عباس صاحب الرى وعسكره أكثر من عسكر السلطان فأنكر ذلك وامتعض منه فداراه السلطان ولطف به واستدعى الأمير البقش كون خروتتر وهو أمير اللحف وتتر الذى كان حاجبا فلما قوى بهما أحضر عباسا إليه فى داره ، فلما دخل إليه منع أصحابه من الدخول معه وعدلوا به إلى حجرة وقالوا له اخلع الزردية فقال إن لى مع السلطان أيمانا وعهودا فلكموه وخرج له غلمان أعدوا لذلك فحينئذ تشهد وخلع الزردية وألقاها وضربوه بالسيوف واحتزوا رأسه وألقوه إلى أصحابه ثم ألقوا جسده ونهب رحله وانزعج البلد لذلك وكان عباس من غلمان السلطان محمود حسن السيرة عادلا فى رعيته كثير الجهاد للباطنية قتل منهم خلقا كثيرا وبنى رؤوسهم منارة بالرى وحصر قلعة الموت ودخل إلى قرية من قراهم فألقى فيها النار فأحرق كل من فيها من رجل وامرأة وصبى وغير ذلك وقتل بالجانب الغربى فأرسلت أبنته فحملته إلى الرى فدفنته هناك وكان مقتله فى ذى القعدة ومن الاتفاق العجيب أن العبادى كان يعظ يوما فحضره عباس فاسمع بعض أهل المجلس ورمى بنفسه نحو الأمير عباس فضربه أصحابه ومنعوه خوفا عليه لأنه كان شديد الاحتراس من الباطنية لايزال لابسا الزردية . لاتفارقه الغلمان الأجلاد ، فقال له العبادى كم هذا الاحتراز والله لئن قضى عليك بأمر لتحلن أنت بيدك أزرار الزردية فينفذ القضاء فيك وكان والله كما قال وقد كان السلطان استوزر ابن دارست وزير بوزابة كارها على ماتقدم ذكره فعزله الآن لأنه اختار العزل والعود إلى صاحبه بوزابة فلما عزله قرر معه أن يصلح له بوزابة ويزيل ماعنده من الاشمئزاز بسبب قتل عبدالرحمن وعباس فسار الوزير وهو لايعتقد النجاة فوصل إلى بوزابة وكان ماتذكره .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة حبس السلطان مسعود أخاه سليمان شاه بقلعة تكريت ؛ وفيها توفى لأمير جاولى الطغرلى صاحب أرانية وبعض أذربيجان وكان قد تحرك للعصيان وكان موته فجأة مدقوسا فنزف دما فمات . وتوفى شيخ الشيوخ صدر الدين اسماعيل بن أبى سعيد الصوفى . مات ببغداد ودفن بظاهر رباط الدورى بباب البصرة ومولده سنة أربع وستين وأربعمائة . وقام فى منصبه ولده عبدالرحيم . وفيها توفى

Marfat.com

Marfat.com

مسعود بن بلال شحنة بغداد وسار السلطان عنها . وفيها كان بالعراق جراد كثير أمحل أكثر البلاد . وفيها ورد العبادى الواعظ رسولا من السلطان سنجر إلى الخليفة ووعظ ببغداد وكان له قبول بها وحضر مجلسه السلطان مسعود فمن دونه . وأما العامة فإنهم كانوا يتركون أشغالهم لحضورهم مجلسه والمسابقة إليه . وفيها بعد قتل الشهيد زنكى بن آقسنقر قصد صاحب دمشق حصن بعلبك وحصره وكان به نجم الدين أيوب بن شاذى فخاف أن أولاد زنكى لا يمكنهم انجاده بالعاجل فصالحه وسلم القلعة إليه وأخذ منه أقطاعا ومالا وملكه عشر قرى من بلاد دمشق وانتقل أيوب إلى دمشق فسكنها وأقام بها . وفى هذه السنة فى ربيع الآخر توفى عبدالله ابن على بن أحمد المقرى بن بنت الشيخ أبى منصور ومولده فى شعبان سنة أربع وستين وأربعمائة وكان مقرئا نحويا محدثا وله تصانيف فى القراآت (١)

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر قتل بوزابة﴾ لما اتصل بالأمير بوزابة قتل عباس جمع عساكره من فارس وخوزستان وسار إلى أصفهان فحصرها وسير عسكرا آخر إلى همذان وعسكرا ثالثا إلى قلعة الماهكى من بلد اللحف فأما عسكره بالماهكى فإنه سار إليهم الأمير البقش كون خر فدفعهم عن أعماله وكانت أقطاعه ثم إن بوزابة سار عن اصفهان يطلب السلطان مسعودا فراسله السلطان فى الصلح فلم يجب إليه وسار مجدا فالتقيا بمرج قراتكين وتصافا فاقتتل العسكران فانهزم منه السلطان مسعود وميسرته واقتتل القلبان أشد قتال وأعظمه صبر فيه الفريقان وصار الحرب بينهما فسقط بوزابة عن فرسه بسهم أصابه وقيل بل عثر به الفرس فأخذ أسيرا وحمل إلى السلطان فقتل بين يديه وانهزم أصحابه لما أخذ هو أسيرا وبلغت هزيمة العسكر السلطانى من الميمنة والميسرة إلى همذان وخراسان وقتل من الفريقين خلق كثير وكان هذا الحرب من أعظم الحروب الكائنة بين الأعاجم .

﴿ذكر طاعة أهل قابس للفرنج وغلبة المسلمين عليها﴾ كان صاحب مدينة قابس قبل هذه السنة إنسانا اسمه رشيد فتوفى وخلف أولادا فعمد مولى له اسمه يوسف إلى ولده الصغير واسمه محمد فولاه الأمر وأخرج ولده الكبير معمرا واستولى يوسف على البلد وحكم على محمد لصغر سنه وجرى منه أشياء من التعرض إلى حرم سيده والعهدة على ناقله . وكان من جملتهن امرأة من بنى قرة فأرسلت إلى أختها تشكو اليهم ما هى فيه فجاء أختها لأخذها فمنعها منهم وقار هذه حرمة مولاى ولم يسلمها فسار بنو قرة ومعمر بن رشيد إلى الحسن صاحب أفريقية وشكوا اليه مايفعل يوسف فكاتبه الحسن فى ذلك فلم يجبه وقال لئن لم يكف الحسن عنى وإلا سلمت قابس إلى صاحب صقليه فجهز الحسن العسكر اليه فلما سمع يوسف بذلك أرسل إلى رجار الفرنجى صاحب صقلية وبذل له الطاعة وقال له أريد منك خلعة وعهدا بولاية قابس لأكون نائبا عنك كما فعلت مع مطروح أصحاب طرابلس فسير اليه رجار الخلعة والعهد فلبسها وقرئ العهد بمجمع الناس فجد حينئذ الحسن

---

(١) وفيها توفى شافع بن عبدالرشيد بن القاسم ، أبو عبدالله الجيلى الشافعى ، تفقه على الكيا وعلى الغزالى ، وكان يسكن الكرخ ، وله حلقة بجامع المنصور فى الرواق . قال ابن الجوزى وكنت أحضر حلقته . وفيها توفى وجيه ابن طاهر بن محمد بن محمد ، أبوبكر الشحامى ، أخو زاهر ، وقد سمع الكثير من الحديث ، وكانت له معرفة به ، وكان شيخا حسن الوجه ، سريع الدمعة ، كثير الذكر ، جمع السماع إلى العمل إلى صدق اللهجة توفى ببغداد فى هذه السنة .

Marfat.com

فى تجهيز العسكر إلى قابس فساروا اليها ونازلوها وحصروها فثار أهل البلد بيوسف لما اعتمده من طاعة الفرنج وسلموا البلد إلى عسكر الحسن وتحصن يوسف فى القصر فقاتلوه حتى فتحوه وأخذ يوسف أسيرا فتولى عذابه معمر بن رشيد وبنوقرة فقطعوا ذكره وجعلوه فى فيه وعذب بأنواع العذاب وولى معمر قابس مكان أخيه وأخذ بنوقرة أختهم وهرب عيسى أخو يوسف وولد يوسف وقصدوا رجار صاحب صقلية فاستجاروا به وشكوا اليه مالقوا من الحسن فغضب لذلك وكان ماذكره سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من فتح المهدية إن شاء الله تعالى . وهذا الذى كان من يوسف والله أعلم .

﴿ ذكر حادثة ينبغى أن يحتاط العاقل من مثلها ﴾ كان هذا يوسف صاحب قابس قد أرسل رسولا إلى رجار صاحب صقلية فاجتمع هووالحسين رسول صاحب المهدية عنده فجرى بين الرسولين مناظرة فذكر رسول يوسف الحسن ونال منه وذمه ثم أنهما عادا فى وقت واحد وركبا البحر كل واحد منهما فى مركبه فأرسل رسول الحسن رقعة على جناح طائر يخبره بما كان من رسول يوسف فسير الحسن جماعة من أصحابه فى البحر فأخذوا رسول يوسف وأحضروه عندالحسن فسبه وقال ملكت الفرنج بلاد الإسلام وطولت لسانك بذمى ثم أركبه جملا وعلى رأسه جلاجل وطيف به فى البلد ونودى عليه هذا جزاء من سعى أن يملك الفرنج بلاد المسلمين فلما توسط المهدية ثار به العامة فقتلوه بالحجارة .

﴿ ذكر ملك الفرنج المرية وغيرها من الأندلس ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الأولى حصر الفرنج مدينة المرية من الأندلس وضيقوا عليها برا وبحرا فملكوها عنوة وأكثروا القتل بها والنهب وملكوا أيضا مدينة شاسة وولاية جيان وكلها بالأندلس ثم استعادها المسلمون بعد ذلك منهم على ماذكرد إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكى عدة مواضع من بلد الفرنج ﴾ فى هذه السنة دخل نور الدين محمود ابن زنكى صاحب حلب بلد الفرنج ففتح منه مدينة ارتاح بالسيف ونهبها وحصر مابولة وبصرفوت وكفرلاثا وكان الفرنج بعد قتل والده زنكى قد طمعوا وظنوا أنهم بعده يستردون ما أخذه فلما رأوا من نور الدين هذا الجد فى أول أمره علموا أن ما أملوه بعيد وخاب ظنهم وأملهم .

﴿ ذكر أخذ الحلة من على بن دبيس وعوده إليها ﴾ فى هذه السنه كثر فساد أصحاب على بن دبيس بالحلة وماجاورها وكثرت الشكاوى منه فأقطع السلطان مسعود الحلة سلاركرد فسار إليها من همذان ومعه عسكر وانضاف إليه جماعة من عسكر بغداد وقصدوا الحلة فجمع على عسكره وحشد والتقى العسكران بمطير باذ فانهزم على وملك سلاركرد الحلة واحتاط على أهل على ورجعت العساكر وأقام هو بالحلة وماليكه وأصحابه وسار على بن دبيس فلحق بالبقش كون خر وكان بأقطاعه فى اللحف متجنيا على السلطان فاستنجده فسار معه إلى واسط واتفق هو والطرنطاوى وقصدوا الحلة فاستنقذوها من سلاركرد فى ذى الحجة وفارقها سلاركرد وعاد إلى بغداد .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الأولى خطب للمستنجد بالله يوسف ابن المقتفى لأمر الله بولاية العهد . وفيها ولى عون الدين يحيى بن هبيرة كتابة ديوان الزمام ببغداد وولى زعيم الدين يحيى بن جعفر المخزن . وفيها فى ربيع الأول مات أبو القاسم طاهر بن سعيد بن أبى سعيد بن أبى الخير الميهنى شيخ رباط البسطامى ببغداد وفى ربيع الآخر توفيت فاطمة خاتون بنت السلطان محمد زوجة المقتفى لأمر الله وفى رجب منها مات أبو الحسن محمد بن المظفر بن على بن المسلمة ابن رئيس الرؤساء ومولده سنة أربع وثمانين وكان

قد تصوف وجعل داره التى فى القصر رباطا للصوفية . وفيها سار سيف الدين غازى بن زنكى إلى قلعة دارا فملكها وغيرها من بلد ماردين ثم سار إلى ماردين وحصرها وخرب بلدها ونهبه وكان سبب ذلك أن أنابك زنكى لما قتل تطاول صاحب ماردين وصاحب الحصن إلى ما كان قد فتحه من بلادهما فأخذاه فلما ملك سيف الدين وتمكن سار إلى ماردين وحصرها وفعل ببلدها الأفاعيل العظيمة فلما رأى صاحبها وهو حينئذ حسام الدين تمرتاش مايفعل فى بلده قال كنا نشكو من أتابك الشهيد وأين أيامه لقد كانت أعيادا قد حصرنا غير مرة فلم يأخذ هو ولا أحد من عسكره مخلاة تبن بغير ثمن ولا تعدى هو وعسكره حاصل السلطان وأرى هذا ينهب البلاد ويخربها ثم راسله وصالحه وزوجه ابنة ورحل سيف الدين عنه وعاد إلى الموصل وجهزت ابنة حسام الدين وسيرت إليه فوصلت وهو مريض قد أشفى على الموت فلم يدخل بها وبقيت عنده إلى أن توفى وملك قطب الدين مودود فتزوجها على ماذكره إن شاء الله تعالى . وفيها اشتد الغلاء بأفريقية ودامت أيامه فإن أوله كان سنة سبع وثلاثين وخمسمائة وعظم الأمر على أهل البلاد حتى أكل بعضهم بعضا وقصد أهل البوادى المدن من الجوع فأغلقها أهلها دونهم وتبعه وباء وموت كثير حتى خلت البلاد وكان أهل البيت لايبقى منهم أحد وسار كثير منهم إلى صقلية فى طلب القوت ولقوا أمرا عظيما .(١)

✡(ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة)✡

﴿ ذكر ملك الفرنج مدينة المهدية بأفريقية ﴾ قد ذكرنا سنة إحدى وأربعين وخمسمائة مسير أهل يوسف صاحب قابس إلى رجار ملك صقلية واستغاثتهم به فغضب لذلك وكان بينه وبين الحسن بن على بن يحيى بن تميم ابن المعز بن باديس الصنهاجى صاحب أفريقية صلح وعهود إلى مدة سنتين وعلم أنه فانه فتح البلاد فى هذه الشدة التى أصابتهم وكانت الشدة دوام الغلاء فى جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة وكان أشد ذلك منه سنة اثنتين وأربعين . فإن الناس فارقوا البلاد والقرى ، ودخل أكثرهم إلى مدينة صقلية وأكل الناس بعضهم بعضا وكثر الموت فى الناس فاغتنم رجار هذه السنة فعمر الأسطول وأكثر منه فبلغ نحو مائتين وخمسين شينيا مملوأة رجالا وسلاحا وقوتا وسار الأسطول عن صقلية ووصل إلى جزيرة قوصرة وهى مابين المهدية وصقلية فصدفوا بها مركبا ووصل من المهدية فأخذ أهله وأحضروا بين يدى

---

(١) وفيها توفى أسعد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن عبد الصمد بن المهتدى بالله ، أبو منصور ، سمع الحديث الكثير ، وكان خيرا صالحا ممتعا بحواسه وقواه ، إلى حين الوفاة . وقد جاوز المائه بنحو من سبع سنين وفيها توفى أبو محمد عبدالله بن محمد بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمى الأندلسى ، الرباطى الحافظ ، مصنف كتاب (اقتباس الأنوار والتماس الأزهار ، فى أنساب الصحابة ورواة الآثار) وهو من أحسن التصانيف الكبار ، قتل شهيدا صبيحة يوم الجمعة العشرين من جمادى بالبرية . وفيها توفى نصر الله بن محمد ابن عبد القوى ، أبو الفتح اللاذقى المصيصى الشافعى ، تفقه بالشيخ نصر بن إبراهيم المقدسى ، بصور ، وسمع بها منه ومن أبى بكر الخطيب ، وسمع ببغداد والأنبار ، وكان أحد مشايخ الشام ، فقيها فى الأصول والفروع ، توفى فيها وقد جاوز التسعين بأربع سنين . وفيها توفى هبة الله بن على بن محمد بن حمزة أبو السعادات ابن الشجرى النحوى ، ولد سنة خمسين وأربعمائة ، وسمع الحديث وانتهت إليه رياسة النحاة . قال سمعت بيتا فى الذم أبلغ من قول مكوبه :

وما أنا إلا المسك قد ضاع عندكم ● يضيع وعند الأكثرين يضوع

Marfat.com

Marfat.com

جرجى مقدم الأسطول فسألهم عن حال أفريقية ووجد فى المركب قفص حمام فسألهم هل أرسلوا منها فحلفوا بالله أنهم لم يرسلوا شيئا فأمر الرجل الذى كان الحمام صحبته أن يكتب بخطه إننا لما وصلنا جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية فسألناهم عن الأسطول المخذول فذكروا أنه أقلع إلى جزائر القسطنطينية وأطلق الحمام فوصل إلى المهدية فسر الأمير الحسن والناس وأراد جرجى بذلك أن يصل بغتة ثم سار وقدر وصولهم إلى المهدية وقت السحر ليحيط بها قبل أن يخرج أهلها فلو تم له ذلك لم يسلم منهم أحد فقدر الله تعالى أن أرسل عليهم ريحا هائلا فلم يقدروا على السير إلا بالمقاذيف فطلع النهار ثانى صفر فى هذه السنة قبل وصولهم فرآهم الناس فلما رأى جرجى ذلك وأن الخديعة فاتته أرسل إلى الأمير الحسن يقول إنما جئت بهذا الأسطول طالبا بثار محمد بن رشيد صاحب قابس ورده إليها وأما أنت فبيننا وبينك عهود وميثاق إلى مدة ونريد منك عسكرا يكون معنا فجمع الحسن الناس من الفقهاء والأعيان وشاورهم فقالوا نقاتل عدونا فإن بلدنا حصين فقال أخاف أن ينزل إلى البر ويحصرنا برا وبحرا ويحول بيننا وبين الميرة وليس عندنا مايقوتنا شهرا فتؤخذ قهرا وأنا أرى سلامة المسلمين من الأسر والقتل خيرا من الملك وقد طلب منى عسكرا إلى قابس فإن فعلت فما يحل لى معونة الكفار على المسلمين وإن امتنعت يقول انتقض ما بيننا من الصلح وليس يريد إلا أن يثبطنا حتى يحول بيننا وبين البر وليس لنا بقتاله طاقة والرأى أن نخرج بالأهل والولد وننزل عن البلد فمن أراد أن يفعل كفعلنا فليبادر معنا وأمر فى الحال بالرحيل وأخذ معه من حضره وماخف حمله وخرج الناس على وجوههم بأهليهم وأولادهم وما خف من أموالهم وأثاثهم ومن الناس من اختفى عند النصارى وفى الكنائس وبقى الأسطول فى البحر تمنعه الريح من الوصول إلى المهدية إلى ثلثى النهار فلم يبق فى البلد ممن عزم على الخروج أحد فوصل الفرنج ودخلوا البلد بغير مانع ولا دافع ودخل جرجى القصر فوجده على حاله لم يأخذ الحسن منه إلا ماخف من ذخائر الملوك وفيه جماعة من حظاياه ورأى الخزائن مملوأة من الذخائر النفيسة وكل شىء غريب يقل وجود مثله فختم عليه وجمع سرارى الحسن من قصره وكان عدة من ملك منهم من زيرى بن مناد إلى الحسن تسعة ملوك ومدة ولايتهم مائة سنة وثمانين سنة من إحدى وستين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وكان بعض الفواد قد أرسله الحسن إلى رجار برسالة فأخذ لنفسه وأهله منه أمانا فلم يخرج معهم ولما ملك المدينة نهبت مقدار ساعتين ونودى بالأمان خرج من كان مستخفيا وأصبح جرجى من الغد فأرسل إلى من قرب من العرب فدخلوا إليه فأحسن إليهم وأعطاهم أموالا جزيلة وأرسل من جند المهدية الذين تخلفوا بها جماعة ومعهم أمان لأهل المهدية الذين خرجوا منها ودواب يحملون عليها الأطفال والنساء وكانوا قد أشرفوا على الهلاك من الجوع ولهم بالمهدية خبايا وودائع فلما وصل إليهم الأمان رجعوا فلم يمض غير جمعة حتى رجع أكثر أهل البلد وأما الحسن فإنه سار بأهله وأولاده وكانوا اثنى عشر ولدا ذكرا غير الإناث وخواص خدمه قاصدا إلى محرز بن زياد وهو بالمعلقة فلقيه فى طريقه أمير من العرب يسمى حسن بن ثعلب فطلب منه مالا انكسر له فى ديوانه فلم يمكن الحسن إخراج مال لئلا يؤخذ فسلم إليه ولده يحيى رهينة وسار فوصل فى اليوم الثانى إلى محرز وكان الحسن قد فضله على جميع العرب وأحسن إليه ووصله بكثير من المال فلقيه محرز لقاء جميلا وتوجع لما حل به فأقام عنده شهورا والحسن كاره للإقامة فأراد المسير إلى ديار مصر إلى الخليفة الحافظ العلوى واشترى مركبا لسفره فسمع جرجى الفرنجى فجهز شوانى ليأخذه فعاد الحسن عن ذلك وعزم على المسير

Marfat.com

إلى عبد المؤمن بالمغرب فأرسل كبار أولاد يحيى وتميما وعليا إلى يحيى بن العزيز وهو من بنى حماد وهما أولاد عم يستأذنه فى الوصول إليه وتجديد العهد به والمسير من عنده إلى عبد المؤمن فأذن له يحيى فسار إليه فلما وصل لم يجتمع به يحيى وصيره إلى جزيرة بنى مزغنان هو وأولاده ووكل به من يمنعهم من التصرف فبقوا كذلك إلى أن ملك عبد المؤمن بجاية سنة سبع وأربعين فحضر عنده وقد ذكرنا حاله هناك ولما استقر جرجى بالمهدية سير أسطولا بعد أسبوع إلى مدينة سفاقس وسير أسطولا آخر إلى مدينة سوسة فأما سوسة فإن أهلها لما سمعوا خبر المهدية وكان واليها على بن الحسن الأمير فخرج إلى أبيه وخرج الناس لخروجه فدخلها الفرنج بلا قتال ثانى عشر صفر وأما سفاقس فإن أهلها أناهم كثير من العرب فامتنعوا بهم فقاتلهم الفرنج فخرج اليهم أهل البلد فأظهر الفرنج الهزيمة وتبعهم الناس حتى أبعدوا عن البلد ثم عطفوا عليهم فانهزم قوم إلى البلد وقوم إلى البرية وقتل منهم جماعة ودخل الفرنج البلد فملكوه بعد قتال شديد وقتلى كثيرة وأسر من بقى من الرجال وسبى الحريم وذلك فى الثالث والعشرين من صفر ثم نودى بالأمان فعاد أهلها إليها وافتكوا حرمهم وأولادهم ورفق بهم وبأهل سوسة والمهدية وبعد ذلك وصلت كتب من رجار لجميع أهل أفريقية بالأمان والمواعيد الحسنة ولما استقرت أحوال البلاد سار جرجى فى أسطول إلى قلعة إقليبية وهى قلعة حصينة فلما وصل إليها سمعته العرب فاجتمعوا إليها ونزل إليهم الفرنج فاقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منه خلق كثير فرجعوا خاسرين إلى المهدية وصار للفرنج من طرابلس الغرب إلى قريب تونس ومن المغرب إلى دون القيروان والله أعلم.

﴿ذكر حصر الفرنج دمشق ومافعل سيف الدين غازى بن زنكى﴾ فى هذه السنة سار ملك الألمان من بلاده فى خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج عازما على قصد بلاد الإسلام وهو لايشك فى ملكها بأيسر قتال لكثرة جموعه وتوفر أمواله وعدده فلما وصل إلى الشام قصده من به من الفرنج وخدموه وامتثلوا أمره ونهيه فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق ليحصرها ويملكها بزعمه فساروا معه ونازلوها وحصروها وكان صاحبها مجير الدين أبق ابن محمد بن بورى بن طغدكين وليس له من الأمر شىء وإنما الحكم فى البلد لمعين الدين أنز مملوك جده طغدكين وهو الذى أقام مجير الدين وكان معين الدين عاقلا عادلا خيراً حسن السيرة فجمع العساكر وحفظ البلد وأقام الفرنج يحاصرونهم ثم إنهم زحفوا سادس ربيع الأول بفارسهم وراجلهم فخرج إليهم أهل البلد والعسكر فقاتلوهم وصبروا لهم وفيمن خرج للقتال الفقيه حجة الدين يوسف بن ذى باس الفندلاوى المغربى وكان شيخا كبيرا فقيها صالحا فلما رآه معين الدين وهو راجل قصده وسلم عليه وقال له ياشيخ أنت معذور لكبر سنك ونحن نقوم بالذب عن المسلمين وسأله أن يعود فلم يفعل وقال له قد بعت واشترى منى، فوالله لا أقلته ولا استقلته يعنى قول الله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ وتقدم فقاتل الفرنج حتى قتل عند النيرب نحو نصف فرسخ عن دمشق وقوى الفرنج وضعف المسلمون فتقدم ملك الألمان حتى نزل بالميدان الأخضر فأيقن الناس بأنه يملك البلد وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازى بن أتابك زنكى يدعوه إلى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم فجمع عساكره وسار إلى الشام واستصحب معه أخاه نور الدين محمود من حلب فنزلوا بمدينة حمص وأرسل إلى معين الدين يقول له قد حضرت ومعى كل من يحمل السلاح من بلادى فأريد أن يكون نوابى بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج فإن انهزمت دخلت أنا وعسكرى البلد واحتمينا به وإن ظفرنا فالبلد لكم لا أنازعكم فيه فأرسل إلى الفرنج يتهددهم إن لم يرحلوا عن البلد فكف

الفرنج عن القتال خوفا من كثرة الجراح وربما اضطروا إلى قتال سيف الدين فأبقوا على نفوسهم فقوى أهل البلد على حفظه واستراحوا من ملازمة الحرب وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء يقول لهم إن ملك المشرق قد حضر فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه وحينئذ تندمون وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم بأى عقل تساعدون هؤلاء علينا وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية ، وأما أنا فإن رأيت الضعف عن حفظ البلد سلمته إلى سيف الدين وأنتم تعلمون أنه إن ملك دمشق لا يبقى لكم معه مقام فى الشام فأجابوه إلى التخلى عن ملك الألمان وبذل لهم تسلم حصن بانياس إليهم واجتمع الساحلية بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع الأمداد إليه وإنه ربما أخذ دمشق وتضعف عن مقاومته ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد وتسلموا قلعة بانياس وعاد الفرنج الألمانية إلى بلادهم وهى بزوراء القسطنطينية وكفى الله المؤمنين شرهم . وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر فى تاريخ دمشق أن بعض العلماء حكى له أنه رأى الفندلاوى فى المنام فقال له مافعل الله بك وأين أنت فقال غفر لى وأنا فى جنات عدن على سرر متقابلين

(ذكر ملك نور الدين محمود بن زنكى حصن العزيمة) لما سار الفرنج عن دمشق رحل نور الدين إلى حصن العزيمة وهو للفرنج فملكه وسبب ذلك أن ملك الألمان لما خرج إلى الشام كان معه ولد الفنش صاحب طليطلة وهو من أولاد أكابر ملوك الفرنج وكان جده هو الذى أخذ طرابلس الشام من المسلمين فأخذ حصن العزيمة وتملكه وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس من القمص إلى نور الدين محمود وقد اجتمع هو ومعين الدين أنز ببعلبك يقوله ولمعين الدين ليقصدا حصن العزيمة ويملكا وله الفنش فسارا إليه بجندين فى عساكرهما وأرسلا إلى سيف الدين وهو بحمص يستنجدانه فأمدهما بعسكر كثير مع الأمير عز الدين أبى بكر الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر وغيرها فنازلوا الحصن وحصروه وبه ابن الفنش وامتنع به فزحف المسلمون إليه غير مرة وتقدم إليه النقابون فنقبوا السور فاستسلم حينئذ من به من الفرنج فملكه المسلمون وأخذوا كل من به من فارس وراجل وصبى وامرأة وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن وعادوا إلى سيف الدين وكان مثل ابن الفنش كما قيل (خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بغير أذنين)

(ذكر الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الأمراء ووصولهم إلى بغداد وما كان منهم بالعراق) فى هذه السنة فارق السلطان مسعود جماعة من أكابر الأمراء وهم من أذربيجان أيلدكز المسعودى صاحب كنجة وأرنية وقيصر ومن الجبل البقش كون خر وتتر الحاجب وهو مسعودى أيضا وطرغطاى المحمودى شحنة واسط والدكين وقرقوب وابن طغايرك وكان سبب ذلك ميل السلطان إلى خاص بك واطراحه لهم فخافوا أن يفعل بهم مثل فعله بعبد الرحمن وعباس وبوزابة ففارقوه وساروا نحو العراق فلما بلغوا حلوان خلف الناس ببغداد وأعمال العراق وغلت الأسعار وتقدم الإمام المقتفى لأمر الله بإصلاح السور وترميمه وأرسل الخليفة إليهم بالعبادى الواعظ فلم يرجعوا إلى قوله ووصلوا إلى بغداد فى ربيع الآخر والملك محمد ابن السلطان محمود معهم ونزلوا بالجانب الشرقى وفارق مسعود بلال شحنة بغداد البلد خوفا من الخليفة وسار إلى تكريت وكانت له فعظم الأمر على أهل بغداد ووصل إليهم على بن دبيس صاحب الحلة فنزل بالجانب الغربى فجند الخليفة أجنادا يحتمى بهم ووقع القتال بين الأمراء وبين عامة بغداد ومن بها من العسكر واقتتلوا عدة دفعات فى بعض الأيام انهزم الأمراء الأعاجم من عامة بغداد مكرا وخديعة وتبعهم العامة فلما أبعدوا عادوا عليهم وصار بعض العسكر من ورائهم ووضعوا السيف فقتل من العامة خلق كثير ولم يبقوا على صغير

Marfat.com

Marfat.com

ولا كبير وفتكوا فيهم فأصيب أهل بغداد بمالم يصابوا بمثله وكثر القتلى والجرحى وأسر منهم خلق كثير فقتل البعض وشهر البعض ودفن الناس من عرفوا ومن لم يعرف ترك طريحا بالصحراء وتفرق العسكر فى المحال الغربية فأخذوا من أهلها الأموال الكثيرة ونهبوا بلد دجيل وغيره وأخذوا النساء والولدان ثم إن الأمراء اجتمعوا ونزلوا مقابل التاج وقبلوا الأرض واعتذروا وترددت الرسل بينهم وبين الخليفة إلى آخر النهار وعادوا إلى خيامهم ورحلوا إلى النهروان فنهبوا البلاد وأفسدوا فيها وعاد مسعود بلال شحنة بغداد من تكريت إلى بغداد ثم إن هؤلاء الأمراء تفرقوا وفارقوا العراق وتوفى الأمير قيصر بأذربيجان هذا كله والسلطان مسعود مقيم ببلد الجبل والرسل بينه وبين عمه السلطان سنجر متصلة وكان السلطان سنجر قدأرسل اليه يلومه على تقديم خاص بك ويأمره بإبعاده ويتهدده بأنه إن لم يفعل أن يتصده ويزيله عن السلطنة وهو يغالط ولا يفعل فسار السلطان سنجر إلى الرى فلما علم السلطان مسعود بوصوله سار اليه وترضاه واستنزله عما فى نفسه فسكن وكان اجتماعهما سنة أربع وأربعين على ماذكره إن شاء الله تعالى .

﴿ذكر انهزام الفرنج ببغرى﴾ فى هذه السنة هزم نور الدين محمود بن زنكى الفرنج بمكان اسمه يغرى من أرض الشام وكانوا قد تجمعوا ليقصدوا أعمال حلب ليغيروا عليها فعلم نور الدين فسار اليهم فى عسكره فالتقوا ببغرى واقتتلوا قتالا شديدا أجلت المعركة عن انهزام الفرنج وقتل كثير منهم وأسر جماعة من مقدميهم ولم ينج من ذلك الجمع إلا القليل وأرسل من الغنيمة والأسارى إلى أخيه سيف الدين وإلى الخليفة ببغداد وإلى السلطان مسعود وغيرهم وفى هذه الوقعة يقول ابن القيسرانى فى قصيدته التى أولها :

ياليت أن الصد مصدود * أولا فليت النوم مردود

ومنها ماهو فى ذكر نور الدين :

وكيف لا يثنى على عيشنا الا * محمود والسلطان محمود
وصارم الإسلام لا ينثنى * إلا وشلو الكفر مقـــدود
مكارم لم تك موجودة * إلا ونور الدين موجود
وكم له من وقعة يومها * عند الملوك الكفر مشهود

﴿ذكر ملك الغورية غزنة وعودهم عنها﴾ فى هذه السنة قصد سورى بن الحسين ملك الغور مدينة غزنة فملكها وسبب ذلك أن أخاه ملك الغورية قبله محمد بن الحسين كان قد صاهر بهرام شاه مسعود بن إبراهيم صاحب غزنة وهو من بيت سبكتكين فعظم شأنه بالمصاهرة وعلت همته فجمع جموعا كثيرة وسار إلى غزنة ليملكها وقيل إنما سار اليها مظهرا الخدمة والزيارة وهو يريد المكر والغدر فعلم به بهرام شاه فأخذه وسجنه ثم قتله فعظم قتله على الغورية ولم يمكنهم الأخذ بثاره ولما قتل ملك بعده أخوه سام بن الحسين فمات بالجدرى وملك بعده أخوه الملك سورى بن الحسين بلاد الغور والله أعلم وقوى أمره وتمكن فى ملكه فجمع عسكره من الفارس والراجل وسار إلى غزنة طالبا بثأر أخيه المقتول وقاصدا ملك غزنة فلما وصل اليها ملكها فى جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وفارقها بهرام شاه إلى بلاد الهند وجمع جموعا كثيرة وعاد إلى غزنة وعلى مقدمته السلار الحسين وإبراهيم العلوى أمير هندوستان وكان عسكر غزنة الذين أقاموا مع سورى بن الحسين الغورى وخدموه قلوبهم مع بهرام شاه وإنما هم بظواهرهم مع سورى فلما التقى سورى وبهرام شاه

Marfat.com

رجع عسكر غزنة إلى بهرام شاه وصاروا معه وسلموا اليه سورى ملك الغورية وملك بهرام شاه غزنة فى المحرم سنة أربع وأربعين وصلب الملك سورى مع السيد الماهيانى فى المحرم أيضا من السنة وكان سورى أحد الأجواد له الكرم الغزير والمروأة العظيمة حتى إنه كان يرمى الدراهم فى المقاليع إلى الفقراء لتقع بيد من تقع ومن يتفق له ثم عاود الغورية وملكوها وخربوها وقد ذكرناه سنة سبع وأربعين وذكرنا هناك ابتداء دولة الغورية لأنهم فى ذلك الوقت عظم محلهم وفارقوا الجبال وقصدوا خراسان وعلا شأنهم وفى بعض الخلف كما ذكرناه والله أعلم .

﴿ ذكر ملك الفرنج مدنا من الأندلس ﴾ فى هذه السنة ملك الفرنج بالأندلس مدينة طرطوشة وملكوا معها جميع قلاعها وحصون لاردة وأفراغة ولم يبق للمسلمين فى تلك الجهات شىء إلا واستولى الفرنج على جميعه لاختلاف المسلمين بينهم وبقى بأيديهم إلى الآن .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة توفى أبو بكر المبارك بن الكامل بن أبى غالب البغدادى المعروف أبوه بالخفاف سمع الحديث الكثير وكان مفيد بغداد . وفيها غلت الأسعار بالعراق وتعذرت الأقوات بسبب العسكر الوارد وقدم أهل السواد إلى بغداد منهزمين قد أخذت أموالهم وهلكوا جوعا وعريا وكذلك أيضا كان الغلاء فى أكثر بلاد خراسان وبلاد الجبل وأصفهان وديار فارس والجزيرة والشام وأما المغرب فكان أشد غلاء بسبب انقطاع الغيث ودخول العدو إليها . وفيها توفى إبراهيم بن نبهان الرقى ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة وصحب الغزالى والشاشى وروى الجمع بين الصحيحين للحميدى عن مصنفه . وفيها فى ذى القعدة توفى الإمام أبو الفضل الكرمانى الفقيه الحنفى إمام خراسان .

﴿ثم دخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة﴾

﴿ ذكر وفاة سيف الدين غازى بن أتابك زنكى وبعض سيرته وملك أخيه قطب الدين ﴾ فى هذه السنة توفى سيف الدين غازى بن أتابك زنكى صاحب الموصل بها بمرض حاد ولما اشتد مرضه أرسل إلى بغداد واستدعى أوحد الزمان فحضر عنده فرأى شدة مرضه فعالجه فلم ينجح فيه الدواء وتوفى أواخر جمادى الآخرة وكانت ولايته ثلاث سنين وشهرا وعشرين يوما وكان حسن الصورة والشباب وكانت ولادته سنة خمسمائة ودفن بالمدرسة التى بناها بالموصل وخلف ولدا ذكرا فرباه عمه نور الدين محمود وأحسن تربيته وزوجه ابنة أخيه قطب الدين مودود فلم تطل أيامه وتوفى فى عنفوان شبابه فانقرض عقب سيف الدين وكان كريما شجاعا عاقلا وكان يصنع كل يوم لعسكره طعاما كثيرا بكرة وعشية فأما الذى بكرة فيكون مائة رأس غنم جيدة وهو أول من حمل على رأسه السنجق وأمر الأجناد أن لا يركبوا إلا بالسيف فى أوساطهم والدبوس تحت أركبهم فلما فعل ذلك اقتدى به أصحاب الأطراف وبنى المدرسة الأتابكية العتيقة بالموصل وهى من أحسن المدارس ووقفها على الحنفية والشافعية وبنى رباطا للصوفية بالموصل أيضا على باب المشرعة ولم تطل أيامه ليفعل ما فى نفسه من الخير وكان عظيم الهمة ومن جملة كرمه أنه قصده شهاب الدين الحيص بيص وامتدحه بقصيدته التى أولها :

ألام يراك المجد فى زى شاعر ٭ وقد نحلت شوقا فروع المنابر

فوصله بألف دينار عين سوى الخلع وغيرها ولما توفى سيف الدين غازى كان أخوه قطب الدين مقيما بالموصل فاتفق جمال الدين الوزير وزين الدين على أمير الجيش على تمليكه فأحضروه واستحلفوه وحلفوا له وأركبوه إلى دار السلطنة وزين الدين فى ركابه وأطاعه جميع بلاد أخيه سيف الدين كالموصل والجزيرة ولما ملك تزوج الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش التى كان قد تزوجها أخوه سيف الدين وتوفى قبل الدخول بها وهى أم أولاد قطب الدين سيف الدين وعز الدين وغيرهما من أولاده .

﴿ذكر استيلاء نور الدين على سنجار﴾ لما ملك قطب الدين مودود الموصل بعد أخيه سيف الدين غازى كان أخوه الأكبر نور الدين محمود بالشام وله حلب وحماة فكاتبه جماعة من الأمراء وطلبوه وفيمن كاتبه المقدم عبد الملك والد شمس الدين محمد وكان حينئذ مستحفظا لسنجار فأرسل إليه يستدعيه ليتسلم سنجار فسار جريدة فى سبعين فارسا من أمراء دولته فوصل إلى ماكسين فى نفر يسير قد سبق من أصحابه وكان يوما شديد المطر فلم يعرفهم الذى يحفظ الباب فأخبر الشحنة أن نفرا من التركمان المتجندين قد دخلوا البلد فلم يستتم كلامه حتى دخل نور الدين الدار على الشحنة فقام إليه وقبل يده ولحق به باقى أصحابه ثم سار إلى سنجار فوصلها وليس معه غير ركابى وسلاح دار ونزل بظاهر البلد وأرسل إلى المقدم يعلمه بوصوله فرآه الرسول وقد سار إلى الموصل وترك ولده شمس الدين محمدا بالقلعة فأعلمه بمسير والده إلى الموصل وأقام من لحق أباه بالطريق فأعلمه بوصول نور الدين فعاد إلى سنجار فسلمها إليه فدخلها نور الدين وأرسل إلى فخر الدين قرا أرسلان صاحب الخصن يستدعيه إليه لمودة كانت بينهما فوصل إليه فى عسكره فلما سمع أتابك قطب الدين وجمال الدين وزين الدين بالموصل بذلك جمعوا عساكرهم وساروا نحو سنجار فوصلوا إلى تل يعفر وترددت الرسل بينهم بعد أن كانوا عازمين على قصده بسنجار فقال لهم جمال الدين ليس من الرأى محاقنته وقتاله فإننا نحن قد عظمنا محله عند السلطان وماهو بصدده من الغزاة وجعلنا أنفسنا دونه وهو يظهر للفرنج تعظيما وأنه تبعنا ولا يزال يقول لهم إن كنتم كما يجب وإلا سلمت البلاد لصاحب الموصل وحينئذ يفعل بكم ويصنع فإذا لقيناه فإن هزمناه طمع السلطان فينا ويقول هذا الذى كانوا يعظمونه ويحتمون به أضعف منهم وقد هزموه وإن هو هزمنا طمع فيه الفرنج ويقولون إن الذين كان يحتمى بهم أضعف منه وقد هزمهم وبالجملة فهو ابن أتابك وأشار بالصلح وسار هو إليه فاصطلح وسلم سنجار إلى أخيه قطب الدين وسلم مدينة حمص والرحبة بأرض الشام إليه وبقى الشام له وديار الجزيرة لأخيه واتفقا وعاد نور الدين إلى حلب وأخذ معه ما كان قد ادخره أبو عماد الدين أتابك فيها من الخزائن وكانت كثيرة جدا .

﴿ذكر وفاة الحافظ وولاية الظافر ووزارة ابن السلار﴾ فى هذه السنة فى جمادى الآخرة توفى الحافظ لدين الله عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم بن المنتصر بالله العلوى صاحب مصر وكانت خلافته عشرين سنة إلا خمسة أشهر وعمره نحو من سبع وسبعين سنة ولم يزل فى جميعها محكوما عليه يحكم عليه وزراؤه حتى أنه جعل ابنه حسنا وزيرا وولى عهده فحكم عليه واستبد بالأمر دونه وقتل كثيرا من أمراء دولته وصادر كثيرا فلما رأى الحافظ ذلك سقاه سما فمات . وقد ذكرناه ولم يل الأمر من العلويين المصريين من أبوه غير خليفة غير الحافظ والعاضد وسيرد ذكر نسب العاضد وولى الخلافة بعده بمصر ابنه الظاهر بأمر الله أبو منصور اسماعيل بن عبد المجيد الحافظ واستوزر ابن مصال فبقى أربعين يوما يدبر الأمور فقصده العادل بن السلار من ثغر الإسكندرية ونازعه فى

Marfat.com

Marfat.com

الوزارة وكان ابن مصال قد خرج من القاهرة فى طلب بعض المفسدين من السودان فخالفه العادل بالقاهرة وصار وزيرا وسير عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى فى عسكره وهو ربيب العادل إلى ابن مصال فظفر به وقتله وعاد إلى القاهرة واستقر العادل وتمكن ولم يكن للخليفة معه حكم وأما سبب وصول عباس إلى مصر فإن جده يحيى أخرج أبا الفتوح من المهدية فلما توفى يحيى وولى بعده بلاد أفريقية ابنه على بن يحيى بن تميم بن يحيى صاحب أفريقية أخرج أخاه أبا الفتوح والد عباس من أفريقية سنة تسع وخمسمائة فسار إلى الديار المصرية ومعه زوجته بلارة ابنة القاسم بن تميم بن المعز باديس وولده عباس هذا هو صغير يرضع ونزل أبو الفتوح بالإسكندرية فأكرم وأقام بها مدة يسيرة وتوفى وتزوجت بعد امرأته بلارة بالعادل بن السلار وشب العباس وتقدم عند الظافر حتى ولى الوزارة بعد العادل فإن العادل قتل فى المحرم سنة ثمان وأربعين قيل وضع ربيبه عباس من قتله فلما قتل ولى الوزارة بعده وتمكن منها وكان جلدا حازما ومع هذا ففى أيامه أخذ الفرنج عسقلان واشتد وهن الدولة بذلك وفى أيامه أخذ نور الدين محمود دمشق من مجير الدين أبق وصار الأمر بعد هذا إلى أن أخذت مصر منهم على ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر عود جماعة من الأمراء إلى العراق ﴾ فى هذه السنة فى رجب عاد البقش كون خر والطرنطاى وابن دبيس ومعهم ملكشاه ابن السلطان محمود إلى العراق وراسلوا الخليفة فى الخطبة لملكشاه فلم يلتفت إليهم وجمع العساكر وحصن بغداد وأرسل إلى السلطان مسعود يعرفه بالحال فوعده بالوصول إلى بغداد فلم يحضر وكان سبب ذلك ماذكرناه من وصول عمه السلطان سنجر إلى الرى فى معنى خاص بك فلما وصل إلى الرى سار إليه السلطان مسعود ولقيه واسترضاه فرضى عنه فلما علم البقش بمراسلة الخليفة إلى مسعود نهب النهروان وقبض على الأمير على بن دبيس فى رمضان فلما علم الطرنطاى بذلك هرب إلى النعمانية ووصل السلطان مسعود منتصف شوال ورحل البقش كون خر من النهروان وأطلق على بن دبيس فلما وصل السلطان إلى بغداد قصده على وألقى بنفسه بين يديه واعتذر فرضى عنه وذكر بعض المؤرخين هذه الحادثة سنة أربع وأربعين وذكر أيضا مثلها سنة ثلاث وأربعين فظنهما حادثتين وأنا أظنها واحدة ولكنا تبعناه فى ذلك ونبهنا عليه

﴿ ذكر قتل البرنس صاحب أنطاكية وهزيمة الفرنج ﴾ فى هذه السنة غزا نور الدين محمود بن زنكى بلاد الفرنج من ناحية أنطاكية وقصد حصن حارم وهو للفرنج فحصره وخرب ربضه ونهب سواده ثم رحل إلى حصن أنب فحصره أيضا فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وحارم وتلك الأعمال وساروا إلى نور الدين ليرحلوه عن أنب فلقيهم واقتتلوا قتالا عظيما وباشر نور الدين القتال ذلك اليوم فانهزم الفرنج أقبح هزيمة وقتل منهم جمع كثير وأسروا مثلهم وكان ممن قتل البرنس صاحب أنطاكية وكان عاتيا من عتاة الفرنج وعظيما من عظمائهم ولما قتل البرنس ملك بعده ابنه بيمند وهو طفل فتزوجت أمه ببرنس آخر ليدبر البلد إلى أن يكبر ابنها وأقام معها بأنطاكية ثم إن نور الدين غزاهم غزوة أخرى فاجتمعوا ولقوه فهزمهم وقتل فيهم وأسر وكان فيمن أسر البرنس الثانى زوج أم بيمند فتمكن حينئذ بيمند بأنطاكية وأكثر الشعراء مديح نور الدين وتهنئته بهذا الظفر فإن قتل البرنس كان عظيما عند الطائفتين وممن قال فيه : القيسرانى الكاتب فى القصيدة المشهورة التى أولها :

هذى العزائم لا ماتدعى القضب * وذى المكارم لا ماقالت الكتب

Marfat.com

وهذه الهمم اللاتى متى خطبت ٭ تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها ٭ براحة المساعى دونها تعب
مازال جدك يبنى كل شاهقة ٭ حتى بنى قبة أوتادها الشهب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة ٭ فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة ٭ أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
طهرت أرض الأعادى من دمائهم ٭ طهارة كل سيف عندها جنب

﴿ذكر الخلاف بين صاحب صقلية وملك الروم﴾ فى هذه السنة اختلف رجار الفرنجى صاحب صقلية وملك القسطنطينية وجرى بينهما حروب كثيرة ودامت عدة سنين فاشتغل بعضهم ببعض عن المسلمين ولولا ذلك لملك رجار جميع بلاد أفريقية وكان القتال بينهم برا وبحرا والظفر فى جميع ذلك لصاحب صقلية حتى إن أسطوله فى بعض السنين وصل إلى مدينة القسطنطينية ودخل فم المينا وأخذوا عدة شوانى من الروم وأسروا جمعا منهم ورمى الفرنج طاقات قصر الملك بالنشاب وكان الذى يفعل هذا بالروم والمسلمين جرجى وزير صاحب صقلية فمرض عدة أمراض منها البواسير والحصا ومات سنة ست وأربعين وخمسمائة فسكنت الفتنة واستراح الناس من شره وفساده ولم يكن عند صاحب صقلية من يقوم مقامه بعده.

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة زلزلت الأرض زلزلة عظيمة فقيل إن جبلا مقابل حلوان ساخ فى الأرض. وفيها ولى أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزارة الخليفة المقتفى لأمر الله وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزمام وظهر له كفاية عظيمة عند نزول العساكر بظاهر بغداد وحسن قيام فى ردهم فرغب الخليفة فيه فاستوزره يوم الأربعاء رابع ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وكان القمر على تربيع زحل فقيل له لو أخرت لبس الخلعة لهذه التربيعات فقال وأى سعادة أكبر من وزارة الخليفة ولبسها ذلك اليوم. وفيها فى المحرم توفى قاضى القضاة على بن الحسين الزينبى وولى القضاء عماد الدين أبو الحسن على بن أحمد الدامغانى. وفيها فى المحرم رخصت الأسعار بالعراق وكثرت الخيرات وخرج أهل السواد إلى قراهم. وفيها توفى الأمير نظر أمير الحاج وكان قد سار بالحاج إلى الحلة فمرض واشتد مرضه واستخلف على الحاج قايماز الأرجوانى وعاد إلى بغداد مريضا فتوفى فى ذى القعدة وكان خصيا عاقلا خيراً له معروف كثير وصدقات وافرة. وفيها توفى أحمد بن نظام الملك الذى كان وزير السلطان محمد والمسترشد بالله. وفيها توفى على بن رافع بن خليفة الشيبانى وهو من أعيان خراسان وله مائة وسبع سنين شمسية ومات الإمام مسعود الصوابى فى المحرم منها. وفيها توفى معين الدين أنز نائب أبق صاحب دمشق وهو كان الحاكم والأمر اليه وكان أبق صورة أمير لا معنى تحتها. وفيها توفى القاضى أحمد بن محمد بن الحسين الأرجانى أبو بكر قاضى تستر وله شعر حسن فمنه قوله:

ولما بلوت الناس أطلب عندهم ٭ أخا ثقة عند اعتراض الشدائد
تطلعت فى حالى رخاء وشدة ٭ وناديت فى الأحياء هل من مساعد
فلم أر فيما ساءنى غير شامت ٭ ولم أر فيما سرنى غير حاسد
تمتعتما يا ناظرى بنظرة ٭ وأوردتما قلبى أمر الموارد
أعينى كفا عن فؤادى فإنه ٭ من البغى سعى اثنين فى قتل واحد

Marfat.com

وفيها توفى أبو عبدالله عيسى بن هبة الله بن عيسى البزاز وكان ظريفا وله شعر حسن كتب اليه صديق له رقعة وزاد فى خطابه فأجابه :

قد زدتنى فى الخطاب حتى ٭ خشيت نقصا من الزيادة
فاجعل خطابى خطاب مثلى ٭ ولاتغير على عاده [1]

﴿ ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر أخذ العرب الحجاج ﴾ فى هذه السنة رابع عشر المحرم خرج العرب زعب ومن انضم إليها على الحجاج بالغرابى بين مكة والمدينة فأخذوهم ولم يسلم منهم إلا القليل وكان سبب ذلك أن نظراً أمير الحاج لما عاد من الحلة على ماذكرناه وسار على الحاج قايماز الأرجوانى وكان حدثا غرا فسار بهم إلى مكة فلما رأى أمير مكة قايماز استصغره وطمع فى الحاج وتلطف قايماز الحال معه إلى أن عادوا فلما سار عن مكة سمع باجتماع العرب فقال للحاج من المصلحة أنا لانمضى إلى المدينة فضج العجم وتهددوه بالشكوى منه إلى السلطان سنجر فقال لهم فأعطوا العرب مالا نستكفى به شرهم فامتنعوا من ذلك فسار بهم إلى الغرابى وهو منزل يخرج إليه من مضيق جبلين فوقفوا على فم مضيق وقاتلهم قايماز ومن معه فلما رأى عجزه أخذ لنفسه أمانا وظفروا بالحجاج وغنموا أموالهم وجميع مامعهم وتفرق الناس فى البر وهلك منهم خلق كثير لايحصون كثرة ولم يسلم إلا القليل فوصل بعضهم إلى المدينة وتحملوا منها إلى البلاد وأقام بعضهم مع العرب حتى توصل إلى البلاد ثم إن الله تعالى اقتص للحاج من زعب فلم يزالوا فى نقص وذلة ولقد رأيت شابا منهم بالمدينة سنة ست وسبعين وخمسمائة وجرى بينى وبينه مفاوضة قلت له فيها إننى والله كنت أميل إليك حتى سمعت أنك من زعب فنفرت وخفت شرك فقال لم فقلت بسبب أخذكم الحاج فقال لى أنا لم أدرك ذلك الوقت وكيف رأيت الله صنع بنا والله ما أفلحنا ولانجحنا قل العدد وطمع العدو فينا .

﴿ ذكر فتح حصن فاميا ﴾ فى هذه السنة فتح نور الدين محمود بن الشهيد زنكى حصن فاميا من الفرنج وهو بجاور شيزر وحماة على تل عال من أحصن القلاع وأمنعها فسار نور الدين إليه وحصره وبه الفرنج وقاتلهم وضيق على من بها منهم فاجتمع من بالشام من الفرنج وساروا نحوه ليرحلوه عنهم فلم يصلوا إلا وقد ملكه

---

(١) وفيها توفى القاضى عياض بن موسى السبتى صاحب التصانيف المفيدة ومن شعره قوله :

الله يعلم أنى منذ لم أركم ٭ كطائر خانه ريش الجناحين
ولو قدرت ركبت الريح نحوكم ٭ فان بعدكم عنى جنى حينى

وقد ترجمه بن خلكان ترجمة حسنة . وفيها توفى عيسى بن هبة الله بن عيسى ، أبو عبدالله النقاش ، سمع الحديث مولده سنة سبع وخمسين وأربعمائة . قال ابن الجوزى : وكان ظريفا خفيف الروح ، له نوادر حسنة رأى الناس ، وعاشر الاكياس ، وكان يحضر مجلسى ويكاتبنى وأكاتبه ، كتبت إليه مرة فعظمته فى الكتاب فكتب إلى : قد زدتنى فى الخطاب حتى خشيت نقصا من الزيادة ، وله :

إذا وجد الشيخ فى نفسه ٭ نشاطا فذلك موت خفى
ألست ترى أن ضوء السرا ٭ ج له لهب قبل أن ينطفى

وملأه ذخائر وسلاحا ورجالا وجميع ما يحتاج إليه فلما بلغه سير الفرنج إليه رحل عنه وقد فرغ من امر الحصن وسار إليهم يطلبهم فحين رأوا أن الحصن قد ملك وقوة عزم نور الدين على لقائهم عدلوا عن طريقه ودخلوا بلادهم وراسلوه فى المهادنة وعاد سالما ظفرا ومدحه الشعراء وذكروا هذا الفتح فمن ذلك قول ابن الرومى من قصيدة أولها :

أسنى الممالك ما أطلت منارها * وجعلت مرهفة الدسار دسارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها * رؤف تكنف عدله أقطارها

ومنها فى وصف الحصن :

أدركت ثأرك فى البغاة وكنت يا * مختار أمة أحمد مختارها
ضاءت نجومك فوقها ولطالما * باتت تناشها النجوم شرارها
عارية الزمن المعير سمالها * منك المغيرة فاسترد معارها
أمست مع الشعرى العبور وأصبحت * شعراء تستفلى الفحول شوارها (وهى طويلة)

﴿ذكر حصر الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها﴾ فى هذه السنة سار السليطين وهو الأذفونش وهو ملك طليطلة وأعمالها وهو من ملوك الجلانقة نوع من الفرنج فى أربعين ألف فارس إلى مدينة قرطبة فحصرها وهى فى ضعف وغلاء فبلغ الخبر إلى عبد المؤمن وهو بمراكش فجهز عسكرا كثيرا وجهز مقدمهم أبا زكريا يحيى بن يرموز وننفذهم إلى قرطبة فلما قربوا منها فلم يقدروا أن يلقوا عسكر السليطين فى الوطاء وأرادوا الاجتماع بأهل قرطبة ليمنعوها لخطر العاقبة بعد القتال فسلكوا الجبال الوعرة والمضايق المتشعبة فساروا نحو خمسة وعشرين يوما فى الوعر فى مسافة أربعة أيام فى السهل فوصلوا إلى الجبل المطل على قرطبة ، فلما رآهم السليطين وتحقق أمرهم رحل عن قرطبة وكان فيها القائد أبو الغمر السائب من ولد القايد بن غلبون وهو من أبطال أهل الأندلس وأمرائها فلما رحل الفرنج خرج منها لوقته وصعد إلى ابن يرموز وقال له انزلوا عاجلا وادخلوا البلد ففعلوا وباتوا فيها فلما أصبحوا من الغد رأوا عسكر السليطين على رأس الجبل الذى كان فيه عسكر عبد المؤمن فقال لهم أبو الغمر هذا الذى خفته عليكم لأنى علمت أن السليطين ما أقام إلا طالبا لكم فإن من الموضع الذى كان فيه طريق سهلة ولو لحقكم هناك نال مراده منكم ومن قرطبة فلما رأى السليطين أنهم قد فاتوه علم أنه لم يبق له طمع فى قرطبة فرحل عائدا إلى بلاده وكان حصره لقرطبة ثلاثة أشهر والله أعلم .

﴿ذكر ملك الغورية هراة﴾ فى هذه السنة سار ملك الغور الحسن بن الحسين من بلاد الغور إلى هراة فحصرها وكان أهلها قد كاتبوه وطلبوا يسلموها إليه هربا من الأتراك لهم وزوال هيبة السلطنة عنهم فامتنع أهل هراة عليه ثلاثة أيام . ثم خرجوا إليه وسلموا البلد وأطاعوه فأحسن إليهم وأفاض عليهم النعم وغمرهم بالعدل وأظهر طاعة السلطان سنجر والقيام على الوفاء له والانقياد إليه .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة أمر علاء الدين محمود بن مسعود الغالب على أمر طريثيث إقامة الخطبة للخليفة ولبس السواد ففعل الخطيب ذلك فثار به عمه وأقاربه ومن وافقهم وقاتلوه وكسروا المنبر وقتلوا الخطيب وكان فعل علاء الدين هذا لأن أباه كان مسلما فلما تغلب الإسماعيلية على طريثيث أظهر موافقتهم وأبطن اعتقاد الشريعة وكان يناظر على مذهب الشافعى وازداد تقدما بطريثيث وجرت أمورها بإرادته فلما

Marfat.com

حضره الموت أوصى أن يغسله فقيه شافعى وأوصى إلى ابنه علاء الدين إن أمكنه ان يعيد فيها إظهار شريعة الإسلام فعل فلما رأى من نفسه قوة فعله فلم يتم له وفيها كثر المرض بالعراق لاسيما ببغداد وكثر الموت أيضا فيهافارقها السلطان مسعود . وفيها توفى الأمير على بن دبيس بن صدقة صاحب الحلة بأسدأباد وانهم طبيبه محمد بن صالح بالمواطأة عليه فمات الطبيب بعده بقريب . وفيها استوزر عبدالمؤمن صاحب بلاد المغرب أبا جعفر بن أبى أحمد الأندلسى وكان مأسورا عنده فوصف له بالعقل وجودة الكتابة فأخرجه من الحبس واستوزره وهو أول وزير كان للموحدين . وفى هذه السنة فى المحرم جلس يوسف الدمشقى مدرسا فى النظامية ببغداد وكان جلوسه بغير أمر الخليفة فمنع يوم الجمعة من دخول الجامع فصلى فى جامع السلطان ومنع من التدريس فتقدم السلطان مسعود إلى الشيخ أبى النجيب بأن يدرس فيها فامتنع بغير أمر الخليفة فاستخرج السلطان إذن الخليفة فى ذلك فدرس منتصف المحرم من السنة . وفيها توفى أبو عبدالله محمد بن على مهران الفقيه الشافعى تفقه على الهراسى وولى قضاء نصيبين ثم ترك القضاء وتزهد فأقام بجزيرة ابن عمر ثم انتقل إلى جبل ببلد الحصن فى زاوية وكان له كرامات ظاهرة . وفيها مات الحسن بن ذى النون بن أبى القاسم بن أبى الحسن المسعرى أبو المفاخر النيسابورى سمع الحديث الكثير وكان فقيها أديبا دائم الاشتغال يعظ الناس وكان مما ينشد :

مات الكرام وولوا وانقضوا ومضوا * ومات من بعدهم تلك الكرامات
وخلفونى فى قوم ذوى سفه * لو أبصروا طيف ضيف فى الكرى ماتوا

﴿ ثم دخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر انهزام نور الدين من جوسلين وأسر جوسلين بعد ذلك ﴾ فى هذه السنة جمع نور الدين محمود عسكره وسار إلى بلاد جوسلين الفرنجى وهى شمال حلب منها تل باشر وعين تاب وإعزاز وغيرها وعزم على محاصرتها وأخذها وكان جوسلين لعنه الله فارس الفرنج غير مدافع قد جمع الشجاعة والرأى فلما علم بذلك جمع الفرنج فأكثر وسار نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا فانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر جمع كثير وكان فى جملة من أسر سلاح دار نور الدين فأخذه جوسلين ومعه سلاح نور الدين فسيره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وأقصرا وقال له هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما أعظم منه فلما علم نور الدين الحال عظم عليه ذلك وعمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة ليأخذ بثأره وأحضر جماعة من أمراء التركمان وبذل لهم الرغائب إن هم ظفروا بجوسلين وسلموه إليه إما قتيلا أو أسيرا لأنه علم أنه متى قصده بنفسه احتمى بجموعه وحصونه فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيدا فلحقت به طائفة منهم وظفروا به فصانعهم على مال يؤديه إليهم فأجابوه إلى إطلاقه إذا حضر المال فأرسل فى إحضاره فمضى بعضهم إلى أبى بكر بن الداية نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال فسير عسكرا معه فكبسوا أولئك التركمان وجوسلين معهم فأخذوه أسيرا وأحضروه عنده وكان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطانا عاتيا شديدا على المسلمين قاسى القلب وأصيبت النصرانية كافة بأسره ولما أسر سار نور الدين إلى قلاعه فملكها وهى تل باشر وعين تاب وإعزاز وتل خالد وقورس والراوندان وبرج الرصاص وحصن البارة وكفر سود وكفر لاثا ودلوك ومرعش ونهر الجوز وغير ذلك من أعماله فى مدة يسيرة يرد تفصيلها وكان نور الدين كلما فتح منها حصنا نقل إليه من كل ما تحتاج إليه الحصون

خوفا من نكثة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة إلى ما يمنعها من العدو ومدحه الشعراء فمن قال فيه: القيسرانى من قصيدة فى ذكر جوسلين:

كما أهدت الأقدار للقمص أسره * وأسعد قرن من حواملك الأسر
طغى وبغى عدوا على غلوائه * فأوبقه الكفران عدواه والكفر
وأمست عزاز كاسمها بك عزة * تشق على النسرين لو أنها وكر
فسر واملك الدنيا ضياء وبهجة * فبالأفق الداجى إلى ذا السنا فقر
كأنى بهذا العزم لا فل حده * وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا * وليس سوى جارى الدماء له طهر

﴿ذكر حصر غرناطة والمرية من بلاد الأندلس﴾ فى هذه السنة سير عبد المؤمن جيشا كثيفا نحو عشرين ألف فارس إلى الأندلس مع أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى وسير معهم نساءهم فكن يسرن مفردات عليهن البرانس السود ليس معهن غير الخدم ومتى قرب منهن رجل ضرب بالسياط فلما قطعوا الخليج ساروا إلى غرناطة وبها جمع من المرابطين فحصرها عمر وعسكره وضيقوا عليها فجاء اليه أحمد بن ملحان صاحب مدينة وادى آش وأعمالها بجماعته ووحدوا وصار معه وأتاه إبراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش صاحب جيان وأصحابه ووحدوا وصاروا أيضا معه فكثر جيشه وحرضوه على المسارعة إلى ابن مردنيش ملك بلاد شرق الأندلس ليبغته بالحصار قبل أن يتجهز فلما سمع ابن مردنيش ذلك خاف على نفسه فأرسل إلى ملك برشلونة من بلاد الفرنج يخبره ويستنجده ويستحثه على الوصول اليه فسار اليه الفرنجى فى عشرة آلاف فارس وسار عسكر عبد المؤمن فوصلوا إلى حمة بلقوارة وبينها وبين مرسية التى هى مقر ابن مردنيش مرحلة فسمعوا بوصول الفرنج فرجع وحصر مدينة المرية وهى للفرنج عدة شهور فاشتد الغلاء فى العسكر وعدمت الأقوات فرحلوا عنها وعادوا إلى أشبيلية فأقاموا بها.

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى ربيع الآخر توفى العبادى الواعظ واسمه المظفر بن أردشير بخوزستان وكان الخليفة المقتفى لأمر الله قد سيره فى رسالة إلى الملك محمد بن السلطان محمود ليصلح بينه وبين بدر الحوائزى فتوفى هناك وجلس ولده ببغداد للعزاء وأقيم بحاجب من الديوان العزيز وكان ابنه يجلس ويعظ ويذكر والده ويبكى هو والناس كافة ونقل العبادى إلى بغداد ودفن بالشونيزى ومولده سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وسمع الحديث من أبى بكر السروى وزاهر الشحامى وغيرهما. وفيها انفجر بثق النهروان الذى أتمه يهروز بكثرة الزيادة فى تامرا وإهمال أمرها حتى عظم ذلك وتضرر به الناس. وفيها سار الأمير قجق فى طائفة من عسكر السلطان سنجر إلى طريثيث بخراسان وأغار على بلاد الإسماعيلية فنهب وسبى وخرب وأحرق المساكن وفعل بهم أفاعيل عظيمة وعاد سالما.

﴿ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك عبد المؤمن بجاية وملك بنى حماد﴾ فى هذه السنة سار عبد المؤمن بن على إلى بجاية وملكها وملك جميع ممالك بنى حماد وكان لما أراد قصدها سار من مراكش إلى سبتة سنة ست وأربعين فأقام بها مدة يعمل الأسطول ويجمع العساكر القريبة منه وأما ما هو على طريقه إلى بجاية من البلاد فكتب اليهم ليتجهزوا

Marfat.com

Marfat.com

ويكونوا على الحركة أى وقت طلبهم والناس يظنون أنه يريد العبود إلى الأندلس فأرسل فى قطع السابلة عن بلاد شرق المغرب برا وبحرا وسار من سبتة فى صفر سنة سبع وأربعين فأسرع السير وطوى المراحل والعساكر تلفاه فى طريقه فلم يشعر أهل بجاية إلا وهو فى أعمالها وكان ملكها يحيى بن العزيز بن حماد آخر ملوك بنى حماد وكان مولعا بالصيد واللهو لا ينظر فى شىء من أمور مملكته قد حكم فيها بنو حمدون فلما اتصل الخبر بميمون بن حمدون جمع العسكر وسار عن بجاية نحو عبدالمؤمن فلقيهم مقدمته وهى تزيد على عشرين ألف فارس فانهزم أهل بجاية من غير قتال ودخلت مقدمة عبدالمؤمن بجاية قبل وصول عبد المؤمن بيومين وتفرق جميع عسكر يحيى بن العزيز وهربوا برا وبحرا وتحصن يحيى بقلعة قسطنطينية الهواء وهرب أخواه الحرث وعبد الله إلى صقلية ودخل عبد المؤمن بجاية وملك جميع بلاد ابن العزيز بغير قتال ثم إن يحيى نزل إلى عبد المؤمن بالأمان فأمنه وكان يحيى قد فرح لما أخذت بلاد أفريقية من الحسن بن على بن فرحا ظهر عليه فكان يذمه ويذكر معايبه فلم تطل المدة حتى أخذت بلاده ووصل الحسن بن على إلى عبد المؤمن فى جزائر بنى مزغنان وقد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين سبب مصيره إليها واجتمعا عنده فأرسل عبدالمؤمن يحيى بن العزيز إلى بلاد المغرب وأقام بها وأجرى عليه شيئا كثيرا ، وأما الحسن بن على فإنه أحسن إليه وألزمه صحبته وأعلى مرتبته فلزمه إلى أن فتح عبدالمؤمن المهدية فجعله فيها وأمر واليها أن يقتدى برأيه ويرجع إلى قوله ولما فتح عبدالمؤمن بجاية لم يتعرض إلى مال أهلها ولا غيره وسبب ذلك أن بنى حمدون استامنوا ووفى لهم بأمانه .

﴿ذكر ظفر عبدالمؤمن بصنهاجة﴾ لما ملك عبدالمؤمن بجاية تجمعت صنهاجة فى أمم لا يحصيها إلا الله تعالى وتقدم عليهم رجل اسمه أبو قصبة واجتمع معهم من كتامة ولواتة وغيرها خلق كثير وقصدوا حرب عبدالمؤمن فأرسل إليهم جيشا كثيرا ومقدمهم أبو سعيد يخلف وهو من الخمسين فالتقوا فى عرض الجبل شرقى بجاية فانهزم أبو قصبة وقتل أكثر من معه ونهبت أموالهم وسبيت نساؤهم وذراريهم ولما فرغوا من صنهاجة ساروا إلى قلعة بنى حماد وهى من أحصن القلاع وأعلاها لا ترام على راس جبل شاهق لا يكاد الطرف يحققها لعلوها ولكن القدر إذا جاء لا يمنع منه معقل ولا جيوش فلما رأى أهلها عساكر الموحدين هربوا منها فى رؤس الجبال وملكت القلعة وأخذ جميع مافيها من مال وغيره وحمل إلى عبدالمؤمن فقسمه بين أصحابه .

﴿ذكر وفاة السلطان مسعود وملك ملكشاه محمد بن محمود﴾ فى هذه السنة أول رجب توفى السلطان مسعود ابن محمد بن ملكشاه بهمذان وكان مرضه حمى حادة نحو أسبوع وكان مولده سنة اثنتين وخمسمائة فى ذى القعدة ومات معه سعادة البيت السلجوقى فلم يقم له بعده راية يعتمد بها ولا يلتفت إليها :

فما كان قيس هلكه هلك واحد • ولكنه بنيان قوم تهدما

وكان رحمه الله حسن الأخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس فمن ذلك أن أتابك زنكى صاحب الموصل أرسل إليه القاضى كمال الدين محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزورى فى رسالة فوصل إليه وأقام معه فى العسكر فوقف يوما على خيمة الوزير حتى قارب أذان المغرب فعاد إلى خيمته فأذن المغرب وهو فى الطريق فرأى إنسانا فقيها فى خيمة فنزل إليه فصلى معه المغرب ثم سأله كمال الدين من أين هو فقال أنا قاضى مدينة كذا ، فقال له كمال الدين القضاة ثلاثة : قاضيان فى النار ، وهو أنا وأنت ، وقاض فى الجنة ، وهو من لم يعرف أبواب هؤلاء الظلمة ولا يراهم فلما كان الغد أرسل السلطان وأحضر كمال الدين إليه فلما دخل عليه ورآه ضحك . وقال القضاة

ثلاثة ، فقال كمال الدين نعم يا مولانا فقال والله صدقت ما أسعد من لا يرانا ولا نراه ثم أمر أن تقضى حاجته وأعاده من يومه وكان كريما عفيفا عن الأموال الى للرعايا حسن السيرة فيهم من أصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الأخلاق لطيفا فمن دلك أنه اجتاز يوما فى بعض أطراف بغداد فسمع امرأة تقول لأخرى انظرى إلى السلطان فوقف وقال حتى تجىء هذه الست تنظر إلينا وله فضائل كثيرة ومناقب جمة وكان عهد إلى ملكشاه ابن أخيه السلطان محمود فلما توفى خطب له الأمير خاص بك ورتب الأمور وقررها بين يديه وأذعن له جميع العسكر بالطاعة ولما وصل الخبر إلى بغداد بموت السلطان مسعود هرب الشحنة بها وهو مسعود بلال إلى تكريت واستظهر الخليفة المقتفى لأمر الله على داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ كل مالهم فيها وكل من كان عنده وديعة لأحد منهم أحضرها بالدايون وجمع الخليفة الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وتقدم بإراقة الخمور من مساكن أصحاب السلطان ووجد فى دار مسعود بلال شحنة بغداد كثير من الخمر فأريق ولم يكن الناس يظنون أنه شرب الخمر بعد الحج وقبض على المؤيد الأنوسى الشاعر وعلى الحيص بيص الشاعر ثم أطلق الحيص بيص وأعيد عليه ما أخذ منه ثم إن السلطان ملكشاه سير سلار كرد فى عسكر إلى الحلة فدخلها فسار إليه مسعود بلال شحنة بغداد وأظهر له الإتفاق معه فلما اجتمعا قبض عليه مسعود بلال وغرقه واستبد بالحلة فلما علم الخليفة ذلك جهز العساكر إليه مع عون الدين بن هبيرة فسار إليه فلما قاربوا الحلة عبر مسعود بلال الفرات إليهم وقاتلهم فانهزم من عسكر الخليفة ونادى أهل الحلة بشاعر الخليفة فلم يدخلها وتمت الهزيمة عليه وعلى أصحابه فعاد إلى تكريت وملك عسكر الخليفة الحلة وسير الوزير عسكرا إلى الكوفة وعسكرا إلى واسط فملكوها ثم إن عساكر السلطان وصلت إلى واسط ففارقها عسكر الخليفة فلما سمع الخليفة ذلك تجهز بنفسه وسار عن بغداد إلى واسط ففارقها العسكر السلطانى وملكها الخليفة وسار منها إلى الحلة ثم عاد إلى بغداد فوصلها تاسع عشر ذى القعدة وكانت غيبته خمسة وعشرين يوما ثم إن خاص بك بن بلنكرى قبض على الملك ملكشاه الذى خطب له بالسلطنة بعد مسعود وأرسل إلى أخيه الملك محمد سنة ثمان وأربعين وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمدا إليه فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة أوائل صفر وخطب له بالسلطنة وخدمه وبالغ فى خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم إنه دخل إلى الملك محمد ثانى يوم وصوله فقتله محمد وقتل معه زنكى الجاندار وألقى برأسهما فتفرق أصحابهما ولم ينتطح فيهما عنزان وكان أيدغدى التركمانى المعروف بشملة مع خاص بك فنهاه عن الدخول إلى الملك محمد فلم ينتبه فقتل ونجا شملة فنهب جشير الملك محمد ومضى طالبا خوزستان وأخذ محمد من أموال خاص بك شيئا كثيرا واستقر محمد فى السلطنة وتمكن وبقى خاص بك ملقى حتى أكلته الكلاب وكان صبيا تركمانيا اتصل بالسلطان مسعود فتقدم على سائر الأمراء ثم كان هذا خاتمة أمره .

﴿ ذكر الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج ﴾ فى هذه السنة تجمعت الفرنج وحشدت الفارس والراجل وساروا نحو نور الدين وهو ببلاد جوسلين ليمنعوه عن ملكها فوصوا إليه وهو بدلوك فلما قربوا منه رجع إليهم ولقيهم وجرى المصاف بينهم عند دلوك واقتتلوا أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج وقتل منهم وأسر كثير وعاد نور الدين إلى دلوك فملكها واستولى عليها ومما قيل فى ذلك :

أعدت بعصرك هذا الأنيـ * ـق فتوح النبى وأعصارها

Marfat.com

Marfat.com

فواطات ياحبذا أحدبها * وأسررت من بدر أبدارها
وكان مهاجرها تابعيـ * ـك وأنصار رأيك أنصارها
فجددت إســـلام سلمأنهـا * وعمر جـــدك عمارها
وما يوم أنب إلا كـذا * ك بل طال بالنوع أشبارها
صدمت عزيمتها صـــدمة * أذابت مع الماء أحجارها
وفى تل باشر باشرتهم * بزحف تســـور أسوارها
وإن دالـكتهم دلوك فقـــد * شددت فصدقت أخبارها

(ذكر الحرب بين سنجر والغورية) فى هذه السنه كان بين السلطان سنجر وبين الغورية حرب وكانت دولتهم أول ماقد ظهرت وأول من ملك منهم رجل اسمه الحسين بن الحسن ملك جبال الغور ومدينة فيروزكوه وهى تقارب أعمال غزنة وقوى أمره وتلقب بعلاء الدين وتعرض إلى أعمال ثم جمع جيشا وقصدهراة محاصراً لها فنهب عسكره ناب وأوبة وماربا د من هراة الرود وسار إلى بلخ وحصرها فقاتله الأمير قماج ومعه جمع من الغز فغدروا به وصاروا مع الغورى فملك بلخ فلما سمع السلطان سنجربذلك سار إليه ليمنعه فثبت له علاء الدين واقتتلوا فانهزم الغورية وأسر علاءالدين وقتل من الغورية خلق كثير لاسيما الرجالة وأحضر السلطان سنجر علاء الدين بين يديه وقال له يا حسين لوظفرت بى ما كنت تفعل فأخرج له قيد فضة وقال كنت أقيدك بهـذا وأحملك إلى فيروزكوه فخلع عليه سنجر ورده إلى فيروزكوه فبقى بهـا مدة ثم إنه قصـد غزنة وملـكها حينئذ بهرام شاه بن مسعود بن محمود بن سبكتـكين فلم يثبت بها بين يدى علاءالدين بل فارقها إلىمدينة كرمان وهى مدينة بين غزنة والهند وسكانها قوم يقال لهم أبغان وليست هذه بالولاية المعروفة بكرمان فلما فارق بهرام شاه غزنة ملـكها علاء الدين الغورى وأحسن السيرة فى أهلها واستعمل عليهم أخاه سيف الدين وأجلسه على تخت المملـكة وخطب لنفسه ولأخيـه سيف الدين بعده ثم عاد علاء الدين إلى بلد الغور وأمر أخاه أن يخلع على أعيان البلد خلعا نفيسة ويصلهم بصلات سنية ففعل ذلك وأحسن إليهم فلما جاء الشتاء ووقع الثلج وعلم أهل غزنة أن الطريق قدانقطع إليهم فـكاتبوا بهرام شاه الذى كان صاحبها واستدعوه إليهم فسار نحوهم فى عسكره فلما قارب البلد ثار أهله على سيف الدين فأخذوه بغير قتال وكان العلويين هم الذين تولوا أسره وانهزم الذين كانوا معه فمنهم من نجا ، ومنهم من أخذ ، ثم إنهم سودوا وجه سيف الدين وأركبوه بقرة وأطافوا به البلد ثم صلبوه وقالوا فيه أشعارا يهجونه وغنوا بها حتى النساء ، فلما بلغ الخبر إلى أخيه علاء الدين الحسين قال شعرا معناه إن لم أقلع غزنة فى مرة واحدة فلست الحسين بن الحسين ، ثم توفى بهرام شاه وملك بعده ابنه خسروشاه وتجهز علاء الدين الحسين وسار إلى غزنة سنة خمسين وخمسمائة فلما بلغ الخبر إلى خسروشاه سار عنها إلى لهاوور وملـكها علاء الدين ونهبها ثلاثة أيام وأخذ العلويين الذين أسروا أخاه فألقاهم من رؤوس الجبال وخرب المحلة التى صلب فيها وأخذ النساء اللواتى قيل عنهن أنهن كن يغنين بهجاء أخيه والغورية فأدخلهن حماما ومنعهن من الخروج حتى متن فيه وأقام بغزنة حتى أصلحها ثم عاد إلى فيروزكوه ونقل معه من أهل غزنة خلقا كثيرا وحملهم المخالى مملوءة ترابا فبنى به قلعة فى فيروزكوه وهى موجودة إلى الآن وتلقب بالسلطان المعظم وحمل الجنر على عادة السلاطين السلجوقية . وقد تقدم سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة من أخبارهم وفيه مخالفة لهذا فى

Marfat.com

بعض الأمر وكلا سمعناه ورأيناه فى مصنفاتهم فلهذا ذكرنا الأمرين وأقام الحسين على ذلك مدة واستعمل ابنى أخيه وهما غياث الدين وشهاب الدين .

﴿ذكر ملك غياث الدين وشهاب الدين الغوريين﴾ لما قوى أمر عمهما علاء الدين الحسين بن الحسين استعمل العمال والأمراء على البلاد ، وكان ابنا أخيه وهما غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام وشهاب الدين أبو المظفر محمد ابن سام فيمن استعمل على بلد من بلاد الغور اسمه سنجة وكان غياث الدين يلقب حينئذ شمس الدين ويلقب الآخر شهاب الدين فلما استعملهما أحسنا السيرة فى عملهما وعدلا وبذلا الأموال فمال الناس إليهما وانتشر ذكرهما فسعى بهما من يحسدهما إلى عمهما علاء الدين وقال إنهما يريدان الوثوب بك وقتلك والاستيلاء على الملك فأرسل عمهما يستدعيهما إليه فامتنعا وكانا قد علما الخبر فلما امتنعا جهز إليهما عسكرا مع قائد يسمى خروش الغورى فلما التقوا انهزم خروش ومن معه وأسر هو وأبقيا عليه وأحسنا إليه وخلعا عليه وأظهرا عصيان عمهما وقطعا خطبته فتوجه إليهما علاء الدين وسارا هما أيضا إليه فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم علاء الدين وأخذ اسيرا وانهزم عسكره فنادى فيهم ابنا أخيه بالامان فاحضرا عمهما وأجلساه على التخت ووقفا فى خدمته فبكى علاء الدين وقال هذان صبيان قد فعلا ما لو قدرت عليه منهما لم أفعله وأحضر القاضى فى الحال وزوج غياث الدين بنتا له وجعله ولى عهده وبقى كذلك إلى أن مات فلما توفى ملك غياث الدين بعده وخطب لنفسه فى الغور وغزنة بالملك وبقى كذلك إلى أن ملك الغز غزنة بعد موت علاء الدين طمعوا فيها بموته وبقيت بأيديهم خمس عشر سنة يصبون على أهلها العذاب ويتابعون الظلم كعادتهم فى كل بلدة ملكوها ولو أنهم لما ملكوا أحسنوا السيرة فى الرعايا لدام ملكهم فلم يزل الغز بغزنة هذه المدة وغياث الدين يقوى أمره ويحسن السيرة والناس يميلون إليه ويقصدونه محبة له .

﴿ ذكر ملك غياث الدين غزنة وما جاورها من البلاد ﴾ لما قوى أمر غياث الدين جهز جيشا كثيفا مع أخيه شهاب الدين إلى غزنة فيه أصناف الغورية والخلج والخراسانية فساروا إليها فلقيهم الغز وقاتلوهم فانهزم الغورية وثبت شهاب الدين فيمن ثبت معه على صاحب علمهم فقتله وأخذ العلم وتركه على حاله فتراجع الغز ولم يكونوا علموا بما كان من شهاب الدين فجاؤا يطلبون علمهم فكلما جاء إليه طائفة قتلهم فأتى على أكثرهم ودخل غزنة وتسلمها وأحسن السيرة فى أهلها وأفاض العدل وسار من غزنة إلى كرمان وشنوران فملكها ثم تعدى إلى ماء السند وعمل على العبور إلى بلد الهند وقصد لها وورد بها يومئذ خسروشاه بن بهرام شاه المقدم ذكر والده فلما سمع خسروشاه بذلك سار فيمن معه إلى ماء السند فمنعه من العبور فرجع عنه وقصد خرشابور فملكها وما يليها من جبال الهند وأعمال الأبغان والله أعلم .

﴿ذكر ملك شهاب الدين لهاوور﴾ لما ملك شهاب الدين جبال الهند قوى أمره وجنانه وعظمت هيبته فى قلوب الناس وأحبوه لحسن سيرته فلما خرج الشتاء وأقبل الربيع من سنة تسع وسبعين وخمسمائة سار نحو لهاوور فى جمع عظيم وحشد كثير من خراسان والغور وغيرها فعبر إلى لهاوور وحصرها وأرسل صاحبها خسروشاه إلى أهلها يتهددهم إن منعوه وأعلمهم أنه لا يزول حتى يملك البلد وبذل لخسروشاه الأمان على نفسه وأهله وماله ومن الاقطاع ما أراد وأن يزوج ابنته بابن خسروشاه على أن يطأ بساطه ويخطب لأخيه فامتنع عليه وأقام شهاب الدين محاصرا له مضيقا عليه فلما رأى أهل البلد والعسكر ذلك ضعفت نياتهم

فى نصرة صاحبهم فخذلوه فأرسل لما رأى ذلك قاضى البلد والخطيب يطلبون له الأمان فأجابه شهاب الدين إلى ذلك وحلف له وخرج اليه ودخل الغورية إلى المدينة وبقى كذلك شهرين مكرما عند شهاب الدين فورد رسول من غياث الدين إلى شهاب الدين بأمره بإنفاذ خسروشاه اليه .

﴿ذكر انقراض دولة سبكتكين﴾ لما أنفذ غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين يطلب إنفاذ خسروشاه اليه أمره شهاب الدين بالتجهز والمسير فقال أنا لا أعرف أخاك ولا لى حديث إلا معك ولا يمين إلا فى عنقك فمناه وطيب قلبه وجهزه وسيره وسير معه ولده وأصحبهما جيشا يحفظونهما فسارا كارهين فلما بلغا فرشابور خرج أهلها إليهما يبكون ويدعون لهما فزجرهم الموكلون بهما وقالوا سلطان يزور سلطانا آخر لأى شىء تبكون وضربوهم فعادوا وخرج ولد خطيبها إلى خسروشاه متوجعا له قال فلما دخلت عليه أعلمته رسالة أبى وقلت إنه قد اعتزل الخطابة ولا حاجة بى إلى خدمة غيركم فقال لى سلم عليه وأعطانى فرجة فوطا ومصلى من عمل الصوفية وقال هذه تذكرة أبيك عند أبى فسلمها إليه وقل له در مع الدهر كيفما دار وأنشد بلسان فصيح :

وليس كعهد الدار يا أم مالك * ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

قال فانصرفت إلى أبى وعرفته الحال فبكى وقال قد أيقن الرجل بالهلاك ثم رحلوا فلما بلغوا بلد الغور لم يجتمع بهما غياث الدين بل أمر بهما فرفعا إلى بعض القلاع فكان آخر العهد بهما وهو آخر ملوك آل سبكتكين وكان ابتداء دولتهم سنة ست وستين وثلثمائة فتكون مدة ولايتهم مائتى سنة وثلاث عشرة سنة تقريبا وكان ملوكهم من أحسن الملوك سيرة ولا سيما جدهم محمود فإن آثاره فى الجهاد معروفة وأعماله للآخرة مشهورة :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم * قوم بآبائهم أو مجدهم قعدوا

فتبارك الذى لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور فأف لهذه الدهور وأف لهذه الدنيا الدنية تفعل هذا بأبنائها نسأل الله تعالى أن يكشف عن قلوبنا حتى نراها بعين الحقيقة وأن يقبل بنا إليه وأن يشغلنا به عما سواه إنه على كل شىء قدير هكذا ذكر بعض فضلاء خراسان أن خسروشاه آخر ملوك آل سبكتكين وقد ذكر غيره أنه توفى فى الملك وملك بعده ابنه ملكشاه وسنذكره فى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبالجملة فابتداء دولة الغورية عندى فيها خلف لو ينكشف الحق فأصلحه إن شاء الله تعالى .

﴿ذكر الخطبة لغياث الدين بالسلطنة﴾ لما استقر ملكهم بلهاوور واتسعت مملكتهم وكثرت عساكرهم وأموالهم كتب غياث الدين إلى أخيه شهاب الدين بإقامة الخطبة له بالسلطنة وتلقب بألقاب السلاطين كان لقبه شمس الدين فتلقب غياث الدين والدنيا معين الإسلام قسيم أمير المؤمنين ولقب أخاه بعز الدين ففعل شهاب الدين ذلك وخطب له بالسلطنة .

﴿ذكر ملك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان﴾ لما فرغ شهاب الدين من إصلاح أمر لهاوور وتقرير قواعدها سار إلى أخيه غياث الدين فلما اجتمع به استقر رأيهما على المسير إلى خراسان وقصد مدينة هراة ومحاصرتها فسارا فى العساكر الكثيرة اليها وكان بها جماعة من الأتراك السنجرية فنازلا البلد وحصراه وضيقا على من به فاستسلموا اليهما وأرسلوا يطلبون الأمان منهما فأجاباهم إلى ذلك وأمناهم فتسلما البلد وأخرجا من فيه من الأمراء السنجرية واستناب فيه غياث الدين خزنك الغورى وسار غياث الدين وأخوه

Marfat.com

Marfat.com

إلى فوشنج فملكاها ثم إلى باذغيس وكالين وبيوار فملكاها أيضا وتسلم ذلك جميعه غياث الدين وأحسن السيرة فى أهل البلاد ورجع إلى فيروزكوه ورجع شهاب الدين إلى غزنة وكان ينبغى أن حوادث الغورية تذكر فى السنين وإنما جمعناها ليتلو بعضها بعضا ولأن فيه مالم يعرف تاريخه تركناه بحاله .

﴿ ذكر ملك شهاب الدين مدينة آجرة من بلد الهند ﴾ لما رجع شهاب الدين من خراسان إلى غزنة أقام بها حتى أراح واستراح هو وعساكره ثم سار إلى بلد الهند فحاصر مدينة آجرة وبها ملك من ملوك الهند فلم يظفر منه بطائل وكان للهندى زوجة غالبة على أمره فراسلها شهاب الدين أنه يتزوجها فأعادت الجواب أنها لا تصلح له وأنها لها ابنة جميلة تزوجه إياها فأرسل إليها يجيبها إلى التزويج بابنتها فسقت زوجها سما فمات وسلمت البلد إليه فلما تسلمه أخذ الصبية فأسلمت وتزوجها وحملها إلى غزنة وأجرى عليها الجرايات الوافرة ووكل بها من علمها القرآن وتشاغل عنها فتوفيت والدتها ثم توفيت هى بعد عشر سنين ولم يرها ولم يقربها فبنى لها مشهدا ودفنها فيه وأهل غزنة يزورون قبرها ثم عاد إلى بلد الهند فذل له صعابها وتيسر له فتح الكثير من بلادهم ودوخ ملوكهم وبلغ منهم مالم يبلغه أحد قبله من ملوك المسلمين .

﴿ ذكر ظفر الهند على المسلمين ﴾ لما اشتدت نكاية شهاب الدين فى بلاد الهند وإثخانه فى أهلها واستيلاؤه عليهم اجتمع ملوكهم وتآمروا بينهم ووبخ بعضهم بعضا فاتفق رأيهم على الاجتماع والتعاضد على حربه فجمعوا عساكرهم وحشدوا وأقبل إليهم الهنود من كل فج عميق على الصعب والذلول وجاؤا بحدهم وحديدهم وكان الحاكم على جميع الملوك المجتمعين امرأة هى من أكبر ملوكهم فلما سمع باجتماعهم ومسيرهم إليه تقدم هو أيضا إليهم فى عسكر عظيم من الغورية والخلج والخراسانية فالتقوا واقتتلوا فلم يكن بينهم كثير قتال حتى انهزم المسلمون وركبهم الهند يقتلون ويأسرون وأثخنوا فيهم وأصاب شهاب الدين ضربة بطلت منها يده اليسرى وضربة أخرى على رأسه سقط منها إلى الأرض وحجز الليل بين الفريقين فأحس شهاب الدين بجماعة من غلمانه الأتراك فى ظلمة الليل وهم يطلبونه فى القتلى ويبكون وقد رجع الهنود إلى ورائهم فكلمهم وهو على مابه من الجهد فجاؤا اليه مسرعين وحملوه على رؤسهم رجالة يتناوبون حمله حتى بلغوا مدينة آجرة مع الصباح وشاع خبر سلامته فى الناس فجاؤا اليه يهنؤنه من أقطار البلاد فأول ماعمل أنه أخذ أمراء الغورية الذين انهزموا عنه وأسلموه فملأ مخالى خيلهم شعيرا وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم فأكلوه ضرورة وبلغ الخبر إلى أخيه غياث الدين فأرسل اليه يلومه على عجلته وإقدامه وأنفذ إليه جيشا عظيما .

﴿ ذكر ظفر المسلمين بالهند ﴾ لما سلم شهاب الدين وعاد إلى آجرة وأتاه المدد من أخيه غياث الدين وعاد الهنود جددوا سلاحهم ووفروا جمعهم وأقاموا عوض من قتل منهم وسارت ملكتهم وهم معها فى عدد يضيق عنه الفضاء فراسلها شهاب الدين يخدعها بأنه يتزوجها فلم تجبه إلى ذلك وقالت إما الحرب وإما أن تسلم بلاد الهند وتعود إلى غزنة فأجابها إلى العود إلى غزنة وأنه يستأذن أخاه غياث الدين فعل ذلك مكرا وخديعة وكان بين العسكرين نهر وقد حفظ الهنود المخاضات فلا يقدر أحد من المسلمين أن يجوزه وأقاموا ينتظرون ما يكون من جواب غياث الدين بزعمهم فبينما هم كذلك إذ وصل إنسان هندى إلى شهاب الدين وأعلمه أنه يعرف مخاضا قريبا من عسكر الهنود وطلب أن يرسل معه جيشا يعبرهم المخاض ويكبسون الهنود وهم غارون آمنون فخاف شهاب الدين أن تكون خديعة ومكرا فأقام له ضمناء من أهل آجرة والمولتان فأرسل معه جيشا

كثيفاً وجعل عليهم الأمير الحسين بن خرمبل الغورى وهو الذى صار بعد صاحب هراة وكان من الشجاعة والرأى بالمنزلة المشهورة فسار الجيش مع الهندى فعبروا النهر فلم يشعر الهنود إلا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم فاشتغل الموكلون بحفظ الخاضات، فعبر شهاب الدين وباقى العساكر وأحاطوا بالهنود وأكثروا القتل فيهم ونادوا بشعار الإسلام فلم ينج من الهنود إلا من عجز المسلمون عن قتله وأسره وقتلت ملكهم وتمكن شهاب الدين بعد هذه الوقعة من بلاد الهند وأمن معرة فسادهم والتزموا له بالأموال وسلموا إليه الرهائن وصالحوه وأقطع مملوكه قطب الدين أيبك مدينة دهلى وهى كرسى الممالك التى فتحها من الهند فأرسل عسكرا من الخلج مع محمد بن بختيار فملكوا من بلاد الهند مواضع ما وصل إليها مسلم قبله حتى قاربوا حدود الصين من جهة المشرق وقد حدثنى صديق لى من التجار بوقعتين تشبه هاتين الوقعتين المذكورتين وبينهما بعض الخلاف وقد ذكرناهما سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة توفى يعقوب الكاتب ببغداد وكان يسكن بالمدرسة النظامية وحضر متولى التركات وختم على الغرفة التى كان يسكنها بالمدرسة فثار الفقهاء وضربوا المتولى وهذه عادتهم فيمن يموت بها وليس له وارث فقبض حاجب الباب على رجلين من الفقهاء وعاقبهما وحبسهما فأغلق الفقهاء المدرسة وألقوا كرسى الوعاظ فى الطريق وصعدوا سطح المدرسة ليلا واستغاثوا وتركوا الأدب وكان حينئذ مدرسهم الشيخ أبا النجيب فجاء وألقى نفسه تحت التاج يعتذر فعفى عنه. وفيها توفى حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وميافارقين وكانت ولايته نيفا وثلاثين سنة، وتولى بعده ابنه نجم الدين ألبى. وفيها مات أبو الفضل محمد بن عمر ابن يوسف الأرموى الشافعى المحدث ومولده سنة تسع وخمسين وأربعمائة. وفيها توفى أبو الأسعد عبد الرحمن القشيرى فى شوال وهو شيخ شيوخ خراسان. وفيها فى المحرم باض ديك ببغداد بيضة وباض بازى بيضتين وباضت نعامة لاذكر معها بيضة(١)

﴿ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر انهزام سنجر من الغز ونهبهم خراسان وما كان منهم﴾ فى هذه السنة فى المحرم انهزم السلطان سنجر من الأتراك الغز وهم طائفة من الترك مسلمون كانوا بما وراء النهر فلما ملك الخطا أخرجوهم منه كما ذكرنا فقصدوا خراسان وكانوا خلقا كثيرا فأقاموا بنواحى بلخ يرعون فى مراعيها وكان لهم أمراء اسم أحدهم دينار والآخر بختيار والآخر طوطى والآخر أرسلان والآخر جفز والآخر محمود فأراد الأمير قماج وهو مقطع بلخ إبعادهم فصانعوه بشىء بذلوه له فعاد عنهم فأقاموا على حالة حسنة لا يؤذون أحدا ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ثم إن قماج عاودهم وأمرهم بالانتقال عن بلده فامتنعوا وانضم بعضهم إلى بعض واجتمع معهم غيرهم

---

(١) وفيها توفى المظفر بن أردشير أبو منصور العبادى، الواعظ، سمع الحديث ودخل إلى بغداد فأملى ووعظ، وكان الناس يكتبون مايعظ به، فاجتمع له من ذلك مجلدات. قال ابن الجوزى. لاتكاد تجد فى المجلد خمس كلمات جيدة، وتكلم فيه وأطال الحط عليه، واستحسن من كلامه قوله: وقد سقط مطر وهو يعظ الناس، وقد ذهب الناس إلى تحت الجدران، فقال لاتفروا من رشاش ماء رحمة قطر من سحاب نعمة، ولكن فروا من رشاش نار اقتدح من زناد الغضب. توفى وقد جاوز الخمسين بقليل.

Marfat.com

من طوائف الترك فسار قماج إليهم فى عشرة آلاف فارس فجاء إليه أمراؤهم وسألوه أن يكف عنهم ويتركهم فى مراعيهم ويعطونه من كل بيت مائتى درهم فلم يجبهم إلى ذلك وشدد عليهم فى الانتزاح عن بلده فعادوا عنه واجتمعوا وقاتلوه فانهزم قماج ونهبوا ماله ومال عسكره وأكثروا القتل فى العسكر والرعايا واسترقوا النساء والأطفال وعملوا كل عظيمة وقتلوا الفقهاء وخربوا المدارس وانتهت الهزيمة بقماج إلى مرو وبها السلطان سنجر فأعلمه الحال فراسلهم سنجر يتهددهم فأمرهم بمفارقة بلاده فاعتذروا وبذلوا بذلا كثيرا ليكف عنهم ويتركهم فى مراعيهم فلم يجبهم إلى ذلك وجمع عساكره من أطراف البلاد واجتمع معه مايزيد على مائة ألف فارس وقصدهم ووقع بينهم حرب شديد فانهزمت عساكر سنجر وانهزم هو أيضا وتبعهم الغز قتلا وأسرا فصار قتلى العسكر كالتلال وقتل علاء الدين قماج وأسر السلطان سنجر وأسر معه جماعة من الأمراء فأما الامراء فضربوا أعناقهم وأما السلطان سنجر فإن أمراء الغز اجتمعوا وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا نحن عبيدك لانخرج عن طاعتك فقد علمنا أنك لم ترد قتالنا وإنما حملت عليه فأنت السلطان ونحن العبيد فمضى على ذلك شهران أوثلاثة ودخلوا معه إلى مرو وهى كرسى ملك خراسان وطلبها منه بختيار أقطاعا فقال السلطان هذه دار الملك ولا يجوز أن تكون أقطاعا لأحد فضحكوا منه وحنق له بختيار بغمه فلما رأى ذلك نزل عن سرير الملك ودخل خانكاه مرو وتاب عن الملك واستولى الغز على البلاد وظهر منهم من الجور مالم يسمع بمثله وولوا على نيسابور واليا فقسط على الناس كثيرا وعسفهم وضربهم وعلق فى الأسواق ثلاث غرائر وقال أريد ملء هذه ذهبا فثار عليه العامة فقتلوه ومن معه فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها نهبا مجحفا وجعلوها قاعا صفصفا وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها وقتلوا القضاة والعلماء فى البلاد كلها فممن قتل الحسين بن محمد الأرسابندى والقاضى على بن مسعود والشيخ محيي الدين محمد بن يحيي وأكثر الشعراء فى مراثى محمد بن يحيي فمن قال فيه على بن إبراهيم الكاتب .

مضى الذى كان يحنى الدر من فيه * يسيل بالفضل والإفضال واديه
مضى ابن يحيى الذى قد كان صوب حيا * لابر شهر ومصباحا لداجيه
خلا خراسان من علم ومن ورع * لما نعاه إلى الآفاق ناعيه
لما أماتوه مات الدين وأسفا * من ذا الذى بعد محيي الدين يحييه

ويتعذر وصف ماجرى منهم بتلك البلاد جميعها ولم يسلم من خراسان شىء لم تنهبه الغز غير هراة ودهستان لأنها كانت حصينة فامتنعت وقد ذكر بعض مؤرخى خراسان من أخبارهم مافيه زيادة وضوح وقال إن هؤلاء الغز قوم انتقلوا من نواحى الثغر من أقاصى الترك إلى ماوراء النهر فى أيام المهدى وأسلموا واستنصر بهم المقنع صاحب المخاريق الشعبذة حتى تم أمره فلما سارت العساكر إليه خذله هؤلاء الغز وأسلموه وهذه عادتهم فى كل دولة كانوا فيها وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الخاقانية إلا أن الأتراك القارغلية قمعوهم وطردوهم عن أوطانهم فدعاهم الأمير زنكى بن خليفة الشيبانى المستولى على حدود طخارستان إليه وأنزلهم بلاده وكانت بينه وبين الأمير قماج عداوة أحكمتها الأيام للمجاورة التى بينهما وكل منهما يريد أن يعلو على الآخر ويحكم عليه فتقوى بهم زنكى وساروا معه إلى بلخ لمحاربة قماج فكاتبهم قماج فمالوا إليه وخذلوا زنكى عند الحرب فأخذ زنكى وابنه أسيرين فقتل قماج ابن زنكى وجعل يطعم أباه لحمه ثم قتل الأب أيضا وأقطع قماج الغز

Marfat.com

مواضع وأباحهم مراعى بلاده فلما قام الحسين بن الحسين الغورى وقصد بلخ خرج إليه قماج وعساكره ومعه الغز ففارقه الغز وانضموا إلى الغورى حتى ملك مدينة بلخ فسار السلطان سنجر إلى بلخ ففارقها الغورى بعد قتال انهزم منه ثم دخل إلى السلطان سنجر لعجزه عن مقاومته فرده إلى غزنة وبقى الغز بنواحى طخارستان وفى نفس قماج منهم الغيظ العظيم لما فعلوه معه فأراد صرفهم عن بلاده فتجمعوا وانضم إليهم طوائف من الترك وقدموا عليهم أرسلان موقا التركى فجمع أرسلان قماج عسكره ولقيهم فاقتتلوا يوما كاملا إلى الليل فانهزم قماج وعسكره وأسر هو وابنه أبو بكر فقتلوهما واستولى على نواحى بلخ وعاثوا فيها وأفسدوا بالنهب والقتل والسلب وبلغ السلطان سنجر الخبر فجمع عساكره وسار إليهم فراسلوه يعتذرون ويتنصلون فلم يقبل عذرهم ووصل اليهم مقدمة السلطان . وفيها محمد بن أبى بكر بن قماج المقتول والمؤيد أى أبه فى المحرم من سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ووصل بعدهم السلطان سنجر فالتقاه الغز بعد أن أرسلوا يعتذرون ويبذلون الأموال والطاعة والانقياد إلى كل مايؤمرون به فلم يقبل سنجر ذلك منهم وسار إليهم فلقوه وقاتلوه وصبروا له ودام قتالهم فانهزم عسكر سنجر وهو معهم فتوجهوا إلى بلخ على أقبح صورة وتبعهم الغز واقتتلوا مرة ثانية فانهزم السلطان سنجر أيضا ومضى منهزما إلى مرو فى صفر من السنة فقصد الغز اليها فلما سمع العسكر الخراسانى بقربهم منهم أجفلوا من بين أيديهم هاربين لما دخل فى قلوبهم من خوفهم والرعب منهم. فلما فارقها السلطان والعسكر دخلها الغز ونهبوها أفحش نهب وأقبحه وذلك فى جمادى الأولى من السنة وقتل بها كثير من أهلها وأعيانها منهم قاضى القضاة الحسن بن محمد الأرسابندى والقاضى على بن مسعود وغيرهما من الأئمة العلماء ولما خرج سنجر من مرو قصد بوزابة وأخذه الغز أسيرا وأجلسوه على تخت السلطنة على عادته وقاموا بين يديه وبذلوا له الطاعة ثم عاودوا الغارة على مرو فى رجب من السنة فمنعهم أهلها وقاتلوهم قتالا شديدا بذلوا فيه جهدهم وطاقتهم ثم إنهم عجزوا فاستسلموا اليهم فنهبوها أقبح من النهب الأول لم يتركوا بها شيئا وكان قد فارق سنجر جميع أمراء خراسان ووزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك ولم يبق عنده غير نفر يسير من خواصه وخدمه فلما وصلوا إلى نيسابور أحضروا الملك سليمان شاه بن السلطان محمود فوصل إلى نيسابور تاسع عشر جمادى الآخرة من السنة فاجتمعوا عليه وخطبوا له بالسلطنة وسار فى هذا الشهر جماعة من العسكر السلطانى إلى طائفة كثيرة من الغز فاوقعوا بهم وقتلوا منهم كثيرا وانهزم الباقون إلى أمرائهم الغزية فاجتمعوا معهم ولما اجتمعت العساكر على الملك سليمان شاه وساروا إلى مرو يطلبون الغز فبرز الغز إليهم فساعة رآهم العسكر الخراسانى انهزموا وولوا على أدبارهم وقصدوا نيسابور وتبعهم الغز فمروا بطوس وهى معدن العلماء والزهاد فنهبوها وسبوا نساءها وقتلوا رجالها وخربوا مساجدها ومساكن أهلها ولم يسلم من جميع ولاية طوس إلا البلد الذى فيه مشهد على بن موسى الرضا ومواضع أخر يسيرة لها أسوار وممن قتل من أعيان أهلها إمامها محمد المارشكى ونقيب العلويين بها على الموسوى وخطيبها اسمعيل بن المحسن وشيخ شيوخها محمد بن محمد وأفنوا من بها من الشيوخ الصالحين وساروا منها إلى نيسابور فوصلوا إليها فى شوّال سنة تسع وأربعين ولم يجدوا دونها مانعا ولا مدافعا فنهبوها نهبا ذريعا وقتلوا أهلها فأكثروا حتى ظنوا أنهم لم يبقوا بها أحدا حتى أنه أحصى فى محلتين خمسة عشر ألف قتيل من الرجال دون النساء والصبيان وسبوا نساءها وأطفالها وأخذوا أموالها وبقى القتلى فى الذروب كالتلال بعضهم فوق بعض واجتمع أكثر أهلها بالجامع المنبعى تحصنوا به

Marfat.com

فحصرهم الغز فعجز أهل نيسابور من منعهم فدخل الغز إليهم فقتلوهم عن آخرهم وكانوا يطلبون من الرجال المال فإذا أعطاهم أحد قتلوه وقتلوا كثيرا من أئمة العلماء والصالحين منهم محمد بن يحيى الفقيه الشافعى الذى لم يكن فى زمانه مثله كان رحلة الناس من أقصى الغرب والشرق اليه ورثاه جماعة من العلماء منهم أبو الحسن على ابن أبى القاسم البيهقى فقال :

ياسافكا دم عالم متبحر ٭ قد طار فى أقصى الممالك صيته
بالله قل لى ياظلوم ولاتخف ٭ من كان محيى الدين كيف تميته

منهم الزاهد عبد الرحمن بن عبد الصمد الأكاف وأحمد بن الحسين الكاتب سبط القشيرى وأبو البركات الفراوى والإمام على الصباغ المتكلم وأحمد بن محمد بن حامد وعبد الوهاب المقاباذى والقاضى صاعد بن عبد الملك بن صاعد والحسن بن عبد الحميد الرازى وخلق كثير من الأئمة والزهاد والصالحين وأحرقوا ما بها من خزائن الكتب ولم يسلم إلا بعضها وحصروا شارستان وهى منيعة فأحاطوا بها وقاتلهم أهلها من فوق سورها وقصدوا جوين وبذلوا نفوسهم لله تعالى وأحموا بيضتهم والباقى أتى النهب والقتل عليه ثم قصدوا اسفراين فنهبوها وخربوها وقتلوا فى أهلها فأكثروا وممن قتل عبد الرشيد الأشعثى وكان من أعيان دولة السلطان فتركها وأقبل على الاشتغال بالعلم وطلب الآخرة وأبو الحسن الفندورجى وكان من ذوى الفضائل لاسيما فى علم الأدب ولما فرغ الغز من جوين واسفراين عادوا إلى نيسابور فنهبوا ما بقى فيها بعد النهب الأول وكان قد لحق بشهرستان كثير من أهلها فحصرهم الغز واستولوا عليها ونهبوا ما كان فيها لأهلها ولأهل نيسابور وهتكوا الحرم والأطفال وفعلوا ما لم يفعله الكفار مع المسلمين وكان العيارون أيضا ينهبون نيسابور أشد من نهب الغز ويفعلون أقبح من فعلهم ثم إن السلطان سليمان شاه ضعف وكان قبيح السيرة سيء التدبير وأن وزيره طاهر بن فخر الملك ابن نظام الملك توفى فى شوال سنة ثمان وأربعين فضعف أمره واستوزر سليمان شاه بعده ابنه نظام الملك أبا على الحسن بن طاهر وانحل أمر دولته بالكلية ففارق خراسان فى صفر سنة تسع وأربعين وعاد إلى جرجان فاجتمع الأمراء وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن أخت السلطان صنجر وخطبوا له على منابر خراسان واستدعوه إليهم فملكوه أمورهم وانقادوا له فى شوال سنه تسع وأربعين وخمسمائة وساروا معه إلى الغز وهم يحاصرون هراة وجرت بينهم حروب كان الظفر فى أكثرها للغز ورحلوا فى جمادى الأولى من سنة خمسين وخمسمائة وسار معهم من على هراة إلى مرو وعاودوا المصادرة لأهلها وسار الخان محمود بن محمد إلى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد على ما نذكره وراسل الغز فى الصلح فاصطلحوا فى رجب من سنة خمسين وخمسمائة هدنة على دخل وسيرد باقى أخبارهم سنة اثنتين وخمسين .

(ذكر ملك المؤيد نيسابور وغيرها) كان للسلطان سنجر مملوك اسمه أى أبه ولقبه المؤيد فلما كانت هذه الفتنة تقدم وعلا شأنه وأطاعه كثير من الأمراء فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وابيورد وشهرستان والدامغان وأزاح الغز عن الجميع وقتل منهم خلقا كثيرا وأحسن السيرة وعدل فى الرعية واستمال الناس ووفر الخراج على أهله وبالغ فى مراعاة أرباب البيوت فاستقرت البلاد له ودانت له الرعية لحسن سيرته وعظم شأنه وكثرت جموعه فراسله خاقان محمود بن محمد فى تسليم البلاد والحضور عنده فامتنع وترددت الرسل بينهم حتى استقر على المؤيد مال يحمله إلى الملك محمود فكف عنه محمود وأقام المؤيد بالبلاد هو والسلطان محمود .

Marfat.com

(ذكر ملك ايتاخ الرى) كان ايتاخ أحد مماليك السلطان سنجر فلما كان من فتنة الغز ما ذكرناه هرب من خراسان ووصل إلى الرى فاستولى عليها وأقام بها وأرسل السلطان محمد شاه بن محمود صاحب همذان وأصفهان وغيرهما يخدمه وهاداه وأرضاه وأظهر له الطاعة وبقى بها إلى مات السلطان محمد فاستولى على عدة بلاد تجاور الرى فملكها فعظم أمره وعلا شأنه وصارت عساكره عشرة آلاف فارس فلما ملك سليمان شاه همذان على ما نذكره حضر عنده وأطاعه لأنسه به كان أيام مقام سليمان شاه بخراسان فتقوى أمره بذلك.

(ذكر قتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس) فى هذه السنة فى المحرم قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله قتله ربيبه عباس بن أبى الفتوح بن يحيى الصنهاجى أشار إليه بذلك الأمير أسامة بن منقذ ووافق عليه الخليفة الظافر بالله فأمر ولده نصرا فدخل على العادل وهو عند جدته أم عباس فقتله وولى الوزارة بعده ربيبه عباس وكان عباس قد قدم من المغرب كما ذكرناه إلى مصر وتعلم الخياطة وكان خياطا حسنا فلما تزوج ابن السلار بأمه أحبه وأحسن تربيته فجازاه بأن قتله وولى بعده وكانت الوزارة فى مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتملكين وقل أن وليها أحد بعد الأفضل إلا بحرب وقتل وماشاكل ذلك فلذلك ذكرناهم فى تراجم مفردة. والله أعلم.

(ذكر الحرب بين العرب وعساكر عبدالمؤمن) فى هذه السنة فى صفر كانت الحرب بين عسكر عبدالمؤمن والعرب عند مدينة شطيف وسبب ذلك أن العرب وهم بنو هلال والاثبج وعدى ورياح وزغب وغيرهم من العرب لما ملك عبدالمؤمن بلاد بنى حماد اجتمعوا من أرض طرابلس إلى أقصى المغرب وقالوا إن جاورنا عبدالمؤمن أجلانا من المغرب وليس الرأى إلا إلقاء الجد معه وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكن وتحالفوا على التعاون والتظافر وأن لا يخون بعضهم بعضا وعزموا على لقائه بالرجال والأهل والمال ليقاتلوه فقال الحريم واتصل الخبر بالملك رجار الفرنجى صاحب صقلية فأرسل إلى أمراء العرب وهم محرز بن زياد وجبارة بن كامل وحسن بن ثعلب وعيسى بن حسن وغيرهم يحثهم على لقاء عبدالمؤمن ويعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج يقاتلون معهم على شرط أن يرسلوا إليه الرهائن فشكروه وقالوا ما بنا حاجة إلى نجدته ولا نستعين بغير المسلمين وساروا فى عدد لا يحصى وكان عبدالمؤمن قد رحل من بجاية إلى بلاد المغرب فلما بلغه خبرهم جهز من الموحدين ما يزيد على ثلاثين ألف فارس واستعمل عليهم عبدالله بن عمر الهنتاتى وسعد الله بن يحيى وكان العرب أضعافهم فاستجرهم الموحدون وتبعهم العرب إلى أن وصلوا إلى أرض شطيف بين جبال فحمل عليهم عسكر عبد المؤمن والعرب على غير أهبة التقى الجمعان واقتتلوا أشد قتال وأعظمه فانجلت المعركة عن انهزام العرب ونصرة الموحدين وترك العرب جميع مالهم من أهل ومال وأثاث ونعم فأخذ الموحدون جميع ذلك وعاد الجيش إلى عبد المؤمن بجميعه فقسم جميع الأموال على عسكره وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط ووكل بهم من الخدم الخصيان من يخدمهم ويقوم بحوائجهم وأمر بصيانتهم فلما وصلوا معه إلى مراكش أنزلهم فى المساكن الفسيحة وأجرى لهم النفقات الواسعة وأمر عبدالمؤمن ابنه محمدا أن يكاتب أمراء العرب ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الحفظ والصيانة وأنه قد بذل لهم الأمان والكرامة. فلما وصل كتاب محمد إلى العرب سارعوا إلى المسير إلى مراكش فلما وصلوا إليها أعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن إليهم وأعطاهم أموالا جزيلة فاسترق قلوبهم بذلك وأقاموا عنده وكان بهم حفيا واستعان بهم على ولاية ابنه محمد للعهد على

Marfat.com

مانذكره سنة إحدى وخمسين .

﴿ ذكر ملك الفرنج مدينة بونة وموت راجار وملك ابنه غليالم ﴾ فى هذه السنة سار أسطول رجار ملك الفرنج بصقلية إلى مدينة بونة وكان المقدم عليهم فتاه فيلب المهدوى فحصرها واستعان بالعرب عليها فأخذها فى رجب وسبى أهلها وملك ما فيها غير أنه أغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتى خرجوا بأهليهم وأموالهم إلى القرى فأقام بها عشرة أيام وعاد إلى المهدية وبعض الأسرى معه وعاد إلى صقلية فقيض رجار عليه لما اعتمد من الرفق بالمسلمين فى بونة وكان فيلب يقال إنه وجميع فتيانه مسلمون يكتمون ذلك وشهدوا عليه أنه لا يصوم مع الملك وأنه مسلم فجمع له رجار الأساقفة والقسوس والرهبان فحكموا بأن يحرق فأحرق فى رمضان وهذا أول من دخل على المسلمين بصقلية ولم يمهل الله رجار بعده إلا يسيرا حتى مات فى العشر الأول من ذى الحجة من السنة وكان مرضه الخوانيق وكان عمره قريب ثمانين سنة وكان ملكه نحو عشرين سنة ولما مات ملك بعده ابنه غليالم وكان فاسد التدبير سيء التصوير فاستوزر مايو البرصانى فأساء التدبير فاختلفت عليه حصون من جزيرة صقلية وبلاد قلورية وتعدى الأمر إلى أفريقية على ما نذكره .

﴿ ذكر وفاة بهرام شاه صاحب غزنة ﴾ فى هذه السنة فى رجب توفى السلطان بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة بها وكانت ولاية بهرام شاه ستا وثلاثين سنة وكان عادلا حسن السيرة جميل الطريقة محبا للعلماء مكرما لهم باذلا لهم الأموال الكثيرة جامعا للكتب تقرأ بين يديه ويفهم مضمونها ولما مات ملك ولده خسروشاه الملك بعده .

﴿ ذكر ملك الفرنج مدينة عسقلان ﴾ فى هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جملة مملكة الظافر بالله العلوى المصرى وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون إلى ملكها سبيلا وكان الوزراء بمصر لهم الحكم فى البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته وكان الوزراء كل سنة يرسلون إليها من الذخائر والأسلحة والأموال والرجال من يقوم بحفظها فلما كان فى هذه السنة قتل ابن السلار على ما ذكرناه واختلفت الأهواء فى مصر وولى عباس الوزارة وإلى أن استقرت قاعدة اغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان فاجتمعوا وحصروها فصبر أهلها وقاتلوهم قتالا شديدا حتى أنهم بعض الأيام قاتلوا خارج السور وردوا الفرنج إلى خيامهم مقهورين وتبعهم أهل البلد إليها فأيس حينئذ الفرنج من ملكه فبيناهم على عزم الرحيل إذ قد أتاهم الخبر أن البلد قد وقع بين أهله خلاف وقتل منهم قتلى فصبروا وكان سبب هذا الاختلاف أنهم لما عادوا عن قتال الفرنج قاهرين منصورين ادعى كل طائفة منهم أن النصرة من جهتهم كانت وأنهم هم الذين ردوا الفرنج خاسرين فعظم الخصام بينهم إلى أن قتل من إحدى الطائفتين قتيل واشتد الخطب وعظم حينئذ وتفاقم الشر ووقعت الحرب بينهم فقتل بينهم قتلى فطمع الفرنج وزحفوا إليه وقاتلوا عليه فلم يجدوا من يمنعهم فملكوه .

﴿ ذكر حصر عسكر الخليفة تكريت وعودهم عنها ﴾ فى هذه السنة سير الخليفة المقتفى لأمر الله عسكرا إلى تكريت ليحصروها وأرسل معهم مقدما عليهم ابن الوزير عون الدين بن هبيرة وترشك وهو من خواص الخليفة وغيرهما فجرى بين ابن الوزير وترشك منافرة أوجبت أن كتب ابن الوزير يشكو من ترشك فأمر الخليفة بالقبض على ترشك فعرف ذلك فأرسل إلى مسعود بلال صاحب تكريت فصالحه وقبض على ابن الوزير ومن معه من المقدمين وسلمهم إلى مسعود بلال فانهزم العسكر وغرق منه كثير وسار مسعود بلال وترشك

Marfat.com

من تكريت إلى طريق خراسان فنهبا وأفسدا فسار المقتفى عن بغداد لدفعهما فهربا من بين يديه فقصد تكريت فحصرها أياما وجرى له مع أهلها حروب من وراء السور فقتل من العسكر جماعة بالنشاب فعاد الخليفة عنها ولم يملكها.

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة وصلت مراكب من صقلية. فيها جمع من الفرنج فنهبوا مدينة تنيس بالديار المصرية. وفيها كان بين الكرج بأرمينية وبين صلتق صاحب أرزن الروم مصاف وحرب شديد وانهزم صلتق وأسره الكرج ثم أطلقوه. وفيها توفى أبو العباس أحمد بن أبى غالب الوراق المعروف بابن الطلاية الزاهد البغدادى بها وكان من الصالحين، وله حديث ورواية وتوفى عبد الملك بن عبد الله بن أبى سهل أبو الفتح بن أبى القاسم الكروخى الهروى راوى جامع الترمذى ومولده سنة اثنتين ومن طريقه سمعناه. (١)

﴿ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر قتل الظافر وولاية ابنه الفائز﴾ فى هذه السنة فى المحرم قتل الظافر بالله أبو المنصور اسمعيل بن الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوى صاحب مصر وكان سبب قتله أن وزيره عباسا كان له ولد اسمه نصر فأحبه الظافر وجعله من ندمائه الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة فاتفق أن قدم من الشام مؤيد الدولة الأمير أسامة بن منقذ الكنانى فى وزارة ابن السلار واتصل بعباس فحسن له قتل العادل بن السلار زوج أمه فقتله وولاه الظافر الوزارة فاستبد بالأمر وتم له ذلك وعلم الأمراء والأجناد أن ذلك من فعل ابن منقذ فعزموا على قتله فخلا بعباس وقال له كيف تصبر على ما أسمع من قبيح القول قال وما ذاك قال الناس يزعمون أن الظافر يفعل بابنك نصر وكان نصر خصيصا بالظافر وكان ملازما له ليله ونهاره وكان من أجمل الناس صورة وكان الظافر يتهم به فانزعج لذلك وعظم عليه وقال كيف الحيلة قال تقتله فيذهب عنا العار فذكر الحال لولده نصر فاتفقا على قتله وقيل إن الظافر أقطع نصر بن عباس قرية قليوب وهى من أعظم قرى مصر فدخل اليه مؤيد الدولة بن منقذ وهو عند أبيه عباس قال له نصر قد أقطعنى مولانا قرية قليوب فقال له مؤيد الدولة ماهى فى مهرك بكثير فعظم عليه وعلى أبيه وأنف من هذه الحال وشرع فى قتل الظافر فأمر ابنه فحضر نصر عند الظافر وقال له أشتهى أن تجىء إلى دارى لدعوة صنعتها ولا تكثر من الجمع فمشى معه فى نفر يسير من الخدم ليلا فلما دخل الدار قتله ومن معه وأفلت خويدم صغير اختبأ فلم يروه ودفن القتلى فى داره وأخبر أباه عباسا الخبر فبكر إلى القصر وطلب من الخدم الخصيصين بخدمة الظافر أن يطلبوا له إذنا فى الدخول عليه لأمر يريد أن يأخذ رأيه فيه فقالوا إنه ليس فى القصر فقال لابد منه وكان غرضه أن ينفى التهمة عنه بقتله وأن يقتل كل من بالقصر ممن يخاف أن ينازعه فيمن يقيمه فى الخلافة فلما ألح عليهم عجزوا عن إحضاره فبينما هم يطلبونه حائرين دهشين لا يدرون ما الخبر إذ وصل اليهم الخويدم الصغير الذى شاهد قتله وقد هرب من دار عباس عند غفلتهم عنه وأخبرهم بقتل الظافر فخرجوا إلى عباس وقالوا له سل ولدك عنه فإنه يعرف أين هو لأنهما خرجا جميعا فلما سمع ذلك منهم قال أريد أن أعترض القصر لئلا

---

(١) وفيها كانت وفاة الشاعرين القرينين الشهيرين بالفرزدق وجرير فى الزمان الأخير: وهما أبو الحسن أحمد ابن منير الجونى بحلب، وأبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسرانى الحلبى بدمشق، وعلى بن السلار الملقب بالعادل وزير الظاهر صاحب مصر، وهو بانى المدرسة بالاسكندرية للشافعية للحافظ أبى طاهر السلفى، وقد كان العادل هذا ضد اسمه، كان ظلوما غشوما حطوما، وقد ترجمه ابن خلكان.

Marfat.com

Marfat.com

يكون قد اغتاله أحد من أهله فاستعرض القصر فقتل أخوين للظافر وهما يوسف وجبريل وأجلس الفائز بنصر الله أبا القاسم عيسى بن الظافر بأمر الله اسمعيل ثانى يوم قتل أبوه وله من العمر خمس سنين فحمله عباس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد ولم يترك فيه إلا ما لا خير فيه.

﴿ذكر وزارة الملك الصالح بن رزيك﴾ كان السبب فى وزارة الملك الصالح بن رزيك أن عباسا لما قتل الظافر وأقام الفائز ظن أن الأمر يتم له على ما يريده فكان الحال خلاف ما اعتقده فإن الكلمة اختلفت عليه وثار به الجند والسودان وصار إذا أمر بالأمر لا يلتفت إليه ولا يسمع قوله فأرسل من القصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بن رزيك يستغيثون به وأرسلوا شعورهم على الكتب وكان فى منية بنى خصيب واليا عليها وليست من الأعمال الجليلة وإنما كانت أقرب الأعمال إليهم وكان فيه شهامة فجمع ليقصد عباسا وسار إليه فلما سمع عباس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الأموال التى لا تحصى كثرة والتحف والأشياء التى لا توجد إلا هناك مما كان أخذه من القصر فلما سار وقع به الفرنج فقتلوه وأخذوا جميع ما معه فتقووا به وسار الملك الصالح فدخل القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزنا على الظافر والشعور التى أرسلت إليه من القصر على رؤس الرماح وكان هذا من الفأل العجيب فإن الأعلام السواد العباسية دخلتها وأزالت الأعلام العلوية بعد خمس عشرة سنة ولما دخل الصالح القاهرة خلع عليه خلع الوزارة واستقر فى الأمر وأحضر الخادم الذى شاهد قتل الظافر فأراه موضع دفنه فأخرجه ونقله إلى مقابرهم بالقصر ولما قتل الفرنج عباسا أسروا ابنه فأرسل الملك الصالح إلى الفرنج وبذل لهم مالا وأخذه منهم فسار من الشام مع أصحاب الصالح فلم يكلم أحدا منهم كلمة واحدة إلى أن رأى القاهرة فأنشد:

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالى والجدود العواثر

وأدخل القصر فكان آخر العهد به فإنه قتل وصلب على باب زويلة واستقصى الصالح البيوت الكبار والأعيان بالديار المصرية فأمسك أهلها وأبعدهم عن ديارهم وأخذ أموالهم فمنهم من هلك ومنهم تفرق فى البلاد والحجاز واليمن وغيرها فعل ذلك خوفا منهم أن يثوروا عليه وينازعوه فى الوزارة وكان ابن منقذ قد هرب مع عباس فلما قتل هرب إلى الشام:

﴿ذكر حصر تكريت ووقعة بكمزا﴾ فى هذه السنة أرسل الخليفة المقتفى لأمر الله رسولا إلى والى تكريت بسبب من عندهم من المأمورين وهم ابن الوزير وغيره فقبضوا على الرسول فسير الخليفة عسكرا إليهم فخرج أهل تكريت فقاتلوا العسكر ومنعوه من الدخول إلى البلد فسار الخليفة بنفسه مستهل صفر فنزل على البلد فهرب أهله فدخل العسكر فشعثوا ونهبوا بعضه ونصب على القلعة ثلاثة عشرة منجنيقا فسقط من أسوارها برج وبقى الحصر كذلك إلى الخامس والعشرين من ربيع الأول وأمر الخليفة بالقتال والزحف فاشتد القتال وكثر القتلى ولم يبلغ منها غرضا فرحل عائدا إلى بغداد فدخلها آخر الشهر ثم أمر الوزير عون الدين بن هبيرة بالعود إلى محاصرتها والاستعداد والاستكثار من الآلات للحصار فسار إليها سابع ربيع الآخر ونازلها وضيق عليها فوصل الخبر بأن مسعود بلال وصل إلى شهرابان ومعه البقش كون خروترشك وعسكر كثير ونهبوا البلاد فعاد الوزير إلى بغداد وكان سبب وصول هذا العسكر أنهم حثوا الملك محمد ابن السلطان محمود على قصد العراق

فلم يتهيأ له ذلك فسير هذا العسكر وانضاف إليهم خلق كثير من التركمان فخرج الخليفة إليهم فأرسل بلال مسعود إلى تكريت وأخرج منها الملك أرسلان ن السلطان طغرل بن محمد وكان محبوسا بتكريت وقال إن هذا سلطان نقاتل بين يديه بإزاء الخليفة والتقى العسكران عند بكمزا بالقرب من يعقوبا ودام بينهم المناوشة والمحاربة ثمانية عشر يوما ثم إنهم التقوا آخر رجب فاقتتلوا فانهزمت ميمنة عسكر الخليفة وبعض القلب حتى بلغت الهزيمة بغداد ونهبت خزائنه وقتل خازنه فحمل الخليفة بنفسه هو وولى عهده وصاح يا آل هاشم كذب الشيطان وقرأ ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا﴾ وحمل باقى العسكر معه فانهزم مسعود والبقش وجميع من معهم وتمت الهزيمة وظفر الخليفة بهم وغنم عسكره جميع مال التركمان من دواب وغنم وغير ذلك فبيع كل كبش بدانق وكانوا قد حضروا بنسائهم وأولادهم وخركاواتهم وجميع مالهم فأخذ جميعه ونودى من أخذ من أولاد التركمان ونسائهم شيئا فليرده فردوه فأخذ البقش كون خر الملك أرسلان وانهزم إلى بلد اللحف وقلعة الماهكين . وفى هذه الحرب غدر بنوعرف من عسكر الخليفة ولحقوا بالعجم ومضى هندى الكردى أيضا معهم وكان الملك محمد قد أرسل عسكرا مع خاص بك بن آقسنقر نجدة لكون خر ، فلما وصلوا إلى الراذان بلغهم خبر الهزيمة فعاد ورجع الخليفة إلى بغداد فدخلها أوائل شعبان فوصل الخبر أن مسعود بلال وترشك قصدا مدينة واسط فنهبوا وخربوا فسير الخليفة الوزير ابن هبيرة فى عسكر خاص عشر شعبان فانهزم العجم فلحقهم عسكر الخليفة ونهب منهم شيئا كثيرا وعاد إلى بغداد فلقب الوزير سلطان العراق ملك الجيوش وسير الخليفة عسكرا إلى بلد اللحف فأخذه وصار فى جملته وأما الملك ألب أرسلان بن طغرل فإن البقش أخذه معه إلى بلده فأرسل إليه الملك محمد يقول له ليحضر عنده وأرسلان معه فمات البقش كون خر فى رمضان فى هذه السنة وبقى أرسلان مع ابن البقش وحس الجاندار فحملاه إلى الجبل فخاف السلطان محمد أن يصل أرسلان إلى زوج أمه أبى بكر فيجعله ذريعة إلى قهر البلاد فلم ينفعه حذره واتصل أرسلان بأبى بكر زوج أمه فصار معه وهو أخو جهلوان بن أيلدكز لأمه وطغرل الذى قتله خوارزم شاه ولد أرسلان هذا وكان طغرل آخر السلجوقية .

﴿ذكر ملك نورالدين محمود مدينة دمشق﴾ فى هذه السنة فى صفر ملك نورالدين محمود بن زنكى بن آقسنقر مدينة دمشق وأخذها من صاحبها مجيرالدين أنز بن محمد بن بورى بن طغدكين أتابك وكان سبب حرصه على ملكها أن الفرنج لما ملكوا فى العام الماضى مدينة عسقلان لم يكن لنور الدين طريق إلى إزعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان ، فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا فى دمشق حتى أنهم استعرضوا كل من بها من مملوك وجارية من النصارى فمن أراد المقام بها تركوه ومن أراد العود إلى وطنه أخذوه قهرا شاء صاحبه أم أبى وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة يأخذونها منهم فكان رسلهم يدخلون البلد ويأخذونها منهم فلما رأى نورالدين ذلك خاف أن يملكها الفرنج فلا يبقى حينئذ للمسلمين بالشام مقام فأعمل الحيلة فى أخذها حيث علم أنها لا تملك قوة لأن صاحبها متى رأى غلبة ممن يقصده راسل الفرنج واستعان بهم لئلا يملكها من يقوى بها على قتالهم فراسل مجيرالدين صاحبها واستمالة وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتى وثق إليه فكان نور الدين يقول له فى بعض الأوقات إن فلانا قد كاتبنى فى تسليم دمشق يعنى بعض أمراء مجير الدين فكان يبعد الذى قيل عنه ويأخذ أقطاعه فلما لم يبق عنده من الأمراء أحدا قدم أميرا يقال له عطاء بن حفاظ السلمى

Marfat.com

Marfat.com

الخادم وكان شهما شجاعا ، وفوض إليه أمر دولته ، فكان نور الدين لا يتمكن معه من أخذ دمشق ، فقبض عليه مجير الدين ، وقتله ، فسار نور الدين حينئذ إلى دمشق ، وكان قد كاتب من بها من الأحداث واستمالهم فوعدوه بالتسليم إليه ، فلما حضر نور الدين البلد أرسل مجير الدين إلى الفرنج ، يبذل لهم الأموال وتسليم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه ويرحلوا نور الدين عنه فشرعوا فى جمع فارسهم وراجلهم ليرحلوا نور الدين عن البلد فإلى أن اجتمع لهم ما يريدون تسلم نور الدين البلد فعادوا بخفى حنين وأما كيفية تسليم دمشق فإنه لما حصرها ثار الأحداث الذين راسلهم فسلموا إليه البلد من الباب الشرقى وملكه وحصر مجير الدين فى القلعة وراسله فى تسليمها وبذل له أقطاعا من جملته مدينة حمص فسلمها إليه وسار إلى حمص وأعطاه عوضا عنها بالس فلم يرضها وسار منها إلى العراق وأقام ببغداد وابتنى بها دارا بالقرب من النظامية وتوفى بها .

﴿ ذكر قصد الإسماعيلية خراسان والظفر بهم ﴾ فى هذه السنة فى ربيع الآخر اجتمع جمع كثير من الإسماعيلية من قهستان بلغت عدتهم سبعة آلاف رجل ما بين فارس وراجل وساروا يريدون خراسان لاشتغال عساكرهم بالغز وقصدوا أعمال خواف وما يجاورها فلقيهم الأمير فرخشاه بن محمود الكاسانى فى جماعة من حشمه وأصحابه فعلم أن لاطاقة له بهم وسار عنهم وأرسل إلى الأمير محمد بن أنز وهو من أكابر أمراء خراسان وأشجعهم يعرفه الحال وطلب منه المسير إليهم بعسكره ومن قدر عليه من الأمراء ليجتمعوا عليهم ويقاتلوهم فسار محمد بن أنز فى جماعة من الأمراء وكثير من العسكر واجتمعوا هم وفرخشاه ودافعوا الإسماعيلية وقاتلوهم وطال الحرب بينهم ثم نصر الله المسلمين وانهزم الاسماعيلية وكثر القتل فيهم وأخذهم السيف من كل مكان وهلك أعيانهم وساداتهم بعضهم قتل وبعضهم أسر ولم يسلم منهم إلا القليل الشريد وخلت قلاعهم وحصونهم من حام ومانع فلولا اشتغال العساكر بالغز لكانوا ملكوها بغير تعب ولا مشقة وأراحوا المسلمين منهم ولكن لله أمر وهو بالغه .

﴿ ذكر ملك نور الدين تل باشر ﴾ فى هذه السنة أوالتى بعدها ملك نور الدين محمود بن زنكى قلعة تل باشر وهى شمالى حلب من أمنع القلاع وسبب ملكها أن الفرنج لما رأوا ملك نور الدين دمشق خافوه وعلموا أنه يقوى عليهم ولا يقدرون على الانتصاف منه لما كانوا يرون منه قبل ملكها فراسله من بهذه القلعة من الفرنج وبذلوا له تسليمها فسير إليهم الأمير حسان المنبجى وهو من أكابر أمرائه وكان أقطاعه ذلك الوقت مدينة منبج وهى تقارب تل باشر وأمره أن يسير إليها ويتسلمها فسار إليها وتسلمها منهم وحصنها ورفع إليها من الذخائر ما يكفيها سنين كثيرة .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة مات أستاذ دار أبو الفتوح عبدالله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء وكان له صدقات ومعروف كثير ومجالسة للفقراء ولما مات ولى الخلافة ابنه الأكبر عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبدالله ما كان إلى أبيه وتوفى عبدالرحمن بن عبدالصمد بن أحمد بن على أبو القاسم الأكاف النيسابورى كان زاهدا عابدا فقيها مناظرا وكان السلطان سنجر يزوره ويتبرك بدعائه وكان ربما حجبه فلا يمكنه من الدخول إليه . وفيها توفى ثقة الدولة أبو الحسن على بن محمد الزوينى القزوينى وكان يخدم أبا نصر محمد بن

Marfat.com

الفرج الأبرى وزوجه ابنته شهدة الكاتبة فقربه المقتفى لأمر الله ووكله فبنى مدرسة بباب الأزج . (١)

﴿ ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة ﴾

فى هذه السنة سار الخليفة المقتفى لأمر الله إلى دقوقا فحصرها وقاتل من بها ثم رحل عنها لأنه بلغه أن عسكر الموصل قد تجهزوا للمسير لمنعه عنها فرحل ولم يبلغ غرضا . وفيها استولى شملة التركمانى على خوزستان وصاحبه حينئذ ملكشاه محمود بن محمد فسير الخليفة اليه عسكرا فلقيهم شملة فى رجب وقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة وأسر وجوههم ثم أحسن اليهم شملة وأطلقهم وأرسل يعتذر فقبل عذره وسار إلى خوزستان فملكها وأزاح عنها ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد . وفيها سار الغز إلى نيسابور فملكوها بالسيف ودخلوها وقتلوا محمد بن يحيى الفقيه الشافعى ونحوا من ثلاثين ألفا وكان السلطان سنجر له اسم السلطنة وهو معتقل لا يلتفت اليه حتى أنه أراد كثيرا من الأيام أن يركب فلم يكن له من يحمل سلاحه فشده على وسطه وركب وكان إذا قدم اليه طعام يدخر منه ما يأكله وقتا آخر خوفا من انقطاعه عنه لتقصيرهم فى واجبه ولأنهم ليس هذا مما يعرفونه . وفيها وثب قسوس الأرمن بمدينة آنى فأخذوها من الأمير شداد وسلموها إلى أخيه فضلون . وفيها فى ذى الحجة قتل الأتراك القارغلية طمغاج خان بن محمد بما وراء النهر وألقوه فى الصحراء ونسبوه إلى أشياء قبيحة وكان مدة ملكه مستضعفا غير مهيب . وفيها توفى أبو الفضل محمد بن ناصر بن على البغدادى الحافظ الأديب وكان مشهورا بالفضل وكان شافعيا وصار حنبليا مغاليا ومولده سنة سبع وستين وأربعمائة فى شعبان وكان موته أيضا فى شعبان . وفيها كان بالعراق وما جاوره من البلاد زلزلة كبيرة فى ذى الحجة . وفيها توفى يحيى الغسانى النحوى الموصلى وكان فاضلا خيرا وتاج الدين أبو طاهر يحيى بن عبدالله بن القاسم الشهرزورى قاضى جزيرة ابن عمر .

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر عصيان الجزائر وأفريقية على ملك الفرنج بصقلية وما كان منهم﴾ قد ذكرنا سنة ثمان وأربعين وخمسمائة موت رجار ملك صقلية وملك ولده غليالم وأنه كان فاسد التدبير فخرج عن حكمه عدة من حصون صقلية فلما كان هذه السنة قوى طمع الناس فيه فخرج من طاعته جزيرة جربة وجزيرة قرقنة وأظهروا الخلاف عليه وخالف عليه أهل أفريقية فأول من أظهر الخلاف عليه عمر بن أبى الحسين الفريابى بمدينة سفاقس وكان رجار قد استعمل عليها لما فتحها أباه أبا الحسين وكان من العلماء الصالحين فأظهر العجز والضعف وقال استعمل ولدى فاستعمله وأخذ أباه رهينة إلى صقلية فلما أراد المسير اليها قال لولده عمر إننى كبير السن وقد قارب أجلى فتى أمكنتك الفرصة فى الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر فى أننى أقتل واحسب أنى قد مت فلما وجد هذه الفرصة دعا أهل المدينة إلى الخلاف وقال يطلع جماعة منكم إلى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج والنصارى جميعهم ويقتلونهم كلهم فقالوا له إن سيدنا الشيخ والدك نخاف عليه قال هو أمرنى بهذا وإذا

---

(١) وفيها توفى الرئيس مؤيد الدولة على بن الصوفى وزير دمشق لمجير الدين ، وقد ثار على الملك غير مرة ، واستفحل أمره ، ثم يقع الصلح بينهما كما تقدم . وفيها توفى عطاء الخادم أحد أمراء دمشق ، وقد تغلب على الامور بأمر مجير الدين ، وكان ينوب على بعلبك فى بعض الاحيان ، وقد كان ظالما غاشما وهو الذى ينسب إليه مسجد عطاء خارج باب شرقى والله أعلم .

Marfat.com

قتل بالشيخ ألوف من الأعداء فمامات فلم تطلع الشمس حتى قتلوا الفرنج عن آخرهم وكان ذلك أول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ثم اتبعه يحيى بن مطروح بطرابلس وبعدهما محمد بن رشيد ببقابس وسار عسكر عبد المؤمن إلى بونة فملكها وخرج جميع أفريقية عن حكم الفرنج ماعدا المهدية وسوسة وأرسل عمر بن أبى الحسين إلى زويلة وهى مدينة بينها وبين المهدية نحو ميدان يحرضهم على الوثوب على من معهم فيها من النصارى ففعلوا ذلك وقدم عرب البلاد إلى زويلة فأعانوا أهلها على من بالمهدية من الفرنج وقطعوا الميرة عن المهدية فلما اتصل الخبر بغليالم ملك صقلية أحضر أبا الحسين وعرفه ماعمل ابنه فأمره أن يكتب اليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعود إلى طاعته ويخوفه عاقبة فعله فقال من قدم على هذا يرجع بكتاب فأرسل ملك صقلية إليه رسولا يتهدده ويأمره بترك ماارتكبه فلم يمكنه عمر من دخول البلد يومه ذلك فلما كان الغد خرج أهل البلد جميعهم ومعهم جنازة والرسول يشاهدهم فدفنوها وعادوا وأرسل عمر إلى الرسول يقول له هذا أبى قد دفنته وقد جلست للعزاء به فاصنعوا به ماأردتم فعاد الرسول إلى غليالم فأخبره بما صنع عمر بن أبى الحسين فأخذ أباه وصلبه فلم يزل يذكر الله تعالى حتى مات وأما أهل زويلة فإنهم كثر جمعهم بالعرب وأهل سفاقس وغيرهم فحصروا المهدية وضيقوا عليها وكانت الأقوات بالمهدية قليلة فسير إليهم صاحب صقلية عشرين شينيا فيها الرجال والطعام والسلاح فدخلوا البلد وأرسلوا إلى العرب وبذلوا لهم مالا لينهزموا وخرجوا من الغد فاقتتلوا هم وأهل زويلة فانهزمت العرب وبقى أهل زويلة وأهل سفاقس وركبوا فى البحر فنجوا وبقى أهل زويلة فحمل عليهم الفرنج فانهزموا إلى زويلة فوجدوا أبوابها مغلقة فقاتلوا تحت السور وصبروا حتى قتل أكثرهم ولم ينج إلا القليل فتفرقوا ومضى بعضهم إلى عبدالمؤمن فلما قتلوا هرب من سلم من الحرم والصبيان والشيوخ فى البر ولم يمرجوا على شىء من أموالهم ودخل الفرنج زويلة فقتلوا من وجدوا فيها من النساء والأطفال ونهبوا الأموال واستقر الفرنج بالمهدية إلى ان أخذها منهم عبدالمؤمن على ماذكره إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل ﴾ فى هذه السنة قبض زين الدين على كوجك نائب قطب الدين مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل على الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه وكان سليمان شاه عند عمه السلطان سنجر قديما وقد جعله ولى عهده وخطب له على منابر خراسان فلما جرى لسنجر مع الغز ماذكرناه وتقدم على عسكر خراسان وضعفوا عن الغز مضى إلى خوارزم شاه فزوجه ابنة أخيه أتسيس ثم بلغه عنه ما كرهه فأبعده فجاء إلى أصفهان فمنعه شحنتها من الدخول فمضى إلى قاشان فسير إليه محمد شاه بن أخيه محمود بن محمد عسكرا أبعدوه عنها فسار إلى خوزستان فمنعه ملكشاه عنها فقصد اللحف ونزل البندنيجين وأرسل رسولا إلى الخليفة المقتفى يعلمه بوصوله وترددت الرسل بينهما إلى أن استقر الأمر على أن يرسل زوجته تكون رهينة فأرسلها إلى بغداد ومعها كثير من الجوارى والأتباع وقال قد أرسلت هؤلاء رهائن فإن أذن أمير المؤمنين فى دخول بغداد فعلت وإلا رجعت فأكرم الخليفة زوجته ومن معها وأذن له فى القدوم إليه فتقدم ومعه عسكر خفيف يبلغون ثلثمائة رجل فخرج ولد الوزير ابن هبيرة لتلقيه ومعه قاضى القضاة والنقيبان ولم يترجل له ابن الوزير ودخل بغداد وعلى رأسه الشمسة وخلع عليه الخليفة وأقام ببغداد إلى أن دخل المحرم من سنة إحد وخمسين وخمسمائة فأحضر فيه سليمان شاه إلى دار الخليفة وأحضر قاضى القضاة والشهود وأعيان العباسيين وحلف للخليفة على النصح والموافقة ولزوم الطاعة وأنه لايتعرض

إلى العراق بحال فلما حلف خطب له ببغداد ولقب ألقاب أبيه غياث الدنيا والدين وباقى ألقابه وخلع عليه خلع السلطنة وسير معه من عسكر بغداد ثلاثه آلاف فارس وجعل الأمير قويدان صاحب الحلة أمير حاجب معه وسار نحو بلاد الجبل فى ربيع الأول وسار الخليفة إلى حلوان وأرسل إلى ملكشاه بن السلطان محمود أخى السلطان محمد صاحب همذان وغيرها يدعوه إلى موافقته فتقدم فى ألفى فارس فخلف كل منها لصاحبه وجعل ملكشاه ولى عهد سليمان شاه وقواهما الخليفة بالمال والأسلحة وغيرها فساروا واجتمعوا هم وايلدكز فصاروا فى جمع كبير فلما سمع السلطان محمد خبرهم أرسل إلى قطب الدين مودود صاحب الموصل ونائبا زين الدين يطلب منهما المساعدة ويبذل لها البذول الكثيرة إن ظفر فأجاباه إلى ذلك ووافقا فقويت نفسه وسار إلى لقاء سليمان شاه ومن اجتمع معه من عساكره ووقعت الحرب بينهم فى جمادى الأولى واشتد الأولى واشتد القتال بين الفريقين فانهزم سليمان شاه ومن معه وتشتت العسكر ووصل من عسكر الخليفة وكانوا ثلاثة آلاف رجل نحو من خمسين رجلا ولم يقتل منهم أحد وإنما أخذت خيولهم وأموالهم وتشتتوا وجاؤا متفرقين وفارق سليمان شاه ايلدكز وسار نحو بغداد على شهرزور فخرج إليه زين الدين على فى جماعة من عسكر الموصل وكان بشهرزور الأمير بزان مقطعا لها من جهة زين الدين وسارا فوقفا على طريق سليمان شاه فأخذاه أسيرا وحمله زين الدين إلى قلعة الموصل وحبسه بها مكرما محترما إلى أن كان من أمره ماذكره سنة خمس وخمسين إن شاء الله فلما قبض سليمان شاه أرسل زين الدين إلى السلطان محمود يعرفه ذلك ووعده المعاضدة على كل مايريده منه والمساعدة له . والله أعلم .

﴿ذكر حصر نور الدين قلعة حارم﴾ فى هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكى إلى قلعة حارم وهى للفرنج ثم لبيمند صاحب أنطاكية وهى تقارب أنطاكية من شرقيها وحصرها وضيق على أهلها وهى قلعة منيعة فى نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد وساروا نحوه ليرحلوه عنها وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله ويرجعون إلى رأيه فأرسل إليهم يقول إننا نقدر على حفظ القلعة وليس بنا ضعف فلاتخاطروا أنتم باللقاء فإنه إن هزمكم أخذها وغيرها والرأى مطاولته فأرسلوا إليه وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم فاصطلحوا على ذلك ورحل عنهم فقال بعض الشعراء :

ألبست دين محمد يا نوره ✲ عزا له فوق السها آساد
مازلت تشمله بمياد القنا ✲ حتى تثقف عوده الميساد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه ✲ عدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لوتطيق تكلما ✲ حمدتك عن خطبائها الأعواد
ملق بأطراق القريحة كلكلا ✲ طرفاه ضرب صادق وجلاد
حاموا فلما عاينوا خوض الردى ✲ حاموا فرائس كيدهم أو كادوا
ورأى البرنس وقد تبرنس ذلة ✲ حزما لحارم والمصاد مصاد
من منكر أن ينسف السيل الربا ✲ وأبوه ذاك العارض المداد
أو أن يعيد الشمس كاسفة السنى ✲ نار لها ذاك الشهاب زناد
لاينفع الآباء ماسمكوا من الـ ✲ علياء حتى يرفع الأولاد

(وهى طويلة)
(٧ - كامل - ٩)

Marfat.com

Marfat.com

﴿ذكر وفاة خوارزم شاه أتسز وغيره من الملوك﴾ فى هذه السنة تاسع جمادى الآخرة توفى خوارزم شاه أتسز بن محمد بن أنوشتكين وكان قد أصابه فالج فتعالج منه فلم يبرأ فاستعمل أدوية شديدة الحرارة بغير أمر الأطباء فاشتد مرضه وضعفت قوته ، فتوفى وكان يقول عند الموت (ما أغنى عنه ماليه ، هلك عنى سلطانيه) وكانت ولادته فى رجب سنة تسعين وأربعمائة ، ولما توفى ملك بعده ابنه أرسلان فقتل نفراً من أعمامه وسمل أخا له فمات بعد ثلاثة أيام وقيل بل قتل نفسه وأرسل إلى السلطان سنجر وكان قد هرب من أسر الغز على مانذكره ببذل الطاعة والانقياد فكتب له منشورا بولاية خوارزم وسير الخلع له فى رمضان فبقى فى ولايته ساكنا آمنا وكان أتسز حسن السيرة كافا عن أموال رعيته منصفا لهم محبوبا لهم مؤثراً للاحسان والخير إليهم وكان الرعية معه بين أمن غامر وعدل شامل ، وفى سيابع عشر الشهر المذكور توفى أبوالفوارس بن محمد بن أرسلان شاه ملك كرمان وملك بعده ابنه سلجوق شاه . وفيها توفى الملك مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان قتلمش صاحب قونية ومايجاورها من بلاد الروم وملك بعده ابنه قلج أرسلان .

﴿ذكر هرب السلطان سنجر من الغز﴾ فى هذه السنة فى رمضان هرب السلطان سنجر بن ملكشاه من أسر الغز وجماعة من الأمراء الذين معه وسار إلى قلعة ترمذ واستظهر بها على الغز وكان خوارزم شاه أتسز ابن محمد بن أنوشتكين والخاقان محمود بن محمد يقصدان الغز فيقاتلانهم فيمن معهما فكانت الحرب بينهم سجالا وغلب كل واحد من الغز والخراسانيين على ناحية من خراسان فهو يأكل دخلها لارأس لهم يجمعهم وسار السلطان سنجر من ترمذ إلى جيحون يريد العبور إلى خراسان فاتفق أن مقدم الأتراك القارغلية واسمه على بك توفى وكان أشد شئ على السلطان سنجر وعلى غيره كثير الشر والفساد وإثارة الفتن فلما توفى أقبلت القارغلية على السلطان سنجر وكذلك غيرهم من سائر الامم من أقاصى البلاد وأدانيها وعاد إلى دار ملكه بمرو فى رمضان فكانت مدة أسره مع الغز من سادس جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين إلى رمضان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

﴿ذكر البيعة لمحمد بن عبدالمؤمن بولاية عهد أبيه﴾ فى هذه السنة أمر عبدالمؤمن بالبيعة لولده محمد بولاية عهده وكان الشرط والقاعدة بين عبد المؤمن وبين عمر أن يلى عمر الأمر بعد عبد المؤمن فلما تمكن عبد المؤمن من الملك وكثر أولاده أحب أن ينقل الملك اليهم فأحضر أمراء العرب من هلال وزغب وعدى وغيرهم اليه ووصلهم وأحسن اليهم ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن ويقولوا له نريد أن تجعل لنا ولى عهد من ولدك يرجع الناس اليه بعدك ففعلوا ذلك فلم يجبهم إكراما لعمر لعلو منزلته فى الموحدين وقال لهم إن الأمر لأبى حفص عمر فلما علم عمر ذلك خاف على نفسه فحضر عند عبد المؤمن وأجاب إلى خلع نفسه فحينئذ بويع لمحمد بولاية العهد وكتب إلى جميع بلاده بذلك وخطب له فيها جميعها فأخرج عبد المؤمن فى ذلك اليوم من الأموال شيئا كثيرا .

﴿ذكر استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد﴾ فى هذه السنة استعمل عبد المؤمن أولاده على البلاد فاستعمل ولده أبامحمد عبدالله على بجاية وأعمالها واستعمل ابنه أبا الحسن عليا على فاس وأعمالها وولى ابنه أباسعيد سبتة والجزيرة الخضراء ومالقة وكذلك غيرهم ولقد سلك فى استعمالهم طريقا عجيبا وذلك أنه كان قد استعمل على البلاد شيوخ الموحدين المشهورين من أصحاب المهدى محمد بن تومرت وكان يتعذر عليه أن يعزلهم فأخذ أولادهم وتركهم عنده يشتغلون فى العلوم فلما تمهروا فيها وصاروا يقتدى بهم قال لآبائهم إنى أريد أن تكونوا عندى

أستعين بكم على ماانا بصدده ويكون أولادكم فى الأعمال لأنهم علماء فقهاء فأجابوا إلى ذلك وهم فرحون مسرورون فولى أولادهم ثم وضع عليهم بعضهم ممن يعتمد عليه فقال إنى أرى أمرا عظيما قدفعلتموه فارقتم فيه الحزم والأدب فقالوا وماهو فقال أولادكم فى الأعمال وأولاد أمير المؤمنين ليس لهم منهاشىء مع مافيهم من العلم وحسن السياسة وإنى أخاف أن ينظر فى هذا فتسقط منزلتكم عنده فعلموا صدق القائل فحضروا عند عبدالمؤمن وقالوا نحب أن تستعمل على البلاد السادة أولادك فقال لا أفعل فلم يزالوا حتى فعل ذلك لهم بسؤالهم إياه .

﴿ ذكر حصر السلطان محمد بغداد ﴾ فى هذه السنة فى ذى الحجة حصر السلطان محمد بغداد وسبب ذلك أن السلطان محمد بن محمود كان قد أرسل إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق فامتنع الخليفة من إجابته إلى ذلك فسار من همذان فى عساكر كثيرة نحو العراق ووعده أتابك قطب الدين صاحب الموصل ونائبه زين الدين على بإرسال العساكر إليه نجدة له على حصر بغداد فقدم العراق فى ذى الحجة سنة إحدى وخمسين واضطرب الناس ببغداد وأرسل الخليفة يجمع العساكر فأقبل خطلوبرس فى عسكر واسط ورحل مهلهل إلى الحلة فأخذها واهتم الخليفة وعون الدين بن هبيرة بأمر الحصار وجمع جميع السفن وقطع الجسر وجعل الجميع تحت التاج ونودى منتصف المحرم سنة اثنتين وخمسين أن لايقيم أحد بالجانب الغربى فأجفل الناس وأهل السواد ونقلت الأموال إلى حريم دار الخلافة وخرب الخليفة قصر عيسى والمربعة والقرية والمستجدة والنجمى ونهب أصحابه ماوجدوا وخرب أصحاب محمد شاه نهر القلائين والتوثة وشارع ابن رزق الله وباب الميدان وقطفتا وأما أهل الكرخ وأهل باب البصرة فإنهم خرجوا إلى عسكر محمد وكسبوا معهم أموالا كثيرة وعبر السلطان محمد فوق حراقة إلى الجانب الغربى ونهبت أونا واتصل به زين الدين هناك وساروا فنزل محمد شاه عند الرملة وفرق الخليفة السلاح على الجند والعامة ونصب المنجنيقات والعرادات فلما كان فى العشرين من المحرم ركب عسكر محمد شاه وزين الدين على ووقفوا عند الرقة ورموا بالنشاب إلى ناحية التاج فعبر إليهم عامة بغداد فقاتلوهم ورموهم بالنفط وغيره ثم جرى بينهم عدة حروب وفى ثالث صفر عاودا القتال واشتدت الحرب وعبر كثير من أهل بغداد سباحة وفى السفن فقتلوا وكان يوما مشهودا ولم تزل الحرب بينهم كل وقت وعمل الجسر على دجلة وعبر عليه أكثر العسكر إلى الجانب الشرقى وصار القتال فى الجانبين وبقى زين الدين فى الجانب الغربى وأمر الخليفة فنودى كل من جرح فله خمسة دنانير فكان كلما جرح إنسان يحضر عند الوزير فيعطيه خمسة دنانير فاتفق أن بعض العامة جرح جرحا ليس بكبير فحضر إلى الوزير يطلب الدنانير فقال له الوزير ليس هذا الجرح بشىء فعاود القتال فضرب فانشقت جوفه وخرج شىء من شحمها فحمل إلى الوزير فلما رآه قال يامولانا الوزير أيرضيك هذا فضحك منه وأضعف له ورتب له من يعالج جراحته إلى أن برئ وتعذرت الأقوات فى العسكر إلا أن اللحم والفواكه والخضر كثيرة وكانت الغلات ببغداد كثيرة لأن الوزير كان يفرقها فى الجند عوض الدنانير يبيعونها فلم تزل الأسعار عندهم رخيصة إلا أن اللحم والفاكهة والخضر قليل عندهم واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وعدم المعيشة لأهلها وكان زين الدين وعسكر الموصل غير مجدين فى القتال لأجل الخليفة والمسلمين ، وقيل لأن نور الدين محمود بن زنكى وهو أخو قطب الدين صاحب الموصل الأكبر أرسل إلى زين الدين يلومه على قتال الخليفة ففتر وأقصر ولم تزل الحرب

فى أكثر الايام وعمل السلطان محمد شاه أربعمائة سلم ليصعد الرجال فيها إلى السور وزحفوا وقاتلوا ففتح أهل بغداد أبواب البلد وقالوا أى حاجة بكم إلى السلالم هذه الأبواب مفتحة فادخلوا منها فلم يقدروا على أن يقربوها فبينما الأمر على ذلك إذ وصل الخبر إلى السلطان محمد أن أخاه ملكشاه وايلدكز صاحب بلاد أران ومعه الملك أرسلان ابن الملك طغرل بن محمد وهو ابن امرأة أيلدكز قد دخلوا همذان واستولوا عليها وأخذوا أهل الأمراء الذين مع محمد شاه وأموالهم فلما سمع محمد شاه ذلك جد فى القتال لعله يبلغ مناه فلم يقدر على شىء ورحل عنها نحو همذان فى الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وعاد زين الدين إلى الموصل وتفرق ذلك الجمع على عزم العود إذا فرغ محمد شاه من إصلاح بلاده فلم يعودوا يجتمعون وفى كثرة حروبهم لم يقتل بينهم إلا نفر يسير ، وإنما الجراح كان كثيرا ولما ساروا نهبوا يعقوبا وغيرها من طريق خراسان ولما رحل العسكر عن بغداد أصاب أهلها أمراض شديدة حادة وموت كثير للشدة التى مرت بهم ، وأما ملكشاه وايلدكز ومن معهما فإنهم ساروا من همذان إلى الرى فخرج إليهم اينانج شحنتها وقاتلهم فهزموه فأرسل الملك محمد الأمير سقمس بن قيماز الحرامى فى عسكر نجدة لإينانج فسار سقمس وكان ايلدكز وملكشاه ومن معهما قد عادوا من الرى يريدون محاصرة الخليفة فلقيهم سقمس وقاتلهم فهزموه ونهبوا عسكره وأثقالهم فاحتاج الملك محمد إلى الإسراع فسار فلما بلغ حلوان بلغه أن ايلدكز بالدينور وأتاه رسول من نائبه اينانج أنه دخل همذان وأعاد الخطبة له فيها فقويت نفسه وهرب شملة صاحب خوزستان إلى بلاده وتفرق أكثر جمع ايلدكز وملكشاه وبقيا فى خمسة آلاف فارس فعادا إلى بلادهما شبه الهارب ولما دخل محمد شاه همذان أراد التجهز لقصد بلاد ايلدكز فابتدأ به مرض السل وبقى به إلى أن مات .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول أطلق أبو الوليد البدر بن الوزير بن هبيرة من حبس تكريت ولما قدم بغداد خرج أخوه والموكب يتلقونه وكان يوما مشهودا وكان مقامه فى الحبس يزيد على ثلاث سنين . وفيها احترقت بغداد فى ربيع الآخر وكثر الحريق بها واحترق درب فراشا ودرب الدواب ودرب اللبان وخرابة بن حربة والظفرية والخاتونية ودار الخلافة وباب الأزج وسوق السلطان وغير ذلك . وفيها فى شوال قصد الإسماعيلية طبس بخراسان فأوقعوا بها وقعة عظيمة وأسروا جماعة من أعيان دولة السلطان ونهبوا أولادهم ودوابهم وقتلوا فيهم . وفيها فى ذى القعدة توفى شيخ الإسلام أبو المعالى الحسن بن عبيد الله بن أحمد بن محمد المعروف بابن الرزاز بنيسابور وهو من أعيان الأفاضل . وفى هذه السنة توفى مريد الدين بن بيسان رئيس آمد والحاكم فيها على صاحبها وولى ما كان إليه بعده ابنه كمال الدين أبو القاسم وتوفى أبو الحسن على بن الحسين الغزنوى الواعظ المشهور ببغداد وكان قدم إليها سنة ست عشرة وخمسمائة وكان له قبول عظيم عند السلاطين والعامة والخلفاء إلا أن المقتفى أعرض عنه بعد موت السلطان مسعود لإقبال السلطان عليه ، وكان موته فى المحرم . وتوفى أبو الحسن بن الخل الفقيه الشافعى شيخ الشافعية ببغداد ، وكان يؤم بالخليفة فى الصلاة ، وتوفى ابن الآمد الشاعر ، وهو من أهل النيل من أعيان الشعراء فى طبقة الغزى والأرجانى ، وكان عمره قد زاد على تسعين سنة . وفيها قتل مظفر بن حماد بن أبى الخير صاحب البطيحة ، قتله نفيس بن فضل بن أبى الخير فى الحمام وولى بعده . وفيها توفى الواوا الحلبى الشاعر المشهور . وفيها فى رمضان

Marfat.com

توفى الحكيم أبو جعفر بن محمد البخارى باسفراين وكان عالما بعلوم الحكماء الأوائل (١)

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر الزلازل بالشام ﴾ فى هذه السنة فى رجب كان بالشام زلازل كثيرة قوية خربت كثيرا من البلاد وهلك فيها مالا يحصى كثرة فخرب منها بالمرة حماه وشيزر وكفر طاب والمعرة وأفامية وحمص وحصن الأكراد وعرقة واللاذقية وطرابلس وأنطاكية وأما ما لم يكثر فيه الخراب ولكن خرب أكثره فى جميع الشام وتهدمت أسوار البلاد والقلاع فقام نور الدين محمود فى ذلك المقام المرضى وخاف على بلاد الإسلام من الفرنج حيث خربت الأسوار فجمع عساكره وأقام بأطراف البلاد فلم يزل كذلك حتى فرغ من أسوار البلاد وأما كثرة القتلى فيكفى أن معلما كان بالمدينة وهى مدينة حماه ذكر عنه أنه فارق المكتب لمهم عرض له فجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم قال المعلم فلم يأت أحد يسأل عن صبى كان له بالمكتب .

﴿ ذكر ملك نور الدين حصن شيزر ﴾ نبتدئ بذكر هذا الحصن ولمن كان قبل أن يملكه نور الدين محمود ابن زنكى فنقول: هذا الحصن قريب من حماه بينهما نصف نهار وهو على جبل عال منيع لا يسلك إليه إلا من طريق واحدة وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى أبى المرهف نصر بن على بن نصر بن منقذ بعد أبيه أبى الحسن على وكان بيده إلى أن مات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وكان شجاعا كريما فلما حضره الموت استخلف أخاه أبا سلامة مرشد بن على فقال والله لا وليته ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها وكان عالما بالقرآن وهو والد مؤيد الدولة أسامة بن منقذ فولاها أخاه الأصغر سلطان بن على

---

(١) وفيها توفى محمد بن ناصر بن محمد بن على الحافظ ، أبو الفضل البغدادى . ولد ليلة النصف من شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة ، وسمع الكثير ، وتفرد بمشايخ ، وكان حافظا ضابطا مكثرا من السنة كثير الذكر ، سريع الدمعة . وقد تخرج به جماعة منهم أبو الفرج بن الجوزى ، سمع بقراءته مسند أحمد وغيره من الكتب الكبار ، وكان يثنى عليه كثيرا ، وقد رد على أبى سعد السمعانى فى قوله : محمد بن ناصر يحب أن يقع فى الناس . قال ابن الجوزى : والكلام فى الناس بالجرح والتعديل ليس من هذا القبيل ، وإنما ابن السمعانى يحب أن يتعصب على أصحاب الإمام أحمد ، نعوذ بالله من سوء القصد والتعصب . توفى محمد بن ناصر ليلة الثلاثاء الثامن عشر من شعبان منها ، عن ثلاث وثمانين سنة ، وصلى عليه مرات ، ودفن بباب حرب . وفيها توفى محمود بن إسماعيل بن قادوس أبو الفتح الدمياطى كاتب الإنشا بالديار المصرية ، وهو شيخ القاضى الفاضل ، كان يسميه ذا البلاغتين ، وذكره العماد الكاتب فى الجريدة ومن شعره فيمن يكرر التكبير ويوسوس فى نية الصلاة فى أولها :

وفاتر النية عنينها * مع كثرة الرعدة والهمزة
يكبر التسعين فى مرة * كأنه يصلى على حمزه

وفيها توفى الشيخ أبو البيان بنا بن محمد المعروف بابن الحورانى ، الفقيه الزاهد العابد الفاضل الخاشع ، قرأ القرآن وكتاب التنبيه على مذهب الشافعى ، وكان حسن المعرفة باللغة ، كثير المطالعة ، وله كلام يؤثر عنه ، ورأيت له كتابا بخطه فيه النظائم التى يقولها أصحابه وأتباعه بلهجة غريبة ، وقد كان من نشأته إلى أن توفى على طريقة صالحة ، وقد زاره الملك نور الدين محمود فى رباطه داخل درب الحجر ، ووقف عليه شيئا ، وكانت وفاته يوم الثلاثاء ثالث ربيع الأول من هذه السنة ، ودفن بمقابر الباب الصغير ، وكان يوم جنازته يوما مشهودا ، وقد ذكرته فى طبقات الشافعية رحمه الله .

Marfat.com

Marfat.com

واصطحبا أجمل صحبة مدة من الزمان فأولد مرشد عدة أولاد ذكور وكبروا وسادوا منهم عز الدولة أبو الحسن على ومؤيد الدولة أسامة وغيرهما ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر فجاءه أولاد ذكور فحسد أخاه على ذلك وخاف أولاد أخيه على أولاده وسعى بينهم المفسدون فغيروا كلا منهما على أخيه فكتب سلطان إلى أخيه مرشد أبيات شعر يعاتبه على أشياء بلغته عنه فأجابه بشعر فى معناه رأيت إثبات ما تمس الحاجة إليه منه وهى هذه الأبيات :

ظلوم أبت فى الظلم إلا تماديا * وفى الصد والهجران إلا تغاليا
شكت هجرنا والذنب فى ذاك ذنبها * فيا عجبا من ظالم جاء شاكيا
وطاوعت الواشين فىّ وطالما * عصيت عذولا فى هواها وواشيا
ومال بها تيه الجمال إلى القلى * وهيهات أن أمسى لها الدهر قاليا
ولاناسيا ما أودعت من عهودها * وإن هى أبدت جفوة وتناسيا
ولما أتانى من قريضك جوهر * جمعت المعالى فيه لى والمعانيا
وكنت هجرت الشعر حينا لأنه * تولى برغمى حين ولى شبابيا
وأين من السنين لفظ مفرق * إذا رمت أدنى القول منه عصانيا
وقلت أخى يرعى بنى وأسرتى * ويحفظ عهدى فيهم وذماميا
ويجزيهم ما لم أكلفه فعله * لنفسى فقد أعددته من تراثيا
فمالك لما أن حنى الدهر صعدتى * وثلم منى صارما كان ماضيا
تنكرت حتى صار برك قسوة * وقربك منى جفوة وتناسيا
وأصبحت صفر الكف مما رجوته * أرى اليأس قد عفى سبيل رجائيا
على أننى ما حلت عما عهدته * ولاغيرت هذى السنون ودياديا
فلا غرو عند الحادثات فإننى * أراك يمينى والأنام شماليا
تحل بها عذراء لو قرنت بها * نجوم السماء لم تعد دراريا
تحلت بدر من صفاتك زانها * كما زان منظوم اللآلى الغوانيا
وعش بانيا المجد ما كان واهيا * مشيداً من الإحسان ما كان هاويا

وكان الأمر بينهما فيه تماسك فلما توفى مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر المجن وبادأهم بما يسوءهم وأخرجهم من شيزر فتفرقوا وقصد أكثرهم نور الدين وشكوا اليه مالقوا من عمهم فغاظه ذلك ولم يمكنه قصده والأخذ بثارهم وإعادتهم إلى وطنهم لاشتغاله بجهاد الفرنج ولخوفه أن يسلم شيزر إلى الفرنج ثم توفى سلطان وولى بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد حنقه عليهم وانتظر فرصة تمكنه فلما خربت القلعة هذه السنة بما ذكرناه من الزلزلة لم ينج من بنى منقذ الذين بها أحد وسبب هلاكهم أجمعين أن صاحبها منهم كان قد ختن ولدا له وعمل دعوة للناس وأحضر جميع بنى منقذ عنده فى داره وكان له فرس يحبه ولا يكاد يفارقه ؛ وإذا كان فى مجلس أقيم الفرس على بابه وكان المهر فى ذلك اليوم على باب الدار فجاءت الزلزلة فقام الناس ليخرجوا من الدار فرمح الفرس رجلا كان أولهم فقتله وامتنع الناس من الخروج

فسقطت الدار عليهم كلهم وخربت القلعة وسقط سورها وكل بناء فيها ولم ينج منها إلا الشريد فبادر إليها بعض أمرائه وكان بالقرب منها فصعد إليها وتسلمها نور الدين منه فملكها وعمر أسوارها ودورها وأعادها جديدة

﴿ذكر وفاة الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر واستيلاء قطب الدين مودود على الجزيرة﴾ كانت الجزيرة لأتابك زنكى فلما قتل سنة إحدى وأربعين أقطعها ابنه سيف الدين غازى للأمير أبى بكر الدبيسى وكان من أكابر أمراء والده فبقيت بيده إلى الآن وتمكن منها وصار بحيث يتعذر على قطب الدين أخذها منه فمات فى ذى الحجة سنة اثنتين وخمسين ولم يخلف ولدا فاستولى عليها مملوك له اسمه غلبك وأطاعه جندها فحصرهم مودود ثلاثة أشهر ثم تسلمها من غلبك فى صفر من سنة ثلاث وخمسين وأعطاه عوضها أقطاعا كثيرة .

﴿ذكر وفاة السلطان سنجر﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول توفى السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان أبو الحرث أصابه قولنج ثم بعده إسهال فمات منه ومولده بسنجار من ديار الجزيرة فى رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة وسكن خراسان واستوطن مدينة مرو ودخل بغداد مع أخيه السلطان محمد واجتمع معه بالخليفة المستظهر بالله فعهد إلى محمد بالسلطنة وجعل سنجرا ولى عهده فلما مات محمد خوطب لسنجر بالسلطان واستقام أمره وأطاعه السلاطين وخطب له على أكثر منابر الإسلام بالسلطنة نحو أربعين سنة وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة ولم يزل أمره عاليا وجده متراقيا إلى أن أسره الغز على ماذكرناه ثم أنه خلص بعد مدة وجمع اليه أطرافه وكاد يعود اليه ملكه فأدركه أجله وكان مهيبا كريما رفيقا بالرعية وكانت البلاد فى زمانه آمنة ولما مات دفن فى قبة بناها لنفسه سماها دار الآخرة ولما وصل خبر موته إلى بغداد قطعت خطبته ولم يجلس له فى الديوان للعزاء ولما حضر السلطان سنجر الموت استخلف على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن أخت السلطان سنجر فأقام بها خائفا من الغز فقصد جرجان يستظهر بها وعاد الغز إلى مرو وخراسان واجتمع طائفة من عساكر خراسان على أى أبه المؤيد فاستولى على طرف من خراسان وبقيت خراسان على هذا الاختلال إلى سنة أربع وخمسين وراسل الغز الملك محمودا على ماذكره سنة ثلاث وخمسين وسألوه أن يحضر عندهم ليملكوه عليهم فلم يثق إليهم وخافهم على نفسه فأرسل ابنه إليهم فأطاعوه مديدة ثم لحق بهم الملك محمود على ماذكره سنة ثلاث وخمسين .

﴿ذكر ملك المسلمين مدينة المرية وانقراض دولة الملثمين بالأندلس﴾ فى هذه السنة انقرضت دولة الملثمين بالأندلس وملك أصحاب عبد المؤمن مدينة المرية من الفرنج وسبب ذلك أن عبد المؤمن لما استعمل ابنه أباسعيد على الجزيرة الخضراء ومالقة عبر أبو سعيد البحر إلى مالقة واتخذها دارا وكاتبه ميمون بن بدر اللمتونى صاحب غرناطة أن يوحد ويسلم إليه غرناطة فقبل أبو سعيد ذلك منه وتسلم غرناطة فسار ميمون إلى مالقة بأهله وولده فتلقاه أبو سعيد وأكرمه ووجهه إلى مراكش فأقبل عليه عبد المؤمن وانقرضت دولة الملثمين ولم يبق لهم إلا جزيرة ميورقة مع حمو بن غانية فلما ملك أبو سعيد غرناطة جمع الجيوش وسار إلى مدينة المرية وهى بأيدى الفرنج أخذوها من المسلمين سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة فلما نازلها وافاه الأسطول من سبتة وفيه خلق كثير من المسلمين فحصروا المرية برا وبحرا وجاء الفرنج إلى حصنها فحصرهم فيها ونزل عسكره على الجبل المشرف عليها وبنى أبو سعيد سورا على الجبل المذكور إلى البحر وعمل عليه خندقا فصارت المدينة والحصن الذى فيه الفرنج محصورا بهذا السور والخندق ولا يمكن من ينجدهما من أن يصل إليهما فجمع الأذفونش ملك الفرنج

Marfat.com

بالأندلس المعروف بالسليطين فى اثنى عشر ألف فارس من الفرنج ومعه محمد بن سعيد بن مردنيش فى ستة آلاف فارس من المسلمين وراموا الوصول إلى المدينة ودفع المسلمين عنها فلم يطيقوا ذلك فرجع السليطين وابن مردنيش خائبين فمات السليطين فى عوده قبل أن يصل إلى طليطلة وتمادى الحصار على المرية ثلاثة أشهر فضاقت الميرة وقلت الأقوات على الفرنج فطلبوا الأمان ليسلموا الحصن فأجابهم أبو سعيد إليه وأمنهم وتسلم الحصن ورحل الفرنج فى البحر عائدين إلى بلادهم فكان ملكهم المرية مدة عشر سنين .

﴿ ذكر غزو صاحب طبرستان الإسماعيلية ﴾ فى هذه السنة جمع شاه مازندران رستم بن على بن شهريار عسكره وسار ولم يعلم أحدا جهة مقصده وسلك المضايق وجد السير إلى بلد ألموت وهى للاسماعيلية فأغار عليها وأحرق القرى والسواد وقتل فأكثر وغنم أموالهم وسبى نساءهم واسترق أبناءهم فباعهم فى السوق وعاد سالما غانما وانخذل الإسماعيلية ودخل عليهم من الوهن مالم يصابوا بمثله وخرب من بلادهم ما لا يعمر فى السنين الكثيرة .

﴿ ذكر أخذ حجاج خراسان ﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول سار حجاج خراسان فلما رحلوا عن بسطام أغار عليهم جمع من الجند الخراسانية قد قصدوا طبرستان فأخذوا من أمتعتهم وقتلوا نفرا منهم وسلم الباقون وساروا من موضعهم فبينما هم سائرون إذ طلع عليهم الإسماعيلية فقاتلوهم الحجاج قتالا عظيما وصبروا صبرا عظيما فقتل أميرهم فانخذلوا وألقوا بأيديهم واستسلموا وطلبوا الأمان وألقوا أسلحتهم مستأمنين فأخذهم الإسماعيلية وقتلوهم ولم يبقوا منهم إلا شرذمة يسيرة وقتل فيهم من الأئمة العلماء والزهاد والصلحاء جمع كثير وكانت مصيبة عظيمة عمت بلاد الإسلام وخصت خراسان ولم يبق بلد إلا وفيه المأتم فلما كان الغد طاف شيخ فى القتلى والجرحى ينادى : يامسلمون ، يا حجاج ذهب الملاحدة ، وأنا رجل مسلم ، فمن أراد الماء سقيته ، فمن كلمه قتله وأجهز عليه فهلكوا أجمعين - إلا من سلم وولى هاربا - وقليل ماهم .

﴿ ذكر الحرب بين المؤيد والأمير إيتاق ﴾ قد ذكرنا تقدم الأمير أى أبه بملوك السلطان سنجر وتقدمه على عساكر خراسان فحسده جماعة من الأمراء منهم الأمير ايتاق وهو من الأمراء السنجرية وانحرف عنه وكان تارة يقصد خوارزمشاه وتارة مازندران وتارة يظهر الموافقة للمؤيد ويبطن المخالفة فلما كان الآن فارق مازندران ومعه عشرة آلاف فارس قد اجتمع معه كل من يريد الغارة على البلاد وكل منحرف عن المؤيد وقصد خراسان وأقام بنواحى نسا وأبيورد لايظهر المخالفة للمؤيد بل يراسله بالموافقة والمعاضدة له ويبطن ضدها وانتقل المؤيد من المكاتبة إلى المكافحة وسار إليه جريدة فأغار عليه وأوقع به فتفرق عنه جموعه ونجا بحشاشة نفسه وغنم المؤيد وعسكره كل ما لإيتاق ومضى منهزما إلى مازندران وكان ملكها رستم بينه وبين أخ له اسمه على تنازع على الملك وقد قوى رستم فلما وصل إيتاق إلى مازندران قتل عليه وحمل رأسه إلى أخيه رستم فعظم ذلك على رستم واشتد واستشاط غضبا وقال آكل لحمى ولا أطعمه غيرى ؛ ولم يزل إيتاق يتردد فى خراسان بالنهب والغارة لاسيما مدينة إسفراين فإنه أكثر من قصدها حتى خربت فراسله السلطان محمود بن محمد والمؤيد يدعوانه إلى الموافقة فسار إليه فى العساكر فلما قارباه أتاهما كثير من عسكره فمضى من بين أيديهما إلى طبرستان فى صفر سنة ثلاث وخمسين فتبعاه فى عساكرهما فأرسل شاه مازندران يطلب الصلح فأجاباه واصطلحوا وحمل شاه مازندران أموالا جليلة وهدايا نفيسه ، وسير إيتاق ابنه رهينة ؛ فعاد عنه .

﴿ ذكر الحرب بين المؤيد وسنقر العزيزى ﴾ كان سنقر العزيزى من أمراء السلطان سنجر وممن يناوى

Marfat.com

أيضا المؤيد أي أبه فلما اشتغل المؤيد بحرب إيناق سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد إلى هراة ودخلها وبها جماعة من الأتراك وتحصن بها فاشير عليه بأن يعتضد بالملك الحسين ملك الغورية فلم يفعل واستبد بنفسه منفردا لأنه رأى اختلاف الأمراء على السلطان محمود بن محمد فطمع وحدث نفسه بالقوة فقصده المؤيد إلى هراة فلما وصل إليها قاتل من بها شيئا من قتال ثم إن الأتراك مالوا إلى المؤيد وأطاعوه وانقطع خبر سنقر العزيزى من ذلك الوقت ولم يعلم ما كان منه فقيل إنه سقط عن فرسه فمات وقيل بل اغتاله الأتراك فقتلوه وتقدم السلطان محمود إلى ولاية هراة فى عساكره وجنوده والتحق جماعة من عسكر سنقر بالأمير إيناق وأغاروا على طوس وقرأها فبطلت الزروع والحرث واستولى الخراب على البلاد وعمت الفتن أطراف خراسان واصابهم العين فإنهم كانوا أيام السلطان سنجر فى أرغد عيش وأمنه وهذا دأب الدنيا لا يصفو نعيمها وخيرها من كدر وشوائب وآفات وقلما يخلص شرها من خير فنسأل الله أن يحسن لنا العون والعقبى بمحمد وآله .

﴿ ذكر ملك نور الدين بعلبك ﴾ فى هذه السنة ملك نور الدين محمود بعلبك وقلعتها وكانت بيد إنسان يقال له ضحاك البقاعى منسوب إلى بقاع بعلبك وكان قد ولاه إياها صاحب دمشق فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها فلم يمكن نورالدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف الحال معه إلى الآن فملكها واستولى عليها .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة قلع الخليفة المقتفى لأمر الله باب الكعبة وعمل عوضه بابا مصفحا بالنقرة المذهبة وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتا يدفن فيه إذا مات وفيها توفى محمد بن عبداللطيف بن محمد ابن ثابت أبو بكر الخجندى رئيس أصحاب الشافعى بأصفهان وسمع الحديث بها من أبى على الحداد وكان صدرا مقدما عند السلاطين وكان ذا حشمة عظيمة وجاه عريض ووقعت لموته فتنة عظيمة بأصفهان وقتل فيها خلق كثير . وفيها كان بخراسان غلاء شديد أكلت فيه سائر الدواب حتى الناس وكان بنيسابور طباخ فذبح إنسانا علويا وطبخه وباعه فى الطبيخ ثم ظهر عليه أنه فعل ذلك فقتل وأسفر الغلاء وصلحت أحوال الناس . وفيها توفى القاضى أبو العباس أحمد بن بختيار بن على المايد أى الواسطى قاضيها وكان فقيها عالما . وفيها فى ربيع الآخر توفى القاضى برهان الدين ابو القاسم منصور بن أبى سعد محمد بن أبى نصر أحمد الصاعدى قاضى نيسابور وكان من أئمة الفقهاء الحنفية (١) .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر الحرب بين سنقر وأرغش ﴾ فى هذه السنة كان حرب شديدة بين سنقر الهمذانى وأرغش

---

(١) وفيها توفى محمد بن المبارك بن محمد بن الخل أبو الحسن بن أبى البقاء ، سمع الحديث وتفقه على الشاشى ، ودرس وأفتى ، وتوفى فى محرم هذه السنة ، وتوفى أخوه الشيخ ابو الحسين بن الخل الشاعر فى ذى القعدة منها . وفيها توفى يحيى بن عيسى بن إدريس أبو البركات الأنبارى الواعظ ، قرأ القرآن وسمع الحديث وتفقه ووعظ الناس على طريقة الصالحين ، وكان يبكى من أول صعوده إلى حين نزوله ، وكان زاهدا عابدا ورعا آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، ورزق أولادا صالحين سماهم بأسماء الخلفاء الأربعة ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلى . وحفظهم القرآن كلهم بنفسه ، وختم خلقا كثيرا ، وكان هو وزوجته يصومان الدهر ، ويقومان الليل ، ولا يفطران إلا بعد العشاء ، وكانت له كرامات ومنامات صالحة ، ولما مات قالت زوجته : اللهم لا تحيني بعده ، فماتت بعده بخمسة عشر يوما ، وكانت من الصالحات رحمهما الله تعالى .

Marfat.com

المسترشدى وسببها أن سنقر الهمذانى كان قد نهب سواد بغداد بطريق خراسان وكثر جمعه فخرج الخليفة المقتفى لأمر الله فى جمادى الأولى بنفسه يطلبه فلما وصل إلى بلد اللحف قال له الأمير خطلوبرس أنا أكفيك هذا المهم وكان بينه وبين سنقر مودة فركب إليه وتلاقيا وجرى بينهما عتاب طويل لأجل خروجه عن طاعة الخليفة فأجاب سنقر إلى الطاعة وعاد خطلوبرس وأصلح حاله فأقطعه بلد اللحف والأمير أرغش المسترشدى فلما توجها إلى اللحف جرى بينهما منازعة فأراد سنقر قبض أرغش فرآه محترزا فتحاربا واقتتلا قتالا شديدا وغدر بأرغش أصحابه فعاد منهزما إلى بغداد وانفرد سنقر ببلد اللحف وخطب فيه للملك محمد فسير من بغداد عسكرا لقتاله مقدمهم خطلوبرس فجرت بينهما حرب شديدة انهزم فى آخرها سنقر وقتلت رجاله ونهبت أمواله التى فى العسكر وسار هو إلى قلعة الماهكى وأخذ ما كان له فيها واستخلف فيها بعض غلمانه وسار هو إلى همذان فلم يلتفت إليه الملك محمد شاه فعاد إلى قلعة الماهكى.

﴿ذكر الحرب بين شملة وقايماز السلطانى﴾ فى هذه السنة أيضا كان قتال بين شملة صاحب خوزستان ومعه ابن مكلية وبين قايماز السلطانى فى ناحية بادرايا فجمعا عسكرهما وسارا اليه فأتاه الخبر بذلك وهو يشرب فلم يجفل بذلك وركب اليهم فى نحو ثلثمائة فارس وكان معجبا بنفسه فحمل عليهم واختلط بهم فأحدقوا به وقاتل أشد قتال فانهزم أصحابه وأخذ هو أسيرا فتسلمه إنسان تركمانى كان له عليه دم لأنه قتل ابنا للتركمانى فقتله بابنه وأرسل برأسه إلى محمد شاه وأرسل الخليفة عسكرا ليقاتل شملة ومن معه فانزاحوا من بين أيديهم ولحقوا بالملك ملكشاه بخوزستان فهلك كثير منهم بالبرد.

﴿ذكر معاودة الغز الفتنة بخراسان﴾ كان الأتراك الغزية قد أقاموا ببلخ واستوطنوها وتركوا النهب والقتل ببلاد خراسان واتفقت الكلمة بها على طاعة السلطان خاقان محمود بن محمد أرسلان وكان المتولى لأمور دولته المؤيد أى أبه وعن رأيه يصدر محمود فلما كان هذه السنة فى شعبان سار الغز من بلخ إلى مرو وكان السلطان محمود بسرخس فى العساكر فسار المؤيد فى طائفة من العسكر اليهم فأوقع بطائفة منهم وظفر بهم ولم يزل يتبعهم إلى أن دخلوا إلى مرو أوائل رمضان وغنم من أموالهم وقتل كثيرا وعاد إلى سرخس فاتفقا هو والسلطان محمود على قصد الغز وقتالهم فجمعا العساكر وحشدا وسارا إلى الغز فالتقوا سادس شوال من هذه السنة وجرت بينهم حرب طال مداها فبقوا يقتتلون من يوم الإثنين سابع شوال إلى نصف الليل من ليلة الأربعاء الحادى عشر من الشهر تواقعوا عدة وقعات متتابعة ولم يكن بينهما راحة ولا نزول إلا لما لابد منه انهزم الغز فيها ثلاث دفعات وعادوا إلى الحرب فلما أسفر الصبح يوم الأربعاء انكشفت الحرب عن هزيمة عساكر خراسان وتفرقهم فى البلاد وظفر الغز بهم وقتلوا فأكثروا فيهم وأما الجرحى والأسرى فأكثر من ذلك وعاد المؤيد ومن سلم معه إلى طوس فاستولى الغز على مرو وأحسنوا السيرة وأكرموا العلماء والأئمة مثل تاج الدين أبى سعد السمعانى وشيخ الإسلام على البلخى وغيرهما وأغاروا على سرخس وخربت القرى وجلى أهلها وقتل من أهل سرخس نحو عشرة آلاف قتيل ونهبوا طوس أيضا وقتلوا أهلها إلا القليل وعادوا إلى مرو وأما السلطان محمود بن محمد الخان والعساكر التى معه فلم يقدروا على المقام بخراسان من الغز فساروا إلى جرجان ينتظرون ما يكون من الغز فلما دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة أرسل الغز إلى السلطان يسألونه أن يحضر عندهم ليملكوه أمرهم فلم يثق بهم وخافهم على نفسه فأرسلوا يطلبون منه ابنه جلال الدين عمر ليملكوه أمرهم ويصدروا عن أمره ونهيه فى قليل الأمور وكثيرها وترددت الرسل

Marfat.com

واحتاط السلطان محمود لولده بالعهد والمواثيق وتقرير القواعد ثم سيره من جرجان إلى خراسان فلما سمع الأمراء الغزية بقدومه ، ساروا من مرو إلى طريقه فالتقوه بنيسابور وأكرموه وعظموه ودخل نيسابور واتصلت به العساكر الغزية واجتمعوا عنده فى الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، ثم إن السلطان محمودا سار من جرجان إلى خراسان فى الجيوش التى معه من الأمراء السنجرية وتخلف عنه المؤيد أى أبه فوصل إلى حدود نسا وأبيورد وأقطع نسا لأمير اسمه عمر بن حمزة النسوى فقام فى حفظها المقام المرضى ومنع عنها أيدى المفسدين وأقام السلطان محمود بظاهر نسا حتى انسلخ جمادى الآخرة من السنة ، ولما كان الغز بنيسابور هذه السنة أرسلوا إلى طوس يدعونهم إلى الطاعة والموافقة فامتنع أهل راذكان من إجابتهم إلى ذلك واغتروا بسور بلدهم وبما عندهم من الشجاعة والقوة والعدة الوافرة والذخائر الكثيرة فقصدها طائفة من الغز وحصروهم وملكوا البلد وقتلوا فيه ونهبوا وأكثروا ثم عادوا إلى نيسابور وساروا مع جلال الدين محمد بن السلطان محمود الخان إلى بيهق وحصروا سابزوار سابع عشر جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة فامتنع أهلها عليهم وقام بأمرهم النقيب عماد الدين على بن محمد بن يحيى العلوى الحسينى نقيب العلويين واجتمعوا معه ورجعوا إلى أمره ونهيه ووقفوا عند إشارته فامتنعوا على الغز وحفظوا البلد منهم وصبروا على القتال فلما رأى الغز امتناعهم عليهم وقوتهم أرسلوا إليهم يطلبون الصلح فاصطلحوا ولم يقتل من أهل سابزوار فى تلك الحروب غير رجل واحد ورحل الملك جلال الدين والغز عن سابزوار فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وخمسمائة وساروا إلى نسا وأبيورد .

﴿ذكر أسر المؤيد وخلاصه﴾ قدذكرنا أن المؤيد أى أبه تخلف عن السلطان ركن الدين محمود بن محمد بجرجان فلما كان الآن سار من جرجان إلى خراسان فنزل بقرية من قرى خبوشان اسمها زانك وبها حصن فسمع الغز بوصوله إلى زانك فساروا إليه وحصروه فيه فخرج منه هاربا فرآه واحد من الغز فأخذه فوعده بمال جزيل إن أطلقه فقال الغزى وأين المال فقال هو مودع فى بعض هذه الجبال فسار هو والغزى فوصلا إلى جدار قرية فيها بساتين وعيون فقال للفارس المال ههنا وصعد الجدار ونزل من ظهره ومضى هاربا فرأى الغز قد ملؤا الأرض فدخل قرية فعرفه طحان فيها فأعلم زعيم القرية به وطلب منه مركبا فأتاه بما أراد وأعانه على الوصول إلى نيسابور فوصل إليها واجتمعت العساكر وقوى أمره وعاد إلى حاله وأحسن إلى الطحان وبالغ فى الإحسان إليه .

﴿ذكر اجتماع السلطان محمود مع الغز وعودهم إلى نيسابور﴾ لما عاد الغز ومعهم الملك محمد بن محمود الخان إلى نيسا وأبيورد كما ذكرناه خرج والده السلطان محمود الخان وكان هناك فيمن معه من العساكر الخراسانية فاجتمع بهم واتفقت الكلمة على طاعته وأراد عمارة البلاد وحفظها فلم يقدر على ذلك فلما اجتمعوا ساروا إلى نيسابور وبها المؤيد أى أبه فى شعبان فلما سمع بقربهم منه رحل عنها إلى خواف فى سادس عشرة ووصلوا إليها فى الحادى والعشرين منه ونزلوا فيه وخافهم الناس خوفا عظيما فلم يفعلوا بهم شيئا وساروا عنها فى السادس والعشرين منه إلى سرخس ومرو وكان بها الفقيه المؤيد بن الحسين الموفق رئيس الشافعية وله بيت قديم وهو من أجناد الإمام أبى سهل الصعلوكى وله مصاهرة إلى بيت أبى المعالى الجوينى وهو المقدم فى البلد والمشار إليه وله من الأتباع مالا يحصى فاتفق أن بعض أصحابه قتل إنسانا من الشافعية اسمه أبو الفتوح

Marfat.com

المستقاني خطأ وهذا أبو الفتوح له تعلق بنقيب العلويين بنيسابور وهو ذخر الدين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسيني وكان هذا النقيب هو الحاكم هذه المدة بنيسابور فغضب من ذلك وأرسل إلى الفقيه المؤيد يطلب منه القاتل ليقتص منه ويتهدده إن لم يفعل فامتنع المؤيد من تسليمه وقال لامدخل لك مع أصحابنا إنما حكمك على الطائفة العلويين فجمع النقيب أصحابه ومن يتبعه وقصد الشافعية فاجتمعوا له وقتلوه فقتل منهم جماعة ثم إن النقيب أحرق سور العطارين وأحرقوا سكة معاد أيضا وسكة باغ طاهر ودار إمام الحرمين أبي المعالى الجوينى وكان الفقيه المؤيد الشافعى بها للصهر الذى بينهم وعظمت المصيبة على كافة الناس وجمع بعد ذلك المؤيد الفقيه جموعا من طوس واسفراين وجوين وغيرهم وقتلوا واحدا من اتباع النقيب زيد يعرف بابن الحاجى الأشنانى فأهم العلوية ومن معهم فاقتتلوا ثامن عشر شوال من سنة أربع وخمسين وقامت الحرب على ساق وأحرقت المدارس والأسواق والمساجد وكثر القتل فى الشافعية فالتجأ المؤيد الشافعى فى شرذمة إلى قلعة فرخك وقصر باع الشافعية عن القتال ثم انتقل المؤيد إلى قرية من قرى طوس وبطلت دروس الشافعية بنيسابور وخرب البلد وكثر القتل فيه .

﴿ذكر حصر صاحب حتلان ترمذ وعوده وموته﴾ فى هذه السنة فى رجب سار الملك أبو شجاع فرخشاه وهو يزعم أنه من أولاد بهرام جور وقد تقدم ذكره أيام كسرى أبرويز إلى ترمذ وحصرها وكان سبب ذلك أنه كان فى طاعة السلطان سنجر فلما خرج عليه الغز طلبه ليحضر معه حربه لهم فجمع عسكره وأظهر أنه واصل فيمن عنده من العساكر إليه وأقام ينتظر مايكون منه فان ظفر حضر وقال له سبقتنى بالحرب وإن كان الظفر للغز قال لهم إنما تأخرت محبة وإرادة أن تملكوا فلما انهزم سنجر وكان ماذكرناه بقى إلى الآن فسار إلى ترمذ ليحصرها فجمع صاحبها فيروزشاه أحمد بن أبى بكر بن قماج عسكره ولقيه ليمنعه فاقتتلوا فانهزم فيروزشاه ومضى منهزما لايلوى على شىء فأصابه فى الطريق قولنج فمات منه .

﴿ذكر عود المؤيد إلى نيسابور وتخريب مابقى منها﴾ فى هذه السنة عاد المؤيد أى أبه إلى نيسابور فى عساكره ومعه الإمام المؤيد الموفقى الشافعى الذى تقدم ذكر الفتنة بينه وبين ذخر الدين نقيب العلويين وخروجه من نيسابور فلما خرج منها صار مع المؤيد وحضر مع المؤيد وحضر معه حصار نيسابور وتحصن النقيب العلوى بشارستان واشتد الخطب وطال الحرب وسفكت الدماء وهتكت الأستار وخربوا مابقى من نيسابور من الدور وغيرها وبالغ الشافعية ومن معهم من الانتقام فخربوا المدرسة الصندلية لأصحاب أبى حنيفة وخربوا غيرها وحصروا قهندز وهذه الفتنة استأصلت نيسابور ثم رحل المؤيد أى أبه عنها إلى بيهق فى شوال من سنة أربع وخمسين وخمسمائة كان ينبغى أن تكون هذه الحوادث الغزية الواقعة فى سنة أربع وخمسين مذكورة فى سنتها وإنما قدمناها ههنا ليتلو بعضها بعضا فيكون أحسن لسياقتها .

﴿ذكر ملك ملكشاه خوزستان﴾ فى هذه السنة ملك ملكشاه بن السلطان محمود بلد خوزستان وأخذه من شملة التركمانى وسبب ذلك أن الملك محمد بن السلطان محمود لما عاد من حصار بغداد كما ذكرناه مرض وبقى مريضا بهمذان ومضى أخوه ملكشاه إلى قم وقاجان وما والاها فنهبها جميعها وصادر أهلها وجمع أموالا كثيرة فراسله أخوه محمد شاه يأمره بالكف عن ذلك ليجعله ولى عهده فى الملك فلم يفعل ومضى إلى أصفهان فلما قاربها أرسل رسولا إلى ابن الخجندى وأعيان البلد فى تسليم البلد اليه فامتنعوا من ذلك وقالوا لأخيك فى رقابنا

Marfat.com

يمين ولانغدر به فحينئذ شرع ملكشاه فى الفساد والمصادرة لأهل القرى فلما سمع محمد شاه الخبر سار عن همذان وعلى مقدمته كردبازوه الخادم فتفرقت جموع ملكشاه عند فرسيسين فلحق به قويدان وكان قد فارق المقتفى لأمر الله واتفق مع سنقر الهمذانى فلحق كلاهما به وحسناله قصد بغداد فسار عن بلد خوزستان إلى واسط ونزل بالجانب الشرقى وهم على غاية الضرمن الجوع فنهبوا القرى نهبا فاحشا ففتح بثق بتلك الناحية فغرق منهم كثير ونجا ملكشاه ومن سلم معه وساروا إلى خوزستان فمنعه شملة من العبور فراسله ليمكنه من العبور إلى أخيه الملك محمد شاه فلم يجبه إلى ذلك وكاتب حينئذ الأكراد الكرالذين هناك واستدعاهم اليه ففرحوا به ونزل اليه من تلك الجبال خلق كثير فأطاعوه فرحل ونزل على كرخانا وطلب من شملة الحرب فألان له شملة القول وقال أنا أخطب لك وأكون معك فلم يقبل منه فاضطر شملة إلى الحرب فجمع عسكره وقصده فلقيه ملكشاه ومعه سنقر الهمذانى وقويدان وغيرهما من الأمراء فاقتتلوا فانهزم شملة وقتل كثير من أصحابه وصعد إلى قلعته دندرزين وملك ملكشاه البلاد وجبى الأموال الكثيرة وأظهر العدل وتوجه إلى أرض فارس.

﴿ذكر الحرب بين التركمانى والإسماعيلية بخراسان﴾ كان بنواحى قهستان طائفة من التركمان فنزل اليهم جمع من الإسماعيلية من قلاعهم وهم ألف وسبعمائة فأوقعوا بالتركمان فلم يجدوا الرجال وكانوا قد فارقوا بيوتهم فنهبوا الأموال وأخذوا النساء والأطفال وأحرقوا مالم يقدروا على حمله وعاد التركمان فرأوا مافعل بهم فتبعوا أثر الإسماعيلية فأدركوهم وهم يقتسمون الغنيمة فكبروا وحملوا عليهم ووضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا حتى أفنوهم قتلا وأسرا ولم ينج إلا تسعة رجال لاغير.

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة كثر فساد التركمان أصحاب ترجم الإيوانى بالجبل فسير إليهم من بغداد عسكر مقدمهم منكبرس المسترشدى فلما قاربهم اجتمع التركمان فالتقوا واقتتلوا هم ومنكبرس فانهزم التركمان أقبح هزيمة وقتل بعضهم وأسر بعض وحملت الرؤس والأسارى إلى بغداد. وفيها حج الناس فلما وصلوا إلى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم وصل لهم الخبر أن العرب قد اجتمعت لتأخذهم فتركوا الطريق وسلكوا طريق خيبر فوجدوا مشقة شديدة ونجوا من العرب. وفيها توفى الشيخ نصر بن منصور بن الحسين العطار أبو القاسم الحرانى ومولده بحران سنة أربع وثمانين وأربعمائة وأقام ببغداد وكثر ماله وصدقاته أيضا وكان يقرأ القرآن وهو والد ظهير الدين الذى حكم فى دولة المستضىء بأمر الله على ما نذكره إن شاء الله. وفيها توفى أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزى ببغداد وهو سجزى الأصل هروى المنشأ وكان قدم إلى بغداد سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة يريد الحج فسمع الناس بها عليه صحيح البخارى وكان عالى الإسناد فتأخر لذلك عن الحج فلما كان هذه السنة عزم على الحج فمات. وفيها توفى يحيى بن سلامة بن الحسن بن محمد الفضل الحصكفى الأديب بميافارقين وله شعر حسن ورسائل جيدة مشهورة وكان بتشيع ومولده بطنزة فمن شعره:

وخليع بت أعذله * ويرى عذلى من العبث
قلت إن الخمر مخبثة * قال حاشاها من الخبث
قلت فالأرفاث تتبعها * قال طيب العيش فى الرفث
قلت منها التى * قال أجل * شرفت عن مخرج الحدث

Marfat.com

وسألوها فقلت متى * قال عند الكون فى الحدث[1]

---

(١) وليحيي بن سلامة أنه مدح أهل البيت والأئمة الإثنى عشر رحمهم الله .

وسائلى عن حب أهل البيت * هل أقر إعلانا أم أجحد
هيهات ممزوج بلحمى ودمى * حبهم وهو الهدى والرشد
حيدرة والحسنان بعده * ثم على وابنه محمد
وجعفر الصادق وابن جعفر * موسى ويتلوه على السيد
أعنى الرضى ثم ابنه محمد * ثم على وابنه المسدد
والحسن الثانى ويتلو تلوه * محمد بن الحسن المفتقد
فإنهم أئمتى وسادتى * وإن لحانى معشر وفندوا
أئمة أكرم بهم أئمة * أسماؤهم مسرودة تطرد
هم حجج الله على عباده * وهم إليه منهج ومقصد
قوم لهم فضل ومجد باذخ * يعرفه المشرك والموحد
قوم لهم فى كل أرض مشهد * لا بل لهم فى كل قلب مشهد
قوم منى والشعران لهم * والمروتان لهم والمسجد
قوم لهم مكة والأبطح والخـ * ـيف وجمع والبقيع الغرقد

ثم ذكر بلطف مقتل الحسين بألطف عبارة إلى أن قال .

يا أهل بيت المصطفى يا * عدتى ومن على حبهم أعتمد
أنتم إلى الله غداً وسيلتى * وكيف أخشى وبكم أعتضد
وليكم فى الخلد حى خالد * والضد فى نار لظى مخلد
ولست أهواكم ببغض غيركم * إنى إذاً أشقى بكم لا أسعد
فلا يظن رافضى أننى * وافقته أو خارجى مفسد
محمد والخلفاء بعده * أفضل خلق الله فيما أجد
هم أسسوا قواعد الدين لنا * وهم بنوا أركانه وشيدوا
ومن يخن أحمد فى أصحابه * فخصمه يوم المعاد أحمد
هذا اعتقادى فالزموه تفلحوا * هذا طريقى فاسلكوه تهتدوا
والشافعى مذهبى مذهبه * لأنه فى قوله مؤيد
أتبعته فى الأصل والفرع معا * فليتبعنى الطالب المرشد
إنى بإذن الله ناج سابق * إذا ونى الظالم ثم المفسد

ومن شعره أيضا

إذا قل مالى لم تجدنى جازعا * كثير الأسى معرى بعض الأنامل
ولا بطرا إن جد الله نعمة ، ولو أن ماأوتى جميع الناس لى

Marfat.com

Marfat.com

﴿ ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر ملك عبدالمؤمن مدينة المهدية من الفرنج وملكه جميع أفريقية ﴾ قد ذكرنا سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج مدينة المهدية من صاحبها الحسن بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى وذكرنا أيضا سنة إحدى وخمسين مافعله الفرنج بالمسلمين فى زويلة المجاورة للمهدية من القتل والنهب فلما قتلهم الفرنج ونهبوا أموالهم هرب منهم جماعة وقصدوا عبدالمؤمن صاحب المغرب وهو بمراكش يستجيرونه فلما وصلوا إليه وذخلوا عليه أكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس فى ملوك الإسلام من يقصد سواه ولا يكشف هذا الكرب غيره فدمعت عيناه وأطرق ثم رفع رأسه وقال أبشروا لأنصرنكم ولو بعد حين وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفى دينار ثم أمر بعمل الروايا والقرب وما يحتاج إليه العساكر فى السفر وكتب إلى جميع نوابه فى الغرب وكان قدملك إلى قريب تونس يأمرهم بحفظ جميع مايتحصل من الغلات وأن يترك فى سنبله ويخزن فى مواضعه وأن يحفروا الآبار فى الطرق ففعلوا جميع ماأمرهم به وجمعوا الغلات ثلاث سنين ونقلوها إلى المنازل وطينوا عليها فصارت كأنها تلال فلما كان فى صفر من هذه السنة سار عن مراكش وكان أكثر أسفاره فى صفر فسار يطلب أفريقية واجتمع من العساكر مائة ألف مقاتل ومن الأتباع والسوقة أمثالهم وبلغ من حفظه لعساكره أنهم كانوا يمشون بين الزروع فلا تتأذى بهم سنبلة وإذا نزلوا صلوا جميعهم مع إمام واحد بتكبيرة واحدة لايتخلف منهم أحد كائنا من كان وقدم بين يديه الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز ابن باديس الصنهاجى وكان صاحب المهدية وأفريقية وقد ذكرنا سبب مصيره عند عبدالمؤمن فلم يزل يسير إلى أن وصل إلى مدينة تونس فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة من السنة وبها صاحبها أحمد بن خراسان وأقبل أسطوله فى البحر فى سبعين شينيا وطريدة وشلندى فلما نازلها أرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته فامتنعوا فقاتلهم من الغد أشد قتال فلم يبق إلا أخذها ودخول الأسطول إليها فجاءت ريح عاصف منعت الموحدين من دخول البلد فرجعوا ليباكروا القتال ويملكوه فلما جن الليل نزل سبعة عشر رجلا من أعيان أهلها إلى عبدالمؤمن يسألونه الأمان لأهل بلدهم فأجابهم إلى الأمان لهم فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم لمبادرتهم إلى الطاعة وأما من عداهم من أهل البلد فيؤمنهم فى أنفسهم وأهاليهم ويقاسمهم على أموالهم وأملاكهم نصفين وأن يخرج صاحب البلد هو وأهله فاستقر ذلك وتسلم البلد وأرسل إليه من يمنع العسكر من الدخول وأرسل أمناءه ليقاسموا الناس على أموالهم وأقام عليها ثلاثة أيام وعرض الإسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل وأقام أهل تونس بها بأجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم وسار عبدالمؤمن منها إلى المهدية والأسطول يحاديه فى البحر فوصل إليها ثامن عشر رجب وكان حينئذ بالمهدية أولاد ملوك الفرنج وأبطال الفرسان وقد أخلوا زويلة وبينها وبين المهدية غاية سهم فدخل عبدالمؤمن من زويلة وامتلأت بالعساكر والسوقة فصارت مدينة معمورة فى ساعة ومن لم يكن له موضع من العسكر نزل بظاهرها وانضاف إليه من صنهاجة والعرب وأهل البلاد مايخرج عن الإحصاء وأقبلوا يقاتلون المهدية مدة أيام فلا يؤثر فيها لحصانتها وقوة سورها وضيق موضع القتال عليها لأن البحر دائر بأكثرها فكأنها كف فى البحر وزندها متصل بالبر وكانت الفرنج تخرج شجعانهم إلى أطراف العسكر فتنال منه ويعودون سريعا فأمر عبدالمؤمن أن يبنى

Marfat.com

سور من غرب المدينة يمنعهم من الخروج واحاط الاسطول بها فى البحر وركب عبدالمؤمن فى شينى ومعه الحسن بن على الذى كان صاحبها وطاف بها فى البحر فهاله مارأى من حصانتها وعلم أنها لاتفتح بقتال براً ولابحرا وليس لها إلا المطاولة وقال للحسن كيف نزلت عن مثل هذا الحصن فقال لقلة من يوثق به وعدم القوت وحكم القدر فقال صدقت وعاد من البحر وأمر بجمع الغلات والاقوات وترك القتال فلم يمض غير قليل حتى صار فى العسكر كالجبلين من الحنطة والشعير فكان من يصل إلى العسكر من بعيد يقولون متى حدثت هذه الجبال فيقال لهم هى حنطه وشعير فيتعجبون من دلك وتمادى الحصار وفى مدته أطاع سفاقس عبدالمؤمن ومدينة طرابلس وجبال نفوسة وقصور أفريقية وما والاها وفتح مدينة قابس بالسيف وسيرابنه أبا محمد عبدالله فى جيش ففتح بلادا ثم إن أهل مدينة قفصة لما رأوا تمكن عبدالمؤمن أجمعوا على المبادرة إلى طاعته وتسليم المدينة إليه فتوجه صاحبها يحيى بن تميم بن المعز ومعه جماعة من أعيانها وقصدوا عبد المؤمن فلما أعلمه حاجبه بهم قال له عبدالمؤمن قد اشتبه عليك ليس هؤلاء أهل قفصة فقال له لم يشتبه على قال له عبدالمؤمن كيف يكون ذلك والمهدى يقول إن أصحابنا يقطعون اشجارها ويهدمون أسوارها ومع هذا فتقبل منهم وتكف عنهم (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) فأرسل إليهم طائفة من أصحابه ومدحه شاعر منهم بقصيدة أولها :

ماهز عطفيه بين البيض والأسل * مثل الخليفة عبدالمؤمن بن على

فوصله بألف دينار ولما كان فى الثانى والعشرين من شعبان من السنة جاء أسطول صاحب صقلية فى مائة وخمسين شينيا غير الطرائد وكان قد وفد من جزيرة يابسة من بلاد الأندلس وقد سبى أهلها وأسرهم وحملهم معه فأرسل اليهم ملك الفرنج يأمرهم بالمجىء إلى المهدية فقدموا فى التاريخ فلما قاربوا المهدية حطوا شرعهم ليدخلوا المبنى فخرج اليهم اسطول عبد المؤمن وركب العسكر جميعه وواقفوا على جانب البحر فاستعظم الفرنج مارأوه من كثرة العساكر ودخل الرعب قلوبهم وبقى عبد المؤمن يمرغ وجهه على الأرض ويبكى ويدعو للمسلمين بالنصر واقتتلوا فى البحر فانهزمت شوانى الفرنج وأعادوا القلوع وتبعهم المسلمون فأخذوا منهم سبع شوانى ولوكان معهم شوانى لأخذوا أكثرهم وكان أمرا عجيبا وفتحا قريبا وعاد أسطول المسلمين مظفرا منصورا وفرق فيهم عبد المؤمن الأموال ويئس أهل المهدية حينئذ من النجدة وصبروا على الحصار ستة أشهر إلى آخر شهر ذى الحجة من السنة فنزل حينئذ من فرسان الفرنج إلى عبدالمؤمن عشرة وسألوا الأمان لمن فيها من الفرنج على أنفسهم وأموالهم ليخرجوا منها ويعودوا إلى بلادهم وكان قوتهم قد فنى حتى أكلوا الخيل فعرض عليهم الإسلام ودعاهم إليه فلم يجيبوا ولم يزالوا يترددون إليه أياما بالكلام اللين فأجابهم إلى ذلك وأمنهم وأعطاهم سفنا فركبوا فيها وساروا وكان الزمان شتاء فغرق أكثرهم ولم يصل منهم إلى صقلية إلا النفر اليسير وكان صاحب صقلية قد قال إن قتل عبدالمؤمن أصحابنا بالمهدية قتلنا المسلمين الذين هم بجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم فأهلك الله الفرنج غرقا وكان مدة ملكهم المهدية اثنتى عشرة سنة ودخل عبدالمؤمن المهدية بكرة عاشوراء من المحرم سنة خمس وخمسين وخمسمائة وسماها عبدالمؤمن سنة الأخماس وأقام بالمهدية عشرين يوما فرتب أحوالها وأصلح ماانثلم من سورها ونقل إليها الذخائر من الأقوات والرجال والعدد واستعمل عليها بعض أصحابه وجعل معه الحسن بن على الذى كان صاحبها وأمره أن يقتدى برأيه فى أفعاله وأقطع الحسن بها أقطاعا وأعطاه دورا نفيسة يسكنها وكذلك فعل بأولاده ورحل من المهدية أول

صفر من السنة إلى بلاد الغرب .

﴿ ذكر إيقاع عبدالمؤمن بالعرب ﴾ لما فرغ عبدالمؤمن من أمر المهدية وأراد العود إلى الغرب جمع أمراء العرب من بنى رياح الذين كانوا بأفريقية وقال لهم قد وجبت علينا نصرة الإسلام فإن المشركين قد استفحل أمرهم بالأندلس واستولوا على كثير من البلاد التى كانت بأيدى المسلمين ومايقاتلهم أحد مثلكم فبكم فتحت البلاد أول الإسلام وبكم يدفع عنها العدو الآن ونريد منكم عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والشجاعة يجاهدون فى سبيل الله فأجابوا بالسمع والطاعة فحلفهم على ذلك بالله تعالى وبالمصحف فحلفوا ومشوا معه إلى مضيق جبل زغوان وكان منهم إنسان يقال له يوسف بن مالك وهو من أمرائهم ورؤس القبائل فيهم فجاء إلى عبدالمؤمن بالليل وقال له سرا إن العرب قد كرهت المسير إلى الأندلس وقالوا ماغرضه إلا إخراجنا من بلادنا وأنهم لايفون بما حلفوا عليه فقال يأخذ الله عز وجل الغادر فلما كان الليلة الثانية هربوا إلى عشائرهم ودخلوا البر ولم يبق منهم إلا يوسف بن مالك فسماه عبدالمؤمن يوسف الصادق ولم يحدث عبد المؤمن فى أمرهم شيئاً وسار مغربا يحث السير حتى قرب من القسطنطينية فنزل فى موضع مخصب يقال له وادى النساء والفصل ربيع والكلأ مستحسن فأقام به وضبط الطرق فلا يسير من العسكر أحد البتة ودام كذلك عشرين يوما فبقى الناس فى جميع البلاد لايعرفون لهذا العسكر خبرا مع كثرته وعظمه ويقولون ما أزعجه إلا خبر وصله من الأندلس فحث لأجله فى السير فعادت العرب الذين جفلوا منه من البرية إلى البلاد لما أمنوا جانبه وسكنوا البلاد التى ألفوها واستقروا فى البلاد فلما علم عبدالمؤمن برجوعهم جهز إليهم ولديه أبا محمد وأبا عبدالله فى ثلاثين ألف مقاتل من أعيان الموحدين وشجعانهم فجدوا السير وقطعوا المفاوز فما شعر العرب إلا والجيش قد أقبل بغتة من ورائهم من جهة الصحراء ليمنعوهم الدخول إليها إن راموا ذلك وكانوا قد نزلوا جنوبا من القيروان عند جبل يقال له جبل القرن وهم زهاء ثمانين ألف بيت والمشاهير من مقدميهم أبو محفوظ محرز بن زياد ومسعود بن زمام البلاط وجبارة بن كامل وغيرهم فلما أطلت عساكر عبدالمؤمن عليهم اضطربوا واختلفت كلمتهم ففر مسعود وجبارة بن كامل ومن معهما من عشائرهما وثبت محرز بن زياد وأمرهم بالثبات والقتال فلم يلتفتوا إليه فثبت هو ومن معه من جمهور العرب فناجزهم الموحدون القتال فى العشر الأوسط من ربيع الآخر من السنة وثبت الجمعان واشتد العراك فاتفق أن محرز بن زياد قتل ورفع رأسه على رمح فانهزمت جموع العرب عند ذلك وأسلموا البيوت والحريم والأولاد والأموال وحمل جميع ذلك إلى عبدالمؤمن وهو بذلك المنزل فأمر بحفظ النساء العربيات الصرائح وحملهن معه تحت الحفظ والبر والصيانة إلى بلاد الغرب وفعل معهن مثل مافعل فى حريم الأبثج ثم أقبلت إليه وفود رياح مهاجرين فى طلب حريمهم كما فعل الأبثج فأجمل الصنيع لهم ورد الحريم إليهم فلم يبق منهم أحد إلا صار عنده وتحت حكمه وهو يخفض لهم الجناح ويبذل فيهم الإحسان ثم إنه جهزهم إلى ثغور الأندلس على الشرط الأول وجمعت عظام العرب المقتولين فى هذه المعركة عند جبل قرن فبقيت دهرا طويلا كالتل العظيم يلوح للناظرين من مكان بعيد وبقيت أفريقية مع نواب عبدالمؤمن آمنة ساكنة لم يبق فيها من أمراء العرب خارج عن طاعته إلا مسعود البلاط بن زمام وطائفته فى أطراف البلاد .

﴿ ذكر غرق بغداد ﴾ فى هذه السنة ثامن ربيع الآخر كثرت الزيادة فى دجلة وغرق القورج فوق بغداد

Marfat.com

Marfat.com

وأقبل المد إلى البلد فامتلأت الصحارى وخندق البلد وأفسد الماء السور ففتح فيه فتحة يوم السبت تاسع عشر الشهر فوقع بعض السور عليها فسدها ثم فتح الماء فتحة أخرى وأهملوها ظنا أنها تنفس عن السور لئلا يقع فغلب الماء وتعذر سده فغرق قراح طغر والأجمة والمختارة والمقتدية ودرب القبار وخرابة ابن جردة والريانى وقراح القاضى وبعض القطيعة وبعض باب الأزج وبعض المأمونية وقراح أبى الشحم وبعض قراح ابن رزين وبعض الظفرية ودب الماء تحت الأرض إلى أماكن فوقعت وأخذ الناس يعبرون إلى الجانب الغربى فبلغت المعبرة عدة دنانير ولم يكن يقدر عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى داخل السور عليها ثم نقص الماء وتهدم السور وبقى الماء الذى داخل السور يدب فى المحال التى لم يركبها الماء فكثر الخراب وبقيت المحال لاتعرف وإنما هى تلول فأخذ الناس حدود دورهم بالتخمين وأما الجانب الغربى فغرقت فيه مقبرة أحمد بن حنبل وغيرها من المقابر وانخسفت القبور المبنية وخرج الموتى على رأس الماء وكذلك المشهد والحربية وكان أمرا عظيما.

﴿ذكر عود سنقر الهمذانى إلى اللحف وانهزامه﴾ فى هذه السنة عاد سنقر الهمذانى إلى أقطاعه وهو قلعة الماهكى وبلد اللحف وكان الخليفة قد أقطعه للأمير قايماز العميدى ومعه أربعمائة فارس فأرسل اليه سنقر يقول له ارحل عن بلدى فامتنع فسار اليه وجرى بينهما قتال شديد انهزم فيه العميدى ورجع إلى بغداد بأسوأ حال فبرز الخليفة وسار فى عساكره إلى سنقر فوصل إلى النعمانية وسير العساكر مع ترشك ورجع إلى بغداد ومضى ترشك نحو سنقر الهمذانى فتوغل سنقر فى الجبال هاربا ونهب ترشك ماوجد له ولعسكره من مال وسلاح وغير ذلك وأمر وزيره بقتل من رأى من أصحابه ونزل على الماهكى وحصرها أياما ثم عاد إلى البندنيجين وأرسل إلى بغداد بالبشارة وأما سنقر فإنه لحق بملكشاه فاستنجده فسير معه خمسمائة فارس فعاد ونزل على قلعة هناك وأفسد أصحابه فى البلاد وأرسل ترشك إلى بغداد يطلب نجدة فجاءته فأراد سنقر أن يكبس ترشك فعرف ذلك فاحترز فعدل سنقر إلى المخادعة فأرسل رسولا إلى ترشك يطلب منه أن يصلح حاله مع الخليفة فاحتبس ترشك الرسول عنده وركب فيمن خف من أصحابه فكبس سنقر ليلا فانهزم هو وأصحابه وكثر القتل فيهم وغنم ترشك أموالهم ودوابهم وكل مالهم ونجا سنقر جريحا.

﴿ذكر الفتنة بين عامة استراباذ﴾ فى هذه السنة وقع فى استراباذ فتنة عظيمة بين العلويين ومن يتبعهم من الشيعة وبين الشافعية ومن معهم وكان سببها أن الإمام محمد البزوى وصل إلى استراباذ فعقد مجلس الوعظ وكان قاضيها أبو نصر سعد بن محمد بن اسمعيل النعيم شافعى المذهب أيضا فثار العلويون ومن يتبعهم من الشيعة بالشافعية ومن يتبعهم باستراباذ ووقعت بين الطائفتين فتنة عظيمة انتصر فيها العلويون فقتل من الشافعية جماعة وهرب القاضى ونهبت داره ودور من معه وجرى عليهم من الأمور الشنيعة مالا حد عليه فسمع شاه مازندران الخبر فاستعظمه وأنكر على العلويين فعلهم وبالغ فى الإنكار مع أنه شديد التشيع وقطع عنهم جرايات كانت لهم ووضع الجبايات والمصادرات على العامة فتفرق كثير منهم وعاد القاضى إلى منصبه وسكنت الفتنة.

﴿ذكر وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه﴾ فى هذه السنة توفى السلطان محمد بن محمود بن محمد وهو الذى حاصر بغداد طالبا السلطنة وعاد عنها فأصابه سل وطال به فمات بباب همذان وكان مولده فى ربيع الاخر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فلما حضره الموت أمر العساكر فركبت وأحضر أمواله وجواهره

وحظاياه ومماليكه فنظر إلى الجميع من طيارة تشرف على ماتحتها فلما رآه بكى وقال لهذه العساكر والأموال والمماليك والسرارى ما أرى يدفعون عنى مقدار ذرة ولا يزيدون فى أجلى لحظة وأمر بالجميع فرفع بعد أن فرق منه شيئا كثيرا وكان عظيما كريما عاقلا كثير التأنى فى أموره وكان له ولد صغير فسلمه إلى آقسنقر الأحمدىلى وقال له أنا أعلم أن الناس لاتطيع مثل هذا الطفل وهو وديعة عندك فارحل به إلى بلادك فرحل إلى مراغة فلما مات اختلفت الأمراء فطائفة طلبوا ملكشاه أخاه وطائفة طلبوا سليمان شاه وهم الأكثر وطائفة طلبوا أرسلان الذى مع أيلدكز فأما ملكشاه فإنه سار من خوزستان ومعه دكلا صاحب فارس وشملة التركمانى وغيرهما فوصل إلى أصفهان فسلمها إليه ابن الخجندى وجمع له مالا أنفقه عليه وأرسل إلى العساكر بهمذان يدعوهم إلى طاعته فلم يجيبوه لعدم الاتفاق بينهم ولأن أكثرهم كان يريد سليمان شاه .

﴿ ذكر أخذ حران من نور الدين وعودها إليه ﴾ فى هذه السنة مرض نور الدين محمود بن زنكى صاحب حلب مرضا شديد أرجف بموته وكان بقلعة حلب ومعه أخوه الأصغر أميران فجمع الناس وحصر القلعة وكان شيركوه وهو أكبر أمرائه بحمص فبلغه خبر موته فسار إلى دمشق ليتغلب عليها وبها أخوه نجم الدين أيوب فأنكر عليه أيوب ذلك وقال أهلكتنا والمصلحة أن تعود إلى حلب فإن كان نور الدين حيا خدمته فى هذا الوقت وإن كان قد مات فأنا فى دمشق نفعل مانريد من ملكها فعاد إلى حلب مجدا وصعد القلعة وأجلس نور الدين فى شباك يراه الناس وكلمهم فلما رأوه حيا تفرقوا عن أخيه أميران فسار إلى حران فملكها فلماعرفى نور الدين قصد حران ليخلصها فهرب أخوه منه وترك أولاده بحران فى القلعة فملكها نور الدين وسلمها إلى زين الدين على نائب أخيه قطب الدين صاحب الموصل ثم سار نور الدين بعد أخذ حران إلى الرقة وبها أولاد أميرك الجاندار وهو من أعيان الأمراء وقد توفى وبقى أولاده فنازلها فشفع جماعة من الأمراء فيهم فغضب من ذلك وقال هلا شفعتم فى أولاد أخى لما أخذت منهم حران وكانت الشفاعة فيهم من أحب الأشياء إلى فلم يشفعهم وأخذها منهم .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة مرض الخليفة المقتفى لأمر الله واشتد مرضه وعوفى فضربت البشائر ببغداد وفرقت الصدقات من الخليفة ومن أرباب الدولة وغلق البلد أسبوعا وفيها عاد ترشك إلى بغداد ولم يشعر به أحد إلا وقد ألقى نفسه تحت التاج ومعه سيف وكفن وكان قد عصى على الخليفة والتحق بالعجم فعاد الآن فرضى عنه وأذن له فى دخول دار الخلافة وأعطى مالا . وفيها فى جمادى الأولى أرسل محمد بن أنز صاحب قهستان عسكر إلى بلد الإسماعيلية من الجبال فقتلوا كثيرا من العسكر وأسروا الأمير الذى كان مقدما عليهم اسمه قيبة وهو صهر ابن أنز فبقى عندهم أسيرا عدة شهور حتى زوج ابنته من رئيس الإسماعيلية على بن الحسن وخلص من الأسر . وفيها توفى شرف الدين على بن أبى القاسم منصور بن أبى سعد الساعدى قاضى نيسابور فى شهر رمضان وكان موته بالرى ودفن فى مقبرة محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة رضى الله عنهما وكان القاضى حنفيا أيضا . (١)

---

(١) وفيها توفى أحمد بن معالى بن بركة الحربى ، تفقه بأبى الخطاب الكلوذانى الحنبلى ، وبرع وناظر ودرس وأفتى ، ثم صار بعد ذلك شافعيا ، ثم عاد حنبليا ووعظ ببغداد وتوفى فى هذه السنة ، وذلك أنه دخلت به راحلته فى مكان ضيق فدخل قربوس سرجه فى صدره فمات .

Marfat.com

﴿ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة﴾

﴿ذكر مسير سليمان شاه إلى همذان﴾ فى هذه السنة سار سليمان شاه من الموصل إلى همذان ليتولى السلطنة وقد تقدم سبب قبضه وأخذه إلى الموصل وسبب مسيره إليها أن الملك محمد بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه لما مات أرسل أكابر الأمراء من همذان إلى أتابك قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل يطلبون منه إرسال الملك سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه إليهم ليولوه السلطنة فاستقرت القاعدة بينهم أن يكون سليمان شاه سلطانا وقطب الدين أتابكه وجمال الدين وزير قطب الدين وزيرا لسليمان شاه وتحالفوا على هذا وجهز سليمان شاه بالأموال الكثيرة والبرك والدواب والآلات وغير ذلك مما يصلح للسلاطين وسار ومعه زين الدين على وعسكر الموصل إلى همذان فلما قاربوا بلاد الجبل أقبلت العساكر إليهم أرسالا كل يوم يلقاه طائفة وأمير فاجتمع مع سليمان شاه عسكر فخافهم زين الدين على نفسه لأنه رأى من تسلطهم على السلطان واطراحهم للأدب معه ما أوجب الخوف معه فعاد إلى الموصل فحين عاد عنه لم ينتظم أمره ولم يتم له ما أراده وقبض العسكر عليه بباب همذان فى شوال سنة ست وخمسين وخطبوا لأرسلان شاه بن الملك طغرل وهو الذى زوج أيلدكز بأمه وسيذكر مشروحا إن شاء الله تعالى.

﴿ذكر وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين﴾ فى هذه السنة توفى الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن اسماعيل الظافر صاحب مصر وكانت خلافته ست سنين ونحو شهرين وكان له لما ولى خمس سنين كما ذكرناه. ولما مات دخل الصالح بن رزيك القصر واستدعى خادما كبيرا وقال له من ههنا يصلح للخلافة فقال ههنا جماعة وذكر أسماءهم وذكر له منهم إنسانا كبير السن فأمر بإحضاره فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير وترك الكبار واستبد بالأمر فأعاد الضالح الرجل إلى موضعه وأمر حينئذ بإحضار العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ ولم يكن أبوه خليفة وكان العاضد ذلك الوقت مراهقا قارب البلوغ فبايع له بالخلافة وزوجه الصالح ابنته ونقل معها من الجهاز مالا يسمع بمثله وعاشت بعد موت العاضد وخروج الأمر من العلويين إلى الأتراك وتزوجت.

﴿ذكر وفاة الخليفة المقتفى لأمر الله وشىء من سيرته﴾ وفى هذه السنة ثانى ربيع الأول توفى أمير المؤمنين المقتفى لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبى العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله رضى الله عنه بعلة التراقى وكان مولده ثانى عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة وأمه أم ولد تدعى ياعى وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوما ووافق أباه المستظهر بالله فى علة التراقى وماتا جميعا فى ربيع الأول وكان حليما كريما عادلا حسن السيرة من الرجال ذوى الرأى والعقل الكثير وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المستنصر إلى الآن إلا أن يكون المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار فى جميع البلاد حتى كان لا يفوته منها شىء

﴿ذكر خلافة المستنجد بالله﴾ وفى هذه السنة بويع المستنجد بالله أمير المؤمنين واسمه يوسف وأمه أم ولد تدعى طاوس بعد موت والده، وكان للمقتفى حظية وهى أم ولده أبى على فلما اشتد مرض المقتفى وأيست منه

Marfat.com

أرسلت إلى جماعة من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة والأموال الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدها الأمير أبو على خليفة فقالوا كيف الحيلة مع ولى العهد ، فقالت إذا دخل على والده قبضت عليه وكان يدخل إلى أبيه كل يوم فقالوا لابد لنا من أحد من أرباب الدولة فوقع اختيارهم على أبى المعالى ابن الكيا الهراسى فدعوه إلى ذلك فأجابهم على أن يكون وزيرا فبذلوا له ماطلب فلما استقرت القاعدة بينهم وعلمت أم أبى على أحضرت عدة من الجوارى وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولى العهد المستنجد بالله وكان له خصى صغير يرسله كل وقت يتعرف أخبار والده فرأى الجوارى بأيديهن السكاكين ورأى بيد أبى على وأمه سيفين فعاد إلى المستنجد وأخبره وأرسلته هى إلى المستنجد تقول له إن والده قد حضره الموت ليحضر ويشاهده فاستدعى أستاذدار عضد الدولة وأخذه معه وجماعة من الفراشين ودخل الدار وقد لبس الدرع وأخذ بيده السيف فلما دخل ثار به الجوارى فضرب واحدة منهن فجرحها وكذلك أخرى وصاح ودخل أستاذ الدار ومعه الفراشون فهرب الجوارى وأخذ أخاه أبا على وأمه فسجنهما وأخذ الجوارى فقتل منهن وغرق منهن ودفع الله عنه فلما توفى المقتفى لأمر الله جلس للبيعة فبايعه أهله وأقاربه وأولهم عمه أبو طالب ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفى وكان أكبر من المستنجد ثم بايعه الوزير بن هبيرة وقاضى القضاة وأرباب الدولة والعلماء وخطب له يوم الجمعة ونثرت الدنانير والدراهم ﴿حكى عنه﴾ الوزير عون الدين بن هبيرة أنه قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام منذ خمس عشرة سنة وقال لى يبقى أبوك فى الخلافة خمس عشرة سنة فكان كما قال صلى الله عليه وسلم قال ثم رأيته قبل موت أبى المقتفى بأربعة أشهر فدخل بى فى باب كبير ثم ارتقى إلى رأس جبل وصلى بى ركعتين ثم ألبسنى قميصا ثم قال لى قل (اللهم اهدنى فيمن هديت) وذكر دعاء القنوت ولما ولى الخلافة أقر ابن هبيرة على وزارته وأصحاب الولايات على ولاياتهم وأزال المكوس والضرائب وقبض على القاضى ابن المرخم وكان بئس الحاكم وأخذ منه مالا كثيرا وأخذت كتبه فأحرق منها فى الرحبة ما كان من علوم الفلاسفة فكان منها كتاب الشفاء لابن سينا وكتاب إخوان الصفا وما يشاكلهما وقدم عضد الدين بن رئيس الرؤساء وكان أستاذ الدار ومكنه وتقدم إلى الوزير أن يقوم له وعزل قاضى القضاة أبا الحسن على بن أحمد الدامغانى ورتب مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفى وخلع عليه .

﴿ ذكر الحرب بين عسكر خوارزمشاه والأتراك البرزية ﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول سار طائفة من عسكر خوارزمشاه إلى أجنه وهجموا على يغمرخان بن أودك ومن معه من الأتراك البرزية فأوقعوا بهم وأكثروا القتل فانهزم يغمرخان وقصد السلطان محمود بن محمد الخان والأتراك الغزية الذين معه وتوسل إليهم بالقرابة وظن يغمرخان أن اختيار الدين إيناق هو الذى هيج الخوارزمية عليه فطلب من الغز إنجاده .

﴿ ذكر أحوال المؤيد بخراسان هذه السنة ﴾ قد ذكرنا سنة ثلاث وخمسين عود المؤيد أى أبه إلى نيسابور وتمكنه منها وأن ذلك كان سنة أربع وخمسين وخمسمائة ورأى المؤيد تحكمه فى نيسابور وتمكنه فى دولته وكثرة جنده وعسكره أحسن السيرة فى الرعية لاسيما أهل نيسابور فإنه جبرهم وبالغ فى الإحسان إليهم وشرع فى إصلاح أعمالها وإصلاح ولاياتها فسير طائفة من عسكره إلى ناحية اسقيل وكان بها جمع قد تمردوا وأكثروا العيث والفساد فى البلاد وطال تماديهم فى طغيانهم فأرسل إليهم المؤيد يدعوهم إلى ترك الشر والفساد ومعاودة الطاعة والصلاح فلم يقبلوا ولم يرجعوا عما هم عليه فسير إليهم سرية كثيرة فقاتلوهم وأذاقوهم عاقبة ماصنعوا فأكثروا القتل فيهم وخربوا حصنهم وسار المؤيد من نيسابور إلى بيهق فوصلها رابع عشر ربيع الآخر من السنة وقصد

Marfat.com

منها حصن خسروجرد وهو حصن منيع بناه كيخسرو الملك قبل فراغه من قتل أفراسياب وفيه رجال شجعان فامتنعوا على المؤيد فحصرهم ونصب عليهم المجانيق وجدّ فى القتال فصبر أهل الحصن حتى نفد صبرهم ثم ملك المؤيد القلعة وأخرج كل من فيها ورتب فيها من يحفظها وعاد منها إلى نيسابور فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى من السنة ثم سار إلى هراة فلم يبلغ منها غرضا فعاد إلى نيسابور وقصد مدينة كندر وهى من أعمال طربثيث وقد تغلب عليها رجل اسمه أحمد كان خربنده واجتمع معه جماعة من الزنود وقطاع الطريق والمفسدين فخربوا كثيرا من البلاد وقتلوا كثيرا من الخلق وغنموا من الأموال مالا يحصى وعظمت المصيبة بهم على خراسان وزاد البلاد فقصدهم المؤيد فتحصنوا بالحصن الذى لهم فقوتلوا أشد قتال ونصب عليهم العرادات والمنجنيقات فأذعن هذا الخربنده أحمد إلى طاعة المؤيد والانخراط فى سلك أصحابه وأشياعه فقبله أحسن قبول وأحسن اليه وأنعم عليه ثم إنه عصى على المؤيد وتحصن بحصنه فأخذه المؤيد منه قهرا وعنوة وقيده واحتاط عليه ثم قتله وأراح المسلمين منه ومن شره وفساده وقصد المؤيد فى شهر رمضان ناحية بيهق عازما على قتالهم لخروجهم عن طاعته فلما قاربها أتاه زاهد من أهلها ودعاه إلى العفو عنهم والحلم عن ذنوبهم ووعظه وذكره فأجاب إلى ذلك ورحل عنهم فأرسل السلطان محمود بن محمد الخان وهو مع الغزالى المؤيد بتقرير نيسابور وطوس وأعمالها عليه ورد الحكم فيها اليه فعاد إلى نيسابور رابع ذى القعدة من السنة ففرح الناس بما تقرر بينه وبين الملك محمود وبين الغز من إبقاء نيسابور عليه ليزول الخلف والفتن عن الناس .

﴿ذكر الحرب بين شاه مازندران ويغمر خان﴾ لما قصد يغمرخان الغز وتوسل اليهم لينصروه على إيثاق لظنه أنه هو الذى حسن للخوارزمية قصده فأجابوه إلى ذلك وساروا معه على طريق نسا وأبيوردو وصلوا إلى الأمير إيثاق فلم يجد لنفسه بهم قوّة فاستنجد شاه مازندران فجاءه ومعه من الأكراد والديلم والأتراك والتركمان الذين يسكنون نواحى أيسكون جمع كثير فاقتتلوا ودامت الحرب بينهم وانهزم الأتراك الغزية والبرزية من شاه مازندران خمس مرات ويعودون وكان على ميمنة شاه مازندران الأمير إيثاق فحملت الأتراك الغزية عليه لما أيسوا من الظفر بقلب شاه مازندران فانهزم إيثاق وتبعه باقى العسكر ووصل شاه مازندران إلى سارية وقتل من عسكره أكثرهم . وحكى أن بعض التجار كفن ودفن من هؤلاء القتلى سبعة آلاف رجل وأما إيثاق فإنه قصد فى هربه خوارزم وأقام بها وسار الغز من المعركة إلى دهستان وكان الحرب قريبا منها فنقبوا سورها وأوقعوا بأهلها ونهبوهم أوائل سنة ست وخمسين وخمسمائة بعد أن خربوا جرجان وفرقوا أهلها فى البلاد وعادوا إلى خراسان .

﴿ذكر وفاة خسروشاه صاحب غزنة وملك ابنه بعده﴾ فى هذه السنة فى رجب توفى السلطان خسروشاه ابن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة وكان عادلا حسن السيرة فى رعيته محبا للخير وأهله مقربا للعلماء محسنا اليهم راجعا إلى قولهم وكان ملكه تسع سنين وملك بعده ابنه ملك شاه فلما ملك نزل علاء الدين الحسين ملك الغور إلى غزنة فحصرها وكان الشتاء شديدا والثلج كثيرا فلم يمكنه المقام عليها فعاد إلى بلاده فى صفر سنة ست وخمسين .

﴿ذكر الحرب بين إيثاق وبغراتكين﴾ فى هذه السنة منتصف شعبان كان بين الأمير إيثاق والأمير بغراتكين برغش الجركانى حرب وكان إيثاق قد سار إلى بغراتكين فى آخر أعمال جوين فنهب وأخذ أمواله وكل ماله

Marfat.com

وكان ذا نعمة عظيمة وأموال جسيمة فانهزم بغراتكين عنها وخلاها فافتتحها إيناق واستغنى بها وقويت نفسه بسببها وكثرت جموعه وقصده الناس وأما بغراتكين فإنه أرسل إلى المؤيد صاحب نيسابور وسار فى جملته ومعدودا من أصحابه فتلقاه المؤيد بالقبول .

﴿ذكر وفاة ملكشاه بن محمود﴾ فى هذه السنة توفى ملكشاه ابن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بأصفهان مسموما وكان سبب ذلك أنه لما كثر جمعه بأصفهان أرسل إلى بغداد وطلب أن يقطعوا خطبة عمه سليمان شاه ويخطبوا له ويعيدوا القواعد بالعراق إلى ما كانت أولا وإلاقصدهم فوضع الوزير عون الدين بن هبيرة خصيا كان خصيصا به يقال له أغلبك الكوهرايينى فمضى إلى بلاد العجم واشترى جارية من قاضى همذان بألف دينار وباعها من ملكشاه ، وكان قد وضعها على سمه ووعدها أمورا عظيمة على ذلك وسمته فى لحم مشوى فأصبح ميتا ، وجاء الطبيب إلى دكلا وشملة فعرفهما أنه مسموم فعرفوا أن ذلك من فعل الجارية فأخذت وضربت وأقرت وهرب أغلبك ووصل إلى بغداد ، ووفى له الوزير بجميع ما استقر الحال عليه ، ولما مات أخرج أهل أصفهان أصحابه من عندهم وخطبوا لسليمان شاه واستقر ملكه بتلك البلاد وعاد شملة إلى خوزستان فأخذ ما كان ملكشاه تغلب عليه منها .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة حج أسد الدين شيركوه بن شاذى مقدم جيوش نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام وشيركوه هذا هو الذى ملك الديار المصرية وسيرد ذكره إن شاء الله تعالى . وفيها أرسل زين الدين على نائب قطب الدين صاحب الموصل رسولا إلى المستنجد يعتذر مما جناه من مساعدة محمد شاه فى حصار بغداد ويطلب أن يؤذن له فى الحج فأرسل إليه يوسف الدمشقى مدرس النظامية وسليمان بن قتلمش يطيبان قلبه عن الخليفة ويعرفانه الإذن فى الحج ، فحج ودخل إلى الخليفة فأكرمه وخلع عليه . وفيها توفى قايماز الأرجوانى أمير الحاج سقط عن الفرس وهو يلعب بالأكرة فسال مخه من مناخيره وأذنيه فمات . وفيها فى ربيع الآخر توفى محمد بن يحيى بن على بن مسلم أبو عبدالله الزبيدى من أهل زبيد مدينة باليمن مشهورة وقدم بغداد سنة تسع وأربعين وخمسمائة وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وكان نحويا واعظا وصحبه الوزير بن هبيرة مرة وكان موته ببغداد[1]

---

(١) وفيها توفى الأمير بهاءالدين نزار بن مامين الكردى ، أحد مقدمى جيش الشام ، قبل نور الدين وبعده ، وقد ناب فى مدينة صرخد ، وكان شهما شجاعا كثير البر والصدقات ، وهو واقف المدرسة المجاهدية بالقرب من الغورية جوار الخيميين ، وله أيضا المدرسة المجاهدية داخل باب الفراديس البرانى ، وبها قبره . وله السبع المجاهدى داخل باب الزيادة من الجامع بمقصورة الخضر ، توفى بداره فى صفر منها ، فحمل إلى الجامع وصلى عليه ثم أعيد إلى مدرسته ودفن بها داخل باب الفراديس ، وتأسف الناس عليه . وفيها توفى الشيخ عدى بن مسافر بن إسماعيل ابن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان الهكارى ، شيخ الطائفة العدوية ، أصله من البقاع غربى دمشق ، من قرية بيت نار ، ثم دخل إلى بغداد فاجتمع فيها بالشيخ عبدالقادر والشيخ حماد الدباس ، والشيخ عقيل المنبجى ، وأبى الوفا الحلوانى ، وأبى النجيب السهروردى وغيرهم ، ثم انفرد عن الناس وتخلى بجبل هكار وبنى له هناك زاوية واعتقده أهل تلك الناحية اعتقادا بليغا ، حتى أن منهم من يغلو غلوا كثيرا منكرا ومنهم من يجعله إلها أو شريكا ، وهذا اعتقاد فاحش يؤدى إلى الخروج من الدين جملة . مات فى هذه السنة بزاويته وله سبعون سنة رحمه الله =

Marfat.com

Marfat.com

﴿ ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر الفتنة ببغداد ﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول خرج الوزير بن هبيرة من داره إلى الديوان والغلمان يطرقون له وأرادوا يردون باب المدرسة النكالية بدار الخليفة فمنعهم الفقهاء وضربوهم بالآجر فشهر أصحاب الوزير السيوف وأرادوا ضربهم فمنعهم الوزير ومضى إلى الديوان فكتب الفقهاء مطالعة يشكون أصحاب الوزير فأمر الخليفة بضرب الفقهاء وتأديبهم ونفيهم من الدار فمضى أستاذ الدار وعاقبهم هناك واختفى مدرسهم الشيخ أبو طالب ثم إن الوزير أعطى كل فقير ديناراً واستحل منهم وأعادهم إلى المدينة وظهر مدرسهم .

﴿ ذكر قتل ترشك ﴾ فى هذه الأيام قصد جمع من التركمان إلى البندنيجين فأمر الخليفة بتجهيز عسكر إليهم وأن يكون مقدمهم ترشك وكان فى أقطاعه بلد اللحف فأرسل إليه الخليفة يستدعيه فامتنع من المجىء إلى بغداد وقال يحضر العسكر فأنا أقاتل بهم وكان عازما على الغدر فجهز العسكر وساروا إليه وفيهم جماعة من الأمراء فلما اجتمعوا بترشك قتلوه وأرسلوا رأسه إلى بغداد وكان قتل مملوكا للخليفة فدعا أولياء المقتول وقيل لهم إن أمير المؤمنين قد اقتص لأبيكم ممن قتله .

﴿ ذكر قتل سليمان شاه والخطبة لأرسلان ﴾ فى هذه السنة فى ربيع الآخر قتل السلطان سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه وسبب ذلك أنه كان فيه تهور وخرق وبلغ به شرب الخمر حتى أنه شربها فى رمضان نهارا وكان يجمع المساخر ولا يلتفت إلى الأمراء فأهمل العسكر أمره وصاروا لا يحضرون بابه وكان قد ردّ جميع الأمور إلى شرف الدين كردباز والخادم وهو من مشايخ الخدم السلجوقية يرجع إلى دين وعقل وحسن تدبير فكان الأمراء يشكون إليه وهو يسكنهم فاتفق أنه شرب يوما بظاهر همذان فى الكشك فحضر عنده كردبازو فلامه على فعله فأمر سليمان شاه من عنده من المساخرة فعبثوا بكردبازو حتى أن بعضهم كشف له سوأته فخرج مغضبا فلما صحا سليمان أرسل إليه يعتذر فقبل عذره إلا أنه تجنب الحضور عنده فكتب سليمان إلى إينانج صاحب الرى يطلب منه أن ينجده على كردبازو فوصل الرسول وإينانج مريض فأعاد الجواب يقول إذا أفقت من مرضى حضرت إليك بعسكرى فبلغ الخبر كردبازو فازداد استيحاشا فأرسل إليه سليمان يوما يطلبه فقال إذا جاء إينانج حضرت وأحضر الأمراء واستحلفهم على طاعته وكانوا كارهين لسليمان فحلفوا له فأول ما عمل أن قتل المساخرة الذين لسليمان وقال إنما أفعل ذلك للملك ثم اصطلحا . وعمل كردبازو دعوة عظيمة حضرها السلطان والأمراء فلما صار السلطان سليمان شاه فى داره قبض عليه كردبازو وعلى وزيره ابن القاسم محمود بن عبد العزيز الحامدى وعلى أصحابه فى شوال سنة خمس وخمسين وخمسمائة فقتل وزيره وخواصه وحبس سليمان شاه فى قلعة ثم أرسل إليه من خنقه وقيل بل حبسه فى دار مجد الدين العلوى رئيس همذان . وفيها قتل وقيل بل سقى سما فمات والله أعلم . وأرسل إلى ايلدكز صاحب أرانية وأكثر بلاد أذربيجان يستدعيه إليه ليخطب للملك أرسلان شاه الذى معه وبلغ الخبر إلى إينانج صاحب الرى فسار ينهب البلاد إلى أن وصل إلى همذان فتحصن كردبازو فطلب منه إينانج أن يعطيه مصافا فقال أنا لا أحاربك حتى يصل الأتابك الأعظم إيلدكز وسار ايلدكز

= وفيها توفى عبد الواحد بن أحمد بن محمد بن حمزة ، أبو جعفر الثقفى ، قاضى قضاة بغداد ، وليها بعد أبى الحسن الدامغانى فى أول هذه السنة ، وكان قاضيا بالكوفة قبل ذلك ، توفى فى ذى الحجة منها وقد ناهز الثمانين ، وولى بعده ابنه نصر . والفائز صاحب مصر ، وقيماز .

فى عساكره جميعها يزيد على عشرين ألف فارس ومعه أرسلان شاه بن طغرل ابن محمد بن ملكشاه فوصل إلى همذان فلقيهم كردبازو وأنزله دار المملكة وخطب لأرسلانشاه بالسلطنة بتلك البلاد وكان أيلدكز أتابكه والبهلوان حاجبه وهو أخوه لأمه وكان أيلدكز هذا أحد مماليك السلطان مسعود وأمراته فى أول أمره فلما ملك أقطعه أران وبعض أذربيجان واتفق الحروب والاختلاف فلم يحضر عند أحد من السلاطين السلجوقية وعظم شأنه وقوى أمره وتزوج بأم الملك أرسلانشاه فولدت له أولادا منهم البهلوان محمد وقزل أرسلان عثمان وقد ذكرنا سبب انتقال أرسلان شاه إليه وبقى عنده إلى الآن فلما خطب له بهمذان أرسل ايلدكز إلى بغداد يطلب الخطبة لأرسلان شاه أيضا وأن تعاد القواعد إلى ما كانت عليه أيام السلطان مسعود فأهين رسوله وأعيد اليه على أقبح حالة وأما اينانج صاحب الرى فإن ايلدكز راسله ولاطفه فاصطلحا وتحالفا على الاتفاق وتزوج البهلوان بن ايلدكز بابنة إينانج ونقلت اليه بهمذان .

﴿ذكر الحرب بين بن آقسنقر وعسكر ايلدكز﴾ لما استقر الصلح بين ايلدكز واينانج أرسل إلى ابن آقسنقر الأحمدلى صاحب مراغة يدعوه إلى الحضور فى خدمة السلطان أرسلان شاه فامتنع من ذلك وقال إن كففتم عنى وإلا فعندى سلطان وكان عنده ولد محمد شاه بن محمود كما ذكرناه وكان الوزير ابن هبيرة قد كاتبه يطمعه فى الخطبة لولد محمود شاه فجهز ايلدكز عسكرا مع ولده البهلوان فبلغ الخبر إلى ابن آقسنقر فأرسل إلى شاه أرمن صاحب خلاط وحالفه وصارا يدا واحدة فسير اليه أرمن عسكرا كثيرا واعتذر عن تأخره بنفسه لأنه فى ثغر لا يمكنه مفارقته فقوى بهم ابن آقسنقر وكثر جمعه وسار نحو البهلوان فالتقيا على نهر اسبيرود فاشتد القتال بينهم فانهزم البهلوان أقبح هزيمة ووصل هو وعسكره إلى همذان على أقبح صورة واستأمن أكثر أصحابه إلى ابن آقسنقر وعاد إلى بلده منصورا .

﴿ذكر الحرب بين أيلدكز وإينانج﴾ لما مات ملكشاه بن السلطان محمود كما ذكرناه أخذ طائفة من أصحابه ابنه محمودا وانصرفوا به نحو بلاد فارس فخرج عليهم صاحبها زنكى بن دكلا السلغرى فأخذه منهم وتركه فى قلعة اصطخر فلما ملك ايلدكز والسلطان أرسلان شاه الذى معه البلاد وأرسل ايلدكز إلى بغداد يطلب الخطبة للسلطان كما ذكرناه شرع الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة وزير الخليفة فى إثاره أصحاب الأطراف عليه وراسل الأحمدلى وكان ماذكرناه وكاتب زنكى بن دكلا صاحب بلاد فارس يبذل له أن يخطب للملك الذى عنده وهو ابن ملكشاه وعلق الخطبة له بظفره بايلدكز فخطب ابن دكلا للملك الذى عنده وأنزله من القلعة وضرب الطبل على بابه خمس نوب وجمع عساكره وكاتب اينانج صاحب الرى يطلب منه الموافقة وسمع ايلدكز الخبر فحشد وجمع وكثر عسكره وجموعه فكانت أربعين ألفا وسار إلى أصفهان يريد بلاد فارس وأرسل إلى زنكى ابن دكلا يطلب منه الموافقة وان يعود يخطب لأرسلان شاه فلم يفعل وقال ان الخليفة قد أقطعنى بلاده وأنا سائر اليه فرحل ايلدكز وبلغه أن جشيرا لأرسلان بوقا وهو أمير من أمراء زنكى وفى إقطاعه أرجان بالقرب منه فأنفذ سرية للغارة عليه فاتفق أن أرسلان بوقا عزم على تغيير الخيل التى معه فأضعفها وأخذ عوضها من ذلك الجشير فسار فى عسكره إلى الجشير فصادف العسكر الذى سيره أيلدكز لأخذ دوابه فقاتلهم وأخذهم وقتلهم وأرسل الرؤس إلى صاحبه فكتب بذلك إلى بغداد وطلب المدد فوعد بذلك وكان الوزير عون الدين بن هبيرة أيضا قد كاتب الأمراء الذين مع ايلدكز يوبخهم على

Marfat.com

Marfat.com

طاعته ويضعف رأيهم ويحرضهم على مساعدة زنكى بن دكلا واينانج . وكان اينانج قدبرز زمن الرى فى عشرة آلاف فارس فأرسل إليه ابن آقسنقر الأحمديلى خمسة آلاف فارس وهرب ابن البازدار صاحب قزوين وابن طغيرك وغيرهما فلحقوا باينانج وهو فى صحراء ساوة وأما ايلدكز فإنه استشار نصحاءه فأشاروا بقصد اينانج لأنه أهم فرحل إليه ونهب زنكى سهيرم وغيرها فردّ ايلدكز إليه أميرا فى عشرة آلاف فارس لحفظ البلادفسار زنكى إليهم فلقيهم وقاتلهم فانهزم عسكر ايلدكز إليه فتجلد ايلدكز وأرسل يطلب عساكر أذربيجان فجاءته مع ولده قزل أرسلان وسير زنكى بن دكلا عسكرا كثيرا إلى إينانج واعتذر عن الحضور بنفسه عنده لخوفه على بلاده من شملة صاحب خوزستان فسار ايلدكز إلى اينانج وتدانى العسكران فالتقوا تاسع شعبان وجرى بينهم حرب عظيمة أجلت عن هزيمة اينانج فانهزم أقبح هزيمة وقتلت رجاله ونهبت أمواله ودخل الرى وتحصن فى قلعة طبرك وحصر ايلدكز الرى ، ثم الصلح واقترح اينانج اقتراحات فأجابه ايلدكز إليها وأعطاه جرماذقان وغيرها وعاد ايلدكز إلى همذان وكان ينبغى أن تتأخر هذه الحادثة والتى قبلها وإنما قدمت لتتبع أخواتها .

﴿ ذكر وفاة ملك الغور وملك ابنه محمد ﴾ فى هذه السنة فى ربيع الآخر توفى الملك علاء الدين الحسين بن الحسين الغورى ملك الغور بعد انصرافه عن غزنة وكان عادلا من أحسن الملوك سيرة فى رعيته ولما مات ملك بعده ابنه سيف الدين محمد وأطاعه الناس وأحبوه وكان قد صار فى بلادهم جماعة من دعاة الإسماعيلية وكثر أتباعهم فأخرجهم من تلك الديار جميعها ولم يبق فيها منهم أحد وراسل الملوك وهاداهم واستمال المؤيد أى أبه صاحب نيسابور وطلب موافقته .

﴿ ذكر الفتنة بنيسابور وتخريبها ﴾ كان أهل العيث والفساد بنيسابور قدطمعوا فى نهب الأموال وتخريب البيوت وفعل ماأرادوا فإذا نهبوا لم ينتهوا فلما كان الآن تقدم المؤيد أى أبه بقبض أعيان نيسابوزمنهم نقيب العلويين أبوالقاسم زيد بن الحسن الحسينى وغيره وحبسهم فى ربيع الآخر سنة ست وخمسين وقال أنتم الذين أطمعتم الزنود والمفسدين حتى فعلوا هذه الفعال ولو أردتم منعهم لامتنعوا وقتل من أهل الفساد جماعة فخربت نيسابور بالكلية ومن جملة ماخرب مسجد عقيل وكان مجمعا لأهل العلم وفيه خزائن الكتب الموقوفة وكان من أعظم منافع نيسابور وخرب أيضا من مدارس الحنفية ثمان مدارس ومن مدارس الشافعية سبع عشرة مدرسة وأحرق خمس خزائن للكتب ونهب سبع خزائن كتب وبيعت بأبخس الأثمان هذاما أمكن إحصاؤه سوى مالم يذكر .

﴿ ذكر خلع السلطان محمود ونهب طوس وغيرها من خراسان ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الآخرة قصد السلطان محمود بن محمد الخان وهو ابن أخت السلطان سنجر وقد ذكرنا أنه ملك خراسان بعده ففى هذه السنة حصر المؤيد صاحب نيسابور بشاذياخ وكان الغز مع السلطان محمود فدامت الحرب إلى آخر شعبان سنة ست وخمسين وخمسمائة ثم إن محمودا أظهر أنه يريد دخول الحمام فدخل إلى شهرستان آخر شعبان كالهارب من الغز وأقاموا على نيسابور إلى آخر شوال ثم عادوا راجعين فعاثوا فى القرى ونهبوها ونهبوا طوس نهبا فاحشا وأحضروا المشهد الذى لعلى بن موسى وقتلوا كثيراً ممن فيه ونهبوهم ولم يعرضوا للقبة التى فيها القبر . فلما دخل السلطان محمود إلى نيسابور أمهله المؤيد إلى أن دخل رمضان من سنة سبع وخمسين وخمسمائة وأخذه وكحله

Marfat.com

وأعماه وأخذ ماكان معه من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة وكان يخفيها خوفا عليها من الغز لما كان معهم وقطع المؤيد خطبته من نيسابور وغيرها مما هوفى تصرفه وخطب لنفسه بعد الخليفة المستنجد بالله وأخذ ابنه جلال الدين محمدا الذى كان قد ملكه الغز أمرهم قبل أبيه وقد ذكرنا ذلك وسمله أيضا وسجنهما ومعهما جواريهما وحشمهما وبقيا فيها فلم تطل أيامهما ومات السلطان محمود ثم مات ابنه بعده من شدة وجده لموت أبيه والله أعلم.

﴿ذكر عمارة شاذياخ نيسابور﴾ كانت شاذياخ قد بناها عبد الله بن طاهر بن الحسين لما كان أميرا على خراسان للمأمون وسبب عمارتها أنه رأى امرأة جميلة تقود فرسا تريد سقيه فسألها عن زوجها فأخبرته به فأحضره وقال له خدمة الخيل بالرجال أشبه. فلم تقعد أنت فى دارك وترسل امرأتك مع فرسك. فبكى الرجل. وقال: له ظلمك يحملنا على ذلك؛ فقال وكيف. قال: لأنك تنزل الجند معنا فى دورنا؛ فإن خرجت أنا وزوجتى بقى البيت فارغا فيأخذ الجندى مالنا فيه. وإن سقيت أنا الفرس فلا آمن على زوجتى من الجندى فرأيت أن أقيم فى البيت وتخدم زوجتى الفرس. فعظم الأمر عليه وخرج من البلد لوقته. ونزل فى الخيام. وأمر الجند فخرجوا من دور الناس وبنى شاذياخ دارا له ولجنده وسكنها وهم معه. ثم إنها دثرت بعد ذلك فلما كان أيام السلطان ألب أرسلان ذكرت له هذه القصة فأمر بتجديدها ثم إنها تشعثت بعد ذلك فلما كان الآن وخربت نيسابور ولم يمكن حفظها والغز تطرق البلاد وتنهبها أمر المؤيد حينئذ بعمل سورها وسد ثلمه وسكناه ففعل ذلك وسكنها هو والناس معه وخربت حينئذ نيسابور كل خراب ولم يبق فيها اثنان.

﴿ذكر قتل الصالح بن رزيك ووزارة ابنه رزيك﴾ فى هذه السنة فى شهر رمضان قتل الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمنى وزير العاضد العلوى صاحب مصر وكان سبب قتله أنه تحكم فى الدولة التحكم العظيم واستبد بالأمر والنهى وجباية الأموال إليه لصغر العاضد ولأنه هو الذى ولاه ووتر الناس فإنه أخرج كثيرا من أيمانهم وفرقهم فى البلاد ليأمن وثوبهم عليه ثم إنه زوج ابنته من العاضد فعاداه أيضا الحرم من القصر فأرسلت عمة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين ودعتهم إلى قتله وكان أشدهم عليه فى ذلك إنسان يقال له ابن الداعى فوقفوا له فى دهليز القصر فلما دخل ضربوه بالسكاكين على دهش فجرحوه جراحات مهلكة إلا أنه حمل إلى داره وفيه حياة فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرضا بقتله مع أثره فى خلافته فأقسم العاضد أنه لايعلم بذلك ولم يرض به فقال إن كنت بريئا فسلم عمتك إلى حتى انتقم منها فأمر بأخذها فأرسل إليها فأخذها قهرا وأحضرت عنده فقتلها ووصى بالوزارة لابنه رزيك ولقب العادل فانتقل الأمر إليه بعد وفاة أبيه وللصالح أشعار حسنة بليغة تدل على فضل غزير فمنها فى الافتخار:

أبى الله إلا أن يدوم لنا الدهر * ويخدمنا فى ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفنى ألوفه * ويبقى لنامن بعده الأجر والذكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا * سحاب لديه البرق والرعد والقطر
قرانا إذا رحنا إلى الحرب مرة * قرانا ومن أضيافنا الذئب والنسر
كما أننا فى السلم نبذل جودنا * ويرتع فى أنعامنا العبد والحر

وكان الصالح كريما فيه أدب له شعر جيد وكان لأهل العلم عنده انفاق ويرسل إليهم العطاء الكثير بلغه أن الشيخ أبا محمد بن الذهان النحوى البغدادى المقيم بالموصل قد شرح بيتا من شعره وهو هذا :

تجنب سمعى مايقول العواذل * وأصبح لى شغل من الغزو شاغل

فجهز إليه هدية سنية ليرسلها إليه فقتل قبل إرسالها و بلغه أيضا أن إنسانا من أعيان الموصل قد أثنى عليه بمكة فأرسل إليه كتابا يشكره ومعه هدية وكان الصالح إماميا لم يكن على مذهب العلويين المصريين ولما ولى العاضد الخلافة وركب سمع الصالح ضجة عظيمة فقال ما الخبر فقيل إنهم يفرحون بالخليفة فقال كأنى بهؤلاء الجهلة وهم يقولون ما مات الأول حتى استخلف هذا وما علموا أننى كنت من ساعة استعرضهم استعراض الغنم قال عمارة دخلت إلى الصالح قبل قتله بثلاثة أيام فناولنى قرطاسا فيه بيتان من شعره وهما :

نحن فى غفلة ونوم وللمو * ت عيون يقظانة لاتنام
قد رحلنا إلى الحمـــام سنينا * ليت شعرى متى يكون الحمام

فكان آخر عهدى به وقال عمارة أيضا ومن عجيب الاتفاق أننى أنشدت ابنه قصيدة أقول فيها :

أبوك الذى تسطو الليالى بحده * وأنت يمين إن سطا وشمال
لرتبته العظمى وإن طال عمره * إليك مصير واجب ومنال
تخالصك اللحظ المصون ودونها * حجاب شريف لا انقضا وحجال

فانتقل الأمر إليه بعد ثلاثة أيام .

﴿ ذكر الحرب بين العرب وعسكر بغداد ﴾ فى هذه السنة فى شهر رمضان اجتمعت خفاجة إلى الحلة والكوفة وطالبوا برسومهم من الطعام والتمر وغير ذلك فمنعهم أمير الحاج أرغش وهو مقطع الكوفة ووافقه على منعه الأمير قيصر شحنة الحلة وهما من مماليك الخليفة فأفسدت خفاجة ونهبوا سواد الكوفة والحلة فأسرى إليهم الأمير قيصر شحنة الحلة فى مائتين وخمسين فارسا وخرج إليه أرغش فى عسكر وسلاح فانتزحت خفاجة من بين أيديهم وتبعهم العسكر إلى رحبة الشام فأرسل خفاجة يعتذرون ويقولون قد قنعنا بلبن الإبل وخبز الشعير وأنتم تمنعونا رسومنا وطلبوا الصلح فلم يجبهم أرغش وقيصر وكان قد اجتمع مع خفاجة كثير من العرب فتصافوا واقتتلوا وأرسلت العرب طائفة إلى خيام العسكر ورحالهم فحالوا بينهم وبينها وحمل العرب حملة منكرة فانهزم العسكر وقتل كثير منهم وقتل الأمير قيصر وأسرت جماعة أخرى وجرح أمير الحاج جراحة شديدة ودخل الرحبة فحماه شحنتها وأخذ له الأمان وسيره إلى بغداد ومن نجا مات عطشا فى البرية وكان إماء العرب يخرجن بالماء يسقين الجرحى فإذا طلبه منهن أحد من العسكر أجهزن عليه وكثر النوح والبكاء ببغداد على القتلى وتجهز الوزير عون الدين بن هبيرة والعساكر معه فخرج فى طلب خفاجة فدخلوا البرية وخرجوا إلى البصرة ولما دخلوا البر عاد الوزير إلى بغداد وأرسل بنو خفاجة يعتذرون ويقولون بغى علينا وفارقنا البلاد فتبعونا واضطررنا إلى القتال وسألوا العفو عنهم فأجيبوا إلى ذلك .

﴿ ذكر حصر المؤيد شارستان ﴾ فى هذه السنة حصر المؤيد أى أبه مدينة شارستان قريب نيسابور وقاتله أهلها ونصب المجانيق والعرادات فصبر أهلها خوفا على أنفسهم من المؤيد وكان مع المؤيد جلال الدين الموفق الفقيه الشافعى فبينما هو راكب إذ وصل إليه حجر منجنيق فقتله خامس جمادى الآخرة من السنة وتعدى الحجر

Marfat.com

منه إلى شيخ من شيوخ بيهق فقتله فعظمت المصيبة بقتل جلال الدين على أهل العلم خصوصا أهل السنة والجماعة وكان فى عنفوان شبابه رحمه الله لما قتل ودام الحصار إلى شعبان سنة سبع وخمسين وخمسمائة فنزل خواجكى صاحبها بعدما كثر القتل ودام الحصر وكان لهذه القلعة ثلاثة رؤساء هم أرباب النهى والأمر وهم الذين حفظوها وقاتلوا عنها أحدهم خواجكى هذا والثانى داعى بن محمد بن أخى حرب العلوى والثالث الحسين بن أبى طالب العلوى الفارسى فنزلوا كلهم أيضا إلى المؤيد أى أبه فيمن معهم من أشياعهم وأتباعهم ، فأما خواجكى فإنه أثبت عليه أنه قتل زوجته ظلما وعدوانا وأخذ مالها فقتل بها وملك المؤيد شارستان وصفت له قهها عسكره إلا أنهم لم يقتلوا امرأة ولا سبوها .

﴿ ذكر ملك الكرج مدينة آنى ﴾ فى هذه السنة فى شعبان اجتمعت الكرج مع ملكهم وساروا إلى مدينة آنى من بلاد اران وملكوها وقتلوا فيها خلقا كثيرا فانتدب لهم شاه أرمن بن ابراهيم بن سكمان صاحب خلاط وجمع العساكر واجتمع معه من المتطوعة خلق كثير وسار إليهم فلقوه وقاتلوه فانهزم المسلمون وقتل أكثرهم وأسر كثير منهم وعادشاه أرمن مهزوما ما لم يرجع معه غير أربعمائة فارس من عسكره .

﴿ ذكر ولاية عيسى مكة حرسها الله تعالى ﴾ كان أمير مكة هذه السنة قاسم بن فليتة بن قاسم بن أبى هاشم العلوى الحسينى فلما سمع بقرب الحجاج من مكة صادر المجاورين وأعيان أهل مكة وأخذ كثيرا من أموالهم وهرب من مكة خوفا من أمير الحاج أرغش وكان قد حج هذه السنة زين الدين على بن بكتكين صاحب جيش الموصل ومعه طائفة صالحة من العسكر فلما وصل أمير الحاج إلى مكة رتب مكان قاسم بن فليتة عمه عيسى بن قاسم بن هاشم فبقى كذلك إلى شهر رمضان ثم إن قاسم بن فليتة جمع جمعا كثيرا من العرب أطمعهم فى مال له بمكة فاتبعوه فسار بهم إليها فلما سمع عمه عيسى فارقها ودخلها قاسم فأقام بها أميرا أياما ولم يكن له مال يوصله إلى العرب ثم إنه قتل قائدا كان معه حسن السيرة فتغيرت نيات أصحابه عليه وكاتبوا عمه عيسى فقدم عليهم فهرب وصعد جبل أبى قبيس فسقط عن فرسه فأخذه أصحاب عيسى وقتلوه فعظم عليه قتله فأخذه وغسله ودفنه بالمعلى عند أبيه فليتة واستقر الأمر بعده لعيسى والله أعلم .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة سار عبد المؤمن بن على إلى جبل طارق وهو على ساحل الخليج مما يلى الأندلس فعبر المجاز اليه وبنى عليه مدينة حصينة وأقام بها عليه عدة شهور وعاد إلى مراكش . وفيها فى المحرم ورد نيسابور جمع كثير من تركمان بلاد فارس ومعهم أغنام كثيرة للتجارة فباعوها وأخذوا الثمن ونزلوا على مرحلتين من طابس كنكلى وباتوا هناك فنزل اليهم الإسماعيلية وكبسوهم ليلا ووضعوا السيف فيهم فقتلوا وأكثروا ولم ينج منهم إلا الشريد وغنم الإسماعيلية جميع ما معهم من مال وعروض وعادوا إلى قلاعهم . وفيها كثرت الأمطار فى أكثر البلاد ولا سيما خراسان فإن الأمطار توالت فيها من العشرين من المحرم إلى منتصف صفر لم تنقطع ولا رأى الناس فيها شمسا . وفيها كان بين الكرج وبين الملك صلتق بن على صاحب أرزن الروم قتال وحرب انهزم فيه صلتق وعسكره وأسر هو وكانت أخته شاه بانوار قد تزوجها شاه أرمن بن سكمان بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط فأرسلت إلى ملك الكرج هدية جليلة المقدار وطلبت منه أن يفاديها بأخيها فأطلقه فعاد إلى ملكه . وفيها قصد صاحب صيدا من الفرنج نور الدين محمود صاحب الشام ملتجئا اليه فأمنه وسير معه عسكرا يمنعه من الفرنج أيضا فظفر عليهم فى الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين

Marfat.com

جماعة وانهزم الباقون . وفيها ملك قرا أرسلان صاحب حصن كيفا قلعة شاتان وكانت لطائفة من الأكراد يقال لهم الجونية فلما ملكها خربها وأضاف ولايتها إلى حصن طالب . وفيها توفى الكمال حمزة بن على بن طلحة صاحب المخزن كان جليل القدر أيام المسترشد بالله وولى المقتفى وبنى مدرسة لأصحاب الشافعى بالقرب من داره ثم حج وعاد وقد لبس الفوط وزى الصوفية وترك الأعمال فقال بعض الشعراء فيه :

ياعضد الإسلام يامن سمت * إلى العلا همته الفاخره
كانت لك الدنيا فلم ترضها * ملكا فأخلدت إلى الآخره

وبقى منقطعا فى بيته عشرين سنة ولم يزل محترما يغشاه الناس كافة .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر فتح المؤيد طوس وغيرها ﴾ فى هذه السنة فى السابع والعشرين من صفر نازل المؤيد أى أبه أبا بكر جاندار بقلعة وسكرة خوى من طوس وكان قد تحصن بها وهى حصينة منيعة لاترام فقاتله وأعانه أهل طوس على أبى بكر لسوء سيرته كانت فيهم وظلمه فلما رأى أبو بكر ملازمة المؤيد ومواصلة القتال عليه خضع وذل ونزل من القلعة بالأمان فى العشرين من ربيع الأول من السنة فلما نزل منها حبسه المؤيد وأمر بتقييده ثم سار منها إلى كرستان وصاحبها أبو بكر فاخر فنزل من قلعته وهى من أمنع الحصون على رأس جبل عال وصار فى طاعة المؤيد ودان له ووافقه وسير جيشا فى جمادى الآخرة منها إلى اسفراين فتحصن رئيسها عبد الرحمن بن محمد بن على الحاج بالقلعة وكان أبوه كريم خراسان على الإطلاق ولكن كان عبد الرحمن هذا بئس الخلف فلما تحصن أحاط به العسكر المؤيدى واستنزلوه من الحصن وحملوه مقيدا إلى شاذياخ وحبس بها وقيل فى ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وملك المؤيد أيضا قهندز نيسابور واستدارت مملكة المؤيد حول نيسابور وعادت إلى ما كانت عليه قبل إلا أن أهلها انتقلوا إلى شاذياخ وخربت المدينة العتيقة وسير المؤيد جيشا إلى خواف وبها عسكر مع بعض الأمراء اسمه أرغش فكمن أرغش جمعا فى تلك المضايق والجبال وتقدم إلى عسكر المؤيد فقاتلهم وطلع الكمين فانهزم عسكر المؤيد وقتل منهم جمع وعاد الباقون إلى المؤيد بنيسابور وسير جيشا إلى بوشنج هراة وهى فى طاعة الملك محمد بن الحسين الغورى فحصروها واشتد الحصار عليها وقام القتال والزحف فسير الملك محمد الغورى جيشا اليها ليمنع عنها فلما قاربوا هراة فارقها العسكر الذى يحصرها وعادوا عنها وصفت تلك الولاية للغورية .

﴿ ذكر أخذ ابن مردنيش غرناطة من عبد المؤمن وعودها إليه ﴾ فى هذه السنة أرسل أهل غرناطة من بلاد الأندلس وهى لعبد المؤمن إلى الأمير إبراهيم بن همشك صهر ابن مردنيش فاستدعوه إليهم ليسلموا إليه البلد وكان قد وحد وصار من أصحاب عبد المؤمن وفى طاعته وممن يحرضه على قصد ابن مردنيش فلما وصل إليه رسل أهل غرناطة سار معهم إليها فدخلها وبها جمع من أصحاب عبد المؤمن فامتنعوا بحصنها فبلغ الخبر أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن وهو بمدينة مالقة فجمع الجيش الذى كان عنده وتوجه إلى غرناطة لنصرة من فيها من أصحابهم فعلم بذلك إبراهيم بن همشك فاستنجد ابن مردنيش ملك البلاد بشرق الأندلس فأرسل إليه ألفى فارس من أنجاد أصحابه ومن الفرنج الذين جندهم معه فاجتمعوا بنواحى غرناطة فالتقوا هم ومن بغرناطة من عسكر عبد المؤمن قبل وصول أبى سعيد إليهم فاشتد القتال بينهم فانهزم عسكر عبد المؤمن وقدم أبو سعيد

Marfat.com

واقتتلوا أيضا فانهزم كثير من أصحابه وثبت معه طائفة من الأعيان والفرسان المشهورين والرجالة والاجلاد حتى قتلوا عن آخرهم وانهزم حينئذ أبوسعيد ولحق بمالقة وسمع عبدالمؤمن الخبر وكان قدسار إلى مدينة سلا فسير فى الحال ابنه أبا يعقوب يوسف فى عشرين ألف مقاتل فيهم جماعة من شيوخ الموحدين فجدوا المسير فبلغ ذلك ابن مردنيش فسار بنفسه وجيشه إلى غرناطة ليعين ابن همشك فاجتمع منهم بغرناطة جمع كثير فنزل ابن مردنيش فى الشريعة بظاهرها ونزل العسكر الذى أمر به ابن همشك أولا وهم ألفا فارس بظاهر القلعة الحمراء ونزل ابن همشك بباطن القلعة الحمراء فيمن معه ووصل عسكرعبدالمؤمن إلى جبل قريب من غرناطة فأقاموا فى سفحه أياما ثم سيروا سرية أربعة آلاف فارس فبيتوا العسكر الذى بظاهر القلعة الحمراء وقاتلوهم من جهاتهم فما لحقوا يركبون فقتلوهم عن آخرهم وأقبل عسكر عبدالمؤمن بجملته فنزلوا بضواحى غرناطة فعلم ابن مردنيش وابن همشك أنهم لاطاقة لهم بهم ففروا فى الليلة الثانية ولحقوا ببلادهم واستولى الموحدون على غرناطة فى باقى السنة المذكورة وعاد عبدالمؤمن من مدينة سلا إلى مراكش .

﴿ ذكر حصر نور الدين حارم ﴾ فى هذه السنة جمع نورالدين محمود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الشام العساكر بحلب وسار إلى قلعة حارم وهى للفرنج غربى حلب فحصرها وجد فى قتالها فامتنعت عليه بحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنج ورجالهم وشجعانهم فلما علم الفرنج ذلك جمعوا فارسهم وراجلهم من سائر البلاد وحشدوا واستعدوا وساروا نحوه ليرحلوه عنها فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه إليه وراسلوه وتلطفوا الحال معه فلما رأى أنه لا يمكنه أخذ الحصن ولا يجيبونه إلى المصاف عاد إلى بلاده وممن كان معه فى هذه الغزوة مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ الكنانى وكان من الشجاعة فى الغاية فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شيزر وكان قد دخله فى العام الماضى سائرا إلى الحج فلما دخله الآن كتب على حائطه :

لك الحمد يامولاى كم لك منة * علىّ وفضل لايحيط به شكرى
نزلت بهذا المسجد العام قافلا * من الغزوموفورالنصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس فى عامى الذى * مضى نحوبيت الله والركن والحجر
فأديت مفروضى وأسقطت ثقل ما * تحملت من وزرالشبيبة عن ظهرى

﴿ ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكى ﴾ فى هذه السنة فى رجب ملك الخليفة المستنجد بالله قلعة الماهكى وسبب ذلك أن سنقر الهمذانى صاحبها سلمها إلى أحد مماليكه ومضى إلى همذان فضعف هذا المملوك عن مقاومة ماحولها من التركمان والأكراد فأشير عليه ببيعها من الخليفة فراسل فى ذلك فاستقرت على خمسة عشر ألف دينار وسلاح وغير ذلك من الأمتعة وعدة من القرى فسلمها وتسلم ما استقر له وأقام ببغداد وهذه القلعة لم تزل من أيام المقتدر بالله بأيدى التركمان والأكراد إلى الآن .

﴿ ذكر الحرب بين المسلمين والكرج ﴾ فى هذه السنة فى شعبان اجتمعت الكرج فى خلق كثير يبلغون ثلاثين ألف مقاتل ودخلوا بلاد الإسلام وقصدوا مدينة دوين أذربيجان فملكوها ونهبوها وقتلوا من أهلها وسوادها نحو عشرة آلاف قتيل وأخذوا النساء سبايا وأسروا كثيرا وأعروا النساء وقادوهن حفاة عراة وأحرقوا الجامع والمساجد فلما وصلوا إلى بلادهم أنكر نساء الكرج ما فعلوا بنساء المسلمين وقلن لهم قد

Marfat.com

أحوجتم المسلمين إلى أن يفعلوا بنا مثل مافعلتم بنسائهم وكسونهن ولما بلغ الخبر إلى شمس الدين ايلدكز صاحب أذربيجان والجبل وأصفهان جمع عساكره وحشدها وانضاف إليه شاه أرمن بن سكمان القطبي صاحب خلاط وابن آقسنقر صاحب مراغة وغيرها فاجتمعوا فى عسكر كثير يزيدون على خمسين ألف مقاتل وساروا إلى بلاد الكرج فى صفر سنة ثمان وخمسين ونهبوها وسبوا النساء والصبيان وأسروا الرجال ولقيهم الكرج واقتتلوا أشد قتال صبر فيه الفريقان ودامت الحرب بينهم أكثر من شهر وكان الظفر للمسلمين فانهزم الكرج وقتل منهم كثير وأسر كذلك وكان سبب الهزيمة أن بعض الكرج حضر عند ايلدكز فأسلم على يديه وقال له تعطينى عسكرا حتى أسير بهم فى طريق أعرفها وأجىء إلى الكرج من ورائهم وهم لايشعرون فاستوثق منه وسير معه عسكرا وواعده يوما يصل فيه إلى الكرج فلما كان ذلك اليوم قاتل المسلمون الكرج فبينما هم فى القتال وصل ذلك الكرجى الذى أسلم ومعه العسكر وكبروا وحملوا على الكرج من ورائهم فانهزموا وكثر القتل فيهم والأسر وغنم المسلمون من أموالهم مالايدخل تحت الإحصاء لكثرته فإنهم كانو متيقنين الظفر لكثرتهم فخيب الله ظنهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ثلاثة أيام بلياليها وعاد المسلمون منصورين قاهرين.

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة وصل الحجاج إلى منى ولم يتم الحج لأكثر الناس لصدهم عن دخول مكة والطواف والسعى فمن دخل يوم النحر مكة طاف وسعى وكمل ومن تأخر عن ذلك منع دخول مكة لفتنة جرت بين أمير الحاج وأمير مكة كان سببها أن جماعة من عبيد مكة أفسدوا فى الحاج بمنى فنفر عليهم بعض أصحاب أمير الحاج فقتلوا منهم جماعة ورجع من سلم إلى مكة وجمعوا جمعا وأغاروا على جمال الحاج وأخذوا منها قريبا من الف جمل فنادى أمير الحاج فى جنده فركبوا بسلاحهم ووقع القتال بينهم فقتل جماعة ونهب جماعة من الحاج وأهل مكة فرجع أمير الحاج ولم يدخل مكة ولم يقم بالزاهر غير يوم واحد وعاد كثير من الناس رجالة لقتل الجمال ولقوا شدة ومن حج هذه السنة جدتنا أم أبينا ففاتها الطواف والسعى فاستفتى لها الشيخ الإمام أبو القاسم بن البرزى فقال تدوم على مابقى عليها من إحرامها وإن أحبت تفدى وتحل من إحرامها إلى قابل وتعود إلى مكة فتطوف وتسعى فتكمل الحجة الأولى ثم تحرم إحراما ثانيا وتعود إلى عرفات فتقف وترمى الجمار وتطوف وتسعى فتصير لها حجة ثانية فبقيت على إحرامها إلى قابل وحجت وفعلت كما قال فتم حجها الأول والثانى. وفيها نزل بخراسان برد كثير عظيم المقدار أواخر نيسان وكان أكثره بجوين ونيسابور وما والاهما فأهلك الغلات ثم جاء بعده مطر كثير دام عشرة أيام. وفيها فى جمادى الآخرة وقع الحريق ببغداد احترق سوق الطيوريين والدور التى تليه مقابله إلى سوق الصفرة الجديد والخان الذى فى الرحبة ودكاكين البزوريين وغيرها. وفيها توفى الكيا الصباحى صاحب ألموت مقدم الإسماعيلية وقام ابنه مقامه فأظهر التوبة وأعاد هو ومن معه الصلوات وصيام شهر رمضان وأرسلوا إلى قزوين يطلبون من يصلى بهم ويعلمهم حدود الإسلام فأرسلوا إليهم. وفيها فى رمضان درس شرف الدين يوسف الدمشقى فى المدرسة النظامية ببغداد وكان مدرسا بمدرسة أبى حنيفة وكان موته فى ذى القعدة. وفيها توفى صدقة ابن وزير الواعظ. وفيها فى المحرم توفى الشيخ عدى بن مسافر الزاهد المقيم ببلد الهكارية من أعمال الموصل وهو من الشام من بلد بعلبك فانتقل إلى الموصل وتبعه أهل السواد والجبال بتلك النواحى وأطاعوه

Marfat.com

Marfat.com

وحسنوا الظن فيه وهو مشهور جدا . (١)

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر وزارة شاور للعاضد بمصر ثم وزارة الضرغام بعده﴾ فى هذه السنة فى صفر وزر شاور للعاضد لدين الله العلوى صاحب مصر وكان ابتداء أمره ووزارته أنه كان يخدم الصالح بن رزيك ولزمه فأقبل عليه الصالح وولاه الصعيد وهو أكبر الأعمال بعد الوزارة فلما ولى الصعيد ظهرت منه كفاية عظيمة وتقدم زائد واستمال الرعية والمقدمين من العرب وغيرهم فعسر أمره على الصالح ولم يمكنه عزله فاستدام استعماله لئلا يخرج عن طاعته فلما جرح الصالح كان من جملة وصيته لولده العادل أنه لا يغير على شاور فإننى أنا أقوى منك وقد ندمت على استعماله ولم يمكنى عزله فلا تغيروا ما به فيكون لكم منه ما تكرهون ، فلما توفى الصالح من جراحته وولى ابنه العادل الوزارة حسن له أهله عزل شاور واستعمل بعضهم مكانه وخوفوه منه إن أقره على عمله فأرسل إليه بالعزل فجمع جموعا كثيرة وسار إلى القاهرة بهم فهرب منه العادل بن الصالح بن رزيك فأخذ وقتل فكانت مدة وزارته ووزارة أبيه قبله تسع سنين وشهرا وأياما وصار شاور وزيرا وتلقب بأمير الجيوش وأخذ أموال بنى رزيك وودائعهم وذخائرهم وأخذ منه أيضا طى والكامل ابنا شاور شيئا كثيرا وتفرق كثير منها وجحد وظهرت عليهم عند انتقال الدولة عن شاور والمصريين إلى الأتراك ثم إن الضرغام جمع جموعا كثيرة ونازع شاور فى الوزارة فى شهر رمضان وظهر أمره وانهزم شاور منه إلى الشام على ما نذكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وصار ضرغام وزيرا كان هذه السنة ثلاثة وزراء العادل بن رزيك وشاور وضرغام فلما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الأمراء المصريين لتخلو له البلاد من منازع فضعفت الدولة بهذا السبب حتى خرجت البلاد عن أيديهم .

﴿ذكر وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف﴾ فى هذه السنة فى العشرين من جمادى الآخرة توفى عبد المؤمن ابن على صاحب بلاد المغرب وأفريقية والأندلس وكان قد سار من مراكش إلى سلا فمرض بها ومات ولما حضره الموت جمع شيوخ الموحدين من أصحابه وقال لهم قد جربت ابنى محمدا فلم أره يصلح لهذا الأمر وإنما يصلح له ابنى يوسف وهو أولى بها فقدموه ووصاهم به وبايعوه ودعى بأمير المؤمنين وكتموا موت عبد المؤمن

---

(١) وفيها توفيت زمرد خاتون بنت جاولى أخت الملك دقاق بن تتش لأمه ، وهى بانية الخاتونية ظاهر دمشق عند قرية صنعاء بمكان يقال له تل الثعالب ، غربى دمشق ، على جانب الشرق القبلى بصنعاء الشام ، وهى قرية معروفة قديما ، وأوقفتها على الشيخ برهان الدين على بن محمد البلخى الحنفى ، وكانت زوجة الملك بورى بن طغتكين ، فولدت له ابنيه شمس الملوك إسماعيل المذكور ، وقد ملك بعد أبيه وسار سيرته ، ومالأ الفرنج على المسلمين وهم بتسليم البلد والاموال إليهم فقتلوه ، وتملك أخوه وذلك بعد مراجعتها ومساعدتها ، وقد كانت قرأت القرآن ، وسمعت الحديث ، وكانت حنفية المذهب تحب العلماء والصالحين ، وقد تزوجها الأتابكى زنكى صاحب حلب طمعا فى أن يأخذ بسببها دمشق فلم يظفر بذلك ، بل ذهبت إليه إلى حلب ثم عادت إلى دمشق بعد وفاته ، وقد دخلت بغداد وسارت من هناك إلى الحجاز ، وجاورت بمكة سنة ، ثم جاءت فأقامت بالمدينة النبوية حتى ماتت بها ودفنت بالبقيع فى هذه السنة ، وقد كانت كثيرة البر والصدقات والصلاة والصوم ، قال السبط ولم تمت حتى قل ما بيدها ، وكانت تغربل القمح والشعير وتتقوت بأجرته ، وهذا من تمام الخير والسعادة وحسن الخاتمة رحمها الله تعالى ، والله أعلم .

وحمل من سلافى محفة بصورة مريض إلى أن وصل إلى مراكش وكان ابنه أبوحفص فى تلك المدة حاجبا لأبيه فبقى مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج فيقول للناس أميرالمؤمنين أمر بكذا ويوسف يقعد مقعد أبيه إلى أن كملت المبايعة له فى جميع البلاد واستقرت قواعد الأمور له ثم أظهر موت أبيه عبدالمؤمن فكانت ولايته ثلاثة وثلاثين سنة وشهورا وكان عاقلا حازما سديد الرأى حسن السياسة للأمور كثير البذل للأموال إلا أنه كان كثير السفك لدماء المسلمين على الذنب الصغير وكان يعظم أمرالدين ويقويه ويلزم الناس فى سائر بلاده بالصلاة ومن رآه وقت الصلاة غير مصل قتل . وجمع الناس بالغرب على مذهب مالك فى الفروع وعلى مذهب أبى الحسن الأشعرى فى الأصول ، وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين المرجع إليهم والكلام معهم ولهم

﴿ذكر ملك المؤيد أعمال قومس والخطبة للسلطان أرسلان بخراسان﴾ فى هذه السنة سار المؤيد أى أبه صاحب نيسابور إلى بلاد قومس فملك بسطام ودامغان واستناب بقومس مملوكه تنكز فأقام تنكز بمدينة بسطام فجرى بين تنكز وبين شاه مازندران اختلاف أدى إلى الحرب فجمع كل منهما عسكره والتقوا أوائل ذى الحجة فى هذه السنة واقتتلوا فانهزم عسكر مازندران وأخذت أسلابهم وقتل منهم طائفة كبيرة ولما ملك المؤيد بلاد قومس أرسل اليه السلطان أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه خلعا نفيسة وألوية معقودة وهدية جليلة وأمره أن يهتم بإشعاث بلاد خراسان ويتولى ذلك أجمع وأن يخطب له فلبس المؤيد الخلع فخطب له فى البلاد التى هى بيده وكان السبب فى هذا أتابك شمس الدين أيلدكز فإنه كان هو الذى يحكم فى مملكة أرسلان وليس لأرسلان غير الاسم وكان بين أيلدكز وبين المؤيد مودة ذكرناها عند قتل المؤيد فلما أطاع المؤيد السلطان أرسلان خطب له ببلاده وهى قومس ونيسابور وطوس وأعمال نيسابور جميعها ومن نسا إلى طبس كنكلى وكان يخطب لنفسه بعد أرسلان وكانت الخطبة فى جرجان ودهستان لخوارزمشاه بن أرسلان بن أتسز وبعده للأمير إيناق وكانت الخطبة فى مرو وبلخ وهراة وسرخس وهذه البلاد بيد الغز إلى هراة فإنها الأميرايتكين وهو مسالم للغز فكانوا يخطبون للسلطان سنجر فيقولون اللهم اغفر للسلطان السعيد المبار سنجر وبعده للأمير الذى هو الحاكم فى تلك البلاد .

﴿ذكر قتل الغز ملك الغور﴾ فى هذه السنة فى رجب قتل سيف الدين محمد بن الحسين الغورى ملك الغور قتله الغز وسبب ذلك أنه جمع عساكره وحشد فأكثر وسار من جبال الغور يريد الغز وهم ببلخ واجتمعوا وتقدموا اليه فاتفق أن ملك الغور خرج من معسكره فى جماعة من خاصته جريدة فسمع به أمراء الغز فساروا يطلبونه مجدين قبل أن يعود إلى معسكره فأوقعوا به فقاتلهم أشد قتال رآه الناس فقتل ومعه نفر ممن كان معه وأسر طائفة وهربت طائفة فلحقوا بمعسكرهم وعادوا إلى بلادهم منهزمين لا يقف الأب على أبيه ولا الأخ على أخيه وتركوا كل مامعهم بحاله ونجوا بنفوسهم فكان عمر ملك الغور لما قتل نحو عشرين سنة وكان عادلا حسن السيرة فمن عدله وخوفه عاقبة الظلم أنه حاصر أهل هراة فلما ملكها أراد عسكره أن ينهبوها فنزل على درب المدينة وأحضر الأموال والثياب فأعطى جميع عسكره منها وقال هذا خير من أن تنهبوا أموال المسلمين وتسخطوا الله تعالى فإن الملك يبقى على الكفر ولا يبقى على الظلم ولما قتل عاد الغز إلى بلخ ومرو وقد غنموا شيئا كثيرا من العسكر الغورى لأن أهله تركوه ونجوا .

﴿ذكر انهزام نور الدين محمود من الفرنج﴾ فى هذه السنة انهزم نور الدين محمود بن زنكى من الفرنج

Marfat.com

تحت حصن الأكراد وهى الوقعة المعروفة بالبقيعة تحت حصن الأكراد محاصرا له وعازما على قصد طرابلس ومحاصرتها فبينما الناس يوما فى خيامهم وسط النهار لم يرعهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذى عليه حصن الأكراد وذلك أن الفرنج اجتمعوا واتفق رأيهم على كبسة المسلمين نهارا فإنهم يكونون آمنين فركبوا من وقتهم ولم يتوقفوا حتى يجمعوا عساكرهم وساروا مجدين فلم يشعر بذلك المسلمون إلا وقد قربوا منهم فأرادوا منعهم فلم يطيقوا ذلك فأرسلوا إلى نورالدين يعرفونه الحال فرهقهم الفرنج بالحملة فلم يثبت المسلمون وعادوا يطلبون معسكر المسلمين والفرنج فى ظهورهم فوصلوا معا إلى العسكر النورى فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل وأخذ السلاح إلا وقد خالطوهم فأكثروا القتل والأسر وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومى فإنه كان قد خرج من بلاده إلى الساحل فى جمع كثير من الروم فقاتلوا محتسبين فى زعمهم فلم يبقوا على أحد وقصدوا خيمة نورالدين وقد ركب فيها فرسه ونجا بنفسه ولسرعته ركب الفرس والشبحة فى رجله فنزل إنسان كردى قطعها فنجا نور الدين وقتل الكردى فأحسن نورالدين إلى مخلفيه ووقف عليهم الوقوف ونزل نور الدين على بحيرة قدس بالقرب من حمص وبينه وبين المعركة أربع فراسخ وتلاحق به من سلم من العسكر وقال له بعضهم ليس من الرأى أن تقيم ههنا فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجىء إلينا فنؤخذ ونحن على هذا الحال فوبخه وأسكته وقال إذا كان معى ألف فارس لقيتهم ولا أبالى بهم ووالله لاأستظل بسقف حتى آخذ بثارى وثار الإسلام ثم أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح والخيل فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم جميعه بقولهم فعاد العسكر كأن لم تصبه هزيمة وكل من قتل أعطى أقطاعه لأولاده وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنها أقرب البلاد إليهم فلما بلغهم نزول نورالدين بينها وبينهم قالوا لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها ولما رأى أصحاب نورالدين كثرة خرجه قال له بعضهم إن لك فى بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت فى هذا الوقت لكان أصلح فغضب من ذلك وقال والله إنى لأرجوا النصر إلا بأولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم على فراشى بسهام لاتخطى وأصرفها إلى من لايقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تصيب وقد تخطى وهؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال كيف يحل لى أن أعطيه غيرهم ثم إن الفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجبهم وتركوا عند حصن الأكراد من يحميه وعادوا إلى بلادهم .

(ذكر إجلاء بنى أسد من العراق) فى هذه السنة أمر الخليفة المستنجد بالله بإهلاك بنى أسد أهل الحلة المزيدية لما ظهر من فسادهم ولما كان فى نفس الخليفة منهم من مساعدتهم السلطان محمدا لما حصر بغداد فأمر يزدن بن قماج بقتالهم وإجلائهم من البلاد وكانوا منبسطين فى البطائح واللوير فلا يقدر عليهم فتوجه يزدن إليهم وجمع عساكر كثيرة من فارس وراجل وأرسل إلى ابن معروف مقدم المتفق وهو بأرض البصرة فجاء فى خلق كثير وحصرهم وسكر عنهم الماء وصابرهم مدة فأرسل الخليفة يعتب على يزدن ويعجزه وينسبه إلى موافقته فى التشيع وكان يزدن يتشيع فجد هو وابن معروف فى قتالهم والتضييق عليهم وسد مسالكهم فى الماء فاستسلموا حينئذ فقتل منهم أربعة آلاف قتيل ونودى فيمن بقى من وجد بعد هذا فى الحلة المزيدية فقد حل دمه فتفرقوا فى البلاد ولم يبق منهم بالعراق من يعرف وسلمت بطائحهم إلى ابن معروف وبلادهم .

Marfat.com

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة وقع فى بغداد حريق فى باب درب فراشا إلى مشرعة الصباغين من الجانبين . وفيها فى رجب توفى سديد الدولة أبو عبدالله بن عبدالكريم بن إبراهيم بن عبدالكريم المعروف بابن الأنبارى كاتب الإنشا بديوان الخلافة وكان فاضلا أديبا ذا تقدم كثير عند الخلفاء والسلاطين وخدم من سنة ثلاثين وخمسمائة إلى الآن فى ديوان الخلافة وعاش حتى قارب تسعين سنة وهو من الشعراء المشهورين إلا أنه كثير الهجو ومن شعره :

يا من هجرت ولا تبالى * هل ترجع دولة الوصال
هل أطمع يا عذاب قلبى * أن ينعم فى هواك بالى
الطرف كما عهدت باك * والجسم كما ترين بال
ما ضرك أن تعللينى * فى الوصل بموعد المحال
أهواك وأنت حظ غيرى * يا قاتلنى فما احتيالى

وهى أكثر من هذا .(١)

﴿ ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر وعودهم عنها ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الأولى سير نور الدين محمود بن زنكى عسكرا كثيرا إلى مصر وجعل عليهم الأمير أسد الدين شيركوه بن شاذى وهو مقدم عسكره وأكبر أمراء دولته وأشجعهم وسنذكر سنة أربع وستين سبب اتصاله بنور الدين وعلو شأنه عنده إن شاء الله تعالى وكان سبب إرسال هذا الجيش أن شاور وزير العاضد لدين الله العلوى صاحب مصر نازعه فى الوزارة ضرغام وغلب عليها فهرب شاور منه إلى الشام ملتجئا إلى نور الدين ومستجيرا به فأكرم مثواه وأحسن إليه وأنعم عليه وكان وصوله فى ربيع الأول من السنة وطلبه منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر ويكون شيركوه مقيما بعساكره فى مصر ويتصرف هو بأمر نور الدين يقدم إلى هذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى فتارة يحمله رعاية قصد شاور بابه وطلب الزيادة فى الملك والتقوى على الفرنج وتارة يمنعه خطر الطريق وأن الفرنج فيه وتخوف أن شاور إن استقرت قاعدته ربما لا يفى ثم قوى عزمه على إرسال الجيوش فتقدم بتجهيزها وإزاحة عللها وكان هوى أسد الدين فى ذلك وعنده من الشجاعة وقوة النفس مالا يبالى بمخافة فتجهز وساروا جميعا وشاور فى صحبتهم فى جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين وتقدم نور الدين إلى شيركوه أن يعيد شاور إلى منصبه وينتقم له ممن نازعه فيه وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنج مما يلى دمشق بعساكره ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين

---

(١) ومنها :
أيام عنائى قبل سود * ما أشبههن بالليالى
العذل فيك يعذلونى * عن حبك ما لهم ومالى
يا ملزمنى السلو عنها * الصب أنا وأنت سالى
والقول بتركها صواب * ما أحسنه لو استوى لى
طلقت تجلدى ثلاثا * والصبوة بعد فى خيالى

Marfat.com

ومن معه فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نورالدين ووصل أسد الدين والعساكر معه إلى مدينة بلبيس فخرج إليهم ناصر الدين أخوضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم وعاد إلى القاهرة ووصل أسد الدين فنزل على القاهرة أواخر جمادى الآخرة فخرج ضرغام من القاهرة سلخ الشهر فقتل عند مشهد السيدة نفيسة وبقى يومين ثم حمل ودفن فى القرافة وقتل أخوه فارس المسلمين وخلع على شاور مستهل رجب وأعيد إلى الوزارة وتمكن منها ، وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة ، فغدر به شاور ، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضا وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشام فأعاد الجواب بالامتناع وطلب ما كان قد استقر بينهم فلم يجبه شاور إليه فلما رأى ذلك أرسل إلى نوابه فتسلموا مدينة بلبيس وحكم على البلاد الشرقية فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن تم ملكه لها فلما أرسل شاور يطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا إلى تلبية دعوته ونصرته وطمعوا فى تلك الديار المصرية وكان قد بذل لهم مالا على المسير إليه وتجهزوا وساروا فلما بلغ نور الدين ذلك سار بعساكره إلى أطراف بلادهم ليمتنعوا عن المسير فلم يمنعهم ذلك لعلمهم أن الخطر فى مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشد فتركوا فى بلادهم من يحفظها وسار ملك القدس فى الباقين إلى مصر وكان قد وصل إلى الساحل جمع كثير من الفرنج فى البحر لزيارة البيت المقدس فاستعان بهم الفرنج الساحلية فأعانوهم فسار بعضهم معهم وأقام بعضهم فى البلاد لحفظها فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسدالدين وقصد مدينة بلبيس فأقام بها هو وعسكره وجعلها لهظهرا يتحصن به فاجتمعت العساكر المصرية والفرنج ونازلوا أسد الدين شيركوه بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر وهو يمتنع بها مع أن سورها قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل يحميها وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا ولانالوا منه شيئا فبينماهم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج على حارم وملك نورالدين حارم ومسيره إلى بانياس على مانذكره إن شاء الله تعالى فحينئذ سقط فى أيديهم وأرادوا العودة إلى بلادهم ليحفظوها فراسلوا أسد الدين فى الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم مافعله نور الدين بالشام بالفرنج ولأن الأقوات والذخائر قلت عليه وخرج من بلبيس فى ذى الحجة فحدثنى من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس قال أخرج أصحابه بين يديه وبقى فى آخرهم وبيده لت من حديد يحمى ساقتهم والمسلمون والفرنج ينظرون إليه قال فأتاه فرنجى من الغرباء الذين خرجوا من البحر فقال له أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك ولا يبقى لكم بقية فقال شيركوه ياليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال وحينئذ يقصدهم الملك العادل نورالدين وقد ضعفوا وفنى شجعانهم فتملك بلادهم ونهلك من بقى والله لو أطاعنى هؤلاء لخرجت إليكم من أول يوم ولكنهم امتنعوا فصلب على وجهه وقال كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ومبالغتهم فى صفتك وخوفهم منك والآن فقدعذرناهم ثم رجع عنه وسار شيركوه إلى الشام فوصل سالما وكان الفرنج قدوضعوا له على مضيق فى الطريق رصدا ليأخذوه أو ينالوا منه ظفرا فعلم بهم فعاد عن ذلك الطريق ففيه يقول عمارة :

أخذتم عن الإفرنج كل ثنية * وقلت لأيدى الخيل مرى على (مرى)
لئن نصبوا فى البر جسرا فإنكم * عبرتم ببحر من حديد على الجسر

Marfat.com

ولفظة مرى فى آخر البيت الأول اسم ملك الفرنج .

﴿ذكر هزيمة الفرنج وفتح حارم﴾ فى هـذه السنة فى شهر رمضان فتح نور الدين محمود بن زنكى قلعة حارم من الفرنج وسبب ذلك أن نور الدين لما عاد منهزما من البقيعة تحت حصن الأكراد كماذكرناه قبل فرق الأموال والسلاح وغير ذلك من الآلات على ماتقدم فعاد العسكر كأنهم لم يصابوا وأخذ فى الاستعداد للجهاد والأخذ بثأره واتفق مسير بعض الفرنج مع ملكهم إلى مصر كماذكرناه فأراد أن يقصد بلادهم ليعودوا عن مصر فأرسل إلى أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وديار الجزيرة وإلى فخر الدين قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وإلى نجم الدين ايلبى صاحب ماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف يستنجدهم فأما قطب الدين فإنه جمع عسكره وسار مجدا وفى مقدمته زين الدين على أمير جيشه وأما فخر الدين صاحب الحصن فبلغنى عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه على أى شىء عزمت فقال على القعود فإن نور الدين قدتحشف من كثرة الصوم والصلاة وهو يلقى نفسه فى المهالك فكلهم وافقه على هذا الرأى فلما كان الغد أمر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك (ماعدا عما بدا) فارقناك أمس على حالة فنراك اليوم على ضدها فقال إن نور الدين قد سلك معى طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادى عن طاعتى وأخرجوا البلاد عن يدى فإنه قدكاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكر لهم مالقى المسلمون من الفرنج ومانالهم من القتل والأسر ويستمد منهم الدعاء ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه وهم يقرؤن كتب نور الدين ويبكون ويلعنوننى ويدعون على فلابد من المسير اليه ثم تجهز وسار بنفسه وأما نجم الدين فإنه سير عسكرا فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فحصرها ونصب عليها المجانيق وتابع الزحف اليها فاجتمع من بقى بالساحل من الفرنج فجاؤا فى حدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم وأقبلوا اليه من كل حدب ينسلون وكان المقدم عليهم البرنس بيمند صاحب أنطاكية وقمص صاحب طرابلس وأعمالها وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج والدوك وهو مقدم كبير من الروم وجمعوا الفارس والراجل فلما قاربوه رحل عن حارم إلى أرتاح طمعا أن يتبعوه فيتمكن منهم ببعدهم عن بلادهم إذا لقوه فساروا فنزلوا على غمر ثم علموا عجزهم عن لقائه فعادوا إلى حارم فلما عادوا تبعهم نور الدين فى أبطال المسلمين على تعبية الحرب فلما تقاربوا اصطفوا للقتال فبدأ الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وفيها عسكر حلب وصاحب الحصن فانهزم المسلمون فيها وتبعهم الفرنج فقيل كانت تلك الهزيمة من الميمنة على اتفاق ورأى دبروه وهو أن يتبعهم الفرنج فيبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقى من المسلمين بالسيوف فإذا عاد فرسانهم لم يلقوا راجلا يلجؤن اليه ولا وزيرا يعتمدون عليه ويعود المنهزمون فى آثارهم فيأخذهم المسلمون من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم فكان الأمر على مادبروه فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف عليهم زين الدين على فى عسكر الموصل على راجل الفرنج فأفناهم قتلا وأسرا وعاد خيالتهم ولم يمعنوا فى الطلب خوفا على راجلهم فعاد المنهزمون فى آثارهم فلما وصل الفرنج رأوا رجالهم قتلى وأسرى فسقط فى أيديهم ورأوا أنهم قدهلكوا وبقوا فى الوسط قد أحدق بهم المسلمون من كل جانب فاشتدت الحرب وقامت على ساق وكثر القتل فى الفرنج وتمت عليهم الهزيمة فعدل حينئذ المسلمون عن القتل إلى الأسر فأسروا مالا يحد وفى جملة الأسرى صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وكان شيطان الفرنج وأشدهم شكيمة على

Marfat.com

Marfat.com

المسلمين والدوك مقدم الروم وابن جوسلين وكان عدة القتلى تزيد على عشرة آلاف قتيل وأشار المسلمون على نور الدين بالمسير إلى أنطاكية وتملكها لخلوها من حام يحميها ومقاتل يدب عنها فلم يفعل وقال أما المدينة فأمرها سهل وأما القلعة فمنيعة وربما سلموها إلى ملك الروم لأن صاحبها ابن أخيه ومجاورة بيمند أحب إلى من مجاورة صاحب قسطنطينية وبث السرايا فى تلك الأعمال فنهبوها وأسروا أهلها وقتلوهم ثم إنه فادى برنس بيمند صاحب أنطاكية واشترى من المسلمين خلقا كثيرا فأطلقهم .

﴿ ذكر ملك نورالدين قلعة بانياس من الفرنج أيضا ﴾ فى ذى الحجة من هذه السنة فتح نورالدين محمود قلعة بانياس وهى بالقرب من دمشق وكانت بيد الفرنج من سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ولما فتح حارم أذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم وأظهر انه يريد طبرية فجعل من بقى من الفرنج همتهم حفظها وتقويتها فسار محمود إلى بانياس لعلمه بقلة من فيها من الحماة المانعين عنها ونازلها وضيق عليها وقاتلها وكان فى جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران فأصابه سهم فأذهب إحدى عينيه فلما رآه نورالدين قال له لو كشف لك عن الأجر الذى أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى وجد فى حصارها فسمع الفرنج فجمعوا فلم تتكامل عدتهم حتى فتحها على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة ورجالا وشاطر الفرنج فى أعمال طبرية وقرروا له على الأعمال التى لم يشاطرهم عليها مالا فى كل سنة ووصل خبر ملك حارم وحصن بانياس إلى الفرنج بمصر فصالحوا شيركوه وعادوا ليدركوا بانياس فلم يصلوا إلا وقد ملكها ولما عاد منها إلى دمشق كان بيده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر وكان يسمى الجبل لكبره وحسنه فسقط من يده فى شعراء بانياس وهى كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان فلما أبعد عن المكان الذى ضاع فيه علم به فأعاد أصحابه فى طلبه ودلهم على المكان الذى كان آخر عهده به فيه وقال أظنه هناك سقط فعادوا إليه فوجدوه فقال بعض الشعراء الشاميين أظنه ابن منير يمدحه ويهنئه بهذه الغزاة ويذكر الجبل الياقوت .

إن يمتر الشكاك فيك بأنك الـ * مهدى مطفى جمرة الدجال
فلعودة الجبل الذى أضللته * بالأمس بين غياطل وجبال
لم يعطها إلا سليمان وقد * نبت الربا بموشك الأعجال
وحرحر لسرير ملكك إنه * كسريره عن كل حد عالى
فلو البحار السبعة استهوينه * وأمرتهن قذفنه فى الحال

ولما فتح الحصن كان معه ولد معين الدين أنز الذى سلم بانياس إلى الفرنج فقال له للمسلمين بعد الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان فقال كيف ذاك قال لأن اليوم برد الله جلد والدك من نار جهنم .

﴿ ذكر أخذ الأتراك غزنة من ملكشاه وعوده إليها ﴾ فى هذه السنة قصد بلاد غزنة الأتراك المعروفون بغز ونهبوها وخربوها وقصدوا غزنة وبها صاحبها ملكشاه بن خسروشاه المحمودى فعلم أنه لا طاقة له بهم ففارقها وسارا إلى مدينة لهاوور وملك الغز مدينة غزنة وكان القيم بأمرهم أميرا اسمه زنكى بن خليفة الشيبانى ثم إن صاحبها ملكشاه جمع وعاد إلى غزنة ففارقها زنكى وعاد ملكها ملكشاه ودخلها فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وخمسمائة وتمكن فى دار ملكه .

﴿ ذكر وفاة جمال الدين الوزير وشىء من سيرته ﴾ فى هذه السنة توفى جمال الدين أبو جعفر محمد بن على بن

Marfat.com

أبى منصور الأصفهانى وزير قطب الدين صاحب الموصل فى شعبان مقبوضا وكان قد قبض عليه سنة ثمان وخمسين فبقى فى الحبس نحو سنة * حكى لى إنسان صوفى يقال له أبو القاسم كان مختصا بخدمته فى الحبس قال لم يزل مشغولا فى محبسه بأمر آخرته وكان يقول كنت أخشى أن أنقل من الدست إلى القبر فلما اتفق أن مرض قال لى فى بعض الأيام يا أبا القاسم إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفنى قال فقلت فى نفسى قد اختلط عقله فلما كان الغد أكثر السؤال عنه وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط ، فقلت جاء الطائر فاستبشر ، ثم قال جاء الحق وأقبل على الشهادة وذكر الله تعالى إلى أن توفى ، فلما توفى طار ذلك الطائر فعلمت أنه رأى شيئا فى معناه ودفن بالموصل عند فتح الكرامى رحمة الله عليهما نحو سنة ، ثم نقل إلى المدينة فدفن بالقرب من حرم النبى صلى الله عليه وسلم فى رباط بناه لنفسه وقال لأبى القاسم بينى وبين أسد الدين شيركوه عهد من مات منا قبل صاحبه حمله إلى المدينة فدفنه بها فى التربة التى عملتها فإذا أمامت فامض إليه وذكره ، فلما توفى سار أبو القاسم إلى شيركوه فى المعنى فقال له شيركوه كم تريد فقال أريد أجرة جمل يحمله وجمل يحملنى وزادى فانتهره ، وقال مثل جمال الدين يحمل هكذا إلى مكة ، وأعطاه مالا صالحا ليحمل معه جماعة يحجون عن جمال الدين وجماعة يقرؤن عليه بين يدى تابوته إذا حمل وإذا نزل عن الجمل وإذا وصل إلى مدينة يدخل أولئك القراء ينادون للصلاة عليه فيصلى عليه فى كل بلدة يجتاز بها وأعطاه أيضا مالا للصدقة عنه فصلى عليه فى تكريت وبغداد والحلة وفيد ومكة والمدينة وكان يجمع له فى كل بلد من الخلق مالا يحصى ولما أرادوا الصلاة عليه بالحلة صعد شاب على موضع مرتفع وأنشد بأعلى صوته :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما * سرى جوده فوق الركاب ونائله
يمر على الوادى فتثنى ماله * عليه وبالنادى فتثنى أرامله

فلم تر باكيا أكثر من ذلك اليوم فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم الشريف وبين قبره وقبر النبى صلى الله عليه وسلم خمسة عشر ذراعا . وأما سيرته فكان رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم بذلا للمال رحما بالخلق متعطفا عليهم عادلا فيهم فمن أعماله الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخيف بمنى وغرم عليه أموالا كثيرة جسيمة وبنى الحجر بجانب الكعبة وزخرف الكعبة وذهبها وعملها بالرخام ، ولما أراد ذلك أرسل إلى المقتفى لأمر الله هدية جليلة وطلب منه ذلك وأرسل إلى الأمير عيسى أمير مكة هدية كبيرة وخلعا سنية منها عمامة شراها بثلثمائة دينار حتى مكنه من ذلك وعمر أيضا المسجد الذى على جبل عرفات والدرج التى يصعد فيها إليه وكان الناس يلقون شدة فى صعودهم وعمل بعرفات أيضا مصانع للماء وأجرى الماء إليها من نعمان فى طرق معمولة تحت الأرض فخرج عليها مال كثير وكان يجرى الماء فى المصانع كل سنة أيام عرفات وبنى سورا على مدينة النبى صلى الله عليه وسلم وعلى قيد وبنى لها أيضا فصيلا وكان يخرج على باب داره كل يوم للصعاليك والفقراء مائة دينار أميرى هذا سوى الإدرارات والتعهدات للأئمة والصالحين وأرباب البيوت ومن أبنيته العجيبة التى لم ير الناس مثلها الجسر الذى بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكاس فقبض قبل أن يفرغ وبنى عندها أيضا جسرا كذلك على النهر المعروف بالأرماد وبنى الربط وقصده الناس من أقطار الأرض ويكفيه أن ابن الخجندى رئيس أصحاب الشافعى بأصفهان قصده وابن الكافى قاضى همذان فأخرج عليهما مالا عظيما وكانت صدقاته وصلاته من أقاصى خراسان إلى حدود اليمن وكان يشترى

Marfat.com

الأسرى كل سنة بعشرة آلاف دينار هذا من الشام حسب سوى مايشترى من الكرج ٥ حكى لى والدى عنه قال كثيرا ما كنت أرى جمال الدين إذا قدم إليه الطعام يأخذ منه ومن الحلوى ويتركه فى خبز بين يديه فكنت أنا ومن يراه نظن أنه يحمله إلى أم ولده على فاتفق أنه فى بعض السنين جاء إلى الجزيرة مع قطب الدين وكنت أتولى ديوانها وحمل جاريته أم ولده إلى دارى لتدخل الحمام فبقيت فى الدار أياما فبينما أنا عنده فى الخيام وقد أكل الطعام فعل كما كان يفعل ثم تفرق الناس فقمت فقال أقعد فقعدت ، فلما خلا المكان قال لى قد آثرتك اليوم على نفسى فإننى فى الخيام ما يمكننى أن أفعل ما كنت أفعله خذ هذا الخبز واحمله أنت فى كمك فى هذا المنديل واترك الحمافة من رأسك وعد إلى بيتك فإذا رأيت فى طريقك فقيرا يقع فى نفسك أنه مستحق فافعد أنت بنفسك وأطعمه هذا الطعام . قال ففعلت دلك وكان معى جمع كثير ففرقتهم فى الطريق لئلا يرونى أفعل ذلك وبقيت فى غلمانى فرأيت فى موضع إنسانا أعمى وعنده أولاده وزوجته وهم من الفقر فى حال شديد فنزلت عن دابتى إليهم وأخرجت الطعام وأطعمتهم إياه ، وقلت للرجل تجىء غدا بكرة إلى دار فلان أعنى دارى ولم أعرفه نفسى فإننى آخذ لك من صدقة جمال الدين شيئا : ثم ركبت إليه العصر فلما رآنى قال ما الذى فعلت فى الذى قلت لك فأخذت أذكر له شيئا يتعلق بدولتهم فقال ليس عن هذا أسالك ، إنما أسألك عن الطعام الذى سلمته إليك فذكرت له الحال ففرح ثم قال بقى أنك لو قلت للرجل يجىء إليك هو وأهله فتكسوهم وتعطيهم دنانير وتجرى لهم كل شهر دنانير ، قال فقلت له قد قلت للرجل حتى يجىء إلى . فازداد فرحا . وفعلت بالرجل ماقال ولم يزل يصل إليه رسمه حتى قبض وله من هذا كثير فمن ذلك انه تصدق بثيابه من على بدنه فى بعض السنين التى تعذرت الأقوات فيها .

﴿ ذكر اجلاء القارغليه من وراء النهر ﴾ كان خان خانان الصينى ملك الخطا قد فوض ولاية سمرقند وبخارا إلى الخان جغرى خان بن حسن تكين واستعمله عليهما وهو من بيت الملك قديم الأبوة فبقى فيها مدبرا لأمورها فلما كان الآن أرسل إليه ملك الخطا بإجلاء الأتراك القارغلية من أعمال بخارا وسمرقند إلى كاشغر وأن يتركوا حمل السلاح ويشتغلوا بالزراعة وغيرها من الأعمال فتقدم جغرى خان إليهم بذلك فامتنعوا فالزمهم وألح عليهم بالانتقال فاجتمعوا وصارت كلمتهم واحدة فكثروا وساروا إلى بخارا فأرسل الفقيه محمد ابن عمر بن برهان الدين عبدالعزيز بن مازة رئيس بخارا إلى جغرى خان يعلمه ابن مازة يقول لهم إن الكفار ذاك ويحسه على الوصول إليهم بعساكره قبل أن يعظم سره وينهب البلاد وأرسل إليهم بالأمس لما طرقوا هذه البلاد امتنعوا عن النهب والقتل وأنتم مسلمون غزاة يقبح بكم مد الأيدى إلى الأموال والدماء وأنا أبذل لكم من الأموال مانرضون به لتكفوا عن النهب والغارة فترددت الرسل بينهم فى تقرير القاعدة وابن مازة يطاول بهم ويمادى الأيام إلى أن وصل جغرى خان فلم يشعر الأتراك القارغلية إلا وقد دهمهم جغرى خان فى جيوشه وجموعه بغتة ووضع السيف فيهم فانهزموا وتفرقوا وكثر القتل فيهم والنهب واختفى طائفة منهم فى الغياض والآجام ثم ظفر بهم أصحاب جغرى خان فقطعوا دابرهم ودفعوا عن بخارا ونواحيها ضررهم وخلت الأرض منهم .

﴿ ذكر استيلاء سنقر على الطالقان وغرشتان ﴾ فى هذه السنة استولى الأمير صلاح الدين سنقر وهو من مماليك السنجرية على بلاد الطالقان وأغار على حدود غرشتان وتابع الغارات عليها حتى ملكها فصار الولايتان له وبحكمه وله فيها حصون منيعة وقلاع حصينة وصالح الأمراء الغزية وحمل لهم الإتاوة كل سنة .

﴿ ذكر قتل صاحب هراة ﴾ كان صاحب هراة ايتكين بينه وبين الغز مهادنة فلما توفى ملك الغور محمد طمع فى بلادهم فغزاهم غير مرة ونهب وأغار فلما كان فى شهر رمضان من هذه السنة جمع ايتكين جموعه وسار إلى إلى بلاد الغور وساروا إلى باميان وإلى ولاية بست والرخج فقاتله صاحبها طغرل تكين برنقش العلكى من قبل الغورية فظهروا إلى باميان واستولى على بست والرخج فسلمها إلى بعض أولاد ملوك الغور وأما ايتكين فإنه توغل فى بلاد الغور فأتاه أهلها وقاتلوه وصدوه وصدقوه القتال فانهزم عسكره وقتل هو فى المعركة .

﴿ ذكر ملك شاه مازندران قومس وبسطام ﴾ قد ذكرنا استيلاء المؤيد صاحب نيسابور على قومس وبسطام وتلك البلاد وأنه استناب بها مملوكه تنكز فلما كان هذه السنة جهز شاه مازندران جيشا واستعمل عليهم أميرا له يعرف بسابق الدين القزوينى فسار إلى دامغان فملكها فجمع تنكز من عنده من العساكر وسار إليه إلى دامغان فخرج إليه القزوينى فوصل إلى تنكز على غرة منه فلم يشعر هو وعسكره إلا وقد كبسهم القزوينى ووضع السيف فيهم فتفرقوا وولوا منهزمين واستولى عسكر شاه مازندران على تلك البلاد وعاد تنكز إلى المؤيد صاحب نيسابور واشتغل بالغارة على بسطام وبلاد قومس .

﴿ ذكر عصيان غمارة بالمغرب ﴾ لما تحقق الناس موت عبد المؤمن سنة تسع وخمسين ثارت قبائل غمارة مع مفتاح بن عمرو وكان مقدما كبيرا وتبعوه بأجمعهم وامتنعوا فى جبالهم وهى معاقل مانعة وهم أمم جمة فتجهز إليهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ومعه أخواه عمرو وعثمان فى جيش كبير من الموحدين والعرب وتقدموا إليهم فاقتتلوا سنة إحدى وستين وخمسمائة فانهزمت غمارة وقتل منهم كثير وفيمن قتل مفتاح ابن عمرو مقدمهم وجماعة من أعيانهم ومقدميهم وملكوا بلادهم عنوة وكان هناك قبائل كثيرة يريدون الفتنة فانتظروا مايكون من غمارة فلما قتلوا ذلت تلك القبائل وانقادوا للطاعة ولم يبق متحرك لفتنة ومعصية فسكنت الدهماء فى جميع المغرب .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة أغار الأمير محمد بن أنز على بلد الإسماعيلية بخراسان وأهلها غافلون فقتل منهم وغنم وأسروسبى وأكثر وملأ أصحابه أيديهم من ذلك . وفيها توفى أبو الفضل نصر بن خلف ملك سجستان وعمره أكثر من مائة سنة ومدة ملكه ثمانون سنة وملك بعده ابنه شمس الدين أبو الفتح أحمد بن نصر وكان أبو الفضل ملكا عادلا عفيفا عن رعيته وله آثار حسنة فى نصرة السلطان سنجر فى غير موقف وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية فى عساكر لاتحصى وقصد بلاد الإسلام التى بيد قلج أرسلان وابن دانشمند فاجتمع التركمان فى تلك البلاد فى جمع كثير فكانوا يغيرون على أطراف عسكره ليلا فإذا أصبح لايرى أحدا وكثر القتل فى الروم حتى بلغت عدة القتلى عشرات ألوف فعاد إلى القسطنطينية ولما عاد ملك المسلمون منه عدة حصون . وفيها توفى الإمام عمر الخوارزمى خطيب بلخ ومفتيها بها والقاضى أبو بكر المحمودى صاحب التصانيف والأشعار وله مقامات بالفارسية على نمط مقامات الحريرى بالعربية .

﴿ ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر وفاة شاه مازندران وملك ابنه بعده ﴾ فى هذه السنة ثامن ربيع الأول توفى شاه مازندران رستم ابن على بن شهر يار بن قارن ولما توفى كتم ابنه علاء الدين الحسن موته أياما حتى استولى على سائر الحصون

Marfat.com

والبلاد ثم أظهره فلما ظهر خبر وفاته أظهر إيثاق صاحب جرجان ودهستان المنازعة لولده فى الملك ولم يرع حق أبيه عليه فإنه لم يزل يذب عنه ويحميه إذا التجأ اليه ولكن الملك عقيم ولم يحصل من منازعته على شىء غير سوء السمعة وقبح الأحدوثة .

﴿ذكر حصر عسكر المؤيد نسا ورحيلهم عنها﴾ كان المؤيد قد سير جيشا إلى مدينة نسا فحصروها إلى جمادى الأولى فى هذه السنة فسير خوارزمشاه بن أرسلان بن أتسز جيشا إلى نسا فلما قاربوها رحل عنها عسكر المؤيد وعادوا إلى نيسابور أواخر جمادى الأولى وسار عسكر المؤيد إلى عسكر خوارزم لأنهم توجهوا إلى نيسابور فتقدم العسكر المؤيدى ليردوهم عنها فلما سمع العسكر الخوارزمى بهم عاد عنهم وصار صاحب نسا فى طاعة خوارزمشاه والخطبة له فيها وسار عسكر خوارزم إلى دهستان فالتجأ صاحبها الأمير إيثاق إلى المؤيد صاحب نيسابور بعد تمكن الوحشة بينهما فقبله المؤيد أحسن قبول وسير اليه جيشا كثيفا فأقاموا عنده حتى دفع الضرر عن نفسه وبلده من جهة طبرستان وأمادهستان فإن عسكر خوارزم غلبوا عليها وصار لهم فيها شحنة .

﴿ذكر استيلاء المؤيد على هراة﴾ قد ذكرنا قتل صاحب هراة سنة تسع وخمسين فلما قتل تجهز الأمراء الغزية وساروا إلى هراة وحصروها وقد تولى أمرها إنسان يلقب أثير الدين وكان له ميل إلى الغز وهو يحاربهم ظاهرا ويراسلهم باطنا فهلك لهذا السبب خلق كثير من أهل هراة فاجتمع اليها أهلها فقتلوه وقام مقامه أبو الفتوح بن على بن فضل الله الطغرائى فأرسل أهلها إلى المؤيد أى أبه صاحب نيسابور بالطاعة والانقياد اليه فسير اليهم مملوكه سيف الدين تنكز فى جيش وسير جيشا آخر أغاروا على سرخس ومرو فأخذوا دواب الغز وعادوا سالمين فلما سمع الغز بذلك رحلوا عن هراة إلى مرو .

﴿ذكر الحرب بن قلج أرسلان وبين ابن الدانشمند﴾ فى هذه السنة كانت الفتنة بين الملك قلج أرسلان ابن مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية ومايجاورها من بلد الروم وبين ياغى أرسلان بن دانشمند صاحب ملطية ومايجاورها من بلد الروم وجرى بينهما حرب شديدة وسببها أن قلج أرسلان تزوّج ابنة الملك صلتق ابن علىّ بن أبى القاسم فسيرت الزوجة إلى قلج أرسلان مع جهاز كثير لا يعلم قدره وأغار ياغى صاحب ملطية عليه وأخذ العروس ومامعها وأراد أن يزوجها بابن أخيه ذى النون بن محمد بن دانشمند فأمرها بالردة عن الإسلام فزوجها من ابن أخيه فجمع قلج أرسلان عسكره وسار إلى ابن دانشمند فالتقيا واقتتلا فانهزم قلج أرسلان والتجأ إلى ملك الروم واستنصره فأرسل إليه جيشا كثيرا فمات ياغى أرسلان بن دانشمند فى تلك الأيام وملك قلج أرسلان بعض بلاده واصطلح هو والملك ابراهيم بن محمد بن دانشمند لأنه ملك البلاد بعد عمه ياغى أرسلان واستولى ذوالنون بن محمد بن دانشمند على مدينة قيسارية وملك شاهانشاه بن مسعود أخو قلج أرسلان على مدينة انكورية واستقرت القواعد بينهم واتفقوا .

﴿ذكر الفتنة بين نور الدين وقلج أرسلان﴾ فى هذه السنة كانت وحشة متأكدة بين نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام وبين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان صاحب الروم أدت إلى الحرب والتضاغن فلما بلغ خبرها إلى مصر كتب الصالح بن رزيك وزير صاحب مصر إلى قلج أرسلان ينهاه عن ذلك ويأمره بموافقته وكتب فيه شعرا :

نقول ولكن أين من يتفهم ٭ ويعلم وجه الرأى والرأى مبهم

Marfat.com

وما كل من قاس الأمور وساسها * يوفق للأمر الذى هو أحزم
وما أحـــد فى الملك يبقى مخلدا * وما أحـد ممـا قضى الله يسلم
أمن بعد ماذاق العدا طعم حربكم * بفيهم وكانت وهى صاب وعلقم
رجعتم إلى حكم التنافس بينكم * وفيكم من الشحناء نار تضرم
أماعنـــدكم من يتقى الله وحده * أمافى رعاياكم من الناس مسلم
تعالوا لعل الله ينصر دينـه * إذا مانصرنا الدين نحن وأنتم
وننهض نحو الكافرين بعزمة * بأمثالهـا تحوى البلاد وتقسم

وهى أطول من هذا هكذا ذكر بعض العلماء هذه الحادثة وأن الصالح أرسل بهذا الشعر فإن كان الشعر للصالح فينبغى أن تكون الحادثة قبل هذا التاريخ ويحتمل أن يكون هذا التنافس كان أيام الصالح فكتب الأبيات ثم امتد إلى الآن .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى صفر وقع بأصفهان فتنة عظيمة بين صدر الدين عبد اللطيف بن الخجندى وغيره من أصحاب المذاهب بسبب التعصب للمذاهب فدام القتال بين الطائفتين ثمانية أيام متتابعة قتل فيها خلق كثير واحترق وهدم كثير من الدور والأسواق ثم افترقوا على أقبح صورة وفيها بنى الإسماعيلية قلعة بالقرب من قزوين فقيل لشمس الدين ايلدكز عنها فلم يكن له إنكار لهذه الحال خوفا من شرهم وغائلتهم فتقدموا بعد ذلك إلى قزوين فحصروها وقاتلهم أهلها أشد قتال رآه الناس . وحكى لى بعض أصدقائنا بل مشايخنا من الأئمة الفضلاء قال كنت بقزوين أشتغل بالعلم وكان بها إنسان يقود جمعا كبيرا وكان موصوفا بالشجاعة وله عصابة حمراء إذا قاتل عصب بها رأسه قال فكنت أحبه وأشتهى الجلوس معه قال فبينما أنا عنده يوما وإذا هو يقول كأنى بالملاحدة وقد قصدوا البلد غدا نخرجنا اليهم وقاتلناهم فكنت أول الناس وأنا متعصب بهذه العصابة فقاتلناهم فلم يقتل غيرى ثم ترجع الملاحدة ويرجع أهل البلد قال فوالله لما كان الغد إذ قد وقع الصوت بوصول الملاحدة فخرج الناس قال فذكرت قول الرجل فخرجت والله وليس لى همة إلا أنى أنظر هل يصح ماقال أم لا قال فلم يكن إلا قليل حتى عاد الناس وهو محمول على أيديهم قتيلا بعصابته الحمراء وذكروا أنه لم يقتل بينهم غيره فبقيت متعجبا من قوله كيف صح ولم يتغير منه شىء ومن أين له هذا اليقين ، ولما حكى لى هذه الحكاية لم أسأله عن تاريخها وإنما كان فى هذه المدة فى تلك البلاد فلهذا أثبتها هذه السنة على الظن والتخمين . وفيها قبض المؤيد أى أبه صاحب نيسابور على وزيره ضياء الملك محمد بن أبى طالب سعد ابن أبى القاسم محمود الرازى وحبسه واستوزر بعده نصير الدين أبا بكر محمد بن أبى نصر محمد المستوفى وهو من أعيان الدولة السنجرية . وفى هذه السنة وردت الأخبار أن الناس حجوا سنة تسع وخمسين ولقوا شدة وانقطع منهم خلق كثير فى فيدوا الثعلبية وواقصة وغيرها وهلك كثير ولم يمض الحجاج إلى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم لهذه الأسباب ولشدة الغلاء فيها وعدم مايقتات ووقع الوباء فى البادية وهلك منهم عالم لايحصون وهلكت مواشيهم وكانت الأسعار بمكة غالية . وفيها فى صفر قبض المستنجد بالله على الأمير توبة بن العقيلى وكان قد قرب منه قربا عظيما بحيث يخلو معه وأحبه المستنجد محبة كثيرة فحسده الوزير ابن هبيرة فوضع كتبا من العجم قوم وأمرهم أن يتعرضوا فيؤخذوا ففعلوا ذلك وأخذوا وأحضروا عند الخليفة فأظهروا الكتب

Marfat.com

بعد الامتناع الشديد فلما وقف الخليفة عليها خرج إلى نهر الملك يتصيد وكانت حلل توبة على الفرات فحضر عنده فأمر بالقبض عليه فقبض وأدخل بغداد ليلا وحبس فكان آخر العهد به فلم يمنح الوزير بعده بالحياة بل مات بعد ثلاثة أشهر وكان توبة من أكمل العرب مروءة وعقلا وسخاء وإجازة واجتمع فيه من خلال الكمال ما تفرق فى الناس. وفيها فى ربيع الأول توفى الشهاب محمود بن عبد العزيز الحامدى الهروى وزير السلطان أرسلان ووزير أتابك شمس الدين أيلدكز. وفيها توفى عون الدين الوزير ابن هبيرة واسمه يحيى بن محمد بن المظفر وزير الخليفة وكان موته فى جمادى الأولى ومولده سنة تسعين وأربعمائة ودفن بالمدرسة التى بناها للحنابلة بباب البصرة وكان حنبلى المذهب دينا خيرا عالما يسمع حديث النبى صلى الله عليه وسلم وله فيه التصانيف الحسنة وكان ذا رأى سديد ونافق على المقتفى نفاقا عظيما حتى إن المقتفى كان يقول لم يوزر لبنى العباس مثله. ولما مات قبض على أولاده وأهله. وتوفى بهذه السنة محمد بن سعيد البغدادى بالموصل وله شعر حسن فمن قوله:

أفدى الذى وكانى حبه * بطول إعلالى وأمراضى
ولست أدرى بعد ذا كله * أساخط مولاى أم راضى

وفيها توفى الشيخ الإمام أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزى الشافعى تفقه على الفقيه الكيا الهراسى وكان واحد عصره فى الفقه تأتيه الفتاوى من العراق وخراسان وسائر البلاد وهو من جزيرة ابن عمر (١)

---

(١) وفيها توفى ابن التليذ الطبيب الحاذق الماهر، اسمه هبة الله بن صاعد توفى عن خمس وتسعين سنة، وكان موسعا عليه فى الدنيا، وله عند الناس وجاهة كبيرة، وقد توفى قبحه الله على دينه، ودفن بالبيعة العتيقة، لا رحمه الله إن كان مات نصرانيا، فإنه كان يزعم أنه مسلم، ثم مات على دينه وفيها توفى الوزير ابن هبيرة يحيى بن محمد بن هبيرة، أبو المظفر الوزير للخلافة عون الدين، مصنف كتاب الإفصاح، وقد قرأ القرآن وسمع الحديث، وكانت له معرفة جيدة بالنحو واللغة والعروض، وتفقه على مذهب الإمام أحمد، وصنف كتبا جيدة مفيدة، من ذلك الإفصاح فى مجلدات، شرح فيه الحديث وتكلم على مذاهب العلماء، وكان على مذهب السلف فى الاعتقاد وقد كان فقيرا لا مال له، ثم تعرض للخدمة إلى أن وفد للمقتفى ثم لابنه المستنجد، وكان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة، وأبعدهم عن الظلم، وكان لا يلبس الحرير، وكان المقتفى يقول ما وزر لبنى العباس مثله، وكذلك ابنه المستنجد، وكان المستنجد معجبا به، قال مرجان الخادم سمعت أمير المؤمنين المستنجد ينشد لابن هبيرة وهو بين يديه من شعره.

صفت نعمتان خصتاك وعمتا * فذكرهما حتى القيامة يذكر
وجودك والدنيا إليك فقيرة * وجودك والمعروف فى الناس ينكر
فلو رام يا يحيى مكانك جعفر * ويحيى لكفا عنه يحيى وجعفر
ولم أر من ينوى لك السوء يا أبا * المظفر إلا كنت أنت المظفر

وقد كان يبالغ فى إقامة الدولة العباسية؛ وحسم مادة الملوك السلجوقية عنهم بكل ممكن؛ حتى استقرت الخلافة فى العراق كله؛ ليس للملوك معهم حكم بالكلية ولله الحمد. وكان يعقد فى داره للعلماء مجلسا للمناظرة يبحثون فيه ويناظرون عنده؛ يستفيد منهم ويستفيدون منه؛ فاتفق يوما أنه كلهم رجلا من الفقهاء كلمة فيها بشاعة قال له: يا حمار ثم ندم فقال: أريد أن تقول لى كما قلت لك؛ فامتنع ذلك الرجل؛ فصالحه على مائتى دينار. مات فجأة؛ ويقال إنه سمه طبيب فسم ذلك الطبيب بعد ستة أشهر؛ وكان الطبيب يقول سممته فسممت. مات يوم الأحد الثانى عشر من =

Marfat.com

﴿ ثم دخلت سنة احدى وستين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر فتح المنيطرة من الفرنج﴾ فى هذه السنة فتح نور الدين محمود بن زنكى حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الفرنج ولم يحشد له ولا جمع عساكره وإنما سار إليه جريدة على غرة منهم وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا فسار إليه جريدة وانتهز الفرصة وحصره وجد فى قتاله فأخذه عنوة وقهرا وقتل من بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة فإن الذين به كانوا آمنين فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون ولم يجتمع الفرنج لدفعه إلا وقد ملكه ولو علموا أنه جريدة فى قلة من العساكر لأسرعوا إليه وإنما ظنوه أنه فى جمع كثير فلما ملكه تفرقوا وأيسوا من رده

﴿ذكر قتل خطلوبرس مقطع واسط﴾ فى هذه السنة قتل خطلوبرس مقطع واسط قتله ابن أخى شملة صاحب خوزستان وسبب ذلك أن ابن شنكا وهو ابن أخى شملة كان قد صاهر منكبرس مقطع البصرة فاتفق أن المستنجد بالله قتل منكبرس سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما قتل قصد ابن شنكا البصرة ونهب قراها فأرسل من بغداد إلى كمشتكين صاحب البصرة بمحاربة ابن شنكا فقال أنا عامل لست بصاحب جيش يعنى أنه ضامن لا يقدر على إقامة عسكر فطمع ابن شنكا وأصعد إلى واسط ونهب سوادها فجمع خطلوبرس مقطعها جمعا وخرج إلى قتاله وكاتب ابن شنكا الأمراء الذين مع خطلوبرس فاستمالهم ثم قاتلهم فانهزم عسكره فقتله وأخذ ابن شنكا علم خطلوبرس فنصبه فلما رآه أصحابه ظنوه باقيا فجعلوا يعودون اليه وكل من رجع أخذه ابن شنكا فقتله أو أسره .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة خرج الكرج فى جمع كثير وأغاروا على بلدان حتى بلغوا كنجة فقتلوا وأسروا وسبوا كثيرا ونهبوا مالا يحصى . وفيها توفى الحسن بن العباس بن رستم أبو عبد الله الأصفهانى الرستمى الشيخ الصالح وهو مشهور يروى عن أحمد بن خلف وغيره . وفيها فى ربيع الآخر توفى الشيخ عبد القادر ابن أبى صالح أبو محمد الجيلى المقيم ببغداد ومولده سنة سبعين وأربعمائة وكان من الصلاح على حال وهو حنبلى المذهب ومدرسته ورباطه مشهوران ببغداد . (١)

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر عود أسد الدين شيركوه﴾ قد ذكرنا سنة تسع وخمسين وخمسمائة مسير أسد الدين شيركوه إلى مصر وما كان منه وقفوله إلى الشام فلما وصل إلى الشام أقام على حاله فى خدمة نور الدين إلى الآن وكان بعد

= جمادى الأولى من هذه السنة ؛ عن إحدى وستين سنة ؛ وغسله ابن الجوزي ، وحضر جنازته خلق كثير وجم غفير جدا ؛ وغلقت الأسواق ؛ وتباكى الناس عليه ؛ ودفن بالمدرسة التى أنشأها بباب البصرة رحمه الله . وقد رثاه الشعراء بمراث كثيرة .

(١) وفيها توفى عبد العزيز بن الحسن بن الحباب الأغلبى السعدى القاضى ، أبو المعالى البصرى ، المعروف بابن الجليس ، لأنه كان يجالس صاحب مصر ، وقد ذكره العماد فى الجريدة ، وقال : كان له فضل مشهور وشعر مأثور فمن ذلك قوله :

ومن عجب أن السيوف لديهم * تحيض دماء والسيوف ذكور
وأعجب من ذا أنها فى أكفهم * تأجج نارا والأكف بحور

Marfat.com

Marfat.com

عوده منهالايزال يتحدث بها ويقصدها وكان عنده من الحرص على ذلك كثير فلما كان هذه السنة تجهز وسار فى ربيع الآخر فى جيش قوى وسير معه نور الدين جماعة من الأمراء فبلغت عدتهم ألفى فارس وكان كارها لذلك ولكن لما رأى جد أسد الدين فى المسير لم يمكنه إلا أن يسير معه جمعا خوفا من حادث يتجدد عليهم فيضعف الإسلام فلما اجتمع معه عسكره سار إلى مصر على البر وترك بلاد الفرنج على يمينه فوصل الديار المصرية فقصد اطفيح وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربى ونزل بالجيزة مقابل مصر وتصرف فى البلاد الغربية وحكم عليها وأقام نيفا وخمسين يوما وكان شاور لما بلغه مجىء أسد الدين اليهم قد أرسل إلى الفرنج يستنجدهم فأتوه على الصعب والذلول طمعا فى ملكها وخوفا أن يملكها أسد الدين فلا يبقى لهم فى بلادهم مقام معه ومع نور الدين فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربى وكان أسد الدين وعساكره قد ساروا إلى الصعيد فبلغ مكانا يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءه فأدركوه بها فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة وكان أرسل إلى المصريين والفرنج جواسيس فعادوا اليه وأخبروه بكثرة عددهم وعددهم وجدهم فى طلبه فعزم على قتالهم إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن القتال فى هذا المقام الخطر الذى عطبهم فيه أقرب من سلامتهم لقلة عددهم وبعدهم عن أوطانهم وبلادهم وخطر الطريق فاستشارهم فكلهم أشاروا عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقى والعود إلى الشام وقالوا له إن نحن انهزمنا وهو الذى يغلب على الظن فإلى أين نلتجىء وبمن نحتمى وكل من فى هذه الديار من جندى وعامى وفلاح عدو لنا فقام أمير من مماليك نور الدين يقال له شرف الدين برغش صاحب شقيف وكان شجاعا وقال من يخاف القتال والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون فى بيته مع امرأته والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن مالنا من أقطاع وجامكية وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا ويقولون تأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم وتسلمون مثل مصر إلى الكفار والحق بيده ، فقال أسد الدين هذا الرأى وبه أعمل وقال ابن أخيه صلاح الدين مثله وكثر الموافقون لهم واجتمعت الكلمة على القتال فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبية وجعل الأثقال فى القلب يتكثر بها ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فيهبها أهل البلاد وجعل صلاح الدين فى القلب وقال له ولمن معه إن المصريين والفرنج يجعلون حملتهم على القلب ظنا منهم أنى فيه فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا قدامهم بين أيديهم فإذا عادوا عنكم فارجعوا فى أعقابهم واختار هو من شجعان عسكره جمعا يثق بهم ويعرف صبرهم فى الحرب ووقف بهم فى الميمنة فلما تقاتل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره وحملوا على القلب فقاتلهم من به قتالا يسيرا وانهزموا بين أيديهم غير متفرقين ومعهم الفرنج فحمل حينئذ أسد الدين فيمن معه على من تخلف من الذين حملوا من المسلمين والفرنج الفارس والراجل فهزمهم ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر فلما عاد الفرنج من أثر المسلمين رأوا عسكرهم مهزوما والأرض منهم قفرا فانهزموا أيضا وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل .

(ذكر ملك أسد الدين الإسكندرية وعوده إلى الشام) لما انهزم المصريون والفرنج من أسد الدين بالبابين سار إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما فى القرى على طريقه من الأموال ووصل إلى الإسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلها سلموها إليه فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه وعاد إلى الصعيد فملكه وجبى أمواله وأقام به حتى

صام رمضان ، وأما المصريين والفرنج فإنهم عادوا واجتمعوا على القاهرة وأصلحوا حال عساكرهم وجمعوا وساروا إلى الإسكندرية فحصروا صلاح الدين بها واشتد الحصار وقل الطعام على من بها فصبر أهلها على ذلك وسار أسد الدين من الصعيد إليهم وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان فوصل رسل الفرنج والمصريين يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد فأجاب إلى ذلك وشرط على الفرنج أن لا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام وتسلم المصريون الإسكندرية فى نصف شوال ووصل شيركوه إلى دمشق ثامن عشر ذى القعدة وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إنفاذ عسكر إليهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار هذا كله استقر مع شاور فإن العاضد لم يكن له معه حكم لأنه قد حجر عليه وحجبه عن الأمور كلها وعاد الفرنج إلى بلادهم بالساحل الشامى وتركوا بمصر جماعة من مشاهير فرسانهم وكان الكامل شجاع بن شاور قد أرسل إلى نور الدين مع بعض الأمراء ينهى محبته وولاءه ويسأله الدخول فى طاعته وضمن على نفسه أنه يفعل هذا وبذل مالا يحمله كل سنة فأجابه إلى ذلك وحمل إليه مالا جزيلا فبقى الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر سنة أربع وستين وخمسمائة فكان ما نذكره هناك إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر ملك نور الدين صافيثا وعريمة ﴾ فى هذه السنة جمع نور الدين العساكر فسار إليه أخوه قطب الدين من الموصل وغيره فاجتمعوا على حمص فدخل نور الدين بالعساكر بلاد الفرنج فاجتازوا على حصن الأكراد فاغاروا ونهبوا وقصدوا عرقة فنازلوها وحصروها وحصروا حلبة وأخذوها وخربوها وسارت عساكر المسلمين فى بلادهم يمينا وشمالا تغير وتخرب البلاد وفتحوا العريمة وصافيثا وعادا إلى حمص فصاموا بها رمضان ثم ساروا إلى بانياس وقصدوا حصن هونين وهو للفرنج أيضا من أمنع حصونهم ومعاقلهم فانهزم الفرنج عنه وأحرقوه فوصل نور الدين من الغد فهدم سوره جميعه واراد الدخول إلى بيروت فتجدد فى العسكر خلف أوجب التفرق فعاد قطب الدين إلى الموصل وأعطاه نور الدين مدينة الرقة على الفرات وكانت له فأخذها فى طريقه وعاد إلى الموصل .

﴿ ذكر قصد ابن شنكا البصرة ﴾ فى هذه السنة عاود ابن شنكا فقصد البصرة ونهب بلدها وخربه من الجهة الشرقية وسار إلى مطارا فخرج إليه كمشتكين صاحب البصرة وواقعه فاجتمع بشرف الدين أبى جعفر ابن البلدى الناظر فيها ومعهما مقطعهما ارغش واتصلت الأخبار بأن ابن شنكا واصل إلى واسط فخاف الناس منه خوفا شديدا فلم يصل إليها .

﴿ ذكر قصد شملة العراق ﴾ فى هذه السنة وصل شملة صاحب خوزستان إلى قلعة الماهكى من أعمال بغداد وأرسل إلى الخليفة المستنجد بالله يطلب شيئا من البلاد ويشتط فى الطلب فسير الخليفة أكثر عساكره إليه ليمنعوه وأرسل اليه يوسف الدمشقى يلومه ويحذره عاقبة فعله فاعتذر بأن ايلدكز والسلطان أرسلان نشاه أقطعا الملك الذى عنده وهو ولد ملكشاه البصرة وواسط وعرض التوقيع بذلك وقال أنا أقنع بثلث ذلك فعاد الدمشقى بذلك فأمر الخليفة بلعنه وأنه من الخوارج وجمعت العساكر وسيرت إلى أرغش المسترشدى وكان بالنعمانية هو وشرف الدين أبو جعفر بن البلدى ناظر واسط مقابل شملة ثم إن شملة أرسل

Marfat.com

قلج ابن أخيه فى طائفة من العسكر لقتال طائفة من الأكراد فركب أرغش فى بعض العسكر الذى عنده وسار إلى قلج فحاربه فأسر قلج وبعض أصحابه وسيرهم إلى بغداد وبلغ شملة وطلب الصلح فلم تقع الإجابة إليه ثم إن أرغش سقط عن فرسه بعد الوقعة فمات وبقى شملة مقيما مقابل عسكر الخليفة فلما علم أنه لا قدرة له عليهم رحل وعاد إلى بلاده وكانت مدة سفره أربعة أشهر .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة عصى غازى بن حسان المنبجى على نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام وكان نور الدين قد أقطعه مدينة منبج فامتنع عليه فيها فسير إليه عسكرا فحصروه وأخذوها منه وأقطعها نور الدين أخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عادلا خيرا محسنا إلى الرعية جميل السيرة فبقى فيها إلى أن أخذها منه صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وفيها توفى فخر الدين أرسلان ابن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وأكثر ديار بكر ولما اشتد مرضه أرسل إلى نور الدين محمود صاحب الشام يقول له ببننا صحبة فى جهاد الكفار أريد أن ترعى بها ولدى ثم توفى وملك بعده ولده محمد فقام نور الدين الشامى بنصرته والذب عنه بحيث إن أخاه قطب الدين مودودا صاحب الموصل أراد قصد بلاده فأرسل إليه أخوه نور الدين يمنعه ويقول له إن قصدته أوتعرضت إلى بلاده منعتك قهرا فامتنع من قصده . وفيها توفى أبو المعالى محمد بن الحسين بن حمدون الكاتب ببغداد وكان على ديوان الزمام فقبض عليه فمات محبوسا . وفيها توفى قماج المسترشدى ولد الأمير يزدن وهو من أكابر الأمراء ببغداد (١) .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين فى البلاد ﴾ فى هذه السنة فارق زين الدين على بن بكتكين النائب عن قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل خدمة صاحبه بالموصل وسار إلى إربل وكان هو الحاكم فى الدولة وأكثر البلاد بيده منها إربل وفيه بيته وأولاده وخزائنه ومنها شهرزور وجميع القلاع التى معها وجميع بلد الهكارية وقلاعه منه العمادية وغيرها وبلد الحميدية وتكريت وسنجار وحران وقلعة الموصل هو بها وكان قد أصابه طرش وعمى أيضا فلما عزم على مفارقة الموصل إلى بيته بإربل سلم جميع ما كان بيده من البلاد إلى قطب الدين مودود وبقى معه إربل حسب وكان شجاعا عاقلا حسن السيرة سليم القلب ميمون النقيبة لم ينهزم من حرب قط وكان كريما كثير العطاء للجند وغيرهم مدحه الحيص بيص بقصيدة فلما أراد أن ينشد قال أنا لاأعرف ما يقول ولكنى أعلم أنه يريد شيئا فأمر له بخمسمائة دينار وفرس وخلعة بمجموع ذلك ألف دينار ولم يزل بإربل إلى أن مات بها بهذه السنة ولما فارق زين الدين قلعة الموصل سلمها قطب الدين إلى فخر الدين عبدالمسيح وحكمه فى البلاد فعمر القلعة وكانت خرابا لأن زين الدين كان قليل الالتفات إلى العمارة وسار عبدالمسيح سيرة سديدة وسياسة عظيمة وهو خصى أبيض من مماليك زنكى أتابك عماد الدين .

﴿ ذكر الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة ﴾ فى هذه السنة أرسل آقسنقر الأحمديلى صاحب مراغه إلى

---

(١) وفيها توفى الرشيد الصدفى كان يجلس بين يدى العبادى على الكرسى ، كانت له شيبة وسمت ووقار . وكان يدمن حضور السماعات ، ويرقص ، فاتفق أنه مات وهو يرقص فى بعض السماعات .

Marfat.com

بغداد يسأل أن يخطب للملك الذى هو عنده وهو ولد السلطان محمد شاه ويبذل أنه لايطأ أرض العراق ولا يطلب شيئا غير ذلك وبذل مالا يحمله إذا أجيب إلى ما التمسه فأجيب بتطييب قلبه وبلغ الخبر ايلدكز صاحب البلاد فساءه ذلك وجهز عسكرا كثيفا وجعل المقدم عليهم ابنه البهلوان وسيرهم إلى آقسنقر فوقعت بينهم حرب أجلت عن هزيمة آقسنقر وتحصنه بمراغة ونازله البهلوان وحصره وضيق عليه ثم ترددت الرسل بينهم فاصطلحوا وعاد البهلوان إلى أبيه بهمذان .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة استوزر الخليفة المستنجد بالله شرف الدين أباجعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدى وكان ناظرا بواسط أبان فى ولايتها عن كفاية عظيمة فأحضره الخليفة واستوزره وكان عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء قد تحكم تحكما عظيما فتقدم الخليفة إلى ابن البلدى بكف يده وأيدى أهله وأصحابه ففعل ذلك ووكل بتاج الدين أخى أستاذ الدار وطالبه بحساب نهر الملك لأنه كان يتولاه من أيام المقتفى وكذلك فعل بغيره فحصل بذلك أموالا جمة وخافه أستاذ الدار على نفسه فحمل مالا كثيرا. وفى هذه السنة توفى عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعيد بن أبى المظفر السمعانى المروزى الفقيه الشافعى وكان مكثرا من سماع الحديث سافر فى طلبه وسمع منه مالم يسمعه غيره ورحل إلى ماوراء النهر وخراسان دفعات ودخل إلى بلد الجبل وأصفهان والعراق والموصل والجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد وله التصانيف المشهورة منها ذيل تاريخ بغداد وتاريخ مدينة مرو وكتاب النسب وغير ذلك أحسن فيها ماشاء وقد جمع مشيخته فزادت عدتهم على أربعة آلاف شيخ وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزى فقطعه فمن جملة قوله فيه إنه كان يأخذ الشيخ ببغداد ويعبر به إلى فوق نهر عيسى فيقول حدثنى فلان بما وراء النهر وهذا بارد جدا فإن الرجل سافر إلى ماوراء النهر حقا وسمع فى عامة بلاده من عامة شيوخه فأى حاجة به إلى هذا التدليس البارد وإنما ذنبه عند ابن الجوزى أنه شافعى وله أسوة بغيره فإن ابن الجوزى لم يبق على أحد إلا مكسرى الحنابلة . وفيها توفى قاضى القضاة أبو البركات جعفر بن عبد الواحد الثقفى فى جمادى الآخرة . وفيها توفى يوسف الدمشقى مدرس النظامية بخوزستان وكان قد سار رسولا إلى شملة . وفيها توفى الشيخ أبو النجيب الشهرزورى الصوفى الفقيه وكان من الصالحين المشهورين ودفن ببغداد . (١)

﴿ ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر ملك نور الدين قلعة جعبر ﴾ فى هذه السنة ملك نور الدين محمود بن زنكى قلعة جعبر أخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن على بن مالك العقيلى وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه وقد تقدم ذكر ذلك وهى من أمنع القلاع وأحصنها مطلة على الفرات من الجانب الشرقى وأما سبب ملكها

---

(١) وفيها توفى محمد بن عبد الحميد بن أبى الحسين أبو الفتح الوازى ، المعروف بالعلاء العالم وهو من أهل سمرقند وكان من الفحول فى المناظرة ، وله طريقة فى الخلاف والجدل ، يقال لها التعليقة العالمية . قال ابن الجوزى وقد قدم بغداد وحضر مجلسى ، وقال أبو سعد السمعانى : كان يدمن شرب الخمر . قال وكان يقول ليس فى الدنيا أطيب من كتاب المناظرة وباطية من خمر أشرب منها . قال ابن الجوزى : ثم بلغنى عنه أنه أقلع عن شرب الخمر والمناظرة وأقبل على النسك والخير .

Marfat.com

Marfat.com

فإن صاحبها نزل منها يتصيد فاخذه بنو كلاب وحملوه إلى نورالدين فى رجب سنة ثلاث وستين فاعتقله وأحسن اليه ورغبه فى الاقطاع والمال ليسلم اليه القلعة فلم يفعل فعدل إلى الشدة والعنف وتهدده فلم يفعل فسير اليها نور الدين عسكرا مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن على الزعفرانى فحصرها مدة فلم يظفر منها بشىء فأمدهم بعسكر آخر وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية وهو رضيع نور الدين وأكبر أمرائه فحصرها أيضا فلم ير له فيها مطمعا فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه أن يأخذ من نور الدين العوض ولا يخاطر فى حفظها بنفسه فقبل قوله وسلمها فأخذ عوضا عنها سروج وأعمالها والملاحة التى بين بلد حلب وباب بزاعة وعشرين ألف دينار معجلة وهذا إقطاع عظيم جدا إلا أنه لا حصن فيه وهذا آخر أمر بنى مالك بالقلعة ولكل أمر أمد ولكل ولاية نهاية بلغنى أنه قيل لصاحبها أيما أحب اليك وأحسن مقاما سروج والشام أم القلعة فقال هذه أكثر مالا وأما العز ففارقناه بالقلعة .

﴿ذكر ملك أسد الدين مصر وقتل شاور﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول سار أسد الدين شيركوه بن شاذى إلى ديار مصر فملكها ومعه العساكر النورية وسبب ذلك ماذكرناه من تمكن الفرنج من البلاد المصرية وأنهم جعلوا لهم فى القاهرة شحنة وتسلموا أبوابها وجعلوا لهم فيها جماعة من شجعانهم وأعيان فرسانهم وحكموا على المسلمين حكما جائرا وركبوهم بالأذى العظيم فلما رأوا ذلك وأن البلاد ليس فيها من يردهم أرسلوا إلى ملك الفرنج بالشام وهو مرى ولم يكن للفرنج مذ ظهر بالشام مثله شجاعة ومكرا ودهاء يستدعونه ليملكها وأعلموه خلوها من موانع وهو تنوا أمرها عليه فلم يجبهم فاجتمع اليه فرسان الفرنج وذوو الرأى منهم وأشاروا عليه بقصدها وتملكها فقال لهم الرأى عندى أننا لا نقصدها ولا طمعة لنا فيها وأموالها تساق الينا نتقوى بها على نورالدين وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها الينا ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نورالدين ولئن صار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام فلم يقبلوا قوله وقالوا له إنها لا مانع فيها ولا حامى وإلى أن يتجهز عسكر نورالدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها وحينئذ يتمنى نورالدين منا السلامة فسار معهم على كره وشرعوا يتجهزون ويظهرون أنهم يريدون قصد مدينة حمص فلما سمع نورالدين شرع أيضا يجمع عساكره وأمرهم بالقدوم عليه وجد الفرنج فى السير إلى مصر فقدموها ونازلوا مدينة بلبيس وملكوها قهرا مستهل صفر ونهبوها وقتلوا فيها وأسروا وكان جماعة من أعيان المصريين قد كاتبوا الفرنج ووعدوهم النصرة عداوة منهم لشاور بن الخياط وابن فرجلة فقوى جنان الفرنج وساروا من بلبيس إلى مصر فنزلوا على القاهرة عاشر صفر وحصروها فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم كما فعلوا بأهل بلبيس فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم فى حفظه فلو أن الفرنج أحسنوا السيرة فى بلبيس ملكوا مصر والقاهرة ولكن الله تعالى حسن لهم ذلك أى مافعلوا (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) وأمر شاور بإحراق مدينة مصر تاسع صفر وأمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة وأن ينهب البلد فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة وافتقر أهلها وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم خوفا أن يملكها الفرنج فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوما وأرسل الخليفة العاضد إلى نورالدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الفرنج وأرسل فى الكتب شعور النساء وقال هذه شعور نساتى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج فشرع فى تسيير الجيوش وأما الفرنج

Marfat.com

فإنهم اشتدوا فى حصار القاهرة وضيقوا على أهلها وشاور هو المتولى للأمر والعساكر والقتال فضاق به الأمر وضعف عن ردهم فأخلد إلى إعمال الحيلة فأرسل إلى ملك الفرنج يذكر له مودة ومحبة له قديما وأن هواه معه لخوفه من نورالدين والعاضد وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يتسلم البلاد نورالدين فأجابه إلى ذلك على أن يعطوه ألف ألف دينار مصرية يعجل البعض ويمهل بالبعض فاستقرت القاعدة على ذلك ورأى الفرنج أن البلاد قد امتنعت عليه وربما سلمت إلى نورالدين فأجابوا كارهين وقالوا نأخذ المال فنتقوى به ونعاود البلاد بقوة لا نبالى معها بنورالدين (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) فعجل لهم شاور مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عنه ليجمع لهم المال فرحلوا قريبا وجعل شاور يجمع لهم المال من أهل القاهرة ومصر فلم يتحصل له إلا قدر لا يبلغ خمسة آلاف دينار وسببه أن أهل مصر كانوا قد احترقت دورهم وما فيها وما سلم نهب وهم لا يقدرون على الأقوات فضلا عن الأقساط وأما أهل القاهرة فالأغلب على أهلها الجند وغلمانهم فلهذا تعذرت عليهم الأموال وهم فى خلال هذا يراسلون نورالدين بما الناس فيه وبذلوا له ثلث بلاد مصر وأن يكون أسدالدين مقيما عندهم فى عسكر وإقطاعهم من البلاد المصرية أيضا خارجا عن الثلث الذى لهم وكان نورالدين لما وصله كتب العاضد بحلب أرسل إلى أسدالدين يستدعيه إليه فخرج القاصد فى طلبه فلقيه على باب حلب وقد قدمها من حمص وكانت أقطاعه وكان سبب وصوله أن كتب المصريين وصلته أيضا فى المعنى فسار أيضا إلى نورالدين واجتمع به وعجب نورالدين من حضوره فى الحال وسره ذلك وتفاءل به وأمر بالتجهيز إلى مصر وأعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وغير ذلك وحكمه فى العسكر والخزائن واختار من العسكر ألفى فارس وأخذ المال وجمع ستة آلاف فارس وسار هو ونورالدين إلى باب دمشق فوصلها سلخ صفر ورحل إلى رأس الماء وأعطى نورالدين كل فارس ممن مع أسد الدين عشرين دينارا معونة غير محسوبة من جامكيته وأضاف إلى أسد الدين جماعة أخرى من الأمراء منهم مملوكه عزالدين جرديك وغرس الدين قلج وشرف الدين برغش وعين الدولة الياروقى وقطب الدين ينال بن حسان المنبجى وصلاح الدين يوسف بن أيوب أخى شيركوه على كره منه (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه وسيرد ذلك عند موت شيركوه إن شاء الله تعالى وسار أسد الدين شيركوه من رأس الماء مجدا منتصف ربيع الأول فلما قارب مصر رحل الفرنج إلى بلادهم بخفى حنين خائبين مما أملوا وسمع نور الدين بعودهم فسره ذلك وأمر بضرب البشائر فى البلاد وبث رسله فى الآفاق مبشرين بذلك فإنه كان فتحا جديداً لمصر وحفظا لبلاد الشام وغيرها فأما أسد الدين فإنه وصل إلى القاهرة سابع جمادى الآخرة ودخل إليها واجتمع بالعاضد لدين الله وخلع عليه وعاد إلى خيامه بالخلعة العاضدية وفرح به أهل مصر وأجريت عليه وعلى عسكره الجرايات الكثيرة والإقامات الوافرة ولم يمكن شاور المنع عن ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة مع شيركوه وهوى العاضد معهم فلم يتجاسر على إظهار ما فى نفسه وشرع يماطل أسد الدين فى تقرير ما كان بذل لنور الدين من المال وإقطاع الجند وإفراد ثلث البلاد لنور الدين وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة يدعو إليها أسد الدين والأمراء الذين معه ويقبض عليهم يستخدم من معهم من الجند فيمنع بهم

Marfat.com

البلاد من الفرنج فنهاه ابنه الكامل وقال له والله لئن عزمت على هـذا الأمر لأعرفن شيركوه فقال له أبوه والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا فقال صدقت ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد إسلاميـة خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج فإنه ليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه وحينئذ لومشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارسا واحدا ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه ولما رأى العسكر النورى مطل شاور خافوا شره فاتفق صلاح الدين يوسف بن أيوب وعزالدين جرديك وغيرهم على قتل شاور فنهاهم أسد الدين فسكنوا وهم على ذلك العزم من قتله فاتفق أن شاور قصد عسكر أسد الدين على عادته فلم يجده فى الخيام كان قد مضى يزور قبر الشافعى رضى الله تعالى عنه فلقيه صلاح الدين يوسف وجرديك فى جمع من العسكر وخدموه وأعلموه بأن شيركوه فى زيارة قبر الإمام الشافعى فقال نمضى إليه فساروا جميعا فساير صلاح الدين وجرديك وألقوه إلى الأرض عن فرسه فهرب أصحابه عنه فأخذ أسيرا فلم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين فتوكلوا بحفظه وسيروا أعلموا أسد الدين فحضر ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه وسمع الخليفة العاضد صاحب مصر الخبر فأرسل إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور وتابع الرسل بذلك فقتل وأرسل رأسه إلى العاضد فى السابع عشر من ربيع الآخرة ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من اجتماع الخلق ما خافهم على نفسه فقال لهم أمير المؤمنين يعنى العاضد يأمركم بنهب دار شاور فتفرق الناس عنه إليها فنهبوها وقصد هو قصر العاضد فخلع عليه خلع الوزارة ولقب الملك المنصور أمير الجيوش وسار بالخلع إلى دار الوزارة وهى التى كان فيها شاور فلم ير فيها مايقعد عليه واستقر فى الأمر وغلب عليه ولم يبق له مانع ولا منازع واستعمل على الأعمال من يثق إليه من أصحابه وأقطع البلاد لعساكره وأما الكامل بن شاور فإنه لما قتل أبوه دخل القصر هو وإخوته معتصمين به فكان آخر العهد بهم فكان شيركوه يتأسف عليه كيف عدم لأنه بلغه ما كان منه مع أبيه فى منعه من قتل شيركوه وكان يقول وددت أنه بقى لأحسن إليه جزاء الصنيعة .

﴿ذكر وفاة أسيد الدين شيركوه﴾ لما ثبت قدم أسد الدين وظن أنه لم يبق له منازع أتاه أجله (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة) فتوفى يوم السبت الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام ؛ وأما ابتداء أمره وسبب اتصاله بنور الدين فإنه كان هو وأخوه نجم الدين أيوب ابنا شاذى من بلدوين من أذربيجان وأصلهما من الأكراد الزوادية وهذا القبيل هم أشرف الأكراد فقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد فرأى من نجم الدين عقلا وافرا وحسن سيرة وكان أكبر من شيركوه فجعله مستحفظا لقلعة تكريت وهى له فسار إليها ومعه أخوه شيركوه فلما انهزم أتابك الشهيد زنكى بن آقسنقر بالعراق من قراجا الساقى على ماذكرناه سنة ست وعشرين وخمسمائة وصل منهزما إلى تكريت فخدمه نجم الدين وأقام له السفن فعبر دجلة هناك وتبعه أصحابه فأحسن أيوب صحبتهم وسيرهم ثم إن شيركوه قتل إنسانا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فأخرجهما بهروز من القلعة فسار إلى الشهيد زنكى فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما وأقطعهما أقطاعا حسنا فلما ملك قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظا بها فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق بعلبك وهو بها فضاق عليه الأمر وكان سيف الدين غازى بن زنكى مشغولا عنه بإصلاح البلاد فاضطر إلى تسليمها إليهم فسلمها على أقطاع ذكره فأجيب إلى ذلك وصار من أكبر الأمراء بدمشق

واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بنور الدين محمود بعد قتل زنكى وكان يخدمه فى أيام والده فقربه وقدمه ورأى منه شجاعة يعجز غيره عنها فزاده حتى صار له حمص والرحبة وغيرهما وجعله مقدم عسكره فلما أراد نورالدين ملك دمشق أمره فراسل أخاه أيوب وهو بها وطلب منه المساعدة على فتحها فأجاب إلى ذلك على مايراد منه على أقطاع ذكره له ولأخيه وقرى يتملكانها فأعطاهما ماطلبا وفتح دمشق على ماذكرناه ووفى لهما وصارا أعظم أمراء دولته فلما أراد أن يرسل العساكر إلى مصر لم ير لهذا الأمر العظيم والمقام الخطر غيره فأرسله ففعل ماذكرناه أولا وآخرا والله أعلم.

﴿ذكر ملك صلاح الدين مصر﴾ لما توفى أسدالدين شيركوه كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه أيوب ابن شاذى قد سار معه على كره منه المسيّر * حكى لى عنه بعض أصدقائنا ممن كان قريبا إليه خصيصا به قال لما وردت كتب العاضد على نورالدين يستغيث به من الفرنج ويطلب إرسال العساكر أحضرنى وأعلمنى الحال وقال تمضى إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولى إليه ليحضر وتحثه أنت على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير ففعلت وخرجنا من حلب فما كنا على ميل من حلب حتى لقيناه قادما فى هذا المعنى فأمره نور الدين بالمسير فلما قال له نور الدين ذلك التفت عمى إلىّ فقال لى تجهز يا يوسف فقلت والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها فلقد قاسيت بالإسكندرية وغيرها مالا أنساه أبدا فقال لنورالدين لابد من مسيره معى فتأمر به فأمرنى نورالدين وأنا استقيل وانقضى المجلس وتجهز أسدالدين ولم يبق غير المسير قال لى نورالدين لابد من مسيرك مع عمك فشكوت إليه الضائقة وعدم البرك فأعطانى ماتجهزت به فكأنما أساق إلى الموت فسرت معه وملكها ثم توفى فملكنى الله تعالى مالا كنت أطمع فى بعضه وأما كيفية ولايته فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده منهم عين الدولة الباروقى وقطب الدين ينال وسيف الدين المشطوب الهكارى وشهاب الدين محمود الحارمى وهو خال صلاح الدين وكل واحد من هؤلاء يخطبها وقد جمع أصحابه ليغالب عليها فأرسل العاضد إلى صلاح الدين أحضره عنده وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه وكان الذى حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سنا من يوسف والرأى أن يولى فإنه لايخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم الينا فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أونخرجه فلما خلع عليه لقب الملك الناصر ولم يطعه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولاخدموه وكان الفقيه عيسى الهكارى معه فسعى مع المشطوب حتى أماله اليه وقال له إن هذا الأمر لايصل اليك مع عين الدولة والحارمى وغيرهما ثم قصد الحارمى وقال هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزه وملكه لك وقد استقام له الأمر فلا تكن أول من يسعى فى إخراجه عنه ولايصل اليك فمال إليه أيضا ثم فعل مثل هذا بالباقين وكلهم أطاع غير عين الدولة الباروقى فإنه قال أنا لاأخدم يوسف وعاد إلى نور الدين بالشام ومعه غيره من الأمراء وثبت قدم صلاح الدين ومع هذا فهو نائب عن نور الدين وكان نورالدين يكاتبه بالأمير الاسفهسلار ويكتب علامته على رأس الكتاب تعظيما عن أن يكتب اسمه وكان لايفرده بكتاب بل يكتب الأمير الاسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الأموال فمالوا اليه وأحبوه وضعف أمر العاضد ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله فأرسلهم إليه

Marfat.com

وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك وأخذ إقطاعات الأمراء المصريين فأعطاها أهله والأمراء الذين معه وزادهم فازدادوا له حبا وطاعة قد اعتبرت التواريخ فرأيت كثيرا من التواريخ الإسلامية التى يمكن ضبطها ورأيت كثيرا ممن يبتدى الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله وأقاربه منهم أول الإسلام معاوية بن أبى سفيان أول من ملك من أهل بيته فتنقل الملك من أعقابه إلى بنى مروان من بنى عمه ثم من بعده السفاح أول من ملك من بنى العباس انتقل الملك من أعقابه إلى أخيه المنصور ثم السامانية أول من استبد منهم نصر بن أحمد فانتقل الملك عنه إلى أخيه اسمعيل بن أحمد وأعقابه ثم يعقوب الصفار وهو أول من ملك من أهل بيته فانتقل الملك إلى أخيه عمرو وأعقابه ثم عماد الدولة بن بويه أول من ملك من أهله انتقل الملك عنه إلى أخويه ركن الدولة وعز الدولة ثم خلص فى أعقاب ركن الدولة ومعز الدولة ثم خلص فى أعقاب ركن الدولة ثم الدولة السلجوقية أول من ملك منهم طغرلبك انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود ثم هذا شيركوه كما ذكرناه انتقل الملك إلى أعقاب أخيه أيوب ثم إن صلاح الدين لما أنشأ الدولة وعظمها وصار كأنه أول لها نقل الملك إلى أعقاب أخيه العادل ولم يبق بيد أعقابه غير حلب وهذه أعظم الدول الإسلامية ولولا خوف التطويل لذكرنا أكثر من هذا والذى أظنه السبب فى ذلك أن الذى يكون أول دولة يكثر ويأخذ الملك وقلوب من كان فيه متعلقة به فلهذا يحرمه الله أعقابه ومن يفعل ذلك من أجلهم عقوبة له .

﴿ ذكر وقعة السودان بمصر ﴾ فى هذه السنة فى أوائل ذى القعدة قتل مؤتمن الخلافة وهو خصى كان بقصر العاضد إليه الحكم فيه والتقدم على جميع من يحويه فاتفق هو وجماعة من المصريين على مكاتبة الفرنج واستدعائهم إلى البلاد والتقوى بهم على صلاح الدين ومن معه وسيروا الكتب مع إنسان يثقون إليه وأقاموا ينتظرون جوابه وسار ذلك إلى القاصد إلى البئر البيضاء فلقيه إنسان تركمانى فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه وقال فى نفسه لو كانا مما يلبسه هذا الرجل لكانا خلقين فإنه رث الهيئة وارتاب به وبهما فأتى به صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه وكان مقصود مؤتمن الخلافة أن يتحرك الفرنج إلى الديار المصرية فإذا وصلوا اليها خرج صلاح الدين فى العساكر إلى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتونه من وراء ظهره والفرنج من بين يديه فلا يبقى لهم باقية فلما قرأ الكتاب سأل عن كاتبه فقيل رجل يهودى فأحضر فأمر بضربه وتقريره فابتدأ وأسلم وأخبره الخبر وأخفى صلاح الدين الحال وأن مؤتمن الخلافة استشعر فلازم القصر ولم يخرج منه خوفا وإذا خرج لم يبعد من صلاح الدين وصلاح الدين لا يظهر له شيئا من الطلب لئلا ينكر ذلك فلما طال الأمر خرج من القصر إلى قرية له تعرف بالخرقانيه للتنزه فلما علم به صلاح الدين أرسل اليه جماعة فأخذوه وقتلوه وأتوا برأسه وعزل جميع الخدم الذين يتولون أمر قصر الخلافة واستعمل على الجميع بهاء الدين قراقوش وهو خصى أبيض وكان لا يجرى فى القصر صغير ولا كبير إلا بأمره فغضب السودان لقتل مؤتمن الخلافة للجنسية ولأنه كان يتعصب لهم فحشدوا وجمعوا فزادت عدتهم على خمسين ألفا وقصدوا حرب الأجناد الصلاحية فاجتمع العسكر أيضا وقاتلوهم بين القصرين وكثر القتل فى الفريقين فأرسل صلاح الدين إلى محلاتهم المعروفة بالمنصورة فأحرقها على أموالهم وأولادهم فلما أتاهم الخبر بذلك ولوا منهزمين فركبهم السيف وأخذت عليهم أفواه السكك فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل فأجيبوا إلى ذلك فأخرجوا من مصر إلا الجيزة فعبر

Marfat.com

اليهم شمس الدولة أخو صلاح الدين الأكبر فى طائفة من العسكر فأبادهم بالسيف ولم يبق منهم إلا القليل الشريد وكفى الله تعالى شرهم والله أعلم .

﴿ ذكر ملك شملة فارس وإخراجه عنها ﴾ فى هذه السنة ملك شملة صاحب خوزستان بلاد فارس وأخرج عنها وسبب ذلك أن زنكى بن دكلا صاحبها اساء السيرة مع عسكره فأرسلوا إلى شملة بخوزستان وحسنوا له قصد فارس فجمع عساكره وتجهز وسار إليها فخرج إليه زنكى بن دكلا ووقعت بينهم حرب خامر فيها أصحاب زنكى عليه فانهزم فى شرذمة من عسكره ونجا بنفسه وقصد الأكراد الشوانكار والتجأ إليهم فأجاره صاحبها وأحسن ضيافته ونزل شملة ببلادفارس فملكها فأساء السيرة إلى أهلها ونهب ابن أخيه ابن شنكا البلادفتغيرت بواطن اهلها عليه واجتمع إلى زنكى بعض العسكر الذين خامروا عليه لما رأوا من سوء سيرة شملة واستعاد زنكى بلاده ورجع إلى ملكه وعاد شملة إلى بلاد خوزستان .

﴿ ذكر ملك ايلدكز الرى ﴾ فى هذه السنة ملك ايلدكز مدينة الرى والبلاد التى كانت بيد اينانج وسبب ذلك أن ايلدكز كان قد استقر الأمر بينه وبين إينانج على مال يؤديه إلى ايلدكز فمنعه سنتين فأرسل ايلدكز يطلب المال فاعتذر بكثرة غلمانه وحاشيته فتجهز ايلدكز وقصد الرى فالتقاه اينانج وحاربه حربا عظيما فانهزم إينانج ومضى منهزما فتحصن بقلعة طبرك فحصره ايلدكز فيها وراسل سرا جماعة من مماليكه فأطمعهم فى الإقطاعات والأموال والإحسان العظيم ليقتلوا اينانج فقتلوه وكانوا جماعة كثيرة وسلموا البلد إلى ايلدكز فرتب فيه عمر بن على ياغ وعاد إلى همذان ولم يف للغلمان الذين قتلوا اينانج وسلموا البلد إليه بما وعدهم وقال مثل هؤلاء ينبغى أن لا يستخدموا وأبعدهم عنه فتفرقوا فى البلاد فسار بعضهم وهو الذى تولى قتله إلى خوارزمشاه فصلبه خوارزمشاه نكالا بما فعل بصاحبه .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة رؤى فى دار الخليفة رجل غريب فى الطريق التى يركب فيه وفى يده سكين صغيرة وفى يده الأخرى سكين كبيرة فأخذوه وقرروه فقال أنا من حلب فحبس وعوقب البواب ولم يعلم من أين دخل . وفيها قبض ابن البلدى وزير الخليفة على الحسين بن محمد المعروف بابن السينى وعلى أخيه الأصغر وكانا ابنى عمة عضد الدين أستاذ الدار وكان الأصغر عامل البيمارستان فقطعت يده ورجله قيل كان عنده صنج يقبض بها ويحمل إلى الديوان بالصنج الصحيحة وقيل غير ذلك وحمل إلى البيمارستان فمات به وكان شاعرا فمن شعره وهو محبوس هذه الأبيات :

سلام على أهلى وصحبى وجلاسى * ومن فى فؤادى ذكرهم راسب راسى
أعالج فيكم كل هم ولا أرى * لداء همومى غير رؤيتكم آسى
لقد أبدت الأيام لى كل شدة * تشيب لها الأكباد فضلا عن الراس
فيا ابنة عبد الله صبرا على الذى * لقيت فهذا الحكم من مالك الناس
فلو أبصرت عيناك ذلى بكيت لى * بدمع سوىّ بالمدامع رجاس
أقول لقلبى والهموم تنوشه * وقد حدثته النفس بالضر والياس
فلو همّ طيف من خيالى يزوركم * لمانعه دون المغالق حراسى
وما حذرى إلا على النفس لا على * سواها لأنى حلف فقر وإفلاس

Marfat.com

وفيها توفى المعمر بن عبدالواحد بن رجار أبو أحمد الأصفهانى الحافظ يروى عن أصحاب أبى نعيم وكان موته بالبادية ذاهبا إلى الحج فى ذى القعدة . وفى رجب منها توفى الشيخ أبو محمد الفارقى المتكلم على الناس وكان أحد الزهاد له كرامات كثيرة . وكان يتكلم على الخاطر وكلامه مجموع مشهور . وفيها مات جعيفر الرقاص من ندماء دار الخلافة . وفى شوال منها توفى القاضى أبو الحسن على بن يحيى القرشى الدمشقى . وفى ذى الحجة توفى نجم الدين ابن محمد بن على بن القاسم الشهرزورى قاضى الموصل وولى ابنه حجة الدين عبدالقاهر القضاء(١)

﴿ثم دخلت سنة خمس وستين خمسمائة﴾

﴿ ذكر حصر الفرنج دمياط ﴾ فى هذه السنة فى صفر نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية وحصروها وكان الفرنج بالشام لما ملك أسد الدين شيركوه مصر قد خافوه وأيقنوا بالهلاك وكاتبوا الفرنج الذين بصقلية والأندلس وغيرها يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك الأتراك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس منهم فأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضونهم على الحركة فأمدوهم بالأموال والرجال والسلاح واتعدوا للنزول على دمياط ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهر يملكون به الديار المصرية ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا﴾ فإلى أن دخلوا كان أسد الدين قد مات وملك صلاح الدين فاجتمعوا عليها وحصروها وضيقوا على من بها فأرسل إليها صلاح الدين العساكر فى النيل وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالأموال والسلاح والذخائر وأرسل إلى نور الدين يشكو ماهم فيه من المخافة ويقول إنى إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج وإن سرت إليها خلفنى المصريون فى أهلها بالشر وخرجوا عن طاعتى وساروا فى أثرى والفرنج أمامى فلا يبقى لنا باقية فسير نور الدين العساكر إليه أرسالا يتلو بعضها بعضا ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية فنهبها وأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه قبل لخلو البلاد من مانع فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها رجعوا خائبين لم يظفروا بشىء ووجدوا بلادهم خرابا وأهلها بين قتيل وأسير فكانوا موضع المثل (خرجت النعامة تطلب قرنين رجعت بلا أذنين) وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوما أخرج فيها صلاح الدين

---

(١) وفيها توفى سعد الله بن نصر بن سعيد الدجاجى أبو الحسن الواعظ الحنبلى ، ولد سنة ثمانين وأربعمائة ، وسمع الحديث وتفقه ووعظ ، وكان لطيف الوعظ ، وقد أثنى عليه ابن الجوزى فى ذلك ، وذكر أنه سئل مرة عن أحاديث الصفات فنهى عن التعرض لذلك وأنشد :

أبى الغائب الغضبان يا نفس أن ترضى * وأنت الذى صيرت طاعته فرضا
فلا تهجرى من لا تطيقين هجره * وإن هم بالهجران خديك والأرضا

وذكر ابن الجوزى عنه أنه قال : خفت مرة من الخليفة فهتف بى هاتف فى المنام وقال لى اكتب

ادفع بصبرك حادث الأيام * وترج لطف الواحد العلام
لاتيأسن وإن تضايق كربها * ورماك ريب صروفها بسهام
فله تعالى بين ذلك فرجة * تخفى على الأفهام والأوهام
كم من نجا من بين أطراف القنا * وفريسة سلمت من الضرغام

توفى فى شعبان عن أربع وثمانين سنة ، ودفن عند رباط الزورى ثم نقل إلى مقبرة الإمام أحمد .

Marfat.com

أموالا لاتحصى حكى أنه قال ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إلىّ مرة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها .

﴿ ذكر حصر نور الدين الكرك ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الآخرة سار نورالدين إلى بلد الفرنج فحصر الكرك وهو من أمنع المعاقل على طرف البر وكان سبب ذلك أن صلاح الدين أرسل إلى نور الدين يطلب أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب فجهزه نور الدين وسيره وسير معه عسكرا واجتمع معه من التجار خلق كثير وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبة فخاف نور الدين عليهم من الفرنج فسار فى عساكره إلى الكرك فحصره وضيق عليه ونصب عليه المنجنيقات فأتاه الخبر أن الفرنج قد جمعوا له وساروا إليه وقد جعلوا فى مقدمتهم إليه ابن هنفرى وقريب بن الرقيق وهما فارسا الفرنج فى وقتهما فرحل نور الدين نحو هذين المقدمين ليلقاهما ومن معهما قبل أن يلتحق بهما باقى الفرنج فلما قاربهما رجعا القهقرى واجتمعا بباقى الفرنج وسلك نورالدين وسط بلادهم ينهب ويحرق ماعلى طريقه من القرى إلى أن وصل إلى بلاد الإسلام فنزل على عشترا وأقام ينظر حركة الفرنج ليلقاهم فلم يبرحوا من مكانهم فأقام هو حتى أتاهم خبر الزلزلة الحادثة فرحل وأما نجم الدين أيوب فإنه وصل إلى مصر سالما هو ومن معه وخرج العاضد الخليفة التقاه إكراما له .

﴿ ذكر غزوة لسرية نورية ﴾ كان شهاب الدين الياس بن ايلغازى بن أرتق صاحب قلعة البيرة قد سار فى عسكره وهو فى مائتى فارس إلى نور الدين وهو بعشترا فلما وصل إلى قرية اللبوة وهى من عمل بعلبك ركب متصيدا فصادف ثلثمائة فارس من الفرنج قد ساروا للإغارة على بلاد الإسلام سابع عشر شوال فوقع بعضهم على بعض و اقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان لاسيما المسلمون فإن ألف فارس لايصبرون لحملة ثلثمائة فارس أفرنجية وكثر القتلى بين الطائفتين فانهزم الفرنج وعمهم القتل والأسر فلم يفلت منهم إلا من لايعتد به وسار شهاب الدين برؤس القتلى وبالأسرى إلى نور الدين فركب نور الدين والعسكر فلقوهم فرأى نور الدين فى الرؤس رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الأكراد وكان من الشجاعة بمحل كبير وكان شجا فى حلوق المسلمين .

﴿ ذكر الزلزلة ومافعلته بالشام ﴾ فى هذه السنة أيضا ثانى عشر شوال كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير الناس مثلها وعمت أكثر البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها من البلاد وأشدها كان بالشام فخربت كثيرا من دمشق وبعلبك وحمص وحماه وشيزر وبعرين وحلب وغيرها وتهدمت أسوارها وقلاعها وسقطت الدور على أهلها وهلك منهم مايخرج عن الحد فلما أتاه الخبر سار إلى بعلبك ليعمر ماانهدم من سورها وقلعتها فلما وصلها أتاه خبر باقى البلاد وخراب أسوارها وقلاعها وخلوها من أهلها فجعل ببعلبك من يعمرها ويحفظها وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك ثم إلى حماه ثم إلى بعرين وكان شديد الحذر على سائر البلاد من الفرنج ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ماليس بغيرها من البلاد فإنها كانت قد أتت عليها وبلغ الرعب ممن نجا كل مبلغ وكانوا لايقدرون يأوون مساكنهم خوفا من الزلزلة فأقام بظاهرها وباشر عمارتها بنفسه فلم يزل كذلك حتى أحكم أسوار البلاد وجوامعها وأما بلاد الفرنج فإن الزلازل أيضا عملت بها كذلك فاشتغلوا بعمارة بلادهم خوفا من نورالدين عليها فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده خوفا من الآخر .

﴿ ذكر وفاة قطب الدين مودود بن زنكى وملك ابنه سيف الدين غازى ﴾ فى هذه السنة فى ذى الحجة مات

Marfat.com

قطب الدين مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل وكان مرضه حمى حادة ولما اشتد مرضه وصى بالملك بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكى وعدل عنه إلى ابنه الآخر سيف الدين غازى وإنما صرف الملك عن ابنه الأكبر عماد الدين زنكى بن مودود لأن القيم بأمور دولته والمقدم فيها كان خادما له يقال له فخر الدين عبد المسيح وكان يكره عماد الدين لأنه كان طوع عمه نور الدين لكثرة مقامه عنده ولأنه زوج ابنته وكان نورالدين يبغض عبد المسيح فاتفق فخرالدين وخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى وهى والدة سيف الدين على صرف الملك عن عماد الدين إلى سيف الدين فدخل عماد الدين إلى عمه نور الدين مستنصرا به ليعينه على أخذ الملك لنفسه وتوفى قطب الدين وعمره نحو أربعين سنة وكان ملكه إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفا وكان فخرالدين هو المدبر للأمور والحاكم فى الدولة وكان قطب الدين من أحسن الملوك سيرة وأعفهم عن أموال رعيته محسنا إليهم كثير الإنعام عليهم محبوبا إلى كبيرهم وصغيرهم عطوفا على شريفهم ووضيعهم كريم الأخلاق حسن الصحبة لهم فكأن القائل أراده بقوله

خلق كماء المزن طيب مذاقة * والروضة الغناء طيب نسيم
كالسيف لكن فيه حلم واسع * عمن جنى والسيف غير حليم
كالغيث إلا أن وابل جوده * أبدا وجود الغيث غير مقيم
كالدهر إلا أنه ذو رحمة * والدهر قاسى القلب غير رحيم

وكان سريع الانفعال للخير بطيئا عن الشر جم المناقب قليل المعايب رحمه الله ورضى عنه وعن جميع المسلمين بمنه وكرمه أنه جواد كريم.

﴿ذكر حالة ينبغى للملوك أن يحترزوا من مثلها﴾ حدثنى والدى رحمه الله قال كنت أتولى جزيرة ابن عمر لقطب الدين كما علمتم فلما كان قبل موته بيسير أتانا كتاب من الديوان بالموصل يأمرون بمساحة جميع بساتين العقيمة وهذه العقيمة هى قرية تحاذى الجزيرة منها دجلة ولها بساتين كثيرة بعضها يمسح فيؤخذ منه على كل جريب شىء معلوم وبعضها عليه خراج وبعضها مطلق عن الجميع قال وكان لى فيها ملك كثير فكنت أقول إن المصلحة أن لايغير على الناس شىء وما أقول هذا لأجل ملكى فإننى أنا أمسح ملكى وإنما أريد أن يدوم الدعاء من الناس للدولة فجاءنى كتاب النائب يقول لابد من المساحة قال فأظهرت الأمر وكان بها قوم صالحون لى بهم أنس وبيننا مودة فجاءنى الناس كلهم وأولئك معهم يطلبون المراجعة فأعلمتهم أنى راجعت وما أجبت إلى ذلك فجاءنى منهم رجلان أعرف صلاحهما وطلبا منى المعاودة ومخاطبة ثانية ففعلت فأصرّوا على المماسحة فعرفتهما الحال قال فمضى الاعدة أيام وإذا قد جاءنى الرجلان فلما رأيتهما ظننت أنهما جا آيطلبان المعاودة فعجبت منهما وأخذت أعتذر إليهما فقالا ماجئنا إليك فى هذا وإنما جئنا نعرفك أن حاجتنا قضيت قال فظننت أنهما قد أرسلا إلى الموصل إلى من يشفع لهما فقلت من الذى خاطب فى هذا بالموصل فقالا إن حاجتنا قد قضيت من السماء ولكافة أهل العقيمة قال فظننت أن هذا مما قد حدثا به نفوسهما ثم قاما عنى فلم يمض غير عشرة أيام وإذا قد جاءنا كتاب من الموصل يأمرون بإطلاق المساجين والمحبوسين والمكوس ويأمرون بالصدقة ويقال إن السلطان يعنى قطب الدين مريض يعنى على حالة شديدة ثم بعد يومين أو ثلاثة جاءنا الكتاب بوفاته فعجبت من قولهما واعتقدته كرامة لهما فصار والدى بعد ذلك يكثر إكرامهما واحترامهما ويزورهما.

﴿ ذكر الحرب بين عساكر ابن عبدالمؤمن وابن مردنيش ﴾ كان محمد بن سعيد بن مردنيش ملك شرق الأندلس قداتفق هو والفرنج وامتنع على عبدالمؤمن وابنه بعده فاستفحل أمره لا سيما بعد وفاة عبدالمؤمن فلما كان هذه السنة جهز إليه يوسف بن عبدالمؤمن فجاسوا بلاده وخربوها وأخذوامدينتين من بلاده وأخافوا عساكره وجنوده وأقاموا ببلاده مدة ينتقلون فيها ويجبون أموالها .

﴿ ذكر وفاة صاحب كرمان والخلف بين أولاده ﴾ فى هذه السنة توفى الملك طغرل بن قاورت صاحب كرمان واختلف أولاده بهرام‌شاه وأرسلان شاه وهو الأكبر وجرى بينهما قتال انهزم فيه بهرام‌شاه إلى خراسان فدخل على المؤيد صاحب نيسابور واستنجده فأنجده بعساكر سار بها إلى كرمان فجرى بين الأخوين حرب ظفر فيها بهرام‌شاه وهرب أرسلان شاه فقصد أصفهان مستجيرا بإيلدكز فأنفذ معه عسكرا واستنفذوا البلاد من بهرام‌شاه وسلموها إلى أخيه أرسلان‌شاه فعاد بهرام‌شاه إلى نيسابور مستجيرا بالمؤيد صاحبها فأقام عنده فاتفق أن أخاه أرسلان‌شاه مات فسار إلى كرمان فملكها وأقام بها بغير منازع .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة كثرت الأذية من عبدالملك بن عطاء وتطرق إلى بلاد حلوان ونهب وأفسد وأخذ من الحجاج فأنفذ إليه من بغداد عسكر فنازلوه فى قلاعه وضايقوه ونهبوا أمواله وأموال أهله حتى أذعن بالطاعة ولا يعاود أذى الحجاج ولاغيرهم فعاد عنهم العسكروفيها توفى مجدالدين أبوبكر بن الداية وهو رضيع نورالدين وكان أعظم الأمراء منزلة عنده وله فى أقطاعه حلب وحارم وقلعة جعبر فلما توفى ردنورالدين ما كان له إلى أخيه شمس‌الدين على بن الداية . وفيها فى شعبان توفى أحمد بن صالح بن شافع أبوالفضل الجيلى وهو من مشهورى المحدثين (الجيلى) بالجيم والياء تحتها نقطتان .

﴿ ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر وفاة المستنجد بالله ﴾ فى هذه السنة تاسع ربيع الآخر توفى المستنجد بالله أبوالمظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالله وقد تقدم باقى النسب فى غير موضع وأمه أم ولد اسمها طاوس وقيل نرجس رومية ومولده مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمسمائة وكان أسمر تام القامة طويل اللحية وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه وكان قدخافه أستاذ الدار عضد الدين أبوالفرج بن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز المقتفوى وهو حينئذ أكبر أمير ببغداد فلما اشتد مرض الخليفة اتفقا ووضعا الطبيب على أن يصف له مايؤذيه فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه ثم إنه دخل وأغلق عليه بابه فمات وهكذا سمعت من غير واحد ممن يعلم الحال وقيل إن الخليفة كتب إلى وزيره مع طبيبه ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار وقطب الدين وصلبهما فاجتمع ابن صفية بأستاذ الدار وأعطاه خط الخليفة فقال له تعود وتقول إننى أوصلت الخط إلى الوزير ففعل ذلك وحضر أستاذ الدار قطب‌الدين ويزدن أخاه تنامش وعرض الخط عليهم فاتفقوا على قتل الخليفة فدخل إليه يزدن وقايماز الحميدى فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح إلى أن مات رحمه الله وكان وزيره أباجعفر بن البلدى وبينه وبين أستاذ الدار وبين قطب الدين عداوة مستحكمة لأن المستنجد بالله كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فكانا يظنان أنه هو الذى يسعى بهما فلما مرض المستنجد وأرجف بموته ركب الوزير ومعه الأمراء والأجناد وغيرهما بالعدد فلم يتحقق عنده خبر موته فأرسل

Marfat.com

Marfat.com

إليه عضدالدين يقول إن أمير المؤمنين قدخف مابه من المرض وأقبلت العافيه فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة بالجند فربما أنكر عليه ذلك فعاد إلى داره وتفرق الناس عنه وكان عضدالدين وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير خوفا منه إن دخل الدار أن يأخذهما فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبواب الدار وأظهروا وفاة المستنجد وأحضر هو وقطب الدين ابنه أبامحمد الحسن وبايعاه بالخلافة ولقباه المستضىء بأمر الله وشرطا عليه شروطا أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين أستاذ الدار وقطب الدين أمير العسكر فأجابهم إلى ذلك ولم يتول الخلافة من اسمه الحسنُ إلا الحسن بن على بن أبى طالب والمستضىء بأمر الله واتفقا فى الكنية والكرم فبايعه أهل بيته البيعة الخاصة يوم توفى أبوه وبايعه الناس من الغد فى التاج بيعة عامة وأظهر من العدل أضعاف ماعمل أبوه وفرق أموالا جليلة المقدار وعلم الوزير ابن البلدى فسقط فى يده وقرع سنه ندما على مافرط فى عوده حيث لاينفعه وأتاه من يستدعيه للجلوس للعزاء والبيعة للمستضىء فمضى إلى دار الخلافة فلما دخلها صرف إلى موضع وقتل وقطع قطعا وألقى فى دجلة رحمه الله وأخذا جميع مافى داره فرأيا فيها خطوط المستنجد بالله يأمره فيها بالقبض عليهما وخط الوزير قد راجعه فى ذلك وصرفه عنه فلما وقفا عليها عرفا براءته مما كانا يظنا فيه فندما حيث فرطا فى قتله وكان المستنجد بالله من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية عادلا فيهم كثير الرفق بهم وأطلق كثيرا من المكوس ولم يترك بالعراق منها شيئا وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس (بلغنى) أنه قبض على إنسان كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى إنسانا آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه وردَّ كثيرا من الأموال على أصحابها أيضا وقبض على القاضى ابن المرخم وأخذ منه مالا كثيرا فأعاده على أصحابه أيضا وكان ابن المرخم ظالما جائرا فى أحكامه .

﴿ذكر ملك نورالدين الموصل وإقرار سيف الدين عليها﴾ لما بلغ نورالدين محمودا وفاة أخيه قطب الدين مودود صاحب الموصل وملك ولده سيف الدين غازى الموصل والبلاد التى كانت لأبيه بعد وفاته وقام فخر الدين عبدالمسيح بالأمر معه وتحكمه عليه وكان يبغض فخر الدين لما يبلغه عنه من خشرنة سياسته فقال أنا أولى بتدبير أولاد أخى وملكهم وسار عند انقضاء العزاء جريدة فى قلة من العسكر وعبر الفرات عند قلعة جعبر مستهل المحرم من هذه السنة وقصد الرقة فحصرها وأخذها ثم سار إلى الخابور فملكه جميعه وملك نصيبين وأقام بها فجمع العساكر فأتاه بها نورالدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وكثر جمعه وكان قدترك أكثر عساكره بالشام لحفظ ثغوره فلما اجتمعت العساكر سار إلى سنجار فحصرها ونصب المنجنيقات وملكها وسلمها إلى عماد الدين ابن أخيه قطب الدين وكان قدجاءته كتب الأمراء الذين بالموصل سرا يبذلون له الطاعة ويحثونه على الوصول إليهم فسار إلى الموصل فأتى مدينة بلد وعبر دجلة عندها مخاضة إلى الجانب الشرقى وسار فنزل شرقى الموصل على حصن نينوى ودجلة بينه وبين الموصل ومن العجب أن يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة وكان سيف الدين غازى قد سير عزالدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك شمس الدين أيلدكز صاحب همذان وبلد الجبل وأذربيجان وأصفهان والرى وتلك الأعمال يستنجده على عمه نورالدين فأرسل أيلدكز رسولا إلى نور الدين ينهاه عن التعرض إلى الموصل ويقول له إن هذه البلاد للسلطان فلاتقصدها فلم يلتفت إليه وقال للرسول قل لصاحبك أنا أصلح لأولاد أخى منك فلم تدخل نفسك بيننا وعند الفراغ من

إصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همذان فإنك قدملكت هذه المملكة العظيمة وأهملت الثغور حتى غلب الكرج عليها وقدبليت أنا ولى مثل ربع بلادك بالفرنج وهم أشجع العالم فأخذت معظم بلادهم وأسرت ملوكهم ولايحل لى السكوت عنك فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت وإزالة الظلم عن المسلمين فأقام نورالدين على الموصل ، فعزم من بها من الأمراء ، على مجاهرة فخر الدين عبد المسيح بالعصيان ، وتسليم البلد إلى نور الدين ، فعلم ذلك ، فأرسل إلى نور الدين فى تسليم البلد إليه ؛ على أن يقره بيد سيف الدين ، ويطلب لنفسه الأمان ولماله ، فأجابه إلى ذلك ، وشرط أن فخرالدين يأخذه معه إلى الشام ، ويعطيه عنده إقطاعا يرضيه فتسلم البلد ثالث عشر جمادى الأولى من هذه السنة ودخل القلعة من باب السر لأنه لما بلغه عصيان عبدالمسيح عليه حلف أن لايدخلها إلامن أحصن موضع فيها ولما ملكها أطلق ما بها من المكوس وغيرها من أبواب المظالم وكذلك فعل بنصيبين وسنجار والخابور وهكذا كان جميع بلاده من الشام ومصر ووصله وهو على الموصل يحاصرها خلعة من الخليفة المستضىء بأمر الله فلبسها ولما ملك الموصل خلعها على سيف الدين ابن أخيه وأمره وهو بالموصل بعمارة الجامع النورى وركب هو بنفسه إلى موضعه فرآه وصعد منارة مسجد أبى حاضر فأشرف منها على موضع الجامع فأمر أن يضاف إلى الأرض التى شاهدها مايجاورها من الدور والحوانيت وأن لايؤخذ منها شىء بغير اختيار أصحابه وولى الشيخ محمد الملا عمارته وكان من الصالحين الأخيار فاشترى الأملاك من أصحابها بأوفر الأثمان وعمره فخرج عليه أموال كثيرة وفرغ من عمارته سنة ثمان وستين وخمسمائة وأمانور الدين فإنه عاد إلى الشام واستناب فى قلعة الموصل خصيا كان له اسمه كستكين ولقبه سعد الدين وأمر سيف الدين أن لاينفرد عنه بقليل من الأمور ولا بكثير وحكمه وأقطع مدينة سنجار لعماد الدين ابن أخيه قطب الدين فلما فعل ذلك قال كمال الدين بن الشهرزورى هذا طريق إلى أذى يحصل ببيت أتابك لأن عماد الدين كبير لايرى طاعة سيف الدين وسيف الدين هو الملك لايرى الإغضاء لعماد الدين فيحصل الخلف ويطمع الأعداء فكان كذلك على ما نذكره سنة سبعين وخمسمائة وكان مقام نور الدين بالموصل أربعة وعشرين يوما واستصحب معه فخر الدين عبدالمسيح وغير اسمه فسماه عبدالله وأقطعه إقطاعا كبيرا .

﴿ ذكر غزو صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح أيلة ﴾ وفى هذه السنة سار صلاح الدين أيضا عن مصر إلى بلاد الفرنج فأغار على أعمال عسقلان والرملة وهجم على ربض غزة فنهبه وأتاه ملك الفرنج فى قلة من العسكر مسرعين لرده عن البلاد فقاتلهم وهزمهم وأفلت ملك الفرنج بعد أن أشرف أن يؤخذ أسيرا وعاد إلى مصر وعمل مراكب مفصلة وحملها قطعا على الجمال فى البر وقصد أيلة فجمع قطع المراكب وألقاها فى البحر وحصر أيلة برا وبحرا وفتحها فى العشر الأول من ربيع الآخر واستباح أهلها ومافيها وعاد إلى مصر .

﴿ ذكر ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة ﴾ كان بمصر دار للشحنة تسمى دار المعونة يحبس فيها من يريد حبسه فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسة للشافعية وأزال ما كان فيها من الظلم وبنى دار العدل مدرسة للشافعية أيضا وعزل قضاة المصريين وكانوا شيعة وأقام قاضيا شافعيا فى مصر فاستناب القضاة الشافعية فى جميع البلاد فى العشرين من جمادى الآخرة .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة اشترى تقى الدين عمر ان أخى صلاح الدين منازل العز بمصر وبناها مدرسة للشافعية . وفيها أغار شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين على الأعراب الذين بالصعيد وكانوا قد

Marfat.com

أفسدوا فى البلاد ومدوا أيديهم فكفوا عما كانوا يفعلونه . وفيها مات القاضى ابن الخلال من أعيان الكتاب المصريين وفضلائهم وكان صاحب ديوان الإنشاء بها . وفيها وقع حريق ببغداد فى درب المطبخ وفى خرابة ابن جردة . وفيها توفى الأمير نصر بن المستظهر بالله عم المستنجد بالله وحموه وهو آخر من مات من أولاد المستظهر بالله وكان موته فى ذى القعده ودفن فى التربة بالرصافة . وفيها جعل ظهير الدين أبو بكر نصر بن العطار صاحب المخزن ببغداد ولقب ظهير الدين . وفيها حج بالناس الأمير طاشتكين المستنجدى وكان نعم الأمير رحمه الله . (١)

﴿ ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية ﴾ فى هذه السنة فى ثانى جمعة من المحرم قطعت خطبة العضد لدين الله أبى محمد الإمام عبدالله بن يوسف بن الحافظ لدين الله أبى الميمون عبدالمجيد بن أبى القاسم محمد بن المستنصر بالله أبى تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله أبى على المنصور بن العزيز بالله أبى منصور بن نزار بن المعز لدين الله أبى تميم معد بن المنصور بالله أبى الظاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد بن المهدى بالله أبى محمد عبيدالله وهو أول العلويين من هذا البيت الذين خطب لهم بالخلافة وخوطبوا بأمرة المؤمنين وكان سبب الخطبة العباسية بمصر أن صلاح الدين يوسف ابن أيوب لما ثبت قدمه بمصر وأزال المخالفين له وضعف أمر الخليفة بها العاضد وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه قراقوش وهو خصى كان من أعيان الأمراء الأسدية كلهم يرجعون إليه فكتب إليه نورالدين محمود بن زنكى يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة المستضيئية فامتنع صلاح الدين واعتذر بالخوف من قيام أهل الديار المصرية عليهم لميلهم إلى العلويين وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفا من نورالدين فإنه كان يخافه أن يدخل إلى الديار المصرية يأخذها منه فكان يريد يكون العاضد معه حتى إن قصده نورالدين امتنع به وبأهل مصر عليه فلما اعتذر إلى نورالدين بذلك لم يقبل عذره وألح عليه بقطع خطبته وألزمه إلزاما لافسحة له فى مخالفته وكان على الحقيقة نائب نور الدين واتفق أن العاضد مرض هذا الوقت مرضا شديداً فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فمنهم من أشار به ولم يفكر فى المصريين ومنهم من خافه إلا أنه ما يمكنه إلا امتثال أمر نورالدين وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجمى يعرف بالأمير العالم رأيته أنا بالموصل فلما رأى ماهم فيه من الإحجام وأن أحدا لايتجاسر يخطب للعباسى قال أنا أبتدىء بالخطبة له فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضىء ففعلوا ذلك فلم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك إلى سائر بلاد مصر ففعلوا وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة وقالوا إن عوفى فهو يعلم وإن توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم بقطع الخطبة ، ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة

---

(١) وفيها توفى طاهر بن محمد بن طاهر أبو زرعة المقدسى الأصل ، أبرازى المولد ، الهمذانى الدار ، ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وأسمعه والده الحافظ محمد بن طاهر الكثير ، وما كان يرويه مسند الشافعى ، توفى بهمذان يوم الاربعاء سابع ربيع الآخر ، وقد قارب التسعين .

Marfat.com

Marfat.com

وعلى جميع مافيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذى كان قد رتبه قبل موت العاضد فحمل الجميع إلى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الإحصاء وفيه من الأعلاق النفيسة والأشياء الغريبة ماتخلو الدنيا عن مثله ومن الجواهر التى لم توجد عند غيرهم فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهما أو سبعة عشر مثقالا أنا لا أشك فإننى رأيته ووزنته واللؤلؤ الذى لم يوجد مثله ومنه النصاب الزمرد الذى طوله أربع أصابع فى عرض عقد كبير ووجد فيه طبل كان بالقرب من موضع العاضد وقد احتاطوا بالحفظ فلما رأوه ظنوه عمل لأجل اللعب فيه فسخروا من العاضد فأخذه إنسان فضرب به فضرط فتضاحكوا منه ثم آخر كذلك وكان كل من ضرب به ضرط فألقاه أحدهم فكسره فإذا الطبل لأجل قولنج فندموا على كسره لما قيل لهم ذلك وكان فيه من الكتب النفيسة المعدومة المثل مالا يعد فباع جميع مافيه ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر ووكل بهم من يحفظهم وأخرج جميع من فيه من أمة وعبد فباع البعض وأعتق البعض ووهب البعض وخلا القصر من سكانه ﴿كأن لم يغن بالأمس﴾ فسبحان الحى الدائم الذى لا يزول ملكه ولا تغيره الدهور ولا يقرب النقص حماه ولما اشتد مرض العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلك خديعة فلم يمض إليه فلما توفى علم صدقه فندم على تخلفه عنه وكان يصفه كثيرا بالكرم ولين الجانب وغلبة الخير على طبعه وانقياده وكان فى نسبه تسع خطب لهم بالخلافة وهم الحافظ والمستنصر والظاهر والحاكم والعزيز والمعز والمنصور والقائم والمهدى ومنهم من لم يخطب له بالخلافة أبوه يوسف بن الحافظ وجد أبيه وهو الأمير أبو القاسم محمد بن المستنصر وبقى من خطب له بالخلافة وليس من آبائه المستعلى والآمر والظافر والفائز وجميع من خطب له منهم بالخلافة أربعة عشر خليفة منهم بأفريقية المهدى والقائم والمنصور والمعز إلى أن سار إلى مصر ومنهم بمصر المعز المذكور وهو أول من خرج اليها من أفريقية والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد وجميع مدة ملكهم من حين ظهر المهدى بسجلماسة فى ذى الحجة من سنة تسع وتسعين ومائتين إلى أن توفى العاضد مائتان واثنتان وسبعون سنة وشهر تقريبا وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا واستردت ولم تحل إلا وتمررت ولم تصف إلا وتكدرت بل صفوها لا يخلو من الكدر وكدرها قد يخلو من الصفو نسأل الله تعالى أن يقبل قلوبنا اليه ويرينا الدنيا حقيقة ويزهدنا فيها ويرغبنا فى الآخرة إنه سميع الدعاء قريب من الإجابة ولما وصلت البشارة إلى بغداد بذلك ضربت البشائر بها عدة أيام وزينت بغداد وظهر من الفرح والجذل مالا حد عليه وسيرت الخلع مع عماد الدين صندل وهو من خواص الخدم المقتفوية والمقدمين فى الدولة لنور الدين وصلاح الدين فسار صندل إلى نور الدين وألبسه الخلعة وسير الخلعة التى لصلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية والأعلام السود ثم إن هذا صندلا صار أستاذ دار الخليفة المستضىء بأمر الله ببغداد وكان يدرى الفقه على مذهب الشافعى وسمع الحديث ورواه ويعرف أشياء حسنة وفيه دين وله معروف كثير وهو من محاسن بغداد.

﴿ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا﴾ فى هذه السنة جرت أمور أوجبت أن تأثر نور الدين من صلاح الدين ولم يظهر ذلك وكان سببه أن صلاح الدين يوسف بن أيوب سار عن مصر فى صفر من هذه السنة إلى بلاد الفرنج غازيا ونازل حصن الشوبك وبينه وبين الكرك يوم وحصره وضيق على من به من الفرنج وأدام القتال وطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام فأجابهم إلى ذلك فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصدا بلاد الفرنج أيضا ليدخل إليه من جهة أخرى فقيل لصلاح الدين إن دخل نور الدين

بلاد الفرنج وهم على هذه الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين وإن جاء نور الدين إليك وأنت ههنا فلابد لك من الاجتماع به وحينئذ يكون هو المنحكم فيك بما شاء إن شاء تركك أولا فقد لاتقدر على الامتناع عليه والمصلحة الرجوع إلى مصر فرحل عن الشوبك عائدا إلى مصر ولم يأخذه من الفرنج وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعته العلويين وإنهم عازمون على الوثوب بها فإنه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة وأطال الاعتذار فلم يقبلها نورالدين منه وتغير عليه وعزم على قصد مصر وإخراجه عنها وظهر ذلك فسمع صلاح الدين الخبر فجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمى ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم مابلغه من عزم نور الدين وحركته إليه واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمة واحدة فقام تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين فقال إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقه غيره من أهلهم فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه وشتم تقى الدين وأقعده وقال لصلاح الدين أنا ابوك وهذا خالك شهاب الدين ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى والله لورأيت أنا وهذا خالك نورالدين لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلناه فإذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا وكل من تراه عندك من الأمراء لورأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها فإن أراد سمعنا وأطعنا والرأى أن تكتب كتابا مع نجاب تقول فيه بلغنى أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأى حاجة إلى هذا يرسل المولى نجابا يضع فى رقبتى منديلا ويأخذنى إليك وما ههنا من يمتنع وقام الأمراء وغيرهم وتفرقوا على هذا فلما خلى به أيوب قال له بأى عقل فعلت هذا أما تعلم أن نورالدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه وحينئذ لانقوى عليه وأما الآن إذا بلغه ماجرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها ووالله لوأرادنورالدين قصبة من قصب السكر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أوأقتل ففعل صلاح الدين ما أشار به فترك نورالدين قصده واشتغل بغيره فكان الأمر كما ظنه أيوب فتوفى نورالدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

﴿ذكر غزوة إلى الفرنج بالشام﴾ وفى هذه السنة خرج مركبان من مصر إلى الشام فأرستا بمدينة لاذقية فأخذهما الفرنج وهما مملوأتان من الأمتعة والتجارة وكان بينهم وبين نورالدين هدنة فنكثوا وغدروا فأرسل نورالدين اليهم فى المعنى وإعادة ما أخذوه من أموال التجار فغالطوه واحتجوا بأمور منها أن المركبين كانا قد انكسرا ودخلهما الماء وكان الشرط أن كل مركب ينكسر ويدخله الماء يأخذونه فلم يقبل مغالطتهم وجمع العساكر وبث السرايا فى بلادهم بعضها نحو أنطاكية وبعضها نحو طرابلس وحصر هو حصن عرقة وخرب ربضه وأرسل طائفة من العسكر إلى حصن صافيثا وعريمة فأخذهما عنوة ونهب وخرب وغنم المسلمون غنائم كثيرة وعادوا اليه وهو بعرقة فسار فى العساكر جميعها إلى أن قارب طرابلس ينهب ويخرب ويحرق ويقتل وأما الذين ساروا إلى أنطاكية ففعلوا فى ولايتها مثل مافعل فى ولاية طرابلس فراجعه الفرنج وبذلوا جميع ماأخذوه من المركبين وتجديد الهدنة معهم فأجابهم إلى ذلك وأعادوا ماأخذوا وهم صاغرون وقد خربت بلادهم وغنمت أموالهم.

Marfat.com

﴿ذكر وفاة ابن مردنيش وملك يوسف بن عبد المؤمن بلاده﴾ فى هذه السنة توفى الأمير محمد بن سعد بن مردنيش صاحب البلاد بشرق الأندلس وهى مرسية وبلنسية وغيرهما ووصى أولاده أن يقصدوا بعد موته الأمير أبا يعقوب وكان قد اجتاز إلى الأندلس فى مائة ألف مقاتل قبل موت ابن مردنيش فحين رآهم يوسف فرح بهم وسره قدومهم عليه وتسلم بلادهم وتزوج أختهم وأكرمهم وعظم أمرهم ووصلهم بالأموال الجزيلة وأقاموا معه .

﴿ذكر عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خوارزمشاه﴾ فى هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون يريدون خوارزم فسمع صاحبها خوارزمشاه ايل أرسلان بن أتسز فجمع عساكره وسار إلى أمرية ليقاتلهم ويصدهم فمرض وأقام بها وسير بعض جيشه مع أمير كبير اليهم فلقيهم فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الخوارزميون وأسر مقدمهم ورجع به الخطا إلى ماوراء النهر وعاد خوارزمشاه إلى خوارزم مريضا .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة اتخذ نورالدين بالشأم الحمام الهوادى وهى التى يقال لها المناسيب وهى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها وجعلها فى جميع بلاده وسبب ذلك أنه لما اتسعت بلاده وطالت مملكته وعرضت أكنافها وتباعدت أوائلها عن أواخرها ثم إنها جاورت بلاد الفرنج وكانوا ربما نازلوا حصنا من ثغوره فالى أن يصل الخبر ويصل اليهم قد بلغوا غرضهم منه أمر بالحمام ليصل الخبر اليه فى يومه واجرى الجرايات على المرتبين لحفظها وإقامتها فحصل منها الراحة العظيمة والنفع الكبير للمسلمين . وفيها عزل الخليفة المستضىء بأمر الله وزيره عضد الدين أبا الفرج بن رئيس الرؤساء لأن قطب الدين قايماز ألزمه بعزله فلم يمكنه مخالفته . وفيها مات أبو محمد عبدالله بن أحمد الخشاب اللغوى وكان قيما بالعربية وسمع الحديث وفيها مات البورى الفقيه الشافعى تفقه على محمد بن يحيى وقدم بغداد ووعظ وكان يذم الحنابلة وكثرت أتباعه فأصابه إسهال فمات هو وجماعة من أصحابه فقيل إن الحنابلة أعدوا له حلواء فأكل منها فمات وكل من أكل منها وفيها مات القرطبى أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الأزدى الأندلسى وكان إماما فى القراءة والنحو وغيره من العلوم زاهدا عابدا انتفع به الناس فى كثير من البلاد ولاسيما أهل الموصل فإنه أقام بها . وفيها توفى رحمه الله . (١)

﴿ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة﴾

﴿ذكر وفاة خوارزمشاه ايل أرسلان وملك ولده سلطانشاه وبعده ولده الآخر تكش وقتل المؤيد وملك ابنه﴾ فى هذه السنة توفى خوارزمشاه ايل أرسلان بن أتسز بن محمد بن أنوشتكين قد عاد من قتال الخطا مريضا فتوفى وملك بعده سلطانشاه محمود ودبرت والدته المملكة والعساكر وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقيما فى الجند قد أقطعه أبوه إياها فلما بلغه موت أبيه وتولية أخيه الصغير أنف من ذلك وقصد ملك الخطا واستمده على أخيه وأطمعه فى الأموال وذخائر خوارزم فسير معه جيشا كثيفا مقدمهم قرما فساروا حتى قاربوا خوارزم فخرج سلطانشاه وأمه إلى المؤيد وأهدى له هدية جليلة المقدار ووعده أموال خوارزم

(١) وفيها توفى ناصر بن الجونى الصوفى كان يمشى فى طلب الحديث حافيا ؛ توفى ببغداد . قال أبو شامة : وفيها توفى نصر الله بن عبدالله أبو الفتوح الإسكندرى المعروف بابن قلاقس الشاعر بعيذاب ، توفى عن خمس وأربعين سنة .

Marfat.com

وذخائرها فاغتر بقوله وجمع جيوشه وسار معه حتى بلغ سوبرلى بليدة على عشرين فرسخا من خوارزم وكان تكش قد عسكر بالقرب منها فتقدم إليهم فلما تراءى الجمعان انهزم عسكر المؤيد وكسر المؤيد وأخذ أسيرا وجيء به إلى خوارزمشاه تكش فأمر بقتله فقتل بين يديه صبرا وهرب سلطانشاه وأخذ إلى دهستان فقصده خوارزمشاه تكش فافتح المدينة عنوة فهرب سلطانشاه وأخذت أمه فقتلها تكش وعاد إلى خوارزم ولما عاد المنهزمون إلى نيسابور ملكوا صفانشاه أبا بكر بن المؤيد واتصل به سلطانشاه ثم سار من هناك إلى غياث الدين ملك الغورية فأكرمه وعظمه وأحسن ضيافته وأما علاء الدين تكش فإنه لما ثبت قدمه بخوارزم اتصلت به رسل الخطا بالاقتراحات والتحكم كعادتهم فأخذته حمية الملك والدين وقتل أحد أقارب الملك وكان قد ورد إليه ومعه جماعة أرسله ملكهم فى مطالبة خوارزمشاه بالمال فأمر خوارزمشاه أعيان خوارزم فقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا فلم يسلم منهم أحد ونبذوا إلى ملك الخطا عهده وبلغ ذلك سلطانشاه فسار إلى ملك الخطا واغتنم الفرصة بهذه الحال واستنجده على أخيه علاء الدين تكش وزعم له أن أهل خوارزم معه يريدونه ويختارون ملكه عليهم ولو رأوه لسلموا البلد إليه فسير معه جيشا كثيرا من الخطا مع قرما أيضا فوصلوا إلى خوارزم فحصروها فأمر خوارزمشاه علاء الدين بإجراء ماء جيحون عليهم فكادوا يغرقون فرحلوا ولم يبلغوا منها غرضا ولحقهم الندم حيث لم ينفعهم ولاموا سلطانشاه وعنفوه فقال لقرما لو أرسلت معى جيشا إلى مرو فاستخلصتها من يد دينار الغزى وكان قد استولى عليها من حين كانت فتنة الغز إلى الآن فسير معه جيشا فنزل على سرخس على غرة من أهلها وهجم على الغز فقتل مقتلة عظيمة فلم يتركوا بها أحدا منهم وألقى دينار ملكهم نفسه فى خندق القلعة فأخرج منه ودخل القلعة وتحصن بها وسار سلطانشاه إلى مرو فملكها وعاد الخطا إلى ماوراء النهر وجعل سلطانشاه دأبه قتال الغز والقتل فيهم والنهب منهم فلما عجز دينار عن مقاومته أرسل إلى نيسابور إلى طغان شاه بن المؤيد يقول له ليرسل إليه من يسلم إليه قلعة سرخس فأرسل إليه جيشا مع أمير اسمه قراقوش فسلم إليه دينار القلعة ولحق بطغانشاه فقصد سلطان شاه سرخس وحصر قلعتها وبلغ ذلك طغان شاه فجمع جيوشه وقصد سرخس فلما التقى هو وسلطان شاه قرطغان شاه إلى نيسابور وذلك سنة ست وسبعين وخمسمائة فأخلى قراقوش قلعة سرخس ولحق بصاحبه وملكها سلطانشاه ثم أخذ طوس والزام وضيق الأمر على طغان شاه بعلو همته وقلة قراره وحرصه على طلب الملك وكان طغان شاه يحب الدعة ومعاقرة الخمر فلم يزل الحال كذلك إلى أن مات طغان شاه سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة فى المحرم وملك ابنه سنجر شاه فغلب عليه مملوك جده المؤيد اسمه منكلى تكين فتفرق الأمراء أنفة من تحكمه واتصل أكثرهم بسلطان شاه وسار الملك دينار إلى كرمان ومعه الغز فملكها وأما منكلى تكين فإنه أساء السيرة فى الرعية وأخذ أموالهم وقتل بعض الأمراء فسمع خوارزمشاه بذلك فسار إليه فحصره بنيسابور فى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة فحصرها شهرين فلم يظفر بها وعاد إلى خوارزم ثم رجع سنة ثلاث وثمانين إلى نيسابور فحصرها وطلبوا منه الأمان فأمنهم فسلموا البلد إليه فقتل منكلى تكين وأخذ سنجر شاه وأكرمه وأنزله بخوارزم وأحسن إليه فأرسل إلى نيسابور يستميل أهلها ليعود إليهم فسمع به خوارزمشاه فأخذ سنجر شاه فسمله وكان قد تزوج بأمه وزوجه بابنته فماتت فزوجه بأخته وبقى عنده إلى أن مات سنة خمس وتسعين وخمسمائة ذكر هذا أبو الحسن بن أبى القاسم البيهقى فى كتاب مسارب التجارب وقد ذكر غيره

Marfat.com

من العلماء بالتواريخ هذه الحوادث مخالفة لهذا فى بعض الأمور مع تقديم وتأخير ونحن نوردها فقال إن تكش خوارزمشاه بن أرسلان أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم وكان قد ملكها بعد موت أبيه فجاء إلى مرو فملكها وأزاح الغز عنها فخرجوا أياما ثم عادوا عليه فأخرجوه منها وانتهبوا خزانته وقتلوا أكثر رجاله فعبر إلى الخطا فاستنجدهم وضمن لهم مالا وجاء بجيش عظيم فأخرج الغز عن مرو وسرخس ونسا وأبيورد وملكها ورد الخطا فلما أبعدوا كاتب غياث الدين الغورى يطلب منه أن ينزل عن هراة وبوشنج وبادغيس وما والاها ويتوعده إن هو لم ينزل عن ذلك فأجابه غياث الدين يطلب منه إقامة الخطبة له بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان فلما سمع الرسالة سار عن مرو وشن الغارات على بادغيس وبيوار وما والاها وحصر بوسنج ونهب الرساتيق وصادر الرعايا فلما سمع غياث الدين ذلك لم يرض لنفسه أن يسير هو. بل سير ملك سجستان وكاتب ابن أخته بهاء الدين سام صاحب باميان باللحاق به لأن أخاه شهاب الدين كان بالهند والزمان شتاء فجاء بهاء الدين ابن أخت غياث الدين وملك سجستان ومن معهما من العساكر ووافق ذلك وصول سلطان شاه إلى هراة فلما علم بوصولهم عاد إلى مرو من غير أن يقاتلها وأحرق كل مامر به من البلاد ونهب وأقام بمرو إلى الربيع وأعاد مراسلة غياث الدين فى المعنى فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يعرفه الحال فنادى فى عساكره الرحيل لساعته وعاد إلى خراسان واجتمع هو وأخوه غياث الدين وملك سجستان وغيرهم من العساكر وقصدوا سلطان شاه فلما علم ذلك جمع عساكره واجتمع عليه من الغز والمفسدين وقطاع الطريق ومر عنده طمع خلق كثير فنزل غياث الدين ومن معه فى الطالقان ونزل سلطان شاه بمرو الروذ وتقدم عسكر الغورية إليه وتواعدوا المصاف وبقوا كذلك شهرين والرسل تتردد بين غياث الدين وبين سلطان شاه وشهاب الدين يطلب من أخيه غياث الدين الإذن فى الحرب فلا يتركه وتقرر الأمر على أن يسلم غياث الدين إلى سلطان شاه بوشنج وبادغيس وقلاع بيوار وكره ذلك شهاب الدين وبهاء الدين صاحب باميان إلا أنهما لم يخالفا غياث الدين وفى آخر الأمر حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين وحضر الأمراء ليكتب العهد فقال الرسول إن سلطان شاه يطلب أن يحضر شهاب الدين وبهاء الدين هذا الأمر فأرسل غياث الدين إليهما فأعادا الجواب إننا مماليكك ومهما تفعله لا يمكننا مخالفتك فبينما الناس مجتمعون فى تحرير الأمر وإذ قد أقبل مجد الدين العلوى المروى إليه وكان خصيصا بغياث الدين بحيث يفعل فى ملكه مايختار فلا يخالف فجاء العلوى ويده فى يد ألب غازى ابن أخت غياث الدين وقد كتبوا الكتاب وقد أحضر غياث الدين أخاه شهاب الدين وبهاء الدين سام ملك الباميان فجاء العلوى كأنه يسارر غياث الدين ووقف فى وسط الحلقة وقال للرسول يافلان تقول لسلطان شاه قد تم لك الصلح من جانب السلطان الأعظم ومن شهاب الدين وبهاء الدين ويقول لك العلوى خصمك أنا ومولانا ألب غازى بيننا وبينك السيف ثم صرخ صرخة ومزق ثيابه وحثى التراب على رأسه وأقبل على غياث الدين وقال له هذا واحد طرده أخوه وأخرجه فريدا وحيدا لم نترك له ماملكناه بأسيافنا من الغز والأتراك والسنجرية فإذا سمع هذا عنا يجىء أخوه يطلب منازعته والهند وجميع مابيدك فحرك غياث الدين رأسه ولم يفه بكلمة فقال ملك سجستان للعلوى أترك الأمر ينصلح فلما لم يتكلم غياث الدين يمنع العلوى قال شهاب الدين لجاووشيته نادوا فى العسكر بالتجهز للحرب والتقدم إلى مرو الروذ وقام وأنشد العلوى بيتا من الشعر عجميا معناه إن الموت تحت السيوف أسهل من الرضا بالدنية فرجع الرسول

Marfat.com

إلى سلطان شاه وأعلمه الحال فرتب عساكره للمصاف والتقى الفريقان واقتتلوا فصبروا للحرب فانهزم سلطان شاه وعسكره وأخذ أكثر أصحابه أسارى فأطلقهم غياث الدين ودخل سلطان شاه مرو فى عشرين فارسا ولحق به من أصحابه نحو ألف وخمسمائة فارس ولما سمع خوارزمشاه تكش بما جرى لأخيه سار من خوارزم فى ألفى فارس وأرسل إلى جيحون ثلاثة آلاف فارس يقطعون الطريق على أخيه إن أراد الخطا وجد فى السير ليقبض على أخيه قبل أن يقوى فأتت الأخبار سلطان شاه بذلك فلم يقدر على عبور جيحون إلى الخطا فسار إلى غياث الدين وكتب إليه يعلمه قصده إليه فكتب إلى هراة وغيرها من بلاده بإكرامه واحترامه وحمل الإقامات إليه ففعل به ذلك وقدم على غياث الدين والتقاه وأكرمه وأنزله معه فى داره وأنزل أصحاب سلطان شاه كل إنسان منهم عند من هو فى طبقته فأنزل الوزير عند وزيره والعارض عند عارضه وكذلك غيره وأقام عنده حتى انسلخ الشتاء فأرسل علاء الدين بن خوارزمشاه إلى غياث الدين يذكره ما صنعه أخوه سلطان شاه من تخريب بلاده وجمع العساكر عليه ويشير بالقبض عليه ورده إليه فأنزل الرسول وإذ قد أتى كتاب نائبه بهراة يخبره أن كتاب خوارزمشاه جاءه يتهدده فأجابه أنه لا يظهر لخوارزمشاه أنه أعلمه بالحال وأحضر الرسول وقال له يقول لعلاء الدين أما قولك إن السلطان شاه أخرب البلاد وأراد ملكها فلعمرى أنه ملك وابن ملك وله همة عالية وإذا أراد الملك فمثله أراده وللأمور مدبر يوصلها إلى مستحقها وقد التجأ إلىّ وينبغى أن تنزاح عن بلاده وتعطيه نصيبه مما خلف أبوه ومن الأملاك التى خلف والأموال وأحلف لكما يمينا على المودة والمصافاة وتخطب لى بخوارزم وتزوج أخى شهاب الدين بأختك فلما سمع خوارزمشاه الرسالة امتعض لذلك وكتب إلى غياث الدين كتابا يتهدده بقصد بلاد فجهز غياث الدين العساكر مع ابن أخت ألب غازى وصاحب سجستان وسيرهما مع سلطان شاه إلى خوارزم وكتب إلى المؤيد صاحب نيسابور يستنجده وكان قد صار بينهم مصاهرة زوج المؤيد ابنه طغان شاه بابنة غياث الدين فجمع المؤيد عساكره وأقام بظاهر نيسابور على طريق خوارزم وكان خوارزمشاه قد سار عن خوارزم إلى لقاء عسكر الغورية الذين مع أخيه سلطان شاه وقد نزلوا بطرف الرمل فبينما هو فى مسيره أتاه خبر المؤيد أنه قد جمع عساكره وأنه على قصد خوارزم إذا فارقها فوقع فى قلبه وعاد إلى خوارزم فأخذ أمواله وذخائره وعبر جيحون إلى الخطا وأخلى خوارزم فوقع بها خبط عظيم فحضر جماعة من أعيانها عند ألب غازى وسألوه إرسال أمير معهم يضبط البلد فخاف أن تكون مكيدة فلم يفعل فبينما هم على ذلك توفى سلطان شاه سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فكتب ألب غازى إلى غياث الدين يعلمه الخبر فكتب إليه يأمره بالعود إليه فرجع ومعه أصحاب سلطان شاه فأمر غياث الدين بأن يستخدموا وأقطع الأجناد الإقطاعات الجيدة وكلهم قابل إحسانه بكفران وسنذكر باقى أخبارهم ولما سمع خوارزمشاه تكش بوفاة أخيه عاد إلى خوارزم وأرسل إلى سرخس ومرو شحناء فجهز إليهم أمير هراة عمر المرغنى جيشا فأخرجوهم وقال حتى نستأذن السلطان غياث الدين وأرسل خوارزمشاه رسولا إلى غياث الدين يطلب الصلح والمصاهرة وسير مع رسوله جماعة من فقهاء خراسان والعلويين ومعهم وجيه الدين محمود بن محمود وهو الذى جعل غياث الدين شافعيا وكان له عنده منزلة كبيرة فوعظوه وخوفوه الله تعالى وأعلموه أن خوارزمشاه براسلهم يتهددهم بأنه يجئ بالأتراك الخطا ويستبيح حريمهم وأموالهم وقالوا له إما أن تحضر أنت بنفسك وتجعل مرو دار ملكك

Marfat.com

Marfat.com

حتى ينقطع طمع الكافرين ويأمن أهلها ، وإما أن تصالح خوارزمشاه فأجاب إلى الصلح وترك معارضة البلاد فلما سمع من بخراسان من الغز بذلك طمعوا فى البلاد فعاودوا النهب والإحراق والتخريب فسمع خوارزمشاه فجمع عساكره وحضر بخراسان ودخل مرو وسرخس ونسا وأبيورد وغيرها وأصلح البلاد وتطرق إلى طوس وهى للمؤيد صاحب نيسابور فجمع المؤيد جيوشه وسار إليه فلما سمع خوارزمشاه بمسيره إليه عاد إلى خوارزم فلما وصل إلى الرمل أقام بطرفه فلما سمع المؤيد بعودة خوارزمشاه طمع فيه وتبعه فلما سمع خوارزمشاه بذلك أرسل إلى المناهل التى فى البرية فألقى فيها الجيف والتراب بحيث لا يمكن الانتفاع بها فلما توسط المؤيد البرية طلب الماء فلم يجده . فجاء خوارزمشاه إليه وهو على تلك الحال ، ومعه الماء على الجمال ، فأحاط به فأما عسكره فاستسلموا بأسرهم وجىء بالمؤيد أسيرا إلى خوارزمشاه فأمر بضرب عنقه فقال له يامخنث هذا فعال الناس فلم يلتفت إليه وقتله وحمل رأسه إلى خوارزم فلما قتل ملك نيسابور ملك ماكان له ابنه طغان شاه فلما كان من قابل جمع خوارزمشاه عساكره وسار إلى نيسابور فحاصرها وقاتلها فتبعه طغان شاه وأخذه وزوجه أخته وحمله معه إلى خوارزم وملك نيسابور وماكان لطغان شاه وقوى أمره هذا الذى ذكره فى هذه الرواية مخالف لما تقدم ولو أمكن الجمع بين الروايتين لفعلت فإن أحدهما قدقدم ما أخره الآخر فلهذا أوردنا جميع ماقالاه ولبعد البلاد عنا لم نعلم أى القولين أصح لنذكره ونترك الآخر وإنما أوردتهما فى موضع واحد لأن أيام سلطان شاه لم تطل له ولا عقابه حتى تتفرق على السنين فلهذا أوردتهما متتابعة .

﴿ذكر غارة الفرنج على بلد حوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول اجتمعت الفرنج وساروا إلى بلد حوران من أعمال دمشق للغارة عليه وبلغ الخبر إلى نورالدين وكان قد برز ونزل هو وعسكره بالكسوة فسار إليهم مجدا وقدم بجموعه عليهم فلما علموا بقربه منهم دخلوا إلى السواد وهو من أعمال دمشق أيضا ولحقهم المسلمون فتحفظوا من ساقتهم ونالوا منهم وسار نور الدين فنزل فى عشترا وسير منها سرية إلى أعمال طبرية فشنوا الغارات عليها فنهبوا وسبوا وأحرقوا وخربوا فسمع الفرنج ذلك فرحلوا إليهم ليمنعوا عن بلدهم فلما وصلوا كان قد فرغ المسلمون من نهبهم وغنيمتهم وعادوا وعبروا النهر وأدركهم الفرنج فوقف مقابلهم شجعان المسلمين وحماتهم فقاتلوهم فاشتد القتال وصبر الفريقان الفرنج يرومون أن يلحقوا الغنيمة فيردّوها والمسلمون يريدون أن يمنعوهم عنها لينجو بها من قد سار معها فلما طال القتال بينهم وأبعدت الغنيمة وسلمت مع المسلمين عاد الفرنج ولم يقدروا أن يستردوا منها شيئا .

﴿ذكر مسير شمس الدولة إلى بلد النوبة﴾ فى هذه السنة فى جمادى الاولى سار شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر من مصر إلى بلد النوبة فوصل إلى أول بلادهم ليتغلب عليه ويملكه وكان سبب ذلك أن صلاح الدين وأهله كانوا يعلمون أن نورالدين كان على عزم الدخول إلى مصر فاستقر الرأى بينهم أنهم يتملكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى إذا وصل اليهم نورالدين لقوه وصدوه عن البلاد فإن قووا على منعه أقاموا بمصر وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التى قد افتتحوها فجهز شمس الدولة وسار إلى أسوان ومنها إلى بلد النوبة فنازل قلعة اسمها ابزيم فحصرها وقاتله أهلها فلم يكن لهم بقتال العسكر الإسلامى قوة لأنهم ليس لهم جنة تقيهم السهام وغيرها من آلة الحرب فملكوها وأقام بها ولم ير للبلاد دخلا يرغب فيه وتحتمل المشقة لأجله وقوتهم الذرة فلما رأى عدم الحاصل وقشف العيش مع مباشرة الحروب

Marfat.com

ومعاناة التعب والمشقة تركها وعاد إلى مصر بما غنم وكان عامة غنيمتهم العبيد والجوارى .

﴿ذكر ظفر مليح بن ليون بالروم﴾ فى هذه السنة فى جمادى الأولى هزم مليح بن ليون الأرمنى صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب عسكر الروم من القسطنطينية وسبب ذلك أن نور الدين كان قد استخدم مليحا المذكور وأقطعه إقطاعا سنيا وكان ملازم الخدمة لنور الدين ومشاهدا لحروبه مع الفرنج ومباشراً لها وكان هذا من جيد الرأى وصائبه فإن نور الدين لما قيل له فى معنى استخدامه وإعطائه الاقطاع فى بلاد الشام قال أستعين به على قتال أهل ملته وأريح طائفة من عسكرى تكون بإزائه لمنعه من الغارة على البلاد المجاورة له وكان مليح أيضا يتقوى بنور الدين على من يجاوره من الأرمن والروم وكانت مدينة أذنة والمصيصة وطرسوس بيد ملك الروم صاحب القسطنطينية فأخذها مليح منهم لأنها تجاور بلاده فسير اليه ملك الروم جيشا كثيفا وجعل عليهم بعض أعيان البطارقة من أقاربه فلقيهم مليح ومعه طائفة من عسكر نور الدين فقاتلهم وصدقهم القتال وصابرهم فانهزمت الروم وكثر فيهم القتل والأسر وقويت شوكة مليح وانقطع أمل الروم من تلك البلاد وأرسل مليح إلى نور الدين كثيرا من غنائمهم ومن الأسرى ثلاثين رجلا من مشهوريهم وأعيانهم فسير نور الدين بعض ذلك إلى الخليفة المستضىء بأمر الله وكتب يعتد بهذا الفتح لأن بعض جنده فعلوه .

﴿ذكر وفاة ايلدكز﴾ فى هذه السنة توفى أتابك شمس الدين ايلدكز بهمذان وملك بعده ابنه محمد البهلوان ولم يختلف عليه أحد وكان ايلدكز هذا مملوكا للكمال السميرمى وزير السلطان محمود فلما قتل الكمال كما ذكرناه سار ايلدكز إلى السلطان محمود فلما ولى السلطان مسعود السلطنة ولاه أرانية فمضى اليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها وأصفهان والرى وما والاهما من البلاد وخطب السلطنة لابن امرأته أرسلا نشاه بن طغرل وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الأتباع واتسع ملكه من باب تفليس إلى مكران ولم يكن للسلطان أرسلان معه حكم إنما كان له جراية تصل اليه وبلغ من تحكمه عليه أنه شرب ليلة فوهب ما فى خزانته وكان كثيرا فلما سمع ايلدكز بذلك استعاده جميعا وقال له متى أخرجت المال فى غير وجهه أخذته أيضا من غير وجهه وظلمت الرعية وكان ايلدكز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكاويهم وينصف بعضهم من بعض .

﴿ذكر وصول الترك إلى إفريقية وملكهم طرابلس وغيرها﴾ فى هذه السنة سار طائفة من الترك من ديار مصر مع قراقوش مملوك تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى جبال نفوسة واجتمع به مسعود بن زمام المعروف بمسعود البلاط وهو من أعيان الأمراء هناك وكان خارجا عن طاعة عبد المؤمن فاتفقا وكثر جمعهما ونزلا على طرابلس الغرب فحاصراها وضيقا على أهلها ثم فتحت فاستولى عليها قراقوش وأسكن أهله قصرها وملك كثيرا من بلاد أفريقية ماخلا المهدية وسفاقس وقفصة وتونس وما والاها من القرى والمواضع وصار مع قراقوش عسكر كثير فحكم على تلك البلاد بمساعدة العرب بما جبلت عليه من التخريب والنهب والإفساد بقطع الأشجار والثمار وغير ذلك فجمع بها أموالا عظيمة وجعلها بمدينة قابس وقويت نفسه وحدثته بالاستيلاء على جميع أفريقية لبعد أبى يعقوب بن عبد المؤمن صاحبها عنها وكان ماسنذكره إن شاء الله .

﴿ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس﴾ فى هذه السنة جمع أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

عساكره وسار من إشبيلية إلى الغزو فقصد بلاد الفرنج ونزل على مدينة رندى وهى بالقرب من طليطلة شرقا منها وحصرها واجتمعت الفرنج على ابن الفنش ملك طليطلة فى جمع كثير فلم يقدموا على لقاء المسلمين فاتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين وعدمت الأقوات عندهم وهم فى جمع كثير فاضطروا إلى مفارقة بلاد الفرنج فعادوا إلى أشبيلية وأقام يعقوب بها إلى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وهو على ذلك يجهز العساكر ويسيرها إلى غزو بلاد الفرنج فى كل وقت فكان له فيها عدة وقائع وغزوات ظهر فيها للعرب من الشجاعة مالا يوصف وصار الفارس من العرب يبرز بين الصفين ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج فلا يبرز إليه أحد ثم عاد أبو يعقوب إلى مراكش .

﴿ذكر نهب نهاوند﴾ فى هذه السنة نهب عسكر شملة نهاوند وسبب ذلك أن شملة كان أيام ايلدكز لا يزال يطلب منه نهاوند لكونها مجاورة بلاده ويبذل فيها الأموال فلا يجيبه إلى ذلك فلما مات أيلدكز وملك بعده ولده محمد البهلوان وسار إلى أذربيجان لإصلاحها نفذ شملة بن أخيه بن شنكا لأخذ نهاوند وبلغ أهل البلد الخبر فتحصنوا وحصرهم وقاتلهم وقاتلوه وأخشوا فى سبه فلما علم أنه لا طاقة له بهم رجع إلى تستر وهى قريبة منها وأرسل أهل نهاوند إلى البهلوان يطلبون منه نجدة فتأخرت عنهم فلما اطمأنوا خرج ابن شنكا من تستر فى خمسمائة فارس وسار يوما وليلة فقطع أربعين فرسخا حتى وصل إلى نهاوند وضرب البوق وأظهر أنه من أصحاب البهلوان لأنه جاءهم من ناحيته ففتح أهل البلد له الأبواب فدخله فلما توسط قبض على القاضى والرؤساء وصلبوهم ونهب البلد وقطع أنف الوالى وأطلقه وتوجه نحو ماسيزان قاصدا للعراق .

﴿ذكر قصد نور الدين بلاد قلج أرسلان﴾ فى هذه السنة سار نور الدين محمود بن زنكى إلى مملكة عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان وهى ملطية وسيواس واقصرا وغيرها ملازما على حربه وأخذ بلاده منه وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس قصده قلج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريدا فريدا فصار إلى نور الدين مستجيرا به وملتجئا إليه فأكرم نزله وأحسن إليه وحمل له مايليق أن يحمل إلى الملوك ووعده النصرة والسعى فى رد مملكه إليه ثم إنه أرسل إلى قلج أرسلان يتشفع فى إعادة مملكه فلم يجبه إلى ذلك فسار نور الدين إليه فابتدأ بكبسون وبهنسى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها وكان ملكه لمرعش أوائل ذى القعدة والباقى بعدها فلما ملكها سير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها وكان قلج أرسلان لما سار نور الدين إلى بلاده قد سار من طرقها التى تلى الشام إلى وسطها وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب فأتاه عن الفرنج ما أزعجه فأجابه إلى الصلح وشرط عليه أن ينجده بعساكر إلى الغزاة وقال له أنت مجاور الروم ولا تغزوهم وبيدك قطعة كبيرة من من بلاد الإسلام ولا بد من الغزاة معى فأجابه إلى ذلك وتبقى سيواس على حالها بيد نواب نور الدين وهى لذى النون فبقى العسكر فى خدمة ذى النون إلى أن مات نور الدين فلما مات رحل عسكره عنها وعاد قلج أرسلان وملكها وهى بيد أولاده إلى الآن سنة نيف وعشرين وستمائة ولما كان نور الدين فى هذه السفرة جاءه رسول كمال الدين أبى الفضل محمد بن عبد الله الشهرزورى من بغداد ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة وديار بل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر .

﴿ذكر رحيل صلاح الدين من مصر إلى الكرك وعوده عنها﴾ فى هذه السنة فى شوال رحل صلاح الدين

Marfat.com

يوسف بن أيوب من مصر بعساكرها جميعها إلى بلاد الفرنج يريد حصر الكرك والاجتماع مع نورالدين عليه والاتفاق على قصد بلاد الفرنج من جهتين كل واحد منهما فى جهة بعسكره وسبب ذلك أن نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عوده من بلاد الفرنج فى العام الماضى وأراد نورالدين قصد مصر وأخذها منه أرسل يعتذر ويعد من نفسه بالحركة على مايقرره نورالدين فاستقرت القاعدة بينهما أن صلاح الدين يخرج من مصر ويسير نوالدين من دمشق فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر إليه وتواعدا على يوم معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين عن مصر لأن طريقه أبعد وأشق ووصل إلى الكرك وحصره وأما نورالدين فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر فرق الأموال وحصل الأزواد وما يحتاج إليه وسار إلى الكرك فوصل إلى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العود إلى مصر وترك الاجتماع بنورالدين لأنهم علموا أنه إن اجتمعا كان عزله على نورالدين سهلا فلما عاد أرسل الفقيه عيسى إلى نورالدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قداستخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر وأنه مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم وأرسل معه من التحف والهدايا مايجل عن الوصف فجاء الرسول إلى نورالدين وأعلمه ذلك فعظم عليه وعلم المراد من العود إلا أنه لم يظهر للرسول تأثرا بل قال له حفظ مصر أهم عندنا من غيرها وسار صلاح الدين إلى مصر فوجد أباه قد قضى نحبه ولحق بربه وكلمة تقول لقائلها دعنى وكان سبب موت نجم الدين أنه ركب يوما فرسا بمصر فنفر به الفرس نفرة كبيرة شديدة فسقط عنه فحمل إلى قصره وقيذا وبقى أياما ومات فى السابع والعشرين من ذى الحجة وكان خيرا عاقلا حسن السيرة كريما جوادا كثير الإحسان إلى الفقراء والصوفية والمجالسة لهم وقد تقدم من ذكره وابتداء أمره وأمر أخيه شيركوه مالا حاجة إلى إعادته.

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة زادت دجلة زيادة كثيرة أشرفت بها بغداد على الغرق فى شعبان وسدوا أبواب الدرزوب ووصل الماء إلى قبة أحمد بن حنبل ووصل إلى النظامية ورباط شيخ الشيوخ واشتغل الناس بالعمل فى القورج ثم القورج ثم نقص وكفى الناس شره وفيها وقعت النار ببغداد من درب بهروز إلى باب جامع القصر ومن الجانب الآخر من حجر النحاس إلى دار أم الخليفة. وفيها أغار بنو حزن من خفاجة على سواد العراق وسبب ذلك أن الحماية كانت لهم لسواد العراق فلما تمكن يزدن من البلاد وتسلم الحلة أخذها منهم وجعلها لبنى كعب من خفاجة وأغار بنو حزن على السواد فسار يزدن فى عسكر ومعه الغضبان الخفاجى وهو من بنى كعب لقتال بنى حزن فبينما هم سائرون ليلا رمى بعض الجند الغضبان بسهم فقتله لفساده وكان فى السواد فلما قتل عاد العسكر إلى بغداد وأعيدت خفارة السواد إلى بنى حزن. وفيها خرج ترجم الإيوانى فى جمع من التركمان فى حياة أيلدكز وتطرق أعمال همذان ونهب الدينور واستباح الحريم وسمع أيلدكز الخبر وهو بنقجوان فسار مجدا فيمن خف من عسكره فقصده فهرب ترجم إلى أن قارب بغداد وتبعه أيلدكز فظن الخليفة أنها حيلة ليصل إلى بغداد فجأة فشرع فى جمع العساكر وعمل السور فأرسل إلى أيلدكز الخلع والألقاب الكبيرة فاعتذر أنه لم يقصد إلا كف الأمير يزدن وهو من أكابر أمراء بغداد وكان يتشيع فوقع بسببه فتنة بين السنية والشيعة بواسط لأن الشيعة جلسوا له للعزاء وأظهر السنية الشماتة به فآل الأمر إلى القتال فقتل بينهم جماعة ولما مات أقطع أخوه تنامش ما كان لأخيه وهى مدينة واسط ولقب علاء الدين. وفيها أرسل نورالدين

Marfat.com

محمود بن زنكى رسولا إلى الخليفة وكان الرسول القاضى كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبدالله الشهرزورى قاضى بلاده جميعها مع الوقوف والديوان وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان وماهو عليه من جهاد الكفار وفتح بلادهم ويطلب تقليدا بما بيده من البلاد مصر والشام والجزيرة والموصل وبما فى طاعته كديار بكر ومايجاور ذلك كخلاط وبلاد قلج أرسلان وأن يعطى من الأقطاع بسواد العراق ما كان لأبيه زنكى وهو صريفين ودرب هرون والتمس أرضا على شاطىء دجلة يبنيها مدرسة للشافعية ويوقف عليها صريفين ودرب هرون فأكرم كمال الدين إكراما لم يكرمه رسول قبله وأجيب إلى ما التمسه فمات نورالدين قبل الشروع فى بناء المدرسة رحمه الله

﴿ ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر ملك شمس الدولة زبيد وغيرها من بلاد اليمن﴾ قد ذكرنا قبل أن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر وأهله كانوا يخافون من نور الدين محمود أن يدخل إلى مصر فيأخذها منهم فشرعوا فى تحصيل مملكة يقصدونها ويتملكونها تكون عدة لهم إن أخرجهم نورالدين من مصر ساروا إليها وأقاموا بها فسيروا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب وهو أخو صلاح الدين الأكبر إلى بلد النوبة فكان ماذكرناه فلما عاد إلى مصر استأذنوا نورالدين فى أن يسير إلى اليمن لقصد عبدالنبى صاحب زبيد لأجل قطع الخطبة العباسية فأذن فى ذلك وكان بمصر شاعر اسمه عمارة من أهل اليمن فكان يحسن لشمس الدولة قصد اليمن ويصف البلاد له ويعظم ذلك فى عينه فزاده قوله رغبة فيها فشرع يتجهز ويعد الأزواد والروايا والسلاح وغيره من الآلات وجند الأجناد فجمع وحشد وسار عن مصر مستهل رجب فوصل إلى مكة أعزها الله تعالى ومنها إلى زبيد وفيها صاحبها المتغلب عليها المعروف بعبد النبى فلما قرب منها رآه أهلها فاستقل من معه فقال لهم عبدالنبى كأنكم بهؤلاء وقدحمى عليهم الحر فهلكوا إلا أكلة رام فخرج إليهم بعسكره فقاتلهم شمس الدولة ومن معه فلم يثبت أهل زبيد وانهزموا ووصل المصريون إلى سور زبيد فلم يجدوا عليه من يمنعهم فنصبوا السلالم وصعدوا السور فملكوا البلد عنوة ونهبوه وأكثروا النهب وأخذوا عبدالنبى أسيرا وزوجته المدعوة بالحرة وكانت امرأة صالحة كثيرة الصدقة لاسيما إذا حجت فإن فقراء الحاج كانوا يجدون عندها صدقة دارة وخيرا كثيرا ومعروفا عظيما فلما أسر شمس الدولة عبدالنبى وسلم شمس الدولة عبدالنبى إلى بعض أمرائه يقال له سيف الدولة مبارك بن كامل من بنى منقذ أصحاب شيزر وأمره أن يستخرج منه الأموال فأعطاه منها شيئا كثيرا . ثم إنه دلهم على قبر كان قدصنعه لوالده وبنى عليه بنية عظيمة وله هناك دفائن كثيرة فأعلمهم بها فاستخرجت الأموال من هناك وكانت جليلة المقدار وأما الحرة فإنها أيضا كانت تدلهم على ودائع لها فأخذمنها مالا كثيرا ، ولما ملكوا زبيدواستقر الأمر لهم بها ودانت أهلها وأقيمت فيها الخطبة العباسية أصلحوا حالها وساروا إلى عدن وهى على البحر ولها مرسى عظيم وهى فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغيرذلك وهى من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها وصاحبها إنسان اسمه ياسر فلوأقام بها ولم يخرج عنها لعادوا خائبين وإنما حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج إليهم ومباشرة قتالهم فسار إليهم وقاتلهم فانهزم ياسر ومن معه وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة فدخلوا البلد قبل أهله فملكوه وأخذوا صاحبها ياسرا أسيرا وأرادوا نهب البلد فمنعهم شمس الدولة

Marfat.com

وقال ماجئنا لنخرب البلاد وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها فلم ينهب أحد منها شيئا فبقيت على حالها وثبت ملكه واستقر أمره ولما مضى إلى عدن كان معه عبدالنبي صاحب زبيد مأسورا فلما دخل إلى عدن قال سبحان الله كنت قد علمت أنى أدخل إلى عدن فى موكب كبير فأنا أنتظر ذلك وأسر به ولم أكن أعلم أنى أدخلها على هذا الحال ولما فرغ شمس الدولة من أمر عدن عاد إلى زبيد وحصر مافى الجبل من الحصون فملك قلعة تعز وهى من أحصن القلاع وبها تكون خزائن صاحب زبيد وملك أيضا قلعة التعكر والجند وغيرها من المعاقل والحصون واستناب بعدن عزالدين عثمان بن الزنجبيلى وبزبيد سيف الدولة مبارك بن منقذ وجعل فى كل قلعة نائبا من أصحابه وألقى ملكهم باليمن جرانه ودام وأحسن شمس الدولة إلى أهل البلاد واستصفى طاعتهم بالعدل والإحسان وعادت زبيد إلى أحسن أحوالها من العمارة والأمن بعد خرابها

﴿ذكر قتل جماعة من المصريين أردوا الوثوب بصلاح الدين﴾ فى هذه السنة ثانى رمضان صلب صلاح الدين يوسف ابن أيوب جماعة ممن أراد الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين وسبب ذلك أن جماعة من الشيعة منهم عمارة بن أبى الحسن اليمنى الشاعر وعبدالصمد الكاتب والقاضى العويرس وداعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالتهم السودان وحاشية القصر وافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شىء بذلوه لهم من المال والبلاد فإذا قصدوا البلاد فإن خرج صلاح الدين بنفسه إليهم ثاروا هم فى القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ثاروا به وأخذوه أخذا باليد لعدم الناصر له وقال لهم عمارة وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفا أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده وأرسلوا إلى الفرنج وصقلية والساحل فى ذلك وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق إلا رحيل الفرنج وكان من لطف الله بالمسلمين أن الجماعة المصريين أدخلوا معهم زين الدين على بن نجا الواعظ والقاضى المعروف بابن نجية ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعى والقضاة ، إلا أن بنى رزيك قالوا يكون الوزير منا وبنى شاور والقاضى قالوا يكون الوزير منا فلما علم ابن نجا الحال حضر عنده صلاح الدين وأعلمه حقيقة الأمر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على مايريدون يفعلونه وتعريفه مايتجدد أولا بأول ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ماعزموا عليه ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل بهدية ورسالة وهو فى الظاهر إليه والباطن إلى أولئك الجماعة وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصارى وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على المقدمين فى هذه الحادثة منهم عمارة وعبدالصمد الكاتب والعويرس وغيرهم وصلبهم وقيل فى كشف أمرهم أن عبدالصمد المذكور كان إذا لقى القاضى الفاضل الصلاحى يخدمه ويتقرب إليه بجهده وطاقته فلقيه يوما فلم يلتفت إليه فقال القاضى الفاضل ماهذا إلا لسبب وخاف أن يكون قد صار له باطن مع صلاح الدين فأحضر على بن نجا الواعظ وأخبره الحال وقال أريد تكشف لى الأمر فسعى فى كشفه فلم ير له من جانب صلاح الدين شيأ فعدل إلى الجانب الآخر فكشف الحال وحضر عند القاضى الفاضل وأعلمه فقال تحضر الساعة عند صلاح الدين وتنهى الحال إليه فحضر عند صلاح الدين وهو فى الجامع فذكر له الحال فقام وأخذ الجماعة وقررهم فأقروا فأمر بصلبهم وكان عمارة بينه وبين الفاضل عداوة من أيام العاضد

Marfat.com

وقبلها فلما أراد صلبه قام القاضى الفاضل وخاطب صلاح الدين فى إطلاقه وظن عمارة أنه يحرض على هلاكه فقال لصلاح الدين يامولانا لاتسمع منه فى حقى فغضب الفاضل وخرج وقال صلاح الدين لعمارة إنه كان يشفع فيك فندم ثم أخرج عمارة ليصلب فطلب أن يمر به على مجلس الفاضل فاجتازوا به عليه فأغلق بابه ولم يجتمع به فقال عمارة :

عبد الرحيم قـــد احتجب * إن الخلاص هو العجب

ثم صلب هو والجماعة ونودى فى أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصى الصعيد واحتيط على من بالقصر من سلالة العاضد وغيره من أهله وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا أعلمهم أنه علم بحالهم ؛ وأما الفرنج فإن فرنج صقلية قصدوا الإسكندرية على ماذكره إن شاء الله تعالى لأنهم لم يتصل بهم ظهور الخبر عند صلاح الدين وأما فرنج الساحل الشامى فإنهم لم يتحركوا لعلمهم بحقيقة الحال وكان عمارة شاعرا مفلقا فمن شعره :

لو أن قلبى يوم كاظمة معى * لملكته وكظمت فيض الأدمع
قلب كفاك من الصبابة أنه * لبى نداء الظاعنين ومادعى
ما القلب أول غادر فألومه * هى شيمة الأيام مذ خلقت معى
ومن الظنون الفاســدات توهمى * بعـــد اليقين بقاءه فى أضلعى

وله أيضا :

لى فى هوى الرشا العذرى أعذار * لم يبق لى مذ أقر الدمع إنكار
لى فى القدود وفى لثم الخدود وفى * ضم النهود لبـــانات وأوطار
هذا اختيارى فوافق إن رضيت به * أو لا فدعنى وما أهوى وأختار

وله ديوان شعر مشهور فى غاية الحسن والرقة والملاحة .

﴿ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله﴾ فى هذه السنة توفى نورالدين محمود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر يوم الأربعاء حادى عشر شوال بعلة الخوانيق ودفن بقلعة دمشق ونقل منها إلى المدرسة التى أنشأها بدمشق عندسوق الخواصين . ومن عجيب الإتفاق أنه ركب ثانى شوال وإلى جانبه بعض الأمراء الأخيار فقال له الأمير سبحان من يعلم هل نجتمع هنا فى العام المقبل أم لا فقال نورالدين لاتقل هكذا بل سبحان من يعلم هل نجتمع بعد شهر أم لا . فمات نورالدين رحمه الله بعد أحدعشر يوما ومات الأمير قبل الحول فأخذ كل منهما بما قاله وكان قدشرع يتجهز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين يوسف ابن أيوب فإنه رأى منه فتوراً فى غزو الفرنج من ناحيته وكان يعلم أنه إنما يمنع صلاح الدين من الغز والخوف منه ومن الاجتماع به . فإنه يؤثر كون الفرنج فى الطريق ليمتنع بهم على نور الدين فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر للغزاة وكان عزمه أن يتركها مع ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل والشام ويسير هو بعساكره إلى مصر فبينما هو يتجهز لذلك أتاه أمر الله الذى لامردّ له * حكى لى طبيب كان يخدم نور الدين وهو من حذاق الأطباء : قال استدعانى نورالدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من

الأطباء فدخلنا إليه وهو فى بيت صغير بقلعة دمشق وقد تمكنت الخوانيق منه وقارب الهلاك فلا يكاديسمع صوته وكان يخلو فيه للتعبد فابتدأ به المرض فلم ينتقل عنه فلما دخلنا ورأينا مابه قلت له كان ينبغى أن لاتؤخر إحضارنا إلى أن يشتد بك المرض الآن وينبغى أن تعجل الانتقال من هذا المرضع إلى مكان فسيح مضىء فله أثر فى هذا المرض وشرعنا فى علاجه وأشرنا بالقصد فقال ابن ستين لايقتصد وامتنع منه فعالجناه بغيره فلم ينجع فيه الدواء وعظم الداء ومات رحمه الله ورضى عنه وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية إلا فى حنكه وكان واسع الجبهة حسن الصورة حلو العينين وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب وملكها وكان مولده سنة إحدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريا منه للعدل وقد أتينا على كثير من ذلك فى كتاب الباهر من أخبار دولتهم ولنذكر ههنا نبذة لعل يقف عليها من له حكم فيقتدى به فمن ذلك زهده وعبادته وعلمه فإنه كان لايأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا فى الذى يخصه من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاث دكاكين فى حمص كانت له يحصل له منها فى السنة نحو العشرين دينار فلما استقلتها قال ليس لى إلا هذا وجميع مابيدى أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لأجلك وكان يصلى كثيرا بالليل وله أوراد حسنة وكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه * ما أحسن المحراب فى المحراب

وكان عارفا بالفقه على مذهب أبى حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث وأسمعه طلبا للأجر وأما عدله فإنه لم يترك فى بلاده على سعتها مكسا ولا عشرا بل أطلقها جميعا فى مصر والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم فمضى معه إليه وأرسل إلى القاضى كمال الدين ابن الشهرزورى يقول قدجئت محاكما فاسلك معى ماتسلك مع الخصوم وظهر الحق له فوهبه الخصم الذى أحضره وقال أردت أن أترك له مايدعيه إنما خفت أن يكون الباعث لى على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة فحضرت ثم وهبته ما يدعيه وبنى دار العدل فى بلاده وكان يجلس هو والقاضى فيها ينصف المظلوم ولو أنه يهودى من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده وأما شجاعته فإليها النهاية وكان فى الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بهما فقال له القطب النساوى الفقيه بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام فإن أصبت فى فى معركة لايبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف فقال نورالدين ومن محمود حتى يقال له هذا من قبلى من حفظ البلاد والإسلام ذلك الله الذى لا إله إلا هو وأما مافعله من المصالح فإنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها وبنى المدارس الكثيرة للحنفية والشافعية وبنى الجامع النورى بالموصل وبنى البيمارستانات والخانات فى الطرق وبنى الخانكاهات فى جميع البلاد وأوقف على الجميع الوقوف الكثيرة سمعت أن حاصل وقفه كل شهر تسعة آلاف دينار صورى وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه وينبسط معهم ولايرد لهم قولا ويكاتبهم بخط يده وكان وقورا

Marfat.com

مهيبا مع تواضعه ، وبالجملة فحسناته كثيرة ومناقبه غزيرة لايحتملها هذا الكتاب (١)

﴿ذكر ملك ولده الملك الصالح﴾ لما توفى نورالدين قام ابنه الملك الصالح إسماعيل بالملك بعده وكان عمره إحدى عشرة سنة وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له بها وضرب السكة باسمه وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن عبدالملك المعروف بابن المقدم وصار مدبر دولته فقال له كمال الدين صاحب مصر هو من أصحاب نورالدين والمصلحة أن نشاوره فى الذى نفعله ولانخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا لأنه قد انفرد اليوم بملك مصر فلم يوافق هذا القول أغراضهم وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه فلما سار سيف الدين غازى صاحب الموصل وملك البلاد الجزرية على ماذكره فأرسل صلاح الدين أيضا إلى الملك الصالح يعتبه حيث لم يعلمه قصد سيف الدين بلاده وأخذها ليحضر فى خدمته

---

(١) وكان فقيها على مذهب أبى حنيفة ، وسمع الحديث وأسمعه ، وكان كثير الصلاة بالليل من وقت السحر إلى أن يركب :

جمع الشجاعة والخشوع لديه * ماأحسن الشجعان فى المحراب

وكذلك كانت زوجته عصمت الدين خاتون بنت الأتابك معين الدين تكثر القيام فى الليل فنامت ذات ليلة عن وردها فأصبحت وهى غضبى ، فسألها نورالدين عن أمرها فذكرت نومها الذى فوت عليها وردها فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طبلخانة فى القلعة وقت السحر لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل ، وأعطى الضارب على الطبلخانة أجرا جزيلا ، وجراية كثيرة .

فألبس الله هاتيك العظام وإن * بلين تحت الثرى عفوا وغفرانا
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت * مثوى قبورهم روحا وريحانا

ومات فى يوم الاربعاء الحادى عشر من شوال من هذه السنة قبض إلى رحمة الله تعالى عن ثمان وخمسين سنة ، مكث منها فى الملك ثمان وعشرين سنة رحمه الله ، وصلى عليه بجامع القلعة بدمشق ، ثم حول إلى تربته التى أنشأها للحنفية بين باب الخواصين ، وباب الخيميين على الدرب ؛ وقبره بها يزار ، ويحلق بشباكه ؛ ويطيب ويتبرك به كل مار ، فيقول قبر نورالدين الشهيد (لماحصل له فى حلقه من الخوانيق) وكذا كان يقال لابنه الشهيد ويلقب بالقسيم ، وكانت الفرنج تقول له (القسيم بن القسيم) وقد رثاه الشعراء بمراث كثيرة قد أوردها أبو شامة ، وما أحسن ماقاله العماد :

عجبت من الموت لما أتى * إلى ملك فى سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستد * يرفى الأرض وسط فلك

وقال حسان الشاعر الملقب بالعرقلة فى مدرسة نورالدين لما دفن بها رحمه الله تعالى :

ومدرسة ستدرس كل شىء * وتبقى فى حمى علم ونسك
تضوع ذكرها شرقا وغربا * بنور الدين محمود بن زنكى
يقول وقوله حق وصدق * بغير كناية وبغير شك
دمشق فى المدائن بيت ملكى * وهذى فى المدارس بنت ملكى

Marfat.com

ويكشف سيف الدين وكتب إلى كمال الدين والأمراء يقول لو أن نورالدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته إلىّ لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولايانه ولولم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دونى وسوف أصل إلى خدمته وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده وتمسك ابن المقدم وجماعة الأمراء بالملك الصالح ولم يرسلوه إلى حلب خوفا أن يغلب عليهم شمس الدين على بن الداية فإنه كان أكبر الأمراء النورية وإنما منعه من الاتصال به والقيام بخدمته مرض لحقه وكان هو وإخوته بحلب وأمرها إليهم وعساكرها معهم فى حياة نورالدين وبعده ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب لتمتنع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمه قطب الدين فلم يمكنه الأمراء الذين معه من الانتقال إلى حلب لما ذكرنا.

﴿ذكر ملك سيف الدين البلاد الجزرية﴾ كان نورالدين قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشرقية الموصل وديار الجزيرة وغيرها يستدعى العساكر منها لحجة الغزاة والمراد غيرها وقد تقدم ذكره فسار سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل فى عساكره وعلى مقدمته الخادم سعدالدين كمشتكين الذى كان قد جعله نورالدين بقلعة الموصل مع سيف الدين فلما كانوا ببعض الطريق وصلت الأخبار بوفاة نورالدين فأما سعدالدين فإنه كان فى المقدمة فهرب جريدة وأما سيف الدين فأخذ كل ما كان له من برك وغيره وعاد إلى نصيبين فملكها وأرسل الشحن إلى الخابور فاستولوا عليه وأقطعه وسار هو إلى حران فحصرها عدة أيام وبها مملوك لنورالدين يقال له قايمازالحرانى فامتنع بها وأطاع بعد ذلك على أن تكون حران له ونزل إلى خدمة سيف الدين فقبض عليه وأخذ حران منه وسار إلى الرها فحصرها وملكها وكان بها خادم خصى أسود لنورالدين فسلمها وطلب عوضها قلعة الزعفران من أعمال جزيرة ابن عمر فأعطيها ثم أخذت منه ثم صار إلى أن يستعطى مايقوم به وبقوته وسير سيف الدين إلى الرقة فملكها وكذلك سروج واستكمل جميع بلاد الجزيرة سوى قلعة جعبر فإنها كانت منيعة وسوى رأس عين فإنها كانت لقطب الدين صاحب ماردين وهو ابن خال سيف الدين فلم يتعرض إليها وكان شمس الدين على بن الداية وهو أكبر الأمراء النورية بحلب مع عساكرها فلم يقدر على العبور إلى سيف الدين ليمنعه من أخذ البلاد لفالج كان به فأرسل إلى دمشق يطلب الملك الصالح فلم يرسل إليه لما ذكرناه ولما ملك سيف الدين الجزيرة قال له فخرالدين عبدالمسيح وكان قد وصل إليه من سيواس بعد موت نورالدين وهو الذى أقر له الملك بعد أبيه فظن أن سيف الدين يرعى له ذلك فلم يجن ثمرة ماغرس وكان عنده كبعض الأمراء قال له الرأى أن تعبر إلى الشام فليس به مانع فقال له أكبر أمرائه وهو أمير يقال له عزالدين محمود المعروف بزلفندار قد ملكت أكثر ما كان لأبيك والمصلحة أن تعود فرجع إلى قوله وعاد إلى الموصل ﴿ليقضى الله أمرا كان مفعولا﴾.

﴿ذكر حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها﴾ لما مات نورالدين محمود صاحب الشام اجتمعت الفرنج وساروا إلى قلعة بانياس من أعمال دمشق فحصروها فجمع شمس الدين محمد بن عبدالملك بن المقدم العسكر عنده بدمشق فخرج عنها فراسلهم ولاطفهم ثم أغلظ لهم فى القول وقال لهم إن أنتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فنحن على ما كنا عليه وإلا فنرسل إلى سيف الدين صاحب الموصل ونعلمه ونصالحه ونستنجده ونرسل إلى

Marfat.com

صلاح الدين بمصر فنستنجده ونقصد بلادكم من جهاتها كلها ولاتقومون لنا وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنورالدين والآن فقد زال ذلك الخوف وإذا طلبناه إلى بلادكم فلا يمتنع فعلموا صدقه فصالحوه على شيء من المال أخذوه وأسرى أطلقوا لهم كانوا عند المسلمين وتقررت الهدنة فلما سمع صلاح الدين بذلك أنكره واستعظمه وكتب إلى الملك الصالح والأمراء الذين معه يقبح لهم مافعلوه ويبذل من نفسه قصد بلاد الفرنج ومقارعتهم وإزعاجهم عن قصد شيء من بلاد الملك الصالح وكان قصده أن يصير له طريق إلى بلاد الشام ليتملك البلاد والأمراء الشاميون إنما صالحوا الفرنج خوفا منه ومن سيف الدين غازى صاحب الموصل فإنه كان قد أخذ البلاد الجزرية وخافوا منه أن يعبر إلى الشام فرأوا صلح الفرنج أصلح من أن يجيء هذا من الغرب وهذا من الشرق وهم مشغولون عن ردهم .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى المحرم وقع الحريق ليلا ببغداد فاحترق أكثر الظفرية ومواضع غيرها ودام الحريق إلى بكرة وطفئت النار . وفيها فى شعبان بنى ابن شنكا وهو ابن أخى شملة صاحب خوزستان قلعة بالقرب من الماهكى ليتقوى بها على الاستيلاء على تلك الأعمال فسير إليه الخليفة العساكر من بغداد لمنعه فالتقوا فحمل بنفسه على الميمنة فهزمها واقتتل الناس قتالا عظيما وأسر ابن أخى شملة وحمل رأسه إلى بغداد فعلق بباب النوبى وهدمت القلعة . وفيها فى رمضان وكان الزمان ربيعا توالت الأمطار فى ديار بكر والجزيرة والموصل فدامت أربعين يوما مارأينا الشمس فيها غير مرتين كل مرة مقدار لحظه وخربت المساكن وغيرها وكثر الهدم ومات تحته كثير من الناس وزادت دجلة زيادة عظيمة وكان أكثرها ببغداد فإنها زادت على كل زيادة تقدمت منذ بنيت بغداد بذراع وكسر وخاف الناس الغرق وفارقوا البلد وأقاموا على شاطىء دجلة خوفا من انفتاح القورج وغيره وكانوا كلما انفتح موضع بادروا بسده ونبع الماء فى البلاليع وخرب كثيرا من الدور ودخل الماء إلى البيمارستان العضدى ودخلت السفن من الشبابيك التى له فإنها كانت قدتقلعت فمن الله تعالى على الناس بنقص الماء بعد أن أشرفوا على الغرق . وفيها فى جمادى الأولى كانت الفتنة ببغداد بين قطب الدين قايماز والخليفة وسببها أن الخليفة أمر بإعادة عضد الدين بن رئيس الرؤساء إلى الوزارة فمنع منه قطب الدين وأغلق باب النوبى وباب العامة وبقيت دار الخليفة كالمحاصرة فأجاب الخليفة إلى ترك وزارته ، فقال قطب الدين لا أقنع إلا بإخراج عضد الدين من بغداد فأمر بالخروج منها فالتجأ إلى صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل فأخذه إلى رباطه وأجاره ونقله إلى دار الوزير بقطفتا فأقام بها ثم عاد إلى بيته فى جمادى الآخرة . وفيها سقط الأمير أبو العباس أحمد بن الخليفة وهو الذى صار خليفة من قبة عالية إلى أرض الناج ومعه غلام له اسمه نجاح فألقى نفسه بعده وسلم ابن الخليفة ونجا فقيل لنجاح لم ألقيت نفسك فقال ما كنت أريد البقاء بعد مولاى فرعى له الأمير أبو العباس ذلك فلما صار خليفة جعله شرابيا وصارت الدولة جميعها بحكمه ولقيه الملك الرحيم عزالدين وبالغ فى الإحسان إليه والتقديم له وخدمه جميع الأمراء بالعراق والوزراء وغيرهم . وفيها فى رمضان وقع ببغداد برد كبار مارأى الناس مثله فهدم الدور وقتل جماعة من الناس وكثيرا من المواشى فوزنت بردة منها فكانت سبعة أرطال وكان عامته كالنارنج يكسر الأغصان هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزى فى تاريخه والعهدة عليه .وفيها كانت وقعة عظيمة بين المؤيد صاحب نيسابور وبين شاه مازندران قتل فيها كثير من الطائفتين فانهزم شاه مازندران ودخل المؤيد بلد الديلم وخربها وفتك

Marfat.com

وفتك بأهلها وعاد عنها . وفيها وقعت وقعة كبيرة بين أهل باب البصرة وأهل باب الكرخ وسببها أن الماء لما زاد سكر أهل باب الكرخ سكرا رد الماء عنهم فغرق مسجد فيه شجرة فانقلعت فصاح أهل الكرخ انقلعت الشجرة لعن الله العشرة فقامت الفتنة فتقدم الخليفة إلى علاء الدين تنامش فمال على أهل باب البصرة لأنه كان شيعيا وأراد دخول المحلة فمنعه أهلها وأغلقوا الأبواب ووقفوا على السور وأراد إحراق الأبواب فبلغ ذلك الخليفة فأنكره أشد إنكار وأمر بإعادة تنامش فعاد ودامت الفتنة أسبوعا ثم انفصل الحال من غير توسط سلطان . وفيها عبر ملك الروم خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلج أرسلان فجرى بينهما حرب استظهر فيها المسلمون فلما رأى ملك الروم عجزه عاد إلى بلده وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كثيرة وفيها فى جمادى الأولى مات أحمد بن على بن المعمر بن محمد بن عبدالله أبو عبدالله العلوى الحسينى نقيب العلويين ببغداد وكان يلقب الظاهر وسمع الحديث الكثير ورواه وكان حسنة أهل بغداد . وفيها توفى الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد بن محمد العطار الهمدانى سافر الكثير فى طلب الحديث وقراءة القرآن واللغة وكان من أعيان المحدثين وكان له قبول عظيم ببلده عند العامة والخاصة . (١)

﴿ ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر وصول أسطول صقلية إلى مدينة الإسكندرية وانهزامهم منها﴾ فى هذه السنة ظفر أهل الإسكندرية وعسكر مصر بأسطول الفرنج من صقلية وكان سبب ذلك ماذكرناه من إرسال أهل مصر إلى ملك الفرنج بساحل الشام وإلى صاحب صقلية ليقصدوا ديار مصر ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر فجهز صاحب صقلية أسطولا كثيرا عدته مائتى شينى تحمل الرجالة وستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل وست مراكب كبارا تحمل آلة الحرب وأربعين مركبا تحمل الأزواد وفيها من الراحل خمسون ألفا ومن الفرسان ألف وخمسمائة منها خمسمائة تركبلى وكان المقدم عليهم ابن عم صاحب صقلية وسيره إلى الإسكندرية من ديار مصر فوصلوا اليها فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين على حين غفلة من أهلها وطمأنينة فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالى عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ونزل الفرنج إلى البر مما يلى البحر والمنارة وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ماراعهم وسيرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم ودام القتال

---

(١) وفيها توفى الاهوازى : خازن كتب مشهد أبى حنيفة ببغداد ، توفى فجأة فى ربيع الاول من هذه السنة . وفيها توفى الخضر بن نصر على بن نصر الإربلى الفقيه الشافعى ، أول من درس بأربل فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وكان فاضلا دينا ، انتفع به الناس ، وكان قداشتغل على الكيا الهراسى وغيره ببغداد ، وقدم دمشق فأرخه ابن عساكر فى هذه السنة ، وترجمه ابن خلكان فى الوفيات ، وقال قبره يزار ، وقد زرته غير مرة ، ورأيت الناس ينتابون قبر ويتبركون به ، وهذا الذى قاله ابن خلكان مما ينكره أهل العلم عليه وعلى أمثاله ممن يعظم القبور . وفيها هلك ملك الفرنج مرى لعنه الله ؛ وأظنه ملك عسقلان ونحوها من البلاد ، وقد كان قارب أن يملك الديار المصرية لولا فضل الله ورحمته بعباده المؤمنين .

Marfat.com

Marfat.com

أول يوم إلى آخر النهار ثم عاود الفرنج القتال اليوم الثانى وجدوا ولازموا الزحف حتى وصلت الدبابات إلى قريب السور ووصل ذلك اليوم من العساكر الإسلامية كل من كان فى أقطاعه وهو قريب من الإسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج من كل جانب وهم غارون وكثر الصياح من كل الجهات فارتاع الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت أماراته ولم يزل القتال إلى آخر النهار ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثرة القتل والجراح فى رجالتهم وأما صلاح الدين فإنه لما وصله الخبر سار بعساكره وسير مملوكا له ومعه ثلاثة جنائب ليجد السير عليها إلى الإسكندرية يبشر بوصوله وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفا عليها واحتياطا لها فسار ذلك المملوك فوصل الإسكندرية من يومه وقت العصر والناس قد رجعوا من القتال فنادى فى البلد بمجىء صلاح الدين والعساكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه فهو يقاتل قتال من يريد أن يشاهد قتاله وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين فى عساكره فسقط فى أيديهم وزادوا تعبا وفتورا فهاجم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة وكثر القتل فى رجالة الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين فى الماء وخرق بعض شوانى الفرنج فغرقت فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين واحتمى ثلثمائة من فرسان الفرنج على رأس تل فقاتلهم المسلمون إلى بكرة ودام القتال إلى أن أضحى النهار فغلبهم أهل البلد وقهروهم فصاروا بين قتيل وأسير وكفى الله المسلمين شرهم.

﴿ذكر خلاف الكنز بصعيد مصر﴾ وفى أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر واجتمع اليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير وكان هناك أمير من الصلاحية فى أقطاعه وهو أخو الأمير أبى الهيجاء السمين فقتله الكنز فعظم قتله على أخيه وهو من أكبر الأمراء وأشجعهم فسار إلى قتال الكنز وسير معه صلاح الدين جماعة من الأمراء وكثيرا من العسكر ووصلوا إلى مدينة طود فاحتمت عليهم فقاتلوا من بها وظفروا بهم وقتلوا منهم كثيرا وذلوا بعد العز وقهروا واستكانوا ثم سار العسكر بعد فراغهم من طود إلى الكنز وهو فى طغيانه يعمه فقاتلوه فقتل هو ومن معه من الأعراب وغيرهم وأمنت بعده البلاد واطمأن أهلها.

﴿ذكر ملك صلاح الدين دمشق﴾ فى هذه السنة سلخ ربيع الأول ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب مدينة دمشق وسبب ذلك أن نور الدين لما مات وملك ابنه الملك الصالح بعده كان بدمشق وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازى إلى حلب كما ذكرناه فأقام بها عند شمس الدين علىّ بن الداية فلما استولى سيف الدين على البلاد الجزرية خاف ابن الداية أن يغير إلى حلب فيملكها فأرسل سعد الدين إلى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر إلى حلب فلما قارب دمشق سير إليه شمس الدين محمد بن المقدم عسكرا فنهبوه وعاد منهزما إلى حلب فأخلف عليه ابن الداية عوض ما أخذ منه ثم إن الأمراء الذين بدمشق نظروا فى المصلحة فعلموا أن مسيره إلى حلب أصلح الدولة من مقامه بدمشق فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبون إرسال سعد الدين

ليأخذ الملك الصالح فجهزه وسيره (وعلى نفسها براقش تجنى) فسار إلى دمشق فى المحرم من هذه السنة واخذ الملك الصالح وعاد إلى حلب فلما وصلوا إليها قبض سعد الدين على شمس الدين بن الداية وإخوته وعلى رئيس بن الخشاب رئيس حلب ومقدم الأحداث بها ولولا مرض شمس الدين بن الداية لم يتمكن من ذلك واستبد سعد الدين بتربية الملك الصالح فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق وقالوا إن استقر أمر حلب أخذ الملك الصالح وسار به إلينا وفعل مثل ما فعل بحلب وكاتبوا سيف الدين غازى صاحب الموصل ليعبر الفرات إليهم ليسلموا إليه دمشق فلم يفعل وخاف أن تكون مكيدة عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها ويقصده ابن عمه وعسكر حلب من وراء ظهره فيهلك أشار عليه بهذا زلفندار عز الدين والجبان يقدّر البعيد من الشر قريبا يرى الجبن حزما كما قال :

يرى الجبناء أن الجبن حزم ٭ وتلك طبيعة الرجل الجبان

فلما أشار عليه بهذا الرأى زلفندار قبله وامتنع من قصد دمشق وراسل سعد الدين والملك الصالح وصالحهما على مأخذه من البلاد فلما امتنع عن العبور إلى دمشق عظم حزمهم وقالوا حيث صالحهم سيف الدين لم يبق لهم مانع عن المسير إلينا فكاتبوا حينئذ صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر واستدعوه لتملكوه عليهم وكان كبيرهم فى ذلك شمس الدين بن المقدم (ومن أشبه أباه فما ظلم) وقد ذكرنا مخامرة أبيه فى تسليم سنجار سنة أربع وأربعين وخمسمائة فلما وصلت الرسل إلى صلاح الدين بذلك لم يلبث وسار جريدة فى سبعمائة فارس والفرنج فى طريقه فلم يبال بهم فلما وطىء أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذ صاحبها وهو من جملة من كاتبه فخرج ولقيه فلما رأى قلة من معه خاف على نفسه واجتمع بالقاضى الفاضل وقال ما أرى معكم عسكرا وهذا بلد عظيم لا يقصد بمثل هذا العسكر ولو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد قال كان معكم مال سهل الأمر فقالوا هنا مال كثير يكون خمسين ألف دينار فضرب صاحب بصرى على رأسه وقال هلكتم وأهلكتمونا وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار ، ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فخرج كل من بها من العسكر إليه فلقوه وخدموه ودخل البلد ونزل فى دار والده المعروفة بدار العقيق وكانت القلعة بيد خادم اسمه ريحان فأحضر صلاح الدين كمال الدين بن الشهرزورى وهو قاضى البلد والحاكم فى جميع أموره من الديوان والوقف وغير ذلك وأرسله إلى ريحان ليسلم القلعة إليه وقال أنا مملوك الملك الصالح وما جئت إلا لأنصره وأخدمه وأعيد البلاد التى أخذت منه إليه وكان يخطب له فى بلاده كلها فصعد كمال الدين إلى ريحان ولم يزل معه حتى سلم القلعة فصعد صلاح الدين إليها وأخذ مافيها من الأموال وأخرجها واتسع بها وثبت قدمه وقويت نفسه وهو مع هذا يظهر طاعة الملك الصالح ويخاطبه بالمملوك والخطبة والسكة باسمه .

﴿ذكر ملك صلاح الدين مدينتى حمص وحماة﴾ لما استقر ملك صلاح الدين لدمشق وقرر أمرها استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغدكين بن أيوب وسار إلى مدينة حمص مستهل جمادى الأولى وكانت حمص وحماة وقلعة بعرين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة فى أقطاع الأمير فخر الدين مسعود الزعفرانى فلما مات نور الدين لم يمكنه المقام بها لسوء سيرته فى أهلها ولم يكن له فى قلاع هذه البلاد حكم إنما فيها ولاة لنور الدين وكان بقلعة حمص وال يحفظها فلما نزل صلاح الدين على حمص حادى عشر الشهر المذكور راسل من فيها بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم من الغد فملك البلد وأمن أهله وامتنعت عليه القلعة وبقيت ممتنعة إلى أن عاد من حلب على ما نذكره

Marfat.com

إن شاء الله وترك بمدينة حمص من يحفظها ويمنع من بالقلعة من التصرف وأن تصعد اليهم مسيرة وسار إلى مدينة حماة وهو فى جميع أحواله لايظهر إلاطاعة الملك الصالح بن نور الدين وأنه إنما خرج لحفظ بلاده عليه من الفرنج واستعادة ماأخذه سيف الدين غازى صاحب الموصل من البلاد الجزرية فلما وصل إلى حماة ملك المدينة مستهل جمادى الآخرة وكان بقلعتها الأمير عزالدين جورديك وهو من المماليك النورية فامتنع من التسليم إلى صلاح الدين فأرسل اليه صلاح الدين يعرفه ماهوعليه من طاعة الملك الصالح وإنما يريد حفظ بلاده عليه فاستحلفه جورديك على ذلك وسيره إلى حلب فى اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفى إطلاق شمس الدين على وحسن وعثمان أولاد الداية من السجن فسار جورديك إلى حلب واستخلف بقلعة حماة أخاه ليحفظها فلما وصل جورديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى صلاح الدين فملكها.

﴿ذكر حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حمص وبعلبك﴾ لما ملك صلاح الدين حماة سار إلى حلب فحصرها ثالث جمادى الآخرة فقاتله أهلها وركب الملك الصالح وهو صبى وعمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم قد عرفتم إحسان أبى اليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدى اليه يأخذ بلدى ولايراقب الله تعالى ولا الخلق وقال من هذا كثيرا وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن بلده وجدوا فى القتال وفيهم شجاعة قد ألفوا الحرب واعتادوها حيث كان الفرنج بالقرب منهم فكانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين عندجبل حوشن فلا يقدر على القرب من البلد وأرسل سعد الدين إلى سنان مقدم الإسماعيلية وبذل له أموالا كثيرة ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعة منهم إلى عسكره فلما وصلوا رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة بوقيس فعرفهم لأنه جارهم فى البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم فلما رآهم قال لهم ماالذى أقدمكم وفى أى شىء جئتم فجرحوه جراحات مثخنة وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقتل دونه وقاتل الباقون من الإسماعيلية فقتلوا جماعة ثم قتلوا وبقى صلاح الدين محاصرا لحلب إلى سلخ جمادى الآخرة ورحل عنها مستهل رجب وسبب رحيله أن القومص الصنجيلى صاحب طرابلس كان قد أسره نور الدين على حارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة وبقى فى الحبس إلى هذه السنة فأطلقه سعد الدين بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وألف أسير فلما وصل إلى بلده اجتمع الفرنج عليه يهنؤنه بالسلامة وكان عظيما فيهم من أعيان شياطينهم فاتفق أن مرى ملك الفرنج لعنه الله مات أول هذه السنة وكان أعظم ملوكهم شجاعة وأجودهم رأيا ومكرا ومكيدة فلما توفى خلف ابنا مجذوما عاجزا عن تدبير الملك فملكه الفرنج صورة لامعنى تحتها وتولى القمص ريمند تدبير الملك الحل والعقد عن أمره يصدرون فأرسل اليه من حلب يطلبون منه أن يقصد بعض البلاد التى بيد صلاح الدين ليرحل عنهم فسار إلى حمص ونازلها سابع رجب فلما تجهز لقصدها سمع صلاح الدين الخبر فرحل عن حلب فوصل إلى حماة ثامن رجب بعد نزول الفرنج على حمص بيوم ثم رحل إلى الرستن فلما سمع الفرنج بقربه رحلوا عن حمص ووصل صلاح الدين اليها فحصر القلعة إلى أن ملكها فى الحادى والعشرين من شعبان من السنة فصار أكثر الشام بيده ولما ملك حمص سار منها إلى بعلبك وبها خادم اسمه يمن وهو وال عليها من أيام نور الدين فحصرها صلاح الدين فأرسل يمن يطلب الأمان له ولمن عنده فأمنهم صلاح الدين وتسلم القلعة رابع عشر رمضان من السنة المذكورة .

﴿ ذكر حصر سيف الدين أخاه عمادالدين بسنجار ﴾ لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح إسماعيل بن نورالدين إلى ابن عمه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود يستنجده على صلاح الدين ويطلب أن يعبرا إليه ليقصدوا صلاح الدين ويأخذوا البلاد منه فجمع سيف الدين عساكره وكاتب أخاه عمادالدين زنكى صاحب سنجار ويأمره أن ينزل إليه بعساكره ليجتمعوا على المسير إلى الشام فامتنع من ذلك وكان صلاح الدين قد كاتب عمادالدين وأطعمه فى الملك لأنه هو الكبير فحمله الطمع على الامتناع على أخيه فلما رأى سيف الدين امتناعه جهز أخاه عزالدين مسعودا فى عسكر كثير هو معظم عسكره وسيره إلى الشام وجعل المقدم على العسكر أكبر أمير معه يقال له عزالدين محمود ويلقب أيضا زلفندار وجعله المدبر للأمر وسار سيف الدين إلى سنجار فحصرها فى شهر رمضان وقاتلها وجد فى القتال وامتنع عمادالدين بها وجد فى حفظها والذب عنها فدام الحصار عليها فبينما هو يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذى مع أخيه عزالدين مسعود من صلاح الدين فراسل حينئذ أخاه عمادالدين وصالحه على مابيده ورحل إلى الموصل وثبت قدم صلاح الدين بعدهذه الهزيمة وخافه الناس وترددت الرسل بينه وبين سيف الدين غازى فى الصلح فلم يستقر حال

﴿ ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب ﴾ فى هذه السنة ساز عسكر سيف الدين مع أخيه عزالدين زلفندار إلى حلب واجتمع معهما عساكر حلب وساروا كلهم إلى صلاح الدين ليحاربوه فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل تسليم حمص وحماة وأن يقر بيده مدينة دمشق وهو فيها نائب الملك الصالح فلم يجب إلى ذلك وقال لابد من تسليم جميع ماأخذ من بلاد الشام والعود إلى مصر وكان صلاح الدين بجمع عساكره ويتجهز للحرب فلما امتنع سيف الدين من إجابته إلى مابذل سار فى عساكره إلى عزالدين مسعود وزلفندار فالتقوا تاسع عشر رمضان بالقرب من مدينة حماة بموضع يقال له قرون حماة وكان زلفندار جاهلا بالحروب والقتال غير عالم بتدبيرها مع جبن فيه إلا أنه قد رزق سعادة وقبولا من سيف الدين فلما التقى الجمعان لم يثبت العسكر السيفى وانهزموا لايلوى أخ على أخيه وثبت عزالدين أخو سيف الدين بعدانهزام أصحابه فلما رأى صلاح الدين ثباته قال إما أن هذا أشجع الناس أو أنه لايعرف الحرب وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا فأزالوه عن موقفه وتمت الهزيمة وتبعهم صلاح الدين وعسكره حتى جازوا معسكرهم وغنموا منهم غنائم كثيرة وآلة وسلاحا عظيما ودواب فارهة وعادوا بعد طول البيكار مستريحين وعاد المنهزمون إلى حلب وتبعهم صلاح الدين فنازلهم بها محاصرا لها ومقاتلا وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نورالدين وأزال اسمه عن السكة فى بلاده ودام محاصرا لهم فلما طال الأمر عليهم راسلوه فى الصلح على أن يكون له مابيده من بلاد الشام ولهم مابأيديهم منها فأجابهم إلى ذلك وانتظم الصلح ورحل عن حلب فى العشر الأول من شوال ووصل إلى حماة ووصلت إليه بها خلع الخليفة مع رسوله .

﴿ ذكر ملك صلاح الدين قلعة بعرين ﴾ فى هذه السنة فى العشر الآخر من شوال ملك صلاح الدين قلعة بعرين من الشام وكان صاحبها فخر الدين مسعود بن الزعفرانى وهو من أكابر الأمراء النورية فلما رأى قوة صلاح الدين نزل منها واتصل بصلاح الدين وظن أن صلاح الدين يكرمه ويشاركه فى ملكه ولا ينفرد عنه بأمر مثل ماكان مع نورالدين فلم ير من ذلك شيئا ففارقه ولم يكن بقى له من أقطاعه التى كانت له فى الأيام النورية غير بعرين ونائبه بها فلما صالح صلاح الدين الملك الصالح بحلب عاد إلى حماة وسار منها إلى بعرين وهى قريبة منها

Marfat.com

فحصرها ونصب عليها المنجنيقات وأدام قتالها فسلمها واليها بالأمان فلما ملكها عاد إلى حماة فأقطعها خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى وأقطع حمص ناصر الدين ابن عمه شيركوه وسار منها إلى دمشق فدخلها أواخر شوال من السنة .

﴿ذكر ملك البهلوان مدينة تبريز﴾ فى هذه السنة ملك البهلوان بن ايلدكز مدينة تبريز وهى من جملة بلاد آقسنقر الأحمديلى وسبب ذلك أن البهلوان سار إلى مراغة وحصرها وكان ابن آقسنقر الأحمديلى قد مات ووصى بالملك لابنه فلك الدين فقصده البهلوان ونزل على قلعة رويندز وحصرها فامتنعت عليه فتركها وحصر مراغة وسير أخاه قزل أرسلان فى جيش إلى مدينة تبريز فحصرها أيضا وكان البهلوان يقاتل أهل مراغة فظفروا بطائفة من عسكره فخلع عليهم صدر الدين قاضى مراغة وأطلقهم فحسن ذلك عند البهلوان وشرع القاضى فى الصلح على أن يسلموا تبريز إلى البهلوان فأجيب إلى ذلك واستقرت القاعدة عليه وحلف كل واحد منهما لصاحبه وتسلم البهلوان تبريز وأعطاها أخاه قزل أرسلان ورحل عن مراغة بعسكره .

﴿ذكر وفاة شملة﴾ فى هذه السنة مات شملة التركمانى صاحب خوزستان وكان قد كثرت ولايته وعظم شأنه وبنى عدة حصون وبقى كذلك زيادة على عشرين سنة وكان سبب موته أنه قصد بعض التركمان فعلموا بذلك فاستعانوا بشمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب عراق العجم فسير إليهم جيشا فاقتتلوا فأصاب شملة سهم ثم أخذ أسيراً وولده وابن أخيه وتوفى بعد يومين وهو من التركمان الأقشرية ولما مات ملك ابنه بعده .

﴿ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد﴾ فى هذه السنة فى شوال سير علاء الدين تنامش وهو من أكابر الأمراء ببغداد وكان قطب الدين قايماز زوج أخته عسكرا إلى العراق فنهبوا أهله وبالغوا فى أذاهم فجاء منهم جماعة إلى بغداد واستغاثوا فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز وتنامش وتحكمهما عليه فقصدوا جامع القصر واستغاثوا فيه ومنعوا الخطيب وفاتت الصلاة أكثر الناس فأنكر الخليفة ماجرى فلم يلتفت قطب الدين وتنامش إلى مافعل واحتقروه فلاجرم لم يمهلهم الله تعالى لاحتقارهم الدعاء وازدرائهم أهله فلما كان خامس ذى القعدة قصد قطب الدين قايماز أذى ظهير الدين بن العطار وكان صاحب المخزن وهو خاص الخليفة وله به عناية تامة فلم يراع الخليفة فى صاحبه فأرسل إليه يستدعيه ليحضر عنده فهرب فأحرق قطب الدين داره وحالف الأمراء على المساعدة والمظاهرة له وجمعهم وقصد دار الخليفة لعلمه أن ابن العطار فيها فلما علم الخليفة ذلك ورأى الغلبة صعد إلى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادما فصاح واستغاث وقال للعامة مال قطب الدين لكم ودمه لى فقصد الخلق كلهم دار قطب الدين للنهب فلم يمكنه المقام لضيق الشوارع وغلبة العامة فهرب من داره من باب فتحه فى ظهرها لكثرة الخلق على بابها وخرج من بغداد ونهبت داره وأخذ منها من الأموال مالا يعد ولا يحصى فرؤى فيها من التنعم ماليس لأحد مثله فمن جملة ذلك أن بيت الطهارة الذى كان له فيه سلسلة ذهب من السقف إلى محاذى وجه القاعدة على الخلا وفى أسفلها كرة كبيرة ذهب مخرمة محشوة بالمسك والعنبر ليشمها إذا قعد فتشبث إنسان وقطعها ودخل بعض الصعاليك فأخذ عدة أكياس مملوءة دنانير وكان الأقوياء قد وقفوا على الباب يأخذون مايخرج به الناس فلما أخذ ذلك الصعلوك الأكياس قصد المطبخ فأخذ منه قدرا مملوءة طبيخا وألقى الأكياس فيها وحملها على رأسه والناس يضحكون منه فيقول أنا أريد شيئا أطعمه عيالى اليوم فنجا بما معه فاستغنى بعد ذلك فظهر المال ولم يبق من نعمة قطب الدين فى ساعة واحدة قليل ولا كثير ولما خرج من

Marfat.com

البلد تبعه تنامش وجماعة من الأمراء فنهبت دورهم أيضا وأخذت أموالهم وأحرق أكثرها وسار قطب الدين إلى الحلة ومعه الأمراء فسير للخليفة إليه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ فلم يزل به يخدعه حتى سار عن الحلة إلى الموصل على البر فلحقه ومن معه عطش عظيم فهلك أكثرهم من شدة الحر والعطش ومات قطب الدين قبل وصوله إلى الموصل فحمل ودفن بظاهر باب العمادى وقبره مشهور هناك وهذا عاقبة عصيان الخليفة وكفران الإحسان والظلم وسوء التدبير فإنه ظلم أهل العراق وكفر إحسان الخليفة الذى كان قد غمره ولو أقام بالحلة وجمع العساكر وعاود بغداد لاستولى على الأمور كلها كما كان فإن عامة بغداد كانوا يريدونه وكان قوى بالإحسان على البلاد فأطاعوه ولما مات فى ذى الحجة وصل علاء الدين تنامش إلى الموصل فأقام مديدة ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد فعاد إليها وبقى بها إلى أن مات بغير إقطاع وكان هذا آخر أمرهم ولما أقام قطب الدين بالحلة امتنع الحاج من السفر فتأخروا إلى أن رحل عنها فدخلوا من الكوفة فى ثمانية عشر يوما وهذا مالم يسمع بمثله ومات كثيرا منهم الحج ولما هرب قطب الدين خلع الخليفة على عضد الدين الوزير وأعيد إلى الوزارة. قال بعض الشعراء فى قطب الدين وتنامش هذه الأبيات :

إن كنت معتبرا بملك زائل * وحوادث عنقية الإدلاج
فدع العجائب والتواريخ الأولى * وانظر إلى قيماز وابن قماج
عطف الزمان عليهما فسقاهما * من كأسه صرفا بغير مزاج
فتبدلوا بعد القصور وظلها * ونعيمها بمهامه وفجاج
فليحذر الباقون من أمثالها * نكبات دهر خائن مزعاج

وكان قطب الدين كريما طلق الوجه محبا للعدل والإحسان كثير البذل للمال والذى كان جرى منه إنما كان يحمله عليه تنامش ولم يكن بإرادته.

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة مات زعيم الدين صاحب المخزن واسمه يحيى بن عبدالله بن محمد بن المعمر بن جعفر أبو الفضل وحج بالناس عدة سنين واليه الحكم فى الطريق وتاب عن الوزارة وتنقل فى هذه الأعمال أكثر من عشرين سنة وكان يحفظ القرآن. (١)

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر انهزام سيف الدين من صلاح الدين﴾ فى هذه السنة عاشر شوال كان المصاف بين سيف الدين

---

(١) وفيها ظهر رجل من قرية مشغرا من معاملة دمشق وكان مغربيا فادعى النبوة، وأظهر شيئا من المخاريق والمحاييل والشعبذة والابواب النارنجية، فافتتن به طوائف من الهمج والعوام، فتطلبه السلطان فهرب إلى معاملة حلب. فألف عليه كل مقطوع الذنب، وأضل خلقا من الفلاحين، وتزوج امرأة أحبها، وكانت من أهل البطائح فعلمها أن ادعت النبوة، فأشبها قصة مسيلمة وسجاح. وفيها هرب وزير الخليفة ونهبت داره. وفيها درس أبو الفرج ابن الجوزى بمدرسة أنشئت للحنابلة فحضر عنده قاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى والفقهاء والكبراء، وكان يوما مشهوداً وخلعت عليه خلعة سنية. وفيها توفى روح بن أحمد أبو طالب الحدثى قاضى القضاة ببغداد فى بعض الأحيان وكان ابنه فى أرض الحجاز، فلما بلغه موت أبيه مرض بعده فمات بعد أيام، وكان ينبذ بالرفض.

Marfat.com

Marfat.com

غازى بن مودود وبين صلاح الدين يوسف بن أيوب بتلّ السلطان على مرحلة من حلب على طريق حماه وانهزم سيف الدين وسبب ذلك أنه لما انهزم أخوه عزالدين مسعود من صلاح الدين فى العام الماضى وصالح سيف الدين أخاه عماد الدين صاحب سنجار عاد إلى الموصل وجمع عساكره وفرق فيهم الأموال واستنجد صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما فاجتمعت معه عساكره كثيرة بلغت عدتهم ستة آلاف فارس فسار إلى نصيبين فى ربيع الأول من هذه السنة وأقام بها وأطال المقام حتى انقضى الشتاء وهو مقيم فضجر العسكر ونفدت نفقاتهم وصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب اليهم من الظفر لما يتوقعونه إن ظفروا من طول المقام بالشام بعد هذه المدة ثم سار إلى حلب فنزل اليه سعد الدين كمشتكين الخادم مدبر دولة الملك الصالح ومعه عساكر حلب وكان صلاح الدين فى قلة من العساكر لأنه كان صالح الفرنج فى المحرم من هذه السنة على ماذكره إن شاء الله وقد سير عساكر إلى مصر فأرسل يستدعيها فلو عالجوه لبلغوا غرضهم منه لكنهم تريثوا وتأخروا عنه فجاءته عساكره فسار من دمشق إلى ناحية حلب ليلقى سيف الدين فالتقى العسكران بتل السلطان وكان سيف الدين قد سبقه فلما وصل صلاح الدين كان وصوله العصر وقد تعب هو وأصحابه وعطشوا فألقوا نفوسهم إلى الأرض ليس فيهم حركة فأشار على سيف الدين جماعة بقتالهم وهم على هذا الحال فقال زلفندار ما بنا هذه الحاجة إلى قتال هذا الخارجى فى هذه الساعة غدا بكرة نأخذهم كلهم فترك القتال إلى الغد فلما أصبحوا اصطفوا للقتال فجعل زلفندار وهو المدبر للعسكر السيفى أعلامهم فى وهدة من الأرض لا يراها إلا من هو بالقرب منها فلما لم يرها الناس ظنوا أن السلطان قد انهزم فلم يثبتوا وانهزم ولم يلو أخ على أخيه ولم يقتل بين الفريقين مع كثرتهم غير رجل واحد ووصل سيف الدين إلى حلب وترك بها أخاه عزالدين مسعودا فى جمع من العسكر ولم يقم هو وعبر الفرات وسار إلى الموصل وهو لا يصدق أنه ينجو وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل فاستشار وزيره جلال الدين ومجاهد الدين قايماز فى مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة عقرا الحميدية فقال له مجاهد الدين أرأيت إن ملكت الموصل عليك أتقدر أن تمتنع ببعض أبراج الفصيل فقال لا فقال برج فى الفصيل خير من العقر ومازال الملوك ينهزمون ويعاودون الحرب واتفق هو والوزير على شد أزره وتقوية قلبه وثبت ثم أعرض عن زلفندار وعزله واستعمل مكانه على إمارة الجيوش مجاهد الدين قايماز على ماذكره إن شاء الله وقد ذكر العماد الكاتب فى كتاب البرق الشامى فى تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره فى هذه الوقعة عشرين ألف فارس ولم يكن كذلك إنما كان على التحقيق يزيدون على ستة آلاف فارس أقل من خمسمائة فإننى وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر المصاف ميمنة وميسرة وقلبا وجاليشية وغير ذلك وكان المتولى لذلك والكاتب له أخى مجدالدين أباالسعادات المبارك بن محمد بن عبدالكريم رحمه الله وإنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفا والحق أحق أن يتبع ثم باليت شعرى كم هى الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس .

﴿ ذكر ما ملكه صلاح الدين بعد الكسرة من بلاد الصالح بن نورالدين ﴾ لما انهزم سيف الدين وعسكره ووصلوا إلى حلب عاد سيف الدين إلى الموصل كما ذكرناه وترك بحلب أخاه عزالدين مسعودا فى طائفة من العسكر نجدة للملك الصالح وأما صلاح الدين فإنه لما استولى على أثقال العسكر الموصلى هو وعسكره وغنموها واتسعوا بها وقووا سار إلى بزاعة فحصرها وقاتله من بالقلعة ثم تسلمها وجعل فيها من يحفظها وسار إلى مدينة

منبج فحصرها آخر شوال وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجى وكان شديد العداوة لصلاح الدين والتحريض عليه والإطماع فيه والطعن فيه فصلاح الدين حنق عليه متهدد له فأما المدينة فملكها ولم تمتنع عليه وبقى القلعة وبها صاحبها قد جمع إليها الرجال والسلاح والذخائر فحصره صلاح الدين وضيق عليه وزحف إلى القلعة فوصل النقابون إلى السور فنقبوها وملكوها عنوة وغنم العسكر الصلاحى كل مافيها وأخذ صاحبها أسيرا فأخذ صلاح الدين كل ماله وأصبح فقيرا لا يملك نقيرا ثم أطلقه صلاح الدين فسار إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازى مدينة الرقة ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار إلى قلعة إعزاز فنازلها ثالث ذى القعدة من السنة وهى من أحصن القلاع وأمنعها فنازلها وحصرها وأحاط بها وضيق على من فيها ونصب عليها المنجنيقات وقتل عليها كثير من العسكر فبينما صلاح الدين يوما فى خيمة لبعض أمرائه يقال له جاولى وهو مقدم الطائفة الأسدية إذ وثب عليه باطنى فضربه بسكين فى رأسه فجرحه فلولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله فأمسك صلاح الدين يد الباطنى بيده إلا أنه لا يقدر على منعه من الضرب بالكلية إنما يضرب ضربا ضعيفا فبقى الباطنى يضربه فى رقبته بالسكين وكان عليه كزاغند فكانت الضربات تقع فى زيق الكزاغند فتقطعه والزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته لبعد أجله فجاء أمير من أمرائه اسمه يازكش فأمسك السكين بكفه فجرحه الباطنى ولم يطلقها من يده إلى أن قتل الباطنى وجاء آخر من الإسماعيلية فقتل أيضا وثالث فقتل وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور لا يصدق بنجاته ثم اعتبر جنده فمن أنكره أبعده ومن عرفه أقره على خدمته ولازم حصار إعزاز ثمانية وثلاثين يوما كل يوم أشد قتالا مما قبله وكثرت النقوب فيها فأذعن من بها وسلموا القلعة إليه فتسلمها حادى عشر ذى الحجة .

﴿ ذكر حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها ﴾ لما ملك صلاح الدين قلعة إعزاز رحل إلى حلب فنازلها منتصف ذى الحجة وحصرها وبها الملك الصالح ومن معه من العساكر وقد قام العامة فى حفظ البلد القيام المرضى بحيث أنهم منعوا صلاح الدين من القرب من البلد لأنه كان إذا تقدم للقتال خسر هو وأصحابه وكثر الجراح فيهم والقتل وكانوا يخرجون ويقاتلونه ظاهر البلد فترك القتال وأخلد للمطاولة وانقضت سنة إحدى وسبعين ودخلت سنة اثنتين وسبعين وهو محاصر لها ثم ترددت الرسل بينهم فى الصلح فى العشرين من المحرم فوقعت الإجابة إليه من الجانبين لأن أهل حلب خافوا من طول الحصار فإنهم ربما ضجروا وضعفوا وصلاح الدين رأى أنه لا يقدر على الدنو من البلد ولا على قتال من به فأجاب أيضا وتقررت القاعدة فى الصلح للجميع للملك الصالح ولسيف الدين صاحب الموصل ولصاحب الحصن ولصاحب ماردين وتحالفوا واستقرت القاعدة أن يكونوا كلهم عونا على الناكث الغادر فلما انفصل الأمر رحل عن حلب بعد أن عاد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح فإنه أخرج إلى صلاح الدين أختا له صغيرة طفلة فأكرمها صلاح الدين وحمل لها شيئا كثيرا وقال لها ما تريدين قالت أريد قلعة إعزاز وكانوا قد علموها ذلك فسلمها إليهم ورحل إلى بلد الإسماعيلية .

﴿ ذكر الفتنة بمكة وعزل أميرها وإقامة غيره ﴾ فى هذه السنة فى ذى الحجة كان بمكة حرب شديدة بين أمير الحاج طاشتكين وبين الأمير مكثر بن عيسى أمير مكة وكان الخليفة قد أمر أمير الحاج بعزل مكثر وإقامة أخيه داود مقامه وسبب ذلك أنه كان قد بنى قلعة على جبل أبى قبيس فلما سار الحاج عن عرفات لم يبيتوا بالمزدلفة وإنما اجتازوا بها فلم يوموا الجمار إنما بعضهم رمى بعضها وهو سائر ونزلوا الأبطح فخرج إليهم ناس من أهل

Marfat.com

مكة فحاربوهم وقتل من الفريقين جماعة وصاح الناس الغزاة إلى مكة فهجموا عليها فهرب أمير مكة مكثر فصعد إلى القلعة التى بناها على جبل أبى قبيس فحصروه بها ففارقها وسار عن مكة وولى أخوه داود الإمارة ونهب كثيرا من الحاج وأخذوا من أموال التجارة المقيمين بها شيئا كثيرا وأحرقوا دورا كثيرة ومن أعجب ما جرى فيها أن إنسانا زراقا ضرب دار بقارورة نفط فأحرقها وكانت لأيتام فأحرقت ما فيها ثم أخذ قارورة أخرى ليضرب بها مكانا آخر فأتاه حجر فأصاب القارورة فكسرها فاحترق هو بها فبقى ثلاثة أيام يعذب بالحريق ثم مات.

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى شهر رمضان انكسفت الشمس جميعها وأظلمت الأرض حتى بقى الوقت كأنه ليل مظلم وظهرت الكواكب وكان ذلك ضحوة النهار يوم الجمعة التاسع والعشرين منه وكنت حينئذ صبيا بظاهر جزيرة ابن عمر مع شيخ لنا من العلماء أقرأ عليه الحساب فلما رأيت ذلك خفت خوفا شديدا وتمسكت به فقوى قلبي وكان عالما بالنجوم أيضا وقال لى الآن ترى هذا جميعه انصرف فانصرف سريعا، وفيها ولى الخليفة المستضىء بأمر الله حجبة الباب أبا طالب نصر بن على الناقد وكان يلقب فى صغره قنبرا فصاروا يصيحون به ذلك إذا ركب فأمر الخليفة أن يركب معه جماعة من الأتراك ويمنعون الناس من ذلك فامتنعوا فلما كان قبل العيد خلع عليه ليركب فى الموكب فاشترى جماعة من أهل بغداد من القنابر شيئا كثيرا وعزموا على إرسالها فى الموكب إذا رأوا ابن الناقد فأنهى ذلك إلى الخليفة وقيل له يصير الموكب ضحكة فعزله وولى ابن المعوج وفيها فى ذى الحجة يوم العيد وقعت فتنة ببغداد بين العامة وبين الأتراك بسبب أخذ جمال النحر فقتل بينهم جماعة ونهب شىء كثير من الأموال ففرق الخليفة أموالا جليلة فيمن نهب ماله. وفيها زلزلت بلاد العجم من جهة العراق إلى ماوراء الرى وهلك فيها خلق كثير وتهدمت دور كثيرة وأكثر ذلك كان بالرى وقزوين. وفيها فى ربيع الآخر استوزر سيف الدين غازى صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن ابن جمال الدين محمد بن على وكان جمال الدين وزير البيت الأتابكى وقد تقدمت أخباره وهو المشهور بالجود والإفضال ولما ولى جلال الدين الوزارة ظهرت منه كفاية عظيمة ومعرفة تامة بقوانين الوزارة وله مكاتبات وعهود حسنة مدونة مشهورة وكان جوادا فاضلا خيرا وكان عمره لما ولى الوزارة خمسا وعشرين سنة. وفيها فى ذى الحجة استناب سيف الدين أيضا عنه بقلعة الموصل مجاهد الدين قايماز وفوض اليه الأمور وكان قبل ذلك اليه الأمر بمدينة إربل وأعمالها وكان رحمه الله من صالحى الأمراء وأرباب المعروف بنى كثيرا من الجوامع والخانات فى الطرق والقناطر على الأنهار والربط وغير ذلك من أبواب البر وكان دائم الصدقة كثير الإحسان عادل السيرة رحمه الله. وفيها قبض الخليفة على سنجر المقتفوى أستاذ الدار ورتب مكانه أبا الفضل هبة الله بن على بن هبة الله بن الصامت. وفيها فى رمضان قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب الذى ملك اليمن إلى دمشق ولما سمع أن أخاه صلاح الدين ملكها حن إلى الوطن والأتراب ففارق اليمن وسار إلى الشام وأرسل من الطريق إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله وكتب فى الكتاب شعرا من قول ابن المنجم المصرى:

وإلى صلاح الدين أشكو أننى * من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعا لبعد الدار منه ولم أكن * لولا هواه لبعد دار أجزع
فلأركبن اليه متن عزائمى * ويخب بى ركب الغرام ويوضع

Marfat.com

ولأقطعن من النهار هواجرا * قلب النهار بحرها يتقطع
ولأسرين الليل لايسرى به * طيف الخيال ولا البروق اللمع
وأقدمن اليه قلبي مخبرا * أنى بجسمى من قريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة * من أفقها صبح السعادة يطلع

وفى هذه السنة فى المحرم برز صلاح الدين من دمشق وقد عظم شأنه بما ملكه من بلاد الشام وبكسره عسكر الموصل فخافه الفرنج وغيرهم وعزم على دخول بلدهم ونهبه والإغارة عليه فأرسلوا إليه يطلبون الهدنة معه فأجابهم إليها وصالحهم فأمر العساكر المصرية بالعود إلى مصر والاستراحة إلى أن يعاود طلبهم وشرط عليهم أنه متى أرسل يستدعيهم لا يتأخرون فساروا إليها وأقاموا بها إلى أن استدعاهم للحرب مع سيف الدين على ماذكرناه. وفيها مات أبو الحسن على بن عساكر البطائحى المقرى وكان قد سمع الحديث الكثير ورواه وكان نحويا جيدا وفى ذى الحجة منها توفى أبو سعد محمد بن سعيد بن محمد بن الرزاز سمع الحديث ورواه وله شعر جيد فمن ذلك أنه كتب إليه بعض أصدقائه مكاتبة وضمنها شعرا فأجابه.

يامن أياديه تغنى من يعددها * وليس يحصى مداها من لها يصف
عجزت عن شكر ما أوليت من كرم * وصرت عبدا ولى فى ذلك الشرف
أهديت منظوم شعر كله درر * فكل ناظم عقد عنده يقف
إذا أتيت ببيت منه كان لنا * قصر ودور المعانى فوقه شرف
وإن أتيت أنا بيتا يناقضه * أتيت لكن ببيت سقفه يكف
ماكنت منه ولا من أهله أبدا * وإنما حين أدنو منه أقتطف

﴿ ثم دخلت سنة إثنتين وسبعين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر نهب صلاح الدين بلد الإسماعيلية﴾ لما رحل صلاح الدين من حلب على ماذكرناه قبل قصد بلاد الإسماعيلية فى المحرم ليقاتلهم بما فعلوه من الوثوب عليه وإرادة قتله فنهب بلدهم وخربه وأحرقه وحصر قلعة مصيات وهى أعظم حصونهم وأحصن قلاعهم فنصب عليها المنجنيقات وضيق على من بها ولم يزل كذلك فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمى صاحب حماة وهو خال صلاح الدين يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم ويقول له إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين فشفع فيهم وسأل الصفح عنهم فأجابه إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم وكان عسكره قد ملوا من طول البيكار وقد امتلأت أيديهم من غنائم عسكر الموصل ونهب بلد الإسماعيلية فطلبوا العود إلى بلادهم للاستراحة فأذن لهم وسار هو إلى مصر مع عسكرها لأنه كان قد طال عهده عنها ولم يمكنه المضى إليها فيما تقدم خوفا على بلاد الشام فلما انهزم سيف الدين وحصر هو حلب وملك بلادها واصطلحوا أمن على البلاد فسار إلى مصر وأمر ببناء سور على مصر والقاهرة الذى على جبل المقطم دوره تسعة وعشرين ألف ذراع وثلثمائة ذراع بالذراع الهاشمى؛ ولم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين.

﴿ذكر ظفر للمسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين﴾ كان شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم صاحب

Marfat.com

بعلبك فأتاه خبر أن جمعا من الفرنج قد قصدوا البقاع من أعمال بعلبك وأغاروا عليها فسار إليهم وكمن لهم فى الشعراء والغياض وأوقع بهم وقتل فيهم وأكثر وأسر نحو مائتى رجل منهم وسيرهم إلى صلاح الدين وكان شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين وهو الذى ملك اليمن قدوصل إلى دمشق كما ذكرناه وهو فيها فسمع أن طائفة من الفرنج قدخرجوا من بلادهم إلى أعمال دمشق فسار إليهم ولقيهم عند عين الجر فى تلك المروج فلم يثبت لهم وانهزم عنهم فظفروا بجمع من أصحابه فأسروهم منهم سيف الدين أبو بكر بن السلار وهو من أعيان الجند الدمشقيين واجترأ الفرنج بعدها وانبسطوا فى تلك الولاية وجبروا الكسر الذى ناله منهم ابن المقدم

﴿ذكر عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده إلى طاعته﴾ فى هذه السنة عصى شهاب الدين محمد بن يزان صاحب شهرزور على سيف الدين غازى وكان فى طاعته وتحت حكمه وكان سبب ذلك أن مجاهد الدين قايماز كان متوليا مدينة إربل وكان بينه وبين ابن يزان عداوة محكمة فلما استناب سيف الدين مجاهد الدين بالموصل، خاف ابن يزان أن يناله منه أذى، فأظهر الامتناع من النزول إلى الخدمة فأرسل إليه جلال الدين وزير سيف الدين كتابا يأمره بمعاودة الطاعة ويحذره عاقبة المخالفة وهو من أحسن الكتب وأبلغها فى هذا المعنى ولولا خوف التطويل لذكرته فيطلب من مكاتباته فلما وصل إليه الكتاب والرسول بادر إلى حضور الخدمة بالموصل وزال الخلف.

﴿ذكر فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ﴾ بالقرب من جزيرة ابن عمر حصن منيع من أمنع المعاقل اسمه فلك وهو على رأس جبل عال وهو للأكراد البشنوية له بأيديهم نحو ثلثمائة سنة وكان صاحبه هذه السنة أميرا منهم اسمه إبراهيم وله أخ اسمه عيسى قد أخرج منه وهو لا يزال يسعى فى أخذه من أخيه إبراهيم فأطاعه بعض بطانة إبراهيم وفتح باب السر ليلا وأصعد منه إلى رأس القلعة نيفا وعشرين رجلا فقبضوا على إبراهيم ومن عنده ولم يكن عنده إلا نفر من خواصه وهذه قلة على صخرة كبيرة مرتفعة عن سائر القلعة ارتفاعا كثيرا وبها يسكن الأمير وأهله وخواصه وباقى الجند فى القلعة تحت القلة فلما قبضوا إبراهيم جعلوه فى خزانة وضربه بعضهم بسيف فى يده على عاتقه فلم يصنع شيئا فلما جعل فى الخزانة وكل به رجلين وصعد الباقون إلى سطح القلة ولا يشكون أن القلعة لهم لامانع عنها ووصل من الغد بكرة الأمير عيسى ليتسلم القلعة وبينهما دجلة وكانت امرأة الأمير إبراهيم فى خزانة أخرى وفيها شباك حديد ثقيل يشرف إلى القلعة فجذبته بيدها فانقلع وجند زوجها فى القلعة لا يقدرون على شىء فلما قلعت الشباك أرادت أن تدلى حبلا ترفع به الرجال إليها فلم يكن عندها غير ثياب خام فوصلت بعضها ببعض ودلتها إلى القلعة وشدت طرفيها عندها فى عود فأصعدت إليها عشرة رجال ولم يكن يراهم الذين على السطح ورأى الأمير عيسى وهو على جانب دجلة الرجال يصعدون فصاح هو ومن معه إلى أولئك الذين على السطح ليحذروا وكان كلما صاحوا صاح أهل القلعة لتختلف الأصوات فلا يفهم الذين على السطح فينزلون ويمنعون من ذلك فلما اجتمع عندها عشرة رجال أرسلت مع خادم عندها إلى زوجها قدح شراب وأمرته أن يقرب منه كأنه يسقيه الشراب ويعرفه الحال ففعل ذلك وجلس بين يديه ليسقيه وعرفه الحال فقال ازدادوا من الرجال فأصعدت عشرين رجلا وخرجوا من عندها فمد إبراهيم يده إلى الرجلين الموكلين به فأخذ شعورهما وأمر الخادم بقتلهما وكان عنده فقتلهما بسلاحهما فخرج واجتمع بأصحابه وأرادوا فتح القلعة ليصعد إليه أصحابه من القلة فلم يجد المفاتيح وكانت مع أولئك الرجال الذين على السطح فاضطروا إلى الصعود إلى سطح القلعة ليأخذوا أصحاب عيسى فعلموا الحال فجاؤا ووقفوا على رأس الممر

فلم يقدر أحد يفعل فأخذ بعض أصحاب إبراهيم ترسا وجعله على رأسه وحصل فى الدرجة وصعد وقاتل القوم على رأس الممرق حتى صعد أصحابه فقتلوا الجماعة و بقى منهم رجل ألقى نفسه من السطح فنزل إلى أسفل الجبل فتقطع فلما رآى عيسى ماحل بأصحابه عاد خائبا بما أمله واستقر الأمير إبراهيم فى قلعته على حاله .

﴿ ذكر نهب البندنيجين ﴾ فى هذه السنة وصل الملك الذى بخوزستان عند شملة وهو ابن ملكشاه بن محمود إلى البندنيجين فخربها ونهبها وفتك فى الناس وسبى حريمهم وفعل كل قبيح ووصل الخبر إلى بغداد فخرج الوزير عضد الدين وعرض العسكر ووصل عسكر الحلة وواسط مع طاشتكين أمير الحاج وغرغلى وساروا نحو العدو فلما سمع بوصولهم فارق مكانه وعاد وكان معه من التركمان جمع كثير فنهبهم عسكر بغداد ورجعوا من غير أمر بالعود فأنكر عليهم ذلك وأمروا بالعود إلى مواقفهم فعادوا لأوائل شهر رمضان وقد رجع الملك فنهب من البندنيجين ما كان سلم فى الأول ووقعت بينهم و بين الملك وقعة ثم افترقوا فمضى الملك وفارق ولاية العراق

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الأولى أقيمت الصلاة فى الجامع الذى بناه فخر الدولة ابن المطلب بقصر المأمون غربى بغداد وفيها أمر صلاح الدين ببناء المدرسة التى على قبر الشافعى رضى الله عنه بمصر وعمل بالقاهرة بيمارستان ووقف عليهما الوقوف العظيمة الكبيرة وفيها رأيت بالموصل خروفين ببطن واحد ورأسين ورقبتين وظفرين وثمانى قوائم كانهما خروفان ببطن واحد وجه أحدهما إلى وجه الآخر وهذا من العجائب . وفيها انقض كوكب أضاءت له الأرض إضاءة كثيرة وسمع له صوت عظيم وبقى أثره فى السماء مقدار ساعة وذهب . وفيها توفى تاج الدين أبو على الحسن بن عبدالله المظفر بن رئيس الرؤساء أخو الوزير عضد الدين وزير الخليفة . وفيها فى المحرم توفى القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى قاضى دمشق وجميع الشام واليه الوقوف بها والديوان وكان جوادا فاضلا رئيسا ذا عقل ومعرفة فى تدبير الدول رحمه الله ورضى عنه(١) .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر انهزام صلاح الدين بالرملة ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الأولى سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من مصر إلى ساحل الشام لقصد غزاة بلاد الفرنج وجمع معه عساكره وجنوده فلم يزالوا يجدون السير حتى وصلوا إلى عسقلان فى الرابع والعشرين منه فنهبوا وأسروا وقتلوا وأحرقوا وتفرقوا فى تلك الأعمال مغيرين فلما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمى البلاد من المسلمين طمعوا وانبسطوا وساحوا فى الأرض آمنين وصل صلاح الدين إلى الرملة عازما على أن يقصد بعض حصونهم ليحصره فوصل إلى نهر فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم إلا والفرنج قد أشرفت عليهم بأطلابها وأبطالها وكان مع صلاح الدين بعض

---

(١) وفيها توفى على بن عساكر بن المرحب بن العوام أبو الحسن البطائحى المقرى اللغوى ، سمع الحديث وأسمعه وكان حسن المعرفة بالنحو واللغة ، ووقف كتبه بمسجد ابن جرارة ببغداد ، توفى فى شعبان وقد نيف على الثمانين . وفيها توفى الخطيب شمس الدين بن الوزير أبو الضياء خطيب الديار المصرية ، وابن وزيرها ، كان أول من خطب بديار مصر للخليفة المستضىء بأمر الله العباسى ، بأمر الملك صلاح الدين ، ثم حظى عنده حتى جعله سفيرا بينه وبين الملوك والخلفاء وكان رئيسا مطاعا كريما ممدحا ، يقرأ عليه الشعراء والادباء . ثم جعل الناصر مكانه الشهرزورى المتقدم بمرسوم السلطان ، وصارت وظيفة مقررة .

Marfat.com

عسكر لأن أكثرهم تفرقوا فى طلب الغنيمة فلما رآهم وقف لهم فيمن معه وتقدم بين يديه محمد ابن أخى صلاح الدين فباشر القتال بنفسه بين يدى عمه فقتل من أصحابه جماعة وكذلك من الفرنج وكان لتقى الدين ولد اسمه أحمد وهو من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته فأمره أبوه بالحملة عليهم فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالما قد أثر فيهم أثرا كثيرا فأمره بالعودة إليهم ثانية فحمل عليهم فقتل شهيدا ومضى حميدا رحمه الله ورضى عنه وكان أشد الناس قتالا ذلك اليوم الفقيه عيسى رحمه الله وتمت الهزيمة على المسلمين وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كان يصل إليه فقتل الفرنجى بين يديه وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزما يسير قليلا ويقف ليلحقه العسكر إلى أن دخل الليل فسلك البرية إلى أن مضى فى نفر يسير إلى مصر ولقوا فى طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء وهلك كثير من دواب العسكر جوعا وعطشا وسرعة سير وأما العسكر الذى كانوا دخلوا بلاد الفرنج فى الغارة فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير وكان من جملة من أسر الفقيه عيسى الهكارى وهو من أعيان الأسدية وكان جمع العلم والدين والشجاعة وأسر أيضا أخوه الظهير وكانا قد سارا منهزمين فضلا الطريق فأخذا ومعهما جماعة من أصحابهما وبقوا سنين فى الأسر فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينار وجماعة كثيرة من الأسرى ووصل صلاح الدين إلى القاهرة نصف جمادى الآخرة ورأيت كتابا كتبه صلاح الدين بخط يده إلى أخيه شمس الدولة تورانشاه وهو بدمشق يذكر الوقعة وفى أوله :

ذكرتك والخطىّ يخطر بيننا * وقد نهلت منا المثقفة السمر

ويقول فيه لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما أنجانا الله سبحانه منه إلا لأمر يريد سبحانه :

* وما ثبتت إلا وفى نفسها أمر *

﴿ذكر حصر الفرنج مدينة حماة﴾ فى هذه السنة فى جمادى الأولى حصر الفرنج أيضا مدينة حماة وسبب ذلك أنه وصل من البحر إلى الساحل الشامى كند كبير من الفرنج من أكبر طواغيتهم فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزما فاغتنم خلو البلاد لأن شمس الدولة بن أيوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين وليس عنده كثير من العسكر وكان أيضا كثير الانهماك فى اللذات مائلا إلى الراحات فجمع ذلك الكند الفرنجى من لشام من الفرنج وفرق فيهم الأموال وسار إلى مدينة حماة فحصرها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمى خال صلاح الدين وهو مريض شديد المرض وكان طائفة من العسكر الصلاحى بالقرب منها فدخلوا اليها وأغاثوا من بها وقاتل الفرنج على البلد قتالا شديدا وهجموا بعض الأيام على طرف منه وكادوا يملكون البلد قهرا وقسرا فاجتمع أهل البلد مع العسكر إلى تلك الناحية واشتد القتال وعظم الخطب على الفريقين واستقتل المسلمون وحاموا عن الأنفس والأهل والمال فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهره ودام القتال ظاهر البلد ليلا ونهارا وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد وطمعوا فيهم وأكثروا فيهم القتل فرحل الفرنج حينئذ خائبين وكفى الله المسلمين شرهم فساروا إلى حارم فحصروها وكان مقامهم على حماة أربعة أيام ولما رحل الفرنج عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمى وكان له ابن من أحسن الناس شبابا مات قبله بثلاثة أيام .

﴿ذكر قتل كمشتكين وحصر الفرنج حارم﴾ فى هذه السنة قبض الملك الصالح بن نور الدين على سعد الدين كمشتكين وكان المتولى لأمر دولته والحاكم فيها وسبب قبضه أنه كان بحلب إنسان من أعيان أهلها يقال له

Marfat.com

أبو صالح بن العجمى وكان مقدما عند نورالدين محمود فلما مات نورالدين تقدم أيضا فى دولة ولده الملك الصالح وصار بمنزلة الوزير الكبير المتمكن لكثرة أتباعه بحلب وصار كل من كان يحسد كمشتكين انضم إلى صالح وقووا جنانه وكثروا سواده وكان عنده إقدام وجراءة فصار واحد الدولة بحلب ومن يصدر الجماعة عن رأيه وأمره فبينما هو فى بعض الأيام فى الجامع وثب به الباطنية فقتلوه ومضى شهيدا وتمكن بعده سعدالدين وقوى حاله فلما قتل أحال الجماعة قتله على سعد الدين وقالوا هو وضع الباطنية عليه حتى قتلوه وذكروا ذلك للملك الصالح ونسبوه إلى العجز وأنه ليس له حكم وأن سعد الدين قد تحكم عليه واحتقره واستصغره وقتل وزيره ولم يزالوا به حتى قبض عليه وكانت قلعة حارم لسعد الدين قد أقطعه إياها الملك الصالح فامتنع من بها بعد قبضه وتحصن فيها فسير سعدالدين إليها تحت الاستظهار ليأمر أصحابه بتسليمها إلى الملك الصالح فأمرهم بذلك فامتنعوا فعذب كمشتكين وأصحابه يرونه ولا يرحمونه فمات فى العذاب وأصر أصحابه على الامتناع والعصيان فلما رأى الفرنج ذلك ساروا إلى حارم من حماة فى جمادى الأولى على ماذكره ظنا منهم أنهم لا ناصر لهم وأن الملك الصالح صبي قليل العسكر وصلاح الدين بمصر فاغتنموا هذه الفرصة ونازلوها وأطالوا المقام عليها مدة أربعة أشهر ونصبوا عليها المنجنيقات والسلالم فلم يزالوا كذلك إلى أن بذل لهم الملك الصالح مالا وقال لهم إن صلاح الدين واصل إلى الشام وربما يسلم القلعة من بها اليه فأجابوه حينئذ إلى الرحيل عنها فلما رحلوا عنها سير اليها الملك الصالح جيشا فحصروها وقد بلغ الجهد منهم بحصار الفرنج وصاروا كانهم طلائع وكان قد قتل من أهلها وجرح كثير فسلموا القلعة إلى الملك الصالح فاستناب بها مملوكا كان لأبيه اسمه سرخك .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة فى المحرم خطب للسلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه المقيم عند أيلدكز بهمذان وكان أبوه أرسلان قد توفى وفيها سابع شوال هبت ببغداد ريح عظيمة فزلزلت الأرض واشتد الأمر على الناس حتى ظنوا أن القيامة قد قامت فبقى ذلك ساعة ثم انجلت وقد وقع كثير من الدور ومات فيها جماعة كثيرة . وفيها رابع ذى القعدة قتل عضدالدين أبو الفرج محمد بن عبدالله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبى القاسم بن المسلمة وزير الخليفة وكان قد عزم على الحج فعبر دجلة ليسير وعبر معه أرباب المناصب وهو فى موكب عظيم وتقدم إلى أصحابه أن لا يمنعوا عنه أحدا فلما وصل إلى باب قطيعا لقيه كهل فقال أنا مظلوم وتقدم ليسمع الوزير كلامه فضربه بسكين فى خاصرته فصاح الوزير قتلنى ووقع من الدابة وسقطت عمامته فغطى رأسه بكمه وضرب الباطنى بسيف وعاد إلى الوزير فضربه وأقبل حاجب الباب ابن المعوج لينصر الوزير فضربه الباطنى بسكين وقيل بل ضربه رفيق كان للباطنى ثم قتل الباطنى ورفيقه وكان لهما رفيق ثالث فصاح وبيده سكين فقتل ولم يعمل شيئا وأحرقوا ثلاثتهم وحمل الوزير إلى دار له هناك وحمل حاجب الباب مجروحا إلى بيته فمات هو والوزير وحمل الوزير فدفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند جامع المنصور وكان الوزير قد رأى فى المنام أنه معانق عثمان بن عفان وحكى عنه والده أنه اغتسل قبل خروجه وقال هذا غسل الإسلام وأنا مقتول بلا شك وكان مولده فى جمادى الأولى سنة أربع عشرة وخمسمائة وكان أبوه أستاذ دار المقتفى لأمر الله فلما مات ولى هو مكانه كذلك إلى أن مات المقتفى فأقره المستنجد على ذلك ورفع قدره فلما ولى المستضىء استوزره وكان حافظا للقرآن سمع الحديث وله معروف كثير وكانت داره مجمعا للعلماء وختمت أعماله بالشهادة وهو على قصد الحج . وفيها كانت فتنة ببغداد وسببها أنه حضر قوم من

Marfat.com

مسلمى المدائن إلى بغداد فشكوا من يهودها وقالوا لنا مسجد نؤذن فيه ونصلى وهو مجاور الكنيسة فقال لنا اليهود قد آذيتمونا بكثرة الأذان فقال المؤذن مانبالى بذلك فاختصموا وكانت فتنة استظهر فيها اليهود فجاء المسلمون يشكون منهم فأمر ابن العطار وهو صاحب المخزن بحبسهم ثم أخرجوا فقصدوا جامع القصر واستغاثوا قبل صلاة الجمعة فخفف الخطيب الخطبة والصلاة فعادوا يستغيثون فأتاهم جماعة من الجند ومنعوهم فلما رأى العامة مافعل بهم غضبوا نصرة للإسلام فاستغاثوا وقالوا أشياء قبيحة وقلعوا طوابيق الجامع ورجموا الجند فهربوا ثم قصد العامة دكاكين المخلطين لأن أكثرهم يهود فنهبوها وأراد حاجب الباب منعهم فرجموه فهرب منهم وانقلب البلد وخربوا الكنيسة التى عند دار البساسيرى وأحرقوا التوراة وأمر الخليفة أن تنقض الكنيسة التى بالمدائن وتجعل مسجدا ونصب بالرحبة أخشاب ليصلب عليها قوم من المفسدين فظنها العامة نصبت تخويفا لهم لأجل مافعلوا فعلقوا عليها فى الليل جرذا ماميته وأخرج جماعة من الحبس لصوص فصلبوا عليها . وفيها فى شعبان قبض سيف الدين غازى صاحب الموصل على وزيره جلال الدين على بن جمال الدين لغير جرم ولا عجز ولا لتقصير بل لعجز صيف الدين فإن جلال الدين كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز مشاحنة فقال مجاهد الدين لسيف الدين لا بد من قبض الوزير فقبض عليه كارها لذلك ثم شفع فيه ابن رئيس آمد لصهورة بينهما فأخرج وسار إلى آمد فمرض بها وعاد إلى دنيسر فمات سنة خمس وسبعين وعمره سبع وعشرون سنة وحمل إلى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم فدفن عند والده فى الرباط الذى بناه بها وكان رحمه الله من محاسن الدنيا جمع كرما وعلما ودينا وعفة وحسن سيرة واستحلفه سيف الدين أنه لا يمضى إلى صلاح الدين لأنه خاف أن يمضى إليه للمودة التى كانت بين جمال الدين وبين نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه فبلغنى أن صلاح الدين طلبه فلم يقصده لليمين . وفيها اجتمع الفرنج طائفة منهم وقصدوا أعمال حمص فنهبوها وغنموا وأسروا وسبوا فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وسبقهم ووقف على طريقهم وكمن لهم فلما وصلوا إليه خرج إليهم هو والكمين ووضعوا السيف فيهم فقتل أكثرهم وأسر جماعة من مقدميهم ومن سلم منهم لم يفلت إلا وهو مثخن بالجراح واسترد منهم جميع ماغنموا فرده على أصحابه . وفيها فى ربيع الآخر توفى صدقة بن الحسين الحداد الذى ذيل تاريخ لزاغونى ببغداد . وفيها فى جمادى الأولى توفى محمد بن أحمد بن عبد الجبار الفقيه الحنفى المعروف بالمشطب ببغداد[1]

✡(ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة)✡

﴿ذكر قصد الفرنج مدينة حماة أيضا﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول سار جمع كثير من الفرنج بالشام إلى

---

(١) وفيها توفى محمد بن أسعد بن محمد أبو منصور العطار، المعرف بحفدة، سمع الكثير وتفقه وناظر وأفتى ودرس، وقدم بغداد فمات بها . وفيها توفى محمود بن تتش شهاب الدين الحارمى خال السلطان صلاح الدين، كان من خيار الامراء وشجعانهم، أقطعه ابن أخته حماه، وقد حاصره الفرنج وهو مريض فأخذوا حماه وقتلوا بعض أهلها، ثم تناخى أهلها فردوهم خائبين . وفيها توفيت فاطمة بنت نصر العطار كانت من سادات النساء، وهى من سلالة أخت صاحب المخزن، كانت من العابدات المتورعات المخدرات، يقال إنها لم تخرج من منزلها سوى ثلاث مرات، وقد أثنى عليها الخليفة وغيره والله أعلم .

مدينة حماة وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعا فى النهب والغارة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى وأحرقوا وأسروا وقتلوا فلما سمع العسكر المقيم بحماة ساروا إليهم وهم قليل متوكلين على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والأسر فيهم واستردوا ماغنموه من السواد وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام فى شوال من السنة المتقدمة وهو نازل بظاهر حمص فحملت الرؤس والأسرى والأسلاب إليه فأمر بقتل الأسرى فقتلوا .

﴿ذكر عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه﴾ فى هذه السنة عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين ببعلبك وكانت له قد سلمها إليه صلاح الدين لما فتحها جزاء له حيث سلم إليه ابن المقدم دمشق على ماسبق ذكره فلم تزل بيده إلى الآن فطلب شمس الدولة محمد بن أيوب أخو صلاح الدين منه بعلبك وألح عليه فى طلبها لأن تربيته ومنشأه كان بها وكان يحبها ويختارها على غيرها من البلاد وكان الأكبر فلم يمكن صلاح الدين مخالفته فأمر شمس الدين بتسليمها إلى أخيه ليعوضه عنها فلم يجب إلى ذلك وذكره العهود التى له وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه فلم يصغ إليه وألح فى أخذها وسار ابن المقدم إليها واعتصم بها فوجه إليه صلاح الدين عسكرا وحصره بها مدة ثم رحل عنها من غير أن يأخذها وترك عليه عسكرا يحصره فلما طال عليه الحصار أرسل إلى صلاح الدين يطلب العوض عنها ليسلمها إليه فعوضه عنها وسلمها فاقطعها صلاح الدين أخاه شمس الدولة .

﴿ذكر الغلاء والوباء العام﴾ فى هذه السنة انقطعت الأمطار بالكلية فى سائر البلاد الشامية والجزيرة والعراقية والديار البكرية والموصل وبلاد الجبل وخلاط وغير ذلك واشتد الغلاء وكان عاما فى سائر البلاد فبيعت الغرارة الحنطة بدمشق وهى أربعة عشر مكوكا بالموصلى بعشرين دينارا صورية عتق وكان الشعير بالموصل كل ثلاث مكاكى بدينار أميرى وفى سائر البلاد ماينا سب ذلك واستسقى الناس فى أقطار الأرض فلم يسقوا وتعذرت الأقوات وأكلت الناس الميتة ومانا سبها ودام كذلك إلى آخر سنة خمس وسبعين ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد عام أيضا كثر فيه الموت وكان مرض الناس شيئا واحداً وهو السرسام وكان الناس لايلحقون يدفنون الموتى إلا أن بعض البلاد كان أشد من البعض ثم إن الله تعالى رحم العباد والبلاد والدواب وأرسل الأمطار وأرخص الأسعار ومن عجيب مارأيت أننى قصدت رجلا من العلماء الصالحين الجزيرة لأسمع عليه شيئا من حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان سنة خمس وسبعين والناس فى أشد ما كانوا غلاء وقنوطا من الأمطار وقد توسط الربيع ولم تجىء قطرة واحدة من المطر فبينا أنا جالس ومعى جماعة تنتظر الشيخ وإذ قد أقبل إنسان تركمانى قد أثر عليه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر فبكى وشكى الجوع فأرسلت من يشترى له خبزا فتأخر إحضاره لعدمه وهو يبكى ويتمرغ على الأرض ويشكو الجوع فلم يبق فينا إلا من بكى رحمة له وللناس فتغيمت السماء وجاءت نقط من المطر متفرقة فضج الناس واستغاثوا ثم جاء الخبز فأكل التركمانى بعضه وأخذ الباقى ومشى واشتد المطر ودام المطر من تلك الليلة .

﴿ذكر غارات الفرنج على بلاد المسلمين﴾ فى هذه السنة فى ذى القعدة اجتمع الفرنج وساروا إلى بلد دمشق مع ملكهم فأغاروا على أعمالها فنهبوها وأسروا وقتلوا وسبوا فأرسل صلاح الدين فرخشاه ولد أخيه فى جمع من العسكر إليهم وأمره أنه إذا قاربهم يرسل إليه يخبره على جناح طائر ليسير إليه وتقدم إليه أن يأمر

Marfat.com

اهل البلاد بالانتزاح من بين يدى الفرنج فسار فرخشاه فى عسكره يطلبهم فلم يشعر إلا والفرنج قد خالطوه فاضطر إلى القتال فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس وألقى فرخشاه نفسه عليهم وغشى الحرب ولم يكلها إلى سواه فانهزم الفرنج ونصر المسلمون عليهم وقتل من مقدميهم جماعة ومنهم هنفرى وما أدراك ماهنفرى كان يضرب به المثل فى الشجاعة والرأى فى الحرب وكان بلاء صبه الله على المسلمين فأراح الله من شره وقتل غيره من أضرابه ولم يبلغ عسكر فرخشاه ألف فارس . وفيها أيضا أغار البرنس صاحب أنطاكية ولاذقية على حشير المسلمين بشيزر وأخذه وأغار صاحب طرابلس على جمع كثير من التركمان فأجحف بأموالهم وكان صلاح الدين على بانياس على ماذكره إن شاء الله فسير ولد أخيه تقى الدين عمر إلى حماة وابن عمه ناصر الدين محمد ابن شيركوه إلى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو دمرهم الله تعالى .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ ليلة النصف من ربيع الآخر انكسف القمر نحو ثلث الليل الأخير وغاب منكسفا . وفيها أيضا فى التاسع والعشرين انكسفت الشمس وقت العصر فغربت منكسفة . وفى هذه السنة فى شعبان توفى الحيص بيص الشاعر واسمه سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس وكان قد سمع الحديث ومدح الخلفاء والسلاطين والأكابر وشعره مشهور فمنه قوله :

كلما أوسعت حلمى جاهلا * أوسع الفحش له فحش المقال
وإذا شاردة فهت بها * سبقت مر النعامى والشمال
لاتلمنى فى شقائى بالعلا * رغد العيش لربات الحجال
سيف عز زانه رونقه * فهو بالطبع غنى عن صقال(١)

---

(١) ومن شعر الحيص بيص الجيد :

سلامة المرء ساعة عجب * وكل شىء لحتفه سبب
يفر والحادثات تطلبه * يفر منها ونحوها الهرب
وكيف يبقى على تقلبه * مسلما من حياته العطب

ومن شعره أيضاً :

لا تلبس الدهر على غرة * فما لموت الحى من بد
ولا يخادعك طول البقاء * فتحسب التطويل من خلد
يقرب ما كان آخراً * ما أقرب المهد من اللحد

وإنما قيل له الحيص بيص لانه رأى الناس فى حركة واختلاط . وفيها توفى محمد بن نسيم أبو عبدالله الخياط ، عتيق الرئيس أبى الفضل بن عبسون ، سمع الحديث وقارب الثمانين ، سقط من درجة فمات . قال : أنشدنى مولى الدين يعنى ابن علام الحكيم بن عبسون .

للقارىء المحزون أجدر بالنقى * من راهب فى ديره متقوس
ومراقب الأفلاك كانت نفسه * بعبادة الرحمن أحرى الأنفس
والماسح الأرضين وهى فسيحة * أولى بمسح فى أكف اللمس
أولى بخشية ربه من جاهل * بمثلث ومربع ومخمس

Marfat.com

Marfat.com

وفى المحرم ماتت شهدة بنت أحمد بن عمر بن الإبرى وسمعت الحديث من السراج وطراد وغيرهما وعمرت هى قاربت مائة سنة وسمع عليها خلق كثير الحديث لعلو إسنادها .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر تخريب الحصن الذى بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان﴾ كان الفرنج قد بنوا حصنا منيعا يقارب بانياس عند بيت يعقوب عليه السلام بمكان يعرف بمخاضة الأحزان فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق إلى بانياس وأقام بها وبث الغارات على بلاد الفرنج ثم سار إلى الحصن وحصره ليخبره ثم يعود إليه عند اجتماع العساكر فلما نازل الحصن قاتل من به من الفرنج ثم عاد عنه فلما دخلت سنة خمس وسبعين لم يفارق بانياس بل أقام بها وخيله تغير على بلاد العدو وأرسل جماعة من عسكره مع جالبى الميرة فلم تشعر إلا والفرنج مع ملكهم قد خرجوا عليهم فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه الخبر فسار فى العساكر مجدا حتى وافاهم وهم فى القتال فقاتل الفرنج قتالا شديدا وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كثيرة ونجا ملكهم فريدا وأسر منهم كثير منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلا بعد الملك وأسروا أيضا أخاه صاحب جبيل وصاحب طبرية ومقدم الداوية ومقدم الاسبتارية وصاحب جينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم فأما ابن بيرزان فإنه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية وإطلاق ألف أسير من المسلمين وكان أكثر العمل فى هذا اليوم لعز الدين فرخشاه ابن أخى صلاح الدين وحكى عنه قال ذكرت فى تلك الحال بيتى المتنبى وهما :

فإن تكن الدولات قسما فإنها ٭ لمن يرد الموت الزؤام تؤول

ومن هون الدنيا على النفس ساعة ٭ وللبيض فى هام الكماة صليل

فهان الموت فى عينى فألقيت نفسى إليه وكان ذلك سبب الظفر ثم عاد صلاح الدين إلى بانياس من موضع المعركة وتجهز للدخول إلى ذلك الحصن ومحاصرته فسار إليه فى ربيع الأول وأحاط به وقوى طمعه بالهزيمة المذكورة فى فتحه وبث العساكر فى بلد الفرنج للإغارة ففعلوا ذلك وجمعوا من الأخشاب والزرحون شيئا كثيرا ليجعله متارس للمنجنيقات فقال له جاولى الأسدى وهو مقدم الأسدية ومن أكابر الأمراء الرأى أننا نجربهم بالزحف أول مرة ونذوق قتال من به وننظر الحال معهم فإن استضعفناهم وإلا فنصب المنجنيقات مايفوت فقبل رأيه وأمر فنودى بالزحف إليه والجد فى قتاله فزحفوا واشتد القتال وعظم الأمر فصعد إنسان من العامة بقميص خلق فى باشورة الحصن وقاتل على السور لما علاه وتبعه غيره من أضرابه ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم وحصنهم إلى أن يأتيهم المدد وكان الفرنج قد جمعوا بطبرية فألح المسلمون فى قتال الحصن خوفا من وصول الفرنج إليهم وإزاحتهم عنه وأدركهم الليل فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد ففعلوا فلما كان الغد أصبحوا نقبوا الحصن وعمقوا النقب وأشعلوا النيران فيه وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه فإنه كان تسعة أذرع بالنجارى يكون الذراع ذراعا ونصفا فانتظروه يومين فلم يسقط فأمر صلاح الدين بإطفاء النار التى فى النقب لحمل الماء

Marfat.com

وألقى عليها فطفئت وعاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور والقوا فيه النار فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسروا كل من فيه وأطلقوا من كان به من أسارى المسلمين وقتل صلاح الدين كثيرا من أسرى الفرنج وأدخل الباقين إلى دمشق فسجنوا وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره وألحقه بالأرض وكان قد بذل الفرنج ستين ألف دينار مصرية ليهدموه بغير قتال فلم يفعلوا ظنا منهم أنه إذا بقى بناؤه تمكنوا به من كثير من بلاد الإسلام وأما الفرنج فاجتمعوا بطبريه ليحموا الحصن فلما أتاهم الخبر بأخذه فت فى أعضادهم فتفرقوا إلى بلادهم وأكثر الشعراء فيه فمن ذلك قول صديقنا المنشوبن نفاذة رحمه الله :

هلاك الفرنج أتى عاجلا * وقد آن تكسير صلبانها
ولولم يكن قد دنا حتفها * لما عمرت بيت أحزانها

وقول على بن محمد الساعاتى الدمشقى :

أتسكن أوطان النبيين عصبة * تمين لدى أيمانها وهى تحلف
نصحتكم والنصح للدين واجب * ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

﴿ذكر الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلج أرسلان﴾ فى هذه السنة كان الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومقدمهم ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وبين عسكر الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان صاحب بلاد قونية وأقصرا وسببها أن نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر رحمه الله كان قد أخذ قديما من قلج أرسلان حصن رعبان وكان بيد شمس الدين بن المقدم إلى الآن فطمع فيه قلج أرسلان بسبب أن الملك الصالح بحلب بينه وبين صلاح الدين فأرسل إليه من يحضره فاجتمع عليه جمع كثير يقال كانوا عشرين ألف فأرسل إليهم صلاح الدين تقى الدين فى ألف فارس فواقعهم وقاتلهم وهزمهم وأصلح حال تلك الولاية وعاد إلى صلاح الدين ولم يحضر معه تخريب حصن الأحزان فكان يفتخر ويقول هزمت بألف مقاتل عشرين ألفا .

﴿ذكر وفاة المستضىء بأمر الله وخلافه الناصر لدين الله﴾ فى هذه السنة فى ثانى ذى القعدة توفى الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد رضى الله عنه وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضة وكانت خلافته نحو تسع سنين وسبعة أشهر وكان مولده سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان عادلا حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ فى أخذ ماجرت العادة بأخذه وكان الناس معه فى أمن عام وإحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محبا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدا ومات سعيدا رضى الله عنه فلقد كانت أيامه كما قيل :

كأن أيامه من حسن سيرته * مواسم الحج والأعياد والجمع

ووزراؤه عضد الدين أبو الفرج بن رئيس الرؤساء إلى أن قتل فى ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ولما قتل حكم فى الدولة ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار وكان خيرا حسن السيرة كثير العطاء وتمكن تمكنا كثيرا فلما مات المستضىء قام ظهير الدين بن العطار فى أخذ البيعة لولده الناصر لدين الله أمير المؤمنين فلما تمت البيعة صار الحاكم فى الدولة أستاذ الدار مجد الدين أبا الفضل بن الصاحب وفى سابع

ذى القعدة قبض على ابن العطار ظهير الدين ووكل عليه فى داره ثم نقل إلى التاج وقيد ووكل به وطلبت ودائعه وأمواله وفى ليلة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة أخرج مينا على رأس حمال سرا فغمز به بعض الناس فثار به العامة فألقوه عن رأس الحمال وكشفوا سوأته وشدوا فى ذكره حبلا وسحبوه فى البلد وكانوا وضعوا بيده مغرفة يعنى أنها قلم وقد غمسوها فى العذرة ويقولون وقع لنا يامولانا إلى غير هذا من الأفعال الشنيعة ثم خلص من أيديهم ودفن هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم وكفه عن أموالهم وأعراضهم وسيرت الرسل إلى الآفاق لأخذ البيعة فسير صدر الدين شيخ الشيوخ إلى البهلوان صاحب همذان وأصفهان والرى وغيرها فامتنع من البيعة فراجعه صدر الدين وأغلظ له فى القول حتى إنه قال لعسكره فى حضرته مالهذا عليكم طاعة مالم يبايع أمير المؤمنين بل يجب عليكم أن تخلعوه من الإمارة وتقاتلوه فاضطر إلى البيعة والخطبة وأرسل رضى الدين القزوينى مدرس النظامية إلى الموصل لأخذ البيعة فبايع صاحبها وخطب للخليفة الناصر لدين الله فى الستة .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة هبت ريح سوداء مظلمة بالديار الجزرية والعراق وغيرها وعمت أكثر البلاد من الظهر إلى أن مضى من الليل ربعه وبقيت الدنيا مظلمة لايكاد الإنسان يبصر صاحبه وكنت حينئذ بالموصل فصلينا العصر والمغرب والعشاء الآخرة على الظن والتخمين وأقبل الناس على التضرع والتوبة والاستغفار وظنوا أن القيامة قد قامت فلما مضى مقدار ثلث الليل زال ذلك الظلام والعتمة التى غطت السماء فنظرنا فرأينا النجوم فعلمنا مقدار ما مضى من الليل لأن الظلام لم يزد بدخول الليل وكان كل من يصل من جهة من الجهات يخبر بمثل ذلك . وفيها فى ذى القعدة نزل شمس الدولة أخو صلاح الدين عن بعلبك وطلب عوضا عنها الإسكندرية فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه ابن أخيه فسار إليها وجمع أصحابه وأغار على بلاد الفرنج حتى وصل إلى قلعة صفد وهى مطلة على طبرية فسبى وأسر وغنم وخرج وفعل فى الفرنج أفاعيل عظيمة وأما شمس الدولة فإنه سار إلى مصر وأقام بالإسكندرية وإذا أراد الله أن يقبض رجلا بأرض جعل له إليها حاجة فإنه أقام بها إلى أن مات بها . وفيها قارب الجامع الذى بناه مجاهد الدين قايماز بظاهر الموصل من جهة باب الجسر الفراغ وأقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة وهو من أحسن الجوامع . وفيها توفى أحمد بن عبد الرحمن الصوفى شيخ رباط الزوزنى وسمع الحديث وكان يصوم الدهر وعبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف سمع الحديث ورواه وهو من بيت الحديث والقاضى عمر بن على بن الخضر أبو الحسن الدمشقى سمع الحديث ورواه وولى قضاء الحريم وعلى بن أحمد اليزيدى سمع الحديث الكثير وله وقف كتب كثيرة ببغداد وكان زاهدا خيرا صالحا ومحمد بن على بن حمزة بن الأقساسى نقيب العلويين بالكوفة وكان ينشد كثيرا :

رب قوم فى خلائقهم * غرر قد صيروا غررا ستر المال القبيح لهم * سترى إن زال ماسترا

ومحمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن سديد الدولة الأنبارى كاتب الإنشاء بعد أبيه وأبو الفتوح نصر ابن عبد الرحمن الدامغانى الفقيه كان مناظرا حسن المناظرة كثير العبادة ودفن عند قبر أبى حنيفة . (١)

---

(١) وفيها توفى إبراهيم بن على أبو إسحاق الفقيه الشافعى ، المعروف بابن الفراء الأموى ثم البغدادى ، كان فاضلا مناظرا فصيحا بليغا شاعرا ، توفى عن أربع وسبعين سنة وصلى عليه أبو الحسن القزوينى مدرس النظامية .
وفيها توفى المبارك بن على بن الحسين أبو محمد بن الطباخ البغدادى ، نزيل مكة ومجاورها ، وحافظ الحديث بها والمشار إليه بالعلم فيها كان يوم جنازته يوما مشهودا .

Marfat.com

﴿ ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية أخيه عز الدين بعده﴾ فى هذه السنة ثالث صفر توفى سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل وديار الجزيرة وكان مرضه السل وطال به ثم أدركه فى آخره برسام ومات ومن عجيب مايحكى أن الناس خرجوا سنة خمس وسبعين يستسقون لانقطاع الغيث وشدة الغلاء وخرج سيف الدين فى موكبه فثار به الناسَ وقصدوه بالاستغاثة وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر فأجابهم إلى ذلك فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا أبوابها ودخلوها ونهبوها وأراقوا مابها من خمور وكسروا الظروف وعملوا مالايحل فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان وخصوا بالشكوى رجلا من الصالحين يقال له أبوالفرج الدقاق ولم يكن فى الذى فعله العامة من النهب ومالا يجوز فعله إنما هو أراق الخمور ونهى العامة عن الذى يفعلونه فلم يسمعوا منه فلما شكى الخمارون منه أحضر بالقلعة وضرب على رأسه فسقطت عمامته فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل وقال والله لا غطيت رأسى حتى ينتقم الله لى ممن ظلمنى فلم يمض غير أيام حتى توفى الزردار الذى تولى أذاه ثم بعقبه مرض سيف الدين واستمر إلى أن مات وعمره حينئذ نحو ثلاثين سنة وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر وكان حسن الصورة مليح الشباب تام القامة أبيض اللون وكان عاقلا وقورا قليل الالتفات إذا ركب وإذا جلس عفيفا لم يذكر عنه ما ينافى العفة وكان غيورا شديد الغيرة لايدخل دوره غير الخدم الصغار فإذا كبر أحدهم منعه وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ الأموات على شح فيه وجبن ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجرشاه وكان عمره حينئذ اثنى عشره سنة فخاف على الدولة من ذلك لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقوى أمره وامتنع أخوه عز الدين مسعود بن مودود من الإذعان لذلك والإجابة إليه فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل الملك بعد فى عز الدين أخيه لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النفس وأن يعطى ابنيه بعض البلاد ويكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما والمتولى لأمرهما مجاهد الدين قايماز ففعل ذلك وجعل الملك فى أخيه وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك فلما توفى سيف الدين ملك بعده الموصل والبلاد أخوه عز الدين وكان المدبر للدولة مجاهد الدين وهو الحاكم فى الجميع واستقرت الأمور ولم يختلف اثنان .

﴿ ذكر مسير صلاح الدين لحرب قلج أرسلان ﴾ فى هذه السنة سار صلاح الدين يوسف بن أيوب من الشام إلى بلاد قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان وهى ملطية وسنواس وما بينهما وقونية ليحاربه وسبب ذلك أن نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر كان قد تزوج ابنة قلج أرسلان المذكور وبقيت عنده مدة ثم إنه أحب مغنية فتزوجها ومال إليها وحكمت فى بلاده وخزائنه وأعرض عن ابنة قلج أرسلان وتركها نسيا منسيا فبلغ أباها الخبر فعزم على نور الدين وأخذ بلاده فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يستجير به ويسأله كف يد قلج أرسلان عنه فأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان فى المعنى فأعاد الجواب إننى كنت قد سلمت إلى نور الدين عدة حصون تجاور بلاده لما تزوج ابنتى فحيث آل

Marfat.com

Marfat.com

الأمر معه إلى ما يعلمه فأنا أريد أن يعيد إلى ما أخذه منى وترددت الرسل بينهما فلم يستقر حال فيهما فهادن صلاح الدين الفرنج وسار فى عساكره وكان الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود بها فتركها ذات اليسار وسار على تل باشر إلى رعبان فأتاه بها نور الدين محمد وأقام عنده فلما سمع قلج أرسلان بقربه منه أرسل إليه أكبر أمير عنده ويقول له إن هذا الرجل فعل مع ابنتى كذا ولا بد من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه فلما وصل الرسول واجتمع بصلاح الدين وأدى الرسالة امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ وقال للرسول قل لصاحبك والله الذي لا إله إلا هو لئن لم يرجع لأسيرن إلى ملطية وبينى وبينها يومان ولا أنزل عن فرسى إلا فى البلد ثم أقصد جميع بلاده وآخذها منه فرأى الرسول أمرا شديدا فقام من عنده وكان قد رأى العسكر وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك ليس عنده ما يقاربه فعلم أنه إن قصدهم أخذ بلادهم فأرسل إليه من الغد يطلب أن يجتمع به فأحضره فقال له أريد أن أقول شيئا من عندى ليس رسالة عن صاحبى وأحب أن تنصفنى فقال له قل قال يا مولانا ما هو قبيح بمثلك وأنت أعظم السلاطين وأكبرهم شأنا أن تسمع الناس عنك إنك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك والمسلمين عامة وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة وسرت وخسرت أنت وعساكرك الأموال العظيمة لأجل قحبة مغنية ما يكون عذرك عند الله تعالى ثم عند الخليفة وملوك الإسلام وكافة العالم وأحسب أن أحدا ما يواجهك بهذا أما يعلمون أن الأمر هكذا ثم أحسب أن قلج أرسلان مات وهذه ابنته قد أرسلتنى إليك تستجيرك وتسألك أن تنصفها من زوجها فإن فعلت فهو الظن بك أن لا تردها فقال والله الحق بيدك وإن الأمر لكما تقول ولكن هذا الرجل دخل على واستجار بى ويقبح بى تركه لكنك أنت اجتمع به وأصلح الحال بينكم على ما تحبون وأنا أعينكم عليه وأقبح فعله ووعد من نفسه بكل جميل فاجتمع الرسول بصاحب الحصن وتردد القول بينهم فاستقر أن صاحب الحصن يخرج المغنية عنه بعد سنة ، وإن كان لا يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وقلج أرسلان عليه واصطلحوا على ذلك وعاد صلاح الدين عنه إلى الشام وعاد نور الدين إلى بلاده فلما انقضت المدة أخرج نور الدين المغنية عنه فتوجهت إلى بغداد وأقامت بها إلى أن ماتت .

﴿ذكر قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمنى﴾ وفيها قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمنى بعد فراغه من أمر قلج أرسلان وسبب ذلك أن ابن ليون الأرمنى كان قد استمال قوما من التركمان وبذل لهم الأموال فأمرهم أن يرعوا مواشيهم فى بلاده وهى بلاد حصينة كلها حصون منيعة والدخول إليها صعب لأنها مضايق وجبال وعرة ثم غدر بهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم وأسر رجالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله ونزل صلاح الدين على النهر الأسود وبث الغارات على بلاده فخاف ابن ليون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ فخربه وأحرقه فسمع صلاح الدين بذلك فأسرع السير إليه فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه فأرسل ابن ليون يبذل إطلاق من عنده من الأسرى والسبى وإعادة أموالهم على أن يعودوا عن بلاده فأجابه صلاح الدين إلى ذلك واستقر الحال وأطلق الأسرى وأعيدت أموالهم وعاد صلاح الدين عنه فى جمادى الآخرة .

﴿ذكر ملك يوسف بن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه﴾ فى هذه السنة سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى أفريقية وملك قفصة وكان سبب ذلك أن صاحبها على بن المعز بن المعتز لما رأى

Marfat.com

دخول الترك إلى أفريقية واستيلاءهم على بعضها وانقياد العرب إليهم طمع أيضا فى الاستبداد والانفراد عن يوسف وكان فى طاعته فأظهر مافى نفسه وخالفه وأظهر العصيان ووافقه أهل قفصة فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين أصحاب أبى يعقوب وكان ذلك فى شوال سنة اثنين وسبعين وخمسمائة فأرسل وإلى بجاية إلى يوسف ابن عبدالمؤمن يخبره باضطراب أمور البلاد واجتماع كثير من العرب إلى قراقوش التركى الذى دخل إلى أفريقية وقد تقدم ذكر ذلك وما جرى فى قفصة من قتل الموحدين ومساعدة أهل قفصة صاحبهم على ذلك فشرع فى سد الثغور التى يخافها بعد مسيره فلما فرغ من جميع ذلك تجهز العسكر وسار إلى أفريقية سنة خمس وسبعين ونزل على مدينة قفصة وحصرها ثلاثة أشهر وهى بلد حصينة وأهلها أنجاد وقطع شجرها فلما اشتد الأمر على صاحبها وأهلها خرج منها مستخفيا لم يشعر به أحد من أهل قفصة ولا من عسكره وسار إلى خيمة يوسف وعرف حاجبه أنه قد حضر إلى أمير المؤمنين يوسف فدخل الحاجب وأعلم يوسف بوصول صاحب قفصة إلى باب خيمته فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد وأمر بإدخاله عليه فدخل وقبل يده وقال قدحضرت أطلب عفو أمير المؤمنين عنى وعن أهل بلدى وأن يفعل ماهو أهله واعتذر فرق له يوسف فعفا عنه وعن أهل البلد وتسلم المدينة أول سنة ست وسبعين وسير على بن المعز صاحبها إلى بلاد المغرب فكان فيها مكرما عزيزا وأقطعه ولاية كبيرة ورتب يوسف لقفصة طائفة من أصحابه الموحدين وحضر مسعود بن زمام أمير العرب عند يوسف أيضا فعفا عنه وسيره إلى مراكش وسار يوسف إلى المهدية فأتاه بها رسول ملك الفرنج صاحب صقلية يلتمس منه الصلح فهادنه عشر سنين وكانت بلاد أفريقية مجدبة فتعذر على العسكر القوت وعلف الدواب فسار إلى المغرب مسرعا والله أعلم.

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة توفى شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية وكان قد أخذها من أخيه إقطاعا وأقام بها فتوفى وكان له أكثر بلاد اليمن ونوابه هناك يحملون إليه الأموال من زبيد وعدن وما بينهما من البلاد والمعاقل وكان أجود الناس وأسخاهم كفا يخرج كل مايحمل إليه من أموال اليمن ودخل الإسكندرية وحكمه فى بلاد أخيه صلاح الدين وأمواله نافذ ومع هذا فلما مات كان عليه نحو مائتى ألف دينار مصرية دين فوفاها أخوه صلاح الدين عنه لما دخل إلى مصر فإنه لما بلغه خبر وفاته سار إلى مصر فى شعبان من السنة واستخلف بالشام عزالدين فرخشاه ابن أخيه شاهنشاه وكان عاقلا حازما شجاعا. وفيها توفى أبوطاهر أحمد بن محمد بن سلفة الأصفهانى بالإسكندرية وكان حافظ الحديث وعالما به سافر فى طلب الكثير وتوفى أيضا فى المحرم على بن عبدالرحيم المعروف بابن القصار اللغوى ببغداد وسمع الحديث وكان من أصحاب ابن الجوالیقى.

﴿ ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر غزاة إلى بلاد الكرك من الشام﴾ فى هذه السنة سار فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق إلى أعمال كرك ونهبها وسبب ذلك أن البرنس أرناط صاحب الكرك كان من شياطين الفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين فتجهز وجمع عسكره ومن أمكنه الجمع وعزم على المسير فى البر إلى تيماء ومنها إلى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم للاستيلاء على تلك النواحى الشريفة فسمع عزالدين فرخشاه ذلك فجمع العساكر الدمشقية

وسار إلى بلده ونهبه وخربه وعاد إلى طرف بلادهم وأقام بها ليمنع البرنس من المسلمين فامتنع من مقصده فلما طال مقام كل واحد منهما فى مقابلة الآخر علم البرنس أن المسلمين لايعودون حتى تفرق جمعه وانقطع طمعه من الحركة فعاد فرخشاه إلى دمشق وكفى الله المؤمنين من الكفار .

﴿ذكر تلبيس ينبغى أن يحتاط من مثله﴾ كان سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ الكنانى ينوب عن شمس الدولة أخى صلاح الدين باليمن وتحكم فى الأموال والبلاد بعد أن فارقها شمس الدولة كماذكرنا وكان هواه بالشام لأنه وطنه فأرسل إلى شمس الدولة يطلب الإذن فى المجىء اليه فأذن له فى المجىء فاستناب بزبيد أخاه حطان بن كامل بن منقذ الكنانى وعاد إلى شمس الدولة وكان معه بمصر فمات شمس الدولة وبقى مع صلاح الدين فقيل عنه أنه أخذ أموال اليمن وادخرها وسعى به أعداؤه فلم يعارضه صلاح الدين فلما كان هذه السنة وصلاح الدين بمصر اصطنع سيف الدولة طعاما وعمل دعوة كبيرة ودعا اليها أعيان الدولة الصلاحية بقرية تسمى العدوية وأرسل أصحابه يتجهزون من البلد ويشترون مايحتاجون اليه من الأطعمة وغيرها فقيل لصلاح الدين إن ابن منقذ يريد الهرب وأصحابه يتزودون له ومتى دخل اليمن أخرجه عن طاعتك فأرسل صلاح الدين فأخذه والناس عنده وحبسه فلما سمع صلاح الدين جلية الحال علم أن الحيلة تمت لأعدائه فى قبضه فخفف ما كان عنده وسهل أمره وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية سوى ماالحقها من الحمل لإخوة صلاح الدين وأصحابه وأطلقه وأعاده إلى منزلته وكان أديبا شاعرا .

﴿ذكر إرسال صلاح الدين العساكر إلى اليمن﴾ فى هذه السنة سير صلاح الدين جماعة من أمرائه منهم صارم الدين قتلغ أبه والى مصر إلى اليمن للاختلاف الواقع بها بين نوّاب أخيه شمس الدولة وهم عزالدين عثمان بن الزنجبيلى والى عدن وحطان بن منقذ والى زبيد وغيرهما فإنه لما بلغهم وفاة صاحبهم اختلفوا وجرت بين عزالدين عثمان وبين حطان حرب وكل واحد منهما يروم أن يغلب الآخر على مابيده واشتد الأمر فخاف صلاح الدين أن يطمع أهل البلاد فأرسل هؤلاء الأمراء اليها واستولى قتلغ أبه على زبيد وأزال حطان عنها ثم مات قتلغ أبه فعاد حطان إلى إمارة زبيد وأطاعه الناس لجوده وشجاعته .

﴿ذكر وفاة الملك الصالح وملك ابن عمه عزالدين مسعود مدينة حلب﴾ فى هذه السنة فى رجب توفى الملك الصالح اسمعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها وعمره نحو تسع عشرة سنة ولما اشتد مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر للتداوى فقال لاأفعل حتى أستفتى الفقهاء فاستفتى فأفتاه فقيه من مدرسى الحنفية بجواز ذلك فقال له أرأيت إن قدّر الله تعالى بقرب الأجل أيؤخره شرب الخمر فقال له الفقيه لا فقال والله لالقيت الله سبحانه وقداستعملت ماحرمه علىّ ولم يشربه فلما أيس من نفسه أحضر الأمراء وسائر الأجناد ووصاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عزالدين مسعود بن مودود بن زنكى واستحلفهم على ذلك فقال له بعضهم إن عمادالدين بن عمك أيضا وهو زوج أختك وكان والدك يحبه ويؤثره وهو تولى تربيته وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أصلح وعزالدين له من البلاد من الفرات إلى همذان ولا حاجة به إلى بلدك فقال له إن هذا لم يغب عنى ولكن قد علمتم أن صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى مابيدى ومتى سلمت حلب إلى عمادالدين يعجز عن حفظها وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام وإن سلمتها إلى عزالدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه ثم مات وكان حليما كريما عفيف اليد والفرج واللسان ملازما

Marfat.com

Marfat.com

للدين لايعرف له شيء مما يتعاطاه الملوك والشباب من شرب خمر أو غيره حسن السيرة فى رعيته عادلا فيهم ولما قضى نحبه أرسل الأمراء إلى أتابك عزالدين يستدعونه إلى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات وأرسل احضر الأمراء عنده من حلب فحضروا وساروا جميعا إلى حلب ودخلها فى العشرين من شعبان وكان صلاح الدين حينئذ بمصر ولولا ذلك لزاحمهم عليها وقاتلهم فلما اجتاز فى طريقه إليها من الفرات كان تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها هاربا إلى حماة وثار أهل حماة ونادوا بشعار عزالدين فأشار عسكر حلب على عزالدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفى غيرها من بلاد الشام وأعلموه محبة أهلها له ولأهل بيته فلم يفعل وقال بيننا يمين فلانغدر به وأقام بحلب عدة شهور ثم سار عنها إلى الرقة .

﴿ذكر تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها﴾ لما دخل عزالدين إلى الرقة جاءته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب أن يسلم اليه حلب ويأخذ عوضا عنها مدينة سنجار فلم يجبه إلى ذلك ولج عماد الدين فى ذلك وقال إن سلمتم إلىّ حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين فأشار حينئذ جماعة من الأمراء بتسليمها اليه وكان أشدهم فى ذلك مجاهد الدين قايماز فلم يمكن عزالدين مخالفته لتمكنه فى الدولة وكثرة عساكره وبلاده وإنما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عزالدين لأنه عظم فى نفسه وكثر معه العسكر وكان الأمراء الحلبيون لايلتفتون إلى مجاهد الدين ويسلكون معه من الأدب مايفعله عسكر الموصل فاستقر الأمر على تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها فسار عماد الدين فتسلمها وسلم سنجار إلى أخيه وعاد إلى الموصل وكان صلاح الدين بمصر قد بلغه خبر ملك عزالدين حلب فعظم الأمر عليه وخاف أن يسير منها إلى دمشق وغيرها ويملك الجميع وأيس من حلب فلما بلغه ملك عماد الدين لها برز من مصر من يومه وسار إلى الشام وكان من الوهن على دولة عزالدين ماذكره إن شاء الله تعالى .

﴿ذكر حصر صاحب ماردين قلعة البيرة ومسير صاحبها مع صلاح الدين﴾ كانت قلعة البيرة وهى مطلة على الفرات من أرض الجزيرة لشهاب الدين الأرتقى وهو ابن عم قطب الدين ايلغازى بن ألبى بن تمرتاش بن أيلغازى بن أرتق صاحب ماردين وكان فى طاعة نورالدين محمود بن زنكى صاحب الشام فمات شهاب الدين وملك القلعة بعده ولده وصار فى طاعة عزالدين مسعود صاحب الموصل فلما كان هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عزالدين يطلب منه أن يأذن له فى حصر البيرة وأخذها فأذن له فى ذلك فسار فى عسكره إلى قلعة سميساط وهى له ونزل بها وسير العسكر إلى البيرة فحصرها فلم يظفر منها بطائل إلا أنهم لازموا الحصار فأرسل صاحبها إلى صلاح الدين وقد خرج من ديار مصر على ماذكره يطلب منه أن ينجده ويرحل العسكر المارداى عنه ويكون هو فى خدمته كما كان أبوه فى خدمة نورالدين فأجابه إلى ذلك وأرسل رسولا إلى صاحب ماردين يشفع فيه ويطلب أن يرحل عسكره عنه فلم يقبل شفاعته واشتغل صلاح الدين بما نذكره من الفرنج فلما رأى صاحب ماردين طول مقام عسكره على البيرة ولم يبلغوا منها غرضا أمرهم بالرحيل عنها وعاد إلى ماردين فسار صاحبها إلى صلاح الدين وكان معه حتى عبر معه الفرات على ماذكره إن شاء الله تعالى .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة كثرت المنكرات ببغداد فأقام حاجب الباب جماعة لإراقة الخمور وأخذ المفسدات فبينما امرأة منهن فى موضع علمت بمجىء أصحاب حاجب الباب فاضطجعت وأظهرت أنها مريضه وارتفع أنينها فرأوها على تلك الحال فتركوها وانصرفوا فاجتهدت بعدهم أن تقوم فلم تقدر وحملت

تصيح الكرب الكرب إلى أن ماتت وهذا من أعجب مايحكى . وفيها فى عاشر ذى الحجة توفى الأمير همام الدين تتر صاحب قلعة تكريت بالمزدلفة كان قد استخلف الأمير عيسى ابن أخى مودود وحج فتوفى ودفن بالمعلى مقبرة مكة . وفيها فى شعبان توفى عبدالرحمن بن محمد بن أبى سعيد أبو البركات النحوى المعروف بابن الأنبارى ببغداد وله تصانيف حسنة فى النحو وكان فقيها صالحا . وفيها توفى إبراهيم بن محمد بن مهران الفقيه الشافعى بجزيرة ابن عمر وكان فاضلا كثير الورع .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر مسير صلاح الدين إلى الشأم وإغارته على الفرنج ﴾ فى هذه السنة خامس المحرم سار صلاح الدين عن مصر إلى الشام ومن عجيب مايحكى من التطير أنه لما برز من القاهرة أقام بخيمته حتى تجتمع العساكر والناس عنده وأعيان دولته والعلماء وأرباب الآداب فمن بين مودع له وسائر معه وكل منهم يقول شيئا فى الوداع والفراق ومامم بصدده من السفر وفى الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد :

تمتع من شميم عرار نجد * فما بعد العشية من عرار

فانقبض صلاح الدين بعد انبساطه وتطير وتنكد المجلس على الحاضرين فلم يعد إليها إلى أن مات مع طول المدة ثم سار عن مصر وتبعه من التجار وأهل البلاد ومن كان قصد مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره عالم كثير فلما سار جعل طريقه على أيلة فسمع أن الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير فلما قارب بلادهم سير الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بورى إلى دمشق وبقى هو فى العساكر المقاتلة لا غير فشن الغارات بأطراف بلادهم وأكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك فلم يخرج إليه منهم أحد ولا أقدم على الدنو منه ثم سار فأتى دمشق فوصلها حادى عشر صفر من السنة .

﴿ ذكر ملك المسلمين شقيفا من الفرنج ﴾ فى هذه السنة أيضا فى صفر فتح المسلمين بالشام شقيفا من الفرنج يعرف بحبس جلدك وهو من أعمال طبرية مطل على السواد وسبب فتحه أن الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام جمعوا له وحشدوا الفارس والراجل واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم ينتهزون فرصة أو يظفرون بنصرة وربما عاقوا المسلمين عن المسير بأن يقفوا على بعض المضايق فلما فعلوا ذلك خلت بلادهم من ناحية الشام فسمع فرخشاه الخبر فجمع من عنده من عساكر الشام ثم قصد بلاد الفرنج وأغار عليها ونهب دبورية ومايجاورها من القرى وأسر الرجال وقتل وأكثر وسبى النساء وغنم الأموال وفتح منهم الشقيف وكان على المسلمين منه أذى شديد ففرح المسلمون بفتحه فرحا عظيما وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة فلقيه فى الطريق ففت ذلك فى عضد الفرنج وانكسرت شوكتهم .

﴿ ذكر إرسال سيف الإسلام إلى اليمن وتغلبه عليه ﴾ فى هذه السنة سير صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغدكين إلى بلاد اليمن وأمره بتملكها وقطع الفتن بها وفوض إليه أمرها وكان بها حطان بن منقذ كما ذكرناه قبل وكتب عز الدين عثمان الزنجبيلى متولى عدن إلى صلاح الدين يعرفه باختلال البلاد ويشير بإرسال بعض أهله إليها لأن حطان كان قوى عليه فخافه عثمان فجهز صلاح الدين أخاه سيف الإسلام وسيره إلى بلاد اليمن

Marfat.com

فوصل إلى زبيد فخافه حطان بن منقذ واستشعر منه وتحصن فى بعض القلاع فلم يزل به سيف الإسلام يؤمنه ويهدى إليه ويتلطفه حتى نزل إليه فأحسن صحبته وعمل معه مالم يكن يتوقعه من الإحسان فلم يثق حطان به وطلب منه دستورا ليقصد الشام فامتنع من إجابته إظهارا للرغبة فى كونه عنده فلم يزل حطان يراجعه حتى أذن له فأخرج أثقاله وأمواله ودوابه وأهله وأصحابه وكل ماله وسير الجميع بين يديه فلما كان الغد دخل إلى سيف الإسلام ليودعه فقبض عليه واسترجع جميع ماله فأخذه عن آخره لم يسلم منه قليل ولا كثير ثم سجنه فى بعض القلاع وكان آخر العهد به فقيل إنه قتله وكان فى جملة ما أخذ منه من الأموال الذهب العين فى سبعين غلافا زردية مملوءة ذهبا عينا وأما عز الدين عثمان الزنجبيلى فإنه لما سمع ماجرى على حطان خاف فسار نحو الشام خائفا يترقب وسير معظم أمواله فى البحر فصادفهم مراكب فيها أصحاب سيف الإسلام فأخذوا كل مالعز الدين ولم يبق له إلا ماصحبه فى الطريق وصفت زبيد وعدن ومامعهما من البلاد لسيف الإسلام .

﴿ذكر إغارة صلاح الدين على الغور وغيره من بلاد الفرنج وأعمالها﴾ لما وصل صلاح الدين إلى دمشق كما ذكرناه أقام أياما يريح ويستريح هو وجنده ثم سار إلى بلاد الفرنج فى ربيع الأول فقصد طبرية فنزل بالقرب منها وخيم فى الأقحوانة من الأردن وجاءت الفرنج بجموعها فنزلت بطبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه إلى بيسان فدخلها قهرا وغنم مافيها وقتل وسبى وجحف الغور غارة شعواء فعم أهله قتلا وأسرا وجاءت العرب فأغارت على جينين واللجون وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا وسار الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب فتقدم صلاح الدين إليهم وأرسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب فلم يبرحوا ولم يتحركوا لقتال فأمر ابنى أخيه تقى الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج فيمن معهما فقاتلوا قتالا شديدا ثم إن الفرنج انحازوا على حاميتهم فنزلوا غفر بلا فلما رأى صلاح الدين ماقد أثخن فيهم وفى بلادهم عاد عنهم إلى دمشق

﴿ذكر حصر بيروت﴾ ثم إنه سار عن دمشق إلى بيروت فنهب بلدها وكان قد أمر الأسطول المصرى بالمجىء فى البحر إليها فساروا ونازلوها وأغاروا عليها وعلى بلدها وسار صلاح الدين فوافاهم ونهب مالم يصل الأسطول إليه وحصرها عدة أيام وكان عازما على ملازمتها إلى أن يفتحها فأتاه الخبر وهو عليها أن البحر قد ألقى بسطة للفرنج فيها جمع عظيم منهم إلى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة البيت المقدس فأسروا من بها بعد أن غرق منهم كثير فكان عدة الأسرى ألفا وستمائة وستا وسبعين أسيرا فضربت بذلك البشائر .

﴿ذكر عبور صلاح الدين الفرات وملكه ديار الجزيرة﴾ فى هذه السنة عبر صلاح الدين الفرات إلى الديار الجزرية وملكها وسبب ذلك أن مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على بن بكتكين وهو مقطع حران كان قد أقطعه إياها عز الدين أتابك المدينة والقلعة تقوية واعتمادا أرسل إلى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يعلمه أنه معه محب لدولته ووعده النصرة له إذا عبر الفرات ويطمعه فى البلاد ويحثه على الوصول فسار صلاح الدين عن بيروت ورسل مظفر الدين تترى إليه يحثه على المجىء فجد صلاح الدين فى السير مظهرا أنه يريد حصر حلب تسترا للحال فلما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين فعبر الفرات واجتمع به فقصد البيرة وهى قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزرى وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين وفى طاعته وقد ذكرنا سبب ذلك قبل فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذى عند البيرة وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة واجتماع لئلا يتعرض

صلاح الدين إلى حلب ثم تقدما إلى دار فنزلا عندها فجاءهما امر لم يكن فى الحساب فلما بلغهما عبور صلاح الدين الفرات عادا إلى الموصل وأرسلا إلى الرها عسكرا يحميها ويمنعها فلما سمع صلاح الدين ذلك قوى طمعه فى البلاد ولما عبر صلاح الدين الفرات كاتب الملوك أصحاب الأطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن إلى ماطلب منه لقاعدة استقرت بينهما لما كان نور الدين عنده بالشام فإنه استقر الحال أن صلاح الدين يحصر آمد ويملكها ويسلمها اليه وسار صلاح الدين إلى مدينة الرها فحصرها فى جمادى الأولى وقاتلها أشد قتال فحدثنى بعض من كان بها من الجند أنه عد فى غلاف رمح أربعة عشر خرقا وقد خرقته السهام ووالى الزحف عليها وكان بها حينئذ مقطع وهو الأمير فخر الدين مسعود الزعفرانى فحيث رأى شدة القتال أذعن إلى التسليم وطلب الأمان وسلم البلد وصار فى خدمة صلاح الدين فلما ملك المدينة زحف إلى القلعة فسلمها اليه الدزدار الذى بها على مال أخذه فلما ملكها سلمها إلى مظفر الدين مع حران ثم سار عنها على حران إلى الرقة فلما وصل اليها كان بها مقطعها قطب الدين ينال بن حسان المنبجى فسار عنها إلى عز الدين أتابك وملكها صلاح الدين وسار إلى الخابور قرقيسيا وماكسين وعرابان فملك جميع ذلك فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين فملك المدينة لوقتها وبقيت القلعة فحصرها عدة أيام فملكها أيضا وأقام بها ليصلح شأنها ثم أقطعها أميرا كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين وسار عنها ومعه نور الدين صاحب الحصن وأتاه الخبر أن الفرنج قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا إلى داريا وأرادوا تخريب جامعها فأرسل النائب بدمشق اليهم جماعة من النصارى يقول لهم إن أخربتم الجامع جددنا عمارته وأخربنا كل بيعة لكم فى بلادنا ولا نمكن أحدا من عمارتها فتركوه ولما وصل الخبر إلى صلاح الدين بذلك أشار عليه من يتعصب لعز الدين بالعود فقال يخربون قرى ونملك عوضها بلادا ونعود نعمرها ونقوى على قصد بلادهم ولم يرجع فكان كما قال .

﴿ذكر حصر صلاح الدين الموصل﴾ لما ملك صلاح الدين نصيبين جمع أمراءه وأرباب المشورة عنده واستشارهم بأى البلاد يبدأ وأيها يقصد بالموصل أم بسنجار أم بجزيرة ابن عمر فاختلفت آراؤهم فقال له مظفر الدين كوكبرى ابن زين الدين لا ينبغى أن يبدأ بغير الموصل فإنها فى أيدينا لا مانع لها فإن عز الدين ومجاهد الدين متى سمعا بمسيرنا اليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية ووافقه ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيرا ليقطعه الموصل إذا ملكها وقد أجابه صلاح الدين إلى ذلك فأشار بهذا الرأى لهواه فسار صلاح الدين إلى الموصل وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل وأظهرا من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار وبذلا الأموال الكثيرة وأخرج مجاهد الدين من ماله كثيرا واصطلى الأمور بنفسه فأحسن تدبيرها وشحنوا ما بقى بأيديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار والموصل وإربل وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والأموال وسار صلاح الدين حتى قارب الموصل وترك عسكره وانفرد هو ومظفر الدين وابن عمه ناصر الدين بن شيركوه ومعهم نفر من أعيان دولته وقربوا من البلد فلما قربوا ورآه وحققه رأى ما هاله وملأ صدوره وصدور اصحابه فإنه رأى بلدا عظيما كبيرا ورأى السور والفصيل قد ملئا من الرجال وليس فيها شرافة إلا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين فلما رأى ذلك علم أنه لا يقدر على أخذه وأنه يعود خائبا فقال لناصر الدين ابن عمه إذا رجعنا إلى

Marfat.com

المعسكر فأحمل مابذلت من المال فنحن معك على القول فقال قد رجعت عما بذلت من المال فإن هذا البلد لا يرام فقال له ولمظفر الدين غررتمانى وأطمعتمانى فى غير مطمع ولو قصدت غيره قبله لكان أسهل أخذا بالاسم والهيبة التى حصلت لنا ومتى نازلناه وعدنا منه ينكسر ناموسنا ويفل حدنا وشوكتنا ثم رجع إلى معسكره وصبح البلد وكان نزوله عليه فى رجب فنازله وضايقه ونزل محاذى باب كندة وأنزل صاحب الحصن بباب الحسر وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادى وأنشب القتال فلم يظفر وخرج إليه يوما بعض العامة فنالوا منه ولم يمكن عز الدين ومجاهد الدين أحدا من العسكر بل ألزموا الأسوار ثم إن تقى الدين أشار على عمه صلاح الدين بنصب منجنيق فقال مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق ومتى نصبناه أخذوه ولو خربنا برجا وبدنه من يقدر على الدخول للبلد وفيه هذا الخلق الكثير فألح تقى الدين وقال نجربهم به فنصب منجنيقا فنصب عليه من البلد تسعة منجنيقات وخرج جماعة من العامة فأخذوه وجرى عنده قتال كثير فأخذ بعض العامة لالكة من رجليه فيها المسامير الكثيرة ورمى بها أمير يقال له جاولى الأسدى مقدم الأسدية وكبيرهم فأصاب صدره فوجد لذلك ألما شديدا وأخذ اللالكة وعاد عن القتال إلى صلاح الدين وقال قد قاتلنا أهل الموصل بحماقات ما رأينا بعد مثلها وألقى اللالكة وحلف أنه لا يعود يقاتل عليها أنفة حيث ضرب بهذه ثم إن صلاح الدين رحل من قرب البلد ونزل متأخرا خوفا من البيات فإنه لقربه كان لا يأمن ذلك وكان سببه أيضا أن مجاهد الدين أخرج فى بعض الليالى جماعة من باب السر الذى للقلعة ومعهم المشاعل فكان أحدهم يخرج من الباب وينزل إلى دجلة مما يلى عين الكبريت ويطفىء المشعل فرأى العسكر الناس يخرجون فلم يشكوا فى الكبسة فحملهم ذلك على الرحيل والتأخر ليتعذر البيات على أهل الموصل وكان صدر الدين شيخ الشيوخ رحمه الله قد وصل إليه قبل نزوله على الموصل ومعه بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله فى الصلح فأقاما معه على الموصل وترددت الرسل الى عز الدين ومجاهد الدين فى الصلح فطلب عز الدين إعادة البلاد التى أخذت منهم فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط أن تسلم إليه حلب فامتنع عز الدين ومجاهد الدين ثم نزل عن ذلك وأجاب إلى تسليم البلاد بشرط أن يتركوا أنجاد صاحب حلب عليه فلم يجيبوا إلى ذلك أيضا وقال عز الدين هو أخى وله العهود والمواثيق ولا يسعنى أن أنكثها ووصلت أيضا رسل قزل أرسلان صاحب أذربيجان ورسل شاه أرمن صاحب خلاط فى المعنى فلم ينتظم أمر ولا تم صلح فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضا ولا يحصل على غير العناء والتعب وأن من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصدونه من عساكره وأصحابه سار من الموصل إليها .

﴿ ذكر ملكه مدينة سنجار ﴾ لما سار صلاح الدين عن الموصل إلى سنجار سير مجاهد الدين إليها عسكرا قوة لها ونجدة فسمع بهم صلاح الدين فمنعهم من الوصول إليها وأوقع بهم وأخذ سلاحهم ودوابهم وسار إليها ونازلها وكان بها شرف الدين أمير أميران هندوا أخو عز الدين صاحب الموصل فى عسكر معه فحصر البلد وضايقه وألح فى قتاله فكاتبه بعض أمراء الأكراد الذين به من الزرزارية وخامر معه وأشار بقصده من الناحية التى هو بها ليسلم إليه البلد فطرقه صلاح الدين ليلا فسلم إليه ناحيته فملك الباشورة لا غير فلما سمع شرف الدين الخبر استكان وخضع وطلب الأمان فأمن ولو قاتل على تلك الناحية أخرج العسكر الصلاحى عنها ولو امتنع بالقلعة لحفظها ومنعها ولكنه عجز فلما طلب الأمان أجابه صلاح الدين إليه فأمنه وملك البلد

Marfat.com

Marfat.com

وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل واستقر جميع ماملكه صلاح الدين بملك سنجار فإنه كان قصد أن يسترده المواصلة إذا فارقه لأنه لم يكن فيه حصن غير الرها لاغير فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور واستناب بها سعدالدين بن معين الدين أنز وكان من أكابرا لأمراء وأحسنهم صورة ومعنى .

﴿ذكر عود صلاح الدين إلى حران﴾ لما ملك صلاح الدين سنجار وقرر قواعدها سار إلى نصيبين فلقيه أهلها شاكين من أبى الهيجاء السمين باكين من ظلمه متأسفين على دولة عزالدين وعدله فيهم فلما سمع ذلك أنكر على أبى الهيجاء ظلمه وعزله عنهم وأخذه معه وسار إلى حران وفرق عساكره ليستريحوا وبقى جريدة فى خواصه وثقات أصحابه وكان وصوله اليها أوائل ذى القعدة من السنة .

﴿ذكر اجتماع عزالدين وشاه أرمن﴾ فى هذه السنة فى ذى الحجة اجتمع أتابك عزالدين صاحب الموصل وشاه ارمن صاحب خلاط على قتال صلاح الدين وسبب ذلك أن أرسل عزالدين ترددت إلى شاه أرمن يستنجده ويستنصره على صلاح الدين فأرسل شاه ارمن إلى صلاح الدين عدة رسل فى الشفاعة اليه بالكف عن الموصل ومايتعلق بعزالدين فلم يجبه إلى ذلك وغالطه فأرسل اليه أخيرا مملوكه سيف الدين بكتمر الذى ملك خلاط بعد شاه أرمن فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب اليه أن يتركها ويرحل عنها وقال له إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربته فأبلغه بكتمر الشفاعة فسوفه فى الجواب رجاء أن يفتحها فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد وفارقه غضبان ولم يقبل منه خلعة ولاصلة وأخبر صاحبه الخبر وخوفه عاقبة الإهمال والتوانى عن صلاح الدين فسار شاه أرمن من خلاط وكان مخيما بظاهرها وسار إلى ماردين وصاحبها حينئذ قطب الدين بن نجم الدين الى وهو ابن أخت شاه أرمن وابن خال عزالدين وحموه لأن عزالدين قد زوج ابنة قطب الدين وحضر مع شاه أرمن دولة شاه صاحب بدليس وأرزن وسار أتابك عزالدين من الموصل فى عسكره جريدة من الأثقال وكان صلاح الدين قد ملك سنجار وسار عنها إلى حران وفرق عساكره فلما سمع باجتماعهم سير إلى تقى الدين ابن أخيه وهو بحماة يستدعيه فوصل اليه مسرعا وأشار عليه بالرحيل وحذره منه آخرون وكان هوى صلاح الدين فى الرحيل فرحل إلى رأس عين فلما سمعوا برحيله تفرقوا فعاد شاه أرمن إلى خلاط واعتذر بأننى أجمع العساكر وأعود ورجع عزالدين إلى الموصل وأقام قطب الدين بماردين وسار صلاح الدين فنزل بجوزم تحت ماردين عدة أيام .

﴿ذكر الظفر بالفرنج فى بحر عيذاب﴾ فى هذه السنة عمل البرنس صاحب الكرك أسطولا وفرغ منه بالكرك ولم يبق إلا جمع قطعه بعضها إلى بعض وحملها إلى بحر أيلة وجمعها فى أسرع وقت وفرغ منها وشحنها بالمقاتلة وسيرها فساروا فى البحر وافترقوا فرقتين فرقة قامت على حصن أيلة يحصرونه ويمنعون أهله من ورود الماء فنال أهله شدة شديدة وضيق عليهم ، وأما الفرقه الثانية فإنهم ساروا نحو عيذب وأفسدوا فى السواحل ونهبوا وأخذوا ماوجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار وبغتوا الناس فى بلادهم على حين غفلة منهم فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا لاتاجرا ولامحاربا وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ينوب عن أخيه صلاح الدين فعمر أسطولا وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولى الأسطول بديار مصر وكان مظفرا فيه شجاعا كريما فسار لؤلؤ بجدا فى طلبهم فابتدأ بالذين على أيلة فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيده ، فقاتلهم ، فقتل بعضهم ، وأسر الباقى ؛ وسار من وقته بعد

Marfat.com

الظفر بقص أثر الذين قصدوا عيذاب فلم يرهم وكانوا قد أغاروا على ماوجدوه بها وقتلوا من لقوه عندها وساروا إلى غير ذلك المرسى ليفعلوا كما فعلوا فيه وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة حرسهما الله تعالى وأخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام والدخول بعد ذلك إلى اليمن فلما وصل لؤلؤ إلى عيذاب ولم يرهم ساريقفوا أثرهم فبلغ رابغ وساحل الجوزاء وغيرهما فأدركهم بساحل الجوزاء فأوقع بهم هناك فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم وقاتلهم أشد قتال وأخذ خيلا من الأعراب الذين هناك فركبها وقاتلهم فرسانا ورجاله فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا جميعهم .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى جمادى الأولى توفى عز الدين فرخشاه ابن أخى صلاح الدين وكان ينوب عنه بدمشق ؛ وهو ثقته من أهله وكان اعتماده عليه أكثر من جميع أهله وأمرائه ، وكان شجاعا كريما فاضلا عالما بالأدب وغيره ، وله شعر جيد من بين أشعار الملوك ، وكان ابتداء مرضه أنه خرج من دمشق إلى غزو الفرنج ، فمرض وعاد مريضا ، فمات ، ووصل خبر موته إلى صلاح الدين وقد عبر الفرات إلى الديار الجزرية فأعاد شمس الدين محمد بن المقدم إلى دمشق ليكون مقدما على عسكرها وفيها مات فخر الدولة أبو المظفر بن الحسن بن هبة الله بن المطلب كان أبوه وزير الخليفة وأخوه أستاذ الدار فتصوف هو من زمن الصبا وبنى مدرسة ورباطا ببغداد عند عقد المصطنع وبنى جامعا بالجانب الغربى منها وفيها توفى الأمير أبو منصور هاشم ولد المستضىء بأمر الله ودفن عند أبيه . وفيها توفى أبو العباس أحمد بن على بن الرفاعى من سواد واسط وكان صالحا ذا قبول عظيم عند الناس وله من التلامذة مالا يحصى[1]

---

(١) قال ابن خلكان : ولاتباعه أحوال عجيبة من أكل الحيات وهى حية ، والدخول فى النار فى التنانير وهى تضطرم ، ويلعبون بها وهى تشتعل ، ويقال إنهم فى بلادهم يركبون الأسود . وذكر ابن خلكان أنه قال وليس للشيخ أحمد عقب ، وإنما النسل لاخيه وذريته يتوارثون المشيخة بتلك البلاد . وقال : ومن شعره على ما قيل :

إذا جن ليلى هام قلبى بذكركم * أنوح كما ناح الحمام المطوق
وفوق سحاب يمطر الهم والأسى * وتحتى بحار بالأسى تتدفق
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها * تفك الأسارى دونه وهو موثق
فلا هو مقتول ففى القتل راحة * ولا هو ممنون عليه فيطلق

ومن شعره قوله :

أغار عليها من أبيها وأمها * ومن كل من يدنو إليها وينظر
وأحسد للمرآة أيضا بكفها * إذا نظرت مثل الذى أنا أنظر

قال : ولم يزل على تلك الحال إلى أن توفى يوم الخميس الثانى والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة . وفيها توفى خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال أبو القاسم القرطبى الحافظ المحدث المؤرخ ، صاحب التصانيف ، له كتاب الصلة جعله ذيلا على تاريخ أبى الوليد بن الفرضى ، وله كتاب المستغيثين بالله ، وله مجلدة فى تعيين الأسماء المبهمة على طريق الخطيب ، وله أسماء من روى الموطأ على حروف المعجم ، بلغوا ثلاثة وسبعين رجلا ، مات فى رمضان عن أربع وثمانين سنة .

﴿ ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر ملك صلاح الدين آمد وتسليمها إلى صاحب الحصن ﴾ قد ذكرنا نزول صلاح الدين بجوزم تحت ماردين فلم ير لطمعه وجها وسار عنها إلى آمد على طريق البارعية وكان نورالدين محمد بن قرا أرسلان يطالبه فى كل وقت بقصدها وأخذها وتسليمها إليه على ما استقرت القاعدة بينهما فوصل إلى آمد سابع عشر ذى الحجة من سنة ثمان وسبعين ونازلها وأقام يحاصرها وكان المتولى لأمرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان وكان صاحبها وليس له من الأمر شىء مع ابن نيسان فلما نازلها صلاح الدين أساء ابن نيسان التدبير ولم يعط الناس من الذخائر شيئا ولا فرق فيهم دينارا واحدا ولا قوتا وقال لأهل البلد قاتلوا عن نفوسكم فقال له بعض أصحابه ليس العدو بكافر حتى يقاتلوا عن نفوسهم فلم يفعل شيئا وقاتلهم صلاح الدين ونصب المنجنيقات وزحف إليها وهى الغاية فى الحصانة والمنعة بها وبسورها يضرب المثل وابن نيسان على حاله من الشح بالمال وتصرفه تصرف من ولت سعادته وأدبرت دولته فلما رأى الناس ذلك منه تهاونوا بالقتال وجنحوا إلى السلامة وكانت أيام ابن نيسان قد طالت وثقلت على أهل البلد لسوء سيرته وصنيعه وتضييقه عليهم فى مكاسبهم فالناس كارهون لها محبون لانقراضها وأمر صلاح الدين أن يكتب على السهام إلى أهل البلد يعدهم الخير والإحسان إن أطاعوه ويتهددهم إن قاتلوه فزادهم ذلك تقاعدا وتخاذلا وأحبوا ملكه وتركوا القتال فوصل النقابون إلى السور فنقبوه وعلقوه فلما رأى الجند وأهل البلد ذلك طمعوا فى ابن نيسان واشتطوا فى المطالب فحين صارت الحال لذلك أخرج ابن نيسان نساءه إلى القاضى الفاضل وزير صلاح الدين يسأله أن يأخذ له الأمان ولأهله وماله وأن يؤخره ثلاثة أيام حتى ينقل ماله بالبلاد من الأموال والذخائر فسعى له الفاضل فى ذلك فأجابه صلاح الدين إليه فسلم البلد فى العشر الأول من المحرم هذه السنة وأخرج خيمه إلى ظاهر البلد ورام نقل ماله فتعذر ذلك عليه لزوال حكمه عن أصحابه واطراحهم أمره ونهيه فأرسل إلى صلاح الدين يعرفه الحال ويسأله مساعدته على ذلك فأمر له بالدواب والرجال فنقل البعض وسرق البعض وانقضت الأيام الثلاث قبل الفراغ فمنع من الباقى وكانت أبراج المدينة مملوأة من أنواع الذخائر فتركها بحالها ولو أخرج البعض منها لحفظ البلد وسائر نعمه وأمواله لكن إذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه فلما تسلمها صلاح الدين سلمها لصاحب الحصن نورالدين فقيل له قبل تسليمها إن هذه المدينة فيها من الذخائر مايزيد على ألف ألف دينار فلو أخذت ذلك وأعطيته جندك وسلمت البلد إليه فارغا لكان راضيا فإنه لايطمع فى غيره فامتنع من ذلك وقال ما كنت لأعطيه الأصل وأبخل بالفرع فلما تسلم نور الدين البلد اصطنع دعوة عظيمة ودعا إليها صلاح الدين وأمراءه ولم يكن دخل البلد وقدم له ولأصحابه من التحف والهدايا أشياء كثيرة .

﴿ ذكر ملك صلاح الدين تل خالد وعينتاب من أعمال الشام ﴾ لما فرغ صلاح الدين من أمر آمد سار إلى الشام وقصد تل خالد وهو أعمال حلب فحصرها ورماها بالمنجنيق فنزل أهلها وطلبوا الأمان فأمنهم وتسلما فى المحرم أيضا ثم سار منها إلى عينتاب فحصرها وبها ناصر الدين محمد وهو أخو الشيخ اسمعيل الذى كان خازن نور الدين محمود بن زنكى وصاحبه وكان قد سلمها إليه نور الدين فبقيت معه إلى الآن فلما نازله صلاح الدين أرسل إليه يطلب أن يقر الحصن بيده وينزل إلى خدمته ويكون تحت حكمه وطاعته فأجابه صلاح الدين إلى

Marfat.com

ذلك وحلف له عليه فنزل إليه وصار فى خدمته وكان أيضا فى المحرم من هذه السنه .

﴿ذكر وقعتين مع الفرنج فى البحر والشام﴾ فى هذه السنة فى العاشر من المحرم سار أسطول المسلمين من مصر فى البحر فلقوا بطسة فيها نحو ثلثمائة من الفرنج بالسلاح التام ومعهم الأموال والسلاح إلى فرنج الساحل فقاتلوهم وصبر الفريقان وكان الظفر للمسلمين وأخذوا الفرنج أسرى فقتلوا بعضهم وأبقوا بعضهم أسرى وغنموا مامعهم وعادوا إلى مصر سالمين . وفيها أيضا سارت عصابة كبيرة من الفرنج من نواحى الداروم إلى نواحى مصر ليغيروا وينهبوا فسمع بهم المسلمون فخرجوا إليهم على طريق صدر وايلة فانتزح الفرنج من بين أيديهم فنزلوا بماء يقال له العسيلة وسبقوا المسلمين إليه فأتاهم المسلمون وهم عطاش قدأشرفوا على الهلاك فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء فانشأ الله سبحانه وتعالى بلطفه سحابة عظيمة فمطروا منها حتى رووا وكان الزمان قيظا والحر شديد فى بر مهلك ، فلما رأوا ذلك قويت نفوسهم ووثقوا بنصر الله لهم وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم فقتلوهم ولم يسلم منهم إلا الشريد الفريد وغنم المسلمون مامعهم من سلاح ودواب وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله تعالى .

﴿ذكر ملك صلاح الدين حلب﴾ وفى هذه السنة سار صلاح الدين من عينتاب إلى حلب فنزل عليها فى المحرم أيضا فى الميدان الأخضر وأقام به عدة أيام ثم انتقل إلى جبل جوشن فنزل بأعلاه وأظهر أنه يريد أن يبنى مساكن له ولأصحابه وعساكره وأقام عليها أياما والقتال بين العسكرين كل يوم وكان صاحب حلب عماد الدين زنكى ابن مودود بن زنكى ومعه العسكر النورى وهم مجدون فى القتال فلما رأى كثرة الخرج كأنه شح بالمال فحضر يوما عنده بعض أجناده وطلبوا منه شيئا فاعتذر بقلة المال عنده فقال له بعضهم من يريد أن يحفظ مثل حلب يخرج الأموال ولو باع حلى نسائه فمال حينئذ إلى تسليم حلب وأخذ العوض منها وأرسل مع الأمير طمان اليارقى وكان يميل إلى صلاح الدين أنه يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج وجرت اليمين على ذلك وباعها باوكس الأثمان أعطى حصنا مثل حلب وأخذ عوضها قرى ومزارع فنزل عنها ثامن عشر صفر وتسلمها صلاح الدين فعجب الناس كلهم من ذلك وقبحوا ما أتى حتى إن بعض عامة حلب أحضر إجانه وماء وناداه أنت لا يصلح لك الملك وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب وأسمعوه المكروه واستقر ملك صلاح الدين بملكها وكان مزلزلا فثبت قدمه بتسليمها وكان على شفا جرف هار وإذا أراد الله أمرا فلا مرد له وسار عماد الدين إلى البلاد التى أعطيها فتسلمها وأخذ صلاح الدين حلب واستقر الحال بينهما أن عماد الدين يحضر فى خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره إذا استدعاه لا يحتج بحجة ومن الاتفاقات العجيبة أن محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق مدح صلاح الدين بقصيدة منها :

وفتحكم حلبا بالسيف فى صفر مبشر بفتوح القدس فى رجب

فوافق فتح القدس فى رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى ومما كتبه القاضى الفاضل فى المعنى عن صلاح الدين فأعطيناه عن حلب كذا وكذا وهو صرف على الحقيقة أعطيناه الدراهم ونزلنا عن القرى وأحرزنا العواصم وكتب أيضا أعطيناه مالم يخرج عن اليد يعنى أنه متى شاء أخذه لعدم حصانته وكان فى جملة من قتل على حلب تاج الملوك بورى أخو صلاح الدين الأصغر وكان فارسا شجاعا كريما حليما جامعا لخصال الخير ومحاسن الأخلاق طعن فى ركبته فانفكت فمات منها بعد أن استقر الصلح بين

Marfat.com

عماد الدين وصلاح الدين على تسليم حلب قبل أن يدخلها صلاح الدين فلما استقر منه الصلح حضر صلاح الدين عند أخيه يعوده وقال له هذه حلب قد أخذناها وهى لك فقال ذلك لو كان وأنا حىّ ووالله لقد أخذتها غالية حيث تفقد مثلى فبكى صلاح الدين وأبكى ولما خرج عماد الدين إلى صلاح الدين وقد عمل له دعوة احتفل فيها فبينما هم فى سرور إذ جاء إنسان فأسر إلى صلاح الدين بموت أخيه فلم يظهر هلعا ولا جزعا وأمر بتجهيزه سرا ولم يعلم عماد الدين ومن معه فى الدعوة واحتمل الحزن وحده لئلا يتنكد ماهم فيه وكان هذا من الصبر الجميل .

﴿ذكر فتح صلاح الدين حارم﴾ لما ملك صلاح الدين حلب كان بقلعة حارم وهى من أعمال حلب بعض المماليك النورية واسمه سرخك وولاه عليها الملك الصالح عماد الدين فامتنع من تسليمها إلى صلاح الدين فراسله صلاح الدين فى التسليم وقال له اطلب من الإقطاع ما أردت ووعده الإحسان فاشتط فى الطلب وترددت الرسل بينهم فراسل الفرنج ليحتمى بهم فسمع من معه من الأجناد أنه يراسل الفرنج فخافوا أن يسلمها إليهم فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والإنعام فأجابهم إلى ما طلبوا وسلموا إليه الحصن فرتب به دزدارا بعض خواصه وأما باقى قلاع حلب فإن صلاح الدين أقر عينتاب بيد صاحبها كما تقدم وأقطع تل خالد لأمير يقال له داروم الياروقى وهو صاحب تل باشر وأما قلعة إعزاز فإن عماد الدين اسمعيل كان قد خربها فأقطعها صلاح الدين لأمير يقال له سليمان بن جندر فعمرها وأقام صلاح الدين بحلب إلى أن فرغ من تقرير قواعدها وأحوالها وديوانها وأقطع أعمالها وأرسل منها لجمع العساكر من جميع بلاده .

﴿ذكر القبض على مجاهد الدين وما حصل من الضرر بذلك﴾ فى هذه السنة فى جمادى الأولى قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قايماز وكان إليه الحكم فى جميع البلاد واتبع فى ذلك هوى من أراد المصلحة لنفسه ولم ينظر فى مضرة صاحبه وكان الذى أشار بذلك عز الدين محمود زلفندار وشرف الدين أحمد بن أبى الخير الذى كان أبوه صاحب الغراف وهما من أكابر الأمراء فلما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين فأظهر أنه مريض وانقطع عن الركوب عدة أيام فدخل إليه مجاهد الدين وحده وكان خصيا لا يمتنع من الدخول على النساء فلما دخل عليه قبض عليه وركب لوقته إلى القلعة فاحتوى على الأموال التى لمجاهد الدين وخزائنه وولى زلفندار قلعة الموصل بعد مجاهد الدين وجعل ابن صاحب الغراف أمير حاجب وحكمهما فى دولته وكان تحت حكم مجاهد الدين حينئذ إربل وأعمالها ومعه فيها زين الدين على وهو صبى صغير ليس له من الحكم شىء والحكم والعسكر إلى مجاهد الدين وتحت حكمه أيضا جزيرة ابن عمر وهى لمعز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود وهو أيضا صبى والحكم والنواب والعسكر لمجاهد الدين وبيده أيضا شهرزور وعمالها ونوابه فيها ودقوقا ونائبه فيها وقلعة عقر الحميدية ونائبه فيها ولم يبق لعز الدين مسعود بعد أن أخذ صلاح الدين البلاد الجزيرية سوى الموصل وقلعتها بيد مجاهد الدين وهو على الحقيقة الملك واسمه عز الدين فلما قبض عليه امتنع صاحب إربل من طاعة عز الدين واستبد وكذلك أيضا صاحب جزيرة ابن عمر وأرسل الخليفة إلى دقوقا فحصرها وأخذها ولم يحصل لعز الدين مسعود غير شهرزور والعقر وصارت إربل والجزيرة أضر شىء على صاحب الموصل وأرسل صاحبها إلى صلاح الدين بالطاعة له والكون فى خدمته وكان الخليفة الناصر لدين الله قد أرسل صدر الدين شيخ

Marfat.com

الشيوخ ومعه بشير الخادم الخاص إلى صلاح الدين فى الصلح مع عز الدين صاحب الموصل وسير عز الدين معه القاضى محيي الدين أبا حامد بن الشهرزورى فى المعنى فأجاب صلاح الدين إلى ذلك وقال ليس لكم مع الجزيرة وإربل حديث فامتنع محيي الدين عن ذلك وقال هما لنا فلم يجب صلاح الدين إلى الصلح إلا بأن تكون إربل والجزيرة معه فلم يتم أمره وقوى طمع صلاح الدين فى الموصل بقبض مجاهد الدين فلما رأى صاحب الموصل الضرر بقبض مجاهد الدين قبض على شرف الدين أحمد بن صاحب الغراف وزلفندار عقوبة لهما ثم أخرج مجاهد الدين على ما نذكره إن شاء الله .

﴿ذكر غزو بيسان﴾ لما فرغ صلاح الدين من أمر حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازى وهو صبي وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج وكان أكبر الأمراء الأسدية وسار إلى دمشق وتجهز للغزو ومعه عساكر الشام والجزيرة وديار بكر وسار إلى بلد الفرنج فعبر نهر الأردن تاسع جمادى الآخرة من السنة فرأى أهل تلك النواحى قد فارقوها خوفا فقصد بيسان فأحرقها وخربها وأغار على ماهناك فاجتمع الفرنج وجاؤا إلى قبالته فحين رأوا كثرة عساكره لم يقدموا عليه فأقام عليهم وقد استندوا إلى جبل هناك وخندقوا عليهم فأحاط بهم وعساكر الإسلام ترميهم بالسهام وتناوشهم القتال فلم يخرجوا وأقاموا كذلك خمسة أيام وعاد المسلمون عنهم سابع عشر الشهر لعل الفرنج يطمعون ويخرجون فيستدرجونهم ليبلغوا منهم غرضا فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم فى غير السلامة وأغار المسلمون على تلك الأعمال يمينا وشمالا ووصلوا فيها إلى مالم يكونوا يطمعون فى الوصول اليه والإقدام عليه فلما كثرت الغنائم معهم رأوا العود إلى بلادهم بما غنموا مع الظفر أولى فعادوا إلى بلادهم على عزم الغزو .

﴿ذكر غزو الكرك وملك العادل حلب﴾ لما عاد صلاح الدين والمسلمون من غزوة بيسان تجهزوا لغزو الكرك فسار اليه فى العساكر وكتب إلى أخيه العادل أبى بكر بن أيوب وهو نائبه بمصر يأمره بالخروج بجميع العساكر إلى الكرك وكان العادل قد أرسل إلى صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله فوصل صلاح الدين إلى الكرك فى رجب ووافاه أخوه العادل فى العسكر المصرى وكثر جمعه وتمكن من حصره وصعد معه المسلمون إلى ربضه وملكه وحصر الحصن من الربض وتحكم عليه فى القتال ونصب عليه سبع منجنيقات لاتزال ترمى بالحجارة ليلا ونهارا وكان صلاح الدين يظن أن الفرنج لا يمكنونه من حصر الكرك وأنهم يبذلون جهدهم فى رده عنه فلم يستصحب معه من آلات الحصار ما يكفى لمثل ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع فرحل عنه منتصف شعبان وسير تقى الدين ابن أخيه إلى مصر نائبا عنه ليتولى ما كان أخوه العادل يتولاه واستصحب أخاه العادل معه إلى دمشق وأعطاه مدينة حلب وقلعتها وأعمالها ومدينة منبج وما يتعلق بها وسيره اليها فى شهر رمضان من السنة وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فتح الرباط الذى بنته أم الخليفة بالمأمونية . وفيها فى ذى الحجة توفى مكرم بن بختيال أبو الخير الزاهد ببغداد روى الحديث وكان كثير البكاء وفى جمادى الآخرة توفى محمد بن بختيار بن عبد الله أبو عبد المولد الشاعر ويعرف بالأبله فمن جملة شعره :

أراق دمعى لابل أراق دمى ظلما بظلم من ريقه الشبم

Marfat.com

ذو قامة كالقضيب ناضرة وناظر من سقامه سقمى
حصلت من وعده على أصدق الوعد ومن وصله على التهم

﴿ ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر إطلاق مجاهد الدين من الحبس وانهزام العجم ﴾ فى هذه السنة فى المحرم أطلق أتابك عز الدين صاحب الموصل مجاهد الدين قايماز من الحبس بشفاعة شمس الدين البهلوان صاحب همذان وبلاد الجبل وسيره إلى البهلوان وأخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين فسار إلى قزل أولا وهو صاحب أذربيجان فلم يمكنه من المضى إلى البهلوان وقال مهما تختاره أنا أفعله وجهز معه عسكرا كثيرا نحو ثلاثة آلاف فارس وساروا نحو إربل ليحصروها فلما قاربوها أفسدوا فى البلاد وخربوها ونهبوا وسبوا وأخذوا النساء قهرا ولم يقدر مجاهد الدين على منعهم فسار إليهم زين الدين يوسف صاحب إربل فى عسكره فلقيهم وهم متفرقون فى القرى ينهبون ويحرقون فانتهز الفرصة فيهم بتفرقهم فيهم وألقى بنفسه وعسكره على أول من لقيه منهم فهزمهم وتمت الهزيمة على الجميع وغنم الإربليون أموالهم ودوابهم وسلاحهم وعاد العجم إلى بلادهم منهزمين وعاد صاحب إربل إلى بلده مظفراً غانما وعاد مجاهد الدين إلى الموصل فكان يحكى أننى مازلت أنتظر العقوبة من الله تعالى على سوء أفعال العجم فإننى رأيت منهم مالا كنت أظنه يفعله مسلم بمسلم وكنت أنهاهم فلا يسمعون حتى كان من الهزيمة ما كان .

﴿ ذكر وفاة يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه يعقوب ﴾ فى هذه السنة سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى بلاد الأندلس وجاز البحر إليها فى جمع عظيم من عساكر المغرب فإنه جمع وحشد الفارس والراجل فلما عبر الخليج قصد غربى البلاد فحصر مدينة شنترين وهى للفرنج شهرا فأصابه بها مرض فمات منه فى ربيع الأول وحمل فى تابوت إلى مدينة اشبيلية من الأندلس وكانت مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة وشهرا ومات عن غير وصية بالملك لأحد من أولاده فاتفق رأى قواد الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك ولده أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فملكوه من الوقت الذى مات فيه أبوه لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو فقام فى ذلك أحسن قيام وأقام راية الجهاد وأحسن السيرة فى الناس وكان دينا مقيما للحدود فى الخاص والعام فاستقامت له الدولة وانقادت إليه بأسرها مع سعة أقطارها ورتب ثغور الأندلس وشحنها بالرجال ورتب المقاتلة فى سائر بلادها وأصلح أحوالها وعاد إلى مراكش وكان أبوه يوسف حسن السيرة وكان طريقه ألين من طريق أبيه مع الناس يحب العلماء ويقربهم ويشاورهم وهم أهل خدمته وخاصته وأحبه الناس ومالوا إليه وأطاعه من البلاد ما امتنع على أبيه وسلك فى جباية الأموال ما كان أبوه يأخذه ولم يتعده إلى غيره واستقامت له البلاد بحسن فعله مع أهلها ولم يزل كذلك إلى أن توفى رحمه الله تعالى .

﴿ ذكر غزو صلاح الدين الكرك ﴾ فى هذه السنة فى ربيع الآخر سار صلاح الدين من دمشق يريد الغزو وجمع عساكره فأتته من كل ناحية وممن أتاه نور الدين محمد بن فرا أرسلان صاحب الحصن وكتب إلى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكرك فنازل الكرك وحصره وضيق على من به وأمر بنصب المنجنيقات على ربضه واشتد القتال فملك المسلمون الربض وبقى الحصن وهو والربض على سطح جبل واحد إلا أن

Marfat.com

Marfat.com

بينهما خندقا عظيما عمقه نحو ستين ذراعا فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه فلم يقدر أحد على الدنو منه لكثرة الرمى عليهم بالسهام من الجرخ والقوس والأحجار من المنجنيقات فأمر أن يبنى بالأخشاب واللبن ما يمكن الرجال يمشون تحت السقائف ويلقون فى الخندق ما يطمه ومنجنيقات المسلمين مع ذلك ترمى الحصن ليلا ونهارا وأرسل من فيه من الفرنج إلى ملكهم وفرسانهم يستمدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن فاجتمعت الفرنج عن آخرها وساروا إلى نجدتهم عجلين فلما بلغ الخبر بمسيرهم إلى صلاح الدين رحل عن الكرك إلى طريقهم ليلقاهم ويصافهم ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك فقرب منهم وخيم ونزل ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسلك إليهم وضيقه فأقام أياما ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكن منهم فلم يبرحوا منه خوفا على نفوسهم فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ وجعل بإزائهم من يعلمه بمسيرهم فساروا ليلا إلى الكرك فلما علم صلاح الدين ذلك علم أنه لا يتمكن حينئذ ولا يبلغ غرضه فسار إلى مدينة نابلس ونهب كل ما على طريقه من البلاد فلما وصل إلى نابلس أحرقها وخربها وقتل فيها وأسر وسبى فأكثر وسار عنها إلى سبسطية وبها مشهد زكريا عليه السلام وبها كنيسة وبها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم ورحل إلى جينين فنهبها وخربها وعاد إلى دمشق ونهب ما على طريقه وخربه وبث السرايا فى طريقه يمينا وشمالا يغنمون ويخربون ووصل إلى دمشق .

﴿ذكر ملك الملثمين بجاية وعودها إلى أولاد عبد المؤمن﴾ فى هذه السنة فى شعبان خرج على بن اسحق المعروف بابن غانية وهو من أعيان الملثمين الذين كانوا ملوك المغرب وهو حينئذ صاحب جزيرة ميورقة إلى بجاية فملكها وسبب ذلك أنه لما سمع بوفاة يوسف بن عبد المؤمن عمر أسطوله فكان عشرين قطعة وسار فى جموعه فأرسى فى ساحل بجاية وخرجت خيله ورجاله من الشوانى فكانوا نحو مائتى فارس من الملثمين وأربعة آلاف راجل فدخل مدينة بجاية بغير قتال لأنه اتفق أن والبها سار عنها قبل ذلك بأيام إلى مراكش ولم يترك فيها جيشا ولا مانعا لعدم عدو يحفظها منه فجاء الملثم ولم يكن فى حسابهم أنه يحدث نفسه بذلك فأرسى بها ووافقه جماعة من بقايا دولة بنى حماد وصاروا معه فكثر جمعه بهم وقويت نفسه فسمع خبره والى بجاية فعاد من طريقه ومعه من الموحدين ثلثمائة فارس فجمع من العرب والقبائل الذين فى تلك الجهات نحو ألف فارس فسمع بهم وبقربهم منه فخرج اليهم وقد صار معه قدر ألف فارس وتوافقوا ساعة فانضاف جميع الجموع التى كانت مع والى بجاية إلى الملثم فانهزم حينئذ والى بجاية ومن معه من الموحدين وساروا إلى مراكش وعاد الملثم إلى بجاية فجمع جيشه وخرج إلى أعمال بجاية فأطاعه جميعها إلا قسطنطينية الهوى فحصرها إلى أن جاء جيش من الموحدين من مراكش فى صفر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة إلى بجاية فى البر والبحر وكان بها يحيى وعبد الله أخو على بن اسحق الملثم فخرجا منها هاربين ولحقا بأخيهما فرحل عن القسطنطينية وسار إلى أفريقية وكان سبب إرسال الجيش من مراكش أن والى بجاية وصل إلى يعقوب بن يوسف صاحب المغرب وعرفه ماجرى ببجاية واستيلاء الملثمين عليها وخوفه عاقبة التوانى فجهز العساكر فى البر عشرين ألف فارس وجهز الأسطول فى البحر فى خلق كثير واستعادوها .

﴿ذكر وفاة صاحب ماردين وملك ولده﴾ فى هذه السنة مات قطب الدين أيلغازى بن نجم الدين بن ألبى ابن تمرتاش بن أيلغازى بن أرتق صاحب ماردين وملك بعده ابنه حسام الدين بولق أرسلان وهو طفل

وقام بتربيته وتدبير مملكته نظام الدين البقش مملوك أبيه وكان شاه أرمن صاحب خلاط خال قطب الدين فحكم فى دولته وهو رتب البقش مع ولده وكان البقش دينا خيرا عادلا حسن السيرة سليما فأحسن تربية الولد وتزوج أمه فلما كبر الولد لم يمكنه النظام من مملكته لخبط وهوج كان فيه وكان لنظام الدين هذا مملوك اسمه لؤلؤ قد تحكم فى دولته وحكم فيها فكان يحمل النظام على مايفعله مع الولد ولم يزل الأمر كذلك إلى أن مات الولد وله أخ أصغر منه لقبه قطب الدين فرتبه النظام فى الملك وليس له منه إلا الاسم والحكم إلى النظام ولؤلؤ فبقى كذلك إلى سنة إحدى وستمائة فمرض النظام البقش فأتاه قطب الدين يعوده فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ وضربه قطب الدين بسكين معه فقتله ثم دخل إلى النظام وبيده السكين فقتله أيضا وخرج وحده ومعه غلام له وألقى الرأسين إلى الأجناد وكانوا كلهم قد أنشأهم النظام ولؤلؤ فأذعنوا له بالطاعة فلما تمكن أخرج من أراد وترك من أراد واستولى على قلعة ماردين وأعمالها وقلعة البارعية وصور وهو إلى الآن حاكم فيها، حازم فى أفعاله .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ وفى هذه السنة توفى صدر الدين شيخ الشيوخ عبدالرحمن بن شيخ الشيوخ إسماعيل ابن شيخ الشيوخ أبى سعيد أحمد فى شعبان وكان قد سار فى ديوان الخلافة رسولا إلى صلاح الدين معه شهاب الدين بشير الخادم فى معنى الصلح بينه وبين عز الدين صاحب الموصل فوصل دمشق وصلاح الدين بحضر الكرك فأقام إلى أن عاد فلم يستقر فى الصلح أمر ومرضا وطلبا العودة إلى العراق فأشار عليهما صلاح الدين بالمقام إلى أن يصطلحا فلم يفعلا وسارا فى الحر فمات بشير بالسخنة ومات صدر الدين بالرحبة ودفن بمشهد البوق وكان واحد زمانه قد جمع بين رياسة الدين والدنيا وكان ملجأ لكل خائف صالحا كريما حليما وله مناقب كثيرة ولم يستعمل فى مرضه هذا دواء توكلا على الله تعالى وفيها توفى عبداللطيف بن محمد بن عبداللطيف الخجندى الفقيه الشافعى رئيس أصفهان وكان موته بباب همذان وقد عاد من الحج وله شعر فمنه :

بالحمى دار سقاها مدمعى * ياسقى الله الحمى من مربع
ليت شعرى والأمانى ضلة * هل إلى وادى الغضى من مرجع
أذنت علوة للواشى بنا * ماعلى علوة لولم تسمع
أوتحرت رشدا فيما وشى * أوعفت عنى فما قلبى معى

رحمه الله ورضى عنه وأرضاه.

﴿ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة﴾

﴿ذكر حصر صلاح الدين الموصل ورحيله عنها لوفاة شاه أرمن﴾ فى هذه السنة حصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب الموصل مرة ثانية وكان مسيره من دمشق فى ذى القعدة من السنة الماضية فوصل إلى حلب وأقام بها إلى أن خرجت السنة وسار منها فعبر إلى أرض الجزيرة فلما وصل حران قبض على مظفر الدين كوكبرى ابن زين الدين الذى كان سبب ملكه الديار الجزرية وسبب قبضه عليه أن مظفر الدين كان يراسل صلاح الدين كل وقت ويشير عليه بقصد الموصل ويحسن له ذلك ويقوى طمعه حتى إنه بذل له إذا سار إليها خمسين ألف دينار فلما وصل صلاح الدين إلى حران لم يف له بما بذل من المال وأنكر ذلك فقبض عليه ووكل به ثم أطلقه وأعاد إليه مدينتى حران والرها وكان قد أخذهما منه وإنما أطلقه لأنه خاف انحراف

Marfat.com

Marfat.com

الناس عنه بالبلاد الجزرية لأنهم كلهم علموا بما اعتمده مظفر الدين معه من تمليك البلاد فأطلقه وسار صلاح الدين عن حران فى ربيع الأول فحضر عنده عساكر الحصن ودارا ومعز الدين سنجر شاه صاحب الجزيرة وهو ابن أخى عزالدين صاحب الموصل وكان قد فارق طاعة عمه بعد قبض مجاهدالدين وسار مع صلاح الدين إلى الموصل فلما وصلوا إلى مدينة بلد سير أتابك عزالدين والدته إلى صلاح الدين ومعها ابنة عمه نور الدين محمود بن زنكى وغيرهما من النساء وجماعة من أعيان الدولة يطلبون منه المصالحة وبذلوا له الموافقة والانجاد بالعساكر ليعود عنهم وإنما أرسلهن لأنه وكل من عنده ظنوا أنهن إذا طلبن منه الشام أجابهن إلى ذلك لاسيما ومعهم ابنة مخدومه وولى نعمته نورالدين فلما وصلن إليه أنزلهن وأحضر أصحابه واستشارهم فيما يفعله ويقوله فأشار اكثرهم بأجابتهن إلى ما طلبن منه ؛ وقال له الفقيه عيسى وعلى بن أحمد المشطوب ؛ وهما من بلد الهكارية من اعمال الموصل ، مثل الموصل لا يترك لامرأة ؛ فإن عز الدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد ووافق ذلك هواه فأعادهن خائبات واعتذر بأعذار غير مقبولة ولم يكن إرسالهن عن ضعف ووهن إنما أرسلهن طلبا لدفع الشر بالتى هى أحسن فلما عدن رحل صلاح الدين إلى الموصل وهو كالمتيقن أنه يملك البلد وكان الأمر بخلاف ذلك فلما قارب البلد نزل على فرسخين منه وامتد عسكره فى تلك الصحراء بنواحى الحلة المراقية وكان يجرى بين العسكر مناوشات بظاهر الباب العمادى وكنت إذ ذاك بالموصل وبذل العامة نفوسهم غيظا وحنقا لرده النساء فرأى صلاح الدين مالم يكن يحسبه فندم على رده النساء ندامة الكسعى حيث فاته الذكر وملك البلد وعاد على الذين أشاروا بردهن باللوم والتوبيخ وجاءته كتب القاضى الفاضل وغيره ممن ليس له هوى فى الموصل يقبحون فعله وينكرونه وأنا، وهو على الموصل زين الدين يوسف بن زين الدين صاحب إربل فأنزله ومعه أخوه مظفر كوكبرى وغيرهما من الأمراء بالجانب الشرقى من الموصل وسير من المنزلة على بن أحمد المشطوب الهكارى إلى قلعة الجزيرة من بلد الهكارية فحصرها واجتمع عليه من الأكراد والهكارية كثير وبقى هناك إلى أن رحل صلاح الدين عن الموصل وكان عامة الموصل يعبرون دجلة فيقاتلون من الجانب الشرقى من العسكر ويعودون ولما كان صلاح الدين يحاصر الموصل بلغ اتابك عزالدين صاحبها أن نائبه بالقلعة يكاتبه فمنعه من الصعود إلى القلعة وعاد يقتدى برأى مجاهد الدين وكان قد أخرجه كما ذكرناه ويصدر عن رأيه وضبط الأمور وأصلح ما كان فسد من الأحوال حتى آل الأمر إلى الصلح على مانذكره إن شاء الله . وحضر عند صلاح الدين إنسان بغدادى أقام بالموصل ثم خرج إلى صلاح الدين فأشار عليه بقطع دجلة عن الموصل إلى ناحية نينوى وقال إن دجلة إذا نقلت عن الموصل عطش أهلها فملكناها بغير قتال فظن صلاح الدين أن قوله صدق فعزم على ذلك حتى علم أنه لا يمكن قطعه بالكلية فإن المدة تطول والتعب يكثر ولا فائدة وراءه وقبحه عنده أصحابه فأعرض عنه وأقام بمكانه من أول ربيع الآخر إلى أن قارب آخره ثم رحل عنها إلى ميافارقين وكان سبب ذلك أن شاه أرمن صاحب خلاط ، توفى بها تاسع ربيع الآخر فوصل الخبر بوفاته فى العشرين منه فعزم على الرحيل إليها وتملكها حيث إن شاه أرمن لم يخلف ولدا ولا أحدا من أهل بيته يملك بلاده بعده وإنما قد استولى عليها مملوك له اسمه بكتمر ولقبه سيف الدين فاستشار صلاح الدين أمراءه ووزراءه فاختلفوا فأما من هواه بالموصل فيشير بالمقام وملازمة الحصار لها وأما من يكره أذى البيت الأتابكى فإنه أشار بالرحيل وقال إن ولاية خلاط أكبر وأعظم وهى سائبة لاحافظ لها وهذه لها سلطان

Marfat.com

يحفظها ويذب عنها وإذا ملكنا تلك سهل أمر هذه وغيرها فتردد فى أمره فاتفق أنه جاءه كتب جماعة من أعيان خلاط من أهلها وأمرائها يستدعونه ليسلموا اليه البلد فسار عن الموصل وكانت مكاتبة من كاتبه خديعة ومكرا فإن شمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب أذربيجان وهمذان وتلك المملكة قد قصدهم ليأخذ البلاد منهم وكان قبل ذلك قد زوج شاه أرمن على كبر سنه بنتاله ليجعل ذلك طريقا إلى ملك خلاط وأعمالها فلما بلغهم مسيره اليهم كاتبوا صلاح الدين يستدعونه اليهم ليسلموا البلد اليه ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان وتبقى البلد بأيديهم فسار صلاح الدين وسير فى مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما فساروا إلى خلاط ونزلوا بطوانة بالقرب من خلاط وسار صلاح الدين إلى ميا فارقين وأما البهلوان فإنه سار إلى خلاط ونزل قريبا منها وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبينه وبين صلاح الدين ثم انهم أصلحوا أمرهم مع البهلوان وصاروا من حزبه وخطبوا له .

﴿ذكر وفاة نور الدين صاحب الحصن﴾ فى هذه السنة توفى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن وآمد لما كان صلاح الدين على الموصل وخلف ابنين فملك الأكبر منهما واسمه سقمان ولقبه قطب الدين وتولى تدبير الأمور وزيره القوام بن سماقا الأسعردى وكان عماد الدين بن قرا أرسلان قد سيره أخوه نور الدين فى عساكره إلى صلاح الدين وهو يحاصر الموصل وهو معه فلما بلغه خبر وفاة أخيه سار ليملك البلاد بعده لصغر أولاده فتعذر عليه ذلك فسار إلى خرت برت فملكها وهى بيد أولاده إلى سنة عشرين وستمائة ولما حضر صلاح الدين ميافارقين حضر عنده ولد نور الدين فأقره على ملك أبيه ومن جملته آمد وكانوا خافوا أن يأخذها منهم فلم يفعل وردهم إلى بلادهم وشرط عليهم أن يراجعوه فيما يفعلونه ويصدرون عن أمره ونهيه ورتب معه أميرا لقبه صلاح الدين من أصحاب أبيه .

﴿ذكر ملك صلاح الدين ميافارقين﴾ لما سار صلاح الدين إلى خلاط جعل طريقه على ميافارقين مطمع ملكها حيث كان صاحبه قطب الدين صاحب ماردين قد توفى كما ذكرنا وملك بعده ابنه وهو طفل وكان حكمها إلى شاه أرمن وعسكره فيها فلما توفى طمع فى أخذها فلما نازلها رآها مشحونة بالرجال وبها زوجة قطب الدين المتوفى ومعها بنات لها منه وهى أخت نور الدين محمد صاحب الحصن فأقام صلاح الدين عليها يحصرها من أول جمادى الأولى وكان المقدم على أجنادها أمير اسمه يرنقش ولقبه أسد الدين وكان شجاعا شهما يحفظ البلد فأحسن اليه واشتد القتال عليه ونصب المنجنيقات والعرادات فلم يصل صلاح الدين إلى ما يريد منها فلما رأى ذلك عدل من القوة والحرب إلى إعمال الحيلة فراسل امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد يقول لها إن أسد الدين يرنقش قد مال الينا فى تسليم البلد ونحن نرعى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته ونريد أن يكون لك فى هذا الأمر نصيب وأنا أزوج بناتك لأولادى وتكون ميافارقين وغيرها لك وبحكمك ووضع من أرسل إلى الأسد يعرفه أن الخاتون قد مالت للمقاربة والانقياد إلى السلطان وأن من بخلاط قد كاتبوه ليسلموا اليه فخذ لنفسك واتفق أن رسولا وصله من خلاط يبذلون له الطاعة وقالوا له من الاستدعاء اليهم ما كانوا يقولونه فأمر صلاح الدين الرسول فدخل إلى ميافارقين وقال للأسد أنت عمن تقاتل وأنا قد جئت فى تسليم خلاط إلى صلاح الدين فسقط فى يده وضعفت قوته وأرسل يقترح أقطاعا ومالا فأجيب إلى ذلك وسلم البلد سلخ جمادى الأولى وعقد النكاح لبعض أولاده على بعض بنات خاتون وأقر بيدها قلعة هتاخ لتكون فيها هى وبناتها .

﴿ذكر عود صلاح الدين إلى بلد الموصل والصلح بينه وبين أنابك عزالدين﴾ لما فرغ صلاح الدين من أمر ميافارقين وأحكم قواعدها وقرر أقطاعاتها وولاياتها أجمع على العود إلى الموصل فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل إلى كفر زمار والزمان شتاء فنزلها فى عساكره وعزم على المقام بها وإقطاع جميع بلاد الموصل وأخذ غلاتها ودخلها وإضعاف الموصل بذلك إذعلم أنه لا يمكنه التغلب عليها وكان نزوله فى شعبان وأقام بها شعبان ورمضان وترددت الرسل بينه وبين عزالدين صاحب الموصل وصار مجاهد الدين براسل ويتقرب وكان قوله مقبولا عند سائر الملوك لما علموا من صحبته فبينما الرسل تتردد فى الصلح إذمرض صلاح الدين وسار من كفر زمار وعاد إلى حران فلحقه الرسل بالإجابة إلى ماطلب فتقرر الصلح وحلف على ذلك وكانت القاعدة أن يسلم اليه عزالدين شهرزور وأعمالها وولاية القرابلى وجميع ماوراء الزاب من أعمال وأن يخطب له على منابر بلاده ويضرب اسمه على السكة فلما حلف أرسل رسله فحلف عز الدين له وتسلم البلاد التى استقرت القاعدة على تسليمها ووصل صلاح الدين إلى حران فأقام بها مريضا وأمنت الدنيا وسكنت الدهماء وانحسمت مادة الفتن وكان ذلك بتوصل مجاهد الدين قايماز رحمه الله وأما صلاح الدين فإنه طال مرضه بحران وكان عنده من أهله أخوه الملك العادل وله حينئذ حلب وولده الملك العزيز عثمان واشتد مرضه حتى أيسوا من عافيته فحلف الناس لأولاده وجعل لكل منهم شيأ من البلاد معلوما وجعل أخاه العادل وصيا على الجميع ثم إنه عوفى وعاد إلى دمشق فى المحرم سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ولما كان مريضا بحران كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه وله من الأقطاع حمص والرحبة فسار من عنده إلى حمص فاجتاز بحلب وأحضر جماعة من الدمشقيين وواعدهم على تسليم البلد إليه إذا مات صلاح الدين وأقام بحمص ينتظر موته ليسير إلى دمشق فيملكها فعوفى وبلغه الخبر على جهته فلم يمض غير قليل حتى مات ابن شيركوه ليلة عيد الأضحى فإنه شرب الخمر وأكثر منه فأصبح ميتا فذكروا والعهدة عليهم أن صلاح الدين وضع إنسانا يقال له الناصح بن العميد وهو من دمشق فحضر عنده ونادمه وسقاه سما فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح فسألوا عنه فقيل إنه سار من ليلته إلى صلاح الدين فكان هذا مما قوى الظن فلما توفى أعطى أقطاعه لولده شيركوه وعمره اثنتا عشرة سنة وخلف ناصر الدين من الأموال والخيل والآلات شيأ كثيرا فحضر صلاح الدين فى حمص واستعرض تركته وأخذ أكثرها ولم يترك إلا مالا خير فيه وبلغنى أن شيركوه بن ناصر الدين حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة فقال له إلى أين بلغت من القرآن فقال إلى قوله تعالى ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا﴾ فعجب صلاح الدين والحاضرون من ذكائه .

﴿ ذكر الفتنة بين التركمان والأكراد بديار الجزيرة والموصل﴾ فى هذه السنة ابتدأت الفتنة بين التركمان والأكراد بديار الجزيرة والموصل وديار بكر وخلاط والشام وشهر زور وأذربيجان وقتل فيها من الخلق مالا يحصى ودامت عدة سنين وتقطعت الطرق ونهبت الأموال وأريقت الدماء وكان سببها أن امرأة من التركمان تزوجت بإنسان تركمانى واجتازوا فى طريقهم بقلعة من الزوزان الأكراد فجاد أهلها وطلبوا من التركمان وليمة العرس فامتنعوا من ذلك وجرى بينهم كلام صاروا منه إلى القتال فنزل صاحب تلك القلعة فأخذ الزوج فقتله فهاجت الفتنة وقام التركمان على ساق وقتلوا جمعا كثيرا من الأكراد وثار الأكراد فقتلوا من

Marfat.com

Marfat.com

التركمان أيضا كذلك وتفاقم الشر ودام ثم إن مجاهد الدين قايماز رحمه الله جمع عنده جمعا من رؤساء الاكراد والتركمان وأصلح بينهم وأعطاهم الخلع والثياب وغيرها وأخرج عليهم مالا جما فانقطعت الفتنة وكفى الله شرها وعادوا إلى ماكانوا عليه من الطمأنينة والأمان .

﴿ذكر ملك الملثمين والعرب أفريقية وعودها إلى الموحدين﴾ قد ذكرنا سنة ثمانين ملك على بن اسحق الملثم بجاية وإرسال يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن العساكر واستعادتها فسار إلى أفريقية فلما وصل إليها اجتمع سليم ورياح ومن هناك من العرب وانضاف إليهم الترك الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع شرف الدين قراقوش وقد تقدم ذكر وصوله إليها ودخل أيضا من أتراك مصر مملوك لتقى الدين ابن أخى صلاح الدين اسمه بوزابه فكثر جمعهم وقويت شوكتهم فلما اجتمعوا بلغت عدتهم مبلغا كثيرا وكلهم كاره لدولة الموحدين واتبعوا جميعهم على بن إسحق الملثم لأنه من بيت المملكة والرياسة القديمة وانقادوا إليه ولقبوه بأمير المسلمين وقصدوا بلاد أفريقية فملكوها جميعها شرقا وغربا إلا مدينتين تونس والمهدية فإن الموحدين أقاموا بها وحفظوها على خوف وضيق وشدة وانضاف إلى الملثم كل مفسد فى تلك الأرض ومن يريد الفتنة والنهب والفساد والشر فخربوا البلاد والحصون والقرى وهتكوا الحرم وقطعوا الأشجار وكان الوالى على أفريقية حينئذ عبد الواحد بن عبد الله الهنتاتى وهو بمدينة تونس فأرسل إلى ملك المغرب يعقوب وهو بمراكش يعلمه الحال وقصد الملثم جزيرة باشرا وهى بقرب تونس تشتمل على قرى كثيرة فنازلها وأحاط بها فطلب أهلها منه الأمان فأمنهم فلما دخلها العسكر نهبوا جميع ما فيها من الأموال والدواب والغلات وسلبوا الناس حتى ثيابهم وامتدت الأيدى إلى النساء والصبيان وتركوهم هلكى فقصدوا مدينة تونس فأما الأقوياء فكانوا يخدمون ويعملون ما يقوم بقوتهم وأما الضعفاء فكانوا يستعطون ويسألون الناس ودخل عليهم فصل الشتاء فأهلكهم البرد ووقع فيهم الوباء فأحصى الموتى منهم فكانوا اثنى عشر ألفا هذا من وضع واحد فما الظن بالباقى ولما استولى الملثم على أفريقية قطع خطبة أولاد عبد المؤمن وخطب للإمام الناصر لدين الله الخليفه العباسى وأرسل إليه يطلب الخلع والأعلام السود وقصد فى سنة اثنتين وثمانين مدينة قفصه فحصرها فأخرج أهلها الموحدين من عساكر ولد عبد المؤمن وسلموها إلى الملثم فرتب فيها جندا من الملثمين والأتراك وحصنها بالرجال مع حصانتها فى البناء وأما يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فإنه لما وصله الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارس من الموحدين وقصد قلة العسكر لقلة القوت فى البلاد ولما جرى فيها من التخريب والأذى وسار فى صفر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة فوصل إلى مدينة تونس وأرسل ستة آلاف فارس مع ابن أخيه فساروا إلى على بن اسحق الملثم ليقاتلوه وكان بقفصة فوافوه وكان مع الموحدين جماعة من الترك فحاربوا عليهم فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم وكان ذلك فى ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين فلما بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس إلى نصف رجب من السنة ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثم والأتراك فوصل إليهم فالتقوا بالقرب من مدينة قابس واقتتلوا فانهزم الملثم ومن معه فأكثر الموحدون القتل حتى كادوا يفنونهم فلم ينج منهم إلا القليل فقصدوا البر ورجع يعقوب من يومه إلى قابس ففتحها وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده وحملهم إلى مراكش وتوجه إلى مدينة قفصة فحصرها ثلاثة أشهر وقطع أشجارها وخرب ما حولها فأرسل إليه الترك الذين فيها يطلبون الأمان لأنفسهم ولأهل البلد فأجابهم إلى ذلك وخرج

Marfat.com

الأتراك منها سالمين وسير الأتراك إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم فى العدو وتسلم يعقوب البلد وقتل من فيه من الماشمين وهدم أسواره وترك المدينة مثل قرية وظهر ما أنذر به المهدى بن تومرت فإنه قال إنها تخرب أسوارها وتقطع أشجارها وقد تقدم ذكر ذلك فلما فرغ يعقوب من أمر قفصة واستقامت أفريقية عاد إلى مراكش وكان وصوله إليها سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فارق الرضى أبو الخير اسمعيل القزوينى الفقيه الشافعى بغداد وكان مدرس النظامية بها وعاد إلى قزوين ودرس فيها بعده الشيخ أبو طالب المبارك صاحب ابن الخل وكان من العلماء الصالحين . وفيها كان بين أهل الكرخ ببغداد وبين أهل باب البصرة فتنة عظيمة جرح فيها كثير منهم وقتل ثم أصلح النقيب الظاهر بينهم . وفيها توفى الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد المرصلى وكان عالما بمذهب الشافعى وله نظم ونثر أجاد فيه وكان من محاسن الدنيا وكانت وفاته بحمص[1]

﴿ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة﴾

﴿ذكر نقل العادل من حلب والملك العزيز إلى مصر وإخراج الأفضل من مصر إلى دمشق وإقطاعه إياها﴾

فى هذه السنة أخرج صلاح الدين ولده الأفضل علىّ من مصر إلى دمشق وأقطعها له وأخذ حلب من أخيه

---

(١) وفيها توفى الحافظ الكبير أبو موسى المدينى محمد بن عمر بن محمد الأصبهانى الحافظ الموسوى المدينى ، أحد حفاظ الدنيا الرحالين الجوالين له مصنفات عديدة ، وشرح أحاديث كثيرة رحمه الله .

وفيها توفى السهيلى أبو القاسم أبو زيد عبدالرحمن بن الخطيب أبى محمد عبدالله بن الخطيب أبى عمر أحمد بن أبى الحسن أصبغ بن حسين بن سعدون بن رضوان بن فتوح - هو الداخل إلى الأندلس - الخثعمى السهيلى ، حكى القاضى ابن خلكان أنه أملى عليه نسبه كذلك ، قال والسهيلى نسبة إلى قرية بالقرب من مالقة اسمها سهيل ، لأنه لا يرى سهيل النجم فى شىء من تلك البلاد إلا منها من رأس جبل شاهق عندها ، وهى من قرى المغرب ، ولد السهيلى سنة ثمان وخمسمائة ، وقرأ القراءات واشتغل وحصل حتى برع وساد أهل زمانه بقوة القريحة وجودة الذهن وحسن التصنيف ، وذلك من فضل الله تعالى ورحمته ، وكان ضريراً مع ذلك ، له (الروض الأنف) يذكر فيه نكتاً حسنة على السيرة لم يسبق إلى شىء منها أو إلى أكثرها ، وله كتاب (الأعلام فيما أبهم فى القرآن من الأسماء الأعلام) وكتاب (نتائج الفكر) ومسألة فى الفرائض بديعة ، ومسألة فى سرّ كون الدجال أعور ، وأشياء فريدة كثيرة بديعة مفيدة ، وله أشعار حسنة ، وكان عفيفاً فقيراً ، وقد حصل له مال كثير فى آخر عمره من صاحب مراكش ، مات يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان من هذه السنة ، وله قصيدة كان يدعو الله بها ويرتجى الإجابة فيها وهى :

يامن يرى مافى الضمير ويسمع * أنت المعد لكل ما يتوقع
يامن يرجى للشدائد كلها * يامن إليه المشتكى والمفزع
يامن خزائن رزقه فى قول كن * امنن فان الخير عندك أجمع
مالى سوى فقرى إليك وسيلة * فبالافتقار إليك فقرى أدفع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة * فلئن رددت فأى باب أقرع ؟
ومن الذى أرجو وأهتف باسمه * إن كان فضلك عن فقيرك يمنع ؟
حاشا لمجدك أن تقنط عاصيا * الفضل أجزل والمواهب أوسع

العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان إلى مصر وجعله نائبا عنه واستدعى تقى الدين منها وسبب ذلك أنه كان قد استناب تقى الدين بمصر كما ذكرناه وجعل معه ولده الأكبر الأفضل على فأرسل تقى الدين يشكو من الأفضل ويذكر أنه قد عجز عن جباية الخراج معه لأن كان حليما كريما إذا أراد تقى الدين معاقبة أحد منعه فأحضر ولده الأفضل؛ وقال لتقى الدين لاتحتج فى الخراج وغيره بحجة وتغير عليه بذلك وظن أنه يريد إخراج ولده الأفضل لينفرد بمصر حتى يملكها إذا مات صلاح الدين فلما قوى هذا الخاطر عنده أحضر أخاه العادل من حلب وسيره إلى مصر ومعه ولده العزيز عثمان واستدعى تقى الدين إلى الشام فامتنع من الحضور وجمع الأجناد والعساكر ليسير إلى المغرب إلى مملوكه قراقوش وكان قد استولى على جبال نفوسة وبرقة وغيرها وقد كتب إليه يرغبه فى تلك البلاد فتجهز للسفر إليه واستصحب معه أنجاد العسكر وأكثر منهم فلما سمع ذلك صلاح الدين ساءه وعلم أنه إن أرسل إليه يمنعه لم يجبه فأرسل إليه يقول له أريد أن تحضر عندى لأودعك وأوصيك بما تفعله فلما حضر عنده منعه وزاد فى أقطاعه فصار إقطاعه حماة ومنبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وجبل جور بجميع أعمالها وكان تقى الدين قد سير فى مقدمته مملوكه بوزابة فاتصل بقراقوش وكان منهم ما ذكرناه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وقد بلغنى من خبير بأحوال صلاح الدين أنه إنما حمله على أخذ حلب من العادل وإعادة تقى الدين إلى الشام أن صلاح الدين لما مرض بحران على ماذكرناه أرجف بمصر أنه قد مات فجرى من تقى الدين حركات من يريد أن يستبدل بالملك فلما عوفى صلاح الدين بلغه ذلك فأرسل الفقيه عيسى الهكارى وكان كبير القدر عنده مطاعا فى الجند إلى مصر وأمره بإخراج تقى الدين والمقام بمصر فسار مجدا فلم يشعر تقى الدين إلا وقد دخل الفقيه عيسى إلى داره بالقاهرة وأرسل إليه يأمره الخروج منها فطلب أن يمهل إلى أن يتجهز فلم يفعل وقال تقيم خارج المدينة وتتجهز فخرج وأظهر أنه يريد الدخول إلى الغرب فقال له اذهب حيث شئت فلما سمع صلاح الدين الخبر أرسل إليه يطلبه فسار إلى الشام فأحسن إليه ولم يظهر له شيئا مما كان لأنه كان حليما كريما صبورا رحمه الله وأما أخذ حلب من العادل فإن السبب فيه أنه كان من جملة جندها أمير كبير اسمه سليمان بن جندر بينه وبين صلاح الدين صحبة قديمة قبل الملك وكان صلاح الدين يعتمد عليه وكان عاقلا ذا مكر ودهاء فاتفق أن الملك العادل لما كان بحلب لم يفعل معه ما كان يظنه وقدم غيره عليه فتأثر بذلك فلما مرض صلاح الدين وعوفى سار إلى الشام فسايره يوما سليمان بن جندر فجرى حديث مرضه فقال له سليمان بأى رأى كنت تظن أنك تمضى إلى الصيد فلا يخالفونك بالله ماتستحى يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة قال وكيف ذلك وهو يضحك قال إذا أراد الطائر أن يعمل عشا لفراخه قصد أعالى الشجرة ليحمى فراخه وأنت سلمت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض هذه حلب بيد أخيك وحماة بيد تقى الدين وحمص بيد ابن شيركوه وابنك العزيز مع تقى الدين بمصر يخرجه أى وقت أراد وهذا ابنك الآخر مع أخيك فى خيمة يفعل به ما أراد فقال له صدقت واكتم هذا الأمر ثم أخذ حلب من أخيه وأخرج تقى الدين من مصر ثم أعطى أخاه العادل حران والرها وميافارقين ليخرجه من الشام ومصر لتبقى لأولاده فلم ينفعه مافعل لما أراد الله تعالى نقل الملك عن أولاده على ماذكره .

﴿ذكر وفاة البهلوان وملك أخيه قزل﴾ فى هذه السنة فى أولها توفى البهلوان محمد بن ايلدكز صاحب بلد الجبل والرى وأصفهان وأذربيجان وأرانية وغيرها من البلاد وكان عادلا حسن السيرة عاقلا حليما ذا سياسة

حسنة للملك وكانت تلك البلاد فى أيامه آمنة والرعايا مطمئنة فلما مات جرى بأصفهان بين الشافعية والحنفية من الحروب والقتل والإحراق والنهب مايجل عن الوصف وكان قاضى البلد رأس الحنفية وابن الخجندى رأس الشافعية وكان بمدينة الرى أيضا فتنة عظيمة بين السنية والشيعة وتفرق أهلها وقتل منهم وخربت المدينة وغيرها من البلاد ولما مات البهلوان ملك أخوه قزل أرسلان واسمه عثمان وكان السلطان طغرل بن أرسلان ابن طغرل بن محمد بن ملكشاه مع البهلوان والخطبة له فى البلاد بالسلطنة وليس له من الأمر شىء وإنما البلاد والأمراء والأموال بحكم البهلوان فلما مات البهلوان خرج طغرل عن حكم قزل ولحق به جماعة من الأمراء والجند فاستولى على بعض البلاد وجرت بينه وبين قزل حروب نذكرها إن شاء الله تعالى .

﴿ذكر اختلاف الفرنج بالشام وانحياز القمص صاحب طرابلس إلى صلاح الدين﴾ كان القمص صاحب طرابلس واسمه ريمند بن ريمند الصنجيلى قد تزوج بالقومصة صاحبة طبرية وانتقل إليها وأقام عندها بطبرية ومات ملك الفرنج بالشام وكان مجذوما وأوصى بالملك إلى ابن أخت له وكان صغيرا فكفله القمص وقام بسياسة الملك وتدبيره لأنه لم يكن للفرنج ذلك الوقت أكبر منه شأنا ولا أشجع ولا أجود رأيا منه فطمع فى الملك بسبب هذا الصغير فاتفق أن الصغير توفى فانتقل الملك إلى أمه فبطل ما كان القمص يحدث نفسه به ثم إن هذه الملكة هويت رجلا من الفرنج الذى قدموا الشام اسمه كى فتزوجته ونقلت الملك إليه وجعل التاج على رأسه وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاسبتارية والدوابة والبارونية وأعلمتهم أنها قد ردت الملك إليه وأشهدتهم عليها بذلك فأطاعوه ودانوا له فعظم ذلك على القمص وسقط فى يديه وطولب بحساب ماجبى من الأموال مدة ولاية الصبى فادعى أنه أنفقه عليه وزاده ذلك نفورا وجاهر بالمشاقة والمباينة وراسل صلاح الدين وانتمى إليه واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعى له فى كل مايريد وضمن له أنه يجعله ملكا مستقلا للفرنج قاطبة وكان عنده جماعة من فرسان القمص فأطلقهم فحل ذلك عنده أعظم محل وأظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على مافعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم وكان ذلك من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم على مانذكره إن شاء الله وسير صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية فشنت الغارات على بلاد الفرنج وخرجت سالمة غانمة فوهن الفرنج بذلك وضعفوا وتجرأ المسلمون عليهم وطمعوا فيهم .

﴿ذكر غدر البرنس أرناط﴾ كان البرنس أرناط صاحب الكرك من أعظم الفرنج وأخبثهم وأشدهم عداوة للمسلمين وأعظمهم ضررا عليهم فلما رأى صلاح الدين ذلك منه قصده بالحصر مرة بعد مرة وبالغارة على بلاده كرة بعد أخرى فذل وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين فأجابه إلى ذلك وهادنه وتحالفا وترددت القوافل من الشام إلى مصر ومن مصر إلى الشام فلما كان هذه السنة اجتاز به قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ومعها جماعة صالحة من الجند فغدر اللعين بهم وأخذهم عن آخرهم وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم وأودع السجون من أسر منهم فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويقبح فعله وغدره ويتوعده إن لم تطلق الأسرى والأموال فلم يجب إلى ذلك وأصر على الامتناع فنذر صلاح الدين نذرا أن يقتله إن ظفر به فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ كان المنجمون قديما وحديثا قد حكموا أن هذه السنة التاسع والعشرين من جمادى

Marfat.com

الآخرة تجتمع الكواكب الخمسة فى برج الميزان ويحدث باقترانها رياح شديدة فلم يكن لذلك صحة ولم يهب من الرياح شىء البتة حتى إن الغلال الحنطة والشعير تأخر نجازها لعدم الهواء الذى يذرى به الفلاحون فأكذب الله أحدوثة المنجمين وأخراهم . وفيها توفى عبد الله بن برى بن عبد الجبار بن برى النحوى المصرى وكان إماما فى النحو رحمه الله تعالى (١) .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ﴾

اتفق أول هذه السنة يوم السبت وهو يوم النوروز السلطانى ورابع عشر أدار سنة ألف وأربعمائة وثمان وتسعين اسكندرية وكان القمر والشمس فى الحمل واتفق أول سنة العرب وأول سنة الفرس التى جددوها أخيرا وأول سنة الروم والشمس والقمر فى أول البروج وهذا يبعد وقوع مثله .

﴿ذكر حصر صلاح الدين الكرك﴾ فى هذه السنة كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وإربل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ويحثهم عليه ويأمرهم بالتجهز له بغاية الإمكان ثم خرج من دمشق أواخر المحرم فى عسكرها وحلقتها الخاص فسار إلى رأس الماء وتلاحقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده الملك الأفضل علىّ ليجتمع إليه من يرد إليه منها وسار هو إلى بصرى جريدة وكان سبب مسيره وقصده إليها أنه أتته الأخبار أن البرنس أرناط صاحب الكرك يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم وأظهر أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج يرجع إلى طريق العسكر المصرى يصدهم عن الوصول إلى صلاح الدين فسار إلى بصرى ليمنع البرنس أرناط من طلب الحجاج ويلزم بلده خوفا عليه ؛ وكان من الحجاج جماعة من أقاربه منهم محمد بن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وغيره فلما سمع أرناط بقرب صلاح الدين من بلده لم يفارقه وانقطع عما طمع فيه فوصل

---

(١) قال العماد الكاتب : وأجمع المنجمون على خراب العالم فى شعبان ، لأن الكواكب الستة تجتمع فيه فى الميزان ، فيكون طوفان الريح فى سائر البلدان ، وذكر أن ناسا من الجهلة تأهبوا لذلك بحفر مغارات فى الجبال ومدخلات وأسراب فى الأرض خوفا من ذلك ، قال : فلما كانت تلك الليلة التى أشاروا إليها وأجمعوا عليها لم ير ليلة مثلها فى سكونها وركودها وهدوئها ، وقد ذكر ذلك غير واحد من الناس فى سائر أقطار الأرض ، وقد نظم الشعراء فى تكذيب المنجمين فى هذه الواقعة وغريبها أشعاراً كثيرة حسنة منها :

مزق التقويم والزيج فقد بان الخطا * إنما للتقويم والزيج هباء وهوا
قلت للسبعة أبرام ومنع وعطا * ومتى ينزلن فى الميزان يستولى الهوا
ويثور الرمل حتى يمتلى منه الصفا * ويعم الأرض رجف وخراب وبلى
ويصير القاع كالفف وكالطود العدا * وحكمتم فأبى الحاكم إلا ما يشا
ماأتى الشرع ولا جاءت بهذا الأنبيا * فبقيتم ضحكة يضحك منها العلما
حسبكم خزيا وعاراً مايقول الشعرا * ما أطمعكم فى الحكم إلا الأمرا
ليت إذا لم يحسنوا فى الدين طغاما أسا * فعلى اصطرلاب بطليموس والزيج العفا
وعليه الخزى ما جادت على الارض السما

Marfat.com

Marfat.com

الحجاج سالمين فلما وصلوا وفرغ سره من جهتهم سار إلى الكرك وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا وخربوا وأحرقوا والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده وسائر الفرنج قد لزموا طرق بلادهم خوفا من العسكر الذى مع ولده الأفضل فتمكن من الحصر والنهب والحريق والتخريب هذا فعل صلاح الدين .

﴿ذكر الغارة على بلد عكا﴾ أرسل صلاح الدين إلى ولده الأفضل يأمره أن يرسل قطعة صالحة من الجيش إلى بلد عكا ينهبونه ويخربونه فسير مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين صاحب حران والرها وأضاف إليه قايماز النجمى ودلدرم الياقوتى وهما من أكابر الأمراء وغيرهما فساروا ليلا وصبحوا صفورية أواخر صفر فخرج إليهم الفرنج فى جمع من الداوية والاسبتارية وغيرهما فالتقوا هناك وجرت بينهم حرب تشيب لها المفارق السود ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وأسر الباقون وفيمن قتل مقدم الاسبتارية وكان من فرسان الفرنج المشهورين وله الحكايات العظيمة فى المسلمين ونهب المسلمون ماجاورهم من البلاد وغنموا وسبوا وعادوا سالمين وكان عودهم على طبرية وبها القمص فلم ينكر ذلك فكان فتحا كثيرا فإن الداوية والاسبتارية هم جمرة الفرنج وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك .

﴿ذكر عود صلاح الدين إلى عسكره ودخوله إلى الفرنج﴾ لما أتت صلاح الدين البشارة بهزيمة الاسبتارية والداوية وقتل من قتل منهم وأسر من أسر منهم عاد عن الكرك إلى العسكر الذى مع ولده الملك الأفضل وقد تلاحقت سائر الأمراء والعساكر واجتمع بهم وساروا جميعا وعرض العسكر فبلغت عدتهم اثنى عشر ألف فارس ممن له الأقطاع والجامكية سوى المتطوعه فعبى عسكره قلبا وجناحين وميمنة وميسرة وجاليشية وساقة وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته وسار على تعبية فنزل بالأقحوانة بقرب طبرية وكان القمص قد انتمى إلى صلاح الدين كما ذكرنا وكتبه متصلة إليه يعده النصرة ويمنيه المعاضدة ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾ فلما رأى الفرنج العساكر الإسلامية وتصميم العزم على قصد بلادهم أرسلوا إلى القمص البطرك والقسوس والرهبان وكثيرا من الفرسان فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين وقالوا له لاشك أسلمت وإلا لم تصبر على فعل المسلمين أمس بالفرنج يقتلون الداوية والاسبتارية ويأسرونهم ويجتازون بهم عليك وأنت لا تنكر ذلك ولا تمتنع عنه ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس وتهدده البطرك أنه يحرمه ويفسخ عليه نكاح زوجته إلى غير ذلك من التهديد فلما رأى القمص شدة الأمر عليه خاف واعتذر وتنصل وتاب فقبلوا عذره وغفروا زلته وطلبوا منه الموافقة على المسلمين والموازرة على حفظ بلادهم فأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم والاجتماع بهم وسار معهم إلى ملك الفرنج واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم ولم تغن عنهم من الله شيئا وجمعوا فارسهم وراجلهم ثم ساروا من عكا إلى صفورية وهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى قد ملئت قلوبهم رعبا .

﴿ذكر فتح صلاح الدين طبرية﴾ لما اجتمع الفرنج وساروا إلى صفورية جمع صلاح الدين أمراءه واستشارهم فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء وأن يضعف الفرنج بشن الغارات وإخراب الولايات مرة بعد مرة فقال له بعض أمرائه الرأى عندى أننا نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبى فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون ترك قتال الكفار وأقبل يريد قتال

المسلمين والرأى أن نعمل فعلا نعذر فيه ونكف الألسنة عنا فقال صلاح الدين الرأى عندى أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فإن الأمور لاتجرى بحكم الإنسان ولانعلم قدر الباقى من أعمارنا ولاينبغى أن نفرق هذا الجمع إلابعد الجد بالجهاد ثم رحل من الأقحوانة اليوم الخامس من نزوله بها وهو يوم الخميس لسبع بقين من ربيع الآخر فسار حتى خلف طبرية وراء ظهره وصعد جبلها وتقدم حتى قارب الفرنج فلم يرمنهم أحدا ولافارقوا خيامهم فنزل وأمر العسكر بالنزول فلما جنه الليل جعل فى مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ونزل جريدة إلى طبرية وقاتلها ونقبَ بعض أبراجها وأخذ المدينة عنوة فى ليلة ولجأ من بها إلى القلعة التى لها فامتنعوا بها وفيها صاحبتها ومعها أولادها فنهب المدينة وأحرقها فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين إلى طبرية وملكه المدينة وأخذ مافيها وإحراقها ماتخلف عما لايحمل اجتمعوا للمشورة فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ومنعهم عن طبرية فقال القمص إن طبرية لى ولزوجتى وقد فعل صلاح الدين بالمدينة مافعل وبقى القلعة وفيها زوجتى وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتى ومالنا بها ويعود فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديما وحديثا مارأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة وإذا أخذ طبرية لايمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها وإن أقام بها لايقدر على المقام بها إلابجميع عساكره ولايقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها ونفتك من أسر منا فقال له برنس أرناط صاحب الكرك قد أطلت فى التخويف من المسلمين ولاشك أنك تريدهم وتميل اليهم وإلاما كنت تقول هذا وأما قولك إنهم كثيرون فإن النار لايضرها كثرة الحطب فقال أما واحد منكم إن تقدمتم تقدمت وإن تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون فقوى عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم فرحلوا من معسكرهم الذى لزموه وقربوا من عساكر الإسلام فلما سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية إلى عسكره وكان قريبا منه وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين وكانوا قد أفنوا ماهناك من ماء الصهاريج ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم وأما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يحرض بعضهم بعضا وقد وجدوا ريح النصر والظفر وكلما رأوا حال الفرنج خلاف عادتهم بما ركبهم من الخذلان زاد طمعهم وجرأتهم فأكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم ورتب السلطان تلك الليلة الجاليشية وفرق فيهم النشاب .

﴿ذكر انهزام الفرنج بحطين﴾ أصبح صلاح الدين والمسلمون يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر فركبوا وتقدموا إلى الفرنج فركب الفرنج ودنا بعضهم من بعض إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا فاقتتلوا واشتد القتال وصبر الفريقان ورمى جاليشية المسلمين من النشاب ما كان كالجراد المنتشر فقتلوا من خيول الفرنج كثيرا هذا القتال بينهم والفرنج قد جمعوا نفوسهم براجلهم وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية لعلهم يردون الماء فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم ووقف بالعسكر فى وجوههم وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم والناس يأتمرون لقوله ويقفون عند نهيه فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج فقاتل قتالا عجب منه الناس ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه لحينه ثم حمل المسلمون حملة منكرة ضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيرا

Marfat.com

فلما رأى القمص شدة الأمر علم أنهم لاطاقة لهم بالمسلمين فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم وكان المقدم من المسلمين فى تلك الناحية تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب علم أنه لاسبب إلا الوقوف فى وجوههم فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقا يخرجون منه وكان بعض المتطوعة قد ألقى فى تلك الأرض نارا وكان الحشيش كثيرا فاحترق وكانت الريح فحملت حر النار والدخان إليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال فلما انهزم القمص سقط فى أيديهم وكادوا يستسلمون ثم علموا أنهم لاينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقفهم لولا لطف الله بهم إلا أن الفرنج لايحملون حملة فيرجعون إلا وقد قتل منهم فوهنوا لذلك وهنا عظيما فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها فارتفع من بقى من الفرنج إلى تل بناحية حطين وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ومنعوهم عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم لاغير وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذى يسمونه صليب الصلبوت ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التى صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك هذا والقتل والأسر يعملان فى فرسانهم ورجالتهم فبقى الملك على التل فى مقدار مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين فحكى لى عن الملك الأفضل ولد صلاح الدين قال كنت إلى جانب أبى فى ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته فلما صار ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدى قال فنظرت إليه وقد علته كآبة واربدلونه وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح كذب الشيطان قال فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا إلى التل فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحى هزمناهم فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ألحقوا المسلمين بوالدى وفعل مثل مافعل أولا وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل فصحت أنا أيضا هزمناهم فالتفت والدى إلىّ وقال اسكت ماانهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة قال فهو يقول لى وإذا الخيمة قد سقطت فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى فبكى من فرحه وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا وقد كانوا يرجون الخلاص فى بعض تلك الحملات بما هم فيه فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا فنزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك ولم يكن فى الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين وأسروا أيضا صاحب جبيل وابن هنفرى ومقدم الداوية وكان من اعظم الفرنج شأنا وأسروا أيضا جماعة من الداوية وجماعة من الإسبتارية وكثر القتل والأسر فيهم فكان من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا واحدا ومن يرى الأسرى لايظن أنهم قتلوا أحدا وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الوقعة فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين فى خيمته وأحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا فشرب وأعطى فضله برنس صاحب الكرك فشرب فقال صلاح الدين إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فينال أمانى ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه وعدد عليه عوداته وقام إليه بنفسه فضرب رقبته وقال كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدرا فلما قتله وسحب وأخرج ارتعدت

فرائص الملك فسكن جأشه وأمنه ، وأما القمص صاحب طرابلس فإنه لما نجا من المعركة كما ذكرناه وصل إلى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياما قلائل حتى مات غيظا وحنقا مما جرى على الفرنج خاصة وعلى دين النصرانية عامة .

﴿ذكر عود صلاح الدين إلى طبرية وملك قلعتها مع المدينة﴾ لما فرغ صلاح الدين من هزيمة الفرنج أقام بموضعه باقي يومه وأصبح يوم الأحد عاد إلى طبرية ونازلها فأرسلت صاحبتها تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها فأجابها إلى ذلك فخرجت بالجميع فوفى لها فسارت آمنة ثم أمر بالملك وجماعة من أعيان الأسرى فأرسلوا إلى دمشق وأمر بمن أسر من الداوية والاسبتارية أن يجمعوا ليقتلهم ثم علم أن من عنده أسير لايسمح به لما يرجو من فدائه فبذل فى كل أسير من هذين الصنفين خمسين دينارا مصرية فأحضر عنده فى الحال مائتا أسير فأمر بهم فضربت أعناقهم وإنما خص هؤلاء بالقتل لأنهم أشد شوكة من جميع الفرنج فأراح الناس من شرهم وكتب إلى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم سواء كان له أو لغيره ففعل ذلك ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة فرأيت الأرض ملأى من عظامهم تبين على البعد منها المجتمع بعضه على بعض ومنها المفترق هذا سوى ماجحفته السيول وأخذته السباع فى تلك الآكام والوهاد .

﴿ذكر فتح مدينة عكا﴾ لما فرغ صلاح الدين من طبرية سار عنها يوم الثلاثاء ووصل إلى عكا يوم الأربعاء وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ فعجب هو والناس من ذلك لأنهم علموا أن عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل وأسير وأنهم لم يسلم منهم إلا القليل إلا أنه نزل يومه وركب يوم الخميس وقد صمم على الزحف إلى البلد وقتاله فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل إذ خرج كثير من أهلها يضرعون ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الإقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين وساروا عنها متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقى على حاله ودخل المسلمون إليها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى وصلوا بها الجمعة فى جامع كان للمسلمين قديما ثم جعله الفرنج بيعة ثم جعله صلاح الدين جامعا . وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامى بعد أن ملكه الفرنج وسلم البلد إلى ولده الأفضل وأعطى جميع ما كان فيه للداوية من أقطاع وضياع وغير ذلك للفقيه عيسى وغنم المسلمون مابقى مما لم يطق الفرنج حمله وكان من كثرته يعجز الإحصاء عنه فرأوا فيها من الذهب والجوهر والسقلاط والبندق والشكر والسلاح وغير ذلك من أنواع الأمتعة كثيرا فإنها كانت مقصدا للتجار الفرنج والروم وغيرهم من أقصى البلاد وأدناها وكان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده فلم يكن له من ينقله ففرق صلاح الدين وابنه الأفضل ذلك جميعه على أصحابهما وأكثر ذلك فعله الأفضل لأنه كان مقيما بالبلد وكانت شيمته فى الكرم معروفة وأقام صلاح الدين بعكا عدة أيام لإصلاح حالها وتقرير قواعدها .

﴿ذكر فتح مجدل يابا﴾ لما هزم صلاح الدين الفرنج أرسل إلى أخيه العادل بمصر يبشره بذلك ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة مصر بمن بقى عنده من العسكر ومحاصرة مايليه منها فسارع إلى ذلك وسار عن مصر فنازل حصن مجدل يابا وحصره وغنم مافيه ورد كتابه بذلك إلى صلاح الدين وكانت بشارة كبيرة .

﴿ذكر فتح عدة حصون﴾ فى مدة مقام صلاح الدين بعكا تفرق عسكره إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا

Marfat.com

نساءها وأطفالها وقدموا من ذلك بما سد الفضاء وسير تقى الدين فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور وسير حسام الدين عمر بن لاجين فى عسكر إلى نابلس فأتى سبسطية وبها قبر زكريا فأخذه من أيدى النصارى وسلمه إلى المسلمين ووصل إلى نابلس فدخلها وحصر قلعتها واستنزل من فيها بالأمان وتسلم القلعة وأقام أهل البلد به وأقرهم على أملاكهم وأموالهم .

﴿ذكر فتح يافا﴾ لما خرج العادل من مصر وفتح مجدل يابا كما ذكرنا سار إلى مدينة يافا وهى على الساحل فحصرها وملكها عنوة ونهبها وأسر الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها مالم يجر على أحد من أهل تلك البلاد وكان عندى جارية من أهلها وأنا بحلب ومعها طفل عمره نحو سنة فسقط من يدها فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيرا فسكتتها وأعلمتها أنه ليس بولدها مايوجب البكاء فقالت ماله أبكى إنما أبكى لما جرى علينا كان لى ستة إخوة كلهم هلكوا جميعهم وزوج وأختان لا أعلم ما كان منهم هذا من امرأة واحدة والباقى بالنسبة ورأيت بحلب امرأة فرنجية قدجاءت مع سيدها إلى باب فطرقه سيدها فخرج صاحب البيت فكلمهم ثم أخرج امرأة فرنجية فحين رأتها الأخرى صاحتا واعتنقتا وهما يصرخان ويبكيان وسقطتا إلى الأرض ثم قعدتا يتحدثان وإذاهما أختان وكان لهما عدة من الأهل ليس لهما علم بأحد منهم .

﴿ذكر فتح تبنين وصيدا وجبيل وبيروت﴾ فأما تبنين فقد ذكرنا انفاذ صلاح الدين تقى الدين ابن أخيه إلى تبنين فلما وصلها نازلها وأقام عليها فرأى حصرها لايتم إلا بوصول عمه صلاح الدين اليه فأرسل اليه يعلمه الحال ويحثه على الوصول اليه فرحل ثامن جمادى الأولى ونزل عليه حادى عشرة فحصرها وضايقها وقاتلها بالزحف وهى من القلاع المنيعة على جبل فلما ضاق عليهم الأمر واشتد الحصر أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجل فلما دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدين وكساهم وأعطاهم نفقة وسيرهم إلى أهليهم وبقى الفرنج كذلك خمسة أيام ثم أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم على أنفسهم فسلموها اليه ووفى لهم وسيرهم إلى مأمنهم وأما صيدا فإن صلاح الدين لما فرغ من تبنين رحل عنها إلى صيدا فاجتاز فى طريقه بصرفند فأخذها صفوا عفوا بغير قتال وسار عنها إلى صيدا وهى من مدن الساحل المعروفة فلما سمع صاحبها بمسيره نحوه سار عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فلما وصلها صلاح الدين تسلمها ساعة وصوله وكان ملكها لتسع بقين من جمادى الأولى وأما بيروت فهى من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها فلما فتح صلاح الدين صيدا سار عنها من يومه نحو بيروت ووصل إليها من الغد فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدد وقاتلوا على سورها قتالا شديدا واغتروا بحصانة البلد وظنوا أنهم قادرون على حفظه وزحف المسلمين إليهم مرة بعد مرة فبينما الفرنج يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فأتاهم من أخبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى قهرا وغلبة فأرسلوا ينظرون ما الخبر وإذا ليس له صحة فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من الهواد فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وتسلمها فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى من السنة فكان مدة حصرها ثمانية أيام وأما جبيل فإن صاحبها كان من جملة الأسرى الذين سيروا إلى دمشق مع ملكهم فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق فى تسليم جديد على شرط إطلاقه فعرف صلاح الدين بذلك فأحضره مقيدا عنده تحت الاستظهار والاحتياط وكان العسكر حينئذ على بيروت فسلم حصنه وأطلق أسرى المسلمين الذين به وأطلقه صلاح الدين كما شرط له وكان هذا صاحب جبيل من أعيان

Marfat.com

الفرنج وأصحاب الرأى والمكر والشر. به يضرب المثل بينهم وكان المسلمين منه عدو أزرق وكان إطلاقه من الأسباب الموهنة للمسلمين على مايأتى بيانه .

﴿ذكر خروج المركيش إلى صور﴾ لما انهزم القمص صاحب طرابلس من حطين إلى مدينة صور فأقام بها وهى أعظم بلاد الشام حصانة وأشد امتناعا على من رامها فلما رأى السلطان قد ملك تبنين وصيدا وبيروت خاف أن يقصد صلاح الدين صور وهى فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها فلا يقوى على حفظها وتركها وسار إلى مدينة طرابلس فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين فلو بدأ بها صلاح الدين قبل تبنين وغيرها لأخذها بغير مشقة لكنه استعظمها لحصانتها فأراد أن يفرغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها فكان ذلك سبب حفظها ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ واتفق أن إنسانا من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيش لعنه الله خرج فى البحر بمال كثير للزيارة والتجارة ولم يشعر بما كان من الفرنج فأرسى بعكا وقد رابه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرح وضرب الأجراس وغير ذلك وما رأى أيضا من زى أهل البلد فوقف ولم يدر ما الخبر وكانت الريح قد ركدت فأرسل الملك الأفضل إليه بعض أصحابه فى سفينة يبصر من هو ومن يريد فأتاه القاصد فسأله المركيش عن الأخبار لما أنكره فأخبره بكسرة الفرنج وأخذ عكا وغيرها وأعلمه أن صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها وحكى الأمر له على وجهه فلم يمكنه الحركة لعدم الريح فرد الرسول يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع ومال فأجيب إلى ذلك فرده مرارا كل مرة يطلب شيئا لم يطلبه فى المرة الأولى وهو يفعل ذلك انتظارا لهبوب الهواء ليسير به فبينما هو فى مراجعاته إذ هبت الريح فسار نحو صور وسير الملك الأفضل الشوانى فى طلبه فلم يدركوه فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرهما مما ذكرنا أعطى أهلها الأمان فساروا كلهم إلى صور وكثر الجمع بها إلا أنهم ليس لهم رأس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم وليسوا أهل حرب وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد إليه فأتاهم المركيش وهم على ذلك العزم فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذل ما معه من الأموال وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره فأجابوه إلى ذلك فأخذ أيمانهم عليه وأقام عندهم ودبر أحوالهم وكان من شياطين الإنس حسن التدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة وشرع فى تحصينها فجدد حفر خنادقها وعمل أسوارها وزاد فى حصانتها واتفق من بها على الحفظ والقتال دونها .

﴿ ذكر فتح عسقلان وما يجاورها﴾ لما ملك صلاح الدين بيروت وجبيل وغيرهما كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده لأسباب منها أنهما على طريق مصر يقطع بينهما وبين الشام وكان يختار أن تتصل الولايات له ليسهل خروج العسكر منها ودخولهم إليها ولما فى فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم إلى غير ذلك من الأغراض فسار عن بيروت نحو عسقلان واجتمع بأخيه العادل ومن معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة وكان صلاح الدين قد أحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية إليه من دمشق وقال لهما إن سلمتما البلاد إلى فلكما الأمان فأرسلا إلى من بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما أقبح رد وجبهوهما بما يسوءهما فلما رأى السلطان ذلك جد فى قتال المدينة ونصب المنجنيقات عليها مرة أخرى وتقدم النقابون إلى السور فنالوا من باشورته شيئا هذا وملكهم يكرر المراسلات

Marfat.com

إليهم بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم أنه إذا أطلق من الأسر أضرم البلاد على المسلمين نارا واستنجد بالفرنج من البحر وأجلب الخيل والرجل من أقاصى بلاد الفرنج وأدانيها وهم لايجيبون إلى مايقول ولا يسمعون مايشير به ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفا ووهنا وإذا قتل منهم الرجل لايجدون له عوضا ولا لهم نجدة ينتظرونها راسلوا صلاح الدين فى تسليم البلد على شروط اقترحوها فأجابهم صلاح الدين إليها وكانوا قتلوا فى الحصار أميرا كبيرا من المهرانية فخافوا عند مفارقة البلد أن عشيرته يقتلون منهم بثاره فاحتاطوا فيما اشترطوا لأنفسهم فأجيبوا إلى ذلك جميعه وسلموا المدينة سلخ جمادى الآخرة من السنة وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوما وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس ووفى لهم بالأمان .

﴿ ذكر فتح البلاد والحصون المجاورة لعسقلان ﴾ لما فتح صلاح الدين عسقلان أقام بظاهرها وبث السرايا فى أطراف البلاد المجاورة لها ففتحوا الرملة واللداروم وغزة ومشهد إبراهيم الخليل عليه السلام وتبنين وبيت لحم وبيت جبريل والنطرون وكل ما كان للداوية .

﴿ ذكر فتح البيت المقدس ﴾ لما فرغ صلاح الدين من أمر عسقلان ومايجاورها من البلاد على ماتقدم وكان قد أرسل إلى مصر أخرج الأسطول الذى بها فى جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو معروف بالشجاعة والشهامة ويمن النقيبة فأقاموا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنج كلما رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه فحين وصل الأسطول وخلا سره من تلك الناحية سار عن عسقلان إلى البيت المقدس وكان به البطرك المعظم عندهم وهو أعظم شأنا من ملكهم وبه أيضا باليان بن بيرزان صاحب الرملة وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك وبه أيضا من خلص من فرسانهم من حطين وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحى عسقلان وغيرها فاجتمع به كثير من الخلق كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض مايجب عليه من حفظه وحصنوه تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلا وصعدوا على سوره بحدهم وحديدهم مجتمعين على حفظه والذب عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه ولما قرب صلاح الدين منه تقدم أمير فى جماعة عن أصحابه غير محتاط ولا حذر فلقيه جمع من الفرنج قد خرجوا من القدس ليكونوا ردءا فقاتلوه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جماعة ممن معه فأهم المسلمين قتله وفجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس منتصف رجب فلما نزلوا عليه رأى المسلمون على سوره من الرجال ما هالهم وسمعوا لأهله من الغلبة والضجيج من وسط المدينة ما استدلوا به على كثرة الجمع وبقى صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتله لأنه فى غاية الحصانة والامتناع فلم يجد عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون فانتقل إلى هذه الناحية فى العشرين من رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا وحتما واجبا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطانى بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا يتزجرون وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون ، فيقتل من الفريقين ، وممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى ابن مالك ، وهو من أكابر الأمراء ، وكان أبوه صاحب قلعة جعبر ، وكان يصطلى القتال بنفسه كل يوم قتل

Marfat.com

Marfat.com

إلى رحمة الله تعالى وكان محبوبا إلى الخاص والعام فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقفهم فأدخلوهم بلدهم ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه والتصقوا إلى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات توالى الرمى لتكشف الفرنج عن الأسوار ليتمكن المسلمون من النقب فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمى المتدارك وتمكن النقابين من النقب وأنهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم البيت المقدس إلى صلاح الدين فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم فى طلب الأمان فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم وقال لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبى وجزاء السيئة بمثلها، فلما رجع الرسل خائبين محرومين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا الأمر وتحريره فأجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب فى الأمان وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه فلما أيس من ذلك قال له أيها السلطان اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظنا منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة فإذا رأينا الموت لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نتركم تغنمون منها دينارا واحدا ولا درهما ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا قاتلنا كم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله وتموت أعزاء أو نظفر كراما فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أى شىء تنجلى ونحسب أنهم أسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج فاستقر أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوى فيه الغنى والفقير ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين وتزن المرأة خمسة دنانير فمن أدّى ذلك إلى أربعين يوما فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوما عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكا فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب إلى ذلك وسلمت المدينة يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وكان يوما مشهودا ورفعت الأعلام الإسلامية على أسواره ورتب صلاح الدين على أبواب البلد فى كل باب أمينا من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم فاستعملوا الخيانة ولم يؤدوا فيه أمانة واقتسم الأمناء الأموال وتفرقت أيدى سبا ولو أديت فيه الأمانة لملأ الخزائن وعم الناس فإنه كان فيه على الضبط ستون ألف رجل ما بين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان ولا يعجب السامع من ذلك فإن البلد كبير واجتمع اليه من تلك النواحى من عسقلان وغيرها والداروم والرملة وغزة وغيرها من القرى بحيث امتلأت الطرق والكنائس وكان الإنسان لا يقدر أن يمشى ومن الدليل على كثرة الخلق أن أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار وبقى بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطى وأخذ أسيرا ستة عشر ألف آدمى ما بين رجل وامرأة وصبى هذا بالضبط واليقين ثم إن جماعة من الأمراء ادعى كل واحد منهم أن جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالبيت المقدس

Marfat.com

فيطلقهم ويأخذهو قطيعتهم وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زى الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون منهم قطيعة قرروهما واستوهب جماعة من صلاح الدين عددا من الفرنج فوهبهم لهم فأخذوا قطيعتهم وبالجملة فلم يصل إلى خزائنه إلا القليل وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهبت وأقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجوارى خلق كثير ولها من الأموال والجواهر النفيسة شىء عظيم فطلبت الأمان لنفسها ومن معها فأمنها وسيرها وكذلك ايضا أطلق ملكة القدس التى كان زوجها الذى أسره صلاح الدين قدملك الفرنج بسببها ونيابة عنها كان يقوم بالملك وأطلق مالها وحشمها واستأذنته فى المصير إلى زوجها وكان حينئذ محبوسا بقلعة نابلس فأذن لها فأتته وأقامت عنده وأتته أيضا امرأة للبرنس أرناط صاحب الكرك وهو الذى قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين فشفعت فى ولد لها مأسور فقال لها صلاح الدين إن سلمت الكرك أطلقته فسارت إلى الكرك فلم يسمع منها الفرنج ولم يسلموه فلم يطلق ولدها ولكنه أطلق مالها ومن تبعها وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ومعه من أموال البيع منها الصخرة والأقصى وقمامة وغيرها مالا يعلمه إلا الله تعالى وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له ليأخذ مامعه يقوى به المسلمين فقال لا أغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير مذهب فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب فحين صعدوا صاح الناس كلهم صوتا واحدا من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج أما المسلمون فكبروا فرحا وأما الفرنج فصاحوا تفجعا وتوجعا فسمع الناس صيحة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها فلما ملك البلد وفارقه الكفار أمر صلاح الدين إعادة الأبنية إلى حالها القديم فإن الداوية بنوا غربى الأقصى أبنية ليسكنوها وعملوا فيها مايحتاجون إليه من هرى ومستراح وغير ذلك وأدخلوا بعض الأقصى فى أبنيتهم فأعيد إلى الأول وأمر بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس ففعل ذلك أجمع ولما كان الجمعة الأخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة ومعهم صلاح الدين وصلى فى قبة الصخرة وكان الخطيب والإمام محيى الدين بن الزكى قاضى دمشق[1]. ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا وإماما برسم الصلوات الخمس وأمر أن يعمل له منبر فقيل له إن

---

(١) ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال كادت القلوب تطير من الفرح فى ذلك الحال، ولم يكن عين خطيب فبرز من السلطان المرسوم الصلاحى وهو فى قبة الصخرة أن يكون القاضى محيي الدين بن الزكى اليوم خطيبا، فلبس الخلعة السوداء وخطب للناس خطبة سنية فصيحة بليغة، ذكر فيها شرف البيت المقدس، وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات، وما فيه من الدلائل والامارات. وقد أورد الشيخ أبو شامة الخطبة فى الروضتين بطولها وكان أول ما قال (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين).

ثم أورد تحميدات القرآن كلها، ثم قال: «الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الامور بأمره، ومزيد النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذى قدر الايام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاض على العباد من طله وهطله، الذى أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظهاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصرة أنصاره، ومطهر بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر أجهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد،

Marfat.com

نورالدين محمودا كان قد عمل بحلب منبرا أمر الصناع بالمبالغة فى تحسينه وإتقانه وقال هـذا قدعملناه لينصب بالبيت المقدس فعمله النجارون فى عدة سنين لم يعمل فى الإسلام مثله فأمر باحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله مايزيد على عشرين سنة وكان هذا من كرامات نورالدين وحسن مقاصده رحمه الله ولمـا فرغ صلاح الدين من صلاة الجمعة تقـدم بعمارة المسجد الأقصى واستنفاد الوسع فى تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه فأحضروا من الرخام الذى لايوجد ومن الفص المذهب القسطنطينى وغير دلك بمـا يحتاجون إليه قد ادخر على طول السنين فشرعوا فى عمارته ومحوا ما كان فى تلك الأبنية من الصور وكان الفرنج ، فرشوا الرخام فوق الصخرة ، وغيبوها فأمر بكشفها ، وكان سبب تغطيتهـا بالفرش أن القسيسين باعوا كثيرا منها للفرنج ، الواردين إليهم من داخل البحر للزيارة ، يشترونه بوزنه ذهبا رجاء بركتها ، وكان أحدهم إذا دخل إلى بلاده باليسير منها بنى له الكنيسة ويجعل فى مذبحها فخاف بعض ملوكهم أن تفنى فأمر بها ففرش فوقها حفظا لهـا فلما كشفت نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات الجيدة ورتب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة فعاد الإسلام هناك غضا طريا وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد

— ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله رافع الشكر وداحض الشرك ، ورافض الإفك ، الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلى ، إلى سـدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى ، صلى الله عليه وسلم وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك ، ومكسر الاصنام ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان » .

ثم ذكر الموعظة وهى مشتملة على تغبيط الحاضرين بمـا يسره الله على أيديهم من فتح بيت المقدس ، الذى من شأنه كذا وكذا ، فذكر فضائله ومآثره ، وأنه أول القبلتين ، وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعـد الموطنين إلا عليه ، وإليه أسرى برسول الله صلى الله عليه وسـلم من المسجد الحرام ، وصلى فيه بالأنبياء والرسل الكرام ، ومنه كان المعراج إلى السموات ، ثم عاد إليه ثم سار منه إلى المسجد الحرام على البراق ، وهو أرض المحشر والمنشر يوم التلاق ، وهو مقر الأنبياء ومقصد الأولياء ، وقد أسس على التقوى من أول يوم .

ويقال إن أول من أسسه يعقوب عليـه السلام بعـد أن بنى الخليل المسجد الحرام بأربعين سنة ، كما جاء فى الصحيحين ، ثم جدد بناءه سليمان بن داود عليهما السلام ، ثبت فيه الحديث بالمسند والسنن ، وصحيح ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم ، وسأل سليمان عليه السلام الله عند فراغه منه خلالا ثلاثا : حكما يصادف حكمه ؛ وملكا لاينبغى لأحد من بعده ، وأنه لا يأتى أحد هذا المسجد لا ينهزه إلا الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

ثم ذكر تمام الخطبتين ، ثم دعا للخليفة الناصر العباسى ، ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين . وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن بن على نجا المقرى على كرسى الوعظ بإذن السلطان ، فوعظ الناس ، واستمر القاضى ابن الزكى يخطب بالناس فى أيام الجمع أربع جمعات ، ثم قرر السلطان للقدس خطيبا مستقرا ، وأرسـل إلى حلب فاستحضر المنبر الذى كان الملك العادل نور الدين الشهيد قد استعمله لبيت المقدس ، وقد كان يؤمل أن يكون فتحه على يديه ، فما كان إلا على يدى بعض أتباعه صلاح الدين بعد وفاته .

عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخرا وشرفا وأما الفرنج من أهله فإنهم أقاموا وشرعوا فى بيع مالا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم ومالا يطيقون حمله وباعوا ذلك بأرخص الثمن فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام فى مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم إلى ذلك فاستقروا فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج وترك الفرنج أيضا أشياء كثيرة لم يمكنهم بيعها من الأسرة والصناديق والبنيات وغير ذلك وتركوا أيضا من الرخام الذى لا يوجد مثله من الأساطين والألواح والفص وغيره شيئا كثيرا ثم ساروا

﴿ ذكر رحيل صلاح الدين إلى صور ومحاصرتها ﴾ لما فتح صلاح الدين البيت المقدس أقام بظاهره إلى الخامس والعشرين من شعبان يرتب أمور البلد وأحواله وتقدم بعمل الربط والمدارس فجعل دار الاسبتار مدرسة للشافعية وهى فى غاية مايكون من الحسن فلما فرغ من أمر البلد سار إلى مدينة صور وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير وقد صار المركيش صاحبها والحاكم فيها وقد ساسهم أحسن سياسة وبالغ فى تحصين البلد ووصل صلاح الدين إلى عكا وأقام بها أياما فلما سمع المركيش بوصوله إليها جد فى عمل سور صور وخنادقها وتعميقها ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها ثم رحل صلاح الدين من عكا فوصل إلى صور تاسع شهر رمضان فنزل على نهر قريب البلد بحيث يراه حتى اجتمع الناس وتلاحقوا وسار فى الثانى والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى القتال وقسم القتال على العسكر كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون منه بحيث أن يتصل القتال على أهل البلد على أن الموضع الذى يقاتلون منه قريب المسافة يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد لحفظه وعليه الخنادق التى قد وصلت من البحر إلى البحر فلا يكاد الطير يطير عليها فإن المدينة كالكف فى البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبى الساعد والقتال إنما هو فى الساعد فزحف المسلمون مرة بالمنجنيقات والعرادات والجروخ والدبابات وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده الأفضل وولده الظاهر غازى وأخيه العادل بن أيوب وابن أخيه تقى الدين وكذلك سائر الأمراء وكان للفرنج شوانى وحراقات يركبون فيها فى البحر ويقفون من جانبى الموضع الذى يقاتل المسلمون منه أهل البلد فيرمون المسلمين من جانبهم بالخروج ويقاتلونهم وكان ذلك يعظم عليهم لأن أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم وأصحاب الشوانى يقاتلونهم من جانبيهم فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع فكثرت الجراحات فى المسلمين والقتل ولم يتمكنوا من الدنو إلى البلد فأرسل صلاح الدين إلى الشوانى التى جاءته من مصر وهى عشر قطع وكانت بعكا فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها وكانت فى البحر تمنع شوانى أهل صور من الخروج إلى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله فقاتلوه برا وبحرا وضايقوا حتى كادوا يظفرون فجاءت الأقدار بما لم يكن فى الحساب وذلك أن خمس قطع من شوانى المسلمين باتت فى بعض تلك الليالى مقابل مينا صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول إليه فباتوا ليلتهم يحرسون وكان مقدمهم عبد السلام المغربى الموصوف بالحذق فى صناعته وشجاعته فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا إلا بشوانى الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم فأوقعت بهم فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم مينا صور والمسلمون فى البر ينظرون إليهم ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر

Marfat.com

فنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق . وتقدم السلطان إلى الشوانى الباقية بالمسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت فتبعها شوانى الفرنج فحين رأى من فى شوانى المسلمين الفرنج مجدين فى طلبهم ألقوا نفوسهم فى شوانيهم إلى البر فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها وعاد إلى مقاتلة صور فى البر وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال وفى بعض الأيام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ودام إلى آخر النهار وكان خروجهم قبل العصر وأسر منهم فارس كبير مشهور بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين لما سقط فلما أسر قتل وبقوا كذلك عدة أيام .

﴿ذكر الرحيل عن صور إلى عكا وتفريق العساكر﴾ لما رأى صلاح الدين أن أمر صور يطول رحل عنها وهذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه وتمن حصاره فرحل عنه وكان هذه السنة لم يطل مقامه على مدينة بل فتح الجميع فى الأيام القريبة كما ذكرناه بغير تعب ولا مشقة فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ملوها وطلبوا الانتقال عنها ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين فإنه هو جهز إليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها ويلجؤن إليها فزادهم ذلك حرصا على حفظها والذب عنها وسنذكر إن شاء الله ماصار إليه الأمر بعد ذلك ليعلم أن الملك لاينبغى أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار فلأن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطا مضيعا للحزم وأعذر له عند الناس ولما أراد الرحيل استشار أمراءه فاختلفوا فجماعة يقولون الرأى أن يرحل فقد جرح الرجال وقتلوا وملوا وفنيت النفقات وهذا الشتاء قد حضر والشوط بطين فنريح ونستريح فى هذا البرد فإذا جاء الربيع اجتمعنا وعاودناها وغيرها وكان هذا قول الأغنياء منهم وكأنهم خافوا أن السلطان يقترض منهم ماينفقه فى العسكر إذا أقام لخلو الخزائن وبيوت الأموال من الدرهم والدينار فإنه كان يخرج كل ما حمل إليه منها وقالت الطائفة الأخرى الرأى أن نصابر البلد ونضايقه فهو الذى يعتمدون عليه من حصونهم ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب وأخذنا باقى البلاد صفوا فبقى صلاح الدين مترددا بين الرحيل والإقامة فلما رأى من يرى الرحيل إقامته أخل بما رد إليه من المحاربة والرمى بالمنجنيق واعتذروا بجراح رجالهم وأنهم قد أرسلوا بعضهم ليحضروا نفقاتهم والعلوفات لدوابهم والأقوات لهم إلى ذلك من الأعذار فصاروا مقيمين بغير قتال فاضطر إلى الرحيل فرحل عنها آخر شوال وكان أول كانون الأول إلى عكا فأذن العساكر جميعها بالعود إلى أوطانهم والاستراحة فى الشتاء والعود فى الربيع فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها وعساكر الشام وعساكر مصر وبقى حلقته الخاص مقيما بعكا فنزل بقلعتها ورد أمر البلد إلى عزالدين جورديك وهو من أكابر المماليك النورية جمع الديانة والشجاعة وحسن السيرة .

﴿ذكر فتح هونين﴾ لما فتح صلاح الدين تبنين امتنع من بهونين من تسليمها وهى من أحصن القلاع وأمنع فلم ير التعريج عليها ولا الاشتغال بمحاصرتها بل سير إليها جماعة من العسكر والأمراء فحصروها ومنعوا من حمل الميرة إليها واشتغل بما تقدم ذكره من فتح عسقلان والبيت المقدس وغير ذلك فلما كان يحاصر مدينة صور أرسل من فيها يطلبون الأمان فأمنهم فسلموا ونزلوا منها فوفى لهم بأمانهم .

Marfat.com

﴿ ذكر حصر صفد وكوكب والكرك ﴾ لما سار صلاح الدين إلى عسقلان جعل على قلعة كوكب وهى مطلة على الأردن من يحصرها ويحفظ الطريق للمجتازين لئلا ينزل من به من الفرنج يقطعونه وسير طائفة أخرى من العسكر أيضا إلى قلعة صفد فحصروها وهى مطلة على مدينة طبرية وكان حصن كوكب للاسبتار وحصن صفد للداوية وهما قريبان من حطين موضع المصاف فلجأ إليهما جمع ممن سلم من الداوية والاسبتار فحموهما فلما حصرهما المسلمون استراح الناس من شر من فيهما واتصلت الطرق حتى كان يسير فيها المنفرد فلا يخاف وكان مقدم الجماعة الذين يحصرون قلعة كوكب أميرا يقال له سيف الدين وهو أخو جاولى الاسدى وكان شهما شجاعا يرجع إلى دين وعبادة فأقام عليه إلى آخر شوال وكان أصحابه يحرسون نوبا مرتبة فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم فى الحراسة وكان قد صلى ورده من الليل إلى السحر وكانت ليلة كثيرة الرعد والبرق والريح والمطر فلم يشعر المسلمون وهم نازلون إلا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف ووضعوا السلاح فيهم فقتلوهم أجمعين وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا إلى قلعتهم فقووا بذلك قوة عظيمة أمكنهم أن يحفظوا قلعتهم إلى أن أخذت أواخر سنة أربع وثمانين على ماسنذكره إن شاء الله وأتى الخبر إلى صلاح الدين بذلك عند رحيله عن صور فعظم ذلك عليه مضافا إلى ماناله من أخذ شوانيه ومن فيها ورحيله عن صور ثم رتب على حصن كوكب الأمير قايماز النجمى فى جماعة أخرى من الأجناد فحصروها

﴿ ذكر الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم ﴾ فى هذه السنة يوم عرفة قتل شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بعرفات وهو أكبر الأمراء الصلاحية وقد تقدم من ذكره مافيه كفاية وسبب قتله أنه لما فتح المسلمون البيت المقدس طلب إذنا من صلاح الدين ليحج ويحرم من القدس ويجمع فى سنته بين الجهاد والحج وزيارة الخليل عليه السلام ومن بالشام من مشاهد الأنبياء وبين زيارة رسول الله صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين فأذن له وكان قد اجتمع تلك السنة من الحجاج بالشام الخلق العظيم من البلاد والعراق والموصل وديار الجزيرة وخلاط وبلاد الروم ومصر وغيرها ليجمعوا بين زيارة بيت المقدس ومكة فجعل ابن المقدم أميرا عليهم فساروا حتى وصلوا إلى عرفات سالمين ووقفوا فى تلك المشاعر وأدوا الواجب والسنة فلما كان عشية عرفة تجهز هو وأصحابه ليسيروا من عرفات فأمر بضرب كوساته التى هى أمارة الرحيل فضربها أصحابه فأرسل اليه أمير الحاج العراقى وهو مجير الدين طاشتكين ينهاه عن الإفاضة من عرفات قبله ويأمره بكف أصحابه عن ضرب كوساته فأرسل اليه يقول إنى ليس لى معك تعلق أنت أمير الحاج العراقى وأما أمير الحاج الشامى وكل منا يفعل مايراه ويختاره وسار ولم يقف ولم يسمع قوله فلما رأى طاشتكين إصراره على مخالفته ركب فى أصحابه وأجناده وتبعه من غوغاء الحاج العراقى وبطاطيهم وطماعتهم العالم الكثير والجم الغفير وقصدوا حاج الشام مهولين عليهم فلما قربوا منهم خرج الأمر من الضبط وعجزوا عن تلافيه فهجم طماعة العراق على حاج الشام وفتكوا فيهم وقتلوا جماعة ونهبت أموالهم وسبيت جماعة من نسائهم إلا أنهن ردون عليهم وجرح ابن المقدم عدة جروح وكان يكف أصحابه عن القتال ولو أذن لهم لانتصف منهم وزاد لكنه راقب الله تعالى وحرمة المكان واليوم فلما أثخن بالجراحات أخذه طاشتكين إلى خيمته وأنزله عنده ليمرضه ويستدرك الفارط فى حقه وساروا تلك الليلة من عرفات فلما كان الغد مات بمنى ودفن بمقبرة المعلى ورزق الشهادة بعد الجهاد وشهود فتح البيت المقدس رحمه الله تعالى .

Marfat.com

﴿ ذكر قوة السلطان طغرل على قزل ﴾ فى هذه السنة قوى أمر السلطان طغرل وكثر جمعه وملك كثيرا من البلاد فأرسل قزل إلى الخليفة يستنجده ويخوفه من طغرل ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختارونه وأرسل طغرل رسولا إلى بغداد يقول أريد أن يتقدم الديوان بعمارة دار السلطنة لأسكنها إذا وصلت فأكرم رسول قزل ووعده بالنجدة وردرسول السلطان طغرل بغير جواب وأمر الخليفة بنقض دار السلطنة فهدمت إلى الأرض وعفى أثرها

﴿ ذكر ملك شرستى من الهند وانهزام المسلمين بعدها ﴾ فى آخر هذه السنة سار شهاب الدين الغورى ملك غزنة إلى بلاد الهند وقصد بلاد أجمير وتعرف بولاية السوالك واسم ملكهم كولة وكان شجاعا شهما فلما دخل المسلمون بلاده ملكوا مدينة تبرندة وهى حصن منيع عامر وملكوا شرستى وملكوا كوة رام فلما سمع ملكهم جمع العساكر فأكثر وسار إلى المسلمين فالتقوا وقامت الحرب على ساق وكان مع الهند أربعة عشر فيلا فلما اشتدت الحرب انهزمت ميمنة المسلمين وميسرتهم فقال لشهاب الدين بعض خواصه قد انكسرت الميمنة والميسرة فانج بنفسك لايهلك المسلمون فأخذ شهاب الدين الرمح وحمل على الهنود فوصل إلى الفيلة فطعن فيلا منها فى كتفه وجرح الفيل لايندمل فلما وصل شهاب الدين إلى الفيلة زرقه بعض الهنود بحربة فوقعت الحربة فى ساعده فنفذت الحربة من الجانب الآخر فوقع حينئذ إلى الأرض فقاتل عليه أصحابه ليخلصوه وحرصت الهنود على أخذه وكان عنده حرب لم يسمع بمثله وأخذه أصحابه فركبوه فرسه وعادوا به منهزمين فلم يتبعهم الهنود فلما أبعدوا عن موضع الوقعة بمقدار فرسخ أغمى على شهاب الدين من كثرة خروج الدم فحمله الرجال على أكتافهم فى محفة اليد أربعة وعشرين فرسخا فلما وصل إلى لهاوور أخذ الأمراء الغورية وهم الذين انهزموا ولم يثبتوا وعلق على كل واحد منهم عليق شعير وقال أنتم دواب ما أنتم أمراء وسار إلى غزنة وأمر بعضهم فمشى اليها ماشيا فلما وصل إلى غزنة أقام بها ليستريح الناس ونذكر ما فعله بملك الهند الذى هزمه سنة ثمان وثمانين إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول قتل مجد الدين أبو الفضل بن الصاحب وهو أستاذ دار الخليفة أمر الخليفة بقتله وكان متحكما فى الدولة ليس للخليفة معه حكم وكان هو القيم بالبيعة له وظهر له أموال عظيمة أخذ جميعها وكان حسن السيرة عفيفا عن الأموال وكان الذى سعى به إنسان من أصحابه وصنائعه يقال له عبيد الله بن يونس فسعى به إلى الخليفة وقبح آثاره فقبض عليه وقتله . وفيها فى ربيع الآخر وقع حريق فى الحظائر ببغداد احترقت أحطاب كثيرة وسببه أن فقيها بالمدرسة النظامية كان يطبخ طعاما يأكله فغفل عن النار والطبيخ فعلقت النار واتصلت فاحترقت جميعها واحترق درب السلسلة وغيره مما يجاوره . وفيها فى شوال استوزر الخليفة الناصر لدين الله أبا المظفر عبيد الله بن يونس ولقبه جلال الدين ومشى أرباب الدولة فى ركابه حتى قاضى القضاة وكان ابن يونس من شهوده وكان يمشى ويقول لعن الله طول العمر . وفيها فى المحرم توفى عبد المغيث بن زهير الحرى ببغداد وكان من أعيان الحنابلة قد سمع الحديث الكثير وصنف كتابا فى فضائل يزيد بن معاوية أتى فيه بالعجائب وقدرد عليه أبو الفرج بن الجوزى وكان بينهما عداوة . وفيها توفى قاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى وولى القضاء للمقتفى بعد موت الزينبى ثم للمستنجد بالله ثم عزل ثم أعيد إلى المستضىء بأمر الله . وفيها توفى على بن خطاب بن ظفر الشيخ الصالح من جزيرة ابن عمر وكان من الأولياء

Marfat.com

أرباب الكرامات وصحبته أنامدة فلم أرمثله حسن خلق وسمت وكرم وعبادة رحمه الله . وفيها ولدت امرأة من سواد بغداد بنتا لها أسنان . وفيها توفى نصر بن فتيان بن مطر أبوالفتح بن المنى الفقيه الحنبلى لم يكن لهم مثله رحمه الله تعالى .

﴿ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة﴾

﴿ذكر حصر صلاح الدين كوكب﴾ فى هذه السنة فى المحرم انحسر الشتاء فسار صلاح الدين من عكا فيمن تخلف عنده من العسكر إلى قلعة كوكب فحصرها ونازلها ظنا منه أن ملكها سهلا وأن أخذها عجلا وهو فى قلة من العسكر متيسر فلما رآها عالية منيعة والوصول إليها متعذر وكان عنده منها ومن صفد والكرك المقيم المقعد لأن البلاد الساحلية من عكا إلى جهة الجنوب كانت قد ملك جميعها ماعدا هذه الحصون وكان يختار أن لايبقى فى وسطها مايشغل قلبه ويقسم همه ويحتاج إلى حفظه ولئلا ينال الرعايا والمجتازين منهم الضرر العظيم فلما حصر كوكب ورآها منيعة يبطىء ملكها وأخذها رحل عنها وجعل عليها قايماز النجمى مستديما لحصاره وكان رحيله عنها فى ربيع الأول وأتاه رسل الملك قلج أرسلان وقزل أرسلان وغيرهما يهنونه بالفتح والظفر وسار من كوكب إلى دمشق ففرح الناس بقدومه وكتب إلى البلاد جميعا باجتماع العساكر بها وأقام بها إلى أن سار إلى الساحل بالبلاد الشامية .

﴿ذكر رحيل صلاح الدين إلى بلد الفرنج﴾ لما أراد صلاح الدين المسير عن دمشق حضر عنده القاضى الفاضل مودعا له ومستشيرا وكان مريضا وودعه وسار عن دمشق منتصف ربيع الأول إلى حمص فنزل على بحيرة قدس غربى حمص وجاءته العساكر فأول من أتاه من أصحاب الأطراف عمادالدين زنكى بن مودود بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور وتلاحقت العساكر من الموصل وديار الجزيرة وغيرها فاجتمعت عليه وكثرت عنده فسار حتى نزل تحت حصن الأكراد من الجانب الشرقى وكنت معه حينئذ فأقام يومين وسار جريدة وترك أنقال العسكر موضعها تحت الحصن ودخل إلى بلد الفرنج فأغار على صافيثا والعريمة ويحمور وغيرها من البلاد والولايات ووصل إلى قريب طرابلس وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها وأين يسلك منها ثم عاد إلى معسكره سالما وقد غنم العسكر من الدواب على اختلاف أنواعها مالا حد له وأقام تحت حصن الأكراد إلى آخر ربيع الآخر .

﴿ذكر فتح جبلة﴾ لما أقام صلاح الدين تحت حصن الأكراد أتاه قاضى جبلة وهو منصور بن ثبيل يستدعيه إليه ليسلمها إليه وكان هذا القاضى عند بيمند صاحب أنطاكية وجبلة مسموع الكلمة له الحرمة الوافرة والمنزلة العالية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها وعلى مايتلق بالبيمند فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان وتكفل له بفتح جبلة ولاذقية والبلاد الشمالية فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الأولى فنزل بانطرطوس سادسه فرأى الفرنج قدأخلوا المدينة واحتموا فى برجين حصينين كل واحد منها قلعة حصينة ومعقل منيع فخرب المسلمون دورهم ومساكنهم وسور البلد ونهبوا ما وجدوه من ذخائر وكان الداوية بأحد البرجين فحصرهما صلاح الدين فنزل إليه من فى أحد البرجين بأمان وسلموه بأمنهم وخرب البرج وألقى حجارته فى البحر وبقى الذى فيه الداوية لم يسلموه وكان معهم مقدمهم الذى أسره صلاح الدين يوم المصاف وكان قد

Marfat.com

أطلقه لما ملك البيت المقدس فهو الذى حفظ هذا الحصن فخرب صلاح الدين ولاية انطرطوس ورحل عنها وأتى مرقية وقد أخلاها أهلها ورحلوا عنها وساروا إلى المرقب وهى من حصونهم التى لا ترام ولا تحدث أحدا نفسه بملكه لعلوه وامتناعه وهو للاسبتار والطريق تحته فيكون الحصن على يمين المجتاز إلى جبلة والبحر عن يساره والطريق مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الواحد فاتفق أن صاحب صقلية من الفرنج قد سير نجدة إلى فرنج الساحل فى ستين قطعة من الشوانى وكانوا بطرابلس فلما سمعوا بمسير صلاح الدين جاءوا ووقفوا فى البحر تحت المرقب فى شوانيهم ليمنعوا من يجتاز بالسهام فلما رأى صلاح الدين ذلك أمر بالطارقيات والجفتيات فصفت على الطريق مما يلى البحر من أول المضيق إلى آخره وجعل وراءها الرماة فمنعوا الفرنج من الدنو إليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا إلى جبلة ثامن عشر جمادى الأولى وتسلمها وقت وصوله وكان قاضيها قد سبق إليها ودخل فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها وسلمها إليه وتحصن الفرنج الذين كانوا بها تحصنا واحتموا بقلعتها فما زال قاضى جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بشرط الأمان وأن يأخذ رهائنهم يكونون عنده إلى أن يطلق الفرنج رهائنهم من المسلمين من أهل جبلة وكان بيمند صاحبها قد أخذ رهائن القاضى ومسلمى جبلة وتركهم عنده بأنطاكية فأخذ القاضى رهائن الفرنج وجاء رؤساء أهل الجبل إلى صلاح الدين بطاعة أهله وهو من أمنع الجبال وأشقها مسلكا وفيه حصن يعرف ببكسرايل بين جبلة ومدينة حماه فملكه المسلمون وصار الطريق فى هذا الوقت عليه من بلاد الإسلام إلى العسكر وكان الناس يلقون شدة فى سلوكه وقرر صلاح الدين أحوال جبلة وجعله فيها لحفظها الأمير سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وسار عنها.

﴿ ذكر فتح لاذقية ﴾ لما فرغ السلطان من أمر جبلة وسار عنها إلى لاذقية فوصل إليها فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها وصعدوا إلى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحصروا القلعتين اللتين فيهما الفرنج وزحفوا إليهما ونقبوا الأسوار ستين ذراعا وعلقوه وعظم القتال واشتد الأمر عند الوصول إلى السور فلما أيقن الفرنج بالعطب ودخل إليهم قاضى جبلة فخوفهم من المسلمين فطلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين ورفعوا الأعلام الإسلامية إلى الحصنين وكان ذلك فى اليوم الثالث من النزول عليها وكانت عمارة اللاذقية من أحسن الأبنية وأكثرها زخرفة مملوءة بالرخام على اختلاف أنواعه فخرب المسلمون كثيرا منها ونقلوا رخامها وشعثوا كثيرا من بيعها التى قد غرم على كل واحدة منها الأموال الجليلة المقدار وسلمها إلى ابن أخيه تقى الدين عمر فعمرها وحصن قلعتها حتى إذا رآها اليوم من رآها ينكرها فلا يظن أن هذه تلك وكان عظيم الهمة فى تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة.

﴿ ذكر حال أسطول صقلية ﴾ لما نازل صلاح الدين لاذقية ووصل أسطول صقلية الذى تقدم ذكره فوقف بإزاء مينا لاذقية فلما سلمها الفرنج الذين بها إلى صلاح الدين عزم أهل هذا الأسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها غيظا وحنقا حيث سلموها سريعا فسمع بذلك أهل لاذقية فأقاموا وبذلوا الجزية وكان سبب مقامهم ثم إن مقدم هذا الأسطول طلب من السلطان الأمان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الأرض

Marfat.com

بين يديه وقال مامعناه إنك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج مافعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم وإلاجاءك من البحر مالاطاقه لك به فيعظم عليك الأمر ويشتد الحال فأجابهم صلاح الدين بنحو من كلامه من إظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر وأنهم إن خرجوا أذاقهم ماأذاق أصحابهم من القتل والأسر فانقلب على وجهه ورجع إلى أصحابه .

﴿ ذكر فتح صهيون وعدة من الحصون ﴾ ثم رحل صلاح الدين عن لاذقية فى السابع والعشرين من جمادى الاولى وقصد قلعة صهيون وهى قلعة منيعة شاهقة فى الهواء صعبة المرتقى على قرنة جبل يطيف بها واد عميق فيه ضيق فى بعض المواضع بحيث إن حجر المنجنيق يصل منه إلى الحصن إلا أن الجبل متصل بها من جهة الشمال وقد عملوا لها خندقا عميقا لايرى قعره وخمسة أسوار منيعة فنزل صلاح الدين على هذا الجبل الملتصق بها ونصبت عليه المنجنيقات ورماها وتقدم إلى ولده الظاهر صاحب حلب فنزل على المكان الضيق من الوادى ونصب عليه المنجنيقات فرمى الحصن منه وكان معه من الرجالة الحلبيين كثير وهم فى الشجاعة بالمنزلة المشهورة ودام رشق السهام من قسى اليد والجرح والزنبوك والزيار فجرح أكثر من بالحصن وهم يظهرون التجلد والامتناع وزحف المسلمون اليهم ثانى جمادى الآخرة فتعلقوا بقرنة من ذلك الجبل قدأغفل الفرنج إحكامها فتسلقوا منها بين الصخور حتى التحقوا بالسور الأول فملكوا منها ثلاثة وغنموا مافيها من أبقار ودواب وذخائر وغير ذلك واحتمى الفرنج بالقلة التى للقلعة فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الأمان فلم يجبهم صلاح الدين اليه فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس وتسلم الحصن وسلمه إلى أمير يقال له ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبى قبيس فحصنه وجعله من أحصن الحصون ولما ملك المسلمون صهيون تفرقوا فى تلك النواحى فملكوا حصن بلاطنوس وكان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفا ورعبا وملك أيضا حصن العيد وحصن الجماهرتين فاتسعت المملكة الإسلامية بتلك الناحية إلاأن الطريق اليها من البلاد الإسلامية على عقبة بكسرائيل شاق شديد لأن الطريق السهلة كانت غير مسلوكة لأن بعضها بيد الإسماعيلية وبعضها بيد الفرنج .

﴿ ذكر فتح حصن بكاس والشغر ﴾ ثم سار صلاح الدين عن صهيون ثالث جمادى الآخرة فوصل إلى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد أخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر فملك قلعة بكاس بغير قتال وتقدم إلى قلعة الشغر وهى وبكاس على الطريق السهل المسلوك إلى لاذقية وجبلة والبلاد التى افتتحها صلاح الدين من بلاد الشام الإسلاميه فلما نازلها رآها منيعة حصينه لا ترام ولا يوصل إليها بطريق من الطرق إلا أنه أمر بمزاحفتهم ونصب المنجنيق عليهم ففعلوا ذلك ورمى بالمنجنيق فلم يصل من أحجاره إلى القلعة شىء إلاالقليل الذى لايؤذى فبقى المسلمون عليه أياما لا يرون فيه طمعا وأهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرور يتطرق إليهم وبلاء ينزل عليهم فبينما صلاح الدين جالس وعنده أصحابه وهم فى ذكر القلعة وإعمال الحيلة فى الوصول إليها فقال بعضهم هذا الحصن كما قال الله تعالى ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾ فقال صلاح الدين أو يأتى الله بنصر من عنده وفتح فبينما هم فى هذا الحديث إذ قد أشرف عليهم فرنجى ونادى بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين فأجيب إلى ذلك ونزل رسول وسأل انتظارهم ثلاثه أيام فإن جاءهم من يمنعهم وإلاسلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك فأجابهم اليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به

Marfat.com

فلما كان اليوم الثالث سلموها اليه واتفق أنه يوم الجمعة سادس عشر جمـادى الآخرة وكان سبب استمهالهم أنهم أرسلوا إلى البيمند صاحب أنطاكية وكان هذا الحصن له يعرفونه أنهم محصورون ويطلبون منه أن يرحل عنهم المسلمين فإن فعل وإلا سلموها وإنمـا فعلوا ذلك لرعب قذفه الله تعالى فى قلوبهم وإلا فلو أقاموا الدهر الطويل لم يصل إليهم أحد ولا بلغ المسلمون منه غرضا فلما تسلم صلاح الدين الحصن سلمه إلى أمير يقال له قلج وأمره بعمارته ورحل عنه .

﴿ ذكر فتح سرمينيه ﴾ لمـا كان صـلاح الدين مشغولا بهذه القلاع والحصون سـير ولده الظاهر غازى صاحب حلب فحصر سرمينية وضيق على أهله واستنزلهم على قطيعة قررها عليهم فلما أنزلهم وأخذ منهم المقاطعة هدم الحصن وعفى أثره وعالى بنيانه وكان فيه وفى هـذه الحصـون من أسارى المسلمين الجمّ الغفير فأطلقوا وأعطوا كسوة ونفقة وكان فتحه فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة واتفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينية مع كثرتها كان فى ست جمع مع أنها فى أيدى أشجع الناس وأشـدهم عداوة للمسلمين فسبحان من إذا أراد أن يسهل الصعب فعل وهى جميعها من أعمال أنطاكية ولم يبق لها سوى القصير وبغراس ودرب ساك وسيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى فى مكانه .

﴿ ذكر فتح برزية ﴾ لمـا رحل صلاح الدين من قلعة الشغر سار إلى قلعة برزية وكانت قد وصفت له وهى تقابل حصن أفامية وتناصفها فى أعمالها وبينهما بحيرة تجتمع من ماء العاصى وعيون تتفجر من جبل برزية وغيره وكان أهلها أضر شىء على المسلمين يقطعون الطريق ويبالغون فى الأذى فلمـا وصـل إليها نزل شرقيها فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ثم ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعا يقاتلها منه فلم يجده إلا من جهة الغرب فنصب له هناك خيمة صغيرة ونزل فيها ومعه بعض العسكر جريدة لضيق المواضع وهذه القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتة فإنها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين وأما الجانب الشرقى فيمكن الصعود منه لكن لغيره مقاتل لعلوه وصعوبته ، وأما جهة الغرب فإن الوادى المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعا كثيرا حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام فنزل له المسلمون ونصبوا عليه المنجنيقات ونصب أهل القلعة عليهـا منجنيقا أبطلها ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة لكنه لا يصل منه شىء إليها امرأة ترمى من القلعـة عن المنجنيق وهى التى أبطلت منجنيق المسلمين فلما رأى صلاح الدين أن المنجنيق لا ينتفعون به عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه فقسم عسكره ثلاثة أقسام يزحف قسم فإذا تعبوا وكلوا عادوا وزحف القسم الثانى فإذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة بعد أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا فإنهم لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقسمون كذلك فإذا تعبوا وأعيوا سلموا القلعة فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدم أحد الأقسام وكان المقدم عليهم عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار وزحفوا وخرج الفرنج من حصنهم فقاتلهم على فصيلهم ورماهم المسلمون بالسهام من وراء الجفتيات والجنويات والطارقيات ومشوا إليهم حتى قربوا إلى الجبل فلما قاربوا الفرنج عجزوا عن الدنو منهم لخشونة المرتقى وتسلط الفرنج عليهم لعلو مكانهم بالنشاب والحجارة فإنهم كانوا يلقون الحجارة الكبار فتتدحرج إلى أسفل الجبل فلا يقوم لها شىء فلما تعب هذا القسم انحدروا وصعد القسم الثانى وكانوا جلوسا ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاص فقاتلوا قتالا

وكان الزمان حرا شديدا فاشتد الكرب على الناس وصلاح الدين فى سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم وكان تقى الدين ابن أخيه كذلك فقاتلوهم إلى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قدعادوا تقدم إليهم وبيده جماق يردهم وصاح فى القسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبين وساعدوا إخوانهم وزحفوا معهم فجاء الفرنج مالاقبل لهم به وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا فقاموا أيضا معهم فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم فظهر عجزهم عن القتال وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحر والقتال فخالطهم المسلمون فعاد الفرنج يدخلون الحصن فدخل المسلمون معهم وكان طائفة قليلة فى الخيام شرقى الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لم يروا فيه مقاتلا وليكثروا فى الجهة التى فيها صلاح الدين فصعدت تلك الطائفة من العسكر فلم يمنعهم مانع فصعدوا أيضا الحصن من الجهة الأخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج فملكوا الحصن عنوة وقهرا ودخل الفرنج القلة التى للحصن وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلة وأرجلهم فى القيود والخشب المثقوب فلما سمعوا تكبير المسلمين فى نواحى القلعة كبروا فى سطح القلة وظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا على السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر فملكها المسلمون عنوة ونهبوا مافيها وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله وأمست خالية لاديار بها وألقى المسلمون النار فى بعض بيوتهم فاحترقت ٭ ومن أعجب ما يحكى من السلامة أننى رأيت رجلا من المسلمين على هذا قد جاء من طائفة من المؤمنين شمالى القلعة إلى طائفة أخرى من المسلمين جنوبى القلعة وهو يعدو فى الجبل عرضا فألقيت عليه الحجارة وجاءه حجر كبير لو ناله لبعجه فنزل عليه فناداه الناس يحذرونه فالتفت ينظر ما الخبر فسقط على وجهه من عثرة فاسترجع الناس وجاء الحجر إليه فلما قاربه وهو منبطح على وجهه لقيه حجر آخر ثابت فى الأرض فوق الرجل فضربه المنحدر فارتفع عن الأرض وجاز الرجل ثم عاد إلى الأرض من جانبه الآخر لم ينله منه أذى ولا ضرر وقام يعدو حتى لحق بأصحابه فكان سقوطه سبب نجاته فتعست أم الجبان

وأما صاحب برزية فإنه أسر هو وأصحابه وامرأته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها فتفرقهم العسكر فأرسل صلاح الدين فى الوقت وبحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض فلما قارب أنطاكية أطلقهم وسيرهم إليها وكانت امرأة صاحب برزية أخت امرأة بيمند صاحب أنطاكية وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيرا من الأحوال التى تؤثر فأطاق هؤلاء لأجلها .

﴿ ذكر فتح درب ساك ﴾ لما فتح صلاح الدين حصن برزية رحل عنه من الغد فأتى جسر الحديد وهو على العاصى بالقرب من أنطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلف عنه من عسكره ثم سار عنه إلى قلعة درب ساك فنزل عليها ثامن رجب وهى من معاقل الداوية الحصينة وقلاعهم التى يدخرونها لحمايتهم عند نزول الشدائد فلما نزل عليها نصب المنجنيقات وتابع الرمى بالحجارة فهدمت من سورها شيئا يسيرا فلم يبال من فيه بذلك فأمر بالزحف عليها ومهاجمتها فبادرها العسكر بالزحف وقاتلوها وكشفوا الرجال عن سورها وتقدم النقابون فنقبوا منها برجا وعلقوه فسقط واتسع المكان الذى يريد المقاتلة يدخلون منه وعادوا يومهم ذلك ثم باكروا الزحف من الغد وكان من فيه قد أرسلوا إلى صاحب أنطاكية يستنجدونه فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينتظرون جوابه إما بإنجادهم وإزاحة المسلمين عنهم وإما بالتخلى عنهم ليقوم عذرهم فى التسليم فلما علموا عجزه عن نصرتهم

Marfat.com

Marfat.com

وخافوا هجوم المسلمين عليها وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم وطلبوا الأمان فأمنهم على شرط أن لا يخرج أحد إلا بثيابه التى عليه بغير مال ولا سلاح ولا أثاث بيت ولا دابة ولا شىء مما بها ثم أخرجهم منه وسيرهم إلى أنطاكية وكان فتحه تاسع عشر رجب .

﴿ ذكر فتح بغراس ﴾ ثم سار عن درب ساك إلى قلعة بغراس فحصرها بعد أن اختلف أصحابه فى حصرها فمنهم من أشار به ومنهم من نهى عنه وقال هو حصن حصين وقلعة منيعة وهو بالقرب من أنطاكية ولا فرق بين حصره وحصرها ويحتاج أن يكون أكثر العسكر فى اليزك مقابل أنطاكية فإذا كان الأمر كذلك قل المقاتلون عليها ويتعذر الوصول إليها فاستخار الله تعالى وسار إليها وجعل أكثر عسكره يزكا مقابل أنطاكية يغيرون على أعمالها وكانوا حذرين من الخوف من أهلها إن غفلوا لقربهم منها وصلاح الدين فى بعض أصحابه على القلعة يقاتلها ونصب المنجنيقات فلم يؤثر فيها شيئا لعلوها وارتفاعها فغلب على الظنون تعذر فتحها وتأخر ملكها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم إلا أن صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء إليها فخفف الأمر عليهم فبينما هو على هذه الحال إذ قد فتح باب القلعة وخرج منه إنسان يطلب الأمان فأجيب إلى ذلك فأذن له فى الحضور فحضر وطلب الأمان لمن فى الحصن حتى يسلموه إليه بما فيه على قاعدة درب ساك فأجابهم إلى ماطلبوا فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية فرفعت على رأس القلعة ونزل من فيها وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح وأمر صلاح الدين بتخريبه فخرب وكان ذلك مضرة عظيمة على المسلمين فإن ابن ليون صاحب الأرمن خرج إليه من ولايته وهو مجاوره فجدد عمارته وأتقنه وجعل فيه جماعة من عسكره يغيرون منه على البلاد فتأذى بهم السواد الذى لحلب وهو الى الآن بأيديهم .

﴿ ذكر الهدنة بين المسلمين وصاحب أنطاكيه ﴾ لما فتح صلاح الدين بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية وحصرها فخاف البيمند صاحبها من ذلك وأشفق منه فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة وبذل إطلاق كل أسير عنده من المسلمين فاستشار من عنده من أصحاب الأطراف وغيرهم فأشار أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود الناس ليستريحوا ويجددوا مايحتاجون اليه فأجاب إلى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهر أولها أول تشرين الأول وآخرها آخر أيار وسير رسوله إلى صاحب أنطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الأسرى وكان صاحب أنطاكية فى هذا الوقت أعظم الفرنج شأنا وأكثرهم ملكا فإنه كان الفرنج قد سلموا اليه طرابلس بعد موت القمص وجميع أعمالها مضافا إلى ما كان له لأن القمص لم يخلف ولدا فلما سلمت اليه طرابلس جعل ولده الأكبر فيها نائبا عنه وأما صلاح الدين فإنه عاد إلى حلب ثالث شعبان فدخلها وسار منها إلى دمشق وفرق العساكر الشرقية كعماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار والخابور وعسكر الموصل وغيرها ثم رحل من حلب الى دمشق وجعل طريقه على قبر عمر بن عبد العزيز فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكريا المغربى وكان مقيما هناك وكان من عباد الله الصالحين وله كرامات ظاهرة وكان مع صلاح الدين الأمير عز الدين أبو الفليتة قاسم ابن المهنا العلوى الحسينى وهو أمير مدينة النبى صلى الله عليه وسلم كان قد حضر عنده وشهد معه مشاهده وفتوحه وكان صلاح الدين قد تبرك برؤيته وتيمن بصحبته وكان يكرمه كثيرا وينبسط معه ويرجع إلى قوله فى أعماله كلها ودخل دمشق أول شهر رمضان فأشير عليه بتفريق العساكر فقال إن العمر قصير والأجل غير مأمون وقد بقى بيد الفرنج هذه الحصون كوكب وصفد والكرك وغيرها ولابد من الفراغ منها فإنها فى وسط

Marfat.com

بلادالإسلام ولايؤمن شر اهلهاوإن أغفلناهم ندمنا فيما بعد والله أعلم.

﴿ذكر فتح الكرك ومايجاوره﴾ كان صلاح الدين قد جعل على الكرك عسكرا يحصره فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال فراسلوا الملك العادل أخاصلاح الدين وكان جعله صلاح الدين على قلعة الكرك فى جمع من العسكر يحصرها ويكون مطلعا على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو الى درب ساك وبغراس فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة اليه ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وأرسل إلى مقدم العسكر الذى يحصرها فى المعنى فتسلم القلعة منهم وأمنهم وتسلم أيضا مايقاربه من الحصون كالشوبك وهزموالوعيرة والسلع وفرغ القلب من تلك الناحية وألقى الإسلام هناك جرانه وأمنت قلوب من فى ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره فإنهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين ومن شرهم مشفقين.

﴿ذكر فتح قلعة صفد﴾ لما وصل صلاح الدين إلى دمشق وأشير عليه بتفريق العساكر وقال لاعدمن الفرنج من صفد وكوكب وغيرها أقام بدمشق إلى منتصف رمضان وسار عن دمشق إلى قلعة صفد فحصرها وقاتلها ونصب عليها المنجنيقات وأدام الرمى اليها ليلا ونهارا بالحجارة والسهام وكان أهلها قد قارب ذخائرهم وأزوادهم أن تفنى فى المدة التى كانوا فيها محاصرين فإن عسكر صلاح الدين كان يحاصرهم كماذكرناه فلما رأى أهله جد صلاح الدين فى قتالهم خافوا أن يقيم إلى أن يفنى مابقى معهم من أقواتهم وكانت قليلة ويأخذهم عنوة ويهلكهم أو أنهم يضعفون عن مقارمته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم فأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم وتسلمها منهم فخرجوا عنها وساروا مدينة صور وكفى الله المؤمنين شرهم فإنهم كانوا وسط البلاد الإسلامية.

﴿ذكر فتح كوكب﴾ لما كان صلاح الدين يحاصر صفد اجتمع من بصور من الفرنج وقالوا إن فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب ولوأنها معلقة بالكوكب وحينئذ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد فاتفق رأيهم على إنفاذ نجدة لها سرا من رجال وسلاح وغير ذلك فأخرجوا مائتى رجل من شجعان الفرنج وأجلادهم فساروا الليل مستخفين وأقاموا النهار مكمنين فاتفق من قدر الله تعالى أن رجلا من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيدا فلقى رجلا من تلك النجدة فاستغربه بتلك الأرض فضربه ليعلمه بحاله وما الذى أقدمه إلى هناك فأقر بالحال ودله على أصحابه فعاد الجندى المسلم إلى قايماز النجمى وهومقدم ذلك العسكر فأعلمه الخبر والفرنجى معه فركب فى طائفة من العسكر إلى الموضع الذى قداختفى فيه الفرنج فكبسهم فأخذهم وتتبعهم فى الشعاب والكهوف فلم يفلت منهم أحد فكان معهم مقدمان من فرسان الاسبتار فحملوا إلى صلاح الدين وهو على صفد فأحضرهما ليقتلهما وكانت عادته قتل الداوية والاسبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما ما أظن ينالنا سوء وقدنظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان رحمه الله كثير العفو يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفو ويصفح فلما سمع كلامهما لم يقتلهما وأمر بهما فسجنا ولما فتح صفد سار عنها إلى كوكب ونازلها وحصرها وأرسل إلى من بها من الفرنج يبذل لهم الأمان إن سلموا ويتهددهم بالقتل والسبى والنهب إن امتنعوا فلم يسمعوا قوله وأصروا على الامتناع فجد فى قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رمى الأحجار اليهم وزحف مرة بعد مرة وكانت الأمطار كثيرة لاتنقطع ليلا ولانهارا فلم يتمكن المسلمون من القتال على الوجه الذى يريدونه وطال مقامهم عليها وفى آخر الأمر زحف

اليها دفعات متناوبة فى يوم واحد ووصلوا إلى باشورة القلعة ومعهم النقابون والرماة يحمونهم بالنشاب عن قوس اليد والجروخ فلم يقدر أحد منهم أن يخرج رأسه من أعلى السور فنقبوا الباشورة فسقطت وتقدموا إلى السور الأعلى فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الأمان فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف ذى القعدة وسيرهم إلى صور فوصلوا اليها واجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم وتابعوا الرسل إلى من بالأندلس وصقلية وغيرها من جزائر البحر يستغيثون ويستنجدون والأمداد كل قليل تأتيهم وكان ذلك كله بتفريط صلاح الدين فى إطلاق كل من حصره حتى عض بنانه ندما وأسفا حيث لم ينفعه ذلك واجتمع للمسلمين بفتح كوكب وصفد من حدايلة إلى أقصى أعمال بيروت لايفصل بينه غير مدينة صور وجميع أعمال أنطاكية سوى القصير ولما ملك صلاح الدين صفد سار إلى البيت المقدس فعيد فيه عيد الأضحى ثم سار منه إلى عكا فأقام بها حتى انسلخت السنة .

﴿ ذكر ظهور طائفة من الشيعة بمصر ﴾ فى هذه السنة ثار بالقاهرة جماعة من الشيعة عدتهم اثناعشر رجلا ليلا ونادوا بشعار العلويين يال على يال على وسلكوا الدروب ينادون ظنا منهم أن رعية البلد يلبون دعوتهم ويخرجون معهم فيعيدون الدولة العلوية ويخرجون بعض من بالقصر محبوسا منهم ويملكون البلد فلم يلتفت أحد منهم إليهم ولا أعارهم سمعه فلما رأوا ذلك تفرقوا خائفين فأخذوا وكتب بذلك إلى صلاح الدين فأهمه أمرهم وأزعجه فدخل عليه القاضى الفاضل فأخبره الخبر فقال القاضى الفاضل ينبغى أن تفرح بذلك ولا تحزن ولاتهتم حيث علمت من بواطن رعيتك المحبة لك والنصح ولترك الميل إلى عدوك ولووضعت جماعة يفعلون مثل هذه الحالة لتعلم بواطن أصحابك ورعيتك وخسرت الأموال الجليلة عليهم لكان قليلا فسرى عنه وكان هذا القاضى الفاضل صاحب دولة صلاح الدين وأكبر من بها وستأتى مناقبه عند وفاته ماتراه :

﴿ ذكر انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل ﴾ فى هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله عسكرا كثيرا وجعل المقدم عليهم وزيره جلال الدين عبيدالله بن يونس وسيرهم إلى مساعدة قزل ليكف الناس طغرل عن البلاد فسار العسكر ثالث صفر إلى أن قارب همذان فلم يصل قزل إليهم وأقبل طغرل إليهم فالتقوا ثامن ربيع الأول بداى مرج عند همذان واقتتلوا فلم يثبت عسكر بغداد بل انهزموا وتفرقوا وثبت الوزير قائما ومعه مصحف وسيف فأتاه من عسكر طغرل من أسره وأخذ مامعه من خزانة وسلاح ودواب وغير ذلك وعاد العسكر إلى بغداد متفرقين وكنت حينئذ بالشام فى عسكر صلاح الدين يريد الغزاة فأتاه الخبر مع النجابين بمسير العسكر البغدادى فقال كأنكم وقد وصل الخبر بانهزامهم فقال له بعض الحاضرين وكيف ذلك فقال لاشك أن أصحابى وأهلى أعرف بالحرب من الوزير وأطوع فى العسكر منه ومع هذا فما أرسل أحدا منهم فى سرية للحرب إلا وأخاف عليه وهذا الوزير غير عارف بالحرب وقريب العهد بالولاية ولا يراه الأمراء أهلا أن يطاع وفى مقابلة سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه ومن معه يطيعه وكان الأمر كذلك ووصل الخبر إليه بانهزامهم فقال لأصحابه كنت أخبرتكم بكذا وكذا وقد وصل الخبر بذلك ولما عادت عساكر بغداد منهزمة قال بعض الشعراء وهو أحمد بن الواثق بالله .

أتركونا من جائحات الجريمه * طلعة طلعة تكون وخيمه
بركات الوزير قد شملتنا * فلهذا أمورنا مستقيمه
خرجت جندنا تريد خراسا * ن جميعا بأبهات عظيمه

Marfat.com

Marfat.com

بخيول وعـــده وعديد * وسيوف مجربات قديمه
ووزير وطاق طنب ونقش * وخيول معـــدة للهزيمه
هم رأوا غرة العدو وقد * أقبل ولوا وانحل عقد العزيمه
وأتونا ولا بخفى حنـــين * بوجوده سود قباح دميمه
لو رأى صاحب الزمان ولو * عاين أفعالهم وقبح الجريمه
قابـــل الكل بالنكال * وناهيك بهاسبة عليهم مقيمه

كان ينبغى أن تتقدم هذه الحادثة وإنما أخرتها لتتبع الحوادث المتقدمة بعضها بعضا لنعلق كل واحدة منها بالأخرى .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هـذه السنة توفى شيخنا أبو محمد عبد الله بن على بن عبد الله بن سويدة التكريتى كان عالما بالحديث وله تصانيف حسنة . وفيها توفيت سلجوقة خاتون بنت قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان زوجة الخليفة وكانت قبله زوجة نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب الحصن فلما توفى عنها تزوجها الخليفة ووجد الخليفة عليها وجدا عظيما ظهر للناس كلهم وبنى على قبرها تربة بالجانب الغربى وإلى جانب التربة رباطه المشهور بالرملة . وفيها توفى علاء الدين تناش وحمل تابوته إلى مشهد الحسن عليه السلام . وفيها توفى خادم الخليفة وكان أكبر أمير ببغداد . ومات أبو الفرج بن النقور العدل ببغداد وسمع الحديث الكثير وهو من بيت الحديث رحمه الله[1]

---

(١) وفيها توفى الأمير الكبير سلالة الملوك والسلاطين الشيزرى مؤيد الدولة أبو الحارث وأبو المظفر أسامة ابن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقد أحد الشعراء المشهورين ، المشكورين ، بلغ من العمر ستا وتسعين سنة ، وكان عمره تاريخا مستقلا وحده ، وكانت داره بدمشق ، مكان العزيزية ، وكانت معقلا للفضلاء ، ومنزلا للعلماء وله أشعار زائقة ، ومعان فائقة ولديه علم غزير ، وعنده جود وفضل كثير ، وكان من أولاد ملوك شيزر ، ثم أقام بمصر مدة فى أيام الفاطميين ، ثم عاد إلى الشام فقدم على الملك صلاح الدين فى سنة سبعين وأنشده :

حمدت على طول عمرى المشيبا * وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا
لأنى حييت إلى أن لقيت * بعد العـــدو صديقا حبيبا

وله فى سن قلعها وفقد نفعها :

وصاحب لا أمل الدهر صحبته * يشقى لنفعى ويسعى سعى مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا لحين بدا * لناظرىّ افترقنا فرقة الأبد

وله ديوان شعر كبير ، وكان صلاح الدين يفضله على سائر الدواوين ، وقد كان مولده فى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وكان فى شبيبته شهما شجاعا ، قتل الأسد وحده مواجهة ، ثم عمر إلى أن توفى فى هذه السنة ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان ، ودفن شرقى جبل قاسيون . قال وزرت قبره وأنشدت له :

لا تستعر جـــلدا على هجرانهم * فقواك تضعف عن صدود دائم
واعلم بأنك إن رجعت إليهم * طوعا وإلا عدت عودة نادم

وله أيضا : واعجب لضعف يدى عن حملها قلما * من بعد حطم القنا فى لبة الأسد
وقل لمن يتمنى طول مدته * هذى عواقب طول العمر والمدد

﴿ ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر فتح شقيف أرنوم﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول سار صلاح الدين إلى شقيف أرنوم وهو من أمنع الحصون ليحصره فنزل بمرج عيون فنزل صاحب الشقيف وهو أرناط صاحب صيدا وكان هذا أرناط من أعظم الناس دهاء ومكرا فدخل إليه واجتمع به وأظهر له الطاعة والمودّة وقال له أنا محب لك ومعترف بإحسانك وأخاف أن يعرف المركيس ما بينى وبينك فينال أولادى وأهلى منه أذى فإنهم عنده فاشتهى أن تمهلنى حتى أتوصل فى تخليصهم من عنده وحينئذ أحضر أنا وهم عندك ونسلم الحصن إليك وأكون أنا وهم فى خدمتك نقنع بما تعطينا من أقطاع فظن صلاح الدين صدقه فأجابه إلى ماسأل فاستقر الأمر بينهما أن يتسلم الشقيف فى جمادى الآخرة وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين البيمند صاحب أنطاكية فأمر تقى الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتى من بلاد المشرق ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة وكان أيضا منزعج الخاطر كثير الهم لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور وما يتصل بهم من الأمداد فى البحر وأن ملك الفرنج الذى كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس قد اصطلح هو والمركيس بعد اختلاف كان بينهما وأنهم قد اجتمعوا فى خلق لاتحصى فإنهم قد خرجوا من مدينة صور إلى ظاهرها فكان هذا وأشباهه مما يزعجه ويخاف من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدم إلى صور . وفيها الجموع المتوافرة فتنقطع الميرة عنه إلا أنه مع هذه الأشياء مقيم على العهد مع أرناط صاحب الشقيف وكان أرناط فى مدة الهدنة يشترى الأقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يحصن به شقيفة وكان صلاح الدين يحسن الظن وإذا قيل له عنه مما هو فيه من المكر وأن قصده المطاولة إلى أن يظهر الفرنج من صور وحينئذ يبدى فضيحته ويظهر مخالفته لايقبل فيه فلما قارب انقضاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره إلى القرب من شقيف أرنوم وأحضر عنده أرناط وقد بقى من الأجل ثلاثة أيام فقال له فى معنى تسليم الشقيف فاعتذر بأولاده وأهله وأن المركيس لم يمكنهم من المجىء إليه وطلب التأخير مدة أخرى فحينئذ علم السلطان مكره وخداعه فأخذه وحبسه وأمره بتسليم الشقيف فطلب قسيسا ذكره ليحمل رسالة إلى من بالشقيف ليسلموه فأحضروه عنده فساره بمالم يعلموا فمضى ذلك القسيس إلى الشقيف فأظهر أهله العصيان فسير صلاح الدين ارناط إلى دمشق وسجنه وتقدم إلى الشقيف فحصره وضيق عليه وجعل عليه من يحفظه ويمنعه عن الذخيرة والرجال .

﴿ ذكر وقعة اليزك مع الفرنج ﴾ لما كان صلاح الدين بمرج عيون وعلى الشقيف جاءته كتب من أصحابه الذين جعلهم يزكا فى مقابل الفرنج على صور يخبرونه فيها أن الفرنج قد أجمعوا على عبور الجسر الذى لصور وعزموا على حصار صيدا فسار صلاح الدين جريدة فى شجعان أصحابه سوى من جعله على الشقيف فوصل إليهم وقد فات الأمر أن الفرنج قد فارقوا صور وساروا عنها لمقصدهم فلقيهم اليزك على مضيق هناك وقاتلوهم ومنعوهم وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد وأسروا من الفرنج جماعة وقتلوا جماعة وقتل من المسلمين أيضا جماعة منهم مملوك لصلاح الدين كان من أشجع الناس فحمل وحده على صف الفرنج فاختلط بهم وضربهم بسيفه يمينا وشمالا فتكاثروا عليه فقتلوه رحمه الله ثم إن الفرنج عجزوا عن الوصول إلى صيدا

Marfat.com

Marfat.com

فعادوا إلى مكانهم .

﴿ ذكر وقعة ثانية للغزاة المتطوّعة ﴾ لما وصل صلاح الدين إلى البزك وقد فاتته تلك الوقعة أقام عندهم فى خيمة صغيرة ينتظر عودة الفرنج لينتقم منهم ويأخذ بثار من قتلوه من المسلمين فركب فى بعض الأيام فى عدة يسيرة على أن ينظر إلى مخيم الفرنج من الجبل ليعمل بمقتضى مايشاهده وظن من هناك من غزاة العجم والعرب المتطوعة أنه على قصد المصاف والحرب فساروا مجدين وأوغلوا فى أرض العدو مبعدين وفارقوا الحزم وخلفوا السلطان وراء ظهورهم وقاربوا الفرنج فأرسل صلاح الدين عدة من الأمراء يردونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا فلم يسمعوا ولم يقبلوا وكان الفرنج قد اعتقدوا أن وراءهم كمينا فلم يقدموا عليهم فأرسلوا من ينظر حقيقة الأمر فأتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم مايخاف فحملت الفرنج عليهم حملة رجل واحد فقاتلوهم فلم يلبثوا أن أناموهم وقتل معهم جماعة من المعروفين وشق على صلاح الدين والمسلمين ماجرى عليهم وكان ذلك بتفريطهم فى حق أنفسهم رحمهم الله ورضى عنهم وكانت هذه الوقعة تاسع جمادى الأولى فلما رأى صلاح الدين ذلك انحدر من الجبل اليهم فى عسكره فحملوا على الفرنج فألقوهم إلى الجسر وقد أخذوا طريقهم فالقوا أنفسهم فى الماء فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل وهزم السلطان على مصابرتهم ومحاصرتهم فتسامع الناس فقصدوه واجتمع معه خلق كثير فلما رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور فلما عادوا اليها عاد صلاح الدين إلى تبنين ثم إلى عكا ينظر حالها ثم عاد إلى العسكر والمخيم .

﴿ ذكر وقعة ثالثة ﴾ لما عاد صلاح الدين إلى العسكر أتاه الخبر أن الفرنج يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش متبددين فكتب إلى من بعكا من العسكر وواعدهم يوم الإثنين ثامن جمادى الآخرة ليلاقوهم من الجانبين ورتب كمناه فى موضع من تلك الأودية والشعاب واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم أنهم إذا حمل عليهم الفرنج قاتلوهم شيئا من قتال ثم تطاردوا لهم وأروهم العجز عن مقاتلتهم فإذا تبعهم الفرنج استجروهم إلى أن يجوزوا مواضع الكمين ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم فخرجوا على هذه العزيمة فلما تراءى الجمعان والتقت الفئتان أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة وثبتوا فقاتلوهم وصبر بعضهم لبعض واشتد القتال وعظم الأمر ودامت الحرب وطال على الكمناء الانتظار فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين وإليهم قاصدين فأتوهم وهم فى شدة الحرب فازداد الأمر شدة على شدة وكان فيهم أربعة أمراء من ربيعة طى وكانوا يجهلون تلك الأرض فلم يسلكوا مسلك أصحابهم فسلكوا الوادى ظنا منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين فلما رآهم الفرنج بالوادى علموا أنهم جاهلون فأتوهم وقاتلوهم وأما المملوك فإنه نزل عن فرسه وجلس على صخرة وأخذ قوسه بيده وحمى نفسه وجعلوا يرمونه بسهام الزنبورك وهو يرميهم فجرح منهم جماعة وجرحوه جراحات كثيرة فسقط فأتوه وهو بآخر رمق فتركوه وانصرفوا وهم يحسبونه ميتا ثم إن المسلمين جاؤا من الغد إلى موضعهم فرأوا القتلى ورأوا المملوك حيا فحملوه فى كساء وهو لايكاد يعرف من الجراحات فأيسوا من حياته وأعرضوا عليه الشهادة وبشروه بالشهادة فتركوه ثم عادوا إليه فرأوه وقد قويت نفسه فأقبلوا عليه بمشروب فعوفى ثم كان بعد ذلك لايحضر مشهدا إلا كان له فيه الأثر العظيم .

﴿ ذكر مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها ﴾ لما كثر جمع الفرنج بصور على ماذكرناه من أن صلاح الدين

كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان وسيرهم إليها بأموالهم ونسائهم وأولادهم فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ومن الأموال مالا يفى على كثرة الإنفاق فى السنين الكثيرة ثم إن الرهبان والقسس وخلقا كثيرا من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم وأخذهم البترك الذى كان بالقدس ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعا ويستنجدون أهلها ويستجيرون بهم ويحثونهم على الأخذ بثار البيت المقدس وصور والمسيح عليه السلام وجعلوا صورة رجل عربى والعربى يضربه وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام وقالوا لهم هذا المسيح يضربه محمد نبى المسلمين وقد جرحه وقتله فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى الذماء فإنهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزون الأقران على ما نذكره إن شاء الله تعالى ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالا على قدر حالهم فاجتمع لهم من الرجال والأموال مالا يتطرق إليه الإحصاء (ولقد حدثنى) بعض المسلمين المقيمين بحصن الأكراد وهو من أجناد أصحابه الذين سلموه إلى الفرنج قديما وكان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه من موافقة الفرنج فى الغارة على بلاد الإسلام والقتال معهم والسعى معهم وكان سبب اجتماعى به ما أذكره سنة تسعين وخمسمائة إن شاء الله تعالى قال لى هذا الرجل إنه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الأكراد إلى البلاد البحرية التى للفرنج والروم فى أربع شوانى يستنجدون قال فانتهى بنا الطواف إلى رومية الكبرى فخرجنا منها وقد ملأنا الشوانى نفرة (وحدثنى) بعض الأسرى منهم أن له والدة ليس لها ولد سواه ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه وسيرته لاستنقاذ البيت المقدس فأخذ أسيرا وكان عند الفرنج من الباعث الدينى والنفسانى ما هذا حده فخرجوا على الصعب والذلول برا وبحرا من كل فج عميق ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك تلك الألمان لما خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام وإلا كان يقال إن الشام ومصر كانتا للمسلمين فهذا كان سبب خروجهم فلما اجتمعوا بصور يموج بعضهم فى بعض ومعهم الأموال العظيمة والبحر يمدهم بالأقوات والذخائر والعدد والرجال من بلادهم فضاقت عليهم صور باطنها وظاهرها فأرادوا قصد صيدا وكان ما ذكرناه فعادوا واتفقوا على قصد عكا ومحاصرتها ومصابرتها فساروا إليها بفارسهم وراجلهم وقضهم وقضيضهم ولزموا البحر فى مسيرهم لا يفارقونه فى السهل والوعر الضيق والسعة ومراكبهم تسير مقابلهم فى البحر فيها سلاحهم وذخائرهم ولتكون عدة لهم إن جاءهم مالا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا وكان رحيلهم ثامن رجب ونزولهم على عكا فى منتصفه ولما كانوا سائرين كان يزك المسلمين يتخطفونهم ويأخذون المنفرد منهم ولما رحلوا جاء الخبر إلى صلاح الدين برحيلهم فسار حتى قاربهم ثم جمع أمراءه واستشارهم هل يكون المسير محاذاة الفرنج ومقاتلتهم وهم سائرون أو يكون فى غير الطريق التى سلكوها فقالوا لا حاجة بنا إلى احتمال المشقة فى مسايرتهم فإن الطريق وعر وضيق ولا يتهيأ لنا ما نريده منهم والرأى أننا نسير فى الطريق المهيع ونجتمع عليهم عند عكا فنفرقهم ونمزقهم فعلم ميلهم إلى الراحة المعجلة فوافقهم وكان رأيه مسايرتهم ومقاتلتهم وهم سائرون وقال إن الفرنج إذا نزلوا لصقوا بالأرض فلا يتهيأ لنا إزعاجهم ولا نيل الغرض منهم والرأى قتالهم قبل الوصول إلى عكا فخالفوه فتبعهم وساروا على طريق كفركنا فسبقهم الفرنج وكان صلاح الدين قد جعل فى مقابل الفرنج جماعة من الأمراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطفونهم ولم يقدم الفرنج عليهم مع قلتهم فلو أن العساكر

Marfat.com

Marfat.com

اتبعت رأى صلاح الدين فى مسايرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا لكان بلغ غرضه وصدهم عنها ولكن إذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ولما وصل صلاح الدين إلى عكا رأى الفرنج قد نزلوا عليها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر ولم يبق للمسلمين اليها طريق فنزل صلاح الدين عليهم وضرب خيمته على تل كيسان وامتدت ميمنته إلى تل الغياظية وميسرته إلى النهر الجارى ونزلت الأثقال بصفورية وسير الكتب إلى الأطراف باستدعاء العساكر فأتاه عسكر الموصل وديار بكر وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة وأتاه تقى الدين بن أخيه وأتاه مظفر الدين بن زين الدين وهو صاحب حران والرها وكانت الأمداد تأتى المسلمين فى البر وتأتى الفرنج فى البحر وكان بين الفريقين مدة مقامهم على عكا حروب كثيرة ما بين صغيرة وكبيرة منها اليوم المشهور ومنها ماهو دون ذلك وما عداها كان قتالا يسيرا من بعضهم مع بعض فلا حاجة إلى ذكره ولما نزل السلطان عليهم لم يقدر على الوصول اليهم ولا إلى عكا حتى انسلخ رجب ثم قاتلهم مستهل شعبان فلم ينل منهم مايريد وبات الناس على تعبية فلما كان الغد باكرهم القتال بحده وحديده واستدار عليهم من سائر جهاتهم من بكرة إلى الظهر وصبر الفريقان صبر حار له من رآه فلما كان وقت الظهر حمل عليهم تقى الدين حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم فأزاحهم عن مواقفهم فركب بعضهم بعضا لا يلوى أخ على أخ والتجؤا إلى من يليهم من أصحابهم واجتمعوا بهم وأخلوا نصف البلد وملك تقى الدين مكانهم والتصق بالبلد وصار ما أخلوه بيده ودخل المسلمون البلد وخرجوا منه واتصلت الطرق وزال الحصر عمن فيه وأدخل صلاح الدين اليه من أراد من الرجال وما أراد من الذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه فإن للصدمة الأولى روعة لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا إلى الراحة وتركوا القتال وقالوا نباكرهم غدا ونقطع دابرهم وكان فى جملة من أدخله صلاح الدين إلى عكا من جملة الأمراء حسام الدين أبو الهيجاء السمين وهو من أكابر أمراء عسكره وهو من الأكراد الخطية من بلد إربل وقتل من الفرنج هذا اليوم جماعة كبيرة.

﴿ذكر وقعة أخرى ووقعة العرب﴾ ثم إن المسلمين نهضوا إلى الفرنج من الغد وهو سادس شعبان عازمين على بذل جهدهم واستنفاد وسعهم فى استئصالهم فتقدموا على تعبيتهم فرأوا الفرنج حذرين محتاطين قد ندموا على مافرطوا فيه بالأمس وهم قد حفظوا أطرافهم ونواحيهم وشرعوا فى حفر خندق يمنع من الوصول اليهم فألح المسلمون عليهم فى القتال فلم يتقدم الفرنج اليهم ولا فارقوا مرابضهم فلما رأى المسلمون ذلك عادوا عنهم ثم إن جماعة من العرب بلغهم أن الفرنج تخرج من الناحية الأخرى إلى الاحتطاب وغيره من أشغالهم فكمنوا لهم فى معاطف النهر ونواحيه سادس عشر شعبان فلما خرج جمع من الفرنج على عادتهم حملت عليهم العرب فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كان معهم وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين فأحسن إليهم وأعطاهم الخلع.

﴿ذكر الوقعة الكبرى على عكا﴾ لما كان بعد هذه الوقعة المذكورة بقى المسلمون إلى العشرين من شعبان كل يوم يغادون القتال مع الفرنج ويراوحونه والفرنج لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه، ثم إن الفرنج اجتمعوا للمشورة فقالوا إن عسكر مصر لم يحضروا الحال مع صلاح الدين هكذا فكيف يكون إذا حضروا والرأى أننا نلقى المسلمين غدا لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر والأمداد إليهم وكان كثير من عسكر

صلاح الدين غائبا عنه بعضهم مقابل أنطاكية ليردوا غائلة البيمند صاحبها عن أعمال حلب وبعضهم فى حمص مقابل طرابلس ليحفظ ذلك الثغر أيضا وعسكر فى مقابل صور لحماية ذلك البلد وعسكر بمصر يكون بثغر دمياط والإسكندرية وغيرهما والذى بقى من عسكر مصر كانوا لم يصلوا لطول بيكارهم كما ذكرناه قبل وكان هذا مما أطمع الفرنج فى الظهور إلى قتال المسلمين وأصبح المسلمون على عادتهم منهم من يتقدم إلى القتال ومنهم من هو فى خيمته ومنهم من قدتوجه فى حاجته من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه إلى غير ذلك فخرج الفرنج من معسكرهم كأنهم الجراد المنتشر يدبون على وجه الأرض قد ملؤها طولا وعرضا وطلبوا ميمنة المسلمين وعليها تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين فلما رأى أن الفرنج نحوه قاصدين حذر هو وأصحابه فتقدموا إليه فلما قربوا منه تأخر عنهم فلما رأي صلاح الدين الحال وهو فى القلب أمد تقى الدين برجال من عنده ليتقوى بهم وكان عسكر ديار بكر وبعض الشرقيين فى جناح القلب فلما رأى الفرنج قلة الرجال فى القلب وأن كثيرا منهم قد ساروا نحو الميمنة مددا لهم عطفوا على القلب فحملوا حملة رجل واحد فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين وثبت بعضهم فاستشهد جماعة منهم كالأمير مجلى بن مروان والظهير أخى الفقيه عيسى وكان والى البيت المقدس قدجمع بين الشجاعة والعلم والدين وكالحاجب خليل الهكارى وغيرهم من الشجعان الصابرين فى مواطن الحرب ولم يبق بين أيديهم فى القلب من يردهم فقصدوا التل الذى عليه خيمة صلاح الدين فقتلوا من مروا به ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة منهم شيخنا جمال الدين أبوعلى بن رواحة الحموى وهو من أهل العلم وله شعرحسن وماورث الشهادة من بعيد فإن جده عبدالله بن رواحة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله الروم يوم مؤتة وهذا قتله الفرنج يوم عكا وقتلوا غيره وانحدروا إلى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين أن الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين ولو ألقوها لعلم الناس وصولهم إليها وانهزام العساكر بين أيديهم فكانوا إنهزموا أجمعون ثم إن الفرنج نظروا وراءهم فرأوا أمدادهم قدانقطعت عنهم فرجعوا خوفا أن ينقطعوا عن أصحابهم وكان سبب انقطاعهم أن الميمنة وقفت مقابلهم فاحتاج بعضهم يقف مقابلها وحملت ميسرة المسلمين على الفرنج فاشتغل المدد بقتال من بها عن الاتصال بأصحابهم وعادوا إلى طرف خنادقهم فحملت الميسرة على الفرنج الواصلين إلى خيمة صلاح الدين صادفوهم وهم راجعون فقاتلوهم وثار بهم غلمان العسكر وكان صلاح الدين لما انهزم القلب قدتبعهم يناديهم ويأمرهم بالكرة ومعاودة القتال فاجتمع معه منهم جماعة صالحة فحمل بهم على الفرنج من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة فأخذتهم سيوف الله من كل جانب فلم يفلت منهم أحد بل قتل أكثرهم وأخذ الباقون أسرى وفى جملة من أسر مقدم الداوية الذى كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه فلما ظفر به الآن قتله وكانت عدة القتلى سوى من كان إلى جانب البحر نحو عشرة آلاف قتيل فأمر بهم فألقوا فى النهر الذى يشرب الفرنج منه وكان عامة القتلى من فرسان الفرنج فإن الرجالة لم يلحقوهم وكان فى جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل فلما أسرن وألقى عنهن السلاح عرفن أنهن نساء. وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع من طبرية ومنهم من جاوز الأردن وعاد ومنهم من بلغ دمشق ولولا أن العساكر تعرفت فى الهزيمة لكانوا بلغوا من الفرنج من الاستئصال والإهلاك مرادهم على أن الباقين بذلوا جهدهم وجدوا فى القتال وصمموا على الدخول مع الفرنج فى معسكرهم لعلهم يفزعون منهم بجاءهم الصريخ بأن رحالهم وأموالهم قد نهبت وكان سبب هذا

Marfat.com

Marfat.com

النهب أن الناس لما رأوا الهزيمة حملوا أثقالهم على الدواب فثار بهم أوباش العسكر وغلمانه فنهبوه وأتوا عليه وكان فى عزم صلاح الدين أن يباكرهم القتال والزحف فرأى اشتغال الناس بما ذهب من أموالهم وهم يسعون فى جمعها وتحصيلها فأمر بالنداء بإحضار ما أخذ فأحضر منه ما ملأ الأرض من المفارش والعيب المملوءة والثياب والسلاح وغير ذلك فرد الجميع على أصحابه ففاته ذلك اليوم ما أراد فسكن روع الفرنج وأصلحوا شأن الباقين منهم

﴿ ذكر رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا ﴾ لما قتل من الفرنج ذلك العدد الكثير جافت الأرض من نتن ريحهم وفسد الهواء والجو ووجدت الأمزجة فسادا وانحرف مزاج صلاح الدين وحدث له قولنج مبرح وكان يعتاده فحضر عنده الأمراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع وترك مضايقة الفرنج وحسنوه له وقالوا قد ضيقنا على الفرنج ولو أرادوا الانفصال عن مكانهم لم يقدروا والرأى أننا نبعد عنهم بحيث يتمكنون من الرحيل والعود فإن رحلوا فقد كفينا شرهم وكفوا شرنا وإن أقاموا عاودنا القتال ورجعنا معهم إلى ما نحن فيه ثم إن مزاجك منحرف والألم شديد ولو وقع إرجاف لهلك الناس والرأى على كل تقدير البعد عنهم ووافقهم الأطباء على ذلك فأجابهم إليه إلى ما يريد الله أن يفعله ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ فرحلوا إلى الخروبة رابع شهر رمضان وأمر من بعكا من المسلمين بحفظها وإغلاق أبوابها والاحتياط وأعلمهم بسبب رحيله فلما رحل هو وعساكره أمن الفرنج وانبسطوا فى تلك الأرض وعادوا وحصروا عكا وأحاطوا بها من البحر إلى البحر ومراكبهم أيضا فى البحر تحصرها وشرعوا فى حفر الخندق وعمل السور من التراب الذى يخرجونه من الخندق وجاؤا بما لم يكن فى الحساب وكان البزك كل يوم يوافقهم وهم لا يقاتلون ولا يتحركون إنما هم معتمدون بحفر الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين إن عاد إلى قتالهم فحينئذ ظهر رأي المشيرين بالرحيل وكان البزك كل يوم يخبرون صلاح الدين بما يصنع الفرنج ويعظمون الأمر عليه وهو مشغول بالمرض لا يقدر على النهوض للحرب وأشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعها إليها ليمنعهم من الخندق والسور ويقاتلوهم ويتخلف هو عنهم فقال إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئا وربما كان من الشر أضعاف ما نرجوه من الخير فتأخر الأمر إلى أن عوفى فتمكن الفرنج وعملوا ما أرادوا وأحكموا أمورهم وحصنوا نفوسهم بما وجدوا إليه السبيل وكان من بعكا يخرجون إليهم كل يوم ويقاتلونهم وينالون منهم بظاهر البلد .

﴿ ذكر وصول عسكر مصر والأسطول المصرى فى البحر ﴾ فى منتصف شوال وصلت العساكر المصرية ومقدمها الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فلما وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه واشتدت ظهورهم وأحضر معه من آلات الحصار من الدرق والطارقيات والنشاب والأقواس شيئاً كثيرا ومعهم من الرجالة الجم الغفير وجمع صلاح الدين من البلاد الشامية راجلا كثيرا وهو على عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل ووصل بعده الأسطول المصرى ومقدمه الأمير لؤلؤ وكان شهما شجاعا مقداما خبيرا بالبحر والقتال فيه ميمون النقيبة فوصل بغتة فوقع على بطسة كبيرة للفرنج فغنمها وأخذ منها أموالا كثيرة وميرة عظيمة فأدخلها إلى عكا فسكنت نفوس من بها بوصول الأسطول وقوى جنانهم .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة فى صفر خطب لولىّ العهد أبى نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد ونثرت الدنانير والدراهم وأرسل إلى البلاد فى إقامة الخطبة ففعل ذلك . وفيها فى شوال ملك الخليفة

تكريت وسبب ذلك أن صاحبها وهو الأمير عيسى قتله إخوته وملكوا القلعة بعده فسير الخليفة إليهم لعسكرا فحصروها وتسلموها ودخل أصحابه إلى بغداد فأعطوا أقطاعا وفيها فى صفر فتح الرباط الذى بناه الخليفة بالجانب العربى من بغداد وحضر الخلق العظيم فكان يوما مشهودا . وفى هذه السنة فى رمضان مات شرف الدين أبو سعد عبدالله بن محمد بن هبة الله بن أبى عصرون الفقيه الشافعى بدمشق وكان قاضيها وأضر وولى القضاء بعده ابنه وكان الشيخ من أعيان الفقهاء الشافعية . وفيها فى ذى القعدة توفى الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى بالخروبة مع صلاح الدين وهو من أعيان أمراء عسكره ومن قدماء الأسدية وكان فقيها جنديا شجاعا كريما ذا عصبية ومروأة وهو من أصحاب الشيخ الإمام أبى القاسم بن البرزى تفقه عليه بجزيرة ابن عمر ثم اتصل بأسدالدين شيركوه فصار إماما له فرأى من شجاعته ماجعل له أقطاعا وتقدم عند صلاح الدين تقدما عظيما . وفيها فى صفر توفى شيخنا أبو العباس أحمد بن عبدالرحمن بن وهبان المعروف بابن أفضل الزمان بمكة وكان رحمه الله عالما متبحرا فى علوم كثيرة خلاف فقه مذهبه والأصولين والحساب والفرائض والنجوم والهيئة والمنطق وغير ذلك وختم أعماله بالزهد ولبس الخشن وأقام بمكة حرسها الله تعالى مجاورا فتوفى بها وكان من أحسن الناس صحبة وخلقا . وفيها فى ذى القعدة مات أبو طالب المبارك بن المبارك الكرخى مدرس النظامية وكان من أصحاب أبى الحسن بن الخل وكان صالحا خيرا له عند الخليفة والعامة حرمة عظيمة وجاه عريض وكان حسن الخط يضرب به المثل

﴿ ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر وقعة الفرنج واليزك وعود صلاح الدين إلى منازلة الفرنج ﴾ قد ذكرنا رحيل صلاح الدين عن عكا إلى الخروبة لمرضه فلما برأ أقام بمكانه إلى أن ذهب الشتاء وفى مدة مقامه بالخروبة كان يزكه وطلائعه لا تنقطع عن الفرنج فلما دخل صفر من سنة ست وثمانين وخمسمائة سمع الفرنج أن صلاح الدين قد سار للصيد ورأى العسكر الذى فى اليزك عندهم قليلا وأن الوحل الذى فى مرج عكا كثير يمنع من سلوكه من أراد أن ينجد اليزك فاغتنموا ذلك وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر فقاتلهم المسلمون وحموا أنفسهم بالنشاب ، وأحجم الفرنج عنهم حتى فى نشابهم ، فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد ، فاشتد القتال وعظم الأمر وعلم المسلمون أنه لاينجيهم إلا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل إلى أن جاء الليل وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وعاد الفرنج إلى خندقهم ولما عاد صلاح الدين إلى المعسكر سمع خبر الوقعة فندب الناس إلى نصر إخوانهم فأتاه الخبر أن الفرنج عادوا إلى خندقهم فأقام ثم إنه رأى الشتاء قد ذهب وجاءته العساكر من البلاد القريبة منه دمشق وحمص وحماة وغيرها فتقدم من الخروبة نحو عكا فنزل بتل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا من المسلمين فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون .

﴿ ذكر إحراق الأبراج ووقعة الأسطول ﴾ كان الفرنج فى مدة مقامهم على عكا قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جدا طول كل برج منها خمس طبقات كل طبقة مملوأة من المقاتلة وقد جمع أخشابها من الجزائر فإن مثل هذه الأبراج العظيمة لايصلح لها من الخشب إلا القليل النادر وغشوها بالجلود والخل والطين والأدوية التى تمنع النار من إحراقها وأصلحو الطرق لها وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات وزحفوا بها من العشرين من ربيع الأول فأشرفت على السور وقاتل من بها من عليه فانكشفوا وشرعوا فى طم خندقها

فأشرف البلد على أن يملك عنوة وقهرا فأرسل أهله إلى صلاح الدين إنسانا سبح فى البحر فأعلمه ماهم فيه من الضيق وماقد أشرفوا عليه من أخذهم وقتلهم فركب ووعى ما كره وتقدموا إلى الفرنج وقاتلهم من جميع جهاتهم قتالا عظيما دائما يشغلهم عن مكاثرة البلد فافترق الفرنج فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وفرقة تقاتل أهل عكا إلا أن الأمر قد خف عمن بالبلد ودام القتال ثمانية أيام متتابعة آخرها الثامن والعشرون من الشهر وسئم الريقان القتال وملوا منه لملازمته ليلا ونهارا والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج فإنهم لم يتركوا حيلة إلا عملوها فلم يفد ذلك ولم يغن عنهم شيئا وتابعوا رمى النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فأيقنوا بالبوار والهلاك فأتاهم الله بنصر من عنده وأذن من إحراق الأبراج وكان سبب ذلك أن إنسانا من أهل دمشق كان مولعا بجمع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار فكان من يعرفه يلومه على ذلك وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم أباشرها بنفسى إنما أشتهى معرفتها وكان بعكا لأمر يريده الله فلما رأى الأبراج قد نصبت على عكا شرع فى عمل مايعرفه من الأدوية المقوية للنار بحيث لايمنعها شىء من الطين والخل وغيرهما فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش وهو متولى الأمور بعكا والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيقى أن يرمى فى المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الأبراج ماأعطيه حتى أحرقه وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه مايكاد يقتله فازداد غيظا بقوله وحرد عليه فقال له قد بالغ أهل هذه الصناعة فى الرمى بالنفط وغيره فلم يفلحوا فقال له من حضر لعل الله تعالى قد جعل الفرج على يد هذا ولا يضرنا أن نوافقه على قوله فأجابه إلى ذلك وأمر المنجنيقى بامتثال أمره فرمى عدة قدور نفطا وأدوية ليس فيها نار فكان الفرنج إذا رأوا القدر لايحرق شيئا يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج حتى علم أن الذى أتاه قد تمكن من البرج ألقى قدرا مملوأة وجعل فيها النار فاشتعل البرج وألقى قدرا ثانية وثالثة فاضطرمت النار فى نواحى البرج وأعجلت من فى طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص فاحترق هو ومن فيه وكان فيه من الزرديات والسلاح شىء كثير وكان طمع الفرنج بما رأوا أن القدور الأولى لاتعمل يحملهم على الطمأنينة وترك السعى فى الخلاص حتى عجل الله لهم النار فى الدنيا قبل الآخرة ، فلما احترق البرج الأول انتقل إلى الثانى وقد هرب من فيه لخوفهم فأحرقه وكذلك الثالث وكان يوما مشهودا لم ير الناس مثله والمسلمون ينظرون ويفرحون وقد أسفرت وجوههم بعد الكآبة فرحا بالنصر ، وخلاص المسلمين من القتل ، لأنهم ليس فيهم أحد إلا وله فى البلد إما نسيب وإما صديق وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثيرة فلم يقبل منه الحبة الفرد وقال إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه وسيرت الكتب إلى البلاد بالبشائر وأرسل يطلب العساكر الشرقية فأول من أتاه عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ثم أتاه علاء الدين ولد عزالدين مسعود بن مودود بن زنكى سيره أبوه مقدما على عسكره وهو صاحب الموصل ثم وصل زين الدين يوسف صاحب إربل وكان كل منهم إذا وصل يتقدم إلى الفرنج بعسكره وينضم إليه غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون ووصل الأسطول من مصر فلما سمع الفرنج بقربه جهزوا إلى طريقه اسطولا ليلقاه ويقاتله فركب صلاح الدين فى العساكر جميعها وقاتلهم من جهاتهم ليشتغلوا بقتاله عن قتال الأسطول ليتمكن من دخول عكا فلم يشتغلوا عن قصده بشىء فكان القتال بين الفريقين برا وبحرا وكان يوما مشهودا لم يؤرخ مثله وأخذ المسلمون من الفرنج مركبا فيه من الرجال والسلاح وأخذ الفرنج من

Marfat.com

Marfat.com

المسلمين مثل ذلك إلا أن القتل فى الفرنج كان أكثر منه فى المسلمين ووصل الأسطول الإسلامى سالما .

﴿ ذكر وصول ملك الألمان إلى الشام وموته ﴾ فى هذه السنة خرج ملك الألمان من بلاده وهم نوع من الفرنج من أكثرهم عددا وأشدهم بأسا وكان قد ارعجه ملك الإسلام البيت المقدس فجمع عساكره وازاح علتهم وسار عن بلاد وطريقه على القسطنطينية فأرسل ملك الروم بهذا إلى صلاح الدين يعرفه الخبر ويعده أنه لا يمكنه من العبور فى بلاده فلما وصل ملك الألمان إلى القسطنطينية عجز ملكه عن منعه من العبور لكثرة جموعه لكنه منع عنهم الميرة ولم يمكن أحدا من رعيته من حمل ما يريدونه إليهم فضافت بهم الأزواد والأقوات وساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية وساروا على أرض بلاد الإسلام وهى مملكة الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قلمش بن سلجق فلما وصلوا إلى أوائلها ثار بهم التركمان الأرج فما زالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد يسرقون ما قدروا عليه وكان لزمان شتاء والبرد يكون فى تلك البلاد شديد والثلج متراكما فأهلكهم البرد والجوع والتركمان فقل عددهم فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين ملك شاه بن قلج أرسلان ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد إلى قونية وبها أبوه قد حجر ولده المذكور عليه وتفرق أولاده فى بلاده وتغلب كل واحد منهم على ناحية منها فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير فى أثره فنازلوا قونية وأرسلوا إلى قلج أرسلان هدية وقالوا له ماقصدنا بلادك ولا أردناها وإنما قصدنا البيت المقدس وطلبوا منه أن يأذن لرعيته فى إخراج مايحتاجون إليه من قوت وغيره فأذن فى ذلك فأتاهم مايريدون فشبعوا وتزودوا وساروا ثم طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم وأن يسلم إليهم جماعة من أمرائه رهائن وكان يخافهم فسلم إليهم نيفا وعشرين أميرا كان يكرههم فساروا بهم معهم ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرض إليهم فقبض ملك الألمان وقيدهم فمنهم من هلك فى أسره ومنهم من فدى نفسه وسار ملك الألمان حتى أتى بلاد الأرمن وصاحبها لافون بن اصطفانة بن ليون فأمدهم بالأقوات والعلوفات وحكمهم فى بلاده وأظهر الطاعة لهم ثم ساروا نحو أنطاكية وكان فى طريقهم نهر فنزلوا عنده ودخل ملكهم إليه ليغتسل فغرق فى مكان منه لا يبلغ الماء وسط الرجل وكفى الله شره ، وكان معه ولد له فصار ملكا بعده وسار إلى أنطاكية فاختلف أصحابه عليه فأحب بعضهم العود إلى بلاده فتخلف عنه وبعضهم مال إلى تمليك أخ له فعاد أيضا وأسار فيمن صحت نيته له فعرضهم وكانوا نيفا وأربعين ألفا ووقع فيهم الوباء والموت فوصلوا إلى أنطاكية وكأنهم قد نبشوا من القبور فتبرم بهم صاحبها وحسن لهم المسير إلى الفرنج على عكا فساروا على جبلة واللاذقية وغيرهما من البلاد التى ملكها المسلمون وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأخذوا منهم خلقا كثيرا ومات أكثر من أخذ فبلغوا طرابلس وأقاموا بها أياما فكثر فيهم الموت فلم يبق منهم إلا نحو ألف رجل فركبوا فى البحر إلى الفرنج الذين على عكا ولما وصلوا ورأوا مانالهم فى طريقهم وماهم فيه من الاختلاف عادوا إلى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد وكان الملك قلج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم ويعده أنه يمنعهم من العبور فى بلاده فلما عبروها وخلفوها أرسل يتعذر بالعجز عنهم لأن أولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته ، وأما صلاح الدين عند وصول الخبر بعبور ملك الألمان فإنه استشار أصحابه فأشار كثير منهم عليه بالمسير إلى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا فقال بل نقيم إلى أن يقربوا منا وحينئذ نفعل ذلك لئلا يستلم من بعكا من عساكرنا لكنه سير من عنده من العساكر منها عسكر حلب

وجبلة ولادقية وشيزر وغير ذلك إلى أعمال حلب ليكونوا من أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم وكان حال المسلمين كما قال الله عز وجل (إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) فكفى الله شرهم ورد كيدهم فى نحرهم ومن شدة خوفهم أن بعض أمراء صلاح الدين كان له ببلد الموصل قرية وكان أخى رحمه الله يتولاها فحصل دخلها من حنطة وشعير وتبن فأرسل إليه فى بيع الغلة فوصل كتابه يقول لاتبع الحبة الفرد واستكثر لنا من التبن ثم بعد ذلك وصل كتابه يقول تبيع الطعام فما بنا حاجة اليه ثم إن ذلك الأمير قدم الموصل فسألناه عن المنع من بيع الغلة ثم الإذن فيها بعد مدة يسيرة فقال لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أننا ليس لنا بالشام مقام فكتبت بالمنع من بيع العلة لتكون ذخيرة لنا إذا جئنا اليكم فلما أهلكهم الله تعالى وأغنى عنها كتبت ببيعها والانتفاع بثمنها .

﴿ذكر وقعة للمسلمين والفرنج على عكا﴾ وفى هذه السنة فى العشرين من جمادى الآخرة خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم وتقدموا إلى المسلمين وهم كثير لايحصى عددهم وقصدوا نحو عسكر مصر ومقدمهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب وكان المصريون قد ركبوا واصطفوا للقاء الفرنج فالتقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانحاز المصريون عنهم ودخل الفرنج خيامهم ونهبوا أموالهم فعطف المصريون عليهم فقاتلوهم من وسط خيامهم فأخرجوهم عنها وتوجهت طائفة من المصريين نحو خنادق الفرنج فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا وكانوا متصلين كالنمل فلما انقطعت أمدادهم ألقوا بأيديهم وأخذتهم السيوف من كل ناحية فلم ينج منهم إلا الشريد وقتل منهم مقتلة عظيمة يزيد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيل وكانت عساكر الموصل قريبة من عسكر مصر وكان مقدمهم علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل فحملوا أيضا على الفرنج وبالغوا فى قتالهم ونالوا منهم نيلا كثيرا هذا جميعه ولم يباشر القتال أحد من الحلقة الخاص التى مع صلاح الدين ولا أحد من الميسرة وكان بها عماد الدين زنكى صاحب سنجار وعسكر إربل وغيرهم ولما جرى على الفرنج هذه الحادثة خمدت جمرتهم ولانت عريكتهم وأشار المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال ومناجزتهم وهم على هذه الحال من الهلع والجزع فاتفق أنه وصله من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الألمان وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسر وما صار أمرهم إليه من القلة والذلة واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من بإزائهم وظنوا أن الفرنج إذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وهنا على وهنهم وخوفا على خوفهم فلما كان بعد يومين أتت الفرنج أمداد فى البحر مع كند من الكنود البحرية يقال له الكند هرى ابن أخى ملك إفرنسيس لأبيه وابن أخى ملك إنكلتار لأمه ووصل معه من الأموال شىء كثير يفوق الإحصاء فوصل إلى الفرنج فجند الأجناد وبذل الأموال فعادت نفوسهم قوية واطمأنت وأخبرهم أن الأمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضا فتماسكوا وحفظوا مكانهم ثم أظهروا أنهم يريدون الخروج إلى لقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخروبة فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة ليتسع المجال وكانت المنزلة قد أنتنت بريح القتلى ثم الكندهرى نصب منجنيقا ودبابات وعرادات فخرج من بعكا من المسلمين فأخذوها وقتلوا عندها كثيرا من الفرنج ثم إن الكندهرى بعد أخذ منجنيقاته أراد أن ينصب منجنيقا فلم يتمكن من ذلك لأن المسلمين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمى من المنجنيق

Marfat.com

Marfat.com

فعمل تلا من تراب بالبعد من البلد ثم إن الفرنج كانوا ينقلون التل إلى البلد بالتدريج ويستترون به ويقربونه إلى البلد فلما صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق نصبوا وراءه منجنيقين وصار التل سترة لهما وكانت الميرة قد قلت بعكا فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يأمرهم بإنفاذ الأقوات واللحوم وغير ذلك فى المراكب إلى عكا وتأخر إنفاذها فسير إلى نائبه بمدينة بيروت فى ذلك فسير بطسة عظيمة مملوأة من كل مايريدونه وأمر من بها فلبسوا ملابس الفرنج وتشبهوا بهم ورفعوا عليها الصلبان فلما وصلوا إلى عكا لم يشك الفرنج انها لهم فلم يتعرضوا لها فلما حازت مينا عكا أدخلها من بها ففرح بها المسلمون وانتعشوا وقويت نفوسهم وتبلغوا بما فيها إلى ن أتتهم الميرة من الإسكندرية وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر فى نحو ألف مقاتل فأخذت بنواحى الإسكندرية وأخذ من معها ثم إن الفرنج وصلهم كتاب من بابا وهو كبيرهم الذى يصدرون عن أمره وقوله عندهم كقول النبيين لايخالف والمحروم عندهم من حرمه والمقرب من قربه وهو صاحب رومية الكبرى يأمرهم بملازمة ماهم بصدده ويعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم برا وبحرا ويعلمهم بوصول الأمداد اليهم فازدادوا قوة وطمعا.

﴿ ذكر خروج الفرنج من خنادقهم ﴾ لما تتابعت الأمداد إلى الفرنج وجند لهم الكندهرى جمعا كثيرا بالأموال التى وصلت معه عزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين فتركوا على عكا من يحصرها ويقاتل أهلها وخرجوا حادى عشر شوال فى عدد كالرمل كثرة وكالنار جمرة فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقال المسلمين إلى ميمون وهو على ثلاثة فراسخ عن عكا وكان قد عاد إليه من فرق من عساكره لما هلك ملك الألمان ولقى الفرنج على تعبية حسنة وكان أولاده الأفضل على والظاهر غازى والظافر مما يلى القلب وأخوه العادل أبو بكر فى الميمنة ومعه عساكر مصر ومن انضم إليه وكان فى الميسرة عماد الدين صاحب سنجار وتقى الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمر مع جماعة من أمرائه واتفق أن صلاح الدين أخذه مغس كان يعتاده فنصب له خيمة صغيرة على تل مشرف على العسكر ونزل فيها ينظر إليهم فسار الفرنج شرقى نهر هناك حتى وصلوا إلى رأس النهر فشاهدوا عساكر الإسلام وكثرتها فارتاعوا لذلك ولقيهم الجالشية وأمطروا عليهم من السهام ما كاد يستر الشمس فلما رأوا ذلك تحولوا إلى غربى النهر ولزمهم الجالشية يقاتلونهم والفرنج قد تجمعوا ولزم بعضهم بعضا وكان غرض الجالشية أن تحمل الفرنج عليهم فيلقاهم المسلمون ويلتحم القتال فيكون الفصل ويستريح الناس وكان الفرنج قد ندموا على مفارقة خنادقهم فلزموا مكانهم وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخندقهم والجالشية فى أكتافهم يقاتلونهم تارة بالسيوف وتارة بالرماح وتارة بالسهام وكلما قتل من الفرنج قتيل أخذوه معهم لئلا يعلم المسلمون ماأصابهم فلولا ذلك الألم الذى حدث بصلاح الدين لكانت هى الفصل وإنما لله أمر هو بالغه فلما بلغ الفرنج خندقهم ولم يكن لهم بعدها ظهور منه عاد المسلمون إلى خيامهم وقد قتلوا من الفرنج خلقا كثيرا وفى الثالث والعشرين من شوال أيضا كمن جماعة من المسلمين وتعرض للفرنج جماعة أخرى تخرج إليهم أربعمائة فارس فقاتلهم المسلمون شيئا من قتال وتطاردوا لهم وتبعهم الفرنج حتى جازوا الكمين فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد واشتد الغلاء على الفرنج حتى بلغت غرارة الحنطة أكثر من مائة دينار صورى فصبروا على هذا وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان منهم الأمير أسامة مستحفظ بيروت كان يحمل الطعام وغيره ومنهم سيف الدين

Marfat.com

على بن أحمد المعروف بالمشطوب كان يحمل من صيدا أيضا اليهم وكذلك من عسقلان وغيرها لولا ذلك لهلكوا جوعا خصوصا فى الشتاء عند انقطاع مراكبهم عند تهيج البحر .

﴿ ذكر تسيير البدل إلى عكا والتفريط فيه حتى أخذت ﴾ لما هجم الشتاء وعصفت الرياح خاف الفرنج على مراكبهم التى عندهم لأنها لم تمكن من المينا فسيروها إلى بلادهم صور والجزائر فانفتح الطريق إلى عكا فى البحر فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والملالة والسآمة وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدما على جندها فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها وإخراج من فيها وأمر أخاه الملك العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشوانى وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إليها وأخرج عوضهم فدخل إليها عشرون أميرا وكان بها ستون أميرا فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة إلى الذين خرجوا وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم وكان على خزانة ماله قوم من النصارى وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتى تارة بإقامة معرفة وتارة بغير ذلك فتفرق بهذا السبب خلق كثير وانضاف إلى ذلك توانى صلاح الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب فانحسر الشتاء والأمر كذلك وعادت مراكب الفرنج إلى عكا وانقطع الطريق إلا من سابح يأتى بكتاب وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا إلى عكا سيف الدين على بن أحمد المشطوب وعز الدين ارسل مقدم الأسدية بعد جاولى وغيرهم وكان دخولهم عكا أول سنة سبع وثمانين وكان قد أشار جماعة على صلاح الدين بأن يرسل إلى من بعكا النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة ويأمرهم بالمقام فإنهم قد جربوا وتدربوا واطمأنت نفوسهم على ماهم فيه ، فلم يفعل ، وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على الضجر والفشل ، فكان الأمر بالضد .

﴿ ذكر وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل ومسير أخيه مظفر الدين إليها ﴾ كان زين الدين يوسف بن زين الدين على صاحب إربل قد حضر عند صلاح الدين بعساكره فمرض ومات ثامن عشر شهر رمضان وذكر العماد الكاتب فى كتابه البرق الشامى قال جئنا إلى مظفر الدين نعزيه بأخيه وظننا به الحزن وليس له أخ غيره ولا ولد يشغله عنه فإذا هو فى شغل شاغل عن العزاء مهتم بالاحتياط على ماخلفه وهو جالس فى خيام أخيه المتوفى وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم وعجل عليهم وما أغفلهم منهم بلد اجى صاحب قلعة خفتيذكان وأرسل إلى صلاح الدين يطلب منه إربل لينزل عن حران والرها فأقطعه إياها وأضاف إليها شهرزور وأعمالها ودربندقرابلى وبنى قفجاق ، ولما مات زين الدين كاتب من كان بإربل مجاهد الدين قايماز لهوا منهم فيه وحسن سيرته كانت فيهم وطلبوه إليهم ليملكوه فلم يجسر هو ولا صاحبه عز الدين أتابك مسعود بن مودود على ذلك خوفا من صلاح الدين وكان أعظم الأسباب فى تركها أن عز الدين كان قد قبض على مجاهد الدين فتمكن زين الدين من إربل ثم إن عز الدين أخرج مجاهد الدين من القبض وولاه نيابته وقد ذكرنا ذلك أجمع فلما ولاه النيابة عنه لم يمكنه وجعل معه إنسانا كان من بعض غلمان مجاهد الدين فكان يشاركه فى الحكم ويحل عليه مايعقده فلحق مجاهد الدين من ذلك غيظ شديد فلما طلب إلى إربل قال لمن يثق إليه لا أفعل لئلا يحكم فيها فلان ويكف يدى عنها فجاء مظفر الدين إليها وملكها وبقى غصة فى حلق البيت الأتابكى لايقدرون على إساغتها وسنذكر ما اعتمده معهم مرة بعد أخرى إن شاء الله تعالى .

﴿ذكر ملك الفرنج مدينة شلب وعودها إلى المسلمين﴾ فى هذه السنة ملك ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الأندلس مدينة شلب وهى من كبار مدن المسلمين بالأندلس واستولى عليها فوصل الخبر بذلك إلى الأمير أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب والأندلس فتجهز فى العساكر الكثيرة وسار إلى الأندلس وعبر المجاز وسير طائفة كثيرة من عسكره فى البحر ونازلها وحصرها وقاتل من بها قتالا شديدا حتى دلوا وسألوا الأمان فأمنهم وسلموا البلد وعادوا إلى بلادهم وسير جيشا من الموحدين ومعهم جمع كثير من العرب ففتحوا أربع مدن كان الفرنج قد ملكوها قبل ذلك بأربعين سنة وفتكوا فى الفرنج فخافهم ملك طليطلة من الفرنج وأرسل يطلب الصلح فصالحه خمس سنين وعاد أبو يوسف إلى مراكش وامتنع من هذه الهدنة طائفة من الفرنج لم يرضوها ولا أمكنهم إظهار الخلاف فبقوا متوقفين حتى دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة فتحركوا وسنذكر خبرهم هناك إن شاء الله تعالى .

﴿ذكر الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه بخراسان﴾ كان سلطان شاه أخو خوارزم شاه قد تعرض إلى بلاد غياث الدين ومعز الدين ملكى الغورية من خراسان فتجهز غياث الدين وخرج من فيروزكوه إلى خراسان سنة خمس وثمانين وخمسمائة فبقى يتردد بين بلاد الطالقان وينجده ومرو وغيرها يريد حرب سلطان شاه فلم يزل كذلك إلى أن دخلت سنة ست وثمانين فجمع سلطان شاه عساكره وقصد غياث الدين فتصافا واقتتلا فانهزم سلطان شاه وأخذ غياث الدين بعض بلاده وعاد إلى غزنة .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول تسلم الخليفة الناصر لدين الله حديثة عانة وكان سير إليها جيشا حصروها سنة خمس وثمانين فقاتلوا عليها قتالا شديدا ودام الحصار وقتل من الفريقين خلق كثير فلما ضاقت عليهم الأقوات سلموها على أقطاع عينوها ووصل صاحبها وأهلها إلى بغداد وأعطوا أقطاعا ثم تفرقوا فى البلاد واشتدت الحاجة بهم حتى رأيت بعضهم وأنه يتعرض بالسؤال إلى بعض خدم الناس نعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته . وفى هذه السنة توفى مسعود بن البادر وكان مكثرا من الحديث حسن الخط خيرا ثقة . وفيها توفى أبو حامد محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزورى بالموصل كان قاضيا وقبلها ولى قضاء حلب وجميع الأعمال وكان رئيسا جوادا ذا مروأة عظيمة يرجع إلى دين وأخلاق[1]

﴿ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة﴾

﴿ذكر حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول سار أتابك عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكى صاحب الموصل إلى جزيرة ابن عمر فحصرها وكان بها صاحبها سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود وهو ابن أخى عز الدين وكان سبب حصره أن سنجر شاه كان كثير الأذى لعمه عز الدين والشناعة عليه والمراسلة إلى صلاح الدين فى حقه تارة يقول إنه يريد قصد بلادك وتارة يقول إنه يكاتب

---

(١) وفيها فى اليوم السابع من ذى الحجة سقطت ثلمة عظيمة من سور عكا ، فبادر الفرنج إليها فسبقهم المسلمون إلى سدها بصدورهم ، وقاتلوا دونها بنحورهم ، ومازالوا يمانعون عنها حتى بنوها أشد مما كانت ، وأقوى وأحسن وقع فى هذه السنة وباء عظيم فى المسلمين والكافرين ، فكان السلطان يقول فى ذلك :

اقتلونى ومالكا ٭ واقتلوا مالكا معى

Marfat.com

أعداءك ويحثهم على قصدك إلى غير ذلك من الامور المؤذية وعز الدين يصبر على ما يكره لأمور تارة للرحم وتارة خوفا من تسليمها إلى صلاح الدين فلما كان فى السنة الماضية سار صاحبها إلى صلاح الدين وهو على عكا فى جملة من سار من أصحاب الأطراف ؛ وأقام عنده قليلا وطلب دستورا للعود إلى بلده فقال له صلاح الدين عندنا من أصحاب الأطراف جماعة منهم عماد الدين صاحب سنجار وغيرها وهو أكبر منك ومنهم ابن عمك عز الدين وهو أصغر منك وغيرهم ومتى فتحت هذا الباب اقتدى بك غيرك فلم يلتفت إلى قوله وأصر على ذلك وكان عند صلاح الدين جماعة من أهل الجزيرة يستغيثون على سنجر شاه لأنه ظلمهم وأخذ أموالهم وأملاكهم فكان يخافه لهذا ولم يزل فى طلب الإذن فى العود إلى البلد إلى عيد الفطر من سنة ست وثمانين فركب تلك الليلة سنجرشاه وجاء إلى خيمة صلاح الدين وأذن لأصحابه فى المسير فساروا بالأثقال وبقى جريدة فلما وصل إلى خيمة صلاح الدين أرسل يطلب الإذن وكان صلاح الدين قد بات محموما وقد عرق فلم يمكن أن يأذن له فبقى كذلك مترددا على باب خيمته إلى أن أذن له فلما دخل عليه هناه بالعيد وأكب عليه يودعه فقال له ما علمنا بصحة عزمك على الحركة فتصبر علينا حتى نرسل ماجرت به العادة فما يجوز أن تنصرف عنا بعد مقامك عندنا على هذا الوجه فلم يرجع وودعه وانصرف وكان تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين قد أقبل من بلده حماة فى عسكره فكتب إليه صلاح الدين يأمره بإعادة سنجرشاه طوعا أو كرها فحكى له عن تقى الدين أنه قال مارأيت مثل سنجرشاه لقيته بعقبة فيق فسألته عن سبب انصرافه فغالطنى فقلت له سمعت بالحال ولا يليق أن تنصرف بغير تشريف السلطان وهديته فيضيع تعبك وسألته العود فلم يصغ إلى قولى فكلمنى كأننى بعض مماليكه فلما رأيت ذلك منه قلت له إن رجعت بالتى هى أحسن وإلا أعدتك كارها فنزل عن دابته وأخذ ذيلى وقال قد استجرت بك وجعل يبكى فعجبت من حماقته أولا وذلته ثانيا فعاد معى فلما عاد بقى عند صلاح الدين عشرة أيام وكتب صلاح الدين إلى عز الدين أتابك يأمره بقصد الجزيرة ومحاصرتها وأخذها وأنه يرسل إلى طريق سنجرشاه ليقبض عليه إذا عاد فخاف عز الدين أن صلاح الدين قد فعل ذلك مكيدة ليشنع عليه بنكث العهد فلم يفعل شيئا من ذلك بل أرسل إليه يقول أريد خطك بذلك ومنشورا منك بالجزيرة فترددت الرسل فى ذلك إلى أن انقضت سنة ست وثمانين فاستقرت القاعدة بينهما فسار عز الدين إلى الجزيرة فحصرها أربعة أشهر وأياما آخرها شعبان ولم يملكها بل استقرت القاعدة بينه وبين سنجرشاه على يد رسول صلاح الدين فإنه كان قد أرسل بعد قصدها يقول إن صاحب سنجار وصاحب إربل وغيرهما قد شفعا فى سنجرشاه فاستقر الصلح على أن لعز الدين نصف أعمال الجزيرة ولسنجرشاه نصفها وتكون الجزيرة بيد سنجرشاه من جملة النصف وعاد عز الدين إلى الموصل وكان صلاح الدين بعد ذلك يقول ما قيل لى عن أحد شىء من الشر فرأيته إلا كان دون ما يقال فيه إلا سنجرشاه فإنه كان يقال لى عنه أشياء استعظمتها فلما رأيته صغر فى عينى ما قيل .

﴿ ذكر عبور تقى الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومسيره إلى خلاط وموته ﴾

فى هذه السنة فى صفر سار تقى الدين من الشام إلى البلاد الجزرية حران والرها كان قد أقطعه اياها عمه صلاح الدين بعد أخذها من مظفر الدين مضافا إلى ما كان له بالشام وقرر معه أنه يقطع البلاد للجند ويعودوهم معه ليتقوى بهم على الفرنج فلما عبر الفرات وأصلح حال البلاد سار إلى ميافارقين وكانت له فلما بلغها تجدد له طمع فى غيرها

Marfat.com

من البلاد المجاورة لها فقصد مدينة حانى من ديار بكر فحصرها وملكها وكان فى سبعمائة فارس فلما سمع سيف الدين بكتمر صاحب خلاط بملكه حانى جمع عساكره وسار إليه فاجتمعت عساكره أربعة آلاف فارس فلما التقوا اقتتلوا فلم يثبت عسكر خلاط لتقى الدين بل انهزموا وتبعهم تقى الدين ودخل بلادهم وكان بكتمر قد قبض على مجد الدين بن رشيق وزير صاحبه شاه أرمن وسجنه فى قلعة هناك فلما انهزم كتب إلى مستحفظ القلعة يأمره بقتل ابن رشيق فوصل القاصد وتقى الدين قد نازل القلعة فأخذ الكتاب وملك القلعة وأطلق ابن رشيق وسار إلى خلاط فحصرها ولم يكن فى كثرة من العسكر فلم يبلغ منها غرضا فعاد عنها وقصد ملازكرد وحصرها وضيق على من بها وطال مقامه عليها فلما ضاق عليهم الأمر طلبوا منه المهلة أياما ذكروها فأجابهم إليها ومرض تقى الدين فمات قبل انقضاء الأجل بيومين وتفرقت العساكر عنها وحمله ابنه وأصحابه ميتا إلى ميافارقين وعاد بكتمر قوى أمره وثبت ملكه بعد أن أشرف على الزوال وهذه الحادثة من الفرج بعد الشدة فإن ابن رشيق نجا من القتل وبكتمر نجا من أن يؤخذ.

﴿ ذكر وصول الفرنج من الغرب فى البحر إلى عكا ﴾ وفى هذه السنة وصلت أمداد الفرنج فى البحر إلى الفرنج الذين على عكا وكان أول من وصل منهم الملك فليب ملك افرنسيس وهو من أشرف ملوكهم نسبا وإن كان ملكه ليس بالكثير وكان وصوله إليها ثانى عشر ربيع الأول ولم يكن فى الكثرة التى ظنوها وإنما كان معه ست بطس كبار عظيمة فقويت به نفوس من على عكا منهم ولحوا فى قتال المسلمين الذين فيها وكان صلاح الدين بشفرعم فكان يركب كل يوم ويقصد الفرنج ليشغلهم بالقتال عن مزاحفة البلد وأرسل إلى الأمير أسامة مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من الشوانى والمراكب وتشحينها بالمقاتلة وتسييرها فى البحر ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا ففعل ذلك وسير الشوانى فى البحر فصادفت خمسة مراكب مملوأة رجالا من أصحاب ملك إنكلتار الفرنج وكان قد سيرهم بين يديه وتأخر هو بجزيرة قبرس ليملكها فاقتتلت شوانى المسلمين مع مراكب الفرنج فاستظهر المسلمون عليهم وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال وكتب أيضا صلاح الدين إلى من بالقرب من النواب له يأمرهم بمثل ذلك ففعلوا وأما الفرنج الذين على عكا فانهزم لازموا قتال من بها ونصبوا عليها سبع منجنيقات رابع جمادى الأولى فلما رأى صلاح الدين ذلك تحول من شفرعم ونزل عليهم لئلا يتعب العسكر كل يوم فى المجىء إليهم والعود عنهم فقرب منهم وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عمن بالبلد ثم وصل ملك إنكلتار ثالث عشر جمادى الأولى وكان قد استولى فى طريقه على جزيرة قبرس وأخذها من الروم فإنه لما وصل إليها غدر بصاحبها وملكها جميعا فكان ذلك زيادة فى ملكه وقوة للفرنج فلما فرغ منها سار عنها إلى من على عكا من الفرنج فوصل إليهم فى خمس وعشرين قطعة كبارا مملوأة رجالا وأموالا فعظم به شر الفرنج واشتدت نكايتهم فى المسلمين وكان رجل زمانه شجاعة ومكرا وجلدا وصبرا وبلى المسلمون منه بالداهية التى لا مثل لها ولما وردت الأخبار بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز بسطة كبيرة مملوأة من الرجال والعدد والأقوات فتجهزت وسيرت من بيروت. وفيها سبعمائة مقاتل؛ فلقيها ملك إنكلتار مصادفة؛ فقاتلها وصبر من فيها على قتالها فلما أيسوا من الخلاص ونزل مقدم من بها إلى أسفلها وهو يعقوب الحلبى مقدم الجندارية يعرف بغلام ابن شقتين فخرقها خرقا واسعا لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع

Marfat.com

مافيها وكانت عكا محتاجة إلى رجال لما ذكرناه من سبب نقصهم ثم إن الفرنج عملوا دبابات وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الكباش فلما رأى الفرنج أن ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيرا من التراب مستطيلا ومازالوا يقربونه إلى البلد ويقاتلون من ورائه لاينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف علوه فكانوا يستظلون به ويقاتلون من خلفه فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يقدر لهم على نفع

﴿ ذكر ملك الفرنج عكا ﴾ فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة استولى الفرنج لعنهم الله على مدينة عكا وكان أول وهن دخل على من بالبلد أن الأمير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدة من الأمراء كان هو أمثلهم وأكبرهم فخرج إلى ملك افرنسيس وبذل تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم فلم يجبه إلى ذلك فعاد على بن أحمد إلى البلد فوهن من فيه وضعت نفوسهم وتخاذلوا وأهمتهم أنفسهم ثم إن أميرين ممن كان بعكا لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب والفرنج لم يجيبوا إلى الأمان اتخذوا الليل جملا وركبوا فى شىء صغير وخرجوا سرا من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين وهم عزالدين أرسل الأسدى وابن عزالدين جاولى وسنقر الوشاقى ومعهم غيرهم فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهنا إلى وهنهم وضعفا إلى ضعفهم وأيقنوا بالعطب ثم إن الفرنج أرسلوا إلى صلاح الدين فى معنى تسليم البلد فأجابهم إلى ذلك والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من فى البلد ليطلقوا هم من بعكا وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فأرسل إلى من بعكا من المسلمين يأمرهم أن يخرجوا من عكا يدا واحدة ويتركوا البلد بما فيه ووعدهم أنه يتقدم إلى تلك الجهة التى يخرجون منها بعساكره ويقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به فشرعوا فى ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح فبطل ماعزموا عليه لظهوره فلما عجز الناس من حفظ البلد زحف إليهم الفرنج بحدهم وحديدهم فظهر من بالبلد على سوره يحركون أعلامهم ليراها المسلمون وكانت هى العلامة إذا اخترمهم أمر فلما رأى المسلمون ذلك ضجوا بالبكاء والعويل وحملوا على الفرنج من جميع جهاتهم طلبا منهم أن الفرنج يشتغلون عن الذين بعكا وصلاح الدين يحرضهم وهو فى أولهم وكان الفرنج قدخفوا عن خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد فقرب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها عليهم ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الفرنج ومنعوا المسلمين وتركوا فى مقابلة من بالبلد من يقاتلهم فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين لايقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضرا خرج إلى الفرنج وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتى ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين ، وإعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار البركيس صاحب صور فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه وأن يكون مدة تحصيل المال والأسرى إلى شهرين فلما حلفوا له سلم البلد إليهم ودخلوه سلما فلما ملكوه غدروا واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم مابذل لهم وراسلوا صلاح الدين فى إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم فشرع فى جمع المال وكان هو الأمان له إنما يخرج مايحصل إليه من دخل البلاد أولا بأول فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينار جمع الأمراء واستشارهم فأشاروا بأن لايرسل شيئا حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه وأن يضمن

الداوية ذلك لأنهم أهل دين يرون الوفاء فراسلهم صلاح الدين فى ذلك فقال الداوية لانحلف ولا نضمن لأننا نخاف غدر من عندنا وقال ملوكهم إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل إليهم شيئا وأعاد الرسالة إليهم وقال نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهنا على الباقى وتطلقون أصحابنا وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم فقالوا لانحلف إنما نرسل المائة ألف دينار التى حصلت والأسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجىء باقى المال فعلم الناس حينئذ غدرهم وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لايؤبه له ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال ويطلبون منهم الفداء فلم يجبهم السلطان إلى ذلك فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب ركب الفرنج وخرجوا إلى ظاهر البلد بالفارس والراجل وركب المسلمون إليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقفهم وإذ أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لامال له فلما رأى صلاح الدين ذلك تصرف فى المال الذى كان جمعه وسير الأسرى والصليب إلى دمشق .

﴿ذكر رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها﴾ لما فرغ الفرنج لعنهم الله من إصلاح أمر عكا برزوا منها فى الثامن والعشرين من رجب وساروا مستهل شعبان نحو حيفا مع شاطىء البحر لايفارقونه فلما سمع صلاح الدين برحيلهم نادى فى عسكره بالرحيل فساروا وكان على اليزك ذلك اليوم الملك الأفضل ولد صلاح الدين ومعه سيف الدين إيازكوش وعز الدين جورديك وعدة من شجعان الأمراء فضايقوا الفرنج فى مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كان يحجب الشمس ووقعوا على ساقة الفرنج فقتلوا منها جماعة وأسروا جماعة وأرسل الأفضل إلى والده يستمده ويعرفه الحال فأمر العساكر بالمسير إليه فاعتذروا بأنهم ماركبوا بأهبة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لاغير فبطل المدد وعاد الملك الإنكلتار إلى ساقة الفرنج فحماها وجمعهم وساروا حتى أتوا حيفا فنزلوا بها ونزل المسلمون بقيمون قرية بالقرب منهم وأحضر الفرنج من عكا عوض من قتل منهم وأسر ذلك اليوم وعرض ماهلك من الخيل ثم ساروا إلى قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم من قدروا عليه فيقتلونه لأن صلاح الدين كان قد أقسم أنه لايظفر بأحد منهم إلا قتله بمن قتلوا ممن كان بعكا فلما قاربوا قيسارية لاصقهم المسلمون وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلا كثيرا ونزل الفرنج بها وبات المسلمون قريبا منهم فلما نزلوا خرج من الفرنج جماعة فأبعدوا عن جماعتهم فأوقع بهم المسلمون الذين كانو فى اليزك فقتلوا منهم وأسروا منهم ثم ساروا من قيسارية إلى أرسوف وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة ألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فلما رأى الفرنج ذلك اجتمعوا وحملت الخيالة على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوى أحد على أحد وكان كثير من الخيالة والسوقة قد ألفوا القيام وقت الحرب قريبا من المعركة فلما كان ذلك اليوم كانوا على حالهم فلما انهزم المسلمون عنهم قتل منهم كثير والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين فلو علم الفرنج أنها هزيمة لتبعتهم واشتهرت الهزيمة وهلك المسلمون لكن كان بالقرب من المسلمين شعرة كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الفرنج مكيدة فعادوا وزال عنهم ما كانوا فيه من الضيق وقتل من الفرنج كند كبير

Marfat.com

Marfat.com

من طواغيتهم وقتل من المسلمين مملوك لصلاح الدين اسمه اياز الطويل وهو من الموصوفين بالشجاعة والشهامة لم يكن فى زمانه مثله فلما نزل الفرنج نزل المسلمون واعتنة خيلهم بأيديهم ثم سار الفرنج إلى يافا فنزلوها ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها ولما كان من المسلمين بأرسوف من الهزيمة ماذكرناه سار صلاح الدين عنهم إلى الرملة واجتمع بأثقاله بها وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بتخريب عسقلان وقالوا له قد رأيت ما كان منا بالأمس وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ووقفنا فى وجوههم نصدهم عنها فهم لاشك يقاتلوننا النزاح عنها ويزلزلوا عليها وإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا ويعظم الأمر علينا الآن العدو قد قوى بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها ونحن قد ضعفنا بما خرج من أيدينا ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها فلم تسمح نفسه بتخريبها وندب الناس إلى دخولها وحفظها فلم يجبه أحد إلى ذلك وقالوا إن أردت حفظها فادخل أنت معنا أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا فلما رأى الأمر كذلك سار إلى عسقلان وأمر بتخريبها تاسع عشر شعبان وألقيت حجارتها فى البحر وهلك فيها من الأموال والذخائر التى للسلطان والرعية مالا يمكن حصره وعفى اثرها حتى لا يبقى للفرنج فى قصدها مطمع ولما سمع الفرنج بتخريبها أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها وكان المركيس لعنه الله لما أخذ الفرنج عكا قد أحس من ملك إنكلتار بالغدر به فهرب من عنده إلى مدينة صور وهى له وبيده وكان رجل الفرنج رأيا وشجاعة وكل هذه الحروب هو أثيرها فلما خربت عسقلان أرسل إلى ملك إنكلتار يقول له مثلك لا ينبغى أن يكون ملكا ويتقدم على الجيوش تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك ياجاهل لما بلغك أنه قد شرع فى تخريبها كنت سرت إليه بجدا فرحلته وملكتها صفوا عفوا بغير قتال ولا حصار فإنه ماخربها إلا وهو عاجز عن حفظها وحق المسيح لو أننى معك كانت عسقلان اليوم بأيدينا لم يخرب منها غير برج واحد فلما خربت عسقلان رحل صلاح الدين عنها ثانى شهر رمضان ومضى إلى الرملة فخرب حصنها وخرب كنيسة لد وفى مدة مقامه لتخريب عسقلان كانت العساكر مع الملك العادل أبى بكر بن أيوب تجاه الفرنج ثم سار صلاح الدين إلى القدس بعد تخريب الرملة فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر وقرر قواعده وأسبابه وما يحتاج اليه وعاد إلى المخيم ثامن رمضان وفى هذه الأيام خرج ملك إنكلتار من يافا ومعه نفر من الفرنج من معسكرهم فوقع به نفر من المسلمين فقاتلوهم قتالا شديدا وكاد ملك إنكلتار يؤسر ففداه بعض أصحابه بنفسه فتخلص الملك وأسر ذلك الرجل وفيها أيضا كانت وقعة بين طائفة من المسلمين وطائفة من الفرنج انتصر فيها المسلمون،

﴿ذكر رحيل الفرنج إلى نطرون﴾ لما رأى صلاح الدين أن الفرنج قد لزموا يافا ولم يفارقوها وشرعوا فى عمارتها رحل من منزلته إلى النطرون ثالث عشر رمضان وخيم به فراسله ملك إنكلتار يطلب المهادنة فكانت الرسل تتردد إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب أخى صلاح الدين فاستقرت القاعدة أن ملك إنكلتار يزوج أخته من العادل ويكون القدس وما بأيدى المسلمين من بلاد الساحل للعادل ويكون عكا وما بيد الفرنج من البلاد لأخت إنكلتار مضافا إلى مملكة كانت لها داخل البحر قد ورثتها من زوجها وأن يرضى الداوية بما يقع الاتفاق عليه فعرض العادل ذلك على صلاح الدين فأجاب اليه فلما ظهر الخبر اجتمع القسيسون والأساقفة والرهبان إلى أخت إنكلتار وأنكروا عليها فامتنعت من الإجابة وقيل كان المانع منه غير ذلك والله أعلم وكان العادل وملك إنكلتار يجتمعان بعد ذلك ويتجاريان حديث الصلح وطلب من العادل أن يسمعه

غناء المسلمين فأحضر له مغنية تضرب بالجنك فغنت له فاستحسن ذلك ولم يتم بينهما صلح وكان ملك إنكلتار يفعل ذلك خديعة ومكرا ثم إن الفرنج أظهروا العزم على قصد بيت المقدس فسار صلاح الدين إلى الرملة جريدة وترك الأثقال بالنطرون وقرب من الفرنج وبقى عشرين يوما ينتظرهم فلم يبرحوا فكان بين الطائفتين مدة المقام عدة وقعات فى كلها ينتصر المسلمون على الفرنج وعاد صلاح الدين إلى النطرون ورحل الفرنج من يافا إلى الرملة ثالث ذى القعدة على عزم قصد البيت المقدس فقرب بعضهم من بعض فعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت فى العسكرين باللقاء فلقوا من ذلك شدة شديدة وأقبل الشتاء وحالت الأحوال والأمطار بينهما .

﴿ذكر مسير صلاح الدين إلى القدس﴾ لما رأى صلاح الدين أن الشتاء قد هجم والأمطار متوالية متتابعة والناس منها فى ضنك وحرج ومن شدة البرد ولبس السلاح والسهر فى تعب دائم وكان كثير من العساكر قد طال بيكارها فأذن لهم فى العود إلى بلادهم للاستراحة والإراحة وسار هو إلى البيت المقدس فيمن بقى معه فنزلوا جميعا داخل البلد فاستراحوا مما كانوا فيه ونزل هو بدار الأقصى مجاور بيعة قمامة وقدم اليه عسكر مصر مقدمهم الأمير أبو الهيجاء السمين فقويت نفوس المسلمين بالقدس وسار الفرنج من الرملة إلى النطرون ثالث ذى الحجة على عزم قصد القدس فكانت بينهم وبين يزك والمسلمين وقعات أسر المسلمين فى وقعة منها نيفا وخمسين فارسا من مشهورى الفرنج وشجعانهم وكان صلاح الدين لما دخل القدس أمر بعمارة سوره وتجديد ما درث منه فأحكم الموضع الذى ملك البلد منه وأتقنه وأمر بحفر خندق خارج الفصيل وسلم كل برج إلى أمير يتولى عمله فعمل ولده الأفضل من ناحية باب عمود إلى باب الرحمة وأرسل أتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل جماعة من الجصاصين لهم فى قطع الصخر اليد الطولى فعملوا له هناك برجا وبدنة وكذلك جميع الأمراء ثم إن الحجارة قلت عند العاملين فكان صلاح الدين رحمه الله يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة فيقتدى به العسكر فكان يجمع عنده من العاملين فى اليوم الواحد من يعملون قدر عدة أيام .

﴿ذكر عود الفرنج إلى الرملة﴾ فى العشرين من ذى الحجة عاد الفرنج إلى الرملة وكان سبب عودهم أنهم كانوا ينقلون ما يريدونه من الساحل فلما أبعدوا عنه كان المسلمون يخرجون على من يجلب لهم الميرة فيقطعون الطريق ويغنمون ما معهم ثم إن ملك إنكلتار قال لمن معه من الفرنج الشاميين صوّروا لى مدينة القدس فإنى ما رأيتها فصوروها له فرأى الوادى يحيط بها ما عدا موضعا يسيرا من جهة الشمال فسأل عن الوادى وعن عمقه فأخبر أنه عميق وعر المسالك فقال هذه مدينة لا يمكن حصرها مهما كان صلاح الدين حيا وكلمة المسلمين مجتمعة لأننا إن نزلنا فى الجانب الذى يلى المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة فيدخل إليهم منها الرجال الذخائر وما يحتاجون إليه وإن نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادى وبعضنا من الجانب الآخر جمع صلاح الدين أصحابه وواقع إحدى الطائفتين ولم يكن للطائفة الأخرى أبجاد أصحابهم لأنهم إن فارقوا مكانهم خرج من بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه وإن تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم فإلى أن يتخلصوا من الوادى ويلحقوا بهم قد فرغ صلاح الدين منهم هذا سوى ما يتعذر علينا من إيصال ما يحتاج إليه من العلوفات والأقوات فلما قال لهم ذلك علموا صدقه ورأوا قلة الميرة عندهم وما يجرى للجالبين لها من المسلمين فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة فعادوا خائبين خاسرين .

Marfat.com

Marfat.com

﴿ذكر قتل قزل أرسلان﴾ فى شعبان من هذه السنة قتل قزل أرسلان واسمه عثمان بن أيلدكز وقد ذكرنا أنه ملك البلد بعد وفاة أخيه البهلوان ملك أران وأذربيجان وهمذان وأصفهان والرى وما بينهما وأطاعه صاحب فارس وخوزستان واستولى على السلطان طغرل فاعتقله فى بعض القلاع ودانت له البلاد وفى آخر أمره سار إلى أصفهان والفتن بها متصلة من لدن توفى البهلوان إلى ذلك الوقت فتعصب على الشافعية وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم وعاد إلى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة وضرب النوب الخمس ثم إنه دخل ليلة قتل إلى منزله لينام وتفرق أصحابه فدخل إليه من قتله على فراشه ولم يعرف قاتله فأخذ أصحابه صاحب بابه ظنا وتخمينا وكان كريما حسن الأخلاق يحب العدل ويؤثره ويرجع إلى حلم وقلة عقوبة.

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة قدم معزالدين قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم على صلاح الدين فى رمضان، وكان سبب قدومه أن والده عز الدين قلج أرسلان فرق مملكته على أولاده، وأعطى ولده هذا ملطية، وأعطى ولده قطب الدين ملكشاه سيواس، فاستولى قطب الدين على أبيه، وحجر عليه وأزال حكمه وألزمه أن يأخذ ملطية من أخيه وسلمها إليه فخاف معزالدين فسار الى صلاح الدين ملتجئا إليه معتضدا به، فأكرمه صلاح الدين وزوجه بابنة أخيه الملك العادل، فامتنع قطب الدين من قصده وعاد معزالدين إلى ملطية فى ذى القعدة وحدثنى من أثق به قال: رأيت صلاح الدين وقد ركب ليودع هذا معزالدين فترجل له معز الدين وترجل صلاح الدين وودعه راجلا فلما أراد الركوب عضده هذا معزالدين وركب وسوى ثيابه علاء الدين خرمشاه بن عزالدين صاحب الموصل، قال فعجبت من ذلك، وقلت ما تبالى يا ابن أيوب أى موتة تموت يركبك ملك سلجوقى وابن أتابك زنكى. وفيها توفى حسام الدين محمد بن عمر ابن لاجين وهو ابن أخت صلاح الدين وعلم الدين سليمان بن جندر وهو من أكابر أمراء صلاح الدين أيضا. وفى رجب توفى الصفى بن القابض وكان متولى دمشق لصلاح الدين يحكم فى جميع بلاده (١).

﴿ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة﴾

﴿ذكر عمارة الفرنج عسقلان﴾ فى هذه السنة فى المحرم رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا فى عمارتها وكان صلاح الدين بالقدس فسار ملك إنكلتار جريدة من عسقلان إلى يزك المسلمين فواقعهم وجرى بين الطائفتين قتال شديد انتصف بعضهم من بعض وفى مدة مقام صلاح الدين بالقدس ما برحت سراياه تقصد

(١) وفى هذه السنة توفى الأمير علم الدين سليمان بن حيدر الحلبى كان من أكابر الدولة الصلاحية، وفى خدمة السلطان حيث كان، وهو الذى أشار على السلطان بتخريب عسقلان، واتفق مرضه بالقدس فاستأذن فى أن يمرض بدمشق، فأذن له، فسار منها فلما وصل إلى غباغب مات بها فى أواخر ذى الحجة وفى رجب منها توفى الأمير الكبير نائب دمشق. وفيها أيضا توفى الطبيب الماهر أسعد بن المطران وقد شرف بالإسلام، وشكره على طبه الخاص والعام وفيها أيضا توفى الجيوشانى الشيخ نجم الدين الذى بنى تربة الشافعى بمصر بأمر السلطان صلاح الدين، ووقف عليها أوقافا سنية، وولاه تدريسها ونظرها، وقد كان السلطان يحترمه ويكرمه، وقد ذكرته فى طبقات الشافعية، وما صنفه فى المذهب من شرح الوسيط وغيره. ولما توفى الجيوشانى طلب التدريس جماعة فشفع الملك العادل عند أخيه فى شيخ الشيوخ أبى الحسن محمد بن حمويه، فولاه إياه، ثم عزله عنها بعد موت السلطان، واستمرت عليه أيدى بنى السلطان واحداً بعد واحد، ثم عادت إليها الفقهاء والمدرسون بعد ذلك،

Marfat.com

الفرنج فتارة تواقع طائفة منهم وتارة تقطع الميرة عنهم ومن جملتها سرية كان مقدمها فارس الدين ميمون القصرى وهو من مقدمى المماليك الصلاحية خرج على قافلة كبيرة للفرنج فأخذها وغنم مافيها .

﴿ ذكر قتل المركيس وملك الكندهرى ﴾ فى هذه السنة فى ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس الفرنجى لعنه الله صاحب صور وهو أكبر شياطين الفرنج وكان سبب قتله أن صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيلية وهو سنان أن أرسل من يقتل ملك إنكلتار وإن قتل المركيس فله عشرة آلاف دينار فلم يمكنهم قتل ملك إنكلتار ولم ير سنان مصلحة لهم لئلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ لهم وشره فى أخذ المال فعدل إلى قتل المركيس فأرسل رجلين فى زى الرهبان واتصلا بصاحب صيدا وابن بارزان صاحب رملة وكانا مع المركيس بصور فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة فانس بهما المركيس ووثق إليهما فلما كان بعد التاريخ عمل الأسقف بصور دعوة المركيس فحضرها وأكل طعامه وشرب مدامه وخرج من عنده فوثب عليه الباطنيان المذكوران فجرحاه جراحا وثيقة وهرب أحدهما ودخل كنيسة يختفى فيها فاتفق أن المركيس حمل إليها ليشد جراحه فوثب عليه ذلك الباطنى فقتله وقتل الباطنيان بعده ونسب الفرنج قتله إلى وضع من ملك إنكلتار لينفرد بملك الساحل الشامى فلما قتل ولى بعده مدينة صور كند من الفرنج من داخل البحر يقال له الكندهرى وتزوج بالملكة فى ليلته ودخل بها وهى حامل وليس الحمل عندهم مما يمنع النكاح وهذا الكندهرى هو ابن أخت ملك إفرنسيس من أبيه وابن أخت ملك إنكلتار من أمه وملك هذا كندهرى بلاد الفرنج بالساحل بعد عود ملك إنكلتار وعاش إلى سنة أربع وتسعين وخمسمائة فسقط من سطح فمات وكان عاقلا كثير المداراة والاحتمال ولما رحل ملك إنكلتار إلى بلاده أرسل هذا كندهرى إلى صلاح الدين يستعطفه ويستميله يطلب منه خلعة وقال أنت تعلم أن لبس القباء والشربوش عندنا عيب وأنا ألبسهما منك محبة لك فأنفذ إليه خلعة سنية منها القباء والشربوش فلبسهما بعكا .

﴿ ذكر نهب بنى عامر البصرة ﴾ فى هذه السنة فى صفر اجتمع بنو عامر فى خلق كثير وأميرهم عميرة وقصدوا البصرة وكان الأمير بها اسمه محمد بن اسمعيل ينوب عن مقطعها الأمير طغرل مملوك الخليفة الناصر لدين الله فوصلوا اليها يوم السبت سادس صفر فخرج اليهم الأمير محمد فيمن معه من الجند فوقعت الحرب بينهم بدرب الميدان بجانب الخريبة ودام القتال إلى آخر النهار فلما جاء الليل ثلم العرب فى السور عدة ثلم ودخلوا البلد من الغد فقاتلهم أهل البلد فقتل بينهم قتلى كثيرة من الفريقين ونهبت العرب الخانات بالشاطىء وبعض محال البصرة وعبر أهلها إلى شاطىء الملاحين وفارق العرب البلد فى يومهم وعاد أهله اليه وكان سبب سرعة العرب فى مفارقة البلد أنهم بلغهم أن خفاجة والمنتفق قد قاربوهم فساروا اليهم وقاتلوهم أشد قتال فظفرت عامر وغنمت أموال خفاجة والمنتفق وعادوا إلى البصرة بكرة الاثنين وكان الأمير قد جمع من أهل البصرة والسواد جمعا كثيرا فلما عادت عامر قاتلهم أهل البصرة ومن اجتمع معهم فلم يقوموا للعرب وانهزموا ودخل العرب البصرة ونهبوها وفارق البصرة أهلها ونهبت أموالهم وجرت أمور عظيمة ونهبت القساطل وغيرها يومين وفارقها العرب وعاد أهلها اليها وقد رأيت هذه القصة بعينها فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة والله أعلم .

﴿ ذكر ما كان من ملك إنكلتار ﴾ فى تاسع جمادى الأولى من هذه السنة استولى الفرنج على حصن الداروم فخربوه ثم ساروا إلى البيت المقدس وصلاح الدين فيه فبلغوا بيت نوبة وكان سبب طمعهم أن صلاح

Marfat.com

نشاط إلى هذا ولا إلى غيره ودخل داره وتوفى بعد أيام وأصيب أهل بلاده بموته وعظم عليهم فقده وكان محبوبا إليهم قريبا من قلوبهم ففى كل دار لأجله رنة وعويل ولما حضرته الوفاة أوصى بالملك لولده الأكبر نورالدين أرسلان شاه وعمره نحو عشر سنين وجعل الوصى عليه والمدبر لدولته بدرالدين لؤلؤ وهو الذى كان يتولى دولة القاهر ودولة أبيه نورالدين قبله وقد تقدم من أخباره مايعرف به محله وسيرد منها أيضا مايزيد الناظر بصيرة فيه فلما قضى نحبه قام بدر الدين بأمر نورالدين أجله فى مملكة أبيه وأرسل إلى الخليفة يطلب له التقليد والتشريف وأرسل إلى الملوك وأصحاب الأطراف المجاورين لهم يطلب تجديد العهد لنورالدين على القاعدة التى كانت بينهم وبين أبيه فلم يصبح إلا وقد فرغ من كل مايحتاج إليه وجلس للعزاء وحلف الجند والرعايا وضبط المملكة من التزلزل والتغير مع صغر السلطان وكثرة الطامعين فى الملك فإنه كان معه فى البلد أعمام أبيه وكان معه عمادالدين زنكى بن أرسلان شاه بولايته وهى قلعة عقرالحميدية يحدث نفسه بالملك لايشك فى أن الملك يصير إليه بعد أخيه فرفع بدر الدين دلك الخرق ورتق ذلك الفتق وتبع الإحسان والخلع على كافة الناس وغير ثياب الحداد عنهم فلم يخص بذلك شريفا دون مشروف ولا كبيرا دون صغير وأحسن السيرة وجلس لكشف ظلامات الناس وإنصاف بعضهم من بعض وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية ولبدر الدين بالنظر فى أمر دولته والتشريفات لهما أيضا وأتتهم رسل الملوك بالتعزية وبذل ماطلب منهم من العهود واستقرت القواعد لهما .

﴿ذكر ملك عماد الدين زنكى قلاع الهكارية والزوزان﴾ قد ذكرنا عند وفاة نور الدين سنة سبع وستمائة أنه أعطى ولده الأصغر زنكى قلعتى العقروشوش وهما بالقرب من الموصل فكان تارة يكون بالموصل وتارة بولايته متجنيا لكثرة تلونه وكان بقلعة العمادية مستحفظ من مماليك جده عز الدين مسعود بن مودود قيل إنه جرى له مع زنكى مراسلات فى معنى تسليم العمادية اليه فنمى الخبر بذلك إلى بدرالدين فبادره بالعزل مع أمير كبير وجماعة من الجند لم يمكنه الامتناع وسلم القلعة إلى نائب بدر الدين كذلك وجعل بدر الدين فى غير العمادية من القلاع نوابا له وكان نور الدين بن القاهر لا يزال مريضا من جروح كانت به وغيرها من الأمراض وكان يبقى المدة الطويلة لايركب ولا يظهر للناس فأرسل زنكى إلى من بالعمادية من الجند يقول إن ابن أخى توفى ويريد بدر الدين يملك البلاد وأنا أحق بملك آبائى وأجدادى فلم يزل حتى استدعاه الجند منها وسلموا اليه ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة وستمائة وقبضوا على النائب البدرى وعلى من معه فوصل الخبر إلى بدرالدين ليلا فجد فى الأمر ونادى فى العسكر لوقته بالرحيل فساروا مجدين إلى العمادية وحصروها وكان الزمان شتاء والبرد شديد والثلج هناك كثير فلم يتمكنوا من القتال من بها لكنهم أقاموا يحصرونها وقام مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين صاحب إربل فى نصر عماد الدين وتجرد لمساعدته فراسله بدر الدين يذكره الأيمان والعهود التى من جملتها أنه لايتعرض إلى شىء من أعمال الموصل ومنها قلاع الهكارية والزوزان باسمائها ومتى تعرض اليها أحد من الناس من كان منعه بنفسه وعساكره وأعان نور الدين وبدرالدين على منعه ويطالبه بالوفاء بها ثم نزل عن هذا ورضى منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم فلم يفعل وأظهر معاضدة عماد الدين زنكى فحينئذ لم تكن مكاثرة زنكى بالرجال والعساكر لقرب هذا الخصم وأعمالها إلا أن العسكر البدرى محاصر للعمادية وبها زنكى ثم إن بعض الأمراء من عسكر الموصل ممن لاعلم له بالحرب وكان شجاعا وهو جديد الإمارة أراد أن يظهر

من هذه السنة .

﴿ذكر عود الفرنج إلى عكا﴾ لما عاد الملك الأفضل فيمن معه وعاد الملك العادل وابن تقى الدين فيمن معهما من عساكرهما ولحقتهم العساكر الشرقية عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار وغير ذلك من البلاد واجتمعت العساكر بدمشق أيقن الفرنج أنهم لاطاقة لهم بهما إذا فارقوا البحر فعادوا نحو عكا يظهرون العزم على قصد بيروت ومحاصرتها فأمر صلاح الدين ولده الأفضل أن يسير إليها فى عسكره والعساكر الشرقية جميعها معارضا للفرنج فى مسيرهم نحوها فسار إلى مرج العيون واجتمعت العساكر معه فأقام هنالك ينتظر مسير الفرنج فلما بلغهم ذلك أقاموا بعكا ولم يفارقوها .

﴿ذكر ملك صلاح الدين يافا﴾ لما رحل الفرنج نحو عكا كان قد اجتمع عند صلاح الدين عسكر حلب وغيرها فسار إلى مدينة يافا وكانت بيد الفرنج فنازلها وقاتل من بها منهم وملكها فى العشرين من رجب بالسيف عنوة ونهبها المسلمون وغنموا مافيها وقتلوا الفرنج وأسروا كثيرا وكان بها أكثر ما أخذوه من عسكر مصر والقفل الذى كان معهم وقد ذكر ذلك وكان جماعة من المماليك الصلاحية قد وقفوا على أبواب المدينة وكل من خرج من الجند ومعه شىء من الغنيمة أخذوه منه فإن امتنع ضربوه وأخذوا مامعه قهرا ثم زحفت العساكر إلى القلعة فقاتلوا عليها آخر النهار وكادوا يأخذونها فطلب من بالقلعة الأمان على أنفسهم وخرج البترك الكبير الذى لهم ومعه عدة من أكابر الفرنج فى ذلك وترددوا وكان قصدهم منع المسلمين عن القتال فأدركهم الليل وواعدوا المسلمين أن ينزلوا بكرة غد ويسلموا القلعة فلما أصبح الناس طالبهم صلاح الدين بالنزول عن الحصن فامتنعوا وإذ قد وصلهم نجدة من عكا وأدركهم ملك إنكلتار فأخرج من بيافا من المسلمين وأتاه المدد من عكا وبرزوا إلى ظاهر المدينة واعترض المسلمين وحده وحمل عليهم فلم يتقدم إليه أحد فوقف بين الصفين واستدعى طعاما من المسلمين ونزل أكل فأمر صلاح الدين عسكره بالحملة عليهم وبالجد فى قتالهم فتقدم إليه بعض أمرائه يعرف بالجناح وهو أخو المشطوب بن على بن أحمد الهكارى فقال له يا صلاح الدين قل لمماليكك الذين أخذوا أمس الغنيمة وضربوا الناس بالحماقات يتقدمون فيقاتلهم إذا كان القتال فنحن وإذا كانت الغنيمة فلهم فغضب صلاح الدين من كلامه وعاد عن الفرنج وكان رحمه الله حليما كريما لمقدرة ونزل فى خيامه وأقام حتى اجتمعت العساكر وجاء إليه ابنه الأفضل وأخوه العادل وعساكر الشرق فدخل بهم إلى الرملة لينظر ما يكون منه ومن الفرنج فلزم الفرنج يافا ولم يبرحوا منها .

﴿ذكر الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين إلى دمشق﴾ فى العشرين من شعبان من هذه السنة عقدت بين المسلمين والفرنج هدنة لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر أولها هذا التاريخ وافق أول أيلول وسبب الصلح أن ملك إنكلتار لما رأى اجتماع العساكر وأنه لا يمكنه مفارقة ساحل البحر وليس بالساحل للمسلمين بلد يطمع فيه وقد طالت غيبته عن بلاده ، وأرسل صلاح الدين فى الصلح وأظهر من ذلك ضد ما كان يظهره أولا فلم يجبه صلاح الدين إلى ماطلب ظنا منه أنه يفعل ذلك خديعة ومكرا وأرسل يطلب منه المصاف والحرب فأعاد الفرنجى رسله مرة بعد مرة وترك تتمة عمارة عسقلان وعن غزة والداروم والرملة وأرسل إلى الملك العادل فى تقرير هذه القاعدة فأشار هو وجماعة الأمراء بالإجابة إلى الصلح وعرفوه ماعند العسكر من الضجر والملل ومافد هلك من أسلحتهم ودوابهم ونفد من نفقاتهم وقالوا إن هذا الفرنجى إنما طلب الصلح ليركب البحر

Marfat.com

ويعود إلى بلاده فإن تأخرت آجابته إلى أن يجىء الشتاء وينقطع الركوب فى البحر نحتاج نبقى ههنا سنة أخرى وحينئذ يعظم الضرر على المسلمين وأكثروا القول له فى هذا المعنى فأجاب حينئذ إلى الصلح فحضر رسل الفرنج وعقدوا الهدنة وتحالفوا على هذه القاعدة وكان فى جملة من حضر عند صلاح الدين باليان بن بارزان الذى كان صاحب الرملة ونابلس فلما حلف صلاح الدين قال له ماعمل أحد فى الإسلام ماعملت ولاهلك من الفرنج مثل ماهلك منهم هذه المدة فإننا أحصينا من خرج إلينا فى البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف رجل ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرة واحد بعضهم قتلتهم أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق ولما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج فى زيارة بيت المقدس فزاروه وتفرقوا وعادت كل طائفة إلى بلادها وأقام بالساحل الشامى ملكا على الفرنج والبلاد التى بأيديهم الكندهرى وكان خير الطبع قليل الشر رفيقا بالمسلمين محبا لهم وتزوج بالملكة التى كانت تملك بلاد الفرنج قبل أن يملكها صلاح الدين كما ذكرناه ، وأما صلاح الدين فإنه بعد تمام الهدنة سار إلى البيت المقدس وأمر بإحكام سوره وعمل المدرسة والرباط والبيمارستان وغير ذلك من مصالح المسلمين ووقف عليها الوقوف وصام رمضان بالقدس وعزم على الحج والإحرام منه فلم يمكنه ذلك فسار عنه خامس شوال نحو دمشق واستناب بالقدس أميرا اسمه جورديك وهو من المماليك النورية ، ولما سار عنه جعل طريقه على الثغور الإسلامية كنابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت وتعهد هذه البلاد وأمر بإحكامها فلما كان فى بيروت أتاه بيمند صاحب أنطاكية وأعمالها واجتمع به وخدمه فخلع عليه صلاح الدين وعاد إلى بلده فلما عاد رحل صلاح الدين إلى دمشق فدخلها فى الخامس والعشرين من شوال وكان يوم دخوله إليها يوما مشهودا وفرح الناس به فرحا عظيما لطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الإسلام .

﴿ ذكر وفاة قلج أرسلان ﴾ فى هذه السنة منتصف شعبان توفى الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلش بن سلجوق السلجوقى بمدينة قونية وكان له من البلاد قونية وأعمالها وأقصرا وسيواس وملطية وغير ذلك من البلاد وكانت مدة ملكه نحو تسع وعشرين سنة وكان ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة إلى بلاد الروم فلما كبر فرق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه ولده قطب الدين وكان قلج أرسلان قداستناب فى مدينة ملكه رجلا يعرف باختيار الدين حسن فلما غلب قطب الدين على الأمر قتل حسنا ثم أخذ والده وسار به إلى قيسارية ليأخذها من أخيه الذى سلمها إليه أبوه فحصرها مدة فوجد والده قلج أرسلان فرصة فهرب ودخل قيسارية وحده فلما علم قطب الدين ذلك عاد إلى قونية وأقصر فملكها ولم يزل قلج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد وكل منهم يتبرم به حتى مضى إلى ولده غياث الدين كيخسرو صاحب مدينة برغلوا فلما رآه فرح به وخدمه وجمع العساكر وسار هو معه إلى قونية فملكها وسار إلى أقصرا ومعه والده قلج أرسلان فحصرها فمرض أبوه فعاد به إلى قونية فتوفى بها ودفن هناك وبقى ولده غياث الدين فى قونية مالكا لها حتى أخذها منه أخوه ركن الدين سليمان على مانذكره إن شاء الله تعالى وقد حدثنى بعض من أثق إليه من أهل العلم بما يحكيه وكان قد وصل تلك البلاد بغير هذا ونحن نذكره قال إن قلج أرسلان قسم بلاده بين أولاده فى حياته فسلم دوقاط إلى ابنه ركن الدين سليمان وسلم قونية إلى ولده كيخسرو غياث الدين وسلم أنقرة وهى التى تسمى أنكورية إلى ولده محيى الدين وسلم ملطية إلى ولده معز الدين قيصر شاه وسلم ابلستين إلى ولده مغيث الدين وسلم قيسارية إلى ولده نور الدين محمود وسلم سيواس

Marfat.com

Marfat.com

وأقصرا إلى ولده قطب الدين وسلم تكسار إلى ولد آخر وسلم أماسيا إلى ولد أخيه هذه أمهات البلاد وينضاف إلى كل بلد من هذه مايجاورها من البلاد الصغار التى ليست مثل هذه ثم إنه ندم على ذلك وأراد أن يجمع الجميع لولده الأكبر قطب الدين وخطب له ابنة صلاح الدين يوسف صاحب مصر والشام ليقوى به فلما سمع باقى أولاده بذلك امتنعوا عليه وخرجوا عن طاعته وزال حكمه عنهم فسار يتردد بينهم على سبيل الزيارة فيقيم عند كل واحد منهم مدة وينتقل إلى الآخر ثم إنه مضى إلى ولده كيخسرو صاحب قونية على عادته فخرج اليه ولقيه وقبل الأرض بين يديه وسلم قونية اليه وتصرف عن أمره فقال لكيخسرو أريد أسير إلى ولدى الملعون محمود وهو صاحب قيسارية وتجىء أنت معى لآخذها منه فتجهز وسار معه وحصر محمودا بقيسارية فرض قلج أرسلان وتوفى عليها فعاد كيخسرو وبقى كل واحد من الأولاد على البلد التى بيده وكان قطب الدين صاحب اقصرا وسيواس إذا أراد أن يسير من إحدى المدينتين إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية وبها أخوه نور الدين محمود وليست على طريقه إنما كان يقصدها ليظهر المودة لأخيه والمحبة له وفى نفسه الغدر فكان أخوه محمود يقصده ويجتمع به فى بعض المرات نزل بظاهر البلد على عادته وحضر أخوه محمود عنده غير محاط فقتله قطب الدين وألقى رأسه إلى أصحابه وأراد أخذ البلد فامتنع من به من أصحاب أخيه عليه ثم انهم سلموه اليه على قاعدة استمرت بينهم وكان عند محمود أمير كبير وكان يحذره من أخيه قطب الدين ويخوفه فلم يصغ اليه وكان جوادا كثير الخير والتقدم فى الدولة عند نور الدين فلما قتل قطب الدين أخاه قتل حسنا معه وألقاه على الطريق فجاء كلب يأكل من لحمه فثار الناس وقالوا لاسمعا ولاطاعة هذا رجل مسلم وله ههنا مدرسة وتربة وصدقات دارة وأفعال حسنة لانتركه تأكله الكلاب فأمر به فدفن فى مدرسته وبقى أولاد قلج أرسلان على حالهم ثم إن قطب الدين مرض ومات فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى سيواس وهى تجاوره فملكها ثم سار منها إلى قيسارية واقصرا ثم بقى مديدة وسار إلى قونية وبها أخوه غياث الدين فحصره بها وملكها ففارقها غياث الدين إلى الشام ثم إلى بلد الروم وكان من أمره ماذكره إن شاء الله تعالى ثم سار بعد ذلك إلى ركن الدين إلى نكسار وأماسيا فملكها وسار إلى ملطية سنة سبع وتسعين وخمسمائة فملكها وفارقها أخوه معز الدين إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب وكان هذا معز الدين تزوج ابنة للعادل فأقام عنده واجتمع لركن الدين ملك جميع الأخوة ماعدا أنقرة فإنها منيعة لايوصل اليها فجعل عليها عسكرا يحصرها صيفا وشتاء ثلاث سنين فتسلمها سنة إحدى وستمائة ووضع على أخيه الذى كان بها من يقتله إذا فارقها فلما سار عنها قتل وتوفى ركن الدين فى تلك الأيام ولم يسمع خبر قتل أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رحمه وإنما أوردنا هذه الحادثة ههنا لنتبع بعضها بعضا ولأنى لم أعلم تواريخ كل حادثة منها لأثبته فيه .

﴿ذكر ملك شهاب الدين أجمير وغيرها من الهند﴾ قد ذكرنا سنة ثلاث وثمانين غزوة شهاب الدين الغورى إلى بلد الهند وانهزامه وبقى إلى الآن وفى نفسه الحقد العظيم على الجند الغورية الذين انهزموا وما ألزمهم من الهوان فلما كانت هذه السنة خرج من غزنة وقد جمع عساكره وسار فيها يطلب غزوة الهندى الذى هزمه تلك النوبة فلما وصل إلى پرشاوور تقدم اليه شيخ من الغورية كان يدل عليه فقال له قد قربنا من العدو ومايعلم أحد أين يمضى ولامن يقصد ولا نرد على الأمراء سلاما وهذا لايجوز فعله فقال له السلطان أعلم أننى منذ هزمنى هذا الكافر مانمت مع زوجتى ولاغيرت ثياب البياض عنى وأناسائر إلى عدوى ومعتمد على الله تعالى

لا على الغورية ولا على غيرهم فإن نصرنى الله سبحانه ونصر دينه فمن فضله وكرمه وإن انهزمنا فلا تطلبونى فما انهزمت ولو هلكت تحت حوافر الخيل فقال له الشيخ سوف ترى بنى عمك من الغورية مايفعلون فينبغى أن تكلمهم وترد سلامهم ففعل ذلك وبقى أمراء الغورية يتضرعون ويقولون سوف ترى مانفعل وسار إلى أن وصل إلى موضع المصاف الأول وجازه مسيرة أربعة أيام وأخذ عدة مواضع من بلاد العدو فلما سمع الهندى تجهز وجمع عساكره وسار يطلب المسلمين فلما بقى بين الطائفتين مرحلة عاد شهاب الدين وراءه والكافر فى أعقابه أربع منازل فأرسل الكافر إليه يقول له أعطنى يدك أنك تصافقنى فى باب غزنة حتى أجىء وراءك وإلا فنحن مثقلون ومثلك لايدخل البلاد شبيه اللصوص ثم يخرج هاربا ماهذا فعل السلاطين فأعاد الجواب إنى لا أقدر على حربك وتم على حاله عائدا إلى أن بقى بينه وبين بلاد الإسلام ثلاثة أيام والكافر فى أثره يتبعه حتى لحقه قريبا من مرنده فجرد شهاب الدين من عسكره سبعين ألفا وقال أريد هذه الليلة تدورون حتى تكونوا وراء عسكر العدو وعند صلاة الصبح تاتون أنتم من تلك الناحية وأنا من هذه الناحية ففعلوا ذلك وطلع الفجر ومن عادة الهنود أنهم لايبرحون من مضاجعهم إلى أن تطلع الشمس فلما أصبحوا حمل عليهم عسكر المسلمين من كل جانب وضربت الكؤسات فلم يلتفت ملك الهند إلى ذلك وقال من يقدم على أنا هذا والقتل قد أكثر فى الهنود والنصر قد ظهر للمسلمين فلما رأى ملك الهند ذلك أحضر فرسا له سابقا وركبه ليهرب فقال له أعيان أصحابه إنك حلفت لنا أنك لاتخلينا وتهرب فنزل عن الفرس وركب الفيل ووقف موضعه والقتال شديد والقتل قد كثر فى أصحابه فانتهى المسلمون إليه وأخذوه أسيراً وحينئذ عظم القتل والأسر فى الهنود لم ينج منهم إلا القليل وأحضر الهندى بين يدى شهاب الدين فلم يخدمه فأخذ بعض الحجاب بلحيته وجذبه إلى الأرض حتى أصابها جبينه وأقعده بين يدى شهاب الدين فقال له شهاب الدين لو استأسرتنى ما كنت تفعل بى فقال الكافر قد استعملت لك قيدا من ذهب أقيدك به فقال شهاب الدين بل نحن ما نجعل لك من القدر مانقيدك وغنم المسلمون من الهنود أموالا كثيرة وأمتعة عظيمة وفى جملة ذلك أربعة عشر فيلا من جملتها الفيل الذى جرح شهاب الدين فى تلك الوقعة وقال ملك الهند لشهاب الدين إن كنت طالب بلاد فما بقى فيها من يحفظها وإن كنت طالب أموال فعندى أموال تحمل أجمالك فسار شهاب الدين وهو معه إلى الحصن الذى له يعول عليه وهو أجمير فأخذه وأخذ جميع البلاد التى تقاربه وأقطع جميع البلاد لمملوكه قطب الدين أيبك وعاد إلى غزنة وقتل ملك الهند .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة قبض على أمير الحاج طاشتكين ببغداد وكان نعم الأمير عادلا فى الحاج رفيقا بهم محبا لهم له أوراد كثيرة من صلوات وصيام وكان كثير الصدقة لاجرم وقفت أعماله بين يديه فخلص من السجن على ماذكره إن شاء الله تعالى . وفيها خرج السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل من الحبس بعد موت قزل أرسلان بن أيلدكز والتقى هو وقتغ أينانج بن البهلوان بن أيلدكز فانهزم أينانج إلى الرى على ماذكره إن شاء الله تعالى سنة تسعين وخمسمائة . وفيها فى رجب توفى الأمير السيد على بن المرتضى العلوى الحنفى مدرس جامع السلطان ببغداد . وفى شعبان منها توفى أبو على الحسن بن هبة الله بن البوقى الفقيه الشافعى

Marfat.com

Marfat.com

الواسطى وكان عالما بالمذهب، انتفع به الناس(١)

﴿ ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر وفاة صلاح الدين وبعض سيرته ﴾ فى هذه السنة فى صفر توفى صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها بدمشق ومولده بتكريت وقد ذكرنا سبب انتقالهم منها وملكهم مصر سنة أربع وستين وخمسمائة وكان سبب مرضه أنه خرج يتلقى الحاج فعاد ومرض من يومه مرضا حادا بقى به ثمانية أيام، وتوفى رحمه الله وكان قبل مرضه قد أحضر ولده الأفضل عليا وأخاه الملك العادل أبا بكر واستشارهما فيما يفعل وقال قد تفرغنا من الفرنج وليس لنا فى هذه البلاد شاغل فأى جهة نقصد فأشار عليه أخوه العادل بقصد خلاط لأنه كان قد وعده إذا أخذها أن يسلمها إليه وأشار ولده الأفضل بقصد بلد الروم التى بيد أولاد قلج أرسلان وقال هى أكثر بلادا وعسكرا ومالا وأسرع مأخذا وهى أيضا طريق الفرنج إذا خرجوا على البر فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيها فقال كلا كما مقصر ناقص الهمة بل أقصد أنا بلد الروم وقال لأخيه تأخذ أنت بعض أولادى وبعض العسكر وتقصد خلاط فإذا فرغت أنا من بلد الروم جئت إليكم وندخل منها أذربيجان ونتصل ببلاد العجم فما فيها من يمنع عنها ثم أذن لأخيه العادل فى المضى إلى الكرك وكان له وقال له تجهز واحضر لتسير فلما سار إلى الكرك مرض صلاح الدين وتوفى قبل عوده وكان رحمه الله كريما حليما حسن الأخلاق متواضعا صبورا على ما يكره كثيرا التغافل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه وبلغنى أنه كان جالسا وعنده جماعة فرمى بعض المماليك بعضا بسرموز فأخطأته ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته ووقعت بالقرب منه فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلم جليسه ليتغافل عنها وطلب مرة الماء فلم يحضر وعاود الطلب فى مجلس واحد خمس مرات فلم يحضر فقال يا أصحابنا والله قد قتلنى العطش فأحضر الماء فشربه ولم ينكر التوانى فى إحضاره وكان مرة قد مرض مرضا شديدا أرجف عليه بالموت فلما برئ منه

---

(١) وفيها توفى محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، كان قاضى العساكر بدمشق، ويرسله السلطان إلى ملوك الآفاق، ومات بملطية. وفيها توفى سيف الدين على بن أحمد المشطوب كان من أصحاب أسد الدين شيركوه حضر معه الوقعات الثلاث بمصر، ثم صار من كبراء أمراء صلاح الدين، وهو الذى كان نائبا على عكا لما أخذوها الفرنج، فأسروه فى جملة من أسروا فافتدى نفسه بخمسين ألف دينار، وجاء إلى السلطان وهو بالقدس فأعطاه أكثرها، وولاه نابلس. توفى يوم الأحد ثالث وعشرين شوال بالقدس، ودفن فى داره. وفيها توفى نصر ابن منصور النميرى سمع الحديث واشتغل بالأدب، وأصابه جدرى وهو ابن أربعة عشرة سنة فنقص بصره جدا، وكان لا يبصر الأشياء البعيدة، ويرى القريب منه، ولكن كان لا يحتاج إلى قائد، فارتحل إلى العراق لمداواة عينيه فآيسته الأطباء من ذلك، فاشتغل بحفظ القرآن ومصاحبة الصالحين فأفلح، وله ديوان شعر كبير حسن، وقد سئل مرة عن مذهبه واعتقاده فأنشأ يقول:

أحب عليا والبتول وولدها * ولا أجحد الشيخين فضل التقدم
وأبرأ ممن نال عثمان بالأذى * كما أتبرا من ولاء ابن ملجم
ويعجبنى أهل الحديث لصدقهم * فلست إلى قوم سواهم بمنتمى

توفى ببغداد ودفن بمقابر الشهداء بباب حرب رحمه الله تعالى.

وأدخل الحمام كان الماء حارا فطلب ماء باردا فأحضره الذى يخدمه فسقط من الماء شىء على الأرض فناله منه شىء فتألم له لضعفه ثم طلب البارد أيضا فأحضر فلما قاربه سقطت الطاسة على الأرض فوقع الماء جميعه عليه فكاد يهلك فلم يزد على أن قال للغلام إن كنت تريد قتلى فعرفنى فاعتذر اليه فسكت عنه وأما كرمه فإنه كان كثير البذل لا يقف فى شىء يخرجه ويكفى دليلا على كرمه أنه لما مات لم يخلف فى خزائنه غير دينار واحد صورى وأربعين درهما ناصرية وبلغنى أنه أخرج فى مدة مقامه على عكا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابة من فرس وبغل سوى الجمال وأما العين والثياب والسلاح فإنه لا يدخل تحت الحصر ولما انقرضت الدولة العلوية بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع مايفوت الإحصاء ففرقه جميعه وأما تواضعه فإنه كان ظاهرا لم يتكبر على أحد من أصحابه وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك وكان يحضر عنده الفقراء والصوفية ويعمل لهم السماع فإذا قام أحدهم لرقص أوسماع يقوم له فلا يقعد حتى يفرغ الفقير ولم يلبس شيئا مما ينكره الشرع وكان عنده علم ومعرفه وسمع الحديث واسمعه وبالجملة فكان نادرا فى عسكره كثير المحاسن والأفعال الجميلة عظيم الجهاد فى الكفار وفتوحه تدل على ذلك وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا. (١)

﴿ذكر حال أهله وأولاده بعده﴾ لما مات صلاح الدين بدمشق كان معه بها ولده الأكبر الأفضل نور الدين علىّ وكان قد حلف له العساكر جميعهم غير مرة فى حياته فلما مات ملك دمشق والساحل والبيت المقدس

---

(١) لما اشتد الحال بالسلطان ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر، استدعى الشيخ أبا جعفر إمام الكلاسة ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة إذا جد به الأمر، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو فى الغمرات فقرأ (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) فقال: وهو كذلك صحيح. فلما أذن الصبح جاء القاضى الفاضل فدخل عليه وهو فى آخر رمق، فلما قرأ القارئ (لا إله إلا هو عليه توكلت) تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه، ومات رحمه الله، وأكرم مثواه، وجعل جنات الفردوس مأواه، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة لأنه ولد بتكريت فى شهور سنة إثنتين وثلاثين وخمسمائة، رحمه الله، فقد كان ردءاً للاسلام وحرزا وكهفا من كيد الكفرة اللئام، وذلك بتوفيق الله له، وكان أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه، وقد غلقت الأسواق واحتفظ على الحواصل، ثم أخذوا فى تجهيزه، وحضر جميع أولاده وأهله وكان الذى تولى غسله خطيب البلد الفقيه الدولعى، وكان الذى أحضر الكفن ومؤنة التجهيز القاضى الفاضل من صلب ماله الحلال، هذا وأولاده الكبار والصغار يتباكون وينادون، وأخذ الناس فى العويل والانتحاب والدعاء له والابتهال، ثم أبرز جسمه فى نعشه فى تابوت بعد صلاة الظهر، وأم الناس عليه القاضى ابن الزكى ثم دفن فى داره بالقلعة المنصورة، ثم شرع ابنه فى بناء تربة له ومدرسة للشافعية بالقرب من مسجد القدم، لوصيته بذلك قديما، فلم يكمل بناؤها، وذلك حين قدم ولده العزيز وكان محاصرا لأخيه الأفضل ثم اشترى له الأفضل داراً شمالى الكلاسة فى وزان مازاده القاضى الفاضل فى الكلاسة، فجعلها تربة، هطلت سحائب الرحمة عليها، ووصلت ألطاف الرأفة إليها. وكان نقله إليها فى يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين، وصلى عليه تحت النسر قاضى القضاة محمد بن على القرايبى ابن الزكى، عن إذن الأفضل، ودخل فى لحده ولده الأفضل فدفنه بنفسه، وهو يومئذ سلطان الشام، ويقال إنه دفن معه سيفه الذى كان يحضر به الجهاد، وذلك عن أمر القاضى الفاضل وتفاءلوا بأنه يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه، حتى يدخل الجنة إن شاء الله. ثم عمل عزاؤه بالجامع الأموى ثلاثة أيام، يحضره الخاص والعام، والرعية والحكام.

Marfat.com

وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم وكان ولده الملك العزيز عثمان بمصر فاستولى عليها واستقر ملكه بها وكان ولده الظاهر غازى بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر وإعزاز وبرزية ودرب ساك ومنبج وغيرذلك وكان بحماة محمود بن تقى الدين عمه فأطاعه وصار معه وكان بحمص شيركوه بن محمد بن شيركوه فأطاع الملك الأفضل وكان الملك العادل بالكرك قد سار اليه كما ذكرنا فامتنع فيه ولم يحضر عند أحد أولاد أخيه فأرسل اليه الملك الأفضل يستدعيه ليحضر عنده فوعده ولم يفعل فأعاد مراسلته وخوفه من الملك العزيز صاحب مصر ومن أبابك عزالدين صاحب الموصل فإنه كان قد سار عنها إلى بلاد العادل الجزرية على ماذكره ويقول له إن حضرت جهزت العساكر وسرت إلى بلادك حفظتها وإن أقمت قصدك أخى الملك العزيز لما بينكما من العداوة وإذا ملك عزالدين بلادك فليس له دون الشام مانع وقال لرسوله إن حضر معك وإلافقل له قد أمرنى إن سرت اليه بدمشق عدت معك وإن لم تفعل أسير إلى الملك العزيز أحالفه على مايختار فلما حضر الرسول عنده وعده بالمجىء فلما رأى أن ليس معه منه شىء غير الوعد أبلغه ماقيل له فى معنى موافقة العزيز فحينئذ سار إلى دمشق وجهز الأفضل معه عسكر من عنده وأرسل إلى صاحب حمص وصاحب حماة وإلى أخيه الملك الظاهر بحلب يحثهم على إنفاذ العساكر مع العادل إلى البلاد الجزرية ليمنعها من صاحب الموصل ويخوفهم إن هم لم يفعلوا ومما قال لأخيه الظاهر قد عرفت محبة أهل الشام لبيت أتابك فوالله لئن ملك عزالدين حران ليفركن أهل حلب عليك ولتخرجن منها وأنت لاتعقل وكذلك يفعل فى أهل دمشق فاتفقت كلمتهم على تسيير العساكر معه فجهزوا عساكرهم وسيروها إلى العادل وقد عبر الفرات فعسكر عساكرهم بنواحى الرها بمرج الريحان وسنذكر ما كان منه إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر مسير أتابك عزالدين إلى بلاد العادل وعوده بسبب مرضه ﴾ لما بلغ أتابك عزالدين مسعود ابن مودود بن زنكى صاحب الموصل وفاة صلاح الدين جمع أهل الرأى من أصحابه وفيهم مجاهدالدين قايماز كبير دولته والمقدم على كل من فيها وهو نائبه فيهم واستشارهم فيما يفعل فسكتوا فقال له بعضهم وهو أخى مجد الدين أبو السعادات المبارك أما أرى أنك تخرج مسرعا جريدة فيمن خف من أصحابك وحلقتك الخاص وتتقدم إلى الباقين باللحاق بك وتعطى من هو محتاج إلى شىء مايتجهز به ويلحق بك إلى نصيبين وتكاتب أصحاب الأطراف مثل مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل وسنجرشاه ابن أخيك صاحب جزيرة ابن عمر وأخاك عمادالدين صاحب سنجار ونصيبين تعرفهم أنك قد سرت وتطلب منهم المساعدة وتبذل لهم اليمين على مايلتمسونه فمتى رأوك قد سرت خافوك وإن أجابك أخوك صاحب سنجار ونصيبين إلى الموافقة وإلا بدأت بنصيبين أخذتها وتركت فيها من يحفظها ثم سرت نحو الخابور وهوله أيضا فأقطعه وتركت عسكره مقابل أخيك يمنعه من الحركة إن أرادها أوقصدت الرقة فلا تمنع نفسها وتأتى حران والرها فليس فيهما من يحفظهما لاصاحب ولاعسكر ولا ذخيرة فإن العادل أخذهما من أبن تقى الدين ولم يقم فيهما ليصلح حالهما وكان القوم يتكلمون على قوتهم فلم يظنوا هذا الحادث فإذا فرغت من ذلك الطرف عدت إلى من امتنع من طاعتك فقاتلته وليس وراءك ماتخاف عليه فإن بلدك عظيم لايبالى بكل من وراءك فقال مجاهد الدين المصلحة أننا نكاتب أصحاب الأطراف ونأخذ رأيهم فى الحركة ونستميلهم فقال له أخى إن أشاروا بترك الحركة تقبلون منهم قال لاقال فإنهم لايشيرون إلا بتركها لأنهم لايرون أن يقوى هذا السلطان خوفا منه وكانى بهم يغالطونكم

Marfat.com

مهما كانت البلاد الجزرية فارغه من صاحب وعسكر فإذا جاء إليها من يحفظها جاهروكم بالعداوة ولم يمكنه أكثر من هذا خوفا من مجاهدالدين حيث رأى ميله إلى ماتكلم به فانفصلوا على أن يكاتبوا أصحاب الأطراف فكاتبوهم فكل أشار بترك الحركة إلى أن ينظرما يكون من أولاد صلاح الدين وعمهم فتثبط ثم إن مجاهدالدين كرر المراسلات إلى عمادالدين صاحب سنجار يعده ويستميله ، فبينما هم على ذلك إذ جاءهم كتاب الملك العادل من المناخ بالقرب من دمشق وقد سار عن دمشق إلى بلاده يذكر فيه موت أخيه وأن البلاد قد استقرت لولده الملك الأفضل والناس متفقون على طاعته وأنه هو المدبر لدولة الأفضل وقد سيره فى عسكر جم كثير العدد لقصد ماردين لما بلغه أن صاحبها تعرض إلى بعض القرى التى له وذكر من هذا النحو شيئا كثيرا فظنوه حقا وإن قوله لاريب فيه فنفروا عن الحركة وذلك الرأى فسيروا الجواسيس فأتتهم الأخبار بأنه فى ظاهر حران من نحو مائتى خيمة لاغير ، فعادوا تحركوا فإلى أن تقررت القواعد بينهم وبين صاحب سنجار ، وأقبلت العساكر الشامية التى سيرها الأفضل وغيره إلى العادل ، فامتنع بها ، وسار أتابك عزالدين عن الموصل إلى نصيبين واجتمع هو وأخوه عماد الدين بها وساروا على سنجار نحو الرها وكان العادل قد عسكر قريبا منها بمرج الريحان فخافهم خوفا عظيما فلما وصل أتابك عزالدين إلى تل موزن مرض بالإسهال فأقام عدة أيام فضعفت منه الحركة وكثر مجىء الدم منه فخاف الهلاك فترك العساكر مع أخيه عماد الدين وعاد جريدة فى مائتى فارس ومعه مجاهد الدين وأخى مجد الدين فلما وصل إلى دنيسر استولى عليه الضعف فأحضر أخى وكتب وصية ثم سار فدخل الموصل وهو مريض أول رجب .

﴿ ذكر وفاة أتابك عزالدين وشىء من سيرته ﴾ فى هذه السنة توفى أتابك مسعود بن مودود بن زنكى ابن آقسنقر صاحب الموصل بالموصل وقد ذكرنا عوده إليها مريضا فبقى فى مرضه إلى التاسع والعشرين من شعبان فتوفى رحمه الله ودفن بالمدرسة التى أنشأها مقابل دار المملكة وكان قد بقى مايزيد على عشرة أيام لايتكلم إلا بالشهادتين وتلاوة القرآن وإذا تكلم بغيرها استغفر الله ثم عاد إلى ما كان عليه فرزق خاتمة خير رضى الله عنه وكان رحمه الله خير الطبع كثير الخير والإحسان لاسيما إلى شيوخ قد خدموا أباه فإنه كان يتعهدهم بالبر والإحسان والصلة والإكرام ويرجع إلى قولهم ويزور الصالحين ويقربهم ويشفعهم وكان حليما قليل المعاقبة كثير الحياء لم يكلم جليسا له إلا وهو مطرق وما قال فى شىء يسئله لاحياء وكرم طبع وكان قد حج وليس بمكة حرسها الله خرقة التصوف وكان يلبس تلك الخرقة كل ليلة ويخرج إلى مسجد قد بناه فى داره ويصلى فيه نحو ثلث الليل وكان رقيق القلب شفيقا على الرعية بلغنى عنه أنه قال بعض الأيام إننى سهرت الليلة كثيرا وسبب ذلك أنى سمعت صوت نائحة فظننت أن ولد فلان قد مات وكان قد سمع أنه مريض قال فضاق صدرى وقمت من فراشى أدور فى السطح فلما طال على الأمر أرسلت خادما إلى الجاندارية فأرسل منهم واحدا يستعلم الخبر فعاد وذكر إنسانا لا أعرفه فسكن بعض ماعندى فنمت ولم يكن الرجل الذى ظن أن ابنه مات من أصحابه إنما كان من رعيته كان ينبغى أن تتأخر وفاته وإنما قدمناها لتتبع أخباره بعضها بعضا .

﴿ ذكر قتل بكتمر صاحب خلاط ﴾ فى هذه السنة أول جمادى الأولى قتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط وكان بين قتله وموت صلاح الدين شهران فإنه أسرف فى إظهار الشماتة بموت صلاح الدين فلم يمهله الله تعالى ولما بلغه موت صلاح الدين فرح فرحا كثيرا وعمل تختا جلس عليه ولقب نفسه بالسلطان المعظم

Marfat.com

Marfat.com

صلاح الدين وكان لقبه سيف الدين فغيره وسمى نفسه عبدالعزيز وظهر منه اختلال وتخليط وتجهز ليقصد ميافارقين يحصرها فأدركته منيته وكان سبب قتله أن هزار دينارى وهو أيضا من مماليك شاه أرمن ظهير الدين كان قد قوى وكثر جمعه وتزوج ابنه بكتمر فطمع فى الملك فوضع عليه من قتله ولما قتل ملك بعده هزار دينارى بلاد خلاط وأعمالها وكان بكتمر دينا خيرا صالحا كثير الخير والصلاح والصدقة محبا لأهل الدين والصوفية كثير الإحسان إليهم قريبا منهم ومن سائر رعيته محبوبا إليهم عادلا فيهم وكان جوادا شجاعا عادلا فى رعيته حسن السيرة فيهم :

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة شتى شهاب الدين ملك غزنة فى برشاوور وجهز مملوكه أيبك فى عساكر كثيرة فأدخله بلاد الهند يغنم ويسبي ويفتح من البلاد مايمكنه فدخلها وعاد وخرج هو وعساكره سالما قدماؤا أيديهم من الغنائم . وفيها فى رمضان توفى سلطان شاه صاحب مرو وغيرها من خراسان وملك أخوه علاء الدين تكش بلاده وسنذكره سنة تسعين إن شاء الله . وفيها أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفا لايوجد مثلها . وفيها فى ربيع الأول فرغ من عمارة الرباط الذى أمر بإنشائه الخليفة أيضا بالحريم الظاهرى غربى بغداد على دجلة وهو من أحسن الربط ونقل إليه كتبا كثيرة من أحسن الكتب : وفيها ملك الخليفة قلعة من بلاد خوزستان وسبب ذلك أن صاحبها سوسيان بن شملة جعل فيها دردارا فأساء السيرة مع جندها فغدر به بعضهم فقتله ونادوا بشعار الخليفة فأرسل إليها وملكها وفيها انقض كوكبان عظيمان وسمع صوت هدة عظيمة وذلك بعد طلوع الفجر وغلب ضوءهما القمر وضوء النهار وفيها مات الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبى هاشم أمير مكة وما زالت مكة تكون له تارة ولأخيه مكثر تارة إلى أن مات .

﴿ ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندى ﴾ كان شهاب الدين الغورى ملك غزنة قد جهز مملوكه قطب الدين وسيره إلى بلد الهند للغزاة فدخلها فقتل فيها وسبى وغنم وعاد فلما سمع به ملك بنارس وهو أكبر ملك فى الهند ولايته من حد الصين إلى بلاد ملاوا طولا ومن البحر إلى مسيرة عشرة أيام من لهاوور عرضا وهو ملك عظيم فعندها جمع جيوشه وحشرها وسار يطلب بلاد الإسلام ودخلت سنة تسعين فسار شهاب الدين الغورى من غزنة بعساكره نحوه فالتقى العسكران على ماخون وهو نهر كبير يقارب دجلة بالموصل وكان مع الهندى سبعمائة فيل ومن العسكر على ماقيل ألف ألف رجل ومن جملة عسكره عدة أمراء مسلمين كانوا فى تلك البلاد أب عن جد من أيام السلطان محمود بن سبكتكين يلازمون شريعة الإسلام ويواظبون على الصلوات وأفعال الخير فلما التقى المسلمون والهنود اقتتلوا فصبر الكفار لكثرتهم وصبر المسلمون لشجاعتهم فانهزم الكفار ونصر المسلمون وكثر القتل فى الهنود حتى امتلأت الأرض وجافت وكانوا لايأخذون إلا الصبيان والجوارى وأما الرجال فيقتلون وأخذ منهم تسعين فيلا وباقى الفيلة قتل بعضها وانهزم بعضها وقتل ملك الهند ولم يعرفه أحد إلا أنه كانت أسنانه قد ضعفت أصولها فأمسكوها بشريط الذهب فلذلك عرفوه فلما انهزم الهنود دخل شهاب الدين بلاد بنارس وحمل من خزائنها على ألف وأربعمائة جمل وعاد إلى غزنة

ومعه الفيلة التى أخذها من جملتها فيل أبيض حدثنى من رآه لما أخذت الفيلة وقدمت إلى شهاب الدين وأمرت بالخدمة فخدمت جميعها إلا الأبيض فإنه لم يخدم ولا يعجب أحد من قولنا الفيلة تخدم فإنها تفهم مايقال لها ولقد شاهدت فيلا بالموصل وفياله يحدثه فيفعل مايقول له .

﴿ذكر قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الرى ووفاة أخيه سلطان شاه﴾ قد ذكرنا سنة ثمان وثمانين خروج السلطان طغرل بن ألب أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجقى من الحبس وملكه همذان وغيرها وكان قدجرى بينه وبين قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد حرب انهزم فيها قتلغ اينانج وتحصن بالرى وسار طغرل إلى همذان وأرسل قتلغ اينانج إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش يستنجده فسار إليه فى سنة ثمان وثمانين فلما تقاربا نديم قتلغ اينانج على استدعاء خوارزم شاه وخاف على نفسه فمضى من بين يديه وتحصن فى قلعة له فوصل خوارزم شاه إلى الرى وملكها وحصر قلعة طبرك ففتحها فى يومين وراسله طغرل واصطلحا وبقيت الرى فى يدخوارزم شاه فرتب فيها عسكرا يحفظها وعاد إلى خوارزم لأنه بلغه أن أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم فجد فى السير خوفا عليها فأتاه الخبر وهو فى الطريق أهل خوارزم منعوا سلطان شاه عنها ولم يقدر على القرب منها وعاد عنها خائبا فشتى خوارزم شاه بخوارزم فلما انقضى الشتاء سار إلى مرو لقصد أخيه سنة تسع وثمانين فترددت الرسل بينهما فى الصلح فبينما هم فى تقرير الصلح وإذ قد ورد على خوارزم شاه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لأخيه سلطان شاه يدعوه ليسلم إليه القلعة لأنه قداستوحش من صاحبه سلطان شاه فسار خوارزم شاه إليه مجدا فتسلم القلعة وصار معه وبلغ ذلك سلطان شاه ففت ذلك فى عضده وتزايد كمده فمات سلخ رمضان سنة تسع وثمانين وخمسمائة فلما سمع خوارزم شاه بموته سار من ساعته إلى مرو فتسلمها وتسلم مملكة أخيه سلطان شاه جميعها وخزائنه وأرسل إلى ابنه علاء الدين محمد وكان يلقب حينئذ قطب الدين وهو بخوارزم فأحضره فولاه نيسابور وولى ابنه الكبير ملكشاه مرو وذلك فى ذى الحجة سنة تسع وثمانين فلما دخلت سنة تسعين وخمسمائة قصد السلطان طغرل بلد الرى فأغار على من به من أصحاب خوارزم شاه ففر منه قتلغ اينانج بن البهلوان وأرسل إلى خوارزم شاه يعتذر ويسال إجازه مرة ثانية ووافق ذلك وصول رسول الخليفة إلى خوارزم شاه يشكو من طغرل ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور بإقطاعه البلاد فسار من نيسابور إلى الرى فتلقاه قتلغ اينانج ومن معه بالطاعة وساروا معه فلما سمع السلطان طغرل بوصوله كانت عساكره متفرقة فلم يقف ليجمعها بل سار اليه فيمن معه فقيل له إن الذى تفعله ليس برأى والمصلحة أن تجمع العساكر فلم يقبل وكان فيه شجاعة بل تهم مسيره فالتقى العسكران بالقرب من الرى فحمل طغرل بنفسه فى وسط عسكر خوارزم شاه فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه فى الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول وحمل رأسه إلى خوارزم شاه فسيره من يومه إلى بغداد فنصب بباب النوبى عدة أيام وسار خوارزم شاه إلى همذان وملك تلك البلاد جميعها وكان الخليفة الناصر لدين الله قدسير عسكرا إلى نجدة خوارزم شاه وسيرله الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصاب فنزل على فرسخ من همذان فأرسل اليه خوارزم شاه يطلبه اليه فقال مؤيد الدين ينبغى أن تحضر أنت وتلبس الخلعة من خيمتى وترددت الرسل بينهما فى ذلك فقيل لخوارزم شاه إنها حيلة عليك حتى تحضر عنده ويقبض عليك فدخل خوارزم شاه اليه قصداً لأخذه فاندفع بين يديه إلى بعض الجبال فامتنع به فرجع خوارزم

Marfat.com

Marfat.com

شاه إلى همذان ولما ملك همذان وتلك البلاد سلمها إلى قتلغ اينانج وأقطع كثيرا منها لمماليكه وجعل المقدم عليهم مياجق وعاد إلى خوارزم .

﴿ذكر مسير وزير الخليفة إلى خوزستان وملكها﴾ فى هذه السنة فى شعبان خلع الخليفة الناصر لدين الله على النائب فى الوزارة مؤيد الدين أبى عبدالله محمد بن على المعروف بابن القصاب خلع الوزارة وحكم فى الولاية وبرز فى رمضان وسار إلى بلاد خوزستان وولى الأعمال بها وصار له فيها أصحاب وأصدقاء ومعارف وعرف البلاد ومن أى وجه يمكن الدخول إليها والاستيلاء عليها ، فلما ولى ببغداد نيابة الوزارة أشار على الخليفة بأن يرسله فى عسكر إليها ليملكها له وكان عزمه أنه إذا ملك البلاد واستقر فيها أقام مظهرا للطاعة مستقلا بالحكم فيها ليأمن على نفسه فاتفق أن صاحبها ابن شملة توفى واختلف أولاده بعده فراسل بعضهم مؤيد الدين يستنجده لما بينهم من الصحبة القديمة فقوى الطمع فى البلاد فجهزت العساكر وسيرت معه إلى خوزستان فوصلها سنة إحدى وتسعين وجرى بينه وبين أصحاب البلاد مراسلات ومحاربة عجزوا عنها وملك مدينة تستر فى المحرم وملك غيرها من البلاد وملك القلاع منها قلعة الناظر وقلعة كاكرد وقلعة الأموج وغيرها من الحصون والقلاع وأنفذ بنى شملة أصحاب بلاد خوزستان إلى بغداد فوصلوا فى ربيع الأول

﴿ذكر حصر العزيز مدينة دمشق﴾ فى هذه السنة وصل الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين وهو صاحب مصر إلى مدينة دمشق فحصرها وبها أخوه الأكبر الملك الأفضل على بن صلاح الدين وكنت حينئذ بدمشق فنزل بنواحى ميدان الحصى فأرسل الأفضل إلى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب وهو صاحب الديار الجزرية يستنجده وكان الأفضل غايه الواثق به والمعتمد عليه وقد سبق ما يدل على ذلك فسار الملك العادل إلى دمشق هو والملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد بن تقى الدين صاحب حماة وأسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرها كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق واتفقوا على حفظها علما منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم فلما رأى العزيز اجتماعهم علم أنه لا قدرة له على البلد فترددت الرسل حينئذ فى الصلح فاستقرت القاعدة على أن يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها الغور للأفضل على ما كانت عليه وأن يعطى الأفضل أخاه الملك الظاهر جبلة ولاذقية وأن يكون للعادل بمصر إقطاعه الأول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز إلى مصر ورجع كل واحد من الملوك إلى بلده

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة كانت زلزلة فى ربيع الأول بالجزيرة والعراق وكثير من البلاد سقطت منها الجبابة التى عند مشهد أمير المؤمنين على عليه السلام وفيها فى جمادى الآخرة اجتمعت زغب وغيرها من العرب وقصدوا مدينة النبى صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم هاشم بن قاسم أخو أمير المدينة فقاتلهم فقتل هاشم وكان أمير المدينة قد توجه إلى الشام فلهذا طمعت العرب فيه . وفيها توفى القاضى أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدالصمد الطرسوسى الحلبى بها فى شعبان وكان من عباد الله الصالحين رحمه الله تعالى

﴿ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك وزير الخليفة همذان وغيرها من بلاد العجم﴾ قد ذكرنا ملك مؤيد الدين بن القصاب بلاد خوزستان فلما ملكها سار منها إلى ميسان من أعمال خوزستان فوصل إليه قتلغ اينانج بن البهلوان صاحب البلاد وقد

Marfat.com

تقدم ذكر تغلب خوارزم شاه عليها ومعه جماعة من الأمراء فأكرمه وزير الخليفة وأحسن إليه وكان سبب مجيئه أنه جرى بينه وبين عسكر خوارزم شاه ومقدمهم مياجق مصاف عند زنجان واقتتلوا فانهزم قتلغ اينانج وعسكره وقصد عسكر الخليفة ملتجئا إلى مؤيد الدين الوزير فأعطاه الوزير الخيل والخيام وغير ذلك مما يحتاج إليه وخلع عليه وعلى من معه من الأمراء ورحلوا إلى كرمانشاه ورحل منها إلى همذان وكان بها ولد خوارزم شاه ومياجق والعسكر الذين معهما فلما قاربهم عسكر الخليفة فارقها الخوارزميون وتوجهوا إلى الرى واستولى الوزير على همذان فى شوال من هذه السنة ثم رحل هو وقتلغ اينانج خلفهم فاستولوا على كل بلد جازوا به منها خراقان ومزدغان وساوة وآوة وساروا إلى الرى ففارقها الخوارزميون إلى خوار الرى فسير الوزير خلفهم عسكرا ففارقها الخوارزميون إلى دامغان وبسطام وجرجان فعاد عسكر الخليفة إلى الرى فأقاموا بها فاتفق قتلغ اينانج ومن معه من الأمراء على الخلاف على الوزير وعسكر الخليفة لأنهم رأوا البلاد قد خلت من عسكر خوارزم شاه فطمعوا فيها فدخلوا الرى فحصرها وزير الخليفة ففارقها قتلغ اينانج وملكها الوزير ونهبها العسكر فأمر الوزير بالنداء بالكف عن النهب وسار قتلغ اينانج ومن معه من الأمراء إلى مدينة آوة ونهبها شحنة الوزير فمنعهم من دخولها فساروا عنها ورحل الوزير فى أثرهم نحو همذان فبلغه وهو فى الطريق أن قتلغ اينانج قد اجتمع معه عسكر وقصد مدينة كرج وقد نزل على دربند هناك فطلبهم الوزير فلما قاربهم التقوا واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم قتلغ اينانج ونجا بنفسه ورحل الوزير من موضع المصاف إلى همذان فنزل بظاهرها فأقام نحو ثلاثة أشهر فوصله رسول خوارزم شاه تكش وكان قد قصدهم منكرا أخذه البلاد من عسكره ويطلب إعادتها وتقرير قواعدها والصلح فلم يجب الوزير إلى ذلك فسار خوارزم شاه مجدا إلى همذان وكان الوزير مؤيد الدين بن القصاب قد توفى فى أوائل شعبان فوقع بينه وبين عسكر الخليفة مصاف نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فقتل بينهم كثير من العسكرين وانهزم عسكر الخليفة وغنم الخوارزميون منهم شيئا كثيرا وملك خوارزم شاه همذان ونبش الوزير من قبره وقطع رأسه وسيره إلى خوارزم وأظهروا أنه قتله فى المعركة ثم إن خوارزم شاه أتاه من خراسان ما أوجب أن يعود إليها فترك البلاد وعاد إلى خراسان.

﴿ذكر غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس﴾ فى هذه السنة فى شعبان غزا أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن صاحب بلاد المغرب والأندلس بلاد الفرنج بالأندلس وسبب ذلك أن الفنش ملك الفرنج بها ومعه ملكة مدينة طليطلة كتب إلى يعقوب كتابا باسمك اللهم فاطر السموات والأرض أما بعد أيها الأمير فإنه لا يخفى على كل ذى عقل لازب ولا ذى لب ثاقب أنك أمير الملة الحنيفية كما أنا أمير الملة النصرانية وأنك من لا يخفى عليه ما هو عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية واشتمالهم على الراحات وأنا أسومهم الخسف وأخلى الديار وأسبى الذرارى وأمثل بالكهول وأقتل الشباب ولا عذر لك فى التخلف عن نصرتهم وقد أمكنتك يد القدرة وأنتم تعتقدون أن الله فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فقد فرض عليكم قتال اثنين منا بواحد منكم ونحن الآن نقاتل عددا منكم بواحد منا ولا تقدرون دفاعا ولا تستطيعون امتناعا ثم حكى لى عنك أنك أخذت فى الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال وتمطل نفسك عاما بعد عام تقدم رجلا وتؤخر أخرى ولا أدرى أالجبن أبطأ بك أم التكذيب بما أنزل عليك ثم حكى لى عنك أنك لا تجد سبيلا للحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم فيها فها أنا أقول لك ما فيه واعتذر عنك

ولك أن توفيني بالعهود والمواثيق والأيمان أن تتوجه بجملة من عندك فى المراكب والشوانى وأجوز إليك بجملتى وأبارزك فى أعز الأماكن عندك فإن كان لك فغنيمة عظيمة جاءت إليك وهدية مثلت بين يديك وإن كانت لى كانت يدى العليا عليك واستحققت إمارة الملتين والتقدم على المثنين والله يسهل الإرادة ويوفق السعادة بمنه لارب غيره ولاخير إلا خيره) فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب فى أعلاه هذه الآية (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) وأعاده إليه وجمع العساكر العظيمة من المسلمين وعبر المجاز الى الأندلس وقيل كان سبب عبوره إلى الأندلس أن يعقوب لما قاتل الفرنج سنة ست وثمانين وصالحهم بقى طائفة من الفرنج لم ترض الصلح كما ذكرناه فلما كان الآن جمعت تلك الطائفة جمعا من الفرنج وخرجوا إلى بلاد الإسلام فقتلوا وسبوا وغنموا وأسروا وعاثوا فيها عيثا شديدا فانتهى ذلك إلى يعقوب فجمع العساكر وعبر المجاز الى الأندلس فى جيش يضيق عنه الفضاء فسمعت الفرنج بذلك فجمعت قاصيهم ودانيهم وأقبلوا إليه مجدين على قتاله واثقين بالظفر لكثرتهم فالتقوا تاسع شعبان شمالى قرطبة عند قلعة رياح بمكان يعرف بمرج الحديد فاقتتلوا قتالا شديدا فكانت الدائرة أولا على المسلمين ثم عادت على الفرنج فانهزموا أقبح هزيمة وانتصر المسلمون عليهم ﴿وجعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هى العليا والله عزيز حكيم﴾ وكان عدد من قتل من الفرنج مائة ألف وستة وأربعين ألفا وأسر ثلاثة عشر ألفا وغنم المسلمون منهم شيئا عظيما فمن الخيام مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفا ومن الخيل سته وأربعون ألفا ومن البغال مائة ألف ومن الحمير مائة ألف وكان يعقوب قد نادى فى عسكره من غنم شيئا فهو له سوى السلاح وأحصى ماحمل إليه منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس وقتل من المسلمين نحو عشرين ألفا ولما انهزم الفرنج اتبعهم أبو يوسف فرآهم قد أخلوا قلعة رياح وساروا عنها من الرعب والخوف فملكها وجعل فيها واليا وجندا يحفظونها وعاد إلى مدينة أشبيلية وأما الفنش فإنه لما انهزم حلق رأسه ونكس صليبه وركب حمارا وأقسم أن لايركب فرسا ولا بغلا حتى تنصر النصرانية فجمع جموعا عظيمة وبلغ الخبر بذلك إلى يعقوب فأرسل إلى بلاد الغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير إكراه فأتاه من المتطوعة والمرتزقين جمع عظيم فالتقوا فى ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة فانهزم الفرنج هزيمة قبيحة وغنم المسلمون مامعهم من الأموال والسلاح والدواب وغيرها وتوجه إلى مدينة طليطلة فحصرها وقاتلها قتالا شديدا وقطع أشجارها وشن الغارة على ماحولها من البلاد وفتح فيها عدة حصون فقتل رجالها وسبى حريمها وخرب دورها وهدم أسوارها فضعفت النصرانية حينئذ وعظم أمر الإسلام بالأندلس وعاد يعقوب إلى أشبيلية فأقام بها فلما دخلت سنة ثلاث وتسعين سار عنها إلى بلاد الفرنج وذلوا واجتمع ملوكهم وأرسلوا يطلبون الصلح فأجابهم إليه بعد أن كان عازما على الامتناع مريدا لملازمة الجهاد إلى أن يفرغ منهم فأتاه خبر على بن إسحق الملثم الميورقى أنه فعل بأفريقية مانذكره من الأفاعيل الشنيعة فترك عزمه وصالحهم مدة خمس سنين وعاد إلى مراكش آخر سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

(ذكر فعلة الملثم بأفريقية) لما عبر أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب إلى الأندلس كما ذكرناه وأقام مجاهدا ثلاث سنين انقطعت أخباره عن أفريقية فقوى طمع على بن إسحاق الملثم الميورقى وكان بالبرية مع العرب فعاود قصد أفريقية فانبث جنوده فى البلاد فخربوها وأكثروا الفساد فيها فمحيت آثار تلك البلاد وتغيرت وصارت خالية من الأنيس خاوية على عروشها وأراد المسير إلى بجاية ومحاصرتها لاشتغال يعقوب بالجهاد

Marfat.com

وأظهر أنه إذا استولى على بجاية سار إلى المغرب فوصل الخبر إلى يعقوب بذلك فصالح الفرنج على ماذكرناه وعاد إلى مراكش عازما على قصده وإخراجه من البلاد كما فعله سنة إحدى وثمانين وخمسمائة وقد ذكرناه .

﴿ ذكر ملك عسكر الخليفة أصفهان ﴾ فى هذه السنة جهز الخليفة الناصر لدين الله جيشا وسيره إلى أصفهان ومقدمهم سيف الدين طغرل مقطع بلد اللحف من العراق وكان بأصفهان عسكر لخوارزم شاه مع ولده وكان أهل أصفهان يكرهونهم فكتب صدر الدين الخجندى رئيس الشافعية بأصفهان الديوان ببغداد يبذل من نفسه تسليم البلد إلى من يصل من الديوان من العساكر وكان بعد الحاكم بأصفهان على جميع أهلها فسيرت العساكر فوصلوا إلى أصفهان ونزلوا بظاهر البلد وفارقه عسكر خوارزم شاه وعادوا إلى خراسان وتبعهم بعض عسكر الخليفة فتحفظوا منهم وأخذوا من ساقة العسكر من قدروا عليه ودخل عسكر الخليفة إلى أصفهان وملكوها .

﴿ ذكر ابتداء حال كوكجا وملكه بلد الرى وهمذان وغيرها ﴾ لما عاد خوارزم شاه إلى خراسان كما ذكرنا اتفق المماليك الذين للبهلوان والأمراء وقدموا على أنفسهم كوكجه وهو من أعيان البهلوانية واستولوا على الرى وماجاورها من البلاد وساروا إلى أصفهان لإخراج الخوارزمية منها فلما قاربوها سمعوا بعسكر الخليفة عندها فأرسل إلى مملوك الخليفة سيف الدين طغرل يعرض نفسه على خدمة الديوان ويظهر العبودية وأنه إنما قصد أصفهان فى طلب العساكر الخوارزمية وحيث رآهم فارقوا أصفهان سار فى طلبهم فلم يدركهم وسار عسكر الخليفة من أصفهان إلى همذان وأما كوكجه فإنه تبع الخوارزمية إلى طبس وهى من بلاد الإسماعيلية وعاد فقصد أصفهان وملكها وأرسل إلى بغداد يطلب أن يكون له الرى وخوار الرى وساوة وقم وقاجان وماينضم اليها من حد مزدغان وتكون أصفهان وهمذان وزنجان وقزوين لديوان الخليفة فأجيب إلى ذلك وكتب له منشور بما طلب وأرسلت له الخلع فعظم شأنه وقوى أمره وكثرت عساكره وتعظم على أصحابه .

﴿ ذكر حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها ﴾ وفى هذه السنة أيضا خرج الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر فى عساكره إلى دمشق يريد حصرها فعاد عنها منهزما وسبب ذلك أن من عنده من مماليك أبيه المعروفين بالصلاحية نجم الدين جركس وسرانقر وقراجا وغيرهم كانوا منحرفين عن الأفضل على بن صلاح الدين لأنه كان قد أخرج من عنده منهم مثل ميمون القصرى وسنقر الكبير وأيبك وغيرهم فكانوا لايزالون يخوفون العزيز من أخيه ويقولون إن الأكراد والمماليك الأسدية من عسكر مصر يريدون أخاك ونخاف أن يميلهم اليه ويخرجوك من البلاد والمصلحة أن تأخذ دمشق نخرج فى العام الماضى وعاد كما ذكرناه فتجهز هذه السنة ليخرج فبلغ الخبر إلى الأفضل فسار من دمشق إلى عمه الملك العادل فاجتمع به بقلعة جعبر ودعاه إلى نصرته وسار من عنده إلى حلب إلى أخيه الملك الظاهر غازى فاستنجد به وسار الملك العادل من قلعة جعبر إلى دمشق فسبق الأفضل اليها ودخلها وكان الأفضل لثقته به قد أمر نوابه بإدخاله إلى القلعة ثم عاد الأفضل من حلب إلى دمشق فأرسل مقدم الأسدية وهو سيف الدين أيازكوش وغيره منهم ومن الأكراد أبو الهيجاء السمين وغيره إلى الأفضل والعادل بالانحياز اليهما والكون معهما ويأمرهما بالاتفاق على العزيز والخروج من دمشق ليسلموه اليهما وكان سبب الانحراف عن العزيز وميلهم إلى الأفضل أن العزيز لما ملك مصر مال إلى المماليك الناصرية وقدمهم ووثق بهم ولم يلتفت إلى هؤلاء الأمراء فأنفوا من ذلك ومالوا إلى أخيه وأرسلوا إلى الأفضل والعادل فاتفقا

Marfat.com

على ذلك واستقرت القاعدة بحضور رسل الأمراء أن الأفضل يملك الديار المصرية ويسلم دمشق إلى عمه الملك العادل وخرجا من دمشق فانحاز إليهما من ذكرنا فلم يمكن العزيز المقام بل عاد منهزما يطوى المراحل خوف الطلب ولا يصدق بالنجاة وتساقط أصحابه عنه إلى أن وصل إلى مصر ، وأما العادل والأفضل فإنهما أرسلا إلى القدس وفيه نائب العزيز فسلمه إليهما وسارا فيمن معهما من الأسدية والأكراد إلى مصر فرأى العادل انضمامة العساكر إلى الأفضل واجتماعهم عليه فخاف أنه يأخذ مصر ولا يسلم إليه دمشق فأرسل حينئذ سرا إلى العزيز يأمره بالثبات وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها وتكفل بأنه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها فجعل العزيز الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس بها ومعهم غيرهم ووصل العادل والأفضل إلى بلبيس فنازلوا من بها من الناصرية وأراد الأفضل مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل إلى مصر فمنعه العادل من الأمرين وقال هذه عساكر الإسلام فإذا اقتتلوا فى الحرب فمن يرد العدو الكافر وما بها حاجة إلى هذا فإن البلاد لك وبحكمك ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهرا زالت هيبة البلاد وطمع فيها الأعداء وليس فيها من يمنعك عنها وسلك معه مثال هذا فطالت الأيام وأرسل إلى العزيز سرا يأمره بإرسال القاضى الفاضل وكان مطاعا عند البيت الصلاحى لعلو منزلته كانت عند صلاح الدين فحضر عندهما وأجرى ذكر الصلح وزاد القول ونقص وانفسخت العزائم واستقر الأمر على أن يكون للأفضل القدس وجميع البلاد بفلسطين وطبرية والأردن وجميع ما بيده ويكون للعادل أقطاعه الذى كان قديما ويكون مقيما بمصر عند العزيز وإنما اختار ذلك لأن الأسدية والأكراد لا يريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريد فلما استقر الأمر على ذلك وتعاهدوا عاد الأفضل إلى دمشق وبقى العادل بمصر عند العزيز

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى ذى القعدة تاسع عشرة وقع حريق عظيم ببغداد بعقد المصطنع فاحترقت المربعة التى بين يديه ودكان ابن البخيل الهراس ، وقيل كان ابتداؤها من دار ابن البخيل

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلد الهند ﴾ فى هذه السنة سار شهاب الدين الغورى صاحب غزنة إلى بلد الهند وحصر قلعة بهنكر وهى قلعة عظيمة منيعة فحصرها فطلب أهلها منه الأمان على أن يسلموا إليه فأمنهم وتسلمها وأقام عندها عشرة أيام حتى رتب جندها وأحوالها وسار عنها إلى قلعة كوالير وبينهما مسيرة خمسة أيام وفى الطريق نهر فجازه ووصل إلى كوالير وهى قلعة منيعة حصينة على جبل لا يصل إليها حجر منجنيق ولا نشاب وهى كبيرة فأقام عليها صفرا جميعه يحاصرها فلم يبلغ منها غرضا فراسله من بها فى الصلح فأجابهم إليه على أن يقر القلعة بأيديهم على مال يحملونه إليه فحملوا إليه فيلا حمله ذهب فرحل عنها إلى بلاد آى وسور فأغار عليها ونهبها وسبى وأسر ما يعجز العادّ حصره ثم عاد إلى غزنة سالما .

﴿ ذكر ملك العادل مدينة دمشق من الأفضل ﴾ فى هذه السنة فى السابع والعشرين من رجب ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب مدينة دمشق من ابن أخيه الأفضل على بن صلاح الدين وكان أبلغ الأسباب فى ذلك وثوق الأفضل بالعادل وأنه بلغ من وثوقه أنه أدخله بلده وهو غائب عنه ولقد أرسل إليه أخوه الظاهر غازى صاحب حلب يقول له أخرج عمنا من بيننا فإنه لا يجىء علينا منه خير ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد وأنا أعرف به

Marfat.com

منك وأقرب اليه فابه عمى مثل ماهو عمك وأنازوج ابنته ولوعلمت أنه يريد لنا خيرا لكنت أنا أولى به منك فقال له الأفضل أنت سيء الظن فى كل أحد أى مصلحة لعمنا فى أن يؤذينا ونحن إذا اجتمعت كلمتنا وسيرنا معه العساكر من عندنا كلنا ملك من البلاد أكثر من بلادنا ونربح سوء الذكر وهذا كان أبلغ الأسباب ولا يعلمها كل أحد وأما غير هذا فقد ذكرنا مسير العادل والأفضل إلى مصر وحصارهم بلبيس وصلحهم مع الملك العزيز ابن صلاح الدين ومقام العادل معه بمصر فلما أقام عنده استماله وقرر معه أنه يخرج معه إلى دمشق ويأخذها من أخيه ويسلمها اليه فسار معه من مصر إلى دمشق وحصروها واستمالوا أميرا من أمراء الأفضل يقال له العزيز بن أبى غالب الحمصى وكان الأفضل كثير الإحسان اليه والاعتماد عليه والوثوق به فسلم اليه بابا من أبواب دمشق يعرف بالباب الشرقى ليحفظه فمال إلى العزيز والعادل ووعدهما أنه يفتح لهما الباب ويدخل العسكر منه إلى البلد غفلة ففتحه اليوم السابع والعشرين من رجب وقت العصر وأدخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه فلم يشعر الأفضل إلا وعمه معه فى دمشق وركب الملك العزيز ووقف بالميدان الأخضر غربى دمشق فلما رأى الأفضل أن البلد قد ملك خرج إلى أخيه وقت المغرب واجتمع به ودخلا كلاهما البلد واجتمعا بالعادل وقد نزل فى دار أسد الدين شيركوه وتحادثوا فاتفق العادل والعزيز على أن أوهما الأفضل أنهما يبقيان عليه البلد خوفا أنه ربما جمع من عنده من العسكر وثاربهما ومعه العامة فأخرجهم من البلد لأن العادل لم يكن فى كثرة وأعاد الأفضل إلى القلعة وبات العادل فى دار شيركوه وخرج العزيز إلى الخيم فبات فيها وخرج العادل من الغد إلى جوسقه فأقام به وعساكره فى البلد فى كل يوم يخرج الأفضل إليهما ويجتمع بهما فبقوا كذلك أياما ثم أرسلا إليه وأقراه بمفارقة القلعة وتسليم البلد على قاعدة أن تعطى قلعة صرخد له ويسلم جميع أعمال دمشق فخرج الأفضل ونزل فى جوسق بظاهر البلد غربى دمشق وتسلم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها أياما فجلس يوما فى مجلس شرابه فلما أخذت منه الخمر جرى على لسانه أنه يعيد البلد إلى الأفضل فنقل ذلك إلى العادل فى وقته فحضر المجلس فى ساعته والعزيز سكران فلم يزل به حتى سلم البلد إليه وخرج منه وعاد إلى مصر وسار الأفضل إلى صرخد وكان العادل يذكر أن الأفضل سعى فى قتله فلهذا أخذ البلد منه وكان الأفضل ينكر ذلك ويتبرأ منه (والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة هبت ريح شديدة بالعراق واسودت لها الدنيا ووقع رمل أحمر واستعظم الناس ذلك وكبروا واشتعلت الأضواء بالنهار وفيها قتل صدر الدين محمود بن عبد اللطيف بن محمد ابن ثابت الخجندى رئيس الشافعية بأصفهان قتله فلك الدين سنقر الطويل شحنة أصفهان بها وكان قدم بغداد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة واستوطنها وولى النظر فى المدرسة النظامية ببغداد ولما سار مؤيد الدين بن القصاب إلى خوزستان سار فى صحبته فلما ملك الوزير أصفهان أقام ابن الخجندى بها فى بيته وملكه ومنصبه فجرى بينه وبين سنقر الطويل شحنة أصفهان للخليفة منافرة فقتله سنقر . وفى رمضان درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك البغدادى الفقيه الشافعى بالمدرسة النظامية ببغداد وفى شوال منها أثبت نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الرازى فى الوزارة ببغداد وكان قد توجه إلى بغداد لما ملك ابن القصاب الرى وفيها ولى أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة ديوان الإنشاء ببغداد وكان كاتبا مفلقا وله شعر جيد . وفى صفر منها توفى الفخر محمود ابن علىّ القوفانى الفقيه الشافعى بالكوفة عائدا من الحج وكان من أعيان أصحابه محمد بن يحيى . وفى رجب منها

Marfat.com

Marfat.com

توفى أبو الغنائم محمد بن علىّ بن المعلم الشاعر الهرثى (والهرث بضم الهاء والثاء المثلثة قرية من أعمال واسط) عن إحدى وتسعين سنة . وفى رابع شعبان منها توفى الوزير مؤيدالدين أبو الفضل محمد بن علىّ بن القصاب بهمذان وقد ذكرنا من كفايته ونهضته ما فيه كفاية .

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر إرسال الامير أبى الهيجاء إلى همذان وما فعله ﴾ وصل إلى بغداد أمير كبير من أمراء مصر اسمه أبو الهيجاء ويعرف بالسمين لأنه كان كثير السمن وكان من أكابر أمراء مصر وكان فى أقطاعه أخيرا البيت المقدس وغيره مما يجاوره فلما ملك العزيز والعادل مرتبة دمشق من الأفضل أخذ القدس منه ففارق الشام وعبر الفرات إلى الموصل ثم انحدر إلى بغداد لأنه طلب من ديوان الخلافة فلما وصل إليها أكرم إكراما كثيرا ثم أمر بالتجهيز والمسير إلى همذان مقدما على عساكر البغدادية فسار إليها والتقى عندها بالملك أوزبك بن البهلوان وأمير علم وابنه وابن سطمش وغيرهم وهم قد كاتبوا الخليفة بالطاعة فلما اجتمع بهم وثقوا اليه ولم يحذروه فقبض على أوزبك وابن سطمش وابن قرا بموافقة من أمير علم فلما وصل الخبر بذلك إلى بغداد أنكرت هذه الحال على أبى الهيجاء وأمر بالإفراج عن الجماعة وسيرت لهم الخلع من بغداد تطييبا لقلوبهم فلم يسكنوا بعد هذه الحادثة ولا آمنوا ففارقوا أبا الهيجاء السمين فخاف الديوان فلم يرجع إليه ولم يمكنه أيضا المقام فعاد يريد إربل لأنه من بلدها هو فتوفى قبل وصوله إليها وهو من الأكراد الحكمية من بلد إربل

﴿ ذكر ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تبنين ورحيلهم عنها ﴾

فى هذه السنة فى شوال ملك العادل أبوبكر بن أيوب مدينة يافا من الساحل الشامى وهو بيد الفرنج لعنهم الله وسبب ذلك أن الفرنج كان قد ملكهم الكندهرى على ماذكرناه قبل وكان الصلح قد استقر بين المسلمين والفرنج أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى ، فلما توفى وملك أولاده بعده كما ذكرناه جدد الملك العزيز الهدنة مع الكندهرى وزاد فى مدة الهدنة وبقى ذلك إلى الآن وكان بمدينة بيروت أمير يعرف بأسامة وهو مقطعها فكان يرسل الشوانى تقطع الطريق على الفرنج فاشتكى الفرنج من ذلك غير مرة إلى الملك العادل بدمشق والى الملك العزيز بمصر فلم يمنعا أسامة من ذلك فأرسلوا إلى ملوكهم الذين داخل البحر يشتكون إليهم مايفعل بهم المسلمون ويقولون إن لم تنجدونا وإلا أخذ المسلمون البلاد فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة وكان أكثرهم من ملك الألمان وكان المقدم عليهم قس يعرف بالخنصلير فلما سمع العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب العساكر وأرسل إلى ديار الجزيرة والموصل يطلب العساكر فجاءته الأمراء واجتمعوا على عين جالوت فأقاموا شهر رمضان وبعض شوال ورحلوا إلى يافا وملكوا المدينة وامتنع من بها بالقلعة التى لها فخرب المسلمون المدينة وحصروا القلعة فملكوها عنوة وقهرا بالسيف فى يومها وهو يوم الجمعة وأخذ كل مابها غنيمة وأسرا وسبيا ووصل الفرنج من عكا إلى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا فوصلهم الخبر بها بملكها فعادوا وكان سبب تأخرهم أن ملكهم الكندهرى سقط من موضع عال بعكا فمات فاختلفت أحوالهم فتأخروا لذلك وعاد المسلمون إلى عين جالوت فوصلهم الخبر بأن الفرنج على عزم قصد بيروت فرحل العادل والعسكر فى ذى القعدة إلى مرج العيون وعزم على تخريب بيروت فسار إليها جمع من العسكر وهدموا سور المدينة سابع ذى الحجة وشرعوا فى تخريب دورها وتخريب القلعة فمنعهم أسامة من ذلك وتكفل بحفظها ورحل الفرنج

Marfat.com

من عكا إلى صيدا وعاد عسكر المسلمين من بيروت فالتقوا هم والفرنج بنواحى صيدا وجرى بينهم مناوشة فقتل من الفريقين جماعة وحجز بينهم الليل وسار الفرنج تاسع ذى الحجة فوصلوا إلى بيروت فلما قاربوها هرب منها أسامة وجميع من معه من المسلمين فملكوها صفوا عفوا بغير حرب ولا قتال فكانت غنيمة باردة فأرسل العادل إلى صيدا من خرب ما كان بقى منها فإن صلاح الدين كان قد خرب أكثرها وسافرت العساكر الإسلامية إلى صور فقطعوا أشجارها وخربوا مالها من قرى وأبراج فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا من بيروت إلى صور وأقاموا عليها ونزل المسلمون عند قلعة هونين وأذن للعساكر الشرقية بالعود ظنا منه أن الفرنج يقيمون ببلادهم وأراد أن يعطى العساكر المصرية دستورا بالعود فأتاه الخبر منتصف المحرم أن الفرنج يريدون أن يحصروا حصن تبنين فسير العادل اليه عسكرا يحمونه ويمنعون عنه ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبنين أول صفر سنة أربع وتسعين وقاتلوا من به وجدوا فى القتال ونقبوه من جهاتهم فلما علم العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب منه أن يحضر هو بنفسه ويقول له إن حضرت وإلا فلا يمكن حفظ هذا الثغر فسار العزيز مجدا فيمن بقى معه من العساكر وأما من تحصن بتبنين فإنهم لما رأوا النقوب قد خربت القلعة ولم يبق إلا أن يملكوها بالسيف نزل بعض من فيها إلى الفرنج يطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم ليسلموا القلعة وكان المرجع إلى القسيس الخنصلير من أصحاب ملك الألمان فقال لهؤلاء المسلمين بعض الفرنج الذين من ساحل الشام أن سلمتم الحصن استأسركم هذا وقتلكم فاحفظوا نفوسكم فعادوا كأنهم يراجعون من فى القلعة ليسلموا فلما صعدوا اليها أصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمى نفسه فحموها إلى أن وصل الملك العزيز إلى عسقلان فى ربيع الأول فلما سمع الفرنج بوصوله واجتماع المسلمين وأن الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم وأن أمرهم إلى امرأة وهى الملكة فاتفقوا وأرسلوا إلى ملك قبرس واسمه هيمرى فأحضروه وهو أخو الملك الذى أسر بحطين كما ذكرناه فزوجوه بالملكة زوجة الكندهرى وكان رجلا عاقلا يحب السلامة والعافية فلما ملكهم لم يعد إلى الزحف على الحصن ولا قاتل واتفق وصول العزيز أول شهر ربيع الآخر ورحل هو والعساكر إلى جبل الخيل الذى يعرف بجبل عاملة فأقاموا أياما والأمطار متداولة فبقى إلى ثالث عشر الشهر ثم سار وقارب الفرنج وأرسل رماة النشاب فرموهم ساعة وعادوا ورتب العساكر ليزحف إلى الفرنج ويجد فى قتالهم فرحلوا إلى صور خامس عشر الشهر المذكور ليلا ثم رحلوا إلى عكا فسار المسلمون فنزلوا اللجون وتراسلوا فى الصلح وتطاول الأمر فعاد العزيز إلى مصر قبل انفصال الحال وسبب رحيله أن جماعة من الأمراء وهم ميمون القصرى وأسامة وسراسنقر والحجاف وابن المشطوب وغيرهم قد عزموا على الفتك به وبفخر الدين جركس مدبر دولته والله سبحانه وتعالى أعلم بذلك فلما سمع بذلك سار إلى مصر وبقى العادل وترددت الرسل بينه وبين الفرنج فى الصلح فى شعبان سنة أربع وتسعين فلما انتظم الصلح عاد العادل إلى دمشق وسار منها إلى ماردين من أرض الجزيرة فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

﴿ ذكر وفاة سيف الإسلام وملك ولده ﴾ فى شوال من هذه السنة توفى سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين وهو صاحب اليمن بزبيد وقد ذكرنا كيف ملك وكان شديد السيرة مضيفا على رعيته يشترى أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء وأراد ملك مكة حرسها الله تعالى فأرسل الخليفة الناصر لدين الله إلى أخيه صلاح الدين فى المعنى فمنعه من ذلك وجمع من الأموال مالا يحصى حتى أنه من كثرته كان يسبك

الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره ولما توفى ملك بعده ابنه اسماعيل وكان أهوج كثير التخليط بحيث إنه ادعى أنه قرشى من بنى أمية وخطب لنفسه بالخلافة وتلقب بالهادى فلما سمع عمه الملك العادل ذلك ساءه وأهمه وكتب إليه يلومه ويوبخه ويأمره بالعود إلى نسبه الصحيح وبترك ما ارتكبه مما يضحك الناس منه فلم يلتفت إليه ولم يرجع وانضاف إلى ذلك أنه أساء السيرة مع أجناده وأمرائه فوثبوا عليه فقتلوه وملكوا بعده أميرا من مماليك أبيه .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة فى ربيع الآخر توفى أبو بكر عبدالله بن منصور بن عمران الباقلانى المقرى الواسطى بها عن ثلاث وسبعين سنة وثلاثة أشهر وأيام وهو آخر من بقى من أصحاب القلانسى وفى جمادى الآخرة توفى قاضى القضاة أبو طالب على بن البخارى ببغداد ودفن بتربته فى مشهد باب التبن وفيها فى ربيع الآخر توفى ملكشاه بن خوارزم شاه تكش بنيسابور وكان أبوه قد جعله فيها وأضاف إليه عساكر جميع بلاده التى بخراسان وجعله ولى عهده فى الملك وخلف ولد اسمه هند وخان فلما مات جعل فيها أبوه خوارزم شاه بعده ولده الآخر قطب الدين محمدا وهو الذى ملك بعد أبيه وكان بين الأخوين عداوة مستحكمه أفضت إلى أن محمدا لما ملك بعد أبيه هرب هندوخان بن ملكشاه منه على ما ذكره . وفيها توفى شيخنا أبو القاسم يعيش ابن صدقة بن على الفراتى الضرير الفقيه الشافعى كان إماما فى الفقه مدرسا صالحا كثير الصلاح سمعت عليه كثيرا لم أر مثله رحمه الله تعالى ولقد شاهدت منه عجبا يدل على دينه وإرادته بعمله وجه الله تعالى وذلك أنى كنت أسمع عليه ببغداد سنن أبى عبدالرحمن النسائى وهو كتاب كبير والوقت ضيق لأنى كنت مع الحجاج قد عدنا من مكة حرسها الله فبينما نحن نسمع عليه مع أخى الأكبر مجد الدين أبى السعادات إذ قد أتاه إنسان من أعيان بغداد وقال له قد برز الأمر لنحضر الأمر كذا فقال أنا مشغول بسماع هؤلاء السادة ووقتهم يفوت والذى يراد منى لا يفوت فقال أنا لا أحسن أذكر هذا فى مقابل أمر الخليفه فقال لا عليك قل قال أبو القاسم لا أحضر حتى يفرغ السماع فسألناه ليمشى معه فلم يفعل ذلك وقال اقرؤا فقرأنا فلما كان الغد حضر غلام لنا وذكر أن أمير الحاج الموصلى قد رحل فعظم الأمر علينا فقال ولم يعظم عليكم العود إلى أهلكم وبلدكم فقلنا لأجل فراغ هذا الكتاب فقال إذا رحلتم أستعير دابة وأركبها وأسير معكم وأنتم تقرؤن فإذا فرغتم عدت فمضى الغلام ليتزود ونحن نقرأ فعاد وذكر أن الحجاج لم يرحلوا ففرغنا من الكتاب فانظر إلى هذا الدين المتين يرد أمر الخليفة وهو يخافه ويرجوه ويريد يسير معنا ونحن غرباء لا يخافنا ولا يرجونا .

﴿ ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر وفاة عماد الدين وملك ولده قطب الدين محمد ﴾ فى هذه السنة فى المحرم توفى عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب سنجار ونصيبين والخابور والرقة وقد تقدم ذكره كيف ملكها سنة تسع وسبعين وكان رحمه الله عادلا حسن السيرة فى رعيته عفيفا عن أموالهم وأملاكهم متواضعا يحب أهل العلم والدين ويحترمهم ويجلس معهم ويرجع إلى أقوالهم إلا أنه كان بخيلا شديد البخل وملك بعده ابنه قطب الدين محمد وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برتقش مملوك أبيه وكان دينا خيرا عادلا حسن السيرة كثير البر والإحسان للى الفقراء وكان رحمه الله شديد التعصب على مذهب الحنفية كثير الذم للشافعية فمن تعصبه أنه بنى مدرسة

Marfat.com

للحنفية بسنجار وشرط أن يكون النظر للحنفية من أولاده دون الشافعية وشرط أن يكون البواب والفراش على مذهب أبى حنيفة وشرط للفقهاء طبيخا يطبخ ذلك كل يوم وهذا نظر حسن رحمه الله .

﴿ ذكر ملك نور الدين نصيبين ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الأولى سار نورالدين أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود صاحب الموصل إلى مدينة نصيبين فملكها وأخذها من ابن عمه قطب الدين محمد وسبب ذلك أن عمه عمادالدين كان له نصيبين فتطاول نوابه بها واستولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل وهى تجاور نصيبين فبلغ الخبر مجاهد الدين قايماز القائم بتدبير مملكة نورالدين بالموصل كلها والمرجوع إليه فيها فلم يعلم مخدومه بذلك لما علم من قلة صبره على احتمال مثل هذا وخاف أن يجرى خلف بينهم فأرسل من عنده رسولا إلى عماد الدين فى المعنى وقبح هذا الفعل الذى فعله النواب بغير أمره وقال إننى ماأعلمت نورالدين بالحال لئلا يخرج عن يدك فإنه ليس كوالده وأخاف أن يبدو منه مايخرج الأمر فيه عن يدى فأعاد الجواب أنهم لم يفعلوا إلا ماأمرتهم به وهذه القرى من أعمال نصيبين فترددت الرسل بينهما فلم يرجع عمادالدين عن أخذها فحينئذ أعلم مجاهدالدين نورالدين بالحال فأرسل نورالدين رسولا من مشايخ دولته ممن خدم جدهم الشهيد زنكى ومن بعده وحمله رسالة فيها بعض الخشونة فمضى الرسول فلحق عماد الدين قد مرض فلما سمع الرسالة لم ينتفت وقال لاأعيد ملكى فأشار الرسول من عنده حيث هو من مشايخ دولتهم بترك وتسليم ماأخذه وحذره عاقبة ذلك فأغلظ عليه عماد الدين القول وعرض بذم نورالدين واحتقاره فعاد الرسول وحكى لنورالدين جلية الحال فغضب نورالدين وعزم على المسير إلى نصيبين وأخذها من عمه فاتفق أن عمه مات وملك بعده ابنه فقوى طمعه فمنعه مجاهد الدين فلم يمتنع وتجهز وسار اليها فلما سمع قطب الدين صاحبها سار اليها من سنجار فى عسكره ونزل عليها ليمتنع نورالدين عنها فوصل نورالدين وتقدم إلى البلد وكان بينهما نهر فجازه بعض أمرائه وقاتل من بإزائه فلم يثبتوا له فعبر جميع العسكر النورى وتمت الهزيمة على قطب الدين فصعد هو ونائبه مجاهد الدين برتقش إلى قلعة نصيبين وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين إلى حران وراسلوا الملك العادل أبا بكر بن أيوب صاحب حران وغيرها وهو بدمشق وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد نصيبين إليهم وأقام نور الدين بنصيبين مالكها فتضعضع عسكره بكثرة الأمراض وعودهم إلى الموصل وموت كثير منهم ووصل العادل إلى الديار الجزرية فحينئذ فارق نورالدين نصيبين وعاد إلى الموصل فى شهر رمضان فلما فارقها تسلمها قطب الدين وممن توفى من أمراء الموصل عزالدين جورديك شمس الدين عبد الله بن إبراهيم وفخرالدين عبدالله بن عيسى المهرانيان ومجاهدالدين قايماز وظهير الدين يولق بن بلنكرى وجمال الدين محاسن وغيرهم ولما عاد نورالدين إلى الموصل قصد العادل قلعة ماردين فحصرها وضيق على أهلها على مانذكره إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر ملك الغورية مدينة بلخ من الخطأ الكافرة ﴾ فى هذه السنة ملك بهاء الدين سام بن محمد بن مسعوه وهو ابن أخت غياث الدين وشهاب الدين صاحبى غزنه وغيرها وله باميان مدينة بلخ وكان صاحبها تركيا اسمه أزبه وكان يحمل الخراج كل سنة إلى الخطأ بما وراء النهر . فتوفى عذه السنة ، فسار بهاء الدين سام إلى المدينة فملكها وتمكن منها وقطع الحمل إلى الخطأ وخطب لغياث الدين وصارت من جملة بلاد الإسلام بعد أن كانت فى طاعة الكفار .

Marfat.com

﴿ذكر انهزام الخطا من الغورية﴾ وفى هذه السنة عبر الخطا نهر جيحون إلى ناحية خراسان فعاثوا فى البلاد وأفسدوا فلقيهم عسكر غياث الدين الغورى وقاتلهم فانهزم الخطا وكان سبب ذلك أن خوارزم شاه تكش كان قد سار إلى بلد الرى وهمذان وأصفهان وما بينهما من البلاد وملكها وتعرض إلى عساكر الخليفة وأظهر طلب السلطنة والخطبة ببغداد فأرسل الخليفة إلى غياث الدين ملك الغور وغزنة يأمره بقصد بلاد خوارزم شاه ليعود عن قصد العراق وكان خوارزم شاه قد عاد إلى خوارزم فراسله غياث الدين يقبح له فعله ويتهدده بقصد بلاده وأخذها فأرسل خوارزم شاه إلى الخطا يشكو إليهم من غياث الدين ويقول إن لم تدركوه بإنفاذ العساكر وإلا أخذ غياث الدين بلاده كما أخذ مدينة بلخ، وقصد بعد ذلك بلادهم ويتعذر عليهم منعه ويعجزون عنه ويضعفون عن رده عما وراء النهر فجهز ملك الخطا جيشا كثيفا وجعل مقدمهم المعروف بطاينكوا وهو كالوزير فساروا وعبروا جيحون فى جمادى الآخرة وكان الزمان شتاء وكان شهاب الدين الغورى أخو غياث الدين ببلاد الهند والعساكر معه وغياث الدين به من القرس ما يمنعه من الحركة إنما يحمل فى محفة والذى يقود الجيش ويباشر الحروب أخوه شهاب الدين فلما وصل الخطا إلى جيحون سار خوارزم شاه إلى طوس عازما على قصد هراة ومحاصرتها وعبر الخطا النهر ووصلوا إلى بلاد الغور مثل كرزيان وشبرقان وغيرهما وقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا كثيرا لا يحصى فاستغاث الناس بغياث الدين فلم يكن عنده من العساكر ما يلقاهم بها، فراسل الخطا بهاء الدين سام ملك باميان يأمرونه بالإفراج عن بلخ وأنه يحمل ما كان من قبله يحمله من المال فلم يجبهم إلى ذلك وعظمت المصيبة على المسلمين بما فعله الخطا فانتدب الأمير محمد بن جربك الغورى وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدين وكان شجاعا وكاتب الحسين بن خرميل وكان بقلعة كرزيان واجتمع معهما الأمير حروش الغورى وساروا بعساكرهم إلى الخطا فبيتوهم وكبسوهم ليلا من عادة الخطا أنهم لا يخرجون من خيامهم ليلا ولا يفارقونها فأتاهم هؤلاء الغورية وقاتلوهم وأكثروا القتل فى الخطا وانهزم من سلم منهم من القتل وأين ينهزمون والعسكر الغورى خلفهم وجيحون بين أيديهم وظن الخطا أن غياث الدين قد قصدهم فى عساكره فلما أصبحوا وعرفوا من قاتلهم وعلموا أن غياث الدين بمكانه قويت قلوبهم وثبتوا عامة نهارهم فقتل من الفريقين خلق عظيم ولحقت المتطوعة بالغوريين وأتاهم مدد من غياث الدين وهم فى الحرب، فثبت المسلمون وعظمت نكايتهم فى الكفار وحمل الأمير حروش على قلب الخطا وكان شيخا كبيرا فأصابه جراحة توفى منها ثم إن محمود بن جربك وابن خرميل حملا فى أصحابهما وتنادوا أن لا يرمى أحد بقوس ولا يطعن برمح وأخذوا اللنوت وحملوا على الخطا فهزموهم وألحقوهم بجيحون، فمن صبر قتل ومن ألقى نفسه فى الماء غرق ووصل الخبر إلى ملك الخطا فعظم عليه وأرسل إلى خوارزم شاه يقول له أنت قتلت رجالى وأريد من كل قتيل عشرة آلاف دينار وكان القتلى اثنى عشر ألفا وأنفذ إليه من رده إلى خوارزم وألزموه بالحضور عنده فأرسل حينئذ خوارزم شاه إلى غياث الدين يعرفه حاله مع الخطا ويشكو إليه ويستعطفه غير مرة فأعاد الجواب يأمره بطاعة الخليفة وإعادة ما أخذه الخطا من بلاد الإسلام فلم ينفصل بينهما حال.

﴿ذكر ملك خوارزم شاه مدينة بخارا﴾ لما ورد رسول ملك الخطا على خوارزم شاه بما ذكرناه أعاد الجواب أن عسكرك إنما قصد انتزاع بلخ ولم يأتوا إلى نصرتى ولا اجتمعت بهم ولا أمرتهم بالعبور وإن كنت فعلت ذلك فأنا مقيم بالمال المطلوب منى ولكن حيث عجزتم أنتم عن الغورية عدتم على بهذا القول

Marfat.com

Marfat.com

وهذا المطلب وأما أنا فقد أصلحت الغورية ودخلت فى طاعتهم ولا طاعة لكم عندى فعادالرسول بالجواب فجهز ملك الخطا جيشا عظيما وسيره إلى خوارزم شاه يخرج إليهم كل ليلة ويقتل منهم خلقا عظيما وأتاه من المتطوعة خلق كثير فلم يزل هذا فعله بهم حتى أتى على أكثرهم فدخل الباقون إلى بلادهم ورحل خوارزمشاه فى آثارهم وقصد بخارا فنازلها وحصرها وامتنع أهلها منه وقاتلوه مع الخطا حتى أنهم أخذوا كلبا أعور وألبسوه قباء وقلنسوة وقالوا هذا خوارزم شاه لأنه كان أعور وطافوا به على السور ثم ألقوه فى منجنيق إلى العسكر وقالوا هذا سلطانكم وكان الخوارزميون يسبونهم ويقولون ياأجناد الكفر أنتم قد ارتددتم عن الإسلام فلم يزل هذا دأبهم حتى ملك خوارزمشاه البلد بعدأيام يسيرة عنوة وعفاعن أهله وأحسن إليهم وفرق فيهم مالا كثيرا وأقام بها مدة ثم عاد إلى خوارزم .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة فى ذى الحجة توفى أبوطالب يحيى بن سعيد بن زيادة كاتب الإنشاء بديوان الخليفة وكان عالما فاضلا له كتابة حسنة وكان رجلا عاقلا خيرا كثير النفع للناس وله شعر جيد (١) وفيها حصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب قلعة ماردين فى شهر رمضان وقاتل من بها وكان صاحبها حسام الدين يولق أرسلان بن ايلغازى بن البى بن تمرتاش بن ايلغازى بن أرتق كل هؤلاء ملوك ماردين وقد تقدم من أخبارهم مايعلم به محلهم وكان صبيا والحاكم فى بلده ودولته مملوك أبيه النظام يرنقش وليس لصاحبه معه حكم البتة فى شى من الأمور ولما حصر العادل ماردين ودام عليها سلم إليه بعض أهلها الربض بمخامرة منهم فنهب العسكر أهله نهبا قبيحا وفعلوا بهم أفعالا عظيمة لم يسمع بمثلها فلما تسلم الربض تمكن من حصر القلعة وقطع الميرة عنها وبقى عليها إلى أن رحل عنها سنة خمس وتسعين على مانذكره إن شاء الله . وفيها توفى الشيخ

---

(١) ومن مستجادالشعر قوله : لا تحقرن عدوا تزدريه فكم * قد أتعس الدهر جد الجد باللعب
فهذه الشمس يعروها الكسوف لها * على جلالتها بالرأس والذنب

وله : باضطراب الزمان ترتفع الأنـ * ـذال فيه حتى يعم البلاء
وكذا الماء راكد فإذا * حرك ثارت من قعره الأقذاء

وله أيضا : قد سلوت الدنيا ولم يسلها * من علقت فى آماله والأراجى
فإذا ما صرفت وجهى عنها * قذفتنى فى بحرها العجاج
يستضيمون بى وأهلك وحدى * فكأنى ذبالة فى سراج

توفى فى ذى الحجة وله ثنتان وسبعون سنة ، وحضر جنازته خلق كثير ، ودفن عند موسى بن جعفر . وفيها توفى القاضى أبوالحسن على بن رجاء بن زهير بن على البطائحى ، قدم بغداد فتفقه بها وسمع الحديث وأقام برحبة مالك ابن طوق مدة يشتغل على أبى عبدالله بن النبيه الفرضى ، ثم ولى قضاء العراق مدة ، وكان أديبا ، وقد سمع من شيخ أبى عبد الله بن النبيه ينشد لنفسه معارضا للحريرى فى بيتيه اللذين زعم أنهما لايعزوان ثالثا لهما ، وهما قوله :

سم سمة يحمد آثارها * واشكر لمن أعطا ولو سمسمه
والمكر مهما استطعت لاتأته * لنقتنى السؤدد والمكرمة

فقال ابن النبيه :

ما الأمة الوكساء بين الورى * أحسن من حر أتى ملأمه
فه إذا استجديت عن قول لا * فالحر لايملأ منها فه

أبو على الحسن بن مسلم بن أبى الحسن القادسى الزاهد المقيم ببغداد والقادسية التى ينسب إليها قرية بنهر عيسى من أعمال بغداد وكان من عباد الله الصالحين العالمين ودفن بقريته أبو المجد على بن أبى الحسن على ابن الناصر بن محمد الفقيه الحنفى مدرس أصحاب أبى حنيفة ببغداد وكان من أولاد محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة ﴾

﴿ ذكر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الأفضل ديار مصر ﴾ فى هذه السنة فى العشرين من المحرم توفى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب ديار مصر وكان سبب موته أنه خرج إلى الصيد فوصل إلى الفيوم متصيدا فرأى ذئبا فركض فرسه فى طلبه فعثر الفرس فسقط عنه فى الأرض ولحقته حمى فعاد إلى القاهرة مريضا فبقى كذلك إلى أن توفى فلما مات كان الغالب على أمره مملوك والده فخر الدين جهاركس هو الحاكم فى بلده فأحضر إنسانا كان عندهم من أصحاب الملك العادل أبى بكر بن أيوب وأراه العزيز ميتا وسيره إلى العادل وهو يحاصر ماردين كما ذكرناه ويستدعيه ليملكه البلاد فسار القاصد مجدا فلما كان بالشام رأى بعض أصحاب الأفضل على بن صلاح الدين فقال له قل لصاحبك إن أخاه العزيز توفى وليس فى البلاد من يمنعها فليسر اليها فليس دونها مانع وكان الأفضل محبوبا إلى الناس يريدونه فلم يلتفت الأفضل إلى هذا القول وإذا قد وصله رسل الأمراء من مصر يدعونه اليهم ليملكوه وكان السبب فى ذلك أن الأمير سيف الدين يازكج مقدم الأسدية والفرقة الأسدية والأمراء الأكراد يريدونه ويميلون اليه وكان المماليك الناصرية الذين هم ملك أبيه يكرهونه فاجتمع سيف الدين مقدم الأسدية وفخر الدين جهاركس مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولونه الملك فقال فخر الدين نولى ابن الملك العزيز فقال سيف الدين إنه طفل وهذه البلاد ثغر الإسلام ولابد من قيم بالملك يجمع العساكر ويقاتل بها والرأى أننا نجعل الملك فى هذا الطفل الصغير ونجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يدبره إلى أن يكبر فإن العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لأمير فاتفقا على هذا فقال جهاركس فمن يتولى هذا فأشار يازكج بغير الأفضل فجرى بينه وبين جهاركس منازعة لئلا يتهم وينفر جهاركس عنه فامتنع من ولايته فلم يزل يذكر من أولاد صلاح الدين واحدا بعد آخر إلى أن ذكر آخرهم الأفضل فقال جهاركس هو بعيد عنا وكان بصرخد مقيما فيها من حين أخذت منه دمشق فقال يازكج نرسل اليه من يطلبه مجدا فأخذ جهاركس يغالطه فقال يازكج نمضى إلى القاضى الفاضل ونأخذ رأيه فاتفقا على ذلك وأرسل يازكج يعرفه ذلك ويشير بتمليك الأفضل فلما اجتمعا عنده وعرفاه صورة الحال أشار بالأفضل فأرسل يازكج فى الحال القصاد وراءه فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر متنكرا فى تسعة عشر نفسا لأن البلاد كانت للعادل وبضبط نوابه الطرق لئلا يجوز إلى مصر ليجىء العادل ويملكها فلما قارب الأفضل القدس وقد عدل عن الطريق المؤدى اليه لقيه فارسان قد أرسلا اليه من القدس فأخبراه أن من بالقدس قد صار فى طاعته وجد فى السير فوصل إلى بلبيس خامس ربيع الأول ولقيه إخوته وجماعة الأمراء المصرية وجميع الأعيان فاتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعودا صنع له طعاما وصنع له فخر الدين مملوك أبيه طعاما فابتدأ بطعام أخيه ليبين حلفها أخوه أنه يبدأ به فظن جهاركس أنه فعل هذا انحرافا عنه وسوء اعتقاد فيه فتغيرت نيته وعزم على

Marfat.com

المرب فحضر عند الأفضل وقال إن طائفة من العرب قداقتتلوا ولئن لم نمض اليهم نصلح بينهم يؤدى ذلك إلى فساد فأذن له الأفضل فى المضى اليهم ففارقه وسار مجداحتى وصل إلى البيت المقدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الناصرية منهم قراجة الزرمكش وسرا سنقر وأحضروا عندهم ميمونا القصرى صاحب نابلس وهو أيضا من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل وأرسلوا إلى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه اليهم ليدخلوا معه إلى مصر ليملكوها فلم يسر إليهم لأنه كانت أطماعه قد قويت فى أخذ ماردين وقدعجزمن بهاعن حفظها وأنه يأخذها والذى يريدونه لايفوته وأما الأفضل فإنه دخل إلى القاهرة سابع ربيع الأول وسمع بهرب جهاركس فأهمه ذلك وتردّدت الرسل بينه وبينهم ليعودوا اليه فلم يزدادوا إلا بعدا ولحق بهم جماعة من الناصرية أيضا فاستوحش الأفضل من الباقين فقبض عليهم وهم شقيرة وأيبك فطيس والبكى الفارس وكل هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكورسوى من ليس مثلهم فى التقدم وعلو القدر وأقام الأفضل بالقاهرة وأصلح الأمور وقرر القواعد والمرجع فى جميع الأمور إلى سيف الدين يازكج .

(ذكر حصر الأفضل مدينة دمشق وعوده عنها) لما ملك الأفضل مصر واستقر بها ومعه ابن أخيه الملك العزيز اسم الملك له لصغره واجتمعت الكلمة على الأفضل بها وصل اليه رسول أخيه الملك الظاهرغازى صاحب حلب ورسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج إلى دمشق واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال فبرز من مصر منتصف جمادى الأولى من السنة على عزم المسير إلى دمشق وأقام بظاهر القاهرة إلى ثالث رجب ورحل فيه وتعوق فى مسيره ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق لكنه تأخر فوصل إلى دمشق ثالث عشر شعبان فنزل عند جسر الخشب على فرسخ ونصف من دمشق وكان العادل قد أرسل اليه نوابه بدمشق يعرفونه قصد الأفضل لهم ففارق ماردين وخلف ولده الكامل محمدا فى جميع العساكر على حصارها وسار جريدة فجد فى السير فسبق الأفضل فدخل دمشق قبل الأفضل بيومين وأما الأفضل فإنه تقدم إلى دمشق من الغد وهو رابع عشر شعبان ودخل ذلك اليوم بعينه طائفة يسيرة من عسقلان إلى دمشق من باب السلامة وسبب دخولهم أن قوما من أجناده ممن بيوتهم بمجاورة الباب اجتمعوا بالأمير مجدالدين أخى الفقيه عيسى الهكارى وتحدثوا معه فى أن يقصد هو والعسكر باب السلامة ليفتحوه لهم فأراد مجد الدين أن يختص بفتح الباب وحده فلم يعلم الأفضل ولا أخذ معه أحدا من الأمراء بل سار وحده ومعه نحوخمسين فارسا من أصحابه ففتح له الباب فدخله هو ومن معه فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الأفضل واستسلم من به من الجند ونزلوا عن الأسوار وبلغ الخبر إلى الملك العادل فكان يستسلم وتماسك وأما الذين دخلوا البلد فإنهم وصلوا إلى البريد فلما رأى عسكر العادل بدمشق قلة عدده وانقطاع مددهم وثبوا بهم وأخرجوهم منه وكان الأفضل قد نصب خيمه بالميدان الأخضر وقارب عسكره الباب الحديد وهو من أبواب القلعة فقدر الله تعالى أن أشير على الأفضل بالانتقال إلى ميدان الحصى ففعل ذلك فقويت نفوس من فيه وضعفت نفوس العسكر المصرى ثم إن الأمراء الأكراد منهم تحالفوا فصاروا يدا واحدة ويغضبون لغضب أحدهم ويرضون لرضا أحدهم فظن الأفضل وباقى الأسدية أنهم فعلوا بقاعدة بينهم وبين الدمشقيين فرحلوا من موضعهم وتأخروا فى العشرين من شعبان ووصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى الأفضل الخامس والعشرين من شعبان ووصل بعده الملك الظاهرصاحب حلب ثانى عشرشهر رمضان

Marfat.com

Marfat.com

وأراد الزحف إلى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكرا بأخيه وحسداً له ولم يشعر أخوه الأفضل بذلك وأما الملك العادل فإنه لما رأى كثرة العساكر وتتابع الإمداد إلى الأفضل عظم عليه فأرسل إلى المماليك الناصرية بالبيت المقدس يستدعيهم اليه فساروا سلخ شعبان فوصل خبرهم إلى الأفضل فسير أسد الدين صاحب حمص ومعه جماعة من الأمراء إلى طريقهم ليمنعوهم فسلكوا غير طريقهم فجاء أولئك ودخلوا دمشق خامس رمضان فقوى العادل بهم قوة عظيمة وأيس الأفضل ومن معه من دمشق وخرج عسكر دمشق فى شوال فكبسوا العسكر المصرى فوجدوهم قد حذروهم فعادوا عنهم خاسرين وأقام العسكر على دمشق ما بين قوة وضعف وانتصار وتخاذل حتى أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن ماردين على ما نذكره إن شاء الله تعالى وهو بحران، فاستدعاه إليه بعسكره، فسار على طريق البر، فدخل إلى دمشق ثانى عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة فعند ذلك رحل العسكر عن دمشق إلى ذيل جبل الكسوة سابع عشر صفر واستقر أن يقيموا بحوران حتى يخرج الشتاء فرحلوا إلى رأس الماء وهو موضع شديد البرد فتغير العزم عن المقام واتفقوا على أن يعود كل منهم إلى بلده فعاد الظاهر صاحب حلب وأسد الدين صاحب حمص إلى بلادهما وعاد الأفضل إلى مصر فكان ماذكره إن شاء الله تعالى.

﴿ ذكر وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمد ﴾ فى هذه السنة ثامن عشر ربيع الآخر وقيل جمادى الأولى توفى أبو يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب والأندلس بمدينة سلا وكان قد سار إليها من مراكش وكان قد بنى مدينة محاذية لسلا وسماها المهدية من أحسن البلاد وأنزهها فسار إليها يشاهدها فتوفى بها وكانت ولايته خمس عشرة سنة وكان ذا جهاد للعدو ودين حسن وسيرة وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية وأعرض عن مذهب مالك فعظم أمر الظاهرية فى أيامه وكان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الحزمية منسوبون إلى ابن محمد بن حزم رئيس الظاهرية إلا أنهم مغمورون بالمالكية فى أيامه ظهروا وانتشروا ثم فى آخر أيامه استقضى الشافعية على بعض البلاد ومال إليهم.

﴿ ذكر عصيان أهل المهدية على يعقوب وطاعتها لولده محمد ﴾ كان أبو يوسف يعقوب صاحب المغرب لما عاد من أفريقية كما ذكرناه سنة إحدى وثمانين وخمسمائة استعمل أبا سعيد عثمان وأبا على يونس بن عمر ايتى وهما وأبوهما من أعيان الدولة فولى عثمان مدينة تونس وولى أخاه المهدية وجعل قائد الجيش بالمهدية محمد بن عبد الكريم وهو شجاع مشهور فعظمت نكايته فى العرب فلم يبق منهم إلا من يخافه فاتفق أنه أتاه الخبر بأن طائفة من عوف نازلين بمكان نخرج إليهم وعدل عنهم حتى جازهم ثم أقبل عائدا يطلبهم وأتاهم الخبر بخروجه إليهم فهربوا من بين يديه فلقيهم أمامهم فهربوا وتركوا المال والعيال من غير قتال فأخذ الجميع ورجع إلى المهدية وسلم العيال إلى الوالى وأخذ من الاسلاب والغنيمة ما شاء وسلم الباقى إلى الوالى وإلى الجند ثم إن العرب من بنى عوف قصدوا أبا سعيد بن عمر ايتى فوجدوا وصاروا من حزب الموحدين واستجاروا به فى رد عيالهم وأموالهم فأحضر محمد بن عبد الكريم وأمره باعادة ما أخذ لهم من النعم فقال أخذه الجند ولا أقدر على رده فأغلظ له فى القول وأراد أن يبطش به فاستمهله إلى أن يرجع إلى المهدية ويسترد من الجند ما يجده عندهم وما عدم منه غرم العوض عنه من ماله فأمهله فعاد إلى المهدية وهو خائف فلما وصلها جمع أصحابه وأعلمهم ما كان من أبى سعيد وحالفهم على موافقته فحلفوا له فقبض على أبى على يونس وتغلب على المهدية

وملكها فأرسل إليه أبو سعيد فى معنى إطلاق أخيه يونس فأطلقه على اثنى عشر ألف دينار فلما أرسلها إليه أبو سعيد فرقها فى الجند وأطلق يونس وجمع أبو سعيد العساكر وأراد قصد محاصرته فأرسل محمد بن عبد الكريم إلى على بن إسحق الملثم فحالفه واعتضد به فامتنع أبو سعيد من قصده ومات يعقوب وولى ابنه محمد فسير عسكرا مع عمه فى البحر وعسكرا آخر فى البر مع ابن عمه الحسن بن أبى حفص بن عبد المؤمن فلما وصل عسكر البحر إلى بجاية وعسكر السير إلى قسنطينة الهوى هرب الملثم ومن معه من العرب من بلاد أفريقية إلى الصحراء ووصل الأسطول إلى المهدية فشكا محمد بن عبد الكريم مالقى من أبى سعيد وقال أنا على طاعة أمير المؤمنين محمد ولا أسلمها إلى أبى سعيد وإنما أسلمها إلى من يرسله أمير المؤمنين فأرسل محمد من يتسلمها منه وعاد إلى الطاعة.

﴿ذكر رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين﴾ فى هذه السنة زال الحصار عن ماردين ورحل عسكر الملك العادل عنها مع ولده الملك الكامل وسبب ذلك أن الملك العادل لما حصر ماردين عظم ذلك على نور الدين صاحب الموصل وغيره من ملوك ديار بكر والجزيرة وخافوا أن ملكها لا يبقى عليهم إلا أن العجز عن منعه حملهم على طاعته فلما توفى العزيز صاحب مصر وملك الأفضل مصر كما ذكرناه وبينه وبين العادل اختلاف فأرسل أخذ عسكر مصر من عنده وأرسل إلى نور الدين صاحب الموصل وغيره من الملوك يدعوهم إلى موافقته فأجابوه إلى ذلك فلما رحل الملك العادل عن ماردين إلى دمشق كما ذكرناه برز نور الدين أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود صاحب الموصل عنها ثانى شعبان وسار إلى دنيسر فنزل عليها ووافقه ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود صاحب سنجار وابن عمه الآخر سنجر شاه بن غازى بن مودود صاحب جزيرة ابن عمر فاجتمعوا كلهم بدنيسر إلى أن عيدوا عيد الفطر ثم ساروا عنها سادس شوال ونزلوا بحرزم وتقدم العسكر إلى تحت الجبل ليرتادوا موضعا للنزول وكان أهل ماردين قد عدمت الأقوات عندهم وكثرت الأمراض فيهم حتى إن كثيرا منهم كان لا يطيق القيام فلما رأى النظام وهو الحاكم فى دولة صاحبها ذلك أرسل إلى ابن العادل فى تسليم القلعة اليه إلى أجل معلوم ذكره على شرط أن يتركهم يدخل اليهم من الميرة ما يقوتهم حسب فأجابهم إلى ذلك وتحالفوا عليه ورفعوا أعلامهم إلى رأس القلعة وجعل ولد العادل بباب القلعة أمير الا يترك يدخلها من الأطعمة إلا ما يكفيهم يوما بيوم فأعطى من بالقلعة ذلك الأمير شيئا فمكنهم من إدخال الذخائر الكثيرة فبينما هم كذلك إذ أتاهم خبر وصول نور الدين صاحب الموصل فقويت نفوسهم وعزموا على الامتناع فلما تقدم عسكره إلى ذيل جبل ماردين قدر الله تعالى أن الملك الكامل بن العادل نزل بعسكره من ربض ماردين إلى لقاء نور الدين وقتاله ولو أقاموا بالربض لم يمكن نور الدين ولا غيره الصعود اليهم ولا إزالتهم لكن نزلوا ليقضى الله أمرا كان مفعولا فلما أصحروا من الجبل اقتتلوا وكان من عجيب الاتفاق أن قطب الدين صاحب سنجار كان قد واعد العسكر العادلى أن ينهزم إذا التقوا ولم يعلم بذلك أحدا من العسكر فقدر الله تعالى أنه لما نزل العسكر العادلى واصطفت العساكر للقتال ألجأت قطب الدين الضرورة بالزحمة إلى أن وقف فى سفح بجبل ماردين ليس اليه طريق للعسكر العادلى ولا يرى الحرب الواقعة بينهم وبين نور الدين ففاته ما أراده من الانهزام فلما التقى العسكران واقتتلوا حمل ذلك اليوم نور الدين بنفسه واصطلى الحرب الناس أنفسهم بين يديه فانهزم العسكر العادلى وصعدوا فى الجبل إلى الربض وأسر منهم كثير فحملوا إلى بين يدى نور الدين فأحسن اليهم ووعدهم

Marfat.com

الإطلاق إذا انفصلوا ولم يظن أن الملك الكامل ومن معه يرحلون عن ماردين سريعا فجاءهم أمر لم يكن فى الحساب فإن الملك الكامل لما صعد إلى الربض رأى أهل القلعة قد نزلوا إلى الذين جعلوهم بالربض من العسكر فقاتلوهم ونالوا منهم ونهبوا فألقى الله الرعب فى قلوب الجميع فأعملوا رأيهم على مفارقة الربض ليلا فرحلوا ليلة الاثنين سابع شوال وتركوا كثيرا من أثقالهم ورحالهم وما أعدوه فأخذه أهل القلعة ولو ثبت العسكر العادلى بمكانه لم يمكن أحدا أن يقرب منهم ولما رحلوا نزل صاحب ماردين حسام الدين يولق بن ايلغازى إلى نور الدين ثم عاد إلى حصنه وعاد أتابك إلى دنيسر ورحل عنها إلى رأس عين على عزم قصد حران وحصرها فأتاه رسول من الملك الظاهر يطلب الخطبه والسكة وغير ذلك فتغيرت نية نور الدين وفتر عزمه عن حصرها فعزم على العود إلى الموصل فهو يقدم إلى العود رجلا ويؤخر أخرى إذ أصابه مرض فتحقق عزم العود إلى الموصل فعاد إليها وأرسل رسولا إلى الملك الأفضل والملك الظاهر يعتذر عن عوده بمرضه فوصل الرسول ثانى ذى الحجة إليهم وهم على دمشق وكان عود نور الدين من سعادة الملك العادل فإنه كان هو وكل من عنده ينتظرون مايجىء من أخباره فإن من بحران استسلموا فقدر الله تعالى أنه عاد فلما عاد جاء الملك الكامل إلى حران وكان قد سار عن ماردين إلى ميافارقين فلما رجع نور الدين سار الكامل إلى حران وسار إلى أبيه بدمشق على ماذكرناه فازداد به قوة والأفضل ومن معه ضعفا .

﴿ذكر الفتنة بفيروزكوه من خراسان﴾ فى هذه السنة كانت فتنة عظيمة بعسكر غياث الدين ملك الغور وغزنة وهو بفيروزكوه عمت الرعية والملوك والأمراء وسببها أن الفخر محمد بن عمر بن الحسين الرازى الإمام المشهور الفقيه الشافعى كان قدم إلى غياث الدين مفارقا لبهاء الدين سام صاحب باميان وهو ابن أخت غياث الدين فأكرمه غياث الدين واحترمه وبالغ فى إكرامه وبنى له مدرسة بهراة بالقرب من الجامع فقصده الفقهاء من البلاد فعظم ذلك على الكرامية وهم كثيرون بهراة ، وأما الغورية فكلهم كرامية وكرهوه وكان أشد الناس عليه الملك ضياء الدين وهو ابن عم غياث الدين وزوج ابنته فاتفق أن حضر الفقهاء من الكرامية والحنفية والشافعية عند غياث الدين بفيروزكوه للمناظرة وحضر فخر الدين الرازى والقاضى مجد الدين عبد المجيد بن عمر المعروف بابن القدوة وهو من الكرامية الهيصمية وله عندهم محل كبير لزهده وعلمه وبيته فتكلم الرازى فاعترض عليه ابن القدوة وطال الكلام فقام غياث الدين فاستطال عليه الفخر وسبه وشتمه وبالغ فى أذاه وابن القدوة لايزيد على أن يقول لايفعل مولانا لا واخذك الله أستغفر الله فانفصلوا على هذا وقام ضياء الدين فى هذه الحادثة وشكر إلى غياث الدين وذم الفخر ونسبه إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة فلم يصغ غياث الدين إليه ، فلما كان الغد وعظ ابن عمر المجد بن القدوة بالجامع فلما صعد المنبر قال بعد أن حمد الله وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم (لا إله إلا الله ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين أيها الناس إنا لانقول إلا ماصح عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما علم أرسطاطاليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابى فلا نعلمها فلأى حال يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله وعن سنة نبيه) وبكى وضج الناس وبكى الكرامية واستغاثوا وأعانهم من يؤثر بعد الفخر الرازى عن السلطان وثار الناس من كل جانب وامتلأ البلد فتنة وكادوا يقتتلون ويجرى مايهلك فيه خلق كثير فبلغ ذلك السلطان فأرسل جماعة من عنده إلى الناس وسكنهم ووعدهم بإخراج الفخر من عندهم وتقدم إليه بالعود إلى هراة فعاد اليها .

Marfat.com

Marfat.com

﴿ذكر مسير خوارزم شاه إلى الرى﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول سار خوارزم شاه علاء الدين تكش إلى الرى وغيرها من بلاد الجبل لأنه بلغه أن نائبه بها مياجق قد تغير عن طاعته فسار إليه فخافه مياجق فجعل يفر من بين يديه وخوارزم شاه فى طلبه ، يدعوه إلى الحضور عنده ، وهو يمتنع فاستأمن من أكثر أصحابه إلى خوارزم شاه ، وهرب هو فحصل بقلعة من أعمال مازندران ، فامتنع بها ، فسارت العساكر فى طلبه ، فأخذ منها ، وأحضر بين يدى خوارزم شاه ، فأمر بحبسه ، بشفاعة أخيه أقجة ، وسيرت الخلع من الخليفة لخوارزم شاه ولولده ، قطب الدين محمد وتقليد ما بيده من البلاد ، فلبس الخلعة ، واشتغل بقتال الملاحدة فافتتح قلعة على باب قزوين تسمى أرسلان كشاه وانتقل إلى حصار ألموت فقتل عليها صدر الدين محمد بن الوزان رئيس الشافعية بالرى وكان قد تقدم عنده تقدما عظيما قتله الملاحدة وعاد خوارزم شاه إلى خوارزم فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن على فقتلوه فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين فأمر تكش ولده قطب الدين بقصد الملاحدة فقصد قلعة ترشيش وهى من قلاعهم فحصرها فأذعنوا له بالطاعة وصالحوه على مائة ألف دينار ففارقها وإنما صالحهم لأنه بلغه خبر مرض أبيه وكانوا يراسلونه بالصلح فلا يفعل فلما سمع بمرض أبيه لم يرحل حتى صالحهم على المال المذكور والطاعة ورحل .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول توفى مجاهد الدين قايماز رحمه الله بقلعة الموصل وهو الحاكم فى دولة نور الدين والمرجوع اليه فيها وكان ابتداء ولايته قلعة الموصل فى ذى الحجة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وولى إربل سنة تسع وخمسين وخمسمائة فلما مات زين الدين على كوكج سنة ثلاث وستين بقى هو الحاكم فيها ومعه من يختاره من أولاد زين الدين ليس لواحد منهم معه حكم وكان عاقلا أديبا خبيرا فاضلا يعرف الفقه على مذهب أبى حنيفة ويحفظ من التاريخ والأشعار والحكايات شيئا كثيرا وكان كثير الصوم يصوم من كل سنة نحو أربعة أشهر وله أوراد كثيرة حسنة كل ليلة ويكثر الصدقة وكان له فراسة حسنة فيمن يستحق الصدقة ويعرف الفقير المستحق ويبرهم وبنى عدة جوامع منها الجامع الذى بظاهر الموصل بباب الجسر وبنى الربط والمدارس والخانات فى الطرق وله من المعروف شىء كثير رحمه الله فلقد كان من محاسن الدنيا وفيها فارق غياث الدين صاحب غزنة وبعض خراسان مذهب الكرامية وصار شافعى المذهب وكان سبب ذلك أنه كان عنده إنسان يعرف بالفخر مبارك شاه يقول الشعر بالفارسية متفننا فى كثير من العلوم فأوصل إلى غياث الدين الشيخ وجيه الدين أبا الفتح محمد بن محمود المرورذى الفقيه الشافعى فأوضح له مذهب الشافعى وبين له فساد مذهب الكرامية فصار شافعيا وبنى المدارس للشافعية وبنى بغزنة مسجدا لهم أيضا وأكثر مراعاتهم فسعى الكرامية فى أذى وجيه الدين فلم يقدرهم الله تعالى على ذلك وقيل إن غياث الدين وأخاه شهاب الدين لما ملكا فى خراسان قيل لهما إن الناس فى جميع البلاد يزرون على الكرامية ويحتقرونهم والرأى أن تفارقا مذاهبهم فصارا شافعيين وقيل إن شهاب الدين كان حنفيا والله أعلم . وفى هذه السنة توفى أبو القاسم يحيى ابن على بن فضلان الفقيه الشافعى وكان إماما فاضلا ودرس ببغداد وكان من أعيان أصحاب محمد بن يحيى نجى النيسابورى . (١)

---

(١) وفيها شرع فى بناء سور بغداد بالآجر والكلس ، وفرق على الأمراء وكملت عمارته بعد هذه السنة ، فأمنت بغداد من الغرق والحصار ، ولم يكن لها سور قبل ذلك وفيها ادعى رجل أعجمى بدمشق أنه عيسى بن مريم ، فأمر=

﴿ ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر ملك العادل الديار المصرية﴾ قد ذكرنا سنة خمس وتسعين حصر الأفضل والظاهر ولدى صلاح الدين دمشق ورحيلهما إلى رأس الماء على عزم المقام بحوران إلى أن يخرج الشتاء، فلما أقاموا برأس الماء وجد العسكر بردا شديدا لأن البرد فى ذلك المكان فى الصيف موجود، فكيف فى الشتاء؛ فتغير العزم على المقام واتفقوا على أن يعود كل إنسان منهم إلى بلده، ويعودوا إلى الاجتماع فتفرقوا تاسع ربيع الأول، فعاد الظاهر وصاحب حمص إلى بلادهما، وسار الأفضل إلى مصر، فوصل بلبيس فأقام بها ووصلته الأخبار بأن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصد مصر، ومعه المماليك الناصرية وقد حلفوه أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب البلاد وهو المدبر للملك إلى أن يكبر فساروا على هذا وكان عسكره بمصر قد تفرق عن الأفضل من الخشبى فسار كل منهم إلى أقطاعه ليربعوا دوابهم فرام الأفضل جمعهم من أطراف البلاد فأعجله الأمر عن ذلك ولم يجتمع منهم إلا طائفة يسيرة ممن قرب أقطاعه ووصل العادل فأشار بعض الناس على الأفضل أن يخرب سور بلبيس ويقيم بالقاهرة وأشار غيرهم بالتقدم إلى أطراف البلاد ففعل ذلك فسار عن بلبيس ونزل موضعا يقال له السائح فى طرف البلاد والتقى هو والعادل سابع ربيع الآخر فانهزم الأفضل ودخل القاهرة ليلا وفى تلك الليلة توفى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى كاتب الإنشاء لصلاح الدين ووزيره فحضر الأفضل الصلاة عليه وسار العادل فنزل على القاهرة وحصرها فجمع الأفضل من عنده من الأمراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلا فأرسل رسولا إلى عمه فى الصلح وتسليم البلاد إليه وأخذ العوض عنها وطلب دمشق فلم يجبه فنزل عنها إلى حران والرها فلم يجبه فنزل إلى ميافارقين وحانى وجبل جور فأجابه إلى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الأفضل من مصر ليلة السبت ثامن عشر ربيع الآخر واجتمع بالعادل وسار إلى صرخد ودخل العادل إلى القاهرة يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر ولما وصل الأفضل إلى صرخد أرسل

= الأمير صارم الدين برغش نائب القلعة، بصلبه عند حمام العماد الكاتب، خارج باب الفرج مقابل الطاحون التى بين البابين، وقد باد هذا الحمام قديما، وبعد صلبه بيومين ثارت العامة على الروافض وعمدوا إلى قبر رجل منهم بباب الصغير يقال له وثاب فنبشوه وصلبوه مع كلبين، وذلك فى ربيع الآخر منها. وفيها توفى أبو الحسن محمد بن جعفر ابن أحمد بن محمد بن عبد العزيز العباس الهاشمى، قاضى القضاة ببغداد، بعد ابن النجارى، كان شافعيا تفقه على أبى الحسن ابن الخل وغيره، وقد ولى القضاء والخطابة بمكة، وأصله منها، ولكن ارتحل إلى بغداد فنال منها ما نال من الدنيا وآل به الأمر إلى ما آل، ثم إنه عزل عن القضاء بسبب محضر رقم خطه عليه، وكان فيما قيل مزورا عليه. فالله أعلم فجلس فى منزله حتى مات. وفيها توفى الشيخ جمال الدين أبو القاسم يحيى بن على بن الفضل بن بركة بن فضلان شيخ للشافعية ببغداد، تفقه أولا على سعيد بن محمد الزار مدرس النظامية، ثم ارتحل إلى خراسان فأخذ عن الشيخ محمد الزبيدى تلميذ الغزالى وعاد إلى بغداد وقد اقتبس علم المناظرة والأصلين، وساد أهل بغداد وانتفع به الطلبة والفقهاء وبنيت له مدرسة فدرس بها وبعد صيته، وكثرت تلاميذه، وكان كثير التلاوة وسماع الحديث، وكان شيخا حسنا لطيفا ظريفا، ومن شعره:

وإذا أردت منازل الأشراف * فعليك بالإسعاف والإنصاف
وإذا بغا باغ عليك فخله * والدهر، فهو له مكاف كاف

Marfat.com

من تسلم ميافارقين وحانى وجبل جورفامتنع نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسليم ميافارقين وسلم ماعداها فترددت الرسل بين الأفضل والعادل فى ذلك والعادل يزعم أن ابنه عصاه فأمسك عن المراسلة فى ذلك لعلمه أن هذا فعل بأمر العادل ولما ثبت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور ابن الملك العزيز فى شوال من السنة وخطب لنفسه وحاقق الجند فى أقطاعاتهم واعترضهم فى أصحابهم ومن عليهم من العسكر المقرر فتغيرت لذلك نياتهم فكان مانذكره سنة سبع وتسعين إن شاء الله .

﴿ ذكر وفاة خوارزم شاه ﴾ فى هذه السنة فى العشرين من رمضان توفى خوارزم شاه تكش بن أرسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان والرى وغيرها من البلاد الجبالية بشهرستانة بين نيسابور وخوارزم وكان قد سار من خوارزم إلى خراسان وكان به خوانيق فأشار عليه الأطباء بترك الحركة فامتنع وسار فلما بلغ شهرستانة اشتد مرضه ومات ولما اشتد مرضه أرسلوا إلى ابنه قطب الدين محمد يستدعونه ويعرفونه شدة مرض أبيه فسار إليهم وقدمات أبوه فولى الملك بعده ولقب علاء الدين لقب أبيه وكان لقبه قطب الدين وأمر فحمل أبوه ودفن بخوارزم فى تربة عملها فى مدرسة بناها كبيرة عظيمة وكان عادلا حسن السيرة له معرفة حسنة وعلم يعرف الفقه على مذهب أبى حنيفة ويعرف الأصول وكان ولده على شاه بأصفهان فأرسل إليه أخوه خوارزم شاه محمد يستدعيه فسار إليه فنهب أهل أصفهان خزانته ورحله فلما وصل أخيه ولاه حرب خراسان والتقدم على جندها وسلم إليه نيسابور وكان هندوخان ملك شاه بن خوارزم شاه تكش يخاف عمه محمدا فهرب منه ونهب كثيرا من خزائن جده تكش لما مات وكان معه وسار إلى مرو ولما سمع غياث الدين ملك غزنة وفاة خوارزم شاه أمر أن لاتضرب نوبته ثلاثة أيام وجلس للعزاء على مابينهما من العداوة والمحاربة فعل ذلك عقلا منه ومروأة ثم إن هندوخان جمع جمعا كثيرا بخراسان فسير إليه عمه خوارزم شاه جيشا مقدمهم جقر الفركى فلما سمع هندوخان بمسيرهم هرب عن خراسان وسار إلى غياث الدين يستنجده على عمه فأكرم لقاءه وإنزاله وأقطعه ووعده النصرة فأقام عنده ودخل جقر مدينة مرو وبها والدة هندوخان وأولاده فاستظهر عليهم وأعلم صاحبه فأمره بإرسالهم إلى خوارزم مكرمين فلما سمع غياث الدين ذلك أرسل إلى محمد بن جربك صاحب الطالقان يأمره أن يرسل إلى جقر يتهدده ففعل وسار من الطالقان فأخذ مرو الروذ والخمس قرى وتسمى بالفارسية بنج ده وأرسل إلى جقر يأمره باقامة الخطبة بمرو لغياث الدين أو يفارق البلد فأعاد الجواب يتهدد ابن جربك ويتوعده وكتب إليه سرا يسأله أن يأخذ له أمانا من غياث الدين ليحضر خدمته فكتب إلى غياث الدين بذلك فلما قرأ كتابه علم أن خوارزم شاه ليس له قوة فلهذا طلب جقر الانحياز إليه فقوى طمعه فى البلاد وكتب إلى أخيه شهاب الدين يأمره بالخروج إلى خراسان ليتفقا على أخذ بلا خوارزم شاه محمد .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الآخرة وثب الملاحدة الإسماعيلية على نظام الملك مسعود ابن على وزير خوارزم شاه تكش فقتلوه وكان صالحا كثير الخير حسن السيرة شافعى المذهب بنى للشافعية بمرو جامعا مشرفا على جامع الحنفية فتعصب شيخ الإسلام وهو مقدم الحنابلة بها فيهم والرياسة وجمع الأوباش فأحرقه فأنفذ خوارزم شاه فأحضر شيخ الإسلام وجماعة ممن سعى فى ذلك فأغرمهم مالا كثيرا وبنى الوزير أيضا مدرسة عظيمة بخوارزم وجامعا وجعل فيها خزانة كتب وله آثار حسنة بخراسان باقية

Marfat.com

ولما مات خلف ولدا صغيرا فاستوزره خوارزم شاه رعاية لحق أبيه فأشير عليه أن يستعفى فأرسل يقول إننى صبى لا أصلح لهذا المنصب الجليل فيولى السلطان فيه من يصلح له إلى أن أكبر فإن كنت أصلح فأنا المملوك فقال خوارزم شاه لست أعفيك وأنا وزيرك فكن مراجعى فى الأمور فإنه لا يقف منها شىء فاستحسن الناس هذا ثم إن الصبى لم تطل أيامه فتوفى قبل خوارزم شاه بيسير . وفى هذه السنة فى ربيع الأول توفى شيخنا أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحرانى المقيم ببغداد وله ست وتسعون سنة وشهران وكان عالى الإسناد فى الحديث وكان ثقة صحيح السماع . وفى ربيع الآخر منها توفى القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى الكاتب لم يكن فى زمانه أحسن كتابة منه ودفن بظاهر مصر بالقرافة وكان دينا كثير الصدقة والعبادة وله وقوف كثيرة على الصدقة وفك الأسارى وكان يكثر الحج والمجاورة مع اشتغاله بخدمة السلطان وكان السلطان صلاح الدين يعظمه ويحترمه ويكرمه ويرجع إلى قوله رحمهما الله .(١)

﴿ ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر ملك الملك الظاهر صاحب حلب منبج وغيرها من الشام وحصره هو وأخوه الأفضل مدينة دمشق وعودهما عنها﴾ قد ذكرنا قبل ملك العادل ديار مصر وقطعه خطبة الملك المنصور ولد الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأنه لما فعل ذلك لم يرضه الأمراء المصريون ؛ وخبثت نياتهم فى طاعته فراسلوا أخويه الظاهر بحلب والأفضل بصرخد وتكررت المكاتبات والمراسلات بينهم يدعونهما إلى قصد دمشق وحصرها ليخرج الملك العادل اليهم فإذا خرج اليهم من مصر أسلموه وصاروا معهما فتملكا البلاد وكثر ذلك حتى فشا الخبر واتصل بالملك العادل وانضاف إلى ذلك أن النيل لم يزد بمصر الزيادة التى تركب الأرض ليزرع الناس فكثر الغلاء فضعفت قوة الجند وكان فخر الدين جهاركس قد فارق مصر إلى الشام هو وجماعة من المماليك الناصرية لحصار بانياس ليأخذها لنفسه بأمر العادل وكانت لأمير كبير تركى اسمه بشارة قد أتهمه العادل فأمر جهاركس بذلك وكان أمير من أمراء العادل يعرف بعز الدين أسامة قد حج هذه السنة فلما عاد من

---

(١) وفيها توفى الفقيه مجد الدين أبو محمد بن طاهر بن نصر بن جميل ، مدرس القدس أول من درس بالصلاحية ، وهو والد الفقهاء بنى جميل الدين ، كانوا بالمدرسة الجاروخية ، ثم صاروا إلى العمادية والدماعية فى أيامنا هذه ، ثم ماتوا ولم يبق إلا شرحهم . وفيها توفى الشيخ شهاب الدين الطوسى أحد مشايخ الشافعية بديار مصر ، شيخ المدرسة المنسوبة إلى تقى الدين شاهنشاه بن أيوب ، التى يقال لها منازل العز ، وهو من أصحاب محمد بن يحيى تلميذ الغزالى ، كان له قدر ومنزلة عند ملوك مصر ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، توفى فى هذه السنة ، فازدحم الناس على جنازته ، وتأسفوا عليه . وفيها توفى الشيخ ظهير الدين عبد السلام الفارسى شيخ الشافعية بحلب ، أخذ الفقه عن محمد بن يحيى تلميذ الغزالى ، وتتلمذ للرازى ، ورحل إلى مصر وعرض عليه أن يدرس بتربة الشافعى فلم يقبل ، فرجع إلى حلب فأقام بها إلى أن مات . وفيها توفى الشيخ العلامة بدر الدين بن عسكر رئيس الحنفية بدمشق ، قال أبو شامة : ويعرف بابن العقادة . وتوفى أيضا الشاعر أبو الحسن على بن نصر بن عقيل بن أحمد بغدادى ، قدم دمشق فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة ؛ ومعه ديوان شعر له فيه درر حسان ؛ وقد تصدى لمدح الملك الأمجد صاحب بعلبك وله :

وما الناس إلا كامل الحظ ناقص * وآخر منهم ناقص الحظ كامل
وإنى لمثر من خيار أعفة * وإن لم يكن عندى من المال كامل

Marfat.com

Marfat.com

الحج وقارب صرخد نزل الملك الأفضل فلقيه وأكرمه ودعاه إلى نفسه فأجابه وحلف له وعرفه الأفضل جلية الحال وكان أسامة من بطانة العادل وإنما حلف لينكشف له الأمر فلما فارق الأفضل أرسل إلى العادل وهو بمصر يعرفه الخبر جميعه فأرسل إلى ولده الذى بدمشق يأمره بحصر الأفضل بصرخد، وكتب إلى إياس جركس وميمون القصرى صاحب بلبيس وغيرهما من الناصرية يأمرهم بالاجتماع مع ولده على حصر الأفضل وسمع الأفضل الخبر فسار إلى أخيه الظاهر بحلب مستهل جمادى الأولى من السنة، ووصل إلى حلب عاشر الشهر وكان الظاهر قد أرسل أميرا كبيرا من أمرائه إلى عمه العادل فمنعه العادل من الوصول إليه وأمره بأن يكتب رسالته فلم يفعل وعاد لوقته فتحرك الظاهر لذلك وجمع عسكره وقصد منبج فملكها للسادس والعشرين من رجب وسار إلى قلعة نجم وحصرها فتسلمها سلخ رجب، وأما الملك المعظم عيسى بن العادل المقيم بدمشق فإنه سار إلى بصرى وأرسل إلى جهاركس ومن معه وهم على بانياس يحصرونها يدعوهم إليه فلم يجيبوه إلى ذلك بل غالطوه فلما طال مقامه على بصرى عاد إلى دمشق وأرسل الأمير أسامة إليهم يدعوهم إلى مساعدته فاتفق أنه جرى بينه وبين البكاء الفارس بعض المماليك الكبار الناصرية منافرة أغلظ له البكاء القول وتعدى إلى الفعل باليد وثار العسكر جميعه على أسامة فاستدم بميمون فأمنه وأعاده إلى دمشق واجتمعوا كلهم عند الملك الظافر خضر بن صلاح الدين وأنزلوه من صرخد وأرسلوا إلى الملك الظاهر والأفضل يحثونهما على الوصول إليهم والملك الظاهر يتربص ويتعوّق فوصل من منبج إلى حماة فى عشرين يوما وأقام على حماة يحصرها وبها صاحبها ناصر الدين محمد بن تقى الدين إلى تاسع عشر رمضان فاصطلحا وحمل له ابن تقى الدين ثلاثين ألف دينار صورية وساروا عنها إلى حمص وسار منها إلى دمشق على طريق بعلبك فنزلوا عليها عند مسجد القدم فلما نزلوا على دمشق أتاهم المماليك الناصرية مع الملك الظافر خضر بن صلاح الدين وكانت القاعدة استقرت بين الظاهر وأخيه الأفضل أنهم إذا ملكوا دمشق تكون بيد الأفضل ويسيرون إلى مصر فإذا ملكوها تسلم الظاهر دمشق فيبقى الشام جميعه له وتبقى مصر للأفضل وسلم الأفضل صرخد إلى زين الدين قراجة مملوك والده ليحضر فى خدمته وأنزل والدته وأهله منها وسيرهم إلى حمص فأقاموا عند أسد الدين شيركوه صاحبها وكان الملك العادل قد سار من مصر إلى الشام فنزل على مدينة نابلس وسير جمعا من العسكر إلى دمشق ليحفظها فوصلوا قبل وصول الظاهر والأفضل وحضر فخر الدين جهاركس وغيره من الناصرية فوصلوا قبل وصول الظاهر والأفضل وزحفوا إلى دمشق وقاتلوها رابع عشر ذى القعدة واشتد القتال عليها فالتصق الرجال بالسور فأدركهم الليل فعادوا وقد قوى الطمع فى أخذها ثم زحفوا إليها مرة ثانية وثالثة فلم يبق إلا ملكها لأن العسكر صعد إلى سطح خان ابن المقدم وهو ملاصق السور فلو لم يدركهم الليل لملكوا البلد فلما أدركهم الليل وهم عازمون على الزحف بكرة وليس لهم عن البلد مانع حسد الظاهر أخاه الأفضل فأرسل إليه يقول له تكون دمشق له وبيده ويسير العساكر معه إلى مصر فقال له الأفضل قد علمت أن والدتى وأهلى وهم أهلك أيضا على الأرض ليس لهم موضع يأوون إليه وأحسب أن هذا البلد لك تسيرنا إياه ليسكنها أهلى هذه المدة إلى أن يملك مصر فلم يجبه الظاهر فى ذلك ولج فلما رأى الأفضل ذلك الحال قال للناصرية وكل من جاء إليهم من الجند إن كنتم جئتم إلى فقد أذنت لكم فى العود إلى العادل وإن كنتم جئتم إلى أخى الظاهر فأنتم وهو أخبر وكان الناس كلهم يريدون الأفضل فقالوا ما نريد سواك والعادل أحب إلينا من أخيك فأذن لهم فى العود فهرب فخر الدين جهاركس وزير الدين قراجة

الذى أعطاه الأفضل صرخد فمنهم من دخل دمشق ومنهم من عاد إلى أقطاعه فلما انفسخ الأمر عليهم عادوا إلى تجديد الصلح مع العادل فترددت الرسل بينهم واستقر الصلح على أن يكون للظاهر منبج وأفامية وكفر طاب وقرى معينة من المعرة ويكون للأفضل سميساط وسروج ورأس العين وحملين ورحلوا عن دمشق أول المحرم سنة ثمان وتسعين فقصد الأفضل حمص فأقام بها وسار الظاهر إلى حلب ووصل العادل إلى دمشق تاسع المحرم وسار الأفضل إليه من حمص فاجتمع به بظاهر دمشق وعاد من عنده إلى حمص وسار منها ليتسلم سميساط فتسلمها وتسلم باقى ماستقر له برأس العين وسروج وغيرها .

﴿ ذكر ملك غياث الدين وأخيه ما كان لخوارزم شاه بخراسان ﴾ قد ذكرنا مسير محمد بن خرميل من الطالقان واستيلاءه على مرورود وسؤال جقر التركى نائب علاء الدين محمد خوارزم شاه بمرو أن يكون فى جملة عسكر غياث الدين ولما وصل كتاب ابن خرميل إلى غياث الدين فى معنى جقر علم أن هذا إنما دعاه إلى الانتماء إليهم ضعف صاحبه فأرسل إلى أخيه شهاب الدين يستدعيه إلى خراسان فسار من غزنة فى عساكره وجنوده وعدته وما يحتاج إليه وكان بهراة الأمير عمر بن محمد المرغنى نائبا عن غياث الدين وكان يكره خروج غياث الدين إلى خراسان فأحضره غياث الدين واستشاره فأشار بالكف عن قصدها وترك المسير إليها فأنكر عليه ذلك وأراد إبعاده عنه ثم تركه ووصل شهاب الدين فى عساكره وعساكر سجستان وغيرها فى جمادى الأولى من هذه السنة فلما وصلوا إلى ميمنة وهى قرية بين الطالقان وكرزيان وصل إلى شهاب الدين كتاب جقر مستحفظ مرو يطلبه ليسلمها إليه فاستأذن أخاه غياث الدين فأذن له فسار إليها فخرج أهلها مع العسكر الخوارزمى وقاتلوه فأمر أصحابه بالحملة عليهم والجد فى قتالهم فحملوا عليهم فأدخلوهم البلد وزحفوا بالفيلة إلى أن قاربوا السور فطلب أهل البلد الأمان فأمنهم وكف الناس عن التعرض إليهم وخرج جقر إلى شهاب الدين فوعده الجميل ثم حضر غياث الدين إلى مرو بعد فتحها فأخذ جقر وسيره إلى هراة مكرما وسلم مرو إلى هندوخان ابن ملك شاه بن خوارزم شاه تكش وقد ذكرنا هربه من عمه خوارزم شاه محمد بن تكش إلى غياث الدين ووصاه بالإحسان إلى أهلها ثم سار غياث الدين إلى مدينة سرخس فأخذها صلحا وسلمها إلى الأمير زنكى ابن مسعود وهو من أولاد عمه وأقطعه معها نساوأبيورد ثم سار بالعساكر إلى طوس فأراد الأمير الذى بها أن يمتنع فيها ولا يسلمها فأغلق باب البلد ثلاثة أيام فبلغ الخبر ثلاثة أمناء بدينار ركنى فضج أهل البلد عليه فأرسل إلى غياث الدين يطلب الأمان فأمنه فخرج إليه فخلع عليه وسيره إلى هراة ولما ملكها أرسل إلى على شاه ابن خوارزم شاه تكش وهو نائب أخيه علاء الدين محمد بنيسابور يأمره بمفارقة البلد ويحذره إن أقام سطوة أخيه شهاب الدين وكان مع على شاه عسكر من خوارزم شاه فاتفقوا على الامتناع من تسليم البلد وحصره وخربوا مابظاهره من العمارة وقطعوا الأشجار وسار غياث الدين إلى نيسابور فوصل إليها أوائل رجب وتقدم عسكر أخيه شهاب الدين إلى القتال فلما رأى غياث الدين ذلك قال لولده محمود قد سبقنا عسكر غزنة بفتح مرو ، وهم يريدون يفتحون نيسابور ، فيحصلون بالإسم ، فاحمل إلى البلد ، ولا ترجع حتى تصل السور ، فحمل ، وحمل معه وجوه الغورية ، فلم يردهم أحد عن السور ، حتى أصعدوا علم غياث الدين اليه ، فلما رأى شهاب الدين علم أخيه على السور ، قال لأصحابه : اقصدوا بنا هذه الناحية ، واصعدوا السور من ههنا ، وأشار إلى مكان فيه ، فسقط السور متهدما ، فضج الناس بالتكبير ، وذهل الخوارزميون وأهل

Marfat.com

البلد ودخل الغورية البلد وملكوه عنوة ونهبوه ساعة من نهار فبلغ الخبر إلى غياث الدين فأمر بالنداء من نهب مالا أو آذى أحدا فدمه حلال فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره ولقد حدثنى بعض أصدقائنا من التجار وكان بنيسابور فى هذه الحادثة نهب من متاعى شىء من جملته سكر فلما سمع العسكر النداء ردوا جميع ما أخذوا منى وبقى لى بساط وشىء من السكر مع جماعة فطالبته منهم فقالوا أما السكر فأكلناه فنسألك أن لا يسمع أحد وإن أردت ثمنه أعطيناك فقلت أنتم فى حل منه ولم يكن البساط مع أولئك قال فمشيت إلى باب البلد مع النظارة فرأيت البساط الذى لى قد ألقى عند باب البلد لم يجسر أحد يأخذه فأخذته وقلت هذا لى فطلبوا منى من يشهد به فأحضرت من شهد لى وأخذته ثم إن الخوارزميين تحصنوا بالجامع فأخرجهم أهل البلد فأخذهم الغورية ونهبوا مالهم وأخذ على شاه بن خوارزم شاه وأحضر عند غياث الدين راجلا فأنكر ذلك على من أحضره وعظم الأمر فيه وحضرت دابة كانت لعلى شاه وقال لغياث الدين أهكذا يفعل بأولاد الملوك فقال لا بل هكذا وأخذ بيده وأقعده معه على السرير وطيب نفسه وسير جماعة الأمراء الخوارزمية إلى هراة تحت الاستظهار وأحضر غياث الدين ابن عمه وصهره على ابنة ضياء الدين محمد بن أبى الغورى وولاه حرب خراسان وخراجها ولقبه علاء الدين وجعل معه وجوه الغورية ورحل إلى هراة وسلم على شاه إلى أخيه شهاب الدين وأحسن إلى أهل نيسابور وفرق فيهم مالا كثيرا، ثم رحل بعده شهاب الدين إلى ناحية قهستان فوصل إلى قرية فذكر له أن أهلها إسماعيلية فأمر بقتل المقاتلة ونهب الأموال وسبى الذرارى وخرب القرية فجعلها خاوية على عروشها ثم سار إلى كناباد وهى من المدن التى جميع أهلها إسماعيلية فنزل عليها وحصرها فأرسل صاحب قهستان إلى غياث الدين يشكو أخاه شهاب الدين ويقول بيننا عهد فما الذى بدا منا حتى تحاصر بلدى واشتد خوف الإسماعيلية الذين بالمدينة من شهاب الدين فطلبوا الأمان ليخرجوا منه فأمنهم وأخرجهم وملك المدينة وسلمها إلى بعض الغورية فأقام بها الصلوات وشعار الإسلام ورحل شهاب الدين فنزل على حصن آخر للإسماعيلية وصل إليه رسول أخيه غياث الدين فقال الرسول معى تقدم من السلطان فلا يجرى حردان فعلته فقال لا أرحل قال إذن أفعل ما أمرنى قال افعل فسل سيفه وقطع أطناب سرادق شهاب الدين وقال ارحل بتقدم السلطان فرحل شهاب الدين والعسكر وهو كاره إلى بلاد الهند ولم يقم بغزنة غضبا لما فعله أخوه معه.

﴿ذكر قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما﴾ فى هذه السنة أيضا تجهز نور الدين أرسلان صاحب الموصل وجمع عساكره، وسار إلى بلاد الملك العادل بالجزيرة حران والرها، وكان سبب حركته أن الملك العادل لما ملك مصر على ما ذكرناه قبل اتفق نور الدين والملك الظاهر صاحب حلب وصاحب ماردين وغيرهما على أن يكونوا يدا واحدة متفقين على منع العادل عن قصد أحدهم فلما تجدد حركة الأفضل والظاهر أرسلا إلى نور الدين، ليقصد البلاد الجزرية، فسار عن الموصل فى شعبان من هذه السنة، وسار معه ابن عمه قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى صاحب سنجار، ونصيبين وصاحب ماردين، ووصل إلى رأس العين، وكان الزمان قيظا فكثرت الأمراض فى عسكره، وكان بحران ولد للعادل، يلقب بالملك الفائز، ومعه عسكر يحفظ البلاد فلما وصل نور الدين إلى رأس العين جاءت رسل الفائز ومن معه من أكابر الأمراء يطلبون الصلح ويرغبون فيه وكان نور الدين قد سمع بأن الصلح بدأ يتم بين الملك العادل والملك الظاهر والأفضل وانضاف إلى ذلك كثرة الأمراض فى عسكره فأجاب اليه وحلف الملك الفائز ومن عنده من أكابر الأمراء على القاعدة

Marfat.com

التى استقرت وحلفوا أنهم يحلفون الملك العادل له فإن امتنع كانوا معه عليه وحالف هو لذلك العادل وسارت الرسل من عنده ومن عند ولده فى طلب اليمين من العادل فأجاب إلى ذلك وحلف له واستقرت القاعدة وأمنت البلاد وعاد نورالدين إلى الموصل فى ذى القعدة من السنة .

﴿ذكر ملك شهاب الدين نهرواله﴾ لما سار شهاب الدين من خراسان على ماذكرناه لم يقم بغزنة وقصد بلاد الهند وأرسل مملوكه قطب الدين أيبك إلى نهرواله فوصلها سنة ثمان وتسعين فلقيه عسكر الهنود فقاتلوه قتالا شديدا فهزمهم أيبك واستباح معسكرهم ومالهم فيه من الدواب وغيرها وتقدم إلى نهرواله فملكها عنوة وهرب ملكها فجمع وحشد فكثر جمعه وعلم شهاب الدين أنه لا يقدر على حفظها إلا بأن يقيم هو فيها ويخليها من أهلها فيتعذر عليه ذلك فإن البلد عظيم هو أعظم بلاد الهند وأكثرهم أهلا فصالح صاحبها على مال يؤديه اليه عاجلا وآجلا وأعاد عساكره عنها وسلمها إلى صاحبها .

﴿ذكر ملك ركن الدين ملطية من أخيه وأرزن الروم﴾ فى هذه السنة فى شهر رمضان ملك ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان مدينة ملطية وكانت لأخيه معزالدين قيصر شاه فسار اليه وحصره أياما وملكها وسار منها إلى أرزن الروم وكانت لولد الملك ابن محمد بن صلتق وهم بيت قد ملكوا أرزن الروم مدة طويلة فلما سار اليها وقاربها خرج صاحبها اليه ثقة به ليقرر معه الصلح على قاعدة يؤثرها ركن الدين فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد وكان هذا آخر أهل بيته ملكوا فتبارك الله الحى القيوم الذى لا يزول ملكه أبدا سرمدا .

﴿ذكر وفاة سقمان صاحب آمد وملك أخيه محمود﴾ فى هذه السنة توفى قطب الدين سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان صاحب آمد وحصن كيفا سقط من سطح جوسق كان له بظاهر حصن كيفا فمات وكان شديد الكراهة لأخيه هذا والنفور عنه قد أبعده وأنزله حصن منصور فى آخر بلادهم واتخذ مملوكا اسمه إياس فزوجه أخته وأحبه حبا شديدا وجعله ولى عهده فلما توفى ملك بعده عدة أيام وتهدد وزيرا كان لقطب الدين وغيره من أمراء الدولة فأرسلوا إلى أخيه محمود سرا يستدعونه فسار مجدا فوصل إلى آمد وقد سبقه اليها إياس مملوك أخيه فلم يقدم على الامتناع فتسلم محمود البلاد جميعها وملكها وحبس المملوك فبقى مدة محبوسا ثم شفع له صاحب بلاد الروم فأطلق من الحبس وسار إلى الروم فصار أميرا من أمراء الدولة .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة اشتد الغلاء بالبلاد المصرية لعدم زيادة النيل وتعذرت الأقوات حتى أكل الناس الميتة وأكل بعضهم بعضا ثم لحقهم عليه وباء وموت كثير أفنى الناس . وفى شعبان منها تزلزلت الأرض بالموصل وديار الجزيرة كلها والشام ومصر وغيرها فأثرت فى الشام آثارا قبيحة وخربت كثيرا من الدور بدمشق وحمص وحماة وانخسفت قرية من قرى بصرى وأثرت فى الساحل الشامى أثرا كثيرا فاستولى الخراب على طرابلس وصور وعكا ونابلس وغيرها من القلاع ووصلت الزلزلة إلى بلد الروم وكانت بالعراق يسيرة لم تهدم دورا . وفيها ولد ببغداد طفل له رأسان وذلك أن جبهته مفروقة بمقدار ما يدخل فيها ميل .

وفى هذه السنة فى شهر رمضان توفى أبو الفرج عبدالرحمن بن على بن الجوزى الحنبلى الواعظ ببغداد وتصانيفه مشهورة وكان كثير الوقيعة فى الناس لا سيما فى العلماء المخالفين لمذهبه والموافقين له وكان مولده سنة عشر وخمسمائة وفيها أيضا توفى عيسى بن نصير النميرى الشاعر وكان حسن الشعر وله أدب وفضل وكان موته ببغداد وفيها توفى العماد أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله بن ألّه (باللام

Marfat.com

المشددة المضمومة) وهو العماد الكاتب الأصفهانى كتب لنورالدين محمود بن زنكى ولصلاح الدين يوسف ابن أيوب رضى الله عنهما وكان كاتبا مفلقا قادرا على القول . وفيها جمع عبدالله بن حمزة العلوى المتغلب على جبال اليمن جموعا كثيرة فيها اثنا عشر ألف فارس ومن الرجالة مالا يحصى كثرة وكان قدانضاف إليه من جند المعز بن إسماعيل بن سيف الإسلام طغدكين بن أيوب صاحب اليمن خوفامنه وأيقنوا بملك البلاد واقتسموها وخافهم ابن سيف الإسلام خوفا عظيما فاجتمع قواد عسكر ابن حمزة ليلا ليتفقوا على رأى يكون العمل بمقتضاه وكانوا إثنى عشر قائدا فنزلت عليهم صاعقة أهلكتهم جميعهم فأتى الخبر ابن سيف الإسلام فى باقى الليلة بذلك فسار إليهم بجدا فأوقع بالعسكر المجتمع فلم يثبتوا له وانهزموا بين يديه ووضع السيف فيهم فقتل منهم ستة آلاف قتيل أو أكثر من ذلك وثبت ملكه واستقرأمره . وفيها وقع فى بنى عنزة بأرض الشراة بين الحجاز واليمن وباء عظيم وكانوا يسكنون فى عشرين قرية فوقع الوباء فى ثمان عشره قرية فلم يبق منهم أحد وكان الإنسان إذا قرب من تلك القرى يموت ساعة مايقاربها فتحاماها الناس وبقيت إبلهم وأغنامهم لامانع لها وأما القريتان الأخريان فلم يمت فيهما احد ولا أحسوا بشىء مما كان فيه أولئك . (١)

﴿ثم دخلت سنة ثمان تسعين وخمسمائة﴾

﴿ذكر ملك خوارزم شاه ماكان أخذه الغورية من بلاده﴾ قد ذكرنا فى سنة سبع وتسعين ملك غياث الدين وأخيه شهاب الدين ماكان لخوارزم شاه محمد بن تكش بخواسان ومروونيسابور وغيرها وعودهما عنها بعد أن أقطعا البلاد ومسير شهاب الدين إلى الهند فلما اتصل بخوارزم شاه علاءالدين محمد بن تكش عود العساكر الغوريه عن خراسان ودخول شهاب الدين الهند أرسل إلى غياث الدين يعاتبه ويقول كنت أعتقد أن تخلف على بعدابى وأن تنصرنى على الخطا وتردهم عن بلادى فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لاتؤذينى وتأخذ بلادى والذى أريده أن تعيد ما أخذته منى إلى وإلا انتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الأتراك إن عجزت عن أخذ بلادى

---

(١) وفيها توفى الأمير بهاء الدين قراقوش الفحل الخصى ؛ أحد كبار كتاب أمراء الدوله الصلاحية ، كان شهماً شجاعا فاتكا ، تسلم القصر لما مات العاضد وعمر سور القاهرة محيطا على مصر أيضا ، وانتهى إلى المقسم وهو المكان الذى اقتسمت فيه الصحابة ماغنموا من الديار المصرية ؛ وبنى قلعة الجبل ، وكان صلاح الدين سلمه عكا ليعمر فيها أماكن كثيرة فوقع الحصار وهو بها ، فلما خرج البدل منها كان هو من جملة من خرج ، ثم دخلها ابن المشطوب وقد ذكر أنه أسر فافتدى نفسه بعشرة آلاف دينار ، وعاد إلى صلاح الدين ففرح به فرحا شديداً ، ولما توفى فى هذه السنة احتاط العادل على تركته وصارت أقطاعه وأملاكه للملك الكامل محمد بن العادل . قال ابن خلكان : وقدنسب إليه أحكام عجيبة ، حتى صنف بعضهم جزءاً لطيفا سماه كتاب الفاشوش فى أحكام قراقوش ؛ فذكر أشياء كثيرة جدا ، وأظنها موضوعة عليه ؛ فإن الملك صلاح الدين كان يعتمد عليه فكيف يعتمد على من بهذه المثابة والله أعلم.

وفيها توفى مكلبة بن عبدالله المستنجدى كان تركيا عابداً زاهداً ، سمع المؤذن وقت السحر ، وهو ينشد على المنارة :

يا رجال الليل جدوا ٭ رب صوت لايرد ما يقوم الليل إلا ٭ من له عزم وجد

قد مضى الليل وولى ٭ وحبيبى قد تخلا

فبكى مكلبة ؛ وقال للمؤذن يا مؤذن زدنى ، فقال :

فصرخ مكلبة صرخة كان فيها حتفه ، فأصبح أهل البلد قد اجتمعوا على بابه فالسعيد منهم من وصل إلى نعشه رحمه الله تعالى .

Marfat.com

فإنى إنما شغلنى عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدى وتقرير أمر بلادى وإلا فما أنا بعاجز عنكم وعن أخذ بلادك خراسان وغيرها فغالطه غياث الدين فى الجواب ليهد الأيام بالمراسلات ويخرج أخوه شهاب الدين من الهند بالعساكر فإن غياث الدين كان عاجز باستيلاء الفرس عليه . فلما وقف خوارزم شاه على رسالة غياث الدين أرسل إلى علاء الدين الغورى نائب غياث الدين بخراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور ويتهدده إن لم يفعل فكتب علاء الدين إلى غياث الدين بذلك ويعرفه ميل أهل البلد إلى الخوارزميين فأعاد غياث الدين جوابه يقوّى قلبه ويعده النصرة والمنع عنه وجمع خوارزم شاه عساكره وسار عن خوارزم نصف ذى الحجة سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، فلما قارب نسا وأبيورد هرب هندوخان ابن أخى ملك شاه من مرو إلى غياث الدين بفيروزكوه وملك خوارزم شاه مدينة مرو وسار إلى نيسابور ، وبها علاء الدين فحصره وقاتله قتالا شديداً وطال مقامه عليها وراسله غير مرة فى تسليم البلد إليه وهو لايجيب إلى ذلك انتظارا للمدد من غياث الدين فبقى نحو شهرين فلما أبطأت عليه النجدة أرسل إلى خوارزم شاه يطلب الأمان لنفسه ولمن معه من الغورية وأنه لايتعرض إليهم بحبس ولاغيره من الأذى فأجابه إلى ذلك وحلف لهم وخرجوا من البلد وأحسن خوارزم شاه إليهم ووصلهم بمال جليل وهدايا كثيرة وطلب من علاء الدين أن يسعى فى الصلح بينه وبين غياث الدين وأخيه فأجابه إلى ذلك وسار إلى هراة وفيها إقطاعه ولم يمض إلى غياث الدين تجنيا عليه لتأخر أمداده ولما خرجَ الغورية من نيسابور أحسن خوارزم شاه إلى الحسين بن خرميل وهو من أعيان أمرائهم زيادة على غيره وبالغ فى إكرامه فقيل إن من ذلك اليوم استخلفه لنفسه وأن يكون معه بعد غياث الدين وأخيه شهاب الدين ثم سار خوارزم شاه إلى سرخس وبها الأمير زنكى فحصره أربعين يوما وجرى بين الفريقين حروب كثيرة فضاقت الميرة على أهل البلد لاسيما الحطب فأرسل زنكى خوارزم شاه يطلب منه أن يتأخر عن باب البلد حتى يخرج هو وأصحابه ويترك البلد له فراسله خوارزم شاه فى الاجتماع به ليحسن إليه وإلى من معه فلم يجبه إلى ذلك واحتج بقرب نسبه من غياث الدين فأبعد خوارزم شاه عن باب البلد بعساكره فخرج زنكى فأخذ من الغلات وغيرها التى فى العسكر ما أراد لاسيما من الحطب وعاد إلى البلد وأخرج منه من كان قد ضاق به الأمر وكتب إلى خوارزم شاه (العود أحمد) فندم حيث لم ينفعه الندم ورحل عن البلد وترك عليه جماعة من الأمراء يحصرونه فلما أبعد خوارزم شاه سار محمد بن جربك من الطالقان وهو من أمراء الغورية وأرسل إلى زنكى أمير سرخس يعرفه أنه يريد يكبس الخوارزميين لئلا ينزعج إذا سمع الغلبة ، وسمع الخوارزميون الخبر ففارقوا سرخس وخرج زنكى ولقى محمد بن جربك وعسكرا فى مرو الروذ وأخذ أخراجها ومايجاورها فسير إليهم خوارزم شاه عسكرا مع خاله فلقيهم محمد بن جربك وقاتلهم وحمل بلت فى يده على صاحب علم الخوارزمية فضربه فقتله وألقى علمهم وكسر كوساتهم ، فانقطع صوتها عن العسكر ولم يروا أعلامهم ، فانهزموا وركبهم الغورية قتلا وأسرا نحو فرسخين فكانوا ثلاثة آلاف فارس وابن جربك فى تسعمائة فارس وغنم جميع معسكرهم فلما سمع خوارزم شاه ذلك عاد إلى خوارزم وأرسل إلى غياث الدين فى الصلح فأجابه عن رسالته مع أمير كبير من الغورية يقال له الحسين بن محمد المرغنى و(مرغن) من قرى الغور فقبض عليه خوارزم شاه .

﴿ذكر حصر خوارزم شاه هراة وعوده عنها﴾ لما أرسل خوارزم شاه إلى غياث الدين فى الصلح وأجابه عن رسالته مع الحسين المرغنى مغالطا قبض خوارزم شاه على الحسين وسار إلى هراة ليحاصرها فكتب الحسين

Marfat.com

إلى أخيه عمر بن محمد المرغنى أمير هراة يخبره بذلك فاستعد للحصار وكان سبب قصد خوارزم شاه حصار هراة أن رجلين أخوين ممن كان يخدم محمدا سلطان شاه اتصلا بغياث الدين بعد وفاة سلطان شاه فأكرمهما غياث الدين وأحسن إليهما يقال لأحدهما الأمير الحاجى فكانا خوارزم شاه وأطمعاه فى البلد وضمنا له تسليمه إليه فسار لذلك ونازل المدينة وحصرها فسلم الأمير عمر المرغنى أمير البلد مفاتح الأبواب إليهما وجعلهما على القتال ثقة منه بهما وظنا منه أنهما عدوا خوارزم شاه تكش وابنه محمد بعده ، فاتفق أن بعض الخوارزمية أخبر الحسين المرغنى عند خوارزم شاه بحال الرجلين وأنهما هما اللذان يدبران خوارزم شاه ويأمرانه بما يفعل فلم يصدقه وأتاه بخط الأمير حاجى فأخذه وأرسله إلى أخيه عمر أمير هراة فأخذهما واعتقلهما وأخذ أصحابهما ثم إن ألب غازى وهو ابن أخت غياث الدين جاء فى عسكر من الغورية فنزل على خمسة فراسخ من هراة فكان يمنع الميرة عن عسكر خوارزم شاه ثم إن خوارزم شاه سير عسكرا إلى أعمال الطالقان للغارة عليها فلقيهم الحسن بن جربك فقاتلهم فظفر بهم فلم يفلت منهم أحد وسار غياث الدين عن فيروزكوه إلى هراة فى عسكره فنزل برباط رزين بالقرب من هراة ولم يقدم على خوارزم شاه لقلة عسكره لأن أكثر عساكره كانت مع أخيه بالهند وغزنة فأقام خوارزم شاه على هراة أربعين يوما وعزم على الرحيل لأنه بلغه انهزام أصحابه بالطالقان وقرب غياث الدين وكذلك أيضا قرب ألب غازى وسمع أيضا أن شهاب الدين قد خرج من الهند إلى غزنة وكان وصوله اليها فى رجب من هذه السنة فخاف أن يصل بعساكره فلا يمكنه المقام على البلد فأرسل إلى أمير البلد عمر المرغنى فصالحه على مال حمله اليه وارتحل عن البلد وأما شهاب الدين فإنه لما وصل إلى غزنة بلغه الخبر بما فعله خوارزم شاه بخراسان وملكه لها فسار إلى خراسان فوصل إلى بلخ ومنها إلى باميان ثم إلى مرو عازما على حرب خوارزم شاه وكان نازلا هناك فالتقت أوائل عسكريهما واقتتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين خلق كثير ثم إن خوارزم شاه ارتحل عن مكانه شبه المنهزم وقطع القناطر وقتل الأمير سنجر صاحب نيسابور لأنه اتهمه بالمخامرة عليه وتوجه شهاب الدين إلى طوس فأقام بها تلك الشتوة على عزم المصير إلى خوارزم ليحصرها فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فقصد هراة وترك ذلك العزم .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة درس مجد الدين أبو على يحيى بن الربيع الفقيه الشافعى بالنظامية ببغداد فى ربيع الأول . وفيها توفيت بنفشه جارية الخليفة المستنصر بأمر الله وكان كثير الميل اليها والمحبة لها وكانت كثيرة المعروف والإحسان والصدقة . وفيها أيضا توفى الخطيب عبد الملك بن زيد الدولعى خطيب دمشق وكان فقيها شافعيا والدولعية قرية من أعمال الموصل [1] .

---

(١) وفيها توفى القاضى بن الزكى : محمد بن على بن محمد بن يحيى بن عبد العزيز القرشى ، كان هو وأبوه وجده وأبو جده قضاة وهو أول من خطب بالقدس لما فتح ، ثم تولى قضاء دمشق وأضيف إليه قضاء حلب أيضاً ، وكان ناظر أوقاف الجامع ، وعزل عنها قبل وفاته بشهور ، ووقع بينه وبين الاسماعيلية فأرادوا قتله فاتخذ له بابا من داره إلى الجامع ليخرج منه إلى الصلاة ، ثم إنه خولط فى عقله ، فكان يعتريه شبه الصرع إلى أن توفى فى شعبان من هذه السنة ، ودفن بتربته بسفح قايسون . وفيها توفى الخطيب الدولعى ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك ابن زيد بن ياسين الثعلبى الدولعى ، نسبة إلى قرية بالموصل ، يقال لها الدولعيه ، ولد بها فى سنة ثمان عشر وخمسمائة .

Marfat.com

Marfat.com

﴿ ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة ﴾

﴿ذكر حصر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها﴾ فى هذه السنة فى المحرم سير الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب دمشق ومصر عسكرا مع ولده الملك الأشرف موسى إلى ماردين فحصروها وشحنوا على أعمالها وانضاف اليه عسكر الموصل وسنجار وغيرهما ونزلوا بخرزم تحت ماردين ونزل عسكر من قلعة البارعية وهى لصاحب ماردين يقطعون الميرة عن العسكر العادلى فسار اليهم طائفة من العسكر العادلى فاقتتلوا فانهزم عسكر البارعية وثار التركمان وقطعوا الطريق فى تلك الناحية وأكثروا الفساد فتعذر سلوك الطريق إلا الجماعة من أرباب السلاح فسار طائفة من العسكر العادلى إلى رأس العين لإصلاح الطرق وكف عادية الفساد وأقام ولد العادل ولم يحصل له غرض فدخل الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب فى الصلح بينهم وأرسل إلى عمه العادل فى ذلك فأجاب اليه على قاعدة أن يحمل له صاحب ماردين مائة وخمسين ألف دينار فجاء صرف الدينار أحد عشر قيراطا من أميرى ويخطب له ببلاده ويضرب اسمه على السكة ويكون عسكره فى خدمته أى وقت طلبه وأخذ الظاهرى عشرين ألف دينار من النقد المذكور وقرية القرادى من أعمال شيختان فرحل ولد العادل عن ماردين .

﴿ ذكر وفاة غياث الدين ملك الغور وشىء من سيرته ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الأولى توفى غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام الغورى صاحب غزنة وبعض خراسان وغيرها وأخفيت وفاته وكان أخوه شهاب الدين بطوس عازما على قصد خوارزم شاه فأتاه الخبر بوفاة أخيه فسار إلى هراة فلما وصل إليها جلس للعزاء بأخيه فى رجب وأظهرت وفاته حينئذ وخلف غياث الدين من الولد ابنا اسمه محمود لقب بعد موت أبيه غياث الدين وسنورد من أخباره كثيرا ولما سار شهاب الدين من طوس استخلف بمرو الأمير محمد بن جربك فسار إليه جماعة من الأمراء الخوارزمية فخرج إليهم محمد ليلا وبيتهم فلم ينج منهم إلا القليل وأنفذ الأسرى والرؤس إلى هراة فأمر شهاب الدين بالاستعداد لقصد خوارزم على طريق الرمل وجهز خوارزم شاه جيشا وسيرهم مع برفور التركى إلى قتال محمد بن جربك فسمع بهم فخرج إليهم ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو فاقتتلوا قتالا شديدا قتل بين الفريقين خلق كثير وانهزم الغورية ودخل محمد بن جربك مرو فى عشرة فرسان وجاء الخوارزميون فحصروه خمسة عشر يوما فضعف عن الحفظ فأرسل فى طلب الأمان فحلفوا له إن خرج إليهم على حكمهم أنهم لا يقتلونه فخرج فقتلوه وأخذوا كل ما معه وسمع شهاب الدين الخبر فعظم عليه وترددت الرسل بينه وبين خوارزم شاه فلم يستقر الصلح وأراد العود إلى غزنة فاستعمل على هراة ابن أخيه ألب غازى وفلك الملك علاء الدين محمد بن أبى على الغورى على مدينة فيروزكوه وجعل إليه حرب خراسان وأمر كل ما يتعلق بالمملكة وأتاه محمد ابن أخيه غياث الدين فولاه مدينة بست واسفزار وتلك الناحية وجعله بمعزل من الملك جميعه ولم يحسن الخلافة عليه بعد أبيه ولا على غيره من أهله فمن جملة فعله أن غياث الدين كانت له زوجة كانت مغنية فهويها وتزوجها فلما مات غياث الدين قبض عليها وضربها ضربا مبرحا وضرب ولدها غياث الدين وزوج أختها وأخذ أموالهم وأملاكهم وسيرهم إلى بلد الهند فكانوا فى أقبح صورة وكانت قد بنت مدرسة ودفنت فيها أباها وأمها وأخاها فهدمها ونبش قبور الموتى ورمى بعظامهم منها وأما سيرة غياث الدين وأخلاقه فإنه كان

من سرخس إلى مرو فأقام بظاهرها فأعاد إليه شهاب الدين جوابه لعلك تنهزم كما فعلت تلك الدفعة لكن خوارزم تجمعنا ففرق خوارزم شاه عساكره وأحرق ماجمعه من العلف ورحل يسابق شهاب الدين إلى خوارزم فسبقه إليها فقطع الطريق وأجرى المياه فيها فتعذر على شهاب الدين سلوكها وأقام أربعين يوما يصلحها حتى أمكنه الوصول إلى خوارزم والتقى العسكران بسوقرا ومعناه الماء الأسود فجرى بينهم قتال شديد كثرت القتلى فيه بين الفريقين وممن قتل من الغورية الحسين المرغنى وغيره وأسر جماعة من الخوارزمية فأمر شهاب الدين بقتلهم فقتلوا وأرسل خوارزم شاه إلى الأتراك الخطا يستنجدهم وهم حينئذ أصحاب ماوراء النهر فاستعدوا وساروا إلى بلاد الغورية فلما بلغ شهاب الدين ذلك عاد عن خوارزم فلقى أوائلهم فى صحراء اندخوى أول صفر سنة إحدى وستمائة فقتل فيهم وأسر كثيرا فلما كان اليوم الثانى دهمه من الخطا مالا طاقة له بهم فانهزم المسلمون هزيمة قبيحة وبقى شهاب الدين فى نفر يسير وقتل بيده أربعة أفيال له لأنها أعيت وأخذ الكفار فيلين ودخل شهاب الدين اندخوى فيمن معه وحصره الكفار ثم صالحوه على أن يعطيهم فيلا آخر ففعل وخلص ووقع الخبر فى جميع بلاده بأنه قد عدم وكثرت الأراجيف بذلك ثم وصل إلى الطالقان فى سبعة نفر وقد قتل أكثر عسكره ونهبت خزائنه جميعها فلم يبق منها شىء فأخرج له الحسين بن خرميل صاحب الطالقان خياما وجميع مايحتاج إليه وسار إلى غزنة وأخذ معه الحسين بن خرميل لأنه قيل له عنه أنه شديد الخوف لانهزامه وأنه قال إذا سار السلطان هربت إلى خوارزم شاه فأخذه معه وجعله أمير حاجب ولما شاع الخبر بقتل شهاب الدين جمع تاج الدين الدز وهو مملوك اشتراه شهاب الدين أصحابه وقصد قلعة غزنة ليصعد إليها فمنعه مستحفظها فعاد إلى داره فأقام بها وأفسد الخلج وسائر المفسدين فى البلاد وقطعوا الطرق وقتلوا كثيرا فلما عاد شهاب الدين إلى غزنة بلغه مافعله الدز فأراد قتله فشفع فيه سائر المماليك فأطلقه ثم اعتذر وسار شهاب الدين فى البلاد فقتل من المفسدين من تلك الأمم نفرا كثيرا وكان له أيضا مملوك آخر اسمه أيبك بال تر فسلم من المعركة ولحق بالهند ودخل المولتان وقتل نائب السلطان بها وملك البلد وأخذ الأموال السلطانية وأساء السيرة فى الرعية وأخذ أموالهم وقال قتل السلطان وأنا السلطان وكان يحمله على ذلك ويحسنه له إنسان اسمه عمر بن يزان وكان زنديقا ففعل ما أمره وجمع المفسدين وأخذ الأموال فأخاف الطريق فبلغ خبره إلى شهاب الدين فسار إلى الهند وأرسل إليه عسكرا فأخذوه ومعه عمر بن يزان فقتلهما أقبح قتلة وقتل من وافقهما فى جمادى الآخرة من سنة إحدى وستمائة ولما رآهم قتلى قرأ (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا) الآية وأمر شهاب الدين فى جميع بلاده بالتجهز لقتال الخطا وغزوهم والأخذ بثارهم وقيل كان سبب انهزامه أنه لما عاد إلى الخطا من خوارزم فرق عسكره فى المفازة التى فى طريقه لقلة الماء وكان الخطا قد نزلوا على طرف المفازة فكلما خرج من أصحابه طائفة فتكوا فيهم بالقتل والأسر ومن سلم من عسكره انهزم نحو البلاد ولم يرجع إليه أحد يعلم الحال وجاء شهاب الدين فى ساقة العسكر فى عشرين ألف فارس ولم يعلم الحال فلما خرج من البرية لقيه الخطا مستريحين وهو ومن معه قد تعبوا وأعيوا وكان الخطا أضعاف أصحابه فقاتلهم عامة نهاره وحمى نفسه منهم وحصروه فى اندخوى فجرى بينهم فى عدة أيام أربعة عشر مصافا منها مصاف واحد كان من العصر إلى بكرة الغد ثم إنه بعد ذلك سير طائفة من عسكره ليلا سرا وأمرهم أن يرجعوا إليه بكرة كأنهم قد أتوه مددا من بلاده فلما فعلوا ذلك خافه الخطا قال لهم صاحب سمرقند وكان مسلما وهو فى طاعة الخطا وقد خاف على الإسلام والمسلمين إن هم ظفروا

Marfat.com

بشهاب الدين فقال لهم إن هذا الرجل لانجد قط أضعف منه لما خرج من المفازة ومع ضعفه وتعبه وقلة من معه لم نظفر به والإمداد أتته وكأنكم بعساكره وقد أقبلت من كل طريق وحينئذ نطلب الخلاص منه فلا نقدر عليه والرأى لنا الصلح معه فأجابوا إلى ذلك فأرسلوا إليه فى الصلح وكان صاحب سمرقند قدأرسل إليه وعرفه الحال سرا وأمره بإظهار الامتناع من الصلح أولا والإجابة إليه أخيرا فلما أتته الرسل امتنع وأظهر القوة بانتظار الإمداد وطال الكلام فاصطلحوا على أن الخطا لايعبرون النهر إلى بلاده ولا يعبر إلى بلادهم ورجعوا عنه وخلص هو وعاد إلى بلاده والباقى نحو ماتقدم .

﴿ ذكر قتل طائفة من الاسماعيلية بخراسان ﴾ فى هذه السنة وصل رسول إلى شهاب الدين الغورى من عند مقدم الإسماعيلية بخراسان برسالة أنكرها فأمر علاء الدين محمد بن أبى على متولى بلاد الغورية بالمسير إليهم ومحاصرة بلادهم فسار فى عساكر كثيرة إلى قهستان وسمع به صاحب زوزن فقصده وسار معه وفارق خدمة خوارزم شاه ونزل علاء الدين على مدينة قاين وهى للإسماعيلية وحصرها وضيق على أهلها ووصل خبر قتل شهاب الدين على ماذكره فصالح أهلها على ستين ألف دينار ركنية ورحل عنهم وقصد حصن كاخك فأخذوه وقتل المقاتلة وسبى الذرية ورحل إلى هراة ومنها إلى فيروزكوه .

﴿ ذكر ملك القسطنطينية من الروم ﴾ فى هذه السنة فى شعبان ملك الفرنج مدينة القسطنطينية من الروم وأزالوا ملك الروم عنها وكان سبب ذلك أن ملك الروم بها تزوج أخت ملك إفرنسيس وهو من أكبر ملوك الفرنج فرزق منها ولدا ذكرا ثم وثب على الملك أخ له فقبض عليه وملك البلد منه وسمل عينيه وسجنه فهرب ولده ومضى إلى خاله مستنصرا به على عمه فاتفق ذلك ، وقد اجتمع كثير من الفرنج ليخرجوا إلى بلاد الشام ، لاستنقاذ البيت المقدس فأخذوا ولد الملك معهم وجعلوا طريقهم على القسطنطينية قصدا لإصلاح الحال بينه وبين عمه ولم يكن له طمع فى سوى ذلك فلما وصلوا خرج عمه فى عساكر الروم محاربا لهم فوقع القتال بينهم فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وخمسمائة فانهزمت الروم ودخلوا البلد فدخله الفرنج معهم فهرب ملك الروم إلى أطراف البلاد ، وقيل إن ملك الروم لم يقاتل الفرنج بظاهر البلد وإنما حصروه فيها وكان بالقسطنطينية من الروم من يريد الصبى فألقوا النار فى البلد فاشتغل الناس بذلك ففتحوا بابا من أبواب المدينة فدخلها الفرنج وخرج ملكها هاربا وجعل الفرنج الملك فى ذلك الصبى وليس له من الحكم شىء وأخرجوا أباه من السجن إنما الفرنج هم الحكام فى البلد فثقلوا الوطأة على أهله وطلبوا منهم أموالا عجزوا عنها وأخذوا أموال البيع ومافيها من ذهب ونقرة وغير ذلك حتى ما على الصلبان وهو على صورة المسيح عليه السلام والحواريين وماعلى الأناجيل من ذلك أيضا فعظم ذلك على الروم وحملوا منه خطبا عظيما فعمدوا إلى ذلك الصبى الملك فقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد وأغلقوا الأبواب واستحضروا الملك وكان ذلك فى جمادى الأولى سنة ستمائة فأقام الفرنج بظاهره محاصرين للروم وقاتلوهم ولازموا قتالهم ليلا ونهارا وكان الروم قد ضعفوا ضعفا كثيرا فأرسلوا إلى السلطان ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان صاحب قونية وغيرها من البلاد يستنجدونه فلم يجد إلى ذلك سبيلا وكان بالمدينة كثير من الفرنج مقيمين يقاربون ثلاثين ألفا ولعظم البلد لايظهر أمرهم فتواضعوا هم والفرنج الذين بظاهر البلد ووثبوا فيه وألقوا النار مرة ثانية فاحترق نحو ربع البلد وفتحوا الأبواب فدخلوها ووضعوا السيف ثلاثة أيام وفتكوا بالروم قتلا ونهبا فأصبح الروم كلهم مابين قتيل أوفقير لايملك شيئا ودخل جماعة

Marfat.com

من أعيان الروم الكنيسة العظمى التى تدعى سوفيا فجاء الفرنج إليها فخرج إليهم جماعة من القسيسين والأساقفة والرهبان بأيديهم الإنجيل والصليب يتوسلون بها إلى الفرنج ليبقوا عليهم فلم يلتفتوا إليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة وكانوا ثلاثة ملوك دوقس البنادقة وهو صاحب المراكب البحرية وفى مراكبه ركبوا إلى القسطنطينية وهو شيخ أعمى إذا ركب تقاد فرسه والآخر يقال له المركيس وهو مقدم الإفرنسيس والآخر يقال له كند أفلند وهو أكثرهم عددا ، فلما استولى القسطنطينية افترعوا على الملك فخرجت القرعة على كند أفلند فأعادوا القرعة ثانية وثالثة فخرجت عليه فملكوه والله يؤتى ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء فلما خرجت القرعة عليه ملكوه عليها وعلى مايجاورها وتكون لدوقس البنادقة الجزائر البحرية مثل جزيرة إقريطش وجزيرة رودس وغيرهما ويكون لمركيس الإفرنسيس البلاد التى هى شرقى الخليج مثل أزنيق ولاذيق فلم يحصل لأحد منهم شىء غير الذى أخذ القسطنطينية وأما الباقى فلم يسلم من به من الروم ، وأما البلاد التى كانت لملك القسطنطينية شرقى الخليج المجاورة لبلاد ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان ومن جملتها أزنيق ولاذيق فإنها تغلب عليها بطريق الروم اسمه لشكرى وهى بيده إلى أن توفى .

﴿ذكر انهزام نورالدين صاحب الموصل من العساكر العادليه﴾ فى هذه السنة فى العشرين من شوال انهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل من العساكر العادلية وسبب ذلك أن نور الدين كان بينه وبين عمه قطب الدين محمد بن زنكى صاحب سنجار وحشة مستحكمة أولا فاتفقا وسار معه إلى ميافارقين سنة خمس وتسعين وقد ذكرناه فلما كان الآن أرسل الملك العادل أبوبكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وبلاد الجزيرة إلى قطب الدين واستماله فمال إليه وخطب له فلما سمع نورالدين ذلك سار الى مدينة نصيبين سلخ شعبان وهى لقطب الدين فحصرها وملك المدينة وبقيت القلعة فحصرها عدة أيام فبينما هو يحاصرها وقد أشرف على أن يتسلمها أتاه الخبر أن مظفر الدين بوكبرى زين الدين على صاحب إربل قد قصد أعمال الموصل فنهب نينوى وأحرق غلاتها فلما بلغه ذلك من نائبه المرتب بالموصل يحفظها سار عن نصيبين إلى الموصل على عزم العبور إلى بلد إربل ونهبه جزاء بما فعل صاحبها ببلده فوصل إلى مدينة بلد وعاد مظفر الدين إلى بلده وتحقق نورالدين أن الذى قيل له وقع فيه زيادة فسار إلى تل أعفر من بلد وهى لصاحب سنجار وحصرها وأخذها ورتب أمورها وأقام عليها سبعة عشر يوما ، وكان الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بن أيوب قد سار من مدينة حران إلى رأس عين نجدة لقطب الدين صاحب سنجار ونصيبين وقد اتفق هو ومظفر الدين صاحب إربل وصاحب الحصن وآمد وصاحب جزيرة ابن عمر وغيرهم على ذلك وعلى منع نورالدين من أخذ شىء من بلاده وكلهم خائفون منه ولم يمكنهم الاجتماع وهو على نصيبين فلما فارقها نورالدين سار الأشرف إليها واتاه أخوه نجم الدين صاحب ميافارقين وصاحب الحصن وصاحب الجزيرة وصاحب دارا وساروا عن نصيبين نحو بلد البقعا قريبا من بوشرى وسار نورالدين من تل أعفر إلى كفر زمار وعزم على المطاولة ليتفرقوا فأتاه كتاب من بعض مماليكه يسمى جرديك وقد أرسله يتجسس أخبارهم فيقللهم فى عينه ويطمعه فيهم ويقول إن أذنت لى لقيتهم بمفردى فسار حينئذ نورالدين إلى بوشرى فوصل إليها من الغد الظهر وقد تعبت دوابه وأصحابه ولقوا شدة من الحر فنزل بالقرب منهم أقل من ساعة ، وأتاه الخبر أن عساكر الخصم قد ركبوا فركب هو وأصحابه وساروا نحوهم فلم يروا لهم أثرا فعاد إلى خيامه ونزل هو وعساكره وتفرق كثير منهم فى القرى لتحصيل العلوفات ومايحتاجون إليه لجامه

Marfat.com

من أخبره بحركة الخصم وقصده فركب نورالدين وعسكره وتقدموا إليهم وبينهم نحو فرسخين فوصلوا وقد زاد تعبهم والخصم مستريح فالتقوا واقتتلوا فلم يطل الحرب بينهم حتى انهزم عسكر نورالدين وانهزم هو أيضا وطلب الموصل فوصل إليها فى أربعة أنفس وتلاحق الناس وأتى الأشرف ومن معه فنزلوا فى كفر زمار ونهبوا البلاد نهبا قبيحا وأهلكوا مالم يصلح لهم لاسيما مدينة بلد فإنهم أفحشوا فى نهبها ومن أعجب ما سمعنا أن امرأة كانت تطبخ فرأت اللهب فألقت سوارين كانتا فى يديها فى النار وهربت فجاء بعض الجند ونهب مافى البيت فرأى فيه بيضا فأخذه وجعله فى النار ليأكله فحرك فرأى السوارين فيها فأخذهما وطال مقامهم والرسل تتردد فى الصلح فوقف الأمر على إعادة تل أعفر ويكون الصلح على القاعدة الأولى وتوقف نور الدين فى إعادة تل أعفر فلما طال الأمر سلمها إليهم واصطلحوا أوائل سنة إحدى وستمائة وتفرقت العساكر من البلاد .

﴿ذكر خروج الفرنج بالشام إلى بلاد الإسلام والصلح معهم﴾ فى هذه السنة خرج كثير من الفرنج فى البحر إلى الشام وسهل الأمر عليهم بذلك لملكهم قسطنطينية وارسو بعكا وعزموا على قصد البيت المقدس حرسه الله واستنقاذه من المسلمين فلما استراحوا بعكا ساروا فنهبوا كثيرا من بلاد الإسلام بنواحى الأردن وسبوا وفتكوا فى المسلمين وكان الملك العادل بدمشق فأرسل فى جمع العساكر من بلاد الشام ومصر وسار فنزل عند الطور بالقرب من عكا لمنع الفرنج من قصد بلاد الإسلام ونزل الفرنج بمرج عكا وأغاروا على كفر كنا فأخذوا كل من بها وأموالهم والأمراء يحثون العادل على قصد بلادهم ونهبها فلم يفعل فبقوا كذلك إلى أن انقضت السنة وذلك سنه إحدى وستمائة فاصطلح هو والفرنج على دمشق واعمالها ومابيد العادل من الشام ونزل لهم عن كثير من المناصفات فى الرملة وغيرها وأعطاهم ناصرة وغيرها وسار نحو الديار المصرية فقصد الفرنج مدينة حماة فلقيهم صاحبها ناصرالدين محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فقاتلهم وكان فى قلة فهزموه إلى البلد فخرج العامة إلى قتالهم فقتل الفرنج منهم جماعه وعاد الفرنج .

﴿ذكر قتل كوكجة ببلاد الجبل وولاية أيتغمش﴾ قد ذكرنا قبل تغلب كوكجة مملوك البهلوان على الرى وهمذان وبلد الجبل وبقى الآن وكان قد اصطنع مملوكا آخر كان للبهلوان اسمه أيتغمش وقدمه وأحسن إليه ووثق به فجمع أيتغمش الجموع من المماليك وغيرهم ثم قصد كوكجه فتصافا واقتتل الفريقان ، فقتل كوكجة فى الحرب واستولى ايتغمش على البلاد وأخذ معه اوزبك بن البهلوان له اسم الملك وأيتغمش هو المدبر له والقيم بأمر المملكة وكان شهما شجاعا ظالما وكان كوكجة عادلا حسن السيرة رحمه الله

﴿ذكر وفاة ركن الدين بن قلج أرسلان وملك ابنه بعده﴾ وفى هذه السنة سادس ذى القعدة توفى ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن سلجوق صاحب ديار الروم مابين ملطية وقونيه وكان موته بمرض القولنج فى سبعة أيام وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكورية وتسمى أيضا أنقرة وهى مدينة منيعة وكان مشاققا لركن الدين فحصره عدة سنين حتى ضعف وقلت الأقوات عنده فأذعن بالتسليم على عوض يأخذه فعوضه قلعة فى أطراف بلده وحلف له عليها فنزل أخوه عن مدينة أنقرة وسلمها ومعه ولدان له فوضع ركن الدين عليه من أخذه وأخذ أولاده معه فقتله فلم يمض غير خمسة أيام حتى أصابه القولنج فمات واجتمع الناس بعده على ولده قلج أرسلان وكان صغيراً فبقى فى الملك إلى بعض سنة إحدى وستمائه وأخذ منه على ماذكره هناك وكان ركن الدين شديدا على الأعداء قيما بأمر الملك إلا أن

Marfat.com

Marfat.com

الناس كانوا ينسبون إلى فساد الاعتقاد كان يقال إنه يعتقد أن مذهبه مذهب الفلاسفة وكان كل من يرمى بهذا المذهب يأوى إليه ولهذه الطائفة منه إحسان كثير إلا أنه كان عاقلا فلايحب ستر هذا المذهب لئلا ينفر الناس عنه . حكى لى عنه أنه كان عنده إنسان وكان يرمى بالزندقة ومذهب الفلاسفة وهو قريب منه فحضر يوما عنده فقيه فتناظرا فأظهر شيئا من اعتقاد الفلاسفة فقام الفقيه إليه ولطمه وشتمه بحضرة ركن الدين ، وركن الدين ساكت وخرج الفقيه فقال لركن الدين يجرى على مثل هـذا فى حضرتك ولا تنكره فقال لو تكلمت لقتلنا جميعا ولا يمكن إظهار ماتريده أنت .

﴿ذكر قتل الباطنية بواسط﴾ فى هذه السنة فى رمضان قتل الباطنية بواسط وسبب كونهم بها وقتلهم أنه ورد إليها رجل يعرف بالركم محمد بن طالب بن عصية وأصله من القاروب من قرى واسط وكان باطنيا ملحدا ونزل مجاوراً لدور بنى الهروى وغشيه الناس وكثر أتباعه وكان ممن يغشاه رجل يعرف بحسن الصابونى فاتفق أنه اجتاز بالسويقة فكلمه رجل نجار فى مذهبهم فرد عليه الصابونى ردا غليظا فقام إليه النجار وقتله وتسامع الناس بذلك فوثبوا وقتلوا من وجدوا ممن ينتسب إلى هذا المذهب وقصدوا دار ابن عصية وقد اجتمع إليه خلق من أصحابه وأغلقوا الباب وصعدوا إلى سطحها ومنعوا الناس عنهم فصعدوا اليهم من بعض الدور من على السطح وتحصن من بقى فى الدار بإغلاق الأبواب والمارق فكسروها ونزلوا فقتلوا من وجدوا فى الدار وأحرقوا وقتل ابن عصية وفتح الباب وهرب منهم فقتلوا وبلغ الخبر إلى بغداد وانحدر فخر الدين أبو البدر بن أمسينا الواسطى لإصلاح الحال وتسكين الفتنة .

﴿ذكر استيلاء محمود على مرباط وغيرها من حضرموت﴾ فى هذه السنة استولى إنسان اسمه محمود بن محمد الحميرى على مدينة مرباط وظفار وغيرهما من حضرموت وكان ابتداء أمره أنه له مركب يكريه فى البحر للتجار ثم وزر لصاحب مرباط وفيه كرم وشجاعة وحسن سيرة فلما توفى صاحب مرباط ملك المدينة بعده وأطاعه الناس محبة له لكرمه وسيرته ودامت أيامه بها فلما كان سنة تسع عشرة وستمائة خرب مرباطا وظفارا وبنى مدينة جديدة على ساحل البحر بالقرب من مرباط وعندها عين عذبة كبيرة أجراها إلى المدينة وعمل عليها سورا وخندقا وحصنها وسماها الأحمدية وكان يحب الشعر ويكثر الجائزة عليه .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة خرج أسطول من الفرنج إلى الديار المصرية فنهبوا مدينة فوة وأقاموا خمسة أيام يسبون وينهبون وعساكر مصر مقابلهم بينهم النيل ليس لهم وصول إليهم لأنهم لم تكن لهم سفن . وفيها كانت زلزلة عظيمة عمت أكثر البلاد مصر والشام والجزيرة وبلاد الروم وصقلية وقبرس ووصلت إلى الموصل والعراق وغيرها وخربت من مدينة صور سورها وأثرت فى كثير من الشام . وفيها فى رجب اجتمع جماعة من الصوفية برباط شيخ الشيوخ ببغداد وفيهم صوفى اسمه أحمد بن ابراهيم الدارى من أصحاب شيخ الشيوخ عبدالرحيم بن اسماعيل رحمهم الله ومعهم مغن يغنى بقول الشعر :

أعاذلتى أقصرى * كفى بمشيبى عذل شباب كأن لم يكن * وشيب كأن لم يزل

وحق ليالى الوصال * وآخرها والأول وصفرة لون المحب * عند استماع العذل

لئن عاد عيشى بكم * حلا العيش لى واتصل

فتحرك الجماعة عادة الصوفية فى السماع وطرب الشيخ المذكور وتواجد ثم سقط مغشيا عليه فحركوه فإذا

Marfat.com

هو ميت فصلى عليه ودفن وكان رجلا صالحا . وفيها توفى أبو الفتوح أسعد بن محمود العجلى الفقيه الشافعى بأصفهان فى صفر وكان إماما فاضلا . وفى رمضان منها توفى قاضى هراة عمدة الدين الفضل بن محمود بن صاعد الساوى وولى بعده ابنه صاعد (١)

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وستمائة ﴾

(ذكر ملك كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد الروم من ابن أخيه) فى هذه السنة فى رجب ملك غياث الدين كيخسرو ابن قلج أرسلان بلاد الروم التى كانت بيد أخيه ركن الدين سليمان وكان سبب ملك غياث الدين لها أن ركن الدين كان قد أخذ ما كان لأخيه غياث الدين وهو مدينة قونية فهرب غياث الدين منه وقصد الشام إلى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب فلم يجد عنده قبولا وقصر به فسار من عنده وتقلب فى البلاد إلى أن وصل إلى القسطنطينية فأحسن إليه ملك الروم وأقطعه وأكرمه فأقام عنده وتزوج بابنة بعض البطارقة الكبار وكان لهذا البطريق قلعة من عمل القسطنطينية فلما ملك الفرنج القسطنطينية هرب غياث الدين إلى حميه وهو بقلعته فأنزله عنده وقال له نشترك فى هذه القلعة وتمتنع بدخلها فأقام عنده فلما مات أخوه سنة ستمائة كما ذكرناه اجتمع الأمراء على ولده وخالفهم الأتراك الأوج وهم كثير بتلك البلاد وأنف من اتباعهم وأرسل إلى غياث الدين يستدعيه إليه ليملكه البلاد فسار إليه فوصل فى جمادى الأولى اجتمع به وكثر جمعه وقصد مدينة قونية ليحصرها وكان ولد ركن الدين والعساكر بها فأخرجوا إليه طائفة من العسكر فلقوه فهزموه فبقى حيران لا يدرى أين يتوجه فقصد بلدة صغيرة يقال لها أوكرم بالقرب من قونية فقدر الله تعالى أن أهل مدينة اقصرا وثبوا على الوالى فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين فلما سمع أهل قونية بما فعله أهل اقصرا قالوا نحن

---

(١) وفيها توفى البنانى الشاعر أبو عبدالله محمد بن المهنا الشاعر المعروف بالبنانى ، مدح الخلفاء والوزراء وغيرهم ومدح وكبر وعلت سنه ، وكان رقيق الشعر ظريفه قال :

ظلما ترى مغرما فى الحب تزجره * وغيره بالهوى أمسيت تنكره
ياعاذل الصب لو عانيت قاتله * لو جنة وعذار كنت تعذره
أفدى الذى بسحر عينيه يعلمنى * إذا تصدى لقتلى كيف أسحره
يستمتع الليل فى نوم وأسهره * إلى الصباح ويفسانى وأذكره

وفيها توفى أبو سعيد الحسن بن خلد بن المبارك النصرانى المارداني الملقب بالوحيد ، اشتغل فى حداثته بعلم الأوائل وأتقنه وكانت له يد طولى فى الشعر الرائق ، فمن ذلك قوله .

أتانى كتاب أنشأته أنامل * حوت أبحرا من فيضها يغرق البحر
فواعجبا أنى التوت فوق طرسه * وما عودت بالبض أنمله العشر

وله أيضا

لقد أثرت صدغاه فى لون خده * ولاحا كفيء من وراء زجاج
ترى عسكرا للروم فى الريح مذبدت * كطائفة تسعى ليوم هياج
أم الصبح بالليل البهيم موشح * حكى آبنوساً فى صحيفة عاج
لقد غار صدغاه على ورد خده * فسيجه من شعره بسياج

Marfat.com

أولى بفعل هذا لأنه كان حسن السيرة فيهم لما كان ملكهم فنادوا باسمه أيضا وأخرجوا من عندهم واستدعوه فحضر عندهم وملك المدينة وقبض ابن أخيه ومن معه وآتاه الله الملك وجمع له البلاد جميعها فى ساعة واحدة فسبحان من إذا أراد أمرا هيأ أسبابه وكان أخوه قيصرشاه الذى كان صاحب ملطية لما أخذها ركن الدين منه سنة سبع وتسعين خرج منها وقصد الملك العادل أبا بكر بن أيوب لأنه كان زوج ابنته مستنصرا به فأمره بالمقام بمدينة الرها فأقام بها فلما سمع بملك أخيه غياث الدين سار إليه فلم يجد عنده قبولا إنما أعطاه شيئا وأمره بمفارقة البلاد فعاد إلى الرها وأقام بها فلما استقر ملك غياث الدين سار إليه الأفضل صاحب سميساط فلقيه بمدينة قيسارية وقصده أيضا نظام الدين صاحب خرت برت وصار معه فعظم شأنه وقوى أمره.

﴿ ذكر حصر صاحب آمد خرت برت ورجوعه عنها ﴾ كانت خرت برت لعماد الدين بن قرا أرسلان فمات وملكها بعده ابنه نظام الدين أبو بكر والتجأ إلى ركن الدين بن قلج أرسلان وبعده إلى أخيه غياث الدين ليمتنع به من ابن عمه ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان فامتنع به وكان صاحب آمد ملتجئا إلى الملك العادل وفى طاعته وحضر مع ابنه الملك الأشرف قتال صاحب الموصل على شرط أنه يسير معه عساكره ويأخذ له خرت برت وإنما طمع فيها بموت ركن الدين فلما دخلت هذه السنة طلب ما كان استقر الأمر عليه فسار معه الملك الأشرف وعساكر ديار الجزيرة من سنجار وجزيرة ابن عمر والموصل وغيرها وكان نزولهم عليها فى شعبان وفى رمضان تسلموا ربضها وكان قد اجتمع بغياث الدين بعد أن ملك البلاد الرومية وصار معه فى طاعته فلما نزل صاحب آمد على خرت برت خاطب صاحبها غياث الدين يستنجده بعسكر يرحلهم عنه فجهز عسكرا كثيرا عدتهم ستة آلاف فارس وسيرهم مع الملك الأفضل صاحب سميساط فلما وصل العسكر إلى ملطية فارق صاحب آمد ومن معه من خرت برت ونزلوا إلى الصحراء وحصروا البحيرة المعروفة ببحيرة سهنين وبها حصنان أحدهما لصاحب آمد والآخر لصاحب خرت برت فحصره وزاحفه ففتحه ثانى ذى الحجة ووصل صاحب خرت برت مع العسكر الرومى إلى خرت برت فرحل صاحب آمد عن البحيرة وقوى الحصن الذى فتحه فيها فأزاح علته ورحل إلى خلف مرحلة ونزل وترددت الرسل والعسكر الرومى يطلب إعادة البحيرة وصاحب آمد يمتنع من ذلك فلما طال الأمر بقى الحصن بيد صاحب آمد وانفصل العسكران وعاد كل فريق إلى بلاده.

﴿ ذكر الفتن ببغداد ﴾ فى سابع عشر شعبان جرت فتنة ببغداد بين أهل باب الأزج وأهل المأمونية وسببها أن أهل باب الأزج قتلوا سبعا وأرادوا أن يطوفوا به فمنعهم أهل المأمونية فوقعت الفتنة بينهما عند البستان الكبير فجرح منهم خلق كثير وقتل جماعة وركب صاحب الباب لتسكين الفتنة فجرح فرسه فعاد فلما كان الغد سار أهل المأمونية إلى باب الأزج فوقعت بينهم فتنة شديدة وقتال بالسيوف والنشاب واشتد الأمر فنهبت الدور القريبة منهم وسعى الركن بن عبد القادر ويوسف فى تسكين الناس وركب الأتراك فصاروا يبيتون تحت المنظرة فامتنع أهل الفتنة من الاجتماع فسكنوا وفى العشرين منه جرت فتنة بين أهل قطفتا والقرية من محال الجانب الغربى بسبب قتل سبع أيضا أراد أهل قطفتا أن يجتمعوا ويطوفوا به فمنعهم أهل القرية أن يجروا به عندهم فاقتتلوا وقتل بينهم عدة قتلى فأرسل اليهم عسكر من الديوان لتلافى الأمر ومنع الناس عن الفتنة فامتنعوا وفى تاسع رمضان كانت فتنة بين أهل سوق السلطان والجعفرية منشؤها أن رجلين من المحلتين اختصما

وتوعد كل واحد منهما صاحبه فاجتمع أهل المحلتين واقتتلوا فى مقبرة الجعفرية فسير اليهم من الديوان من تلافى الأمر وسكنه فلما كثرت الفتن رتب أمير كبير من مماليك الخليفة ومعه جماعة كثيرة فطاف فى البلد وقتل جماعة ممن فيه شبهة فسكن الناس .

﴿ذكر غارة الكرج على بلاد الإسلام﴾ فى هذه السنة أغارت الكرج على بلاد الإسلام من ناحية أذربيجان فأكثروا العيث والفساد والنهب والسبى ثم أغاروا على ناحية خلاط من أرمينية فأوغلوا فى البلاد حتى بلغوا ملازكرد ولم يخرج اليهم أحد من المسلمين يمنعهم فجاسوا خلال البلاد ينهبون ويأسرون وكلما تقدموا تأخرت عساكر المسلمين منهم ثم انهم رجعوا فالله تعالى ينظر إلى الإسلام وأهله ويسر لهم من يحمى بلادهم ويحفظ ثغورهم ويغزو أعداءهم . وفيها أغارت الكرج على بلاد خلاط فأتوا إلى أرجيش ونواحيها فنهبوا وسبوا وخربوا البلاد وساروا إلى حصن التين من أعمال خلاط وهو مجاور أزن الروم فجمع صاحب خلاط عسكره وسار إلى طغل شاه ولد قلج أرسلان صاحب أرزن الروم فاستنجده على الكرج فسير عسكره جميعه معه فتوجهوا نحو الكرج فلقوهم وتصافوا واقتتلوا فانهزمت الكرج وقتل زكرى الصغير وهو من أكابر مقدميهم وهو الذى كان مقدم هذا العسكر من الكرج والمقاتل بهم وغنم المسلمون مامعهم من الأموال والسلاح والكراع وغير ذلك وقتلوا منهم خلقا كثيرا وأسروا كذلك وعاد إلى بلاده .

﴿ذكر الحرب بين أمير مكة وأمير المدينة﴾ وفى هذه السنة أيضا كانت الحرب بين الأمير قتادة الحسينى أمير مكة وبين الأمير سالم بن قاسم الحسينى أمير المدينة ومع كل واحد منهما جمع كثير فاقتتلوا قتالا شديدا وكانت الحرب بذى الحليفة بالقرب من المدينة وكان قتادة قد قصد المدينة ليحصرها ويأخذها فلقيه سالم بعد أن قصد الحجرة على ساكنها الصلاة والسلام فصلى عندها ودعا وسار فلقيه فانهزم قتادة وتبعه سالم إلى مكة فحصره بها فأرسل قتادة إلى من مع سالم من الأمراء فأفسدهم عليه فمالوا اليه وحالفوه فلما رأى سالم ذلك رحل عنه عائدا إلى المدينة وعاد أمر قتادة قويا .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة قطعت خطبة ولى العهد وأظهر خط قرئ بدار الوزير نصير الدين بن مهدى الرازى وإذا هو خط ولى العهد الأمير أبى نصر بن الخليفة إلى أبيه الناصر لدين الله أمير المؤمنين يتضمن العجز عن القيام بولاية العهد ويطلب الإقالة وشهد عدلان أنه خطه وأن الخليفة أقاله وعمل بذلك محضر شهد فيه القضاة والعدول والفقهاء . وفى هذه السنة ولدت امرأة ببغداد ولداً له رأسان وأربع أرجل وبدان ومات فى يومه . وفيها أيضا وقع الحريق فى خزانة السلاح التى للخليفة فاحترق فيها منه شىء كثير وبقيت النار يومين وسار ذكر هذا الحريق فى البلدان فحمل الملوك من البلاح إلى بغداد شيئا كثيرا . وفى هذه السنة وقع الثلج بمدينة هراة أسبوعا كاملا فلما سكن جاء بعده سيل من الجبل من باب سرا خرب كثيرا من البلد ورمى من حصنه قطعة عظيمة وجاء بعده برد شديد أهلك الثمار فلم يكن بها تلك السنة شىء إلا اليسير . وفيها فى شعبان خرج عسكر من الغورية مقدمهم الأمير زنكى بن مسعود إلى مدينة مرو فلقيهم نائب خوارزم شاه بمدينة سرخس وهو الأمير جقر وكمن لهم كمينا فلما وصلوا اليه هزمهم وأخذ وجوه الغورية أسرى فلم يفلت منهم إلا القليل وأخذ أميرهم زنكى أسيرا فقتل صبرا وعلقت رؤسهم بمرو أياما . وفيها فى ذى القعدة سار الأمير عماد الدين عمر بن الحسين الغورى صاحب بلخ إلى مدينة

Marfat.com

ترمذ وهى للأتراك الخطا فافتتحها عنوة وجعل بها ولده الأكبر وقتل من بها من الخطا ونقل العلويين منها إلى بلخ وصارت ترمذ دار إسلام وهى من أمنع الحصون وأقواها . وفيها توفى صدر الدين السجزى شيخ خانكاه السلطان بهراة : وفيها فى صفر توفى أبو على الحسن بن محمد بن عبدوس الشاعر الواسطى وهو من الشعراء المجيدين واجتمعت به بالموصل وردها مادحا لصاحبها نورالدين أرسلان شاه وغيره من المقدمين وكان نعم الرجل حسن الصحبة والعشرة . وفيها اجتمع ببغداد رجلان أعميان على رجل أعمى أيضا وقتلاه بمسجد طمعا أن يأخذا منه شيئا فلم يجدا معه ما يأخذانه وأدركهما الصباح فهربا من الخوف يريدان الموصل ورؤى الرجل مقتولا ولم يعلم قاتله فاتفق أن بعض أصحاب الشحنة اجتاز من الحريم فى خصومة جرت فرأى الرجلين الضريرين فقال لمن معه هذان اللذان قتلا الأعمى يقوله مزحا فقال أحدهما هذا والله قتله فقال الآخر بل أنت قتلته فأخذا إلى صاحب الباب فأقرّا فقتل أحدهما وصلب الآخر على باب المسجد الذى قتلا فيه الرجل [1]

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وستمائة ﴾

﴿ذكر الفتنة بهراة﴾ فى هذه السنة فى المحرم ثار العامة بهراة وجرت فيه فتنة عظيمة بين أهل السوقين الحدادين والصفارين قتل فيها جماعة ونهبت الأموال وخربت الديار فخرج أمير البلد ليكفهم فضربه بعض العامة بحجر ناله منه ألم شديد واجتمع الغوغاء عليه فرفع إلى القصر الفيروزى واختفى أياما إلى أن سكنت الفتنة ثم ظهر .

﴿ذكر قتال شهاب الدين الغورى بنى كوكر﴾ قد ذكرنا انهزام شهاب الدين محمد بن سام الغورى صاحب غزنة من الخطا الكفار وأن الخبر ظهر ببلاده أنه عدم من المعركة لم يقف أصحابه له على خبر فلما اشتهر هذا الخبر ثار المفسدون فى أطراف البلاد وكان ممن أفسد دانيال صاحب جبل الجودى فإنه كان قد أسلم فلما بلغه الخبر ارتد عن الإسلام وتابع بنى كوكر ومساكنهم فى جبال بين لهاوور والمولتان حصينة منيعة وكانوا قد أطاعوا شهاب الدين وحملوا له الخراج فلما بلغهم خبر عدمه ثاروا فيمن معهم من قبائلهم وعشائرهم وأطاعهم صاحب جبل الجودى وغيره من القاطنين بتلك الجبال ومنعوا الطريق من لهاوور وغيرها إلى غزنة فلما بلغ شهاب الدين من قتل مملوكه أيبك وقد ذكرناه أرسل إلى نائبه بلهاوور والمولتان وهو محمد بن أبى على يأمره

---

(١) وفيها توفى أبو الحسن على بن عنتر بن ثابت الحلى المعروف بشميم ، كان شيخا أديباً لغويا شاعراً جمع من شعره حماسة كان يفضلها على حماسة أبى تمام ، وله خمريات يزعم أنها أخل من التى لأبى نواس . قال أبو شامة فى الذيل : كان قليل الدين ذا حماقة ورقاعة وخلاعة ، وله حماسة ورسائل . قال ابن الساعى : قدم بغداد فأخذ النحو عن ابن الخشاب ، حصل منه طرفا صالحا ، ومن اللغة وأشعار العرب ، ثم أقام بالموصل حتى توفى بها . ومن شعره

لاتسرحن الطرف فى مقل المها * فمصارع الآجال فى الآمال
كم نظرة أردت وما أخرت * يدكم قبلت أوان قتال
سنحت وما سمحت بتسليمة * وأغلال التحية فعلة المحتال

وله فى التجنيس :

ليت من طول باك * أم ثواه وثوابه * جعل العود إلى الزو * راء من بعض ثوابه
أثرى يوطئنى الدمـ * ـن وثرى مسك ترابه * وأرانى نور عينى * موطئا لى وترى به

Marfat.com

بحمل المال لسنة ستمائة وسنة إحدى وستمائة ليتجهز به لحرب الخطا فأجاب أن أولاد كوكر قد قطعوا الطريق ولا يمكنه إرسال المال وحضر جماعة من التجار وذكروا أن قفلا كبيرا أخذه أولاد كوكر ولم ينج منه إلا القليل فأمر شهاب الدين مملوكه أيبك مقدم عساكر الهند أن يراسل بنى كوكر يدعوهم إلى الطاعة ويتهددهم إن لم يجيبوا ففعل ذلك فقال ابن كوكر لأى معنى لم يرسل السلطان إلينا رسولا فقال له الرسول وماقدركم أنتم حتى يرسل إليكم وإنما مملوكه يبصركم رشدكم ويهددكم فقال ابن كوكر لوكان شهاب الدين حيا لراسلنا وقد كنا ندفع الأموال إليه فحيث عدم فقل لأبيك يترك لنا لهاوور وما والاها وفرشابور ونحن نصالحه فقال الرسول نفذ أنت جاسوسا نثق إليه يأتيك بخبر شهاب الدين من فرشابور فلم يصغ إلى قوله فرده فعاد وأخبر بما سمع ورأى فأمر شهاب الدين مملوكه قطب الدين أيبك بالعود إلى بلاده وجمع العساكر وقتال بنى كوكر فعاد إلى دهلى وأمر عساكره بالاستعداد فأقام شهاب الدين فى فرشابور إلى نصف شعبان من سنة إحدى وستمائة ثم عاد إلى غزنة فوصلها أول رمضان وأمر بالنداء فى العساكر بالتجهز لقتال الخطا وأن المسير يكون أول شوال فتجهزوا لذلك فاتفق أن الشكايات كثرت من بنى كوكر ومايتعهدونه من أخاذه السبل وأنهم قد أنفذوا شحنة إلى البلاد ووافقهم أكثر الهنود وخرجوا من طاعة أمير لهاوور والمولتان وغيرهما ووصل كتاب الوالى يذكر مافقد دهمه منهم وأن عماله قد أخرجهم بنوكوكر وجبوا الخراج وأن ابن كوكر مقدمهم أرسل إليه ليترك له لهاوور والبلاد وإلا قتله ويقول له إن لم يحضر السلطان شهاب الدين بنفسه ومعه العساكر وإلا خرجت البلاد من يده وتحدث الناس بكثرة من معهم من الجموع وما لهم من القوة فتغير عزم شهاب الدين حينئذ عن غزو الخطا وأخرج خيامه وسار عن غزنة خامس ربيع الأول سنة اثنتين وستمائة فلما سار وأبعد انقطعت أخباره عن الناس بغزنة وفرشابور حتى أرجف الناس بانهزامه وكان شهاب الدين لما سار عن فرشابور أتاه خبر ابن كوكر أنه نازل فى عساكره مابين حيلم وسودرة فجد السير إليه فدهمه قبل الوقت الذى كان يقدر وصوله فيه فاقتتلوا قتالا شديدا يوم الخميس لخمس بقين من ربيع الآخر من بكرة إلى العصر واشتد القتال فبينما هم فى القتال وإذ قد أقبل قطب الدين أيبك فى عساكره فنادوا بشعار الإسلام وحملوا حملة صادقة فانهزم الكوكرية ومن انضم إليهم وقتلوا بكل مكان وقصدوا أجمة هناك فاحتموا بها وأضرموا نارا فكان أحدهم يقول لصاحبه لاتترك المسلمين يقتلونك ثم يلقى نفسه فى النار فيلقى صاحبه نفسه بعده فيها فعمهم الفناء قتلا وحرقا فبعدا للقوم الظالمين وكان أهلهم وأموالهم معهم لم يفارقوها فغنم المسلمون منهم مالم يسمع بمثله حتى إن المماليك كانوا يباعون كل خمسة بدينار ركنى ونحوه وهرب ابن كوكر بعد أن قتل إخوته وأهله ، وأما ابن دانيال صاحب جبل الجودى فإنه جاء ليلا إلى قطب الدين أيبك فاستجار به فأجاره وشفع فيه إلى شهاب الدين فشفعه فيه وأخذ منه قلعة الجودى فلما فرغ منهم سار نحو لهاوور ليؤمن أهلها ويسكن روعهم وأمر الناس بالرجوع إلى بلادهم والتجهيز لحرب الخطا وأقام شهاب الدين بلهاوور إلى سادس عشر رجب وعاد نحو غزنة وأرسل إلى بهاء الدين سام صاحب باميان ليتجهز للمسير إلى سمرقند ويعمل جسراً ليعبر هو وعساكره عليه .

(ذكر الظفر بالتيراهية) كان من جملة الخارجين المفسدين أيضا على شهاب الدين التيراهية فإنهم خرجوا إلى حدود سوران ومكرهان للغارة على المسلمين فأوقع بهم نائب تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين بتلك الناحية ويعرف بالخايجى وقتل منهم خلقا كثيرا وحمل رؤس المعروفين فعلقت ببلاد الإسلام وكانت فتنة هؤلاء

Marfat.com

التيراهية على بلاد الإسلام عظيمة قديما وحديثا وكان إذا وقع بأيديهم أسير من المسلمين عذبوه بأنواع العذاب وكان أهل فرشابور معهم فى ضرشديد لأنهم يحيطون بتلك الولاية من جوانبها لاسيما آخر أيام سبكتكين فإن الملوك ضعفوا وقوى هؤلاء عليهم وكانوا يغيرون على أطراف البلاد وكانوا كفارا لادين لهم يرجعون إليه ولا مذهب يعتمدون عليه إلا أنهم كانوا إذا ولد لأحدهم بنت وقف على باب داره ونادى من يتزوج هذه من يقبلها فإن أجابه أحد تركها وإلا قتلها ويكون للمرأة عدة أزواج فإذا كان أحدهم عندها جعل مداسه على الباب فإذا جاء غيره من أزواجها ورأى مداسه عاد ولم يزالوا كذلك حتى أسلم طائفة منهم آخر أيام شهاب الدين الغورى فكفوا عن البلاد وسبب إسلامهم أنهم أسروا إنسانا من فرشابور فعذبوه فلم يمت ودامت أيامه عندهم فأحضره يوما مقدمهم وسأله عن بلاد الإسلام وقال له لو حضرت أنا عند شهاب الدين ماذا كان يعطينى فقال له كان يعطيك الأموال والأقطاع ويرد إليك حكم جميع البلاد التى لكم فأرسله إلى شهاب الدين فى الدخول فى الإسلام فعاد ومعه رسول بالخلع والمنشور بالإقطاع فلما وصل إليه الرسول سار هو وجماعة من أهله إلى شهاب الدين فأسلموا وعادوا وكان للناس بهم راحة فلما كانت هذه الفتنة واختلفت البلاد نزل أكثرهم من الجبال فلم يكن لهذه الطائفة بهم قدرة ليمنعوهم فأفسدوا وعملوا ما ذكرناه .

﴿ ذكر قتل شهاب الدين الغورى ﴾ فى هذه السنة أول ليلة من شعبان قتل شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام الغورى ملك غزنة وبعض خراسان بعد عوده من لهاوور بمنزل يقال له دمك وقت صلاة العشاء وكان سبب قتله أن نفرا من الكفار الكوكرية لزموا عسكره عازمين على قتله لما فعل بهم من القتل والأسر والسبى فلما كان هذه الليلة تفرق عنه أصحابه وكان قد عاد ومعه من الأموال مالا يحد فإنه كان عازما على قصد الخطا والاستكثار من العساكر وتفريق المال فيهم وقد أمر عساكره بالهند باللحاق به وأمر عساكره الخراسانية بالتجهز إلى أن يصل إليهم (فأتاه الله من حيث لم يحتسب) ولم يغن عنه ما جمع من مال وسلاح ورجال لكن كان على نية صالحة من قتال الكفار فلما تفرق عنه أصحابه وبقى وحده فى خركاه فثار أولئك النفر فقتل أحدهم بعض الحرس بباب سرادق شهاب الدين فلما قتلوه صاح فثار أصحابه من حول السرادق لينظروا ما بصاحبهم فأخلوا مواقفهم وكثر الزحام فاغتنم الكوكرية غفلتهم عن الحفظ فدخلوا على شهاب الدين وهو فى الخركاه فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربة فقتلوه فدخل عليه أصحابه فوجدوه على مصلاه قتيلا وهو ساجد فأخذوا أولئك الكفار فقتلوهم وكان فيهم اثنان مخنثان وقيل إنما قتله الإسماعيلية لأنهم خافوا خروجه إلى خراسان وكان له عسكر يحاصر بعض قلاعهم على ما ذكرناه فلما قتل اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الملك ابن خوجاسجستان فتحالفوا على حفظ الخزانة والملك ولزوم السكينة إلى أن يظهر من يتولاه وأجلسوا شهاب الدين وخيطوا جراحه وجعلوه فى المحفة وساروا به ورتب الوزير الأمور وسكن الناس بحيث لم ترق محجمة دم ولم يوجد فى أحد شىء وكانت المحفة محفوفة بالحشم والوزير والعسكر والشمسية على حاله فى حياته وتقدم الوزير إلى أمير دار العسكر بإقامة السياسة وضبط العسكر وكانت الخزانة التى فى صحبته ألفى حمل وماتتى حمل وشغل الغلمان الأتراك الصغار لينهبوا المال فمنعهم الوزير والأمراء الكبار من المماليك وهو صونج صهر ألدز وغيره وأمروا كل من له إقطاع عند قطب الدين أيبك مملوك شهاب الدين ببلاد الهند بالعود إليه وفرقوا فيهم أموالا كثيرة فعادوا وسار الوزير ومعه من له أقطاع وأهل بغزنة وعلموا أنه يكون من غياث الدين

Marfat.com

محمود بن غياث الدين أخى شهاب الدين الأكبر وبين بهاء الدين صاحب باميان وهو ابن أخت شهاب الدين حروب شديدة وكان ميل الوزير والأتراك وغيرهم إلى غياث الدين محمود وكان الأمراء الغورية يميلون إلى بهاء الدين سام صاحب باميان فأرسل كل طائفة إلى من يميلون إليه يعرفونه قتل شهاب الدين وجلية الأمور وجاء بعض المفسدين من أهل غزنة فقال للمماليك إن فخر الدين الرازى قتل مولاكم لأنه هو أوصل من قتله فوضع من خوارزمشاه فثاروا به ليقتلوه فهرب وقصد مؤيد الملك الوزير فأعلمه الحال فسيره سرا إلى مأمنه ولما وصل العسكر والوزير إلى فرشاور اختلفوا فالغورية يقولون نسير إلى غزنة على طريق مكرهان وكان غرضهم أن يقربوا من باميان ليخرج صاحبها بهاء الدين سام فيملك الخزانة فقال الأتراك بل نسير على طريق سوران وكان مقصودهم أن يكونوا قريبا من تاج الدين الدز مملوك شهاب الدين وهو صاحب كرمان مدينة بين غزنة ولهاوور وليست بكرمان التى تجاور بلاد فارس ليحفظ الدز الخزانة ويرسلون من كرمان إلى غياث الدين يستدعونه إلى غزنة ويملكونه وكثر بينهم الاختلاف حتى كادوا يقتتلون فوصل مؤيد الملك مع الغورية حتى أذنوا له وللأتراك بأخذ الخزانة والمحفة التى فيها شهاب الدين والمسير على كرمان وساروا هم على طريق مكرهان ولقى الوزير ومن معه مشقة عظيمة وخرج عليهم الأمم الذين فى تلك الجبال التيراهية وأوغان وغيرهم فنالوا من أطراف العسكر إلى أن وصلوا إلى كرمان فخرج إليهم تاج الدين الدز يستقبلهم فلما عاين المحفة وفيها شهاب الدين ميتا نزل وقبل الأرض على عادته فى حياة شهاب الدين وكشف عنه فلما رآه ميتا مزق ثيابه وصاح وبكى فأبكى الناس وكان يوما مشهودا .

﴿ ذكر مافعله الدز ﴾ كان الدز من أول مماليك شهاب الدين وأكبرهم وأقدمهم وأكبرهم محلا عنده بحيث إن أهل شهاب الدين كانوا يخدمونه ويقصدونه فى أشغالهم فلما قتل صاحبه طمع أن يملك غزنة فأول ماعمل أنه سأل الوزير مؤيد الملك عن الأموال والسلاح والدواب فأخبره بما خرج من ذلك وبالباقى معه فأنكر الحال وأساء أدبه فى الجواب وقال إن الغورية قد كاتبوا بهاء الدين سام صاحب باميان ليملكوه غزنة وقد كتب إلى غياث الدين محمود وهو مولاى يأمرنى أننى لا أترك أحدا يقرب من غزنة وقد جعلنى نائبه فيها وفى سائر الولاية المجاورة لها لأنه مشتغل بأمر خراسان وقال للوزير إنه قد أمرنى أيضا أن أتسلم الخزانة منك فلم يقدر على الامتناع لميل الأتراك إليه فسلمها إليه وسار بالمحفة والمماليك والوزير إلى غزنة فدفن شهاب الدين فى التربة بالمدرسه التى أنشأها ودفن ابنته فيها وكان وصوله اليها فى الثانى والعشرين من شعبان من السنة

﴿ذكر بعض سيرة شهاب الدين﴾ كان رحمه الله شجاعا مقداما كثير الغزو إلى بلاد الهند عادلا فى رعيته حسن السيرة فيهم حاكما بينهم بما يوجبه الشرع المطهر وكان القاضى بغزنة يحضر داره من كل أسبوع السبت والأحد والاثنين والثلاثاء ويحضر معه أمير حاجب وأمير دار وصاحب التربة فيحكم القاضى وأصحاب السلطان ينفذون أحكامه على الصغير والكبير والشريف والوضيع وإن طلب أحد الخصوم الحضور عنده أحضره وسمع كلامه وأمضى عليه أوله حكم الشرع فكانت الأمور جارية على أحسن نظام (حكى عنه) أنه لقيه صبى علوى عمره نحو خمس سنين فدعا له وقال لى خمسة أيام ما أكلت شيئاً فعاد من الركوب لوقته ومعه الصبى فنزل فى داره وأطعم العلوى أطيب الطعام بحضرته ثم أعطاه مالا بعد أن أحضر أباه وسلمه إليه وفرق فى سائر العلويين مالا عظيما (وحكى) أن تاجرا من مراغه كان بغزنة وله على بعض مماليك شهاب الدين دين مبلغه عشرة آلاف

Marfat.com

Marfat.com

دينار فقتل المملوك فى حرب كانت له فرفع التاجر حاله فأمر بأن يقر أقطاع المملوك بيد التاجر إلى أن يستوفى دينه ففعل ذلك (وحكى عنه) أنه كان يحضر العلماء بحضرته فيتكلمون من المسائل الفقهية وغيرها وكان فخر الدين الرازى يعظ فى داره فحضر يوما فوعظ وقال فى آخر كلامه ياسلطان لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازى وأن مردنا إلى الله فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس لكثرة بكائه وكان رقيق القلب وكان شافعى المذهب مثل أخيه، قيل وكان حنفيا والله أعلم.

﴿ذكر مسير بهاء الدين سام إلى غزنة وموته﴾ لما ملك غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام باميان أقطعها ابن عمه شمس الدين محمد بن مسعود وزوجه أخته فأتاه منها ولد اسمه سام فبقى فيها إلى أن توفى وملك بعده ابنه الأكبر واسمه عباس وأمه تركية فغضب غياث الدين وأخوه شهاب الدين فى ذلك وأرسلا من أحضر عباسا عندهما فأخذ الملك منه وجعلا ابن أختهما سام ملكا على باميان وتلقب بهاء الدين وعظم شأنه ومحله وجمع الأموال ليملك البلاد بعد خاله وأحبه أمراء الغورية حبا شديدا وعظموه فلما قتل خاله شهاب الدين سار بعض الأمراء الغورية إلى بهاء الدين سام فأخبره بذلك فلما بلغه قتله كتب إلى من بغزنة من الأمراء الغورية يأمرهم بحفظ البلد، ويعرفهم أنه على الطريق سائر إليهم وكان والى قلعة غزنة ويعرف بأميردار وقد أرسل ولده إلى بهاء الدين سام يستدعيه إلى غزنة فأعاد جوابه أنه تجهز ويصل إليه ويعده الجميل والإحسان، وكتب بهاء الدين إلى علاء الدين محمد بن أبى على ملك الغور يستدعيه إليه وإلى غياث الدين محمود بن غياث الدين وإلى ابن خرميل والى هراة يأمرهما بإقامة الخطبة له وحفظ ما بأيديهما من الأعمال ولم يظن أن أحدا يخالفه فأقام أهل غزنة ينتظرون وصوله أو وصول غياث الدين محمود والأتراك ويقولون لا نترك غير ابن سيدنا يعنون غياث الدين يدخل غزنة والغورية يتظاهرون بالميل إلى بهاء الدين ومنع غيره فسار من باميان إلى غزنة فى عساكره ومعه ولداه علاء الدين محمود وجلال الدين فلما سار عن باميان مرحلتين وجد صداعا فنزل يستريح ينتظر خفته عنه فازداد الصداع وعظم الأمر عليه فأيقن بالموت فأحضر ولديه وعهد إلى علاء الدين وأمرهما بقصد غزنة وحفظ مشايخ الغورية وضبط الملك وبالرفق بالرعايا وبذل الأموال وأمرهما أن يصالحا غياث الدين على أن يكون له خراسان وبلاد الغور ويكون لهما غزنة وبلاد الهند.

﴿ذكر ملك علاء الدين غزنة وأخذها منه﴾ لما فرغ بهاء الدين من وصيته، توفى فسار ولداه إلى غزنة فخرج أمراء الغورية وأهل البلد فلقوهما وخرج الأتراك معهم على كره منهم ودخلوا البلد وملكوه ونزل علاء الدين وجلال الدين دار السلطنة مستهل رمضان وكانوا قد وصلوا فى ضر وقلة من العسكر وأراد الأتراك منعهم فنهاهم مؤيد الملك وزير شهاب الدين لقلتهم ولاشتغال غياث الدين بابن خرميل والى هراة على ما نذكره فلم يرجعوا ولما استقرا بالقلعة ونزلا بدار السلطانية راسلهما الأتراك بأن يخرجا من الدار وإلا قاتلوهما ففرقا فيهم أموالا كثيرة واستحلفاهم فحلفوا واستبوا غياث الدين محمودا وأنفذا خلعا إلى تاج الدين الدز وهو بأقطاعه مع رسول وطلباه إلى طاعتهما وواعداه بالأموال والزيادة فى الأقطاع وإمارة الجيش والحكم فى جميع الممالك فأتاه الرسول فلقيه وقد سار عن كرمان فى جيش كثير من الترك والخلج والغز وغيرهم فأبلغه الرسالة فلم يلتفت اليه وقال قل لهما يعودان إلى باميان وفيها كفاية فإنى قد أمرنى مولاى غياث الدين أن أسير إلى غزنة وأمنعهما عنها فإن عادا إلى بلدهما وإلا فعلت بهما وبمن معهما ما يكرهون ورد ما معه من الهدايا والخلع

Marfat.com

ولم يكن قصد الدز بهذا حفظ بيت صاحبه وإنما أراد أن يجعل هذا طريقا إلى ملك غزنة لنفسه فعاد الرسول وأبلغ علاء الدين رسالة الدز فأرسل وزيره وكان قبله وزير أبيه إلى باميان وبلخ وترمذ وغيرها من بلادهم ليجمع العساكر ويعود اليه فأرسل الدز إلى الأتراك الذين بغزنة يعرفهم أن غياث الدين أمره أن يقصد غزنة ويخرج علاء الدين وأخاه منها فحضروا عند وزير علاء الدين وطلبوا منه سلاحا ففتح خزانة السلاح فهرب ابن الوزير إلى علاء الدين وقال له قد كان كذا وكذا فلم يقدر أن يفعل شيئا وسمع مؤيد الملك وزير شهاب الدين فركب وأنكر على الخازن تسليم المفاتيح وأمره فاسترد ماذهبه الترك جميعه لأنه كان مطاعا فيهم ووصل الدز إلى غزنة فأخرج اليه علاء الدين جماعة من الغورية ومن الأتراك وفيهم صونج صهر الدز فأشار عليه أصحابه أن لا يفعل وينتظر العسكر مع وزيره فلم يقبل منهم وسير العساكر فالتقوا خامس رمضان فلما لقوه خدعه الأتراك وعادوا معه على عسكر علاء الدين فقاتلوهم فهزموهم وأسروا مقدمهم وهو محمد بن على بن حردون ودخل عسكر الدز المدينة فنهبوا بيوت الغورية والبامانية وحصر الدز القلعة فخرج جلال الدين منها فى عشرين فارسا وسار عن غزنة فقالت له امرأة تستهزىء به إلى أين تمضى خذ الجتر والشمسة معك ماأقبح خروج السلاطين هكذا فقال لها إنك سترين ذلك اليوم وأفعل بكم ماتقرون به بالسلطنة لى وكان قد قال لأخيه احفظ القلعة إلى أن آتيك بالعساكر فبقى الدز يحاصرها وأراد من مع الدز نهب البلد فنهاهم عن ذلك وأرسل إلى علاء الدين يأمره بالخروج من القلعة وتهدده إن لم يخرج منها وترددت الرسل بينهما فى ذلك فأجاب إلى مفارقتها والعود إلى بلده وأرسل من حلف له الدز أن لا يؤذيه ولا يعترض اليه ولا إلى أحد ممن يحلف له وسار عن غزنة فلما رآه الدز وقد نزل من القلعة عدل إلى تربة شهاب الدين مولاه ونزل اليها ونهب الأتراك ما كان مع علاء الدين وألقوه عن فرسه وأخذوا ثيابه وتركوه عريانا بسراويله فلما سمع الدز ذلك أرسل اليه بدواب وثياب ومال واعتذر اليه فأخذ مالبسه وترك الباقى فلما وصل إلى باميان لبس ثياب سواد وركب حمارا فأخرجوا له مراكب ملوكية وملابس جميلة فلم يركب ولم يلبس وقال أريد أن يرانى الناس وماصنع بى أهل غزنة حتى إذا عدت اليها وخربتها ونهبتها لا يلومنى أحد ودخل دار الإمارة وشرع فى جمع العساكر.

﴿ذكر ملك الدز غزنة﴾ قد ذكرنا استيلاء الدز على الأموال والسلاح والدواب وغير ذلك مما كان صحبة شهاب الدين وأخذه من الوزير مؤيد الملك فجمع له العساكر من أنواع الناس الأتراك والخلج والغز وغيرهم وسار إلى غزنة وجرى له مع علاء الدين ماذكرنا فلما خرج علاء الدين من غزنة أقام الدز بداره أربعة أيام يظهر طاعة غياث الدين إلا أنه لم يأمر الخطيب بالخطبة له ولا لغيره وإنما يخطب للخليفة ويترحم على شهاب الدين الشهيد حسب فلما كان فى اليوم الرابع أحضر مقدمى الغورية والأتراك وذم من كاتب علاء الدين وأخاه وقبض على أمير دار والى غزنة فلما كان الغد وهو سادس عشر رمضان أحضر القضاة والفقهاء والمقدمين وأحضر أيضا رسول الخليفة وهو الشيخ مجد الدين أبو على بن الربيع الفقيه الشافعى مدرس النظامية ببغداد وكان قد ورد إلى غزنة رسولا إلى شهاب الدين فقتل شهاب الدين وهو بغزنة فأرسل إليه والى قاضى غزنة يقول له إنى أريد أن أنتقل إلى الدار السلطانية وأن أخاطب بالملك ولا بد من حضورك والمقصود من هذا أن تستقر أمور الناس فحضر عنده فركب الدز والناس فى خدمته وعليه ثياب الحزن وجلس فى الدار فى غير مجلس كان يجلس فيه شهاب الدين فتغيرت لذلك نيات كثير من الأتراك لأنهم كانوا يطيعونه ظنا منهم

Marfat.com

أنه يريد الملك لغياث الدين فحيث رأوه يريد الانفراد تغيروا عن طاعته حتى إن بعضهم بكى غيظا من فعله وأقطع الإقطاعات الكثيرة وفرق الأموال الجليلة وكان عند شهاب الدين جماعة من أولاد ملوك الغور وسمرقند وغيرهم فأنفوا من خدمة الدز وطلبوا منه أن يقصدوا خدمة غياث الدين وأخيه صاحبي باميان وأرسل غياث الدين إلى الدز يشكره ويثني عليه لإخراج أولاد بهاء الدين من غزنة وسيره الخلع وطلب منه الخطبة والسكة فلم يفعل وأعاد الجواب فغالطه وطلب منه أن يخاطبه بالملك وأن يعتقه من الرق لأن غياث الدين ابن أخي سيده لا وارث له سواه وأن يزوج ابنه بابنة الدز فلم يجبه إلى ذلك واتفق أن جماعة من الغوريين من عسكر صاحب باميان أغاروا على أعمال كرمان وسوران وهي أقطاع الدز القديمة فغنموا وقتلوا فأرسل صهره صونج في عسكر فلقوا عسكر الباميان فظفر بهم وقتل منهم كثيرا وأنفذ رؤسهم إلى غزنة فنصبت بها وأجرى الدز في غزنة رسوم شهاب الدين وفرق في أهلها أموالا جليلة المقدار وألزم مؤيد الملك أن يكون وزيرا له فامتنع من ذلك فألح عليه فأجابه على كره منه فدخل على مؤيد الملك صديق له يهنئه فقال بماذا تهنئ من بعد ركوب الجواد بالحمار وأنشد :

ومن ركب الثور بعد الجوا ... ه فأنكر إطلاقه والغبب

بينا الدز يأتي إلى بابي ألف مرة حتى آذن له في الدخول أصبح على بابه ولو حفظ النفس مع هؤلاء الأتراك لكان لي حكم آخر .

﴿ ذكر حال غياث الدين بعد قتل عمه ﴾ وأما غياث الدين محمود بن غياث الدين فإنه كان في أقطاعه وهو بست واسفزار وكان الملك علاء الدين بن محمد بن علي قد ولاه شهاب الدين بلاد الغور وغيرها من أرض الراون فلما بلغه قتله سار إلى فيروزكوه خوفا أن يسبقه إليها غياث الدين فيملك البلد ويأخذ الخزائن التي بها وكان علاء الدين حسن السيرة من أكابر بيوت الغورية إلا أن الناس كرهوه لميلهم إلى غياث الدين وأبي الأمراء من خدمته مع وجود ولد غياث الدين سلطانهم ولأنه كان كراميا مغاليا في مذهبه وأهل فيروزكوه شافعية وألزمهم أن يجعلوا الإقامة مثنى فلما وصل إلى فيروزكوه أحضر جماعة من الأمراء منهم محمد المرغني وأخوه ومحمد بن عثمان وهم من أكابر الأمراء وحلفهم على مساعدته على قتال خوارزمشاه وبهاء الدين صاحب باميان ولم يذكر غياث الدين احتقارا له فحلفوا له ولولده من بعده وكان غياث الدين بمدينة بست لم يتحرك في شيء انتظارا لما يكون من صاحب باميان لأنهما كانا قد تعاهدا أيام شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين وغزنة والهند لبهاء الدين وكان بهاء الدين أقوى فلهذا لم يفعل شيئا فلما بلغه خبر موت بهاء الدين ، جلس على التخت وخطب لنفسه بالسلطنة عاشر رمضان ، وحلف الأمراء الذين قصدوه وهم اسماعيل الخلجي وسونج أميراشكار وزنكي بن خرجوم وحسين الغوري صاحب تكيا باذ وغيرهم وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين ؛ وكتب إلى علاء الدين محمد بن أبي علي ، وهو بفيروزكوه يستدعيه إليه ويستعطفه ، ليصده عن رأيه ، ويسلم مملكته إليه ؛ وكتب إلى الحسين بن خرميل ، والى هراة مثل ذلك أيضا ، ووعده الزيادة في الإقطاع ، فأما علاء الدين فأغلظ له في الجواب ، وكتب إلى الأمراء الذين معه ، يتهددهم فرحل غياث الدين إلى فيروزكوه فأرسل علاء الدين عسكرا مع ولده وفرق فيهم مالا كثيرا وخلع عليهم ليمنعوا غياث الدين فلقوه قريبا من فيروزكوه فلما تراءى الجمعان كشف اسماعيل الخلجي المغفر عن وجهه وقال الحمد لله

أن الأتراك الذين لا يعرفون آباءهم لم يضيعوا حق التربية وردوا ابن ملك باميان وأنتم مشايخ الغورية الذين أنعم عليكم والد هذا السلطان وربا كم وأحسن إليكم كفرتم الإحسان وجئتم تقاتلون ولده أهذا فعل الأحرار فقال محمد المرغنى وهو مقدم العسكر الذين يصدرون عن رأيه لا والله ثم ترجل عن فرسه وألقى سلاحه وقصد غياث الدين وقبل الأرض بين يديه وبكى بصوت عال وفعل سائر الأمراء كذلك فانهزم أصحاب علاء الدين مع ولده فلما بلغه الخبر خرج عن فيروزكوه هاربا نحو الغور وهو يقول أنا أمشى أجاور بمكة فأنفذ غياث الدين خلفه من رده إليه فأخذه وحبسه وملك فيروزكوه وفرح به أهل البلد وقبض غياث الدين على جماعة من أصحاب علاء الدين الكرامية وقتل بعضهم ولما دخل غياث الدين فيروزكوه ابتدأ بالجامع فصلى فيه ثم ركب إلى دار أبيه فسكنها وأعاد رسوم أبيه واستخدم حاشيته وقدم عليه عبد الجبار بن محمد الكيرانى وزير أبيه واستوزره وسلك طريق أبيه فى الإحسان والعدل ، ولما فرغ غياث الدين من علاء الدين لم يكن له همة إلا ابن خرميل بهراة واجتذابه إلى طاعته فكاتبه وراسله واتخذه أبا واستدعاه إليه وكان ابن خرميل قد بلغه موت شهاب الدين ثامن رمضان فجمع أعيان الناس منهم قاضى هراة صاعد بن الفضل النيسابورى وعلى بن عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة وشيخ الإسلام رئيس هراة ونقيب العلويين ومقدمى المحال وقال لهم قد بلغنى وفاة السلطان شهاب الدين وأنا فى نحو خوارزمشاه وأخاف الحصار وأريد أن تحلفوا لى على المساعدة على كل من نازعنى فأجابه القاضى وابن زياد بأننا نحلف على كل الناس إلا ولد غياث الدين فحقد عليهما فلما وصل كتاب غياث الدين خاف ميل الناس إليه فغالطه فى الجواب وكان ابن خرميل قد كاتب خوارزمشاه يطلب منه أن يرسل إليه عسكرا ليصير فى طاعته ويمتنع به على الغورية فطلب منه خوارزمشاه إنفاذ ولده رهينة ويرسل إليه عسكرا فسير ولده إلى خوارزمشاه فكتب خوارزمشاه إلى عسكره الذين بنيسابور وغيرها من بلاد خراسان يأمرهم بالتوجه إلى هراة وأن يكونوا يتصرفون بأمر ابن خرميل ويمتثلون أمره هذا ، وغياث الدين يتابع الكتب إلى ابن خرميل وهو يحتج بشىء بعد شىء انتظارا لعسكر خوارزمشاه ولا يؤيسه من طاعته ولا يخطب له ويعطيه طاعة غير مستوية ثم إن الأمير على بن أبى على صاحب كالوين أطلع غياث الدين على حال ابن خرميل فعزم غياث الدين على التوجه إلى هراة فثبطه بعض الأمراء الذين معه وأشاروا عليه بانتظار آخر أمره وترك محاققته واستشار ابن خرميل القاضى فى أمر غياث الدين ، فقال له على بن عبد الخلاق بن زياد مدرس النظامية بهراة وهو متولى وقوف خراسان التى بيده للغورية جميعها ينبغى أن تخطب للسلطان غياث الدين وتترك المغالطة إنى أخاف على نفسى فامض أنت وتوثق لى منه وكان قصده أن يبعده عن نفسه فمضى برسالته إلى غياث الدين وأطلعه على ما يريد ابن خرميل يفعله من الغدر به والميل إلى خوارزمشاه وحثه على قصد هراة وقال له أنا أسلمها اليك ساعة تصل اليها ووافقه بعض الأمراء وخالفه غيرهم وقال ينبغى أن لا تترك له حجة فترسل اليه تقليدا بولاية هراة ففعل ذلك وسيره مع ابن زياد وبعض أصحابه ثم إن غياث الدين كاتب أميران بن قيصر صاحب الطالقان يستدعيه اليه فتوقف وأرسل إلى صاحب مرو ليسير اليه فتوقف أيضا فقال له أهل البلد إن لم تسلم البلد إلى غياث الدين وتتوجه وإلا سلمناك وقيدناك وأرسلناك اليه فاضطر إلى المجىء إلى فيروزكوه فخلع عليه غياث الدين وأقطعه إقطاعات شتى وأقطع الطالقان سونج مملوك أبيه المعروف بأمير اشكار .

﴿ذكر استيلاء خوارزمشاه على بلاد الغورية بخراسان﴾ قد ذكرنا مكاتبة الحسين بن خرميل والى هراة

Marfat.com

خوارزمشاه ومراسلته فى الانتماء اليه والطاعة له وترك طاعة الغورية وخداعه لغياث الدين ومغالطته له بالخطبة له والطاعة انتظاراً لوصول عسكر خوارزمشاه ووصول رسول غياث الدين وابن زياد بالخطبة فقال يوم الجمعة نخطب له فاتفق قرب عسكر خوارزمشاه منهم فلما كان يوم الجمعة قيل له فى معنى الخطبة فقال نحن فى شغل أهم منها بوصول هذا العدو فطالت المجادلات بينهم فى ذلك وهو مصر على الامتناع منها ووصل عسكر خوارزمشاه فلقيهم ابن خرميل وأنزلهم على باب البلد فقالوا له قد أمرنا خوارزمشاه أننا لانخالف لك أمرا فشكرهم على ذلك وكان يخرج اليهم كل يوم وأقام لهم الوظائف الكثيرة وأتاه الخبر أن خوارزمشاه نزل على بلخ فحاصرها فلقيه صاحبها وقاتله بظاهر البلد فلم ينزل بالقرب منها فنزل على أربعة فراسخ فندم ابن خرميل على طاعة خوارزمشاه وقال لخواصه لقد أخطأنا حيث صرنا مع هذا الرجل فإننى أراه عاجزا وشرع فى إعادة العسكر فقال للأمراء إن خوارزمشاه قد أرسل إلى غياث الدين يقول له إننى على العهد الذى بيننا وأنا أترك ما كان لأبيك بخراسان والمصلحة أن ترجعوا حتى ننظر ما يكون فعادوا وأرسل اليهم الهدايا الكثيرة وكان غياث الدين حيث اتصل به وصول عسكر خوارزمشاه إلى هراة أخذ إقطاع ابن خرميل وأرسل إلى كرزيان وأخذ كل ماله بها من مال وأولاد ودواب وغير ذلك وأخذ أصحابه فى القيود وأتاه كتب من يميل اليه من الغورية يقولون له إن رآك غياث الدين قتلك ولما سمع أهل هراة بما فعل غياث الدين بأهل ابن خرميل وماله عزموا على قبضه والمكاتبة إلى غياث الدين بإنفاذ من يتسلم البلد وكتب القاضى صاعد قاضى هراة وابن زياد إلى غياث الدين بذلك فلما سمع ابن خرميل بما فعله غياث الدين بأهله وبما عزم عليه أهل هراة خاف أن يعاجله بالقبض فحضر عند القاضى وأحضر أعيان البلد وألان لهم القول وتقرب اليهم وأظهر طاعة غياث الدين وقال قد رددت عسكر خوارزمشاه وأريد أرسل رسولا إلى غياث الدين بطاعتى والذى أوثره منكم أن تكتبوا معه كتابا بطاعتى فاستحسنوا قوله وكتبوا له بما طلب وسير رسوله إلى فيروزكوه وأمره إذا جنه الليل أن يرجع على طريق نيسابور يلحق عسكر خوارزمشاه ويجد السير فإذا لحقهم ردهم اليه ففعل الرسول ماأمره ولحق العسكر على يومين من هراة فأمرهم بالعود فعادوا فلما كان اليوم الرابع من سير الرسول وصلوا إلى هراة والرسول بين أيديهم فلقيهم ابن خرميل وأدخلهم البلد والطبول تضرب بين أيديهم فلما دخلوا أخذ ابن زياد الفقيه فسمله وأخرج القاضى صاعدا من البلد فسار إلى غياث الدين بفيروزكوه وأخرج من عنده من الغورية وكل من يعلم أنه يريدهم وسلم أبواب البلد إلى الخوارزمية وأما غياث الدين فإنه برز من فيروزكوه نحو هراة وأرسل عسكرا فأخذوا حشيرا كان لأهل هراة فخرج الخوارزمية فشنوا الغارة على هراة الروذ وغيره فأمر غياث الدين عسكره بالتقدم إلى هراة وجعل المقدم عليهم على بن أبى على وأقام هو بفيروزكوه لما بلغه أن خوارزمشاه على بلخ فسار العسكر وعلى يزكه الأمير أميران بن قيصر الذى كان صاحب الطالقان فأرسل إلى ابن خرميل يعرفه أنه على اليزك ويأمره بالمجىء إليه فإنه لايمنعه وحلف له على ذلك فسار ابن خرميل فى عسكره فكبس عسكر غياث الدين فلم يلحقوا يركبون خيولهم حتى خالطوهم فقتلوا فيهم فكف ابن خرميل أصحابه عن الغورية خوفا أن يهلكوا وغنم وأسر إسماعيل الخلجى وأقام بمكانه وأرسل عسكره فشنوا الغارة على البلاد باذغيس وغيرها وعظم الأمر على غياث الدين فعزم على المسير إلى هراة بنفسه فأتاه الخبر أن علاء الدين صاحب باميان قد عاد إلى غزنة على ماذكره فأقام ينتظر ما يكون منهم ومن الدز

Marfat.com

Marfat.com

وأما بلخ فإن خوارزم شاه لما بلغه قتل شهاب الدين أخرج من كان عنده من الغوريين الذين كان أسرهم فى المصاف على باب خوارزم فخلع عليهم وأحسن إليهم وأعطاهم الأموال وقال إن غياث الدين أخى ولا فرق بينى وبينه فمن أحب منكم المقام عندى فليقم ومن أحب أن يسير إليه فإننى أسيره ولو أراد منى مهما أراد نزلت له عنه وعهد إلى محمد بن على بن بشير وهو من أكابر الأمراء الغورية فأحسن إليه وأقطعه استمالة للغورية وجعله سفيرا بينه وبين صاحب بلخ فسير أخاه على شاه بين يديه فى عسكره إلى بلخ فلما قاربها خرج إليه عماد الدين عمر بن الحسين الغورى أميرها فدفعه عن النزول عليها فنزل على أربعة فراسخ عنها فأرسل إلى أخيه خوارزم شاه يعلمه قوتهم فسار إليها فى ذى القعدة من السنة فلما وصل إلى بلخ خرج صاحبها فقاتلهم فلم يقو بهم لكثرتهم فنزلوا فصار يوقع بهم ليلا فكانوا معه على أقبح صورة فأقام صاحب بلخ محاصرا وهو ينتظر المدد من أصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان وكانوا قد اشتغلوا عنه بغزنة على ماذكرناه وعلى مانذكره إن شاء الله تعالى فأقام خوارزم شاه على بلخ أربعين يوما كل يوم يركب إلى الحرب فيقتل من أصحابه كثير ولا يظفر بشىء فراسل صاحبها عماد الدين مع محمد بن على بن بشير الغورى وبذل له بذلا كثيرا ليسلم إليه البلد فلم يجبه إلى ذلك وقال لا أسلم البلد إلا إلى أصحابه فعزم على المسير إلى هراة فلما سار أصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان إلى غزنة المرة الثانية على ماذكره إن شاء الله تعالى وأسرهم تاج الدين الدز عاد عن ذلك العزم وأرسل محمد بن على بن بشير إلى عماد الدين نائبه يعرفه حال أصحابه وأسرهم وأنه لا يبقى عليه حجة ولا له فى التأخر عنه عذر فدخل إليه ولم يزل يخدعه تارة يرغبه وتارة يرهبه حتى أجاب إلى طاعة خوارزم شاه والخطبة له وذكر اسمه على السكة وقال أنا أعلم إنه لا يفى له وأرسل من يستحلفه على ما أراد فتم الصلح وخرج إلى خوارزم شاه فخلع عليه وأعاد إلى بلده وكان سلخ ربيع الأول سنة ثلاث وستمائة ثم سار خوارزم شاه إلى كرزيان ليحاصرها وبها على بن أبى على وأرسل إلى غياث الدين يقول إن هذه كان قد أقطعها عمك لابن خرميل فتنزل عنها فامتنع وقال بينى وبينكم السيف فأرسل إليه خوارزم شاه مع محمد بن على بن بشير فرغبه وآيسه من نجدة غياث الدين ولم يزل به حتى نزل عنها وسلمها وعاد إلى فيروزكوه فأمر غياث الدين بقتله فشفع فيه الأمراء فتركه وسلم خوارزم شاه كرزيان إلى ابن خرميل ثم أرسل إلى عماد الدين صاحب بلخ يطلبه اليه ويقول قد حضر معهم ولا غنى عن حضورك فأنت اليوم من أخص أوليائنا فحضر عنده فقبض عليه وسيره إلى خوارزم ومضى هو إلى بلخ فأخذها واستناب بها جعفرا التركى.

﴿ذكر ملك خوارزم شاه ترمذ وتسلمها إلى الخطا﴾ لما أخذ خوارزمشاه مدينة بلخ سار عنها إلى مدينة ترمذ مجدا وبها ولد عماد الدين الذى كان صاحب بلخ فأرسل اليه محمد بن على بن بشير يقول له إن أباك قد صار من أخص أصحابى وأكابر أمراء دولتى وقد سلم إلى بلخ وإنما ظهر لى منه ما أنكرته فسيرته إلى خوارزم مكرما محترما وأما أنت فتكون عندى أخا ووعده وأقطعه الكثير فخدعه محمد بن على فرأى صاحبها أن خوارزم شاه قد حصره من جانب والخطا قد حصروه من جانب آخر وأصحابه قد أسرهم الدز بغزنة فضعفت نفسه وأرسل من يستحلف له خوارزم شاه فحلف له وتسلم منه ترمذ وسلمها إلى الخطا فلقد اكتسب بها خوارزمشاه مسبة عظيمة وذكرا قبيحا فى عاجل الأمر ثم ظهر للناس بعد ذلك أنه إنما سلمها اليهم ليتمكن بذلك من ملك خراسان ثم يعود اليهم فيأخذها وغيرها منهم لأنه لما ملك خراسان وقصد بلاد الخطا وأخذها

Marfat.com

وأفنام ظهر على الناس أنه فعل ذلك خديعة ومكرا غفر الله له .

﴿ذكر عود أصحاب باميان إلى غزنة﴾ قد ذكرنا قبل وصول الدز التركى إلى غزنة وإخراجه علاء الدين وجلال الدين ولدى بهاء الدين سام صاحب باميان منها بعد أن ملكها وأقام هو فى غزنة من عاشر رمضان سنة اثنتين وستمائة إلى خامس ذى القعدة من السنة يحسن السيرة ويعدل فى الرعية وأقطع البلاد للأجناد فبعضهم قام وبعضهم سار إلى غياث الدين ولم يخطب لأحد ولا لنفسه وكان يعد الناس بأن رسولى عند مولاى غياث الدين فإذا عاد خطبت له ففرح الناس بقوله وكان يفعل ذلك مكرا وخديعة بهم وبغياث الدين لأنه لو لم يظهر ذلك لفارقه أكثر الأتراك وسائر الرعايا وكان حينئذ يضعف عن مقاومة صاحب باميان فكان يستخدم الأتراك وغيرهم بهذا القول وأشباهه فلما ظفر بصاحب باميان على ما ذكره أظهر ما كان يضمره فبينما هو فى هذا أتاه الخبر بقرب علاء الدين وجلال الدين ولدى بهاء الدين صاحب باميان فى العساكر الكثيرة وأنهم قد عزموا على نهب غزنة ، واستباحه الأموال والأنفس ، فخاف الناس خوفا شديدا وجهز الدز كثيرا من عسكره وسيرهم إلى طريقهم فلقوا أوائل العسكر فقتل من الأتراك وأدركهم العسكر فلم يكن لهم قوة بهم فانهزموا وتبعهم عسكر علاء الدين يقتلون ويأسرون فوصل المنهزمون إلى غزنة فخرج عنها الدز منهزما يطلب بلده كرمان فأدركه بعض عسكر باميان نحو ثلاثة آلاف فارس فقاتلهم قتالا شديدا فردهم عنه وأحضر من كرمان مالا كثيرا وسلاحا ففرقه فى العسكر وأما علاء الدين وأخوه فإنهما تركا غزنة لم يدخلاها وسارا فى أثر الدز فسمع بهم فسار عن كرمان فنهب الناس بعضهم بعضا وملك علاء الدين كرمان وأمنوا أهلها وعزموا على العود إلى غزنة ونهبها فسمع أهلها بذلك فقصدوا القاضى سعيد بن مسعود وشكوا اليه حالهم فمشى إلى وزير علاء الدين المعروف بالصاحب وأخبره بحال الناس فطيب قلوبهم وأخبرهم غيره ممن يثقون اليه أنهم مجمعون على النهب فاستعدوا وضيقوا أبواب الدروب والشوارع وأعدوا العرادات والأحجار وجاءت التجار من العراق والموصل والشام وغيرها وشكوا إلى أصحاب السلطان فلم يسكنهم أحد فقصدوا دار مجد الدين بن الربيع رسول الخليفة واستغاثوا به فسكنهم ووعدهم الشفاعة فيهم وفى أهل البلد فأرسل إلى أمير كبير من الغورية يقال له سليمان بن سيسر وكان شيخا كبيرا يرجعون إلى قوله يعرفه الحال ويقول له يكتب إلى علاء الدين وأخيه يتشفع فى الناس ففعل وبالغ فى الشفاعة وخوفهم من أهل البلدان أصروا على النهب فأجابوه إلى العفو عن الناس بعد مراجعات كثيرة وكانوا قد وعدوا من معهم من العساكر بنهب غزنة فعوضوهم من الخزانة فسكن الناس وعاد العسكر إلى غزنة أواخر ذى القعدة ومعهم الخزانة التى أخذها الدز من مؤيد الملك لما عاد ومعه شهاب الدين قتيلا فكانت مع ما أضيف إليها من الثياب والعين تسعمائة حمل ومن جملة ما كان فيها من الثياب الممزج المنسوج بالذهب إثنى عشر ألف ثوب وعزم علاء الدين أن يستوزر مؤيد الملك فسمع أخوه جلال الدين فأحضره وخلع عليه على كراهة منه للخلعة واستوزره ؛ فلما سمع علاء الدين بذلك قبض على مؤيد الملك وقيده وحبسه فتغيرت نيات الناس واختلفوا ثم إن علاء الدين وجلال الدين اقتسما الخزانة وجرى بينهما من المشاحنة ما لا يجرى بين التجار فاستدل بذلك الناس على أنهما لا يستقيم لهما حال لبخلهما واختلافهما وندم الأمراء على ميلهم إليهما وتركهم غياث الدين مع ما ظهر من كرمه وإحسانه ثم إن جلال الدين وعمه عباسا سارا فى بعض العسكر إلى باميان وبقى علاء الدين بغزنة فأساء وزيره عماد الملك السيرة مع الأجناد والرعية ونهب أموال الأتراك حتى أنهم

Marfat.com

باعوا أمهات أولادهم وهن يبكين ويصرخن ولا يلتفت إليهن .

(ذكر عود الدز إلى غزنه) لما سار جلال الدين عن غزنه وأقام بها أخوه علاء الدين جمع الدز ومن معه من الأتراك عسكرا كثيرا وعادوا إلى غزنة فوصلوا إلى كلوا فملكوها وقتلوا جماعة من الغورية ووصل المهزمون إلى كرمان فسار الدز إليهم وجعل على مقدمته مملوكا كبيرا من مماليك شهاب الدين اسمه أى دكز التتر فى ألفى فارس من الخلج والأتراك والغز والغورية وغيرهم ، وكان بكرمان عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له ابن المؤيد ومعه جماعة من الأمراء منهم أبو على بن سليمان بن سيسر وهو وأبوه من أعيان الغورية وكانا مشتغلين باللعب واللهو والشرب لا يفتران عن ذلك فقيل لهما إن عسكر الأتراك قد قربوا منكم فلم يلتفتا إلى ذلك ولا تركا ما كانا عليه فهجم عليهم أى دكز التتر ومن معه من الأتراك فلم يمهلهم يركبون خيولهم فقتلوا عن آخرهم منهم من قتل فى المعركة ومنهم من قتل صبرا ولم ينج إلا من تركه الأتراك عمدا ولما وصل الدز فرأى أمراء الغورية كلهم قتلى قال كل هؤلاء قاتلونا فقال أى دكز التتر لا بل قتلناهم صبرا فلامه على ذلك ووبخه وأحضر رأس ابن المؤيد بين يديه فسجد شكرا لله تعالى وأمر بالمقتولين فغسلوا ودفنوا وكان فى جملة القتلى أبو على بن سليمان ابن سيسر ووصل الخبر إلى غزنة فى العشرين من ذى الحجة من هذه السنة فصلب علاء الدين الذى جاء بالخبر فتغيمت السماء وجاء مطر شديد خرب بعض غزنة وجاء بعده برد كبار مثل بيض الدجاج فضج الناس إلى علاء الدين بإنزال المصلوب فأنزله آخر النهار فانكشفت الظلمة وسكن ما كانوا فيه وملك الدز كرمان وأحسن إلى أهلها وكانوا فى ضر شديد مع أولئك ولما صح الخبر عند علاء الدين أرسل وزيره الصاحب إلى أخيه جلال الدين فى باميان يخبره بحال الدز ويستنجده وكان قد أعد العساكر ليسير إلى بلخ يرحل عنها خوارزمشاه فلما أتاه هذا الخبر ترك بلخ وسار إلى غزنة وكان أكثر عسكره من الغورية قد فارقوه وفارقوا أخاه وقصدوا غياث الدين فلما كان أواخر ذى الحجة وصل الدز إلى غزنة ونزل هو وعسكره بإزاء قلعة غزنة وحصر علاء الدين وجرى بينهم قتال شديد ، وأمر الدز فنودى فى البلد بالأمان ، وتسكين الناس من أهل البلد والغورية وعسكر باميان وأقام الدز محاصرا للقلعة فوصل جلال الدين فى أربعة آلاف من عسكر باميان وغيرهم فرحل الدز إلى طريقهم وكان مقامه إلى أن سار إليهم أربعين يوما فلما سار الدز سير علاء الدين من كان عنده من العسكر وأمرهم أن يأتوا الدز من خلفه ويكون أخوه من بين يديه فلا يسلم من عسكره أحد فلما خرجوا من القلعة سار سليمان ابن سيسر الغورى إلى غياث الدين بفيروزكوه . فلما وصل أكرمه وعظمه وجعله أمير دار فيروزكوه وكان ذلك فى صفر سنة ثلاث وستمائة ، وأما الدز فإنه سار إلى طريق جلال الدين فالتقوا بقرية بلق فاقتتلوا قتالا صبروا فيه فانهزم جلال الدين وعسكره وأخذ جلال الدين أسيرا وأتى به إلى الدز فلما رآه ترجل وقبل يده وأمر بالاحتياط عليه وعاد إلى غزنة وجلال الدين معه أسير وألف أسير من الباميانية وغنم أصحابه أموالهم ولما عاد إلى غزنة أرسل إلى علاء الدين يقول له ليسلم القلعة إليه وإلا قتل من عنده من الأسرى فلم يسلمها فقتل منهم أربعمائة أسير بإزاء القلعة فلما رأى علاء الدين ذلك أرسل مؤيد الملك يطلب الأمان فأمنه الدز فلما خرج قبل عليه ووكل به وبأخيه من يحفظهما وقبض على وزيره لأنه سيرته وكان هندوخان ملكشاه بن خوارزمشاه تكش مع علاء الدين بقلعة غزنة فلما خرج منها قبض عليه أيضا وكتب إلى غياث الدين بالفتح وأرسل إليه الأعلام وبعض الأسرى .

Marfat.com

﴿ذكر قصد صاحب مراغة وصاحب إربل أذربيجان﴾ فى هذه السنه اتفق صاحب مراغة وهو علاء الدين هو ومظفر الدين كوكبرى صاحب إربل على قصد أذربيجان وأخذها من صاحبها أبى بكر بن البهلوان لاشتغاله بالشرب ليلا ونهارا وتركه النظر فى أحوال المملكة وحفظ العساكر والرعايا فسار صاحب إربل إلى مراغة واجتمع هو وصاحبها علاء الدين وتقدما نحو تبريز فلما علم صاحبها أبو بكر أرسل إلى ايتغمش صاحب بلاد الجبل همذان وأصفهان والرى وما بينهما من البلاد وهو مملوك أبيه البهلوان وهو فى طاعة أبى بكر إلا أنه قد غلب على البلاد فلا يلتفت إلى أبى بكر فأرسل إليه أبو بكر يستنجده ويعرفه الحال وكان حينئذ ببلد الإسماعيلية فلما أتاه الخبر سار إليه فى العساكر الكثيرة فلما حضر عنده أرسل إلى صاحب إربل يقول له إنا كنا نسمع عنك أنك تحب أهل العلم والخير وتحسن إليهم فكنا نعتقد فيك الخير والدين فلما كان الآن ظهر لنا منك ضد ذلك لقصدك بلاد الإسلام وقتال المسلمين ونهب أموالهم وإثارة الفتنة فإذا كنت كذلك فمالك عقل تجىء إلينا وأنت صاحب قرية ونحن لنا من باب خراسان إلى خلاط وإلى إربل وأحسب أنك هزمت هذا أما تعلم أن لهمماليك أنا أحدهم ولو أخذ من كل قرية شحنة أو من كل مدينة عشرة رجال لاجتمع له أضعاف عسكرك فالمصلحة أنك ترجع إلى بلدك وإنما أقول لك هذا إبقاء عليك ثم سار نحوه عقيب هذه الرسالة فلما سمعها مظفر الدين وبلغه مسير ايتغمش عزم على العود فاجتهد به صاحب مراغة ليقيم بمكانه ويسلم عسكره إليه وقال له إننى قد كاتبنى جميع أمرائه ليكونوا معى إذا قصدتهم فلم يقبل مظفر الدين من قوله وعاد إلى بلده وسلك الطريق الشاقة ، والمضايق الصعبة والعقاب الشاهقة خوفا من الطلب ثم إن أبا بكر وايتغمش قصدا مراغة وحصراها فصالحهما صاحبها على تسليم قلعة من حصونه إلى أبى بكر ، هى كانت سبب الاختلاف ، وأقطعه أبو بكر مدينتى استوا وأرمية وعاد عنه .

﴿ذكر إيقاع أيتغمش بالإسماعيلية﴾ وفى هذه السنة سار أيتغمش إلى بلاد الإسماعيلية المجاورة لقزوين فقتل منهم مقتلة كبيرة ونهب وسبى وحصر قلاعهم ففتح منها خمس قلاع وصمم العزم على حصر الموت واستئصال أهلها فاتفق ماذكرنا من حركة صاحب مراغة وصاحب إربل واستدعاه الأمير أبو بكر ففارق بلادهم وسار إلى أبى بكر كما ذكرناه .

﴿ذكر وصول عسكر خوارزم إلى بلاد الجبل وما كان منهم﴾ وفى هذه السنة سار من عسكر خوارزم طائفة كبيرة نحو عشرة آلاف فارس بأهليهم وأولادهم فوصلوا إلى زنكان وكان أيتغمش صاحبها مشغولا مع صاحب إربل وصاحب مراغه واغتنموا خلو البلاد فلما عاد مظفر الدين إلى بلده وانفصل الحال بين ايتغمش وصاحب مراغة سار أيتغمش نحو الخوارزمية فلقيهم وقاتلهم فاشتد القتال بين الطائفتين ثم انهزم الخوارزميون وأخذهم السيف فقتل منهم وأسر خلق كثير ولم ينج منهم إلا الشريد وسبى نساؤهم وغنمت أموالهم وكانوا قد أفسدوا فى البلاد بالنهب والقتل فلقوا عاقبة فعلهم .

﴿ذكر الغارة من ابن ليون على أعمال حلب﴾ وفى هذه السنة توالت الغارة من ابن ليون الأرمنى صاحب الدروب على ولاية حلب فنهب وحرق وأسر وسبى فجمع الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب عساكره واستنجد غيره من الملوك فجمع كثيرا من الفارس والراجل وسار عن حلب نحو ابن ليون وكان ابن ليون قد نزل فى طرف بلاده مما يلى بلد حلب فليس اليه طريق لأن جميع بلاده لا طريق اليها إلا من

جبال وعرة ومضايق صعبة فلا يقدر غيره على الدخول اليها لاسيما من ناحية حلب فإن الطريق منها متعذر جدا فنزل الظاهر على خمسة فراسخ من حلب وجعل على مقدمته جماعة من عسكره مع أمير كبير من مماليك أبيه يعرف بميمون القصرى ينسب إلى قصر الخلفاء العلويين بمصر لأن أباه منهم أخذه فأنفذ الظاهر ميرة وسلاحا إلى حصن له مجاور لبلاد ابن ليون اسمه دربساك وأنفذ إلى ميمون ليرسل طائفة من العسكر الذين عنده إلى طريق هذه الذخيرة ليسير وا معها إلى دربساك ففعل ذلك وسير جماعة كثيرة من عسكره وبقى فى قلة فبلغ الخبر إلى ابن ليون فجدّ فوافاه وهو مخف من العسكر فقاتله واشتد القتال بينهم فأرسل ميمون إلى الظاهر يعرفه وكان بعيدا عنه فطالت الحرب بينهم وحمى ميمون نفسه وأثقاله على قلة من المسلمين وكثرة من الأرمن فانهزم المسلمون ونال العدو منهم فقتل وأسر وكذلك أيضا فعل المسلمون بالأرمن من كثرة القتل وظفر الأرمن بأثقال المسلمين فغنموها وساروا بها فصادفهم المسلمون الذين كانوا قد ساروا مع الذخائر إلى دربساك فلم يشعروا بالحال فلم يرعهم إلا العدو وقد خالطهم ووضع السيف فيهم فاقتتلوا أشد قتال ثم انهزم المسلمون أيضا وعاد الأرمن إلى بلادهم بما غنموا واعتصموا بجبالهم وحصونهم .

(ذكر نهب الكرج أرمينية) فى هذه السنة قصدت الكرج فى جموعها ولاية خلاط من أرمينية ونهبوا وقتلوا وأسروا وسبوا أهلها كثيرا وجاسوا خلال الديار آمنين ولم يخرج اليهم من خلاط من يمنعهم فبقوا متصرفين فى النهب والسبى والبلاد شاغرة لا مانع لها لأن صاحبها صبى والمدبر لدولته ليست له تلك الطاعة على الجند فلما اشتد البلاء على الناس تذامروا وحرض بعضهم بعضا واجتمعت العساكر الإسلامية التى بتلك الولاية جميعها وانضاف اليهم من المتطوعة كثير فساروا جميعهم نحو الكرج وهم خائفون فرأى بعض الصوفية الأخيار الشيخ محمدا البستى وهو من الصالحين وكان قد مات فقال له الصوفى أراك ههنا فقال جئت لمساعدة المسلمين على عدوهم فاستيقظ فرحا بمحل البستى من الإسلام وأتى الى مدبر العسكر والقيم بأمره وقص عليه رؤياه ففرح بذلك وقوى عزمه على قصد الكرك وسار بالعساكر اليهم فنزل منزلا فوصلت الأخبار الى الكرج فعزموا على كبس المسلمين فانتقلوا من موضعهم بالوادى إلى أعلاه فنزلوا فيه ليكبسوا المسلمين إذا أظلم الليل فأتى المسلمين الخبر فقصدوا الكرج وأمسكوا عليهم رأس الوادى وأسفله وهو واد ليس اليه غير هذين الطريقين فلما رأى الكرج ذلك أيقنوا بالهلاك وسقط فى أيديهم وطمع المسلمون فيهم وضايقوهم وقاتلوهم فقتلوا منهم كثيرا وأسروا مثلهم ولم يفلت من الكرج الا القليل وكفى الله المسلمين شرهم بعد أن كانوا أشرفوا على الهلاك .

(ذكر عدة حوادث) فى هذه السنة فى جمادى الآخرة توفى الأمير طاشتكين مجير الدين أمير الحاج بتستر وكان قد ولاه الخليفة على جميع خوزستان وكان أميرا على الحاج سنين كثيرة وكان خيرا صالحا حسن السيرة كثير العبادة يتشيع ؛ ولما مات ولى الخليفة على خوزستان مملوكه سنجر وهو صهر طاشتكين زوج ابنته . وفيها قتل سنجر بن مقلد بن سليمان بن مهارش أمير عبادة بالعراق وكان سبب قتله أنه سعى بأبيه مقلد إلى الخليفة الناصر لدين الله فأمر بالتوكيل على أبيه فبقى مدة ثم أطلقه الخليفة ثم إن سنجرا قتل أخا له اسمه [٣] فأوغر بهذه الأسباب صدور أهله وإخوته فلما كان هذه السنة فى شعبان نزل بأرض المعشوق وركب فى بعض الأيام ومعه إخوته وغيرهم من أصحابه فلما انفرد عن أصحابه ضربه أخوه على بن مقلد بالسيف فسقط إلى الأرض

Marfat.com

Marfat.com

فنزل إخوته إليه فقتلوه . وفيها تجهز غياث الدين خسروشاه صاحب مدينة الروم إلى مدينة طرابزون وحصر صاحبها لأنه كان قد خرج عن طاعته ، فضيق عليه ، فانقطعت لذلك الطرق من بلاد الروم والروس وقفجاق وغيرها برا وبحرا ولم يخرج منهم أحد إلى بلاد غياث الدين فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس لأنهم كانوا يتجرون معهم ويدخلون بلادهم ويقصدهم التجار من الشام والعراق والموصل والجزيرة وغيرها فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير فحيث لم ينفتح الطريق تأذوا أذى كثيرا فكان السعيد منهم من عاد إلى رأس ماله . وفيها تزوج أبوبكر بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران بابنة ملك الكرج ، وسبب ذلك أن الكرج تابعت الغارات منهم على بلاده لما رأوا من عجزه وانهماكه فى الشرب واللعب وماجانسهما وإعراضه عن تدبير الملك وحفظ البلاد فلما رأى هو أيضا ذلك ولم يكن عنده من الحمية والأنفة من هذه المناحس مايترك ما هو مصر عليه وأنه لايقدر على الذب عن البلاد عدل إلى الذب عنها بأيره فخطب ابنة ملكهم فتزوجها فكف الكرج عن النهب والإغارة والقتل فكان كما قيل (أغمد سيفه وسل أيره) وفيها حمل إلى أزبك خروف وجهه صورة آدمى وبدنه بدن خروف وكان هذا من العجائب . وفيها توفى القاضى أبو محمد بن محمد المانداى الواسطى بها . وفيها فى شوال توفى فخر الدين مبارك شاه بن الحسن المرورذى وكان حسن الشعر بالفارسية والعربية وله منزلة عظيمة عند غياث الدين الكبير صاحب غزنة وهراة وغيرهما وكان له دار ضيافة فيها كتب شطرنج فالعلمايطالعون الكتب والجهال يلعبون بالشطرنج . وفيها فى ذى الحجة توفى أبو الحسن على بن على بن سعادة الفارقى الفقيه الشافعى ببغداد وبقى مدة طويلة معيدا بالنظامية وصار مدرسا بالمدرسة التى أحدثتها أم الخليفة الناصر لدين الله وكان مع علمه صالحا طلب للنيابة فى القضاء ببغداد فامتنع فألزم بذلك فوليه يسيرا ثم فى بعض الأيام مشى إلى جامع ابن المطلب فنزل ولبس مئزر صوف غليظ وغير ثيابه وأمر الوكلاء وغيرهم بالانصراف وأقام به حتى سكن الطلب عنه وعاد إلى داره بغير ولاية . وفيها وقع الشيخ أبو موسى المكى المقيم بمقصورة جامع السلطان ببغداد من سطح الجامع فمات وكان رجلا صالحا كثير العبادة . وفيها أيضا توفى العفيف أبو المكارم عرفه بن على بن بصلا البندنيجى ببغداد وكان رجلا صالحا منقطعا إلى العبادة رحمه الله . (١)

---

(١) وفيها توفى أبو الغنائم المركيسهلار البغدادى كان يخدم مع عزالدين نجاح السراى ، وحصل أموالا جزيلة كان كلما تهيأ له مال اشترى به ملكا وكتبه باسم صاحب له يعتمد عليه ، فلما حضرته الوفاة أوصى ذلك الرجل أن يتولى أولاده وينفق عليهم من ميراثه مما تركه لهم ، فمرض الموصى إليه بعد قليل فاستدعى الشهود ليشهدهم على نفسه أن مافى يده لورثة أبى الغنائم فنمادى ورثته بإحضار الشهود وطولوا عليه وأخذته سكتة فمات فاستولى ورثته على تلك الأموال والأملاك ، ولم يقضوا أولاد أبى الغنائم منها شيئا مما ترك لهم . وتوفى أيضا الأمير مجير الدين طاشتكين المستنجدى أمير الحاج وزعيم بلاد خوزستان ، كان شيخا خيرا حسن السيرة كثير العبادة ، غالبا فى التشيع توفى بتستر ثانى جمادى الآخرة وحمل تابوته إلى الكوفة فدفن بمشهد على لوصيته بذلك ، هكذا ترجمه ابن الساعى فى تاريخه ، وذكر أبو شامة فى الذيل أنه طاشتكين بن عبد الله المقتفوى أمير الحاج ، حج بالناس ستا وعشرين سنة ، كان يكون فى الحجاز كأنه ملك ، وقد رماه الوزير ابن يونس بأنه يكاتب صلاح الدين فحبسه الخليفة ، ثم تبين له بطلان ماذكر عنه فأطلقه وأعطاه خوزستان ثم أعاده إلى إمرة الحج ، وكانت الحلة الشيعية إقطاعه ، وكان شجاعا جوادا سمحا قليل الكلام يمضى عليه الأسبوع لايتكلم فيه بكلمة ، وكان فيه حلم واحتمال ، استغاث به رجل على بعض نوابه فلم يرد عليه ، فقال له الرجل المستغيث : أحمار أنت ؟ فقال : لا . وفيه يقول ابن التعاويذى : =

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة ﴾

﴿ ذكر ملك عباس باميان وعودها إلى ابن أخيه ﴾ فى هذه السنة ملك عباس باميان من علاء الدين وجلال الدين ولدى أخيه بهاء الدين وسبب ذلك أن عسكر باميان لما انهزموا من الدز وعادوا إليها أخبروا أن علاء الدين وجلال الدين أسرا وأن الدز ومن معه غنموا مافى أيديهما فأخذ وزير أبيهما المعروف بالصاحب من الأموال كثيرا ومن الجواهر وغيرها من التحف وأخذ فيلا وسار إلى خوارزم شاه يستنجده على الدز ليسير معه عسكرا يستخلص به صاحبيهَ فلما فارق باميان ورأى عمهما عباس خلو البلد منه ومن ابنى أخيه جمع أصحابه وقام فى البلد فملكه وصعد إلى القلعة فملكها وأخرج أصحاب ابنى أخيه علاء الدين وجلال الدين منها فبلغ الخبر إلى الوزير السائر إلى خوارزم شاه فعاد إلى باميان وجمع الجموع الكثيرة وحصر عباسا فى القلعة وكان مطاعا فى جميع ممالك بهاء الدين وولديه من بعده وأقام محاصرا إلا أنه لم يكن معه من المال مايقوم بما يحتاج إليه إنما كان معه ماأخذه ليحمله إلى خوارزم شاه فلما خلص جلال الدين من أسر الدز على ماذكره وسار إلى باميان فوصل إلى أرصف وهى مدينة باميان وجاء إليه وزير أبيه الصاحب واجتمع به وسار إلى القلاع وأرسلوا عباسا المتغلب عليها ولاطفوه فسلم الجميع إلى جلال الدين وقال إنما حفظتها خوفا أن يأخذها خوارزم شاه فاستحسن فعله وعاد إلى ملكه .

﴿ ذكر ملك خوارزم شاه الطالقان ﴾ لما سلم خوارزم شاه ترمذ إلى الخطا سار عنها إلى ميهنة واندخوى وكتب إلى سونج أمير الشكار نائب غياث الدين محمود بالطالقان يستميله فعاد الرسول خائبا لم يجبه سونج إلى ما أراد منه وجمع عسكره وخرج يحارب خوارزم شاه فالتقوا بالقرب من الطالقان فلما تقابل العسكران حمل سونج وحده مجدا حتى قارب عسكر خوارزم شاه فألقى نفسه إلى الأرض ورمى سلاحه عنه وقبل الأرض وسأل العفو فظن خوارزم شاه أنه سكران فلما علم أنه صاح ذمه وسبه وقال من يثق إلى هذا وأشباهه ولم يلتفت إليه وأخذ ما بالطالقان من مال وسلاح ودواب وأنفذه إلى غياث الدين مع رسول وحمله رسالة تتضمن التقرب إليه والملاطفة له واستناب بالطالقان بعض أصحابه وسار إلى قلاع كالوين وبيوار فخرج إليه حسام الدين على بن أبى على صاحب كالوين وقاتله على رؤس الجبال فأرسل إليه خوارزم شاه يتهدده إن لم يسلم إليه فقال أما أنا فملوك وهذه الحصون فهى أمانة بيدى ولا أسلمها إلا إلى صاحبها فاستحسن خوارزم شاه منه هذا وأثنى عليه وذم سونج ولما بلغ غياث الدين خبر سونج وتسليم الطالقان إلى خوارزم شاه عظم عنده وشق عليه فسلاه أصحابه وهونوا الأمر ولما فرغ خوارزم شاه من الطالقان سار إلى هراة فنزل بظاهرها ولم يمكن ابن خرميل أحدا من الخوارزميين أن يتطرق بالأذى إلى أهلها وإنما كان يجتمع منهم الجماعة بعد الجماعة

= وأمير على البلاد مولى ٭ لايجيب الشاكى بغير السكوت
كلما زاد رفعة حطنا اللـ ٭ ـه بتفيله إلى البهموت

وقد سرق فراشه حياجبة له فأرادوا أن يستفزوه عليها ، وكان قد رآه الأمير طاشتكين حين أخذها فقال : لاتعاقبوا أحدا ، قد أخذها من لايردها ، ورآه حين أخذها من لاينم عليه ، وقد كان بلغ من العمر تسعين سنة ، واتفق أنه استأجر أرضا مدة ثلاثمائة سنة للوقف ، فقال فيه بعض المضحكين : هذا لايوقن بالموت ، عمره تسعون سنة ، واستأجر أرضا ثلاثمائة سنة ، فاستضحك القوم ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

Marfat.com

فيقطعون الطريق وهذه عادة الخوارزميين ووصل رسول غياث الدين إلى خوارزمشاه بالهدايا ورأى الناس عجبا وذلك أن الخوارزميين لايذكرون غياث الدين الكبير والد هذا غياث الدين ولا يذكرون أيضا شهاب الدين أخاه وهما حيان إلا بالغورى وصاحب غزنة وكان وزير خوارزم شاه الآن مع عظم شأنه وقلة هذا غياث الدين لايذكره إلا بمولانا السلطان مع ضعفه وعجزه وقلة بلاده وأما ابن خرميل فإنه سار من هراة فى جمع من عسكر خوارزم شاه فنزل على اسفرار فى صفر وكان صاحبها قد توجه إلى غياث الدين فحصرها وأرسل إلى من بها يقسم بالله لئن سلموها أن يؤمنهم وإن امتنعوا أقام عليهم إلى أن يأخذهم فإذا أخذهم قهرا لايبقى على كبير ولاصغير فخافوا فسلموها فى ربيع الأول فأمنهم ولم يتعرض إلى أهلها بسوء فلما أخذها أرسل إلى حرب بن محمد صاحب سجستان يدعوه إلى طاعة خوارزم شاه والخطبة له ببلاده فأجابه إلى ذلك وكان غياث الدين قد راسله قبل ذلك فى الخطبة والدخول فى طاعته فغالطه ولم يجبه إلى ماطلب ولما كان خوارزم شاه على هراة عاد اليها القاضى صاعد بن الفضل الذى كان ابن خرميل قد أخرجه من هراة فى العام الماضى وسار إلى غياث الدين فعاد الآن من عنده فلما وصل قال ابن خرميل لخوارزم شاه أن هذا يميل إلى الغورية ويريد دولتهم ووقع فيه فسجنه خوارزم شاه بقلعة زوزن وولى القضاء بهراة الصفى أبا بكر بن محمد السرخسى وكان ينوب عن صاعد وابنه فى القضاء بهراة .

﴿ذكر حال غياث الدين مع الدز وأيبك﴾ لما عاد الدز إلى غزنة وأسر علاء الدين وأخاه جلال الدين كما ذكرناه وكتب اليه غياث الدين يطالبه بالخطبة له فأجابه فى هذه المدة أشد منه فيما تقدم فأعاد غياث الدين اليه يقول إما أن تخطب لنا و إما أن تعرفنا مافى نفسك فلما وصل الرسول بهذا أحضر خطيب غزنة وأمره يخطب لنفسه بعد الترحم على شهاب الدين فخطب لتاج الدين الدز بغزنة فلما سمع الناس ذلك ساءهم وتغيرت نياتهم ونيات الأتراك الذين معه ولم يروه أهلا أن يخدموه وإنما كانوا يطيعونه ظنا منهم أنه ينصر دولة غياث الدين فلما خطب لنفسه أرسل إلى غياث الدين يقول له بماذا تشتط على وتتحكم هذه الخزانة نحن جمعناها بأسيافنا وهذا الملك قد أخذته وأنت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة وأقطعتهم الإقطاعات ووعدتنى بأمور لم تف بها فإن أنت أعتقتنى خطبت لك وحضرت خدمتك فلما وصل الرسول أجابه غياث الدين إلى عتق الدز بعد الامتناع الشديد والعزم على مصالحة خوارزم شاه على مايريد وقصد غزنة ومحاربته بها فلما أجابه إلى العتق أشهد عليه به وأشهد عليه أيضا بعتق قطب الدين أيبك مملوك شهاب الدين ونائبه ببلاد الهند وأرسل إلى كل واحد منهما ألف قباء وألف قلنسوة ومناطق الذهب وسيوفا كثيرة وجترين ومائة رأس من الخيل وأرسل الى كل واحد منهما رسولا فقبل الدز الخلع ورد الجتر وقال نحن عبيد ومماليك والجتر له أصحاب وسار رسول أيبك اليه وكان بفرشابور قد ضبط المملكة وحفظ البلاد ومنع المفسدين من الفساد والأذى والناس معه فى أمن فلما قرب الرسول منه لقيه على بعد وترجل وقبل حافر الفرس ولبس الخلعة وقال أما الجتر فلا يصلح للماليك ، وأما العتق فمقبول وسوف أجازيه بعبودية الأبد وأما خوارزم شاه فإنه أرسل الى غياث الدين يطلب منه أن يتصاهرا ويطلب منه ابن خرميل صاحب هراة إلى طاعته ويسير معه فى العساكر إلى غزنة فإذا ملكها من الدز اقتسموا المال أثلاثا ثلثا لخوارزم شاه وثلثا لغياث الدين وثلثا للعسكر فأجابه إلى ذلك ولم يبق إلا الصلح فوصل الخبر إلى خوارزم شاه

Marfat.com

Marfat.com

بموت صاحب مازندران فسار عن هراة إلى مرو وسمع الدز بالصلح فجزع لذلك جزعا عظيما ظهر أثره عليه وأرسل إلى غياث الدين يقول له ماحملك على هذا فقد حملني عليه عصيانك وخلافك عليّ فشار الدز إلى تكيا باذ فأخذها وإلى بست وتلك الأعمال فملكها وقطع خطبة غياث الدين منها وأرسل إلى صاحب سجستان يأمره بإعادة الترحم على شهاب الدين وقطع خطبة خوارزم شاه وأرسل إلى ابن خرميل صاحب هراة بمثل ذلك وتهددهما بقصد بلادهما فخالفه الناس ثم إن الدز أخرج جلال الدين صاحب باميان من أسره وسير معه خمسة آلاف فارس مع أيدكز التتر مملوك شهاب الدين إلى باميان ليعيدوه إلى ملكه ويزيلوا ابن عمه عنه وزوجه ابنته وسار ومعه ايدكز فلما خلا به لامه على لبسه خلعة الدز وقال أنتم مارضيتم تلبسون خلعة غياث الدين وهو أكبر سنا منكم وأشرف بيتا تلبس خلعة هذا المأبون يعني الدز ودعاه إلى العود معه إلى غزنة واعلمه أن الأتراك كلهم مجمعون على خلاف الدز فلم يجبه إلى ذلك فقال ايدكز فإني لا أسير معك وعاد إلى كابل وهي أقطاعه فلما وصل أيدكز إلى كابل لقيه رسول من قطب الدين أيبك إلى الدز يقبح له فعله ويأمره بإقامة خطبة غياث الدين ويخبره أنه قد خطب له في بلاده ويقول له إن لم يخطب له هو أيضا بغزنة ويعود إلى طاعته وإلا قصده وحاربه فلما علم أيدكز ذلك قويت نفسه على محاربة الدز وصمم العزم على قصد غزنة ووصل أيضا رسول أيبك إلى غياث الدين بالهدايا والتحف ويشير بإجابة خوارزم شاه إلى ماطلب الآن وعند الفراغ من أمر غزنة تسهل أمور خوارزم شاه وغيره وأنفذ له ذهبا عليه اسمه فكتب أيدكز إلى أيبك يعرفه عصيان الدز على غياث الدين وما فعله في البلاد وأنه على عزم مشافهة الدز وهو ينتظر أمره فأعاد أيبك جوابه يأمره بقصد غزنة فإن حصلت له القلعة أقام بها إلى أن يأتيه وإن لم تحصل له القلعة وقصده الدز انحاز إليه أو إلى غياث الدين أو يعود إلى كابل فسار إلى غزنة وكان جلال الدين قد كتب إلى الدز يخبره خبر ايدكز وما عزم عليه فكتب الدز إلى نوابه بقلعة غزنة يأمرهم بالاحتياط منه فوصلها أيدكز أول رجب من السنة وقد حذره فلم يسلموا إليه القلعة ومنعوه عنها فأمر أصحابه بنهب البلد فنهبوا عدة مواضع منه فتوسط القاضي الحال بأن سلم إليه من الخزانة خمسين ألف دينار ركنية وأخذ له من التجار شيئا آخر وخطب أيدكز بغزنة لغياث الدين وقطع خطبة الدز ففرح الناس بذلك وكان مؤيد الملك ينوب عن الدز بالقلعة ووصل الخبر إلى الدز بوصول أيدكز إلى غزنة ووصول رسول أيبك إليه ففت في عضده وخطب لغياث الدين في تكيا باذ وأسقط اسمه من الخطبة فخطب له ورحل إلى غزنة فلما قاربها ورحل أيدكز عنها إلى بلد الغور فأقام في تمران وكتب إلى غياث الدين يخبره بحاله وأنفذ إليه المال الذي أخذه من الخزانة ومن أموال الناس فارسل إليه خلعا وأعتقه وخاطبه بملك الأمراء ورد عليه المال الذي كان أخذه من الخزانة وقال له أما مال الخزانة فقد أعدناه إليك لنخرجه وأما أموال التجار وأهل البلد فقد أرسلته مع رسولي ليعاد إلى أربابه لئلا نفتتح دولتنا بالظلم وقد عوضتك عنه ضعفه وأرسل أموال الناس إلى غزنة إلى قاضي غزنة وأمره أن يرد المال المنفذ على أربابه فأتى القاضي الحال الى الدز وأشار عليه بالخطبة لغياث الدين وقال أنا أسعى في الوصلة بينكما والصلح فأمره بذلك فبلغ الخبر إلى غياث الدين فأرسل الى القاضي ينهاه عن المجيء اليه وقال لاتسأل في عبد أبق قد بان فساده واتضح عناده فأقام بغزنة هو والدز وسير غياث الدين عسكر إلى أي دكز التتر فأقاموا معه وسير الدز عسكر إلى روين كان وهي لغياث الدين وقد أقطعها لبعض الأمراء فهجموا على صاحبها فنهبوا ماله وأخذوا أولاده فنجا وحده إلى

غياث الدين فاقتضى الحال أن سار غياث الدين إلى بست وتلك الولاية فاستردها وأحسن إلى أهلها وأطلق لهم خراج سنة لما نالهم من الدز من الأذى .

﴿ذكر وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده﴾ فى هذه السنة توفى حسام الدين أردشير صاحب مازندران وخلف ثلاثة أولاد فملك بعده ابنه الأكبر وأخرج أخاه الأوسط من البلاد فقصد جرجان وبها الملك على شاه بن خوارزم شاه تكش أخو خوارزم شاه محمد وهو ينوب عن أخيه فيها فشكا إليه ماصنع به أخوه من إخراجه من البلاد ؛ وطلب منه أن ينجده عليه ، ويأخذ له البلاد ليكون فى طاعته فكتب على شاه إلى أخيه خوارزم شاه فى ذلك فأمره بالمسير معه إلى مازندران وأخذ البلاد له وإقامة الخطبة لخوارزم شاه فيها فساروا عن جرجان فاتفق أن حسام الدين صاحب مازندران مات فى ذلك الوقت وملك البلاد بعده أخوه الأصغر واستولى على القلاع والأموال فوصل على شاه البلاد ومعه صاحب مازندران فنهبوها وخربوها وامتنع منهم الأخ الصغير بالقلاع وأقام بقلعه كورا وهى التى فيها الأموال والذخائر وحصره فيها بعد أن ملكوا أسامة البلاد مثل سارية وآمل وغيرها من البلاد والحصون وخطب لخوارزم شاه فيها جميعها فصارت فى طاعته وعاد علىّ شاه إلى جرجان وأقام ابن ملك مازندران فى البلاد مالكها جميعها سوى القلعة التى فيها أخوه الأصغر وهو يراسله ويستميله ويستعطفه وأخوه لايرد جوابا ولاينزل فى حصنه .

﴿ذكر ملك غياث الدين كيخسرو مدينة أنطاكية﴾ فى هذه السنة ثالث شعبان ملك غياث الدين كيخسرو صاحب قونية وبلد الروم مدينة أنطاكية بالأمان وهى للروم على ساحل البحر وسبب ذلك أنه كان حصرها قبل هذا التاريخ وأطال المقام عليها وهدم عدة أبراج من سورها ولم يبق إلا فتحها عنوة فأرسل من بها من الروم إلى الفرنج الذين بجزيرة قبرس وهى قريبة منها ، فاستنجدوهم فوصل إليها جماعة منهم ، فعند ذلك يئس غياث الدين منها ، ورحل عنها ، وترك طائفة من عسكره ؛ بالقرب منها بالجبال التى بينها وبين بلاده وأمرهم بقطع الميرة عنها فاستمر الحال على ذلك مدة ، حتى ضاق بأهل البلد واشتد الأمر عليهم فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم فظن الفرنج أن الروم يريدون إخراجهم من المدينة بهذا السبب فوقع الخلف بينهم فاقتتلوا فأرسل الروم إلى المسلمين وطلبوهم ليسلموا إليهم البلد فوصلوا إليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج فهزم الفرنج ودخلوا الحصن فاعتصموا به فأرسل المسلمون يطلبون غياث الدين وهو بمدينة قونية فسار إليهم مجدّا فى طائفة من عسكره فوصلها ثانى شعبان وتقرر الحال بينه وبين الروم وتسلم المدينة وثالثه وحصر الحصن الذى فيه الفرنج وتسلمه وقتل كل من كان به من الفرنج

﴿ذكر عزل ولد بكتمر صاحب خلاط وملك بلبان ومسير صاحب ماردين إلى خلاط وعوده﴾

وفى هذه السنة ، قبض عسكر خلاط على صاحبها ، ولد بكتمر وملكها بلبان مملوك شاه أرمن بن سكمان ، وكتب أهل خلاط إلى ناصر الدين أرتق بن أيلغازى بن ألبى بن تمرتاش بن أيلغازى بن أرتق ، يستدعونه إليها ، وسبب ذلك أن ولد بكتمر كان صبيا جاهلا ، فقبض على الأمير شجاع الدين قتلغ مملوك من مماليك شاه أرمن وهو كان أتابكه ومدبر بلاده وكان حسن السيرة مع الجند والرعيه فلما قتله اختلفت الكلمة عليه من الجند والعامة واشتغل هو باللهو واللعب وإدمان الشرب فكاتب جماعة من أهل خلاط وجماعة من الجند ناصر الدين صاحب ماردين يستدعونه إليهم وإنما كاتبوه دون غيره من الملوك لأن أباه قطب

Marfat.com

الدين أيلغازى كان ابن أخت شاه ارمن بن سكمان وكان شاه ارمن قد حلف له الناس فى حياته لأنه لم يكن له ولد فلما تجددت بعده هذه الحادثة تذاكروا تلك الأيمان وقالوا نستدعيه ونملكه فإنه من أهل شاه أرمن فكاتبوه وطلبوه إليهم ثم إن بعض مماليك شاه أرمن اسمه بلبان وكان قد جاهر ولد بكتمر بالعداوة والعصيان سار من خلاط إلى بلاد ملازكرد وملكها واجتمع الأجناد عليه وكثر جمعه وسار إلى خلاط فملكها واتفق وصول صاحب ماردين إليها وهو يظن أن أحدا لا يمتنع عليه ويسلمون إليه المدينة فنزل قريبا من خلاط عدة أيام فأرسل إليه بلبان يقول له إن أهل خلاط قد اهموى بالميل إليك وهم ينفرون من العرب والرأى أنك ترحل عائدا مرحلة واحدة وتقيم فإذا تسلمت البلد سلمته إليك لأنى لا يمكننى ان أملكه أنا ففعل صاحب ماردين ذلك فلما أبعد عن خلاط ارسل إليه يقول له تعود إلى بلدك وإلا جئت إليك وأوقعت بك وبمن معك وكان فى قلة من الجيش فعاد إلى ماردين وكان الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب صاحب حران وديار الجزيرة قد أرسل إلى صاحب ماردين لما سمع أنه يريد قصد خلاط يقول له إن سرت إلى خلاط قصدت بلدك وإنما خاف أن يملك خلاط فيقوى عليهم فلما سار إلى خلاط جمع الأشرف العساكر وسار إلى ولاية ماردين فأخذ دخلها وأقام بدنيسر حتى تجىء الأموال إليه فلما فرغ منه عاد إلى حران فكان مثل صاحب ماردين كما قيل (خرجت تطلب قرنين عادت بلا أذنين) وأما بلبان فإنه جمع العسكر وحشد وحصر خلاط وضيق على أهلها وبها ولد بكتمر فجمع من عنده بالبلد من الاجناد والعامة وخرج إليه فالتقوا فانهزم بلبان ومن معه من بين يديه وعاد إلى الذى بيده من البلاد وهو ملاز كرد وأرجيش وغيرهما من الحصون وجمع العساكر واستكثر منها وعاود حصار خلاط وضيق على أهلها فاضطرهم إلى خذلان ولد بكتمر لصغره وجهله بالملك واشتغاله بلهوه ولعبه ثم قبضوا عليه فى القلعة وأرسلوا إلى بلبان وحلفوه على ما أرادوا وسلموا إليه البلد وابن بكتمر واستولى على جميع أعمال خلاط وسجن ابن بكتمر فى قلعة هناك واستقر ملكه فسبحان من إذا أراد أمرا هيأ أسبابه بالأمس يقصدها شمس الدين محمد بن البهلوان وصلاح الدين يوسف بن أيوب فلم يقدر أحدهما عليها والآن يظهر هذا المملوك العاجز القاصر عن الرجال والبلاد والأموال فيملكها صفوا عفوا ثم إن نجم الدين أيوب بن العادل صاحب ميافارقين سار نحو ولاية خلاط وكان قد استولى على عدة حصون من اعمالها منها حصن موسى ومدينته فلما قارب خلاط أظهر له بلبان العجز عن مقابلته فطمع واوغل فى القرب فأخذ عليه بلبان الطريق وقاتله فهزمه ولم يفلت من أصحابه إلا القليل وهم جرحى وعاد إلى ميافارقين .

(ذكر ملك الكرج مدينة قرس وموت ملكة الكرج) فى هذه السنة ملك الكرج حصن قرس من أعمال خلاط وكانوا قد حصروه مدة طويلة وضيقوا على من فيه واخذوا دخل الولاية عدة سنين وكل من نزل خلاط لا ينجدهم ولا يسعى فى راحة تصل إليهم وكان الوالى بها يواصل رسله فى طلب النجدة وإزاحة من عليه من الكرج فلا يجاب له دعاء فلما طال الأمر عليه ورأى أن لا ناصر له صالح الكرج على تسليم القلعة على مال كثير وأقطاع يأخذه منهم وصارت دار شرك بعد أن كانت دار توحيد فإنا لله وإنا اليه راجعون ونسأل الله أن يسهل للإسلام وأهله نصرا من عنده فإن ملوك زماننا قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم وظلمهم عن سد الثغور وحفظ البلاد ثم إن الله تعالى نظر إلى قلة ناصر الإسلام فتولاه فأمات ملكة الكرج واختلفوا فيما بينهم وكفى الله شرهم إلى آخر السنة .

Marfat.com

Marfat.com

﴿ذكر الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب كرستان﴾ فى هذه السنة فى رمضان سار عسكر الخليفة من خوزستان مع مملوكه سنجر وهو كان المتولى لتلك الأعمال وليها بعد موت طاشتكين أمير الحاج لأنه زوج ابنة طاشتكين إلى جبال كرستان وصاحبها يعرف بأبى طاهر وهى جبال منيعة بين فارس وأصبهان وخوزستان فقاتلوا أهلها وعادوا منهزمين وسبب ذلك أن مملوكا للخليفة الناصر لدين الله اسمه قشتمر من أكابر مماليكه كان قد فارق الخدمة لتقصير رآه من الوزير نصير الدين العلوى الرازى واجتاز بخوزستان وأخذ منها ماأمكنه ولحق بأبى طاهر صاحب كرستان فأكرمه وعظمه وزوجه ابنته ثم توفى أبو طاهر فقوى أمر قشتمر وأطاعه أهل تلك الولاية فأمر سنجر بجمع العساكر وقصده وقتاله ففعل سنجر ماأمر به وجمع العساكر وسار اليه فأرسل قشتمر يعتذر ويسأل أن لايقصده ويخرج إلى الخروج عن العبودية فلم يقبل عذره فجمع أهل تلك الأعمال ونزل إلى العسكر فلقيهم فهزمهم وأرسل إلى صاحب فارس بن دكلا وشمس الدين أيتغمش صاحب أصبهان وهمذان والرى يعرفهما الحال ويقول إنى لافوة لى بعسكر الخليفة لما أضيف اليهم عساكر أخرى من بغداد وعادوا إلى حربى وحينئذ لاأقدر بهم وطلب منهما النجدة وخوفهما من عسكر الخليفة إن ملك تلك الجبال فأجاباه إلى ماطلب فقوى جنانه واستمر على حاله.

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة قتل صبى صبيا آخر ببغداد وكانا يتعاشران وعمر كل واحد منهما يقارب عشرين سنة فقال احدهما للآخر الساعة أضربك بهذه السكين يمازحه بذلك وأهوى نحوه بها فدخلت فى جوفه فمات فهرب القاتل ثم أخذ وأمر به ليقتل فلما أرادوا قتله طلب دواة وبياضا وكتب فيها من قوله:

قدمت على الكريم بغير زاد ٭ من الأعمال بالقلب السليم
وسوء الظن أن تعتدّ زادا ٭ إذا كان القدوم على كريم

وفيها حج برهان الدين صدر جهان محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن مازة البخارى رئيس الحنفية ببخارا وهو كان صاحبها على الحقيقة يؤدى الخراج إلى الخطا وينوب عنهم فى البلد فلما حج لم تحمد سيرته فى الطريق ولم يصنع معروفا وكان قد أكرم ببغداد عند قدومه من بخارا فلما عاد لم يلفت اليه لسوء سيرته مع الحاج وسماه الحجاج صدر جهنم. وفيها فى شوال مات شيخنا أبو الحرم مكى بن ريان بن شبة النحوى المقرى بالموصل وكان عارفا بالنحو واللغة والقراآت لم يكن فى زمانه مثله وكان ضريرا وكان يعرف سوى هذه العلوم من الفقه والحساب وغير ذلك معرفة حسنة وكان من خيار عباد الله وصالحيهم كثير التواضع لايزال الناس يشتغلون عليه من بكرة إلى الليل. وفيها فارق أمير الحاج مظفر الدين سنقر مملوك الخليفة المعروف بوجه السبع الحاج بموضع يقال له المرجوم ومضى فى طائفة من أصحابه إلى الشام وسار الحاج ومعهم الجند فوصلوا سالمين ووصل هو الى الملك العادل ابى بكر بن أيوب فأقطعه أقطاعا كثيرا بمصر وأقام عنده إلى أن عاد إلى بغداد سنة ثمان وستمائة فى جمادى الاولى فانه لما قبض الوزير أمن على نفسه وأرسل يطلب العود فأجيب إليه فلما وصل أكرمه الخليفة وأقطعه الكوفة. وفيها فى جمادى الآخرة توفى أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الإسكندرانى المعروف بابن النطرونى فى مارستان بغداد وكان قد مضى إلى المايورقى فى رسالة بافريقية فحصل له منه عشرة آلاف دينار مغربية ففرقها جميعها فى بلده على معارفه وأصدقائه وكان فاضلا خيرا نعم الرجل رحمه

الله وله شعر حسن وكان قيما بعلم الأدب وأقام بالموصل مدة واشتغل على الشيخ أبى الحرم واجتمعت به كثيرا عند الشيخ أبى الحرم رحمه الله . (١)

﴿ ثم دخلت سنة أربع وستمائة ﴾

﴿ ذكر ملك خوارزم شاه وراء النهر وما كان بخراسان من الفتن وإصلاحها ﴾ فى هذه السنة عبر علاء الدين محمد بن خوارزم شاه نهر جيحون لقتال الخطا وسبب ذلك أن الخطا كانوا قد طالت أيامهم ببلاد تركستان وماوراء النهر ونقلت وطأتهم على أهلها ولهم فى كل مدينة نائب يجبى إليهم الأموال وهم يسكنون الخركاهات على عادتهم قبل أن يملكوا وكان مقامهم بنواحى أوزكند وبلاساغون وكاشغر وتلك النواحى فاتفق أن سلطان سمرقند وبخارا ويلقب خان خانان يعنى سلطان السلاطين وهو من أولاد الخانية عريق النسب فى الإسلام والملك أنف وضجر من تحكم الكفار على المسلمين فأرسل إلى خوارزم شاه يقول له إن الله عز وجل قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدى الكفار وتخلصهم مما يجرى عليهم من التحكم فى الأموال والأبشار ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل إليك ماتحمله إليهم وتذكر اسمك فى الخطبة وعلى السكة فأجابه إلى ذلك وقال أخاف أنكم لاتوفون لى فسير إليه صاحب سمرقند وجوه أهل بخارا وسمرقند بعد أن حلفوا صاحبهم على الوفاء بما تضمنه وضمنوا عنه الصدق والثبات على مابذل وجعلوا عنده رهائن فشرع فى إصلاح أمر خراسان وتقرير قواعدها فولى أخاه على شاه طبرستان مضافة إلى جرجان وأمر بالحفظ والاحتياط وولى الأمير كزلك خان وهو من أقارب أمه وأعيان دولته بنيسابور وجعل معه عسكرا وولى الأمير جلدك مدينة الخام وولى الأمير أمين الدين أبا بكر مدينة زوزن وكان هذا أمين الدين حمالا ثم صار أكبر الأمراء وهو الذى ملك كرمان على مانذكره إن شاء الله تعالى وأقر الأمير الحسين على هراة وجعل معه فيها ألف فارس من الخوارزمية وصالح غياث الدين محمودا على مابيده من بلاد الغور

---

(١) وفيها توفى عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر كان ثقة عابداً زاهداً ورعا ، لم يكن فى أولاد الشيخ عبدالقادر الجيلانى خير منه ، لم يدخل فيما دخلوا فيه من المناصب والولايات ، بل كان متقللا من الدنيا مقبلا على أمر الآخرة وقد سمع الكثير وسمع عليه أيضاً . وفيها توفى أيضا أبو الحزم مكى بن زيان بن شبة بن صالح الماكسينى ، من أعمال سنجار ، ثم الموصلى النحوى ، قدم بغداد وأخذ على بن الخشاب وابن القصار ، والكمال الأنبارى ، وقدم الشام فانتفع به خلق كثير منهم الشيخ علم الدين السخاوى وغيره وكان ضريراً ، وكان يتعصب لأبى العلاء المعرى لما بينهما من القدر المشترك فى الأدب والعمى ، ومن شعره :

إذا احتاج النوال إلى شفيع * فلا تقبله تضح قرير عين
إذا عيف النوال لفرد منّ * فأولى أن يعاف لمنتين

ومن شعره أيضا :

نفسى فداء لأغيد غنج * قال لنا الحق حين ودّعنا
من ود شيئا من حبه طمعا * فى قتله للوداع ودّعنا

وفيها توفى إقبال الخادم جمال الدين أحد خدام صلاح الدين ، واقف الإقباليتين الشافعية والحنفية ، وكانتا دارين فجعلهما مدرستين ، ووقف عليهما وقفا الكبيرة للشافعية والصغيرة للحنفية ، وعليها ثلث الوقف . توفى بالقدس رحمه الله

Marfat.com

Marfat.com

وكرمسير واستناب فى مرو وسرخس وغيرهما من خراسان نوابا وأمرهم بحسن السياسة والحفظ والاحتياط وجمع عساكره جميعها وسار إلى خوارزم وتجهز منها وعبر جيحون واجتمع بسلطان سمرقند وسمع الخطا فحشدوا وجمعوا وجاؤا إليه فجرى بينهم وقعات كثيرة ومغاورات فتارة له وتارة عليه .

(ذكر قتل ابن خرميل وحصر هراة وأسر خوارزمشاه وخلاصه) ثم إن خرميل صاحب هراة رأى سوء معاملة عسكر خوارزمشاه للرعية وتعديهم إلى الأموال فقبض عليهم وحبسهم وبعث رسولا إلى خوارزمشاه يعتذر ويعرفه ماصنعوا فعظم عليه ولم يمكنه محاققته لاشتغاله بقتال الخطا فكتب إليه يستحسن فعله ويأمره بانفاذ الجند الذين قبض عليهم لحاجته إليهم وقال له إننى قد أمرت عزالدين جلدك بن طغرل صاحب الخام أن يكون عندك لما أعلمه من عقله وحسن سيرته ، وأرسل إلى جلدك يأمره بالمسير إلى هراة وأسر إليه أن يحتال فى القبض على حسين بن خرميل ، ولو أول ساعة يلقاه ، فسار جلدك فى ألفى فارس ، وكان أبوه طغرل أيام السلطان سنجر واليا بهراة فهوى إليها بالأشواق يختارها على جميع خراسان فلما قارب هراة أمر ابن خرميل الناس بالخروج بتلقيه وكان للحسين وزير يعرف بخواجه الصاحب وكان كبيرا قد حنكته التجارب فقال لابن خرميل لاتخرج إلى لقائه ودعه يدخل إليك منفردا فإننى أخاف أن يغدر بك وأن يكون خوارزمشاه أمر بذلك ، فقال لايجوز أن يقدم مثل هذا الأمير ولا ألتقيه ، وأخاف أن يضطغن ذلك على خوارزمشاه وما أظنه يتجاسر علىّ ، فخرج إليه الحسين بن خرميل ، فلما بصر كل واحد منهما بصاحبه ترجل للالتقاء وكان جلدك قد أمر أصحابه بالقبض عليه فاختلطوا بهما وحالوا بين ابن خرميل وأصحابه وقبضوا عليه فانهزم أصحابه ودخلوا المدينة وأخبروا الوزير بالحال فأمر بإغلاق الباب والطلوع إلى الأسوار واستعد للحصار ونزل جلدك على البلد وأرسل إلى الوزير يبذل له الأمان ويتهدده إن لم يسلم البلد بقتل ابن خرميل فنادى الوزير بشعار غياث الدين محمود الغورى وقال لجلدك لا أسلم البلد إليك ولا إلى الغادر ابن خرميل وإنما هو لغياث الدين ولأبيه قبله فقدموا ابن خرميل إلى السور فخاطب الوزير وأمره بالتسليم فلم يفعل فقتل ابن خرميل وهذه عاقبة الغدر فقد تقدم من أخباره عند شهاب الدين الغورى مايدل على غدره وكفرانه الإحسان ممن أحسن إليه فلما قتل ابن خرميل كتب جلدك إلى خوارزمشاه بجلية الحال فأنفذ خوارزمشاه إلى كزلك خان والى نيسابور أمين الدين أبى بكر صاحب زوزن يأمرهما بالمسير إلى هراة وحصارها وأخذها فسارا فى عشرة آلاف فارس فنزلوا على هراة وراسلوا الوزير بالتسليم فلم يلتفت إليهم وقال ليس لكم من المحل مايسلم إليكم مثل هراة لكن إذا وصل السلطان خوارزمشاه سلمتها إليه فقاتلوه وجدوا فى قتاله فلم يقدروا عليه وكان ابن خرميل قدحصن هراة وعمل لها أربعة أسوار محكمة وحفر خندقها وشحنها بالميرة فلما فرغ من كل ما أراد ، قال بقيت أخاف على هذه المدينة شيئا واحدا وهو أن تسكر المياه التى لها أياما كثيرة ثم ترسل دفعة واحدة فتخرق أسوارها فلما حصرها هؤلاء سمعوا قول ابن خرميل فسكروا المياه حتى اجتمعت كثيرا ثم أطلقوها على هراة فأحاطت بها ولم تصل إلى السور لأن أرض المدينة مرتفعة فامتلأ الخندق ماء وصار حولها وحل فانتقل العسكر عنهم ولم يمكنهم القتال لبعدهم عن المدينة وهذا كان قصد ابن خرميل أن يمتلىء الخندق ماء ويمنع الوحل من القرب عن المدينة فأقاموا مدة حتى نشف الماء فكان قول ابن خرميل من أحسن الحيل ونعود إلى قتال خوارزمشاه الخطا وأسره وأما خوارزمشاه فإنه دام القتال بينه وبين الخطا ، فنى بعض الأيام اقتتلوا واشتد القتال ودام

بينهم ثم انهزم المسلمون هزيمة قبيحة وأسر كثير منهم وقتل كثير وكان من جملة الأسرى خوارزمشاه وأسر معه أمير كبير يقال له فلان بن شهاب الدين مسعود أسرهما رجل واحد ووصلت العساكر الإسلامية إلى خوارزم ولم يروا السلطان معهم فأرسلت أخت كزلك خان صاحب نيسابور وهو يحاصر هراة وأعلمته الحال فلما أتاه الخبر سار عن هراة ليلا إلى نيسابور وأحس به الأمير أمين الدين أبو بكر صاحب زوزن فأراد هو ومن عنده من الأمراء منعه مخافة أن يجرى بينهم حرب يطمع بسببها أهل هراة فيهم فيخرجون اليهم فيبلغون منهم مايريدونه فامسكوا عن معارضته وكان خوارزمشاه قد خرب سور نيسابور لما ملكها من الغورية فشرع كزلك خان يعمره وأدخل اليها الميرة واستكثر من الجند وعزم على الاستيلاء على خراسان إن صح فقد السلطان وبلغ خبر عدم السلطان إلى أخيه على شاه وهو ببطبرستان فدعا إلى نفسه وقطع خطبة أخيه واستعد لطلب السلطنة واختلطت خراسان اختلاطا عظيما وأما السلطان خوارزمشاه فإنه لما أسر قال له ابن شهاب الدين مسعود يجب أن تدع السلطنة فى هذه الأيام وتصير خادما لعلى احتال فى خلاصك فشرع يخدم ابن مسعود ويقدم له الطعام ويخلعه ثيابه وخفه ويعظمه فقال الرجل الذى أسرهما لابن مسعود أرى هذا الرجل يعظمك فى أنت فقال أنا غلان وهذا غلامى فقام اليه وأكرمه وقال لولا أن القوم عرفوا بمكانك عندى لأطلقتك ثم تركه أياما فقال له ابن مسعود إنى أخاف أن يرجع المنهزمون فلا يرانى أهلى معهم فيظنون أنى قتلت فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك ثم يقتسمون مالى فأهلك وأحب أن تقرر علىّ شيئا من المال حتى أحمله اليك فقرر عليه مالا وقال له أريد أن تأمر رجلا عاقلا يذهب بكتابى إلى أهلى ويخبرهم بعافيتى ويحضر معه من يحمل المال ثم قال إن أصحابكم لا يعرفون أهلنا ولكن هذا غلامى أثق به ويصدقه أهلى فأذن له الخطائى بإنفاذه فسيره وأرسل معه الخطائى فرسا وعدة من الفرسان يحمونه فساروا حتى قاربوا خوارزم وعاد الفرسان عن خوارزمشاه ووصل خوارزمشاه إلى خوارزم فاستبشر به الناس وضربت البشائر وزينوا البلد وأتته الأخبار بما صنع كزلك بنيسابور وبما صنع أخوه على شاه ببطبرستان .

﴿ذكر مافعله خوارزمشاه بخراسان﴾ لما وصل خوارزمشاه إلى خوارزم أتته الأخبار بما فعله كزلك خان وأخوه على شاه وغيرهم فسار إلى خراسان وتبعته العساكر فتقطعت ووصل هو إليها فى اليوم السادس ومعه ستة فرسان وبلغ كزلك خان وصوله فأخذ أمواله وعساكره وهرب نحو العراق وبلغ أخاه على شاه فخافه وسار على طريق قهستان ملتجئا إلى غياث الدين محمود الغورى صاحب فيروزكوه فتلقاه وأكرمه وأنزله عنده وأما خوارزم شاه فإنه دخل نيسابور وأصلح أمرها وجعل فيها نائبا وسار إلى هراة فنزل عليها مع عسكره الذين يحاصرونه وأحسن إلى أولئك الأمراء ووثق بهم لأنهم صبروا على تلك الحال ولم يتغيروا ولم يبلغوا من هراة غرضا بحسن تدبير ذلك الوزير فأرسل خوارزمشاه إلى الوزير يقول له إنك وعدت عسكرى أنك تسلم المدينة إذا حضرت ، وقد حضرت فسلم فقال لا أفعل لأنى أعرف أنكم غدارون لاتبقون على أحد ولا أسلم البلد إلا إلى غياث الدين محمود فغضب خوارزمشاه من ذلك وزحف إليه بعساكره فلم يكن فيه حيلة فاتفق جماعة من أهل هراة وقالوا هلك الناس من الجوع والقلة وقد تعطلت علينا معايشنا وقد مضى سنة وشهر وكان الوزير بعد تسليم البلد إلى خوارزمشاه إذا وصل إليه وقد حضر خوارزمشاه ولم يسلم ويجب أن نحتال فى تسليم البلد والخلاص من هذه الشدة التى نحن فيها فانتهى ذلك إلى الوزير فبعث إليهم جماعة من عسكره وأمره بالقبض

Marfat.com

عليهم فضى الجند إليهم فثارت فتنة فى البلد عظم خطبها فاحتاج الوزير إلى تداركها بنفسه فمضى لذلك فكتب من البلد إلى خوارزمشاه بالخبر وزحف إلى البلد وأهله مختلطون فخربوا برجين من السور ودخلوا البلد فملكوه وقبضوا على الوزير فقتله خوارزمشاه وملك البلد وذلك سنة خمس وستمائة وأصلح حاله وسلمه إلى خاله أمير ملك وهو من أعيان أمرائه فلم تزل بيده حتى هلك خوارزمشاه ، وأما ابن شهاب الدين مسعود فإنه أقام عند الخطا مدبدة فقال له الذى استأسره يوما إن خوارزمشاه قد عدم فأيش عندك من خبره فقال له ، أما تعرفه قال لا قال هو أسيرك الذى كان عندك فقال لم لا عرفتنى حتى كنت أخدمه وأسير بين يديه إلى مملكته قال خفتكم عليه فقال الخطائى سربنا إليه فسار إليه فأكرمهما وأحسن إليهما وبالغ فى ذلك .

﴿ذكر قتل غياث الدين محمود﴾ لما سلم خوارزمشاه هراة إلى خاله أمير ملك وسار إلى خوارزم أمره أن يقصد غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد بن سام الغورى صاحب الغور وفيروزكوه وأن يقبض عليه وعلى أخيه على شاه بن خوارزمشاه ويأخذ فيروزكوه من غياث الدين فسار أمير ملك إلى فيروزكوه وبلغ ذلك إلى محمود فأرسل يبذل الطاعة ويطلب الأمان فأعطاه ذلك فنزل إليه محمود فقبض عليه أمير ملك وعلى على شاه أخى خوارزمشاه فسألاه أن يحملهما إلى خوارزمشاه ليرى فيهما رأيه فأرسل إلى خوارزمشاه يعرفه الخبر فأمره بقتلهما فقتلا فى يوم واحد واستقامت خراسان كلها لخوارزمشاه وذلك سنة خمس وستمائة أيضا وهذا غياث الدين هو آخر ملوك الغورية ، ولقد كانت دولتهم من أحسن الدول سيرة وأعدلها وأكثرها جهادا وكان محمود هذا عادلا حليما كريما من أكرم الملوك أخلاقا رحمه الله تعالى .

﴿ذكر عود خوارزمشاه إلى الخطا﴾ لما استقر أمر خراسان لمحمد خوارزمشاه وعبر نهر جيحون جمع له الخطا جمعا عظيما وساروا إليه والمقدم عليهم شيخ دولتهم القائم مقام الملك فيهم المعروف بطاينكوه وكان عمره قد جاوز مائة سنة ولقى حروبا كثيرة وكان مظفرا حسن التدبير والعقل واجتمع خوارزمشاه وصاحب سمرقند وتصافوا هم والخطا سنة ست وستمائة فجرت حروب لم يكن مثلها شدة وصبروا فانهزم الخطا هزيمة منكرة وقتل منهم وأسر خلق لا يحصى وكان فيمن أسر طاينكوه مقدمهم وجىء به إلى خوارزمشاه فأكرمه وأجلسه على سريره وسيره إلى خوارزم ثم قصد خوارزمشاه إلى بلاد ماوراء النهر فملكها مدينة مدينة وناحية ناحية حتى بلغ أوزكند وجعل نوابه فيها وعاد إلى خوارزم ومعه سلطان سمرقند وكان من أحسن الناس صورة فكان أهل خوارزم يجتمعون حتى ينظروا اليه فزوجه خوارزمشاه بابنته ورده إلى سمرقند وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان رسم الخطا .

﴿ذكر غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين﴾ لما عاد صاحب سمرقند اليها ومعه شحنة لخوارزمشاه وأقام معه نحو سنة فرأى سوء سيرة الخوارزميين وقبح معاملتهم ندم على مفارقة الخطا فأرسل إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند ليسلمها اليه ويعود إلى طاعته وأمر بقتل كل من فى سمرقند من الخوارزمية ممن سكنها قديما وحديثا وأخذ أصحاب خوارزمشاه فكان يجعل الرجل منهم قطعتين ويعلقهم فى الأسواق كما يعلق القصاب اللحم وأساء غاية الإساءة ومضى إلى القلعة ليقتل زوجته ابنة خوارزمشاه فأغلقت الأبواب ووقفت بجواريها تمنعه وأرسلت اليه تقول أنا امرأة وقتل مثلى قبيح ولم يكن منى اليك ما أستوجب به هذا منك ولعل تركى أحمد عاقبة فاتق الله فى فتركها ووكل بها من يمنعها التصرف فى نفسها ووصل الخبر إلى خوارزمشاه فقامت

Marfat.com

Marfat.com

قيامته وغضب غضبا شديدا وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء فمنعته أمه عن ذلك وقالت إن هذا قد أتاه الناس من أقطار الأرض ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل فأمر بقتل أهل سمرقند فنهته أمه فانتهى وأمر عساكره بالتجهيز إلى ماوراء النهر وسيرهم أرسالا كلما تجهز جماعة عبروا جيحون فعبر منهم خلق كثير لايحصى ثم عبر هو بنفسه فى آخرهم ونزل على سمرقند وأنفذ إلى صاحبها يقول له قد فعلت مالم يفعله مسلم واستحللت من دماء المسلمين مالا يفعله عاقل لامسلم ولا كافروقد عفا الله عما سلف فاخرج من البلاد وامض حيث شئت فقال لاأخرج وافعل مابدالك فأمر عساكره بالزحف فأشار عليه بعض من معه بأن يأمر بعض الأمراء إذا فتحوا البلدان يقصدوا الدرب الذى يسكنه التجار فيمنع من نهبه والتطرق إليهم بسوء فإنهم غرباء وكلهم كارهون لهذا الفعل فأمر بعض الأمراء بذلك وزحف ونصب السلاليم على السور فلم يكن بأسرع من أن أخذو البلد وأذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من أهل سمرقند فنهب البلد وقتل أهله ثلاثه أيام فيقال إنهم قتلوا منهم مائتى ألف إنسان وسلم ذلك الدرب الذى فيه الغرباء فلم يعدم منهم الفرد ولا الآدمى الواحد ثم أمر بالكف عن النهب والقتل ثم زحف إلى القلعة فرأى صاحبها ماملأ قلبه هيبة وخوفا فأرسل يطلب الأمان فقال لاأمان لك عندى فزحفوا عليها فملكوها وأسروا صاحبها وأحضروه عند خوارزمشاه فقبل الأرض فطلب العفو فلم يعف عنه وأمر بقتله فقتل صبرا وقتل معه جماعة من أقاربه ولم يترك أحدا ممن ينسب إلى الخانية ورتب فيها وفى سائر البلاد نوابه ولم يبق لأحد معه فى البلاد حكم .

﴿ ذكر الوقعة التى أفنت الخطا ﴾ لما فعل خوارزم شاه بالخطا ماذكرناه مضى من سلم منهم إلى ملكهم فإنه لم يحضر الحرب فاجتمعوا عنده وكان طائفة عظيمة من التتر قد خرجوا من بلادهم حدود الصين قديما ونزلوا وراء بلاد تركستان وكان بينهم وبين الخطا عداوة وحروب فلما سمعوا بما فعله خوارزمشاه بالخطا قصدوهم مع ملكهم كشلى خان فلما رأى ملك الخطا ذلك أرسل إلى خوارزمشاه يقول له أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فعفو عنه وقد أتى من هذا العدو من لاقبل لنا به وإنهم إن انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم ونحن نحلف لك أننا إذا ظهرنا بهم لانتعرض إلى ماأخذت من البلاد ونقنع بما فى أيدينا وأرسل إليه كشلى خان ملك التتر يقول إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا فساعدنا عليهم ونحلف أننا إذا انتصرنا عليهم لانقرب بلادك ونقنع بالمواضع التى ينزلونها فأجاب كلا منهما أننى معك ومعاضدك على خصمك وسار بعساكره إلى أن نزل قريبا من الموضع الذى تصافوا فيه فلم يخالطهم مخالطة يعلم بها أنه من أحدهما فكانت كل طائفة منهم تظن أنه معها وتواقع الخطا والتتر فانهزم الخطا هزيمة عظيمة فمال حينئذ خوارزمشاه وجعل يقتل ويأسر وينهب ولم يترك أحدا ينجو منهم فلم يسلم منهم إلا طائفة يسيرة مع ملكهم فى موضع من نواحى الترك يحيط به جبال ليس إليه طريق إلا من جهة واحدة تحصنوا فيه وانضم إلى خوارزم شاه منهم طائفة وساروا فى عسكره وأنفذ خوارزمشاه إلى كشلى خان ملك التتر يعلمه بأنه حضر لمساعدته ولولاه ماتمكن من الخطا فاعترف له كشلى خان بذلك مدة ثم أرسل إليه يطلب منه المقاسمة على بلاد الخطا وقال كما أنا اتفقنا على إبادتهم ينبغى أن نقسم بلادهم فقال ليس لك عندى غير السيف ولستم بأقوى من الخطا شوكة ولا أعز ملكا وإن قمت بالمساكنة وإلا سرت إليك وفعلت بك شرا مما فعلت بهم وتجهز وسار حتى نزل قريبا منهم وعلم خوارزمشاه أنه لاطاقة له به

فكان يراوغه فإذا سار إلى موضع قصد خوارزمشاه أهله وأثقالهم فيتبعها وإذا سمع أن طائفة سارت عن موطنهم سار إليها فأوقع بها فأرسل إليه كشلى خان يقول له ليس هذا فعل الملوك هذا فعل اللصوص وإلا إن كنت سلطانا كما تقول فيجب أن نلتقى وإما أن تهزمنى وتملك البلاد التى بيدى وإما أن أفعل أنا بك ذلك فكان يغالطه ولا يجيبه إلى ماطلب لكنه أمر أهل الشاش وفرغانة واسفيجاب وكاسان وما حولها من المدن التى لم يكن فى الدنيا أنزه منها ولا أحسن عمارة بالجلاء منها و للحاق ببلاد الإسلام ثم خربها جميعها خوفا من التتر أن يملكوها ثم اتفق خروج هؤلاء التتر الآخر الذين خربوا الدنيا وملكهم جنكزخان النهرجى على كشلى خان التترى الأول فاشتغل بهم كشلى خان عن خوارزمشاه فخلا وجهه فعبر النهر إلى خراسان .

﴿ذكر ملك نجم الدين بن الملك العادل خلاط﴾ فى هذه السنة ملك الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب مدينة خلاط وسبب ذلك أنه كان بمدينة ميافارقين من جهة أبيه فلما كان من ملك بلبان خلاط. ماذكرناه قصد هو مدينة موش وحصرها وأخذها وأخذ غيرها مما يجاورها وكان بلبان لم تثبت قدمه حتى يمنعه فلما ملكها طمع فى خلاط. فسار اليها فهزمه بلبان كماذكرناه أيضا فعاد إلى بلده وجمع وحشد وسير اليه أبوه جيشا فقصد خلاط. فسار اليه بلبان فتصافا واقتتلا فانهزم بلبان وتمكن نجم الدين من البلاد وازداد منها ودخل بلبان خلاط واعتصم بها وأرسل رسولا إلى مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان وهو صاحب أرزن الروم يستنجده على نجم الدين فحضر بنفسه ومعه عسكره فاجتمعا وهزما نجم الدين وحصرا موش فأشرف الحصار على أن تملك فغدر ابن قلج أرسلان بصاحب خلاط وقتله طمعا فى البلاد فلما قتله سار إلى خلاط فمنعه أهلها عنها فسار إلى ملازكرد فرده أهلها أيضاوامتنعوا عليه فلما لم يجد فى شىء من البلاد مطمعا عاد إلى بلده فأرسل أهل خلاط إلى نجم الدين يستدعونه إليهم ليملكوه فحضر عندهم وملك خلاط وأعمالها سوى اليسير منها وكره الملوك المجاورون له ملكه لها خوفا من أبيه وكذلك أيضا خافه الكرج وكرهوه فتابعوا الغارات على أعمال خلاط وبلادها ونجم الدين مقيم بخلاط لايقدر على مفارقتها فلقى المسلمون من ذلك أذى شديدا واعتزل جماعة من عسكر خلاط واستولوا على حصن وان وهو من أعظم الحصون وأمنعها وعضوا على نجم الدين واجتمع إليهم جمع كثير وملكوا مدينة أرجيش فأرسل نجم الدين إلى أبيه الملك العادل يعرفه الحال ويطلب منه نجدة وأن يمده بعسكر فسير إليه أخاه الملك الأشرف موسى بن العادل فى عسكر فاجتمعا فى عسكر كثير وحصرا قلعة وان وبها الخلاطية وجدوا فى قتالهم فضعف أولئك عن مقاومتهم فسلموها صلحا وخرجوا منها وتسلمها نجم الدين واستقر ملكه بخلاط وأعمالها وعاد أخوه الأشرف إلى بلده حران والرها .

﴿ذكر غارات الفرنج بالشام﴾ وفى هذه السنة كثر الفرنج الذين بطرابلس ، وحصن الأكراد وأكثروا الإغارة على بلد حمص وولاياتها ونازلوا مدينة حمص وكان جمعهم كثيرا فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه بهم قوة ، ولايقدر على دفعهم ومنعهم فاستنجد الظاهر غازى صاحب حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده أحد إلا الظاهر فإنه سير له عسكراً أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته ثم إن الملك العادل خرج من مصر بالعساكر الكثيرة وقصد مدينة عكا فصالحه صاحبها الفرنجى على قاعدة استقرت من إطلاق أسرى من المسلمين وغيرذلك ، ثم سار إلى حمص فنزل على بحيرة قدس وجاءته عساكر الشرق وديار

Marfat.com

Marfat.com

الجزيرة ودخل الى بلاد طرابلس وحاصر موضعا يسمى القلعيات وأخذه صلحا وأطلق صاحبه وغنم مافيه من دواب وسلاح وخربه وتقدم الى طرابلس ؛ فنهب وأحرق وسبى وغنم وعاد إلى بحيرة قدس ؛ وترددت الرسل بينه وبين الفرنج فى الصلح فلم تستقر قاعدة ودخل الشتاء وطلبت العساكر الشرقية العود إلى بلادهم قبل البرد فنزل طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها وعاد إلى دمشق فشتى بها وعادت عساكر ديار الجزيرة إلى أماكنها وكان سبب خروجه من مصر بالعساكر أن أهل قبرس الفرنج أخذوا عدة قطع من أسطول مصر وأسروا من فيها فأرسل العادل إلى صاحب عكا فى رد ما أخذوا ويقول نحن صلح فلم غدرتم بأصحابنا فاعتذر بأن أهل قبرس ليس لى عليهم حكم وأن مرجعهم إلى الفرنج الذين بالقسطنطينية ثم إن أهل قبرس ساروا إلى القسطنطينية بسبب غلاء كان عندهم تعذرت عليهم الأقوات ، وعاد حكم قبرس إلى صاحب عكا ، وأعاد العادل مراسلته فلم ينفصل حال فخرج بالعساكر وفعل بعكا ما ذكرنا فأجابه حينئذ صاحبها إلى ما طلب وأرسل الأسرى .

﴿ ذكر الفتنة بخلاط وقتل كثير من أهلها ﴾ لما تم ملك خلاط وأعمالها للملك الأوحد نجم الدين بن العادل سار عنها إلى ملازكرد ليقرر قواعدها أيضا ويفعل ماينبغى أن يفعله فيها فلما فارق خلاط وثب أهلها على من بها من العسكر فأخرجوه من عندهم وعصوا وحصروا القلعة وبها أصحاب الأوحد ونادوا بشعار شاه أرمن وإن كان ميتا يعنون بذلك رد الملك إلى أصحابه ومماليكه. فبلغ الخبر إلى الملك الأوحد فعاد إليهم وقد وافاه عسكر من الجزيرة فقوى بهم وحصر خلاط فاختلف أهلها فمال إليه بعضهم حسدا للآخرين فملكها وقتل بها خلقا كثيرا من أهلها وأسر جماعة من الأعيان فسيرهم إلى ميافارقين وكان كل يوم يرسل إليهم فيقتل منهم جماعة فلم يسلم إلا القليل وذل أهل خلاط بعد هذه الوقعة وتفرقت كلمة الفتيان وكان الحكم إليهم وكنى الناس شرهم فإنهم كانوا قد صاروا يقيمون ملكا ويقتلون آخر السلطنة عندهم لا حكم لها وإنما الحكم لهم وإليهم .

﴿ ذكر ملك أبى بكر بن البهلوان مراغه ﴾ فى هذه السنة ملك الأمير نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان صاحب أذربيجان مدينة مراغة وسبب ذلك أن صاحبها علاء الدين قراسنقر مات هذه السنة وولى بعده ابن له طفل وقام بتدبير دولته وتربيته خادم كان لأبيه فعصى عليه أمير كان مع أبيه وجمع جمعا كثيرا فأرسل إليه الخادم من عنده من العسكر فقاتلهم ذلك الأمير فانهزموا واستقر ملك ولد علاء الدين إلا أنه لم تطل أيامه حتى توفى فى أول سنة خمس وستمائة وانقرض أهل بيته ولم يبق منهم أحد ، فلما توفى سار نصرة الدين أبو بكر من تبريز الى مراغة فملكها واستولى على جميع مملكة آل قراسنقر ما عدا قلعة روين فإنها اعتصم بها الخادم وعنده الخزائن فامتنع بها على الأمير أبى بكر .

﴿ ذكر عزل نصير الدين وزير الخليفة ﴾ كان هذا نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى من أهل الرى من بيت كبير فقدم بغداد لما ملك مؤيد الدين بن القصاب وزير الخليفة الرى ولقى من الخليفة قبولا فجعله نائب الوزارة ثم جعله وزيرا وحكم ابنه صاحب المخزن ، فلما كان فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة عزل وأغلق بابه وكان سبب عزله أنه أساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة فمنهم أمير الحاج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع فإنه هرب من يديه الى الشام سنة ثلاث وستمائة فارق الحاج بالمرخوم وأرسل يعتذر ويقول إن الوزير يريد أن لايبقى فى خدمة الخليفة أحداً من مماليكه ولاشك أنه يريد أن يدعى الخلافة وقال الناس فى ذلك فأكثروا وقالوا الشعر فمن ذلك قول بعضهم :

Marfat.com

ألا مبلغ عنى الخليفة أحمـــدا * توق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هـــذا بين أمرين فيهما * فعالك يا خـــير البرية ضائع
فإن كان حقا من سلالة أحمد * فهذا وزير فى الخـــلافة طامع
وإن كان فيما يدعى غير صادق * فأضيع ما كانت لديه الصنائع

فعزله ، وقيل فى سبب ذلك غيره ، ولما عزل أرسل إلى الخليفة يقول إننى قدمت إلى ههنا وليس لى دينار ولا درهم وقد حصل لى من الأموال والأعلاق النفيسة وغير ذلك مايزيد على خمسة آلاف دينار ويسأل أن يؤخذ منه الجميع ويمكن من المقام بالمشهد أسوة ببعض العلويين فأجابه إننا ما أنعمنا عليك بشىء فنوينا إعادته ولوكان ملء الأرض ذهبا ونفسك فى أمان الله وأماننا ولم يبلغنا عنك ما تستوجب به ذلك غير أن الأعداء قد أكثروا فيك فاختر لنفسك موضعا تنتقل إليه موقرا محترما فاختار أن يكون تحت الاستظهار من جانب الخليفة لئلا يتمكن منه العدو فتذهب نفسه ففعل به ذلك ، وكان حسن السيرة قريبا إلى الناس حسن اللقاء لهم والانبساط معهم عفيفاً عن أموالهم غير ظالم لهم فلما قبض عاد أمير الحاج من مصر فى الخدمة العادلية وعاد أيضا فاستمر وأقيم فى النيابة فى الوزارة فخرالدين أبوالبدر محمد بن أحمد بن امسينا الواسطى إلا أنه لم يكن متحكما

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة ليلة الأربعاء لخمس بقين من رجب زلزلت الأرض وقت السحر وكنت حينئذ بالموصل ولم تكن بها شديدة وجاءت الأخبار من كثير من البلاد بأنها زلزلت ولم تكن بالقوية . وفيها أطلق الخليفة الناصر لدين الله جميع حق البيع ، ومايؤخذ من أرباب الأمتعة من المكوس من سائر المبيعات وكان مبلغا كثيرا وكان سبب ذلك أن بغنا لعزالدين نجاح شرابى الخليفة توفيت فاشترى لها بقرة لتذبح ويتصدق بلحمها عنها فرفعوا فى حساب ثمنها مؤنة البقرة فكانت كثيرة فوقف الخليفة على ذلك وأمر باطلاق المؤنة جميعها . وفيها فى شهر رمضان أمر الخليفة ببناء دور فى المحال ببغداد ليفطر فيها الفقراء وسميت دور الضيافة يطبخ فيها اللحم الضأن والخبز الجيدعمل ذلك فى جانبى بغداد وجعل فى كل دار من يوثق بأمانته وكان يعطى كل إنسان قدحا مملوءا من الطبيخ واللحم ومنامن الخبز فكان يفطر كل ليلة على طعامه خلق لايحصون كثرة . وفيها زادت دجلة زيادة كثيرة ودخل الماء فى خندق بغداد من ناحية باب كلواذى فخيف على البلد من الغرق فاهتم الخليفة بسد الخندق وركب فخر الدين نائب الوزارة وعزالدين الشرابى ووقفا ظاهر البلد فلم يبرحا حتى سدالخندق . وفيها توفى الشيخ حنبل بن عبدالله بن الفرج المكبر بجامع الرصافة وكان عالى الإسنادروى عن ابن الحصين مسند أحمد بن حنبل وله إسناد حسن وقدم الموصل وحدث بها وبغيرها[1]

---

(١) وفيها توفى عبدالرحمن بن عيسى ابن أبى الحسن المروزى الواعظ البغدادى ، سمع من ابن أبى الوقت وغيره واشتغل على بن الجوزى بالوعظ ، ثم حدثته نفسه بمضاهاته وشمخت نفسه ، واجتمع عليه طائفة من أهل باب النصيرة ثم تزوج فى آخر عمره وقد قارب السبعين ، فاغتسل فى يوم بارد فانتفخ ذكره فمات فى هذه السنة وفيها توفى الأمير زين الدين قراجا الصلاحى صاحب صرخد ، كانت له دار عند باب الصغير عند قناة الزلاقة ، وتربته بالسفح فى قبة على جادة الطريق عند تربة ابن تميرك ، وأقر العادل ولده يعقوب على صرخد . وفيها توفى أيضا عبدالعزيز الطبيب توفى فجأة ، وهو والد سعدالدين الطبيب الأشرفى ، وفيه يقول ابن عنين :

فراری ولا خلف الخطيب جماعة * وموتى ولا عبد العزيز طبيب

﴿ ثم دخلت سنة خمس وستمائة ﴾

﴿ذكر ملك الكرج أزجيش وعودهم عنها﴾ فى هذه السنة سارت الكرج فى جموعها إلى ولاية خلاط وقصدوا مدينة أزجيش فحصروها وملكوها عنوة ونهبوا جميع ما بها من الأموال والأمتعة وغيرها وأسروا وسبوا أهلها وأحرقوها وخربوها بالكلية ولم يبق بها من أهلها أحد فأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس وكان نجم الدين أيوب صاحب أرمينية بمدينة خلاط، وعنده كثير من العساكر، فلم يقدم على الكرج لأسباب، منها: كثرتهم وخوفه من أهل خلاط لما كان أسلف إليهم من القتل والأذى، وخاف أن يخرج منها فلا يمكن من العود اليها فلما لم يخرج الى قتال الكفار عادوا الى بلادهم سالمين لم يذعرهم ذاعر وهذا جميعه وان كان عظيما شديدا على الإسلام وأهله فانه يسير بالنسبة الى ما كان مما نذكره سنة أربع عشرة الى سنة سبع عشرة وستمائة.

﴿ذكر قتل سنجر شاه وملك ابنه محمود﴾ فى هذه السنة قتل سنجر شاه بن غازى بن مودود بن زنكى ابن آقسنقر صاحب جزيرة ابن عمر وهو ابن عم نورالدين صاحب الموصل قتله ابنه غازى ولقد سلك ابنه فى قتله طريقا عجيبا يدل على مكر ودهاء وسبب ذلك أن سنجر كان سيء السيرة مع الناس كلهم من الرعية والجند والحريم والأولاد وبلغ من قبيح فعله مع أولاده أنه سير ابنيه محمودا ومودود إلى قلعة فرح من بلد الزوزان وأخرج ابنه هذا إلى دار بالمدينة أسكنه فيها ووكل به من يمنعه من الخروج وكانت الدار إلى جانب بستان لبعض الرعية فكان يدخل إليه منها الحيات والعقارب وغيرهما من الحيوان المؤذى فنى بعض الأيام اصطاد حية وسيرها فى منديل إلى أبيه لعله يرق له فلم يعطف عليه فأعمل الحيلة حتى نزل من الدار التى كان بها واختفى ووضع إنسانا كان يخدمه فخرج من الجزيرة وقصد الموصل وأظهر أنه غازى بن سنجر فلما سمع نورالدين بقربه منها أرسل نفقة وثيابا وخيلا وأمره بالعود وقال إن أباك يتجنى لنا الذنوب التى لم نعملها ويقبح ذكرنا فإذا صرت عندنا جعل ذلك ذريعة للشناعات والبشاعات ونقع معه فى صداع لاينادى وليده فسار إلى الشام وأما غازى بن سنجر فإنه تسلق إلى دار أبيه واختفى عند بعض سراريه وعلم به أكثر من بالدار فسترت عليه بغضا لأبيه وتوقعا للخلاص منه لشدته عليهن فبقى كذلك وترك أبوه الطلب له ظنا منه أنه بالشام فاتفق أن أباه فى بعض الأيام شرب الخمر بظاهر البلد مع ندمائه فكان يقترح على المغنين أن يغنوا فى الفراق وماشاكل

= وفيها توفى العفيف بن الدرحى إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع بنى أمية. وفيها توفى أيضا أبو محمد جعفر بن محمد ابن محمد بن محمود بن هبة الله بن أحمد بن يوسف الأربلى، كان فاضلا فى علوم كثيرة فى الفقه على مذهب الشافعى، والحساب والفرائض والهندسة والأدب والنحو، ومايتعلق بعلوم القرآن العزيز وغير ذلك. ومن شعره:

لايدفع المرء ما يأتى به القدر * وفى الخطوب إذا فكرت معتبر
فليس ينجى من الأقدار إن نزلت * رأى وحزم ولاخوف ولاحذر
فاستعمل الصبر فى كل الأمور ولا * تجزع لشىء فعقبى صبرك الظفر
كم مسنا عسر فصرفه الله عنا وولى بعده يسر
لاييئس المرء من روح الإله فما * ييأس منه إلا عصبة كفروا
إنى لأعلم أن الدهر ذو دول * وأن يومه ذا أمن وذا خطر

Marfat.com

ذلك ويبكى ويظهر فى قوله قرب الأجل ودنو الموت وزوال ماهو فيه فلم يزل كذلك إلى آخر النهار وعاد إلى داره وسكر عند بعض حظاياه فى الليل دخل الخلاء وكان ابنه عندتلك الحظية فدخل إليه فضربه بالسكين أربع عشرة ضربة ثم ذبحه وتركه ملقى ودخل الحمام وقعد يلعب مع الجوارى فلو فتح باب الدار وأحضر الجند واستحلفهم لملك البلد لكنه أمن واطمأن ولم يشك فى الملك فاتفق أن بعض الخدم الصغار خرج إلى الباب وأعلم أستاذ دار سنجر الخبر فأحضر أعيان الدولة وعرفهم ذلك وأغلق الأبواب على غازى واستحلف الناس لمحمود بن سنجر شاه وأرسل إليه أحضره من فرح ومعه أخوه مودود فلما حلف الناس وسكنوا فتحوا باب الدار على غازى ودخلوا عليه ليأخذوه فمانعهم عن نفسه فقتلوه وألقوه على باب الدار فأكلت الكلاب بعض لحمه ثم دفن باقيه ووصل محمود إلى البلد وملكه ولقب بمعز الدين لقب أبيه فلما استقر أخذ كثيرا من الجوارى اللواتى لأبيه فغرقهن فى دجلة ولقد حدثنى صديق لنا أنه رأى بدجلة فى مقدار غلوة سهم سبع جوارى مغرقات منهن ثلاث قد أحرقت وجوههن بالنار فلم أعلم سبب ذلك الحريق حتى حدثتنى جارية اشتريتها بالموصل من جواريه أن محمودا كان يأخذ الجارية فيجعل وجهها فى النار فإذا احترقت ألقاها فى دجلة وباع من لم يغرقه منهن فتفرق أهل تلك الدار أيدى سبا وكان سنجرشاه قبيح السيرة ظالما غاشما كثير المخاتلة والمواربة والنظر فى دقيق الأمور وجليلها لا يمتنع من قبيح يفعله مع رعيته وغيرهم من أخذ الأموال والأملاك والقتل والإهانة وسلك معهم طريقا وعرامن قطع الألسنة والأنوف والآذان وأما اللحى فإنه حلق منها مالا يحصى وكان جل فكره فى ظلم يفعله وبلغ من شدة ظلمه أنه كان إذا استدعى إنسانا ليحسن إليه لايضل إلا وقد قارب الموت من شدة الخوف واستعلى فى أيامه السفهاء ونفقت سوق الأشرار والساعين بالناس فخرب البلد وتفرق أهله لاجرم سلط الله عليه أقرب الخلق إليه فقتله ثم قتل ولده غازى وبعد قليل قتل ولده محمود أخاه مودوداً وجرى فى داره من التحريق والتغريق والتفريق ماذكرنا بعضه ، ولو رمنا شرح قبح سيرته لطال والله تعالى بالمرصاد لكل ظالم .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة ثانى المحرم توفى أبوالحسن ورام بن أبى فراس الزاهد بالحلة السيفية وهو منها ، وكان صالحا ، وفى صفر توفى الشيخ مصدق بن شبيب النحوى وهو من أهل واسط . وفى شعبان توفى القاضى محمد بن أحمد بن المنداى الواسطى بها ، وكان كثير الرواية للحديث وله إسناد عال وهو آخر من حدث بمسند أحمد بن حنبل على ابن الحصين وفيه توفى القوم أبوفراس نصر بن نصر بن مكى المدائنى صاحب المخزن ببغداد وكان أديبا فاضلا كامل المروءة يحب الأدب وأهله ويحب الشعر ويحسن الجوائز عليه ، ولما توفى ولى بعده أبوالفتوح المبارك بن الوزير عضد الدين أبى الفرج بن رئيس الرؤساء وأكرم وأعلى محله فبقى متوليا إلى سابع ذى القعدة وعزل لعجزه . وفيها كانت زلزلة عظيمة بنيسابور وخراسان وكان أشدها بنيسابور وخرج أهلها إلى الصحراء أياما حتى سكنت وعادوا إلى مساكنهم[1]

---

(١) وفيها توفى أبوالفتح محمد بن أحمد بن بختيار بن على الواسطى المعروف بابن السندای ، آخر من روى المسند عن أحمد بن الحصين ، وكان من بيت فقه وقضاء وديانة ، وكان ثقة عدلا متورعا فى النقل ، ومما أنشده من حفظه :

ولو أن ليلى مطلع الشمس دونها * وكانت وراء الشمس حين تغيب =

Marfat.com

﴿ ثم دخلت سنة ست وستمائة ﴾

﴿ذكر ملك العادل الخابور ونصيبين وحصر سنجار وعوده عنها واتفاق نور الدين أرسلان شاه ومظفر الدين﴾

فى هذه السنة ، ملك العادل أبو بكر بن أيوب بلد الخابور ونصيبين ، وحصر مدينة سنجار ، والجميع من أعمال الجزيرة وهى بيد قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود وسبب ذلك أن قطب الدين المذكور كان بينه وبين ابن عمه نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة وقد تقدم ذكر ذلك فلما كان سنة خمس وستمائة حصلت مصاهرة بين نور الدين والعادل فإن ولد العادل تزوج بابنة لنور الدين وكان لنور الدين وزراء يحبون أن يشتغل عنهم فحسنوا له مراسلة العادل والاتفاق معه على أن يقتسما بالبلاد التى لقطب الدين وبالولاية التى لولد سنجرشاه بن غازى بن مودود وهى جزيرة ابن عمر وأعمالها فيكون ملك قطب الدين للعادل وتكون الجزيرة لنور الدين فوافق هذا القول هوى نور الدين فأرسل إلى العادل فى المعنى فأجابه إلى ذلك مستبشرا وجاءه ما لم يكن يرجوه لأنه علم أنه متى ملك هذه البلاد أخذ الموصل وغيرها وأطمع نور الدين أيضا فى أن يعطى هذه البلاد إذا ملكها لولده الذى هو زوج ابنة نور الدين ويكون مقامه فى خدمته بالموصل واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفا عليها فبادر العادل إلى المسير من دمشق إلى الفرات فى عساكره وقصد الخابور فأخذه فلما سمع نور الدين بوصوله كأنه خاف واستشعر فأحضر من يرجع إلى رأيهم وقولهم وعرفهم وصول العادل واستشارهم فيما يفعله فأما من أشار عليه فسكتوا وكان فيهم من لم يعلم هذه الحال فعظم الأمر وأشار بالاستعداد للحصار وجمع الرجال وتحصيل الذخائر وما يحتاج إليه فقال نور الدين نحن فعلنا ذلك وخبره فقال بأى رأى تجىء إلى عدو لك هو أقوى منك وأكثر جمعا وهو بعيد منك متى تحرك لقصدك تعلم به فلا يصل إلا وقد فرغت من جميع ما تريده تسعى حتى يصير قريبا منك ويزداد قوة إلى قوته ثم إن الذى استقر بينكما أنه له يملكه أولا بغير تعب ولا مشقة وتبقى أنت لا يمكنك أن تفارق الموصل إلى الجزيرة وتحصرها والعادل ههنا هذا إن وفى لك بما استقرت القاعدة عليه لا يجوز أن تفارق الموصل وإن عاد إلى الشام لأنه قد صار له ملك خلاط وبعض ديار بكر وديار الجزيرة جميعها والجميع بيد أولاده فمتى سرت عن الموصل أمكنهم أن يحولوا بينك وبينها فما زدت على أن آذيت نفسك وابن عمك وقويت عدوك وجعلته شعارك وقد فات الأمر وليس يجوز إلا أن تقف معه على ما استقر بينكما لئلا يجعل ذلك حجة ويبتدىء بك هذا والعادل قد ملك الخابور ونصيبين وسار إلى سنجار فحصرها وكان عزم صاحبها قطب الدين أن يسلمها إلى العادل بعوض يأخذه عنها فمنعه من ذلك أمير كان معه اسمه أحمد بن برنقش مملوك أبيه زنكى وقام بحفظ المدينة والذب عنها وجهز نور الدين عسكرا مع ولده الملك القاهر ليسيروا إلى الملك العادل فبينما الأمر على ذلك إذ جاءهم أمر لم يكن لهم فى حساب وهو أن مظفر الدين كوكبرى صاحب إربل أرسل وزيره إلى نور الدين يبذل من نفسه المساعدة على منع العادل عن سنجار وأن الاتفاق معه على ما يريده فوصل الرسول ليلا وأبلغه الرسالة فأجاب نور الدين إلى ما طلب من الموافقة وحلف له على ذلك وعاد الوزير من ليلته فسار

= لحدثت نفسى بانتظار نوالها * وقال المنى لى : إنها لقريب

وفيها توفى قاضى القضاة بمصر صدر الدين عبد الملك بن درباس الماردانى الكردى والله أعلم .

Marfat.com

مظفر الدين واجتمع هو ونور الدين ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل وكان سبب ما فعله مظفر الدين أن يستشفع به إلى العادل ليبقى عليه سنجار وكان مظفر الدين يظن أنه لو شفع فى نصف ملك العادل لشفعه لأثره الجميل فى خدمته وقيامه فى الذب عن ملكه غير مرة كما تقدم فشفع إليه فلم يشفعه العادل ظنا منه أنه بعد اتفاقه مع نور الدين لا يبالى بمظفر الدين فلما رده العادل فى شفاعته راسل نور الدين فى الموافقة عليه ولما وصل إلى الموصل واجتمع بنور الدين أرسلا إلى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين وهو صاحب حلب وإلى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم بالاتفاق معهما فكلاهما أجاب إلى ذلك وتداعوا على الحركة وقصد بلاد العادل إن امتنع من الصلح والإبقاء على صاحب سنجار وأرسلا أيضا إلى الخليفة الناصر لدين الله ليرسل رسولا إلى العادل فى الصلح أيضا فقويت حينئذ نفس صاحب سنجار على الامتناع ووصلت رسل الخليفة وهو هبة الله بن المبارك بن الضحاك أستاذ الدار والأمير آق باش وهو من خواص مماليك الخليفة وكبارهم فوصلا إلى الموصل وسارا منها إلى العادل وهو يحاصر سنجار وكان من معه لا يناصحونه فى القتال لا سيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة فإنه كان يدخل اليها الأغنام وغيرها من الأقوات ظاهرا ولا يقاتل عليها وكذلك غيره فلما وصل رسول الخليفة إلى العادل أجاب أولا إلى الرحيل ثم امتنع عن ذلك وغالط وأطال الأمر لعله يبلغ منها غرضا فلم ينل منها ما أمله وأجاب إلى الصلح على أن له ما أخذه وتبقى سنجار لصاحبها واستقرت القاعدة على ذلك وتحالفوا على هذا كلهم وعلى أن يكونوا يدا واحدة على الناكث منهم ورحل العادل عن سنجار إلى حران وعاد مظفر الدين إلى إربل وبقى كل واحد من الملوك فى بلده وكان مظفر الدين عند مقامه بالموصل قد زوج ابنتين له بولدين لنور الدين وهما عز الدين مسعود وعماد الدين زنكى

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول عزل فخر الدين بن امسينا عن نيابة الوزارة للخليفة وألزم بيته ثم نقل إلى المخزن على سبيل الاستظهار عليه وولى بعده نيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن برزالقمى كاتب الإنشاء ولقب مؤيد الدين ونقل إلى دار الوزارة مقابل باب النوبى. وفيها فى شوال توفى مجد الدين يحيى بن الربيع الفقيه الشافعى مدرس النظامية ببغداد. وفيها توفى فخر الدين أبو الفضل محمد بن عمر بن خطيب الرى الفقيه الشافعى صاحب التصانيف المشهورة فى الفقه والأصولين وغيرهما وكان إمام الدنيا فى عصره وبلغنى أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وفيها فى سلخ ذى الحجة توفى أخى مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم الكاتب مولده فى أحد الربيعين سنة أربع وأربعين وكان عالما فى عدة علوم منها الفقه والأصولان والنحو والحديث واللغة وله تصانيف مشهورة فى التفسير والحديث والنحو والحساب وغريب الحديث وله رسائل مدونة وكان كاتبا مفلقا يضرب به المثل ذا دين متين ولزوم طريق مستقيم رحمه الله ورضى عنه فلقد كان من محاسن الزمان ولعل من يقف على ماذكرته يتهمنى فى قولى ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم أنى مقصر. وفيها توفى المجد المطرزى النحوى الخوارزمى وكان إماما فى النحو له فيه تصانيف حسنة. وفيها توفى المؤيد بن عبد الرحيم بن الإخوة بإصفهان وهو من أهل الحديث رحمه الله.

﴿ثم دخلت سنة سبع وستمائة﴾

﴿ذكر عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان ومسير العساكر إليه﴾ كان قطب الدين سنجر مملوك

Marfat.com

الخليفة الناصر لدين الله قد ولاه الخليفة خوزستان بعدط شتكين أمير الحاج كما ذكرناه فلما كان سنة ست وستمائة بدا منه تغير عن الطاعة فروسل فى القدوم إلى بغداد فخالط ولم يحضر وكان يظهر الطاعة ويبطن التغلب على البلاد فبقى الأمر كذلك إلى ربيع الأول من هذه السنة فتقدم الخليفة إلى مؤيد الدين نائب الوزارة والى عز الدين بن نجاح الشرابى خاص الخليفة بالمسير بالعساكر إليه بخوزستان وإخراجه عنها فسارا فى عساكر كثيرة فلما تحقق سنجر قصدهم إليه فارق البلاد ولحق بصاحب شيراز وهو أتابك عزالدين سعد بن دكلا ملتجئا إليه فأكرمه وقام دونه ووصل عسكر الخليفة إلى خوزستان فى ربيع الآخر بغير ممانعة فلما استقروا فى البلاد راسلوا سنجر يدعونه إلى الطاعة فلم يجب إلى دلك فساروا إلى أرجان عازمين على قصد صاحب شيراز فأدركهم الشتاء فأقاموا شهورا والرسل مترددة بينهم وبين صاحب شيراز فلم يجبهم إلى تسليمه فلما دخل شوال رحلوا يريدون شيراز فحينئذ أرسل صاحبها إلى الوزير والشرابى يشفع فيه ويطلب العهد له على أن لا يؤذى فأجيب إلى ذلك وسلمه إليهم هو وماله وأهله فعادوا إلى بغداد وسنجر معهم تحت الاستظهار وولى الخليفة بلاد خوزستان مملوكه ياقوتا أمير الحاج ووصل الوزير إلى بغداد فى المحرم سنة ثمان وستمائة هو والشرابى والعساكر وخرج أهل بغداد إلى تلقيهم فدخلوها وسنجر معهم راكبا على بغل بأكاف وفى رجله سلسلتان فى يد كل جندى سلسلة وبقى محبوسا إلى أن دخل صفر فجمع الخلق الكثير من الأمراء والأعيان إلى دار مؤيدالدين نائب الوزارة فأحضر سنجر وقرر بأمور نسبت إليه منكرة فأقربها فقال مؤيد الدين للناس قد عرفتم ماتقتضيه السياسة من عقوبة هذا الرجل وقد عفا أمير المؤمنين عنه وأمر بالخلع عليه فلبسها وعاد إلى داره فعجب الناس من ذلك وقيل إن أتابك سعد نهب مال سنجر وخزانته ودوابه وكل ماله ولأصحابه وسيرهم فلما وصل سنجر إلى الوزير والشرابى طلبوا المال فأرسل شيئا يسيرا والله أعلم .

﴿ ذكر وفاة نورالدين أرسلان شاه وشىء من سيرته ﴾ فى هذه السنة أواخر رجب توفى نورالدين أرسلانشاه ابن مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل وكان مرضه قد طال ومزاجه قد فسد وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا وكان شهما شجاعا ذا سياسة للرعايا شديدا على أصحابه فكانوا يخافونه خوفا شديدا وكان ذلك مانعا من تعدى بعضهم على بعض وكان له همة عاليه أعادنا موس البيت الأتابكى وجاهه وحرمته بعد أن كانت قد ذهبت وخافه الملوك وكان سريع الحركة فى طلب الملك إلا أنه لم يكن له صبر فلهذا لم يتسع ملكه ولو لم يكن له من الفضيلة إلا أنه لما رحل الكامل بن العادل عن ماردين كما ذكرناه سنة خمس وتسعين وخمسمائة عف عنها وأبقاها على صاحبها ولو قصدها وحصرها لم يكن فيها قوة الامتناع لأن من كان بها كانوا قد هلكوا أوضجروا ولم يبق لهم رمق فأبقاها على صاحبها ولما ملك استغاث إليه إنسان من التجار فسأل عن حاله فقيل إنه قد أدخل قماشه إلى البلد ليبيعه فلم يتم له البيع ويريد إخراجه وقد منع من ذلك فقال من منعه فقيل ضامن البز يريد منه ماجرت به العادة من المكس وكان القيم بتدبير مملكته مجاهد الدين قايماز وهو إلى جانبه فسأله عن العادة كيف هى فقال إن اشترط صاحبه إخراج متاعه مكن من إخراجه وإن لم يشترط ذلك لم يخرج حتى يؤخذ ماجرت العادة بأخذه فقال والله إن هذه العادة مدبرة إنسان لا يبيع متاعه لأى شىء يؤخذ منه ماله فقال مجاهدالدين لاشك فى فساد هذه العادة فقال إذا قلت أنا وأنت إنها عادة فاسدة فما المانع من تركها وتقدم بإخراج مال الرجل وأن لا يؤخذ إلا ممن باع وسمعت أخى مجدالدين أبا السعادات

رحمه الله وكان من أكثر الناس اختصاصا به يقول ماقلت له يوما فى فعل خير فامتنع منه بل بادر إليه بفرح واستبشار واستدعى فى بعض الأيام أخى المذكور فركب إلى داره فلما كان بباب الدار لقيته امرأة وبيدها رقعة وهى تشكو وتطلب عرضها على نورالدين فأخذها فلما دخل إليه جاراه فى مهم له فقال قبل كل شىء تقف على هذه الرقعة وتقضى شغل صاحبتها فقال لاحاجة إلى الوقوف عليها عرفنا إيش فيها فقال والله لا أعلم إلا أنى رأيت امرأة بباب الدار وهى متظلمة شاكية فقال نعم عرفت حالها ، ثم انزعج فظهر منه الغيظ والغضب وعنده رجلان هما القيمان بأمور دولته ، فقال لأخى ابصر إلى أى شىء قددفعت مع هذين هذه المرأة كان لها ابن وقد مات فى الموصل وهو غريب وخلف قماشا ومملوكين فاحتاط نواب بيت المال على القماش وأحضروا المملوكين إلينا فبقيا عندنا ننتظر من يستحق التركة ليأخذها فحضرت هذه المرأة ومعها كتاب حكمى بأن المال الذى مع ولدها لها فتقدمنا بتسليم مالها إليها وقلت لهذين اشتريا المملوكين منها وأنصفاها فى الثمن فعادا وقالا لم يتم بيننا بيع لأنها طلبت ثمنا كثيرا فأمرتهما باعادة المملوكين إليها من مدة شهرين وأكثر ، وإلى الآن ماعدت سمعت لها حديثا وظننت أنها أخذت مالها ولا شك أنهما لم يسلما المملوكين إليها وقد استغاثت إليهما فلم ينصفاها فجاءت إليك وكل من رأى هذه المرأة تشكو وتستغيث يظن أنى أنا منعتها من مالها فيذمنى وينسبنى إلى الظلم وليس لى علم وكل هذا فعل هذين أشتهى أن تتسلم أنت المملوكين وتسلمهما إليها ؛ فأخذت المرة مالها وعادت شاكرة داعية وله من هذا الجنس كثير لانطول بذكره[1]

﴿ذكر ولاية ابنة الملك القاهر﴾ لما حضر نورالدين الموت أمر أن يرتب فى الملك بعده ولده الملك القاهر عزالدين مسعود وأحلف له الجند وأعيان الناس وكان قدعهد إليه قبل موته بمدة فجددالعهد له عند وفاته وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكى قلعة عقرالحميدية وقلعه شوش وولايتها وسيره إلى العقر وأمر أن يتولى تدبير مملكتها ويقوم بحفظها والنظر فى مصالحها فتاه الأمير بدرالدين لؤلؤ لما رأى من عقله وسداده وحسن سياسته وتدبيره وكمال خلال السياسة فيه وكان عمر القاهر حينئذ عشرسنين ؛ ولما اشتد مرضه وأيس من نفسه أمره الأطباء بالانحدار إلى الحامه المعروفة بعين القيارة وهى بالقرب من الموصل فانحدر إليها فلم يجدبها راحة وازداد ضعفا فأخذه بدرالدين وأصعده فى الشبارة إلى الموصل فتوفى فى الطريق ليلا ومعه الملاحون والأطباء بينه وبينهم ستر وكان مع بدرالدين عند نور الدين مملوكان ، فلما توفى نور الدين قال لهما لايسمع أحد بموته وقال للأطباء والملاحين لايتكلم أحد فقد نام السلطان فسكتوا ووصلوا إلى الموصل فى الليل فأمر الأطباء والملاحين بمفارقة الشبارة لئلا يروه ميتا وأبعدوا فحمله هو والمملوكان وأدخله الدار وتركه فى الموضع الذى كان فيه ومعه المملوكان ونزل على بابه من يثق إليه لايمكن أحدا من الدخول والخروج ، وقعد مع الناس يمضى أمورا كان يحتاج إلى إتمامها فلما فرغ من جميع مايريده أظهر موته وقت العصر ودفن ليلا بالمدرسة التى أنشأها مقابل داره وضبط

---

(١) وفيها توفى ابن خروف شارح سيبويه ، على بن محمد بن يوسف أبو الحسن ابن خروف الأندلسى النحوى شرح سيبويه ، وقدمه إلى صاحب المغرب فأعطاه ألف دينار ، وشرح جمل الزجاجى ، وكان يتنقل فى البلاد ولايسكن إلا فى الخانات ، ولم يتزوج ولا تسرى ، وقد تغير عقله فى آخر عمره ؛ فكان يمشى فى الأسواق مكشوف الرأس توفى عن خمس وثمانين سنة .

Marfat.com

Marfat.com

البلد تلك الليلة ضبطا جيدا بحيث إن الناس فى البلد لم يزالوا مترددين لم يعدم من أحد مقدار الحبة الفرد واستقر الملك لولده وقام بدر الدين بتدبير الدولة والنظر فى مصالحها .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى شهر ربيع الآخر درس القاضى أبوزكريا بن القاسم بن المفرج قاضى تكريت بالمدرسة النظامية ببغداد استدعى من تكريت اليها . وفيها نقصت دجلة بالعراق نقصا كثيرا حتى كان يجرى الماء ببغداد فى نحو خمسة أذرع وأمر الخليفة أن يكرى دجلة فجمع الخلق الكثير وكانوا كلما حفروا شيئا عاد الرمل وغطاه وكان الناس يخوضون دجلة فوق بغداد وهذا لم يعهد مثله وحج بالناس هذه السنة علاء الدين محمد ولد الأمير مجاهدالدين ياقوت أمير الحاج وكان قد ولاه الخليفة خوزستان وجعله هو أمير الحاج وجعل معه من يدبر الحاج لأنه كان صبيا . وفيها فى العشرين من ربيع الآخر توفى ضياء الدين أحمد عبد الوهاب بن على بن عبدالله الأمير البغدادى ببغداد وهو سبط صدر الدين اسماعيل شيخ الشيوخ وعمره سبع وثمانون سنة وشهور . وكان صوفيا فقيها محدثا سمعنا معه الكثير رحمه الله . وكان من عباد الله الصالحين كثير العبادة والصلاح . وفيها توفى شيخنا أبوحفص عمر بن محمد بن المعمر بن طبرزد البغدادى وكان عالى الإسناد[1]

﴿ثم دخلت سنة ثمان وستمائة﴾

﴿ذكر استيلاء منكلى على بلاد الجبل وأصفهان وغيرها وهرب أيتغمش﴾ فى هذه السنة فى شعبان قدم أيتغمش صاحب همذان وأصفهان والرى وما بينهما من البلاد إلى بغداد هاربا من منكلى وسبب ذلك أن أيتغمش كان قد تمكن فى البلاد وعظم شأنه وانتشر صيته وكثر عسكره حتى أنه حصر صاحبه أبا بكر بن البهلوان صاحب هذه البلاد أذربيجان وأران كما ذكرناه فلما كان الآن خرج عليه مملوك اسمه منكلى ونازعه فى البلاد وكثر أتباعه وأطاعه المماليك البهلوانية فاستولى عليها وهرب منه شمس الدين أيتغمش الى بغداد فلما وصل إليها أمر الخليفة بالاحتفال به فى اللقاء . فخرج الناس كافة وكان يوم وصوله مشهودا ؛ ثم قدمت زوجته فى رمضان فى محمل فأكرمت وأنزلت عند زوجها وأقام ببغداد إلى سنة عشر وستمائة فسارعنها فكان من أمره مانذكره

﴿ذكر نهب الحاج بمنى﴾ وفى هذه السنة نهب الحاج بمنى وسبب ذلك أن باطنيا وثب على بعض أهل الأمير قتادة صاحب مكة فقتله بمنى ظنا منه أنه قتادة فلما سمع قتادة ذلك جمع الأشراف والعرب والعبيد وأهل مكة وقصدوا الحاج ونزلوا عليهم من الجبل ورموه بالحجارة والنبل وغير ذلك وكان أمير الحاج ولد الأمير ياقوت المقدم ذكره وهو صبى لايعرف كيف يفعل فخاف وتحير وتمكن أمير مكة من نهب الحاج فنهبوا منهم من كان فى الأطراف وأقاموا على حالهم إلى الليل فاضطرب الحاج وباتوا بأسوأ حال من شدة الخوف من القتل والنهب فتنال بعض الناس لأمير الحاج لينتقل بالحجاج إلى منزلة حجاج الشام فأمر بالرحيل فرفعوا أثقالهم على الجمال واشتغل الناس بذلك فطمع العدو فيهم وتمكن من النهب والتحق من سلم بحجاج الشام فاجتمعوا بهم ثم رحلوا

---

(١) وفيها توفى ابن سكينة عبدالوهاب بن على ضياء الدين المعروف بابن سكينة الصوفى ، كان يعد من الأبدال سمع الحديث الكثير وأسمعه ببلاد شتى ، ولد فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وكان صاحبا لأبى الفرج بن الجوزى ملازماً لمجلسه وكان يوم جنازته يوما مشهودا لكثرة الخلق ولكثرة ما كان فيه من الخاصة والعامة رحمه الله .

إلى الزاهر ومنعوا من دخول مكة ثم آذن لهم فى ذلك فدخلوها وتمموا حجتهم وعادوا ثم أرسل قتادة ولده وجماعة من أصحابه إلى بغداد فدخلوها ومعهم السيوف مسلولة والأكفان فقبلوا العتبة واعتذروا مما جرى على الحجاج .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة أظهر الإسماعيلية ومقودهم جلال الدين بن فلان بن حسن بن الصباح الانتقال عن فعل المحرمات واستحلالها وأمر بإقامة الصلوات وشرائع الإسلام ببلادهم من خراسان والشام وأرسل مقدمهم رسلا إلى الخليفة وغيره من ملوك الإسلام يخبرهم بذلك وأرسل والدته إلى الحج فأكرمت ببغداد إكراما عظيما وكذلك بطريق مكة . وفيها سلخ جمادى الآخرة توفى أبو حامد محمد بن يونس بن ميعة الفقيه الشافعى بمدينة الموصل وكان إماما فاضلا إليه انتهت رياسة الشافعية لم يكن فى زمانه مثله وكان حسن الأخلاق كثير التجاوز عن الفقهاء والإحسان إليهم رحمه الله . وفيها فى شهر ربيع الأول توفى القاضى أبو الفضائل على بن يوسف بن أحمد بن الآمدى الواسطى قاضيها وكان نعم الرجل . وفيها فى شعبان توفى المعين أبو الفتوح عبدالواحد بن أحمد بن على الأمين شيخ الشيوخ ببغداد وكان موته بجزيرة كاس مضى إليها رسولا من الخليفة وكان من أصدقائنا وبيننا وبينه مودة متأكدة وصحبة كثيرة وكان من عباد الله الصالحين رحمه الله ورضى عنه وله كتابة حسنة وشعر جيد وكان عالما بالفقه وغيره ولما توفى رتب أخوه زين الدين عبدالرزاق بن أبى أحمد وكان ناظرا على المارستان العضدى فتركه واقتصر على الرباط . وفيها فى ذى الحجة توفى محمد بن يوسف بن محمد بن عبيدالله النيسابورى الكاتب الحسن الخط وكان يؤدى طريقة ابن البواب وكان فقيها حاسبا متكلما وفيها توفى عمر بن مسعود أبى العز أبو القاسم البزار البغدادى بها وكان من الصالحين يجتمع إليه الفقراء كثيرا ويحسن إليهم وتوفى أيضا أبو سعيد الحسن بن محمد بن الحسن بن حمدون الثعلبى العدوى وهو ولد مصنف التذكرة وكان عالما . (١)

﴿ ثم دخلت سنة تسع وستمائة ﴾

﴿ ذكر قدوم ابن منكلى بغداد ﴾ فى هذه السنة فى المحرم قدم محمد بن منكلى المستولى على بلاد الجبل إلى بغداد وسبب ذلك أن أباه منكلى لما استولى على بلاد الجبل وهرب أينغمش صاحبها منها إلى بغداد خاف أن يساعده الخليفة ويرسل معه العساكر فيعظم الأمر عليه لأنه لم يكن قد تمكن فى البلاد فأرسل ولده محمدا ومعه جماعة من العسكر فخرج الناس ببغداد على طبقاتهم يلتقونه وأنزل وأكرم وبقى ببغداد إلى أن قتل أينغمش

---

(١) وفيها توفى أيضا الشيخ عماد الدين محمد بن يونس الفقيه الشافعى الموصلى صاحب التصانيف والفنون الكثيرة ، كان رئيس الشافعية بالموصل ، وبعث رسولا إلى بغداد بعد موت نورالدين أرسلان ، وكان عنده وسوسة كثيرة فى الطهارة ، وكان يعامل فى الأموال بمسألة العينة كما قيل تصفون البعوض من شرابكم وتستر بطون الجمال بأحمالها ، ولو عكس الأمر لكان خيراً له ، فلقيه يوما قضيب البان الموكه فقال له : ياشيخ بلغنى عنك أنك تغسل العضو من أعضائك بابريق من الماء فلم لاتغسل اللقمة التى تأكلها لتستنظف قلبك وباطنك ؟ ففهم الشيخ ما أراد فترك ذلك . توفى بالموصل فى رجب عن ثلاث وسبعين سنة . وفيها توفى الشيخ الكبير المعمر الرحلة أبو القاسم أبو بكر أبو الفتح منصور بن عبد المنعم بن عبدالله بن محمد بن الفضل الفراوى النيسابورى ، سمع أباه وجد أبيه وغيرهما ، وعنه ابن الصلاح وغيره ، توفى بنيسابور فى شعبان فى هذه السنة عن خمس وثمانين سنة .

Marfat.com

فخلع عليه وعلى من معه وأكرموا وسيرهم إلى أبيه .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة قبض الملك العادل أبو بكر بن أيوب صاحب مصر والشام على أمير اسمه أسامة كان له أقطاع كثيرة من جملتها حصن كوكب من أعمال الأردن بالشام وأخذ منه حصن كوكب وخربه وعفى أثره ومن بعده بنى حصنا بالقرب منه على جبل يسمى الطور وهو معروف هناك وشحنه بالرجال والذخائر والسلاح . وفيها توفى الفقيه محمد بن إسماعيل بن أبى الصيف اليمنى فقيه الحرم الشريف بمكة[1]

﴿ ثم دخلت سنة عشر وستمائة ﴾

﴿ ذكر قتل أيتغمش ﴾ فى هذه السنة فى المحرم قتل أيتغمش الذى كان صاحب همذان وقد ذكرنا سنة ثمان أنه قدم إلى بغداد وأقام بها فأنعم عليه الخليفة وشرفه بالخلع وأعطاه الكوسات وما يحتاج إليه وسيره إلى همذان فسار فى جمادى الآخرة عن بغداد قاصدا إلى همذان فوصل إلى بلاد ابن ترجم واجتمعا وأقام ينتظر وصول عساكر بغداد إليه ليسير معه على قاعدة استقرت بينهم ، وكان الخليفة قد عزل سليمان بن ترجم عن الإمارة على عشيرته من التركمان الإيوانية وولى أخاه الأصغر فأرسل سليمان إلى منكلى يعرفه بحال أيتغمش ومضى هو على وجهه فأخذوه فقتلوه ، وحملوا رأسه إلى منكلى ، وتفرق من معه من أصحابه فى البلاد لا يلوى أخ على أخيه ووصل الخبر بقتله إلى بغداد فعظم على الخليفة ذلك وأرسل إلى منكلى ينكر عليه مافعل فأجاب جوابا شديدا وتمكن من البلاد وقوى أمره وكثرت جموعه وعساكره وكان من أمره ماذكره إن شاء الله

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ حج بالناس فى هذه السنة أبو فراس بن جعفر بن فراس الحلى نيابة عن أمير الحاج ابن ياقوت ومنع ابن ياقوت عن الحج لما جرى للحاج فى ولايته وفيها فى المحرم توفى الحكيم المهذب على ابن أحمد بن مقبل الطبيب المشهور كان أعلم أهل زمانه بالطب روى الحديث وكان مقيما بالموصل وبها مات وكان كثير الصدقة حسن الأخلاق وله تصنيف حسن فى الطب . وفيها توفى اسماعيل بن على البغدادى الفقيه الحنبلى صاحب ابن المنى ، وفيها توفى أيضا أحمد بن مسعود التركستانى الفقيه الحنفى ببغداد وهو مدرس مشهد أبى حنيفة . وفيها فى جمادى الأولى توفى معز الدين أبو المعانى سعد بن على المعروف بابن حديد الذى كان وزير الخليفة الناصر لدين الله ، وكان قد ألزم بيته ، ولما توفى حمل تابوته إلى مشهد أمير المؤمنين على عليه السلام ، بالكوفة وكان حسن السيرة فى وزارته كثير الخير والنفع للناس[2]

---

(١) وفيها توفى أبو الفتح محمد بن سعد بن محمد الدباجى من أهل مرو ، له كتاب المحصل فى شرح المفصل للزمخشرى فى النحو . كان ثقة عالما سمع الحديث توفى فيها عن ثنتين وتسعين سنة . وفيها توفى أيضا الشيخ الصالح الزاهد العابد أبو البقاء محمود بن عثمان بن مكارم النعالى الحنبلى ، كان له عبادات ومجاهدات وسياحات ، وبنى رباطا بباب الأزج يأوى إليه أهل العلم من المقادسة وغيرهم ، وكان يؤثرهم ويحسن إليهم ، وقد سمع الحديث وقرأ القرآن ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . توفى وقد جاوز الثمانين (٢) وفيها توفى الجزولى صاحب المقدمة المسماة بالقانون وهو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولى - بطن من البربر - ثم البردكيى النحوى المصرى ، مصنف المقدمة المشهورة البديعة ، شرحها هو وتلامذته ، وكلهم يعترفون بتقصيرهم عن فهم مراده فى أماكن كثيرة منها ، قدم مصر وأخذ عن ابن برى ، ثم عاد إلى بلاده وولى خطابة مراكش ، توفى فى هذه السنة وقيل قبلها فالله أعلم .

Marfat.com

﴿ثم دخلت سنة إحدى عشر وستمائة﴾

﴿ذكر ملك خوارزمشاه علاء الدين كرمان ومكران والسند﴾ هذه الحادثة لا أعلم الحقيقة أى سنة كانت إنما هى إما هذه السنة أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل لأن الذى أخبر بها كان من أجناد الموصل وسافر إلى تلك البلاد وأقام بها عدة سنين وسار مع الأمير أبى بكر الذى فتح كرمان ثم عاد فأخبرنى بها على شك من وقتها وقد حضرها فقال خوارزمشاه محمد بن تكش كان من جملة أمراء أبيه أمير اسمه أبو بكر ولقبه تاج الدين وكان فى ابتداء أمره جمالا يكرى الجمال فى الأسفار ثم جاءته السعادة فاتصل بخوارزمشاه وصار سيروان جماله فرأى منه جلدا وأمانة فقدمه إلى أن صار من أعيان أمراء عسكره فولاه مدينة زوزن وكان عاقلا ذا رأى وحزم وشجاعة فتقدم عند خوارزمشاه تقدما كثيرا فوثق به أكثر من جميع أمراء دولته فقال أبو بكر لخوارزمشاه إن بلاد كرمان مجاورة لبلدى فلو أضاف السلطان إلى عسكرا لملكتها فى أسرع وقت فسير معه عسكرا كثيرا فمضى إلى كرمان وصاحبها اسمه حرب بن محمد بن أبى الفضل الذى كان صاحب سجستان أيام السلطان سنجر فقاتله فلم يكن له به قوة وضعف فملك أبو بكر بلاده فى أسرع وقت وسار منها إلى نواحى مكران فملكها كلها إلى السند من حدود كابل وسار إلى هرمز مدينة على ساحل بحر مكران فأطاعه صاحبها واسمه ملك وخطب بها لخوارزمشاه وحمل عنها مالا وخطب له بقلهات وبعض عمان لأن أصحابها كانوا يطيعون صاحب هرمز وسبب طاعتهم له مع بعد الشقة والبحر يقطع بينهم أنهم يتقربون إليه بالطاعة ليأمن أصحاب المراكب التى تسير إليهم عنده فإن هرمز مرسى عظيم ومجمع للتجار من أقاصى الهند والصين واليمن وغيرها من البلاد وكان بين صاحب هرمز وبين صاحب كيش حروب وغارات وكل منهما ينهى أصحاب المراكب أن ترسى ببلد خصمه وهم كذلك إلى الآن وكان خوارزمشاه يصيف بنواحى سمرقند لأجل التتر أصحاب كشلى خان لئلا يقصد بلاده وكان سريع السير إذا قصد جهة سبق خبره.

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة قتل مؤيد الملك الشحرى وكان قد وزر لشهاب الدين الغورى ولتاج الدين الدز بعده وكان حسن السيرة جميل الاعتقاد محسنا إلى العلماء وأهل الخير يزورهم ويبرهم ويحضر الجمعة ماشيا وكان سبب قتله أن بعض عسكر الدز كرهوه وكان كل سنة يتقدم إلى البلاد الحارة بين يدى الدز أول الشتاء فسار هذه كعادته فجاء أربعون نفرا أتراكا قالوا له السلطان يقول لك تحضر جريدة فى عشرة نفر لمهم تجدد فسار معهم جريدة فى عشرة مماليك فلما وصلوا إلى نهوند بالقرب من ماء السند قتلوه وهربوا ثم إنهم ظفر بهم خوارزمشاه محمد فقتلهم. وفيها فى رجب توفى الركن أبو منصور عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلى البغدادى ببغداد وكان قد ولى عدة ولايات وكان يتهم بمذهب الفلاسفة حتى أنه رأى أبوه يوما عليه قميصا بخاريا فقال ما هذا القميص فقال بخارى فقال أبوه هذا عجب ما زلنا نسمع مسلم والبخارى وأما كافر والبخارى ما سمعنا وأخذت كتبه قبل موته بعدة سنين وأظهرت فى ملأ من الناس ورؤى فيها من تبخير النجوم ومخاطبة زحل بالإلهيه وغير ذلك من الكفريات ثم أحرقت بباب العامة وحبس ثم أفرج عنه بشفاعة أبيه واستعمل بعد ذلك. وفيها أيضا توفى أبو العباس أحمد بن هبة الله بن العلاء المعروف بابن الزاهد ببغداد وكان عالما بالنحو واللغة. وفى شعبان منها توفى أبو المظفر محمد بن على بن ألبل اللورى الواعظ ودفن برباط على نهر عيسى ومولده سنة عشر وخمسمائة. وفى شوال منها توفى عبد العزيز بن محمود بن الأخضر وكان من فضلاء

Marfat.com

المحدثين وله سبع وثمانون سنة(١) .

﴿ثم دخلت سنة اثنتى عشر وستمائة﴾

﴿ ذكر قتل منكلى وولاية أغلمش ما كان بيده من الممالك ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الأولى انهزم منكلى صاحب همذان وأصفهان والرى وما بينهم من البلاد ومضى هاربا فقتل وسبب ذلك أنه كان قد ملك البلاد كما ذكرناه وقتل أيتغمش فأرسل إليه من الديوان الخليفى رسول ينكر ذلك عليه وكان أوحش الأمير أوزبك ابن البهلوان صاحب أذربيجان وهو صاحبه ومخدومه فأرسل الخليفة إليه يحرضه على منكلى ويعده النصرة وأرسل أيضا إلى جلال الدين الإسماعيلى صاحب قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم ألموت وغيرها يأمره بمساعدة أوزبك على قتال منكلى واستقرت القاعدة بينهم على أن يكون للخليفة بعض البلاد ولأوزبك بعضها ويعطى جلال الدين بعضها فلما استقرت القواعد على ذلك جهز الخليفة عسكرا كثيرا وجعل مقدمهم مملوكه مظفر الدين سنقر الملقب بوجه السبع وأرسل إلى مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك وهو إذ ذاك صاحب إربل وشهرزور وأعمالها يأمره أن يحضر بعساكره ويكون مقدم العساكر جميعها وإليه المرجع فى الحرب فحضر وحضر معه عسكر الموصل وديار الجزيرة وعسكر حلب فاجتمعت عساكر كثيرة وساروا إلى همذان فاجتمعت العساكر كلها فانزاح منكلى من بين أيديهم وتعلق بالجبال وتبعوه فنزلوا بسفح جبل هو فى أعلاه بالقرب من مدينة كرج وضاقت الميرة والأقوات على العسكر الخليفى جميعه ومن معهم فلو أقام منكلى بموضعه لم يمكنهم المقام عليه أكثر من عشرة أيام لكنه طمع فنزل ببعض عسكره من الجبل مقابل الأمير أوزبك فحملوا عليه فلم يثبت أوزبك ومضى منهزما فعاد أصحاب منكلى وصعدوا الجبل وعاد أوزبك إلى خيامه فطمع منكلى حينئذ ونزل من الغد فى جميع عسكره واصطفت العساكر للحرب واقتتلوا أشد قتال يكون فانهزم منكلى وصعد الجبل فلو أقام بمكانه لم يقدر أحد على الصعود إليه وكان قصاراهم العود عنه لكنه اتخذ الليل جملا وفارق موضعه ومضى منهزما فاتبعه نفر يسير من عسكره وفارقه الباقون وتفرقوا أيدى سبا واستولى عسكر الخليفة وأوزبك على البلاد فأعطى جلال الدين ملك الإسماعيلية من البلاد ما كان استقر له وأخذ الباقى أوزبك فسلمها إلى أغلمش مملوك أخيه وكان قد توجه إلى خوارزمشاه علاء الدين محمد وبقى عنده ثم عاد عنه وشهد الحرب وأبلى فيها فولاه أوزبك البلاد وعاد كل طائفة من العسكر إلى بلادهم وأما منكلى فإنه مضى منهزما إلى مدينة ساوة وبها شحنة هو صديق له فأرسل إليه يستأذنه فى الدخول إلى البلد فأذن له ودخل إليه وخرج فلقيه وقبل الأرض بين يديه وأدخله البلد وأنزله فى داره ثم أخذ سلاحه وأراد أن يقيده ويرسله إلى أغلمش فسأله أن يقتله هو ولا يرسله فقتله وأرسل رأسه إلى أوزبك وأرسله أوزبك إلى بغداد وكان يوم دخولها يوما مشهودا إلا أنه لم تتم المسرة للخليفة بذلك فإنه وصل ومات ولده فى تلك الحال فأعيد ودفن .

﴿ ذكر وفاة ابن الخليفة ﴾ فى هذه السنة فى العشرين من ذى القعدة توفى ولد الخليفة وهو الأصغر وكان

---

(١) وفيها توفى إبراهيم بن على بن محمد بن بكروس الفقيه الحنبلى ، أفتى وناظر وعدل عند الحكام ، ثم انسلخ من هذا كله وصار شرطيا بباب النوى يضرب الناس ويؤذيهم غاية الأذى ، ثم بعد ذلك ضرب إلى أن مات وألقى فى دجلة وفرح الناس بموته ، وقد كان أبوه رجلا صالحا .

Marfat.com

يلقب الملك المعظم واسمه أبو الحسن على وكان أحب ولدى الخليفة إليه وقد رشحه لولاية العهد بعده وعزل ولده الأكبر عن ولاية العهد وأطرحه لأجل هذا الولد وكان رحمه الله كريما كثير الصدقة والمعروف حسن السيرة محبوبا إلى الخاص والعام وكان سبب موته أنه أصابه إسهال فتوفى وحزن عليه الخليفة حزنا لم يسمع بمثله حتى إنه أرسل إلى أصحاب الأطراف ينهاهم عن إنفاذ رسول إليه يعزيه بولده ولم يقرأ كتابا ولا سمع رسالة وانقطع وخلا بهمومه وأحزانه ورؤى عليه من الحزن والجزع مالم يسمع بمثله ولما توفى أخرج نهارا ومشى جميع الناس بين يدى تابوته إلى تربة جدته عند قبر معروف الكرخى فدفن عندها ولما أدخل التابوت أغلقت الأبواب وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة فقيل إن ذلك صوت الخليفة وأما العامة ببغداد فإنهم وجدوا عليه وجدا شديدا ودامت المناحات عليه فى أقطار بغداد ليلا ونهارا ولم يبق ببغداد محلة إلا فيها النوح ولم تبق امرأة إلا وأظهرت الحزن وماسمع ببغداد مثل ذلك فى قديم الزمان وحديثه وكان موته وقت وصول رأس منكلى إلى بغداد فإن الموكب أمر بالخروج إلى لقاء الرأس فخرج الناس كافة فلما دخلوا بالرأس درب حبيب وقع الصوت بموت ابن الخليفة فأعيد الرأس وهذا دأب الدنيا لا يصفو أبدا فرحها من ترح وقد تخلص مصائبها من شائبة الترح .

﴿ذكر ملك خوارزمشاه غزنة وأعمالها﴾ فى هذه السنة فى شعبان ملك خوارزمشاه محمد بن تكش مدينة غزنة وأعمالها وسبب ذلك أن خوارزمشاه لما استولى على عامة خراسان وملك باميان وغيرها أرسل إلى تاج الدين صاحب غزنة وقد تقدمت أخباره حتى ملكها يطلب منه أن يخطب له ويضرب السكة باسمه ويرسل إليه فيلا واحداً ليصالحه وبيده غزنة ولا يعارضه فيها فأحضر الأمراء وأعيان دولته واستشارهم وكان فيهم أكبر أمير اسمه قتلغ تكين وهو من مماليك شهاب الدين الغورى أيضا واليه الحكم فى دولة الدز وهو النائب عنه بغزنة فقال الرأى أن تخطب له وتعطيه ما طلب وتستريح من الحرب والقتال وليس لنا بهذا السلطان قوة فقال الجماعة مثل قوله فأجاب إلى ما طلب منه وخطب لخوارزمشاه وضرب السكة باسمه وأرسل إليه رسولا وأعاد رسوله اليه ومضى إلى الصيد فأرسل قتلغ تكين من غزنة إلى خوارزمشاه يطلبه ليسلم إليه غزنة فسار مجدا وسبق خبره فسلم إليه قتلغ تكين غزنة وقلعتها فلما دخل إليها قتل من بها من عسكر الغورية لا سيما الأتراك فوصل الخبر إلى الدز بذلك فقال ما فعل قتلغ تكين وكيف ملك القلعة مع وجوده فيها فقيل هو الذى أحضره وسلم إليه فمضى هاربا هو ومن معه إلى لهاوور وأقام خوارزمشاه بغزنة فلما تمكن منها أحضر قتلغ تكين فقال له كيف حالك مع الدز وكان عالما به وإنما أراد أن تكون له الحجة عليه فقال كلانا مماليك شهاب الدين ولم يكن الدز يقيم بغزنة إلا أربعة أشهر الصيف وأنا الحاكم فيها والمرجع إلىّ فى كل الأمور فقال له خوارزمشاه إذا كنت لاترعى لرفيقك ومن أحسن إليك صحبته وإحسانه فكيف يكون حالى أنا معك وما الذى تصنع مع ولدى إذا تركته عندك فقبض عليه وأخذ منه أموالا جمة حملها ثلاثون دابة من أصناف الأموال والأمتعة وأحضر أربعمائة مملوك فلما أخذ ماله قتله وترك ولده جلال الدين بغزنة مع جماعة من عسكره وأمرائه وقيل إن ملك خوارزمشاه غزنة كان سنة ثلاث عشرة وستمائة

﴿ذكر استيلاء الدز على لهاوور وقتله﴾ لما هرب الدز من غزنة إلى لهاوور لقيه صاحبها ناصر الدين قباجة وهو من مماليك شهاب الدين الغورى أيضا وله من البلاد لهاوور وملتان وأوجه وديبل وغير ذلك إلى

ساحل البحر ومعه نحو خمسة عشر ألف فارس وكان قد بقى مع الدز نحو ألف وخمسمائة فارس فوقع بينهما مصاف واقتتلوا فانهزمت ميمنة الدز وميسرته وأخذت الفيلة التى معه ولم يبق له غير فيلين معه فى القلب فقال الفيال إذا أخاطر بسعادتك وأمر أحد الفيلين أن يحمل على العلم الذى لقباجة يأخذه وأمر الفيل الآخر الذى له أيضا أن يأخذ الجتر الذى له فأخذه أيضا والفيلة المعلمة تفهم مايقال لها هذا رأيناه فحمل الفيلان وحمل معهما الدزفيمن بقى عنده من العسكر وكشف رأسه وقال بالعجمية ما معناه إما ملك وإما هلك واختلط الناس بعضهم ببعض وفعل الفيلان ما أمرهما الفيال من أخذ العلم والجتر فانهزم قباجة وعسكره وملك الدز مدينة لهاوور ثم سار إلى بلاد الهند ليملك مدينة دهلة وغيرها مما بيد المسلمين وكان صاحب دهلة أمير اسمه الترمش ولقبه شمس الدين وهو من مماليك قطب الدين أيبك مملوك شهاب الدين أيضا كان قد ملك الهند بعد سيده فلما سمع به الترمش سار اليه فى عساكره كلها فلقيه عند مدينة سمانا فاقتتلوا فانهزم الدز وعسكره وأخذ وقتل وكان الدز محمود السيرة فى ولايته كثير العدل والإحسان إلى الرعية لا سيما التجار والغرباء ومن محاسن أعماله أنه كان له أولاد ولهم معلم يعلمهم فضرب المعلم أحدهم فمات فأحضره الدز وقال له يامسكين ما حملك على هذا فقال والله ما أردت إلا تأديبه فاتفق أن مات فقال صدقت وأعطاه نفقة وقال له تغيب فإن أمه لا تقدر على الصبر فربما أهلكتك ولا أقدر أمنع عنك فلما سمعت أم الصبى بموته طلبت الأستاذ لتقتله فلم تجده فسلم وكان هذا من أحسن ما يحكى عن أحد من الناس .

(ذكر عدة حوادث) فى هذه السنة توفى الوجيه المبارك بن أبى الأزهر سعيد بن الدهان الواسطى النحوى الضرير كان نحويرا فاضلا قرأ على الكمال بن الأنبارى وعلى غيره وكان حنبليا فصار حنفيا ثم صار شافعيا فقال فيه أبو البركات بن زيد التكريتى :

ألا مبلغا عنى الوجيه رسالة ٭ وإن كان لا تجدى لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ٭ وفارقته إذ أعوزتك المآكل
وما اخترت رأى الشافعى تدينا ٭ ولكنما تهوى الذى هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر ٭ إلى مالك فابطن لما أنا قائل[1]

---

(١) قالوا وكان الوجيه لايغضب قط ، فتراهن جماعة مع واحد أنه إن أغضبه كان له كذا وكذا ، فجاء إليه فسأله عن مسألة فى العربية فأجابه فيها بالجواب . فقال له السائل : أخطأت أيها الشيخ . فأعاد عليه الجواب بعبارة أخرى ، فقال : كذبت وما أراك إلا قد نسيت النحو ، فقال الوجيه : أيها الرجل فلعلك لم تفهم ما أقول لك ، فقال بلى ولكنك تخطئ فى الجواب ، فقال له بقل أنت ماعندك لنستفيد منك ، فأغاظ له السائل فى القول فتبسم ضاحكا وقال له : إن كنت راهنت فقد غلبت ، وإنما مثلك مثل البعوضة - يعنى الناموسة - سقطت على ظهر الفيل ، فلما أرادت أن تطير قالت له استمسك فانى أحب أن أطير ، فقال لها الفيل : ما أحسست بك حين سقطت ، فما أحتاج أن أستمسك إذا طرت ، كانت وفاته رحمه الله فى شعبان منها ودفن بالوردية . وفيها توفى أبو محمد عبد العزيز بن أبى المعالى بن غنيمة المعروف بابن منينا ، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة وسمع الكثير وأسمعه ، توفى فى ذى الحجة منها عن سبع وتسعين سنة . وفيها توفى الشيخ الفقيه كمال الدين مودود بن الشاغورى الشافعى كان يقرئ بالجامع الأموى الفقه وشرح التنبيه للطلبة ، ويأتى عليهم حتى يفهموا احتسابا تجاه المقصورة . ودفن بمقابر باب الصغير شمالى قبور الشهداء وعلى قبره شعر ذكره أبو شامة والله سبحانه أعلم .

Marfat.com

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث عشر وستمائة ﴾

﴿ ذكر وفاة الملك الظاهر ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الآخر توفى الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف ابن أيوب وهو صاحب مدينة حلب ومنبج وغيرهما من بلاد الشام وكان مرضه إسهالا وكان شديد السيرة ضابطا لأموره كلها كثير الجمع للأموال من غير جهاتها المعتادة عظيم العقوبة على الذنب لا يرى الصفح وله مقصد يقصده كثير من أهل البيوتات من أطراف البلاد والشعراء وأهل الدين وغيرهم فيكرمهم ويجرى عليهم الجارى الحسن ولما اشتدت علته عهد بالملك بعده لولد له صغير اسمه محمد ولقبه الملك العزيز غياث الدين عمره ثلاث سنين وعدل عن ولد كبير لأن الصغير كانت أمه ابنة عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب مصر ودمشق وغيرهما من البلاد فعهد بالملك له ليبقى عمه البلاد عليه ولا ينازعه فيها ومن أعجب ما يحكى أن الملك الظاهر قبل مرضه أرسل رسولا إلى عمه العادل بمصر يطلب منه أن يحلف لولده الصغير فقال العادل سبحان الله أى حاجة إلى هذه اليمين الملك الظاهر مثل بعض أولادى فقال الرسول وقد طلب هذا واختاره ولا بد من إجابته إليه ، فقال العادل كم من كبش فى المرعى وخروف عند القصاب ، وحلف فاتفق فى تلك الأيام ، أن توفى الملك الظاهر ، والرسول فى الطريق ، ولما عهد الظاهر إلى ولده بالملك ، جعل أتابكه ومربيه خادما روميا اسمه طغربل ، ولقبه شهاب الدين ، وهو من خيار عباد الله ، كثير الصدقة والمعروف ولما توفى الظاهر أحسن هذا شهاب الدين السيرة فى الناس وعدل فيهم ، وأزال كثيرا من السنن الجارية وأعاد أملاكا كانت قد أخذت من أربابها وقام بتربية الطفل أحسن قيام وحفظ بلاده واستقامت الأمور بحسن سيرته وعدله وملك ما كان يتعذر على الظاهر ملكه فمن ذلك تل باشر كان الملك الظاهر لا يقدر أن يتعرض إليه فلما توفى ملكها كيكاوس ملك الروم كما نذكره إن شاء الله تعالى انتقلت إلى شهاب الدين وما أقبح بالملوك وأبناء الملوك أن يكون الرجل الغريب المنفرد أحسن سيرة وأعف من أموال الرعية وأقرب إلى الخير منهم ولا أعلم اليوم فى ولاة أمور المسلمين أحسن سيرة منه فالله يبقيه ويدفع عنه فلقد بلغنى عنه كل حسن وجميل .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة فى المحرم وقع بالبصرة برد كثير وهو مع كثرته عظيم القدر قيل كان أصغره مثل النارنجة الكبيرة وقيل فى أكبره ما يستحى الإنسان أن يذكره فكسر كثيرا من رؤس النخيل وفى المحرم أيضا سير الخليفة الناصر لدين الله ولدى ابنه المعظم على إلى تستروهما المؤيد والموفق وسار معهما مؤيد الدين النائب عن الوزارة وعز الدين الشرابى فأقاما بها يسيرا ثم عاد الموفق مع الوزير والشرابى إلى بغداد أواخر ربيع الآخر وفيها فى صفر هبت ببغداد ريح سوداء شديدة كثيرة الغبار والقتام وألقت رملا كثيرا وقلعت كثيرا من الشجر فخاف الناس وتضرعوا ودامت من العشاء الآخرة إلى ثلث الليل وانكشفت . وفيها توفى التاج زيد بن الحسن بن زيد الكندى أبو اليمن البغدادى المولد والمنشأ انتقل بالشام فأقام بدمشق وكان إماما فى النحو واللغة وله الإسناد العالى فى الحديث وكان ذا فنون كثيرة من أنواع العلوم رحمه الله .

﴿ ثم دخلت سنة أربع عشر وستمائة ﴾

﴿ ذكر ملك خوارزم شاه بلد الجبل ﴾ فى هذه السنة سار خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش إلى بلاد

Marfat.com

الجبل فملكها وكان سبب حركته فى هذا الوقت أشياء أحدها أنه كان قد استولى على ماوراء النهر وظفر بالخطا وعظم أمره وعلا شأنه وأطاعه القريب والبعيد ومنها أنه كان يهوى أن يخطب له ببغداد ويلقب بالسلطان وكان الأمر بالصد لأنه كان لا يجد من ديوان الخلافة قبولا وكان سبيله إذا ورد إلى بغداد أن يقدم غيره عليه ولعل فى عسكره مائة مثل الذى يقدم سبيله عليه فكان إذا سمع ذلك يغضبه ومنها أن أغلمش لما ملك بلاد الجبل خطب له فيها جميعها كما ذكرناه فلما قتله الباطنيه غضب له وخرج لئلا تخرج البلاد عن طاعته فسار بجدا فى عساكر تطبق الأرض فوصل إلى الرى فملكها وكان أتابك سعد بن دكلا صاحب بلاد فارس لما بلغه مقتل أغلمش جمع عساكره وسار نحو بلاد الجبل طمعا فى ملكها لخلوها عن حام ومانع فوصل إلى أصفهان فأطاعه أهلها وسار منها يريد الرى ولم يعلم بقدوم خوارزمشاه فلقيه مقدمة خوارزمشاه فظنها عساكر تلك الديار قد اجتمعت لقتاله ومنعه عن البلاد فقاتلهم وجد فى محاربتهم حتى كاد يهزمهم فبينما هو كذلك وإذ هو قد ظهر له جتر خوارزمشاه فسأل عنه فأخبر به فاستسلم وانهزمت عساكره وأخذ أسيرا وحمل إلى بين يدى خوارزمشاه فأكرمه ووعده الإحسان والجميل وأمنه على نفسه وأستحلفه على طاعته واستقرت القاعدة بينهما على أن يسلم بعض البلاد إليه ويبقى بعضها وأطلقه وسير معه جيشا إلى بلاد فارس ليسلم إليهم ما استقرت القاعدة عليه فلما قدم على ولده الأكبر رآه قد تغلب على بلاد فارس فامتنع من التسليم إلى أبيه ثم إنه ملك البلاد كما نذكره وخطب فيها لخوارزمشاه وسار خوارزمشاه إلى ساوة فملكها وأقطعها العماد الملك عارض جيشه وهو من أهلها ثم سار إلى قزوين وزنجان وابهر فملكها كلها بغير مانع ولا مدافع ثم سار إلى همذان فملكها وأقطع البلاد لأصحابه وملك أصفهان وكذلك قم وقاشان واستوعب ملك جميع البلاد واستقرت القاعدة بينه وبين أوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران بأن يخطب له أوزبك فى بلاده ويدخل فى طاعته ثم إنه عزم على المسير إلى بغداد فقدم بين يديه أميرا كبيرا فى خمسة عشر ألف فارس وأقطعه حلوان فسار حتى وصل إليها ثم أتبعه بأمير آخر فلما سار عن همذان يومين أو ثلاثة سقط عليهم من الثلج مالم يسمع بمثله فهلكت دوابهم ومات كثير منهم وطمع فيمن بقى بنو ترجم الأتراك وبنو هكار الأكراد فتخطفوهم ولم يرجع منهم إلى خوارزمشاه إلا اليسير فتطير خوارزمشاه من ذلك الطريق وعزم على العود إلى خراسان خوفا من النتر لأنه ظن أنه يقضى حاجته ويفرغ من إرادته فى المدة اليسيرة فخاب ظنه ورأى البيكار بين يديه طويلا فعزم على العود فولى همذان أميرا من أقاربه من جهة والدته يقال له طائيسى وجعل فى البلاد جميعها ابنه ركن الدين وجعل معه متوليا لأمر دولته عماد الملك الساوى وكان عظيم القدر عنده وكان يحرص على قصد العراق وعاد خوارزمشاه إلى خراسان فوصل إلى مرو فى المحرم سنة خمس عشرة وستمائة وسار من وجهه إلى ماوراء النهر ولما قدم إلى نيسابور جلس يوم الجمعة عند المنبر وأمر الخطيب بترك الخطبه للخليفه الناصر لدين الله وقال إنه قد مات وكان ذلك فى ذى القعدة سنة أربع عشرة وستمائة ولما قدم مرو قطع الخطبة بها وكذلك ببلخ وبخارا وسرخس وبقى خوارزم وسمرقند وهراة لم تقطع الخطبة فيها إلا عن قصد لتركها لأن البلاد كانت لا تعارض من أشباه هذا إن أحبوا خطبوا وإن أرادوا قطعوا فبقيت كذلك إلى أن كان منه ما كان وهذه من جملة سعادات هذا البيت الشريف العباسى لم يقصده أحد بأذى الا لفيه فعله وخبث نيته لا جرم لم يمهل هذا خوارزمشاه حتى جرى له ماذكره مما لم يسمع بمثله فى الدنيا قديما ولا حديثا .

Marfat.com

Marfat.com

﴿ذكر ماجرى لأتابك سعد مع أولاده﴾ لما قتل أغلمش صاحب بلاد الجبل همذان وأصفهان وما بينهما من البلاد جمع أتابك سعد بن دكلا صاحب فارس عساكره وسار عن بلاه إلى أصفهان فملكها وأطاعه أهلها فطمع تلك البلاد جميعها فسار عن أصفهان إلى الرى فلما وصل إليها لقى عساكر خوارزمشاه قدوصلت كما ذكرناه فعزم على محاربة مقدمة العسكر فقاتلها حتى كاد يهزمها فظهرت عساكر خوارزم شاه ورأى الجتر فسقط فى يده وألقى نفسه، وضعفت قوته وقوة عسكره، فولوا الأدبار، وأخذ أتابك سعد أسيرا وأحضر بين يدى خوارزمشاه فأكرمه وطيب نفسه ووعده الإحسان واستصحبه معه إلى أن وصل إلى أصفهان فسيره منها إلى بلاده وهى تجاورها وسير معه عسكرا مع أمير كبير ليتسلم منه ما كان استقر بينهما فإنهما اتفقا على أن يكون لخوارزمشاه بعض البلاد ولأتابك سعد بعضها وتكون الخطبة لخوارزمشاه فى البلاد جميعها ؛ وكان أتابك سعد قد استخلف ابنا له على البلاد، فلما سمع الابن بأسر أبيه خطب لنفسه بالملكة وقطع خطبة أبيه، فلما وصل أبوه ومعه عسكر خوارزمشاه، امتنع الابن من تسليم البلاد إلى أبيه وجمع العساكر وخرج يقاتله فلما تراءى الجمعان، انحازت عساكر فارس إلى صاحبهم أتابك سعد، وتركوا ابنه فى خصاصته، فحمل على أبيه فلما رآه أبوه ظن أنه لم يعرفه، فقال له : أنا فلان، فقال إياك أردت، فحينئذ امتنع منه، وولى الابن منهزما ووصل أتابك سعد إلى البلاد فدخلها مالكا لها وأخذ ابنه أسيرا فسجنه إلى الآن إلا أننى سمعت الآن وهو سنة عشرين وستمائة أنه قد خفف حبسه ووسع عليه، ولما عاد خوارزم شاه إلى خراسان غدر سعد بالأمير الذى عنده فقتله ورفع عن طاعة خوارزم شاه واشتغل خوارزم شاه بالحادثة العظمى التى شغلته عن هذا وغيره، لكن الله انتقم له بابنه غياث الدين كما ذكرناه سنة عشرين وستمائة لأن سعدا كفر إحسان خوارزم شاه وكفر الإحسان عظيم العقوبة

﴿ذكر ظهور الفرنج إلى الشام ومسيرهم إلى ديار مصر وملكهم مدينة دمياط وعودها إلى المسلمين﴾

كان من أول هذه الحادثة إلى آخرها أربع سنين غير شهر وإنما ذكرناها ههنا لأن ظهورهم كان فيها وسقناها سياقة متتابعة لينلو بعضها بعضا فنقول فى هذه السنة وصلت إمداد الفرنج فى البحر من رومية الكبرى وغيرها من بلاد الفرنج فى الغرب والشمال إلا أن المتولى لها كان صاحب رومية لأنه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة لا يرون مخالفته أمره ولا العدول عن حكمه فيما سرهم وساءهم فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدمى الفرنج وأمر غيره عن ملوك الفرنج أن يسير بنفسه أو يرسل جيشا ففعلوا ما أمرهم فاجتمعوا بعكا من ساحل الشام وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب بمصر فسار منها إلى الشام فوصل إلى الرملة ومنها إلى لدو برز الفرنج من عكا ليقصدوه فسار العادل نحوهم فوصل إلى نابلس عازما على أن يسبقهم إلى أطراف البلاد مما يلى عكا ليحميها منهم فساروا هم فسبقوه فنزل على بيسان من الأردن فتقدم الفرنج إليه فى شعبان عازمين على محاربته لعلمهم أنه فى قلة من العسكر لأن العساكر كانت متفرقة فى البلاد فلما رأى العادل قربهم منه لم ير أن يلقاهم فى الطائفة التى معه خوفا من هزيمة تكون عليه وكان حازما كثير الحذر ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل إلى البلاد ويجمع العساكر فوصل إلى مرج الصفر فنزل فيه، وكان أهل بيسان وتلك الأعمال لما رأوا الملك العادل عندهم اطمأنوا ولم يفارقوا بلادهم ظناً منهم أن الفرنج لا يقدمون عليه فلما أقدموا صار على غفلة من الناس فلم يقدر على النجاة إلا القليل فأخذ الفرنج كل ما فى بيسان من ذخائر قد جمعت وكانت كثيرة وغنموا

شيئا كثيرا ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس وبثوا السرايا فى القرى فوصلت إلى خسفين ونوى وأطراف السواد ونازلوا بانياس وأقاموا عليها ثلاثة أيام ثم عادوا عنها إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبى والأسرى مالا يحصى كثرة ، سوى ماقتلوا وأحرقوا وأهلكوا فأقاموا أياما استراحوا ثم جاؤا إلى صور وقصدوا بلد الشقيف ونزلوا بينهم وبين بانياس مقدار فرسخين فنهبوا البلاد صيدا والشقيف وعادوا إلى عكا وكان هذا من نصف رمضان إلى العيد والذى سلم من تلك البلاد كان مختفيا حتى قدر على النجاة ولقد بلغنى أن العادل لما سار إلى مرج الصفر رأى فى طريقه رجلا يحمل شيئا وهو يمشى تارة وتارة يقعد ليستريح فعدل العادل إليه وحده فقال له ياشيخ لا تعجل ، وارفق بنفسك ، فعرفه الرجل ، فقال ياسلطان المسلمين أنت لا تعجل فإنا إذا رأيناك قد سرت إلى بلادك وتركتنا مع الأعداء كيف لا نعجل ، وبالجملة الذى فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق من العساكر ولما نزل العادل على مرج الصفر سير ولده الملك المعظم عيسى وهو صاحب دمشق فى قطعة صالحة من الجيش إلى نابلس ليمنع الفرنج عن البيت المقدس .

(ذكر حصر الفرنج قلعة الطور وتخريبها) لما نزل الفرنج بمرج عكا تجهزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور وهى قلعة منيعة على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها عن قريب فتقدموا إليها وحصروها وزحفوا إليها وصعدوا فى جبلها حتى وصلوا إلى سورها وكادوا يملكونه فاتفق أن بعض المسلمين ممن فيها قتل بعض ملوكهم فعادوا عن القلعة فتركوها وقصدوا عكا وكان مدة مقامهم على الطور سبعة عشر يوما ، ولما فارقوا الطور أقاموا قريبا ثم ساروا فى البحر إلى ديار مصر على ماذكره إن شاء الله تعالى فتوجه الملك المعظم إلى قلعة الطور فخربها إلى أن ألحقها بالأرض لأنها بالقرب من عكا ، ويتعذر حفظها .

(ذكر حصر الفرنج دمياط إلى أن ملكوها) لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة خمس عشرة وستمائة فساروا فى البحر إلى دمياط فوصلوا فى صفر فأرسلوا إلى بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل فإن بعض النيل يصب فى البحر المالح عند دمياط وقد بنى فى النيل برج كبير منيع وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظ ومدوها فى النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أن تصعد فى النيل إلى ديار مصر ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصى ديار مصر وأدانيها فلما نزل الفرنج على بر الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل بنوا عليهم سورا وجعلوا خندقا يمنعهم ممن يريدهم وشرعوا فى قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرمات وأبراجا يزحفون بها فى المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه وكان البرج مشحونا بالرجال وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده إلى دمياط ليمنع العدو من العبور إلى أرضها ، وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه فلم يظفروا منه بشىء وكسرت مرماتهم وآلاتهم ومع هذا فهم ملازمون لقتاله فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه ثم بعد ذلك ملكوا البرج فلما ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح فى النيل ويتحكموا فى البر فنصب الملك عوض السلاسل جسرا عظيما امتنعوا به من سلوك النيل ثم إنهم قاتلوا عليه أيضا قتالا شديدا كثيرا متوالا حتى قطعوه فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها فى النيل فمنعت المراكب

Marfat.com

من سلوكه فلما رأى الفرنج ذلك قصدوا خليجا هناك يعرف بالازرق كان النيل يجرى عليه قديما فحفروا ذلك الخليج وعمقوه فوق المراكب التى جعلت فى النيل وأجروا الماء فيه إلى البحر المالح وأصعدوا مراكبهم فيه إلى موضع يقال له بورة على أرض الجيزة أيضا مقابل المنزلة التى فيها الملك الكامل ليقاتلوه من هناك فإنهم لم يكن لهم إليه طريق يقاتلونه فيها كانت دمياط تحجز بينهم وبينه ، فلما صاروا فى بورة حاذوه فقاتلوه فى الماء وزحفوا إليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شىء لأن الميرة والأمداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فهم ممتنعون لا يصل إليهم أذى وأبوابها مفتحة وليس عليها من الحصر ضيق ولا ضرر فاتفق لما يريد الله عز وجل أن الملك العادل توفى فى جمادى الآخرة من سنة خمس عشر وستمائة على ماذكره إن شاء الله فضعفت نفوس الناس لأنه السلطان حقيقة وأولاده وإن كانوا ملوكا إلا أنهم بحكمه والأمر إليه وهو ملكهم البلاد فاتفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدو وكان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له عمادالدين أحمد بن على ويعرف بابن المشطوب ؛ وهو من الأكراد الهكارية ، وهو أكبر أمير بمصر ؛ وله لفيف كثير وجميع الأمراء ينقادون إليه ويطيعونه ، لاسيما الأكراد ، فاتفق هذا الأمير مع غيره من الأمراء ، وأرادوا أن يخلعوا الملك الكامل من الملك ، ويملكوا أخاه الملك ، الفائز بن العادل ، ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد فبلغ الخبر إلى الكامل ففارق المنزلة ليلا جريدة وسار إلى قرية يقال لها شمون طناح فنزل عندها وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم فركب كل إنسان منهم هواه ولم يقف الأخ على أخيه ولم يقدروا على أخذ شىء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم إلا اليسير الذى يخف حمله وتركوا الباقى بحاله من ميرة وسلاح ودواب وخيام وغير ذلك ولحقوا بالكامل وأما الفرنج فإنهم أصبحوا من الغد فلم يروا من المسلمين أحدا على شاطىء النيل كجارى عادتهم فبقوا لا يدرون ما الخبر وإذا قد أتاهم من أخبرهم الخبر على حقيقته فعبروا حينئذ النيل إلى بر دمياط آمنين بغير منازع ولا ممانع وكان عبورهم فى العشرين من ذى القعدة سنة خمس عشرة وستمائة فغنموا ما فى عسكر المسلمين فكان عظيما يعجز العادين وكان الملك الكامل قد فارق الديار المصرية لأنه لم يثق بأحد من عسكره وكان الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا شمة فاتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين ان الملك المعظم عيسى بن الملك العادل وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بومين والناس فى أمر مريج فقوى به قلبه واشتد ظهره وثبت جنانه وأقام بمنزلته وأخرجوا ابن المشطوب إلى الشام فاتصل بالملك الأشرف وصار من جنده فلما عبر الفرنج إلى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وأفسدوا وبالغوا فى الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج وكان أضر شىء على أهل دمياط أنها لم يكن بها من العسكر أحد لأن السلطان ومن معه من العساكر كانوا عندها يمنعون العدو عنها فأتتهم هذه الحركة بغتة فلم يدخلها أحد من العسكر وكان ذلك من فعل ابن المشطوب لاجرم لم يمهله الله وأخذه أخذة رابية على ماذكره إن شاء الله وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوها برا وبحرا وعملوا عليهم خندقا منعهم ممن يريدهم من المسلمين وهذه كانت عادتهم وأداموا القتال واشتد الأمر على أهلها وتعذرت عليهم الأقوات وغيرها وسئموا القتال وملازمته لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم وليس بدمياط من الكثرة ما يحملون القتال بينهم مناوبة ومع هذا فصبروا صبرا لم يسمع بمثله وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض ودام الحصار عليهم إلى السابع والعشرين من شعبان سنة ست عشرة وستمائة فعجز من

بقى من أهلها عن الحفظ لقلتهم وتعذر القوت عندهم فسلموا البلد إلى الفرنج فى هذا التاريخ بالأمان فخرج منهم قوة وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرقوا أيدى سبا .

(ذكر ملك المسلمين دمياط من الفرنج) لما ملك الفرنج دمياط أقاموا بها وبثوا سراياهم فى كل ماجاورهم من البلاد ينهبون ويقتلون لجلى أهله عنها وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى أنها بقيت لاترام وأما الملك الكامل فانه أقام بالقرب منهم فى أطراف بلاده يحميها ولما سمع الفرنج فى بلادهم بفتح دمياط على أعجابهم أقبلوا يهرعون من كل فج عميق وأصبحت دار هجرتهم وعاد الملك المعظم صاحب دمشق إلى الشام فخرب البيت المقدس فى ذى القعدة من السنة وإنما فعل ذلك لأن الناس كافة خافوا الفرنج وأشرف الإسلام وكافة أهله وبلاده على خطء خسف فى شرق الأرض وغربها أقبل التتر من المشرق حتى وصلوا إلى نواحى العراق وأذربيجان وأران وغيرها على ماتذكره إن شاء الله تعالى وأقبل الفرنج من المغرب فملكوا مثل دمياط فى الديار المصرية مع عدم الحصون المانعة بها من الأعداء وأشرف سائر البلاد بمصر والشام على وصاروا يتوقعون البلاء صباحا ومساء وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفا من العدو ولات حين مناص والعدو قد أحاط بهم من كل جانب ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها وإنما منعوا منه فثبتوا وتابع الملك الكامل كتبه إلى أخويه المعظم صاحب دمشق والملك الأشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرهما يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما فإن لم يمكن فيرسلان العساكر إليه فسار صاحب دمشق إلى الأشرف بنفسه فرآه مشغولا عن إنجاده بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه وزوال الطاعة عن كثير ممن كان يطيعه ونحن نذكر ذلك سنة خمس عشرة وستمائة إن شاء الله عند وفاة الملك القاهر صاحب الموصل فليطلب من هناك فذكره وعاد عنه وبقى الأمر كذلك مع الفرنج فأمر الملك الأشرف فزال الخلف من بلاده ورجع الملوك الخارجون عن طاعته إليه واستقامت له الأمور إلى سنة ثمان عشرة وستمائة والملك الكامل مقابل الفرنج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة لم يزوال المانع الأشرف عن أنجاده ، فأرسل يستنجده وأخاه صاحب دمشق فسار صاحب دمشق يحثه على المسير ففعل وسار إلى دمشق فيمن معه من العساكر والعود إلى بلاده خوفا من اختلاف يحدث فلم يقبل قولهم وقال قد خرجت للجهاد ولابد من إتمام ذلك العزم فسار إلى مصر وكان الفرنج قد ساروا عن دمياط الفارس والراجل وقصدوا الملك الكامل ونزلوا مقابله بينهما خليج من النيل يسمى بحر أشمون وهم يرمون بالمنجنيق والجرخ إلى عسكر المسلمين وقد تيقنوا هم وكل الناس أنهم يملكون الديار المصرية ، وأما الأشرف فإنه سار حتى وصل مصر فلما سمع أخوه الكامل بقربه منهم توجه إليه فلقيه واستبشر هو وكافة المسلمين باجتماعهما لعل الله يحدث بذلك نصرا وظفرا ، وأما الملك المعظم صاحب دمشق فإنه سار أيضا إلى ديار مصر وقصد دمياط ظنا منه أن أخويه وعسكريهما قد نازلوها وقيل بل أخبر فى الطريق أن الفرنج قد توجهوا إلى دمياط فسابقهم إليها ليلقاهم من بين أيديهم وأخواه من خلفهم والله أعلم . ولما اجتمع الأشرف بالكامل استقر الأمر بينهما على التقدم إلى خليج من النيل يعرف ببحر المحلة فتقدموا إليه فقاتلوا الفرنج وازدادوا قربا وتقدمت شوانى المسلمين من النيل وقاتلوا شوانى الفرنج فأخذوا منها ثلاث قطع بمن فيها من الرجال وما فيها من الأموال والسلاح ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم هذا يجرى والرسل مترددة بينهم فى تقرير قاعدة الصلح وبذل

Marfat.com

Marfat.com

المسلمون لهم تسليم البيت المقدس وعسقلان وطبرية ، وصيدا وجبلة واللاذقية ، وجميع مافتحه صلاح الدين ماعدا الكرك ليسلموا دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمروه بها فلم يتم بينهم أمر وقالوا لابد من الكرك فبينما الأمر فى هذا وهم يمنعون فاضطر المسلمون إلى قتالهم وكان الفرنج لاقتدارهم فى نفوسهم لم يستصحبوا معهم مايقوتهم عدة أيام ظناً منهم أن العساكر الإسلامية لاتقوم لهم وأن القرى والسواد جميعه يبقى بأيديهم يأخذون منه ما أرادوا من الميرة لأمر يريده الله تعالى بهم فعبر طائفة من المسلمين إلى الأرض التى عليها الفرنج ففجروا النيل فركب الماء أكثر تلك الأرض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشمون وعبرت العساكر عليها فملك الطريق الذى يسلكه الفرنج إن أرادوا العود إلى دمياط فلم يبق لهم خلاص واتفق فى تلك الحال أنه وصل إليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه فوقع عليها شوانى المسلمين وقاتلوهم فظفروا بالمرمة وبما معها من الحراقات وأخذوها فلما رأى الفرنج ذلك سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط فى أرض يجهلونها هذا وعساكر المسلمين محيطة بهم يرمونهم بالنشاب ويحملون على أطرافهم فلما اشتد الأمر على الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وأرادوا الزحف إلى المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود إلى دمياط فرأوا ما أملوه بعيدا وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم والوجه الذى يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون فلما تيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم وأن ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها وأن المنايا قد كشرت لهم عن أنيابها ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وضل عنهم شيطانهم فراسلوا الملك الكامل والأشرف يطلبون الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض فبينما المراسلات مترددة إذ أقبل جيش كبير لهم رهج شديد وجلبة عظيمة من جهة دمياط فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج فاستشعروا وإذ هو الملك المعظم صاحب دمشق قد وصل إليهم وكان قد جعل طريقه على دمياط لما ذكرناه فاشتدت ظهور المسلمين وازداد الفرنج خذلانا ووهنا وتمموا الصلح على تسليم دمياط واستقرت القاعدة والأيمان سابع رجب من سنة ثمان عشر وستمائة وانتقل ملوك الفرنج وكنودهم وقامصتهم إلى الملك الكامل والأشرف رهائن على تسليم دمياط ملك عكا ونائب بابا صاحب رومية وكندريش وغيرهم وعدتهم عشرون ملكا وراسلوا قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط فى تسليمها فلم يمتنع من بها وسلموها إلى المسلمين تاسع رجب المذكور وكان يوما مشهودا ومن العجب أن المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة فى البحر فلو سبقوا المسلمين إليها لامتنعوا من تسليمها ولكن سبقهم المسلمون ليقضى الله أمرا كان مفعولا ولم يبق بها من أهلها إلا آحاد وتفرقوا أيدى سبا بعضهم سار عنها باختياره وبعضهم مات وبعضهم أخذه الفرنج ولما دخلها المسلمون رأوها حصينة قد حصنها الفرنج تحصينا عظيما بحيث بقيت لا ترام ولا يوصل اليها وأعاد الله سبحانه وتعالى الحق إلى نصابه ورده إلى أربابه وأعطى المسلمين ظفرا لم يكن فى حسابهم فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التى أخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط فرزقهم الله إعادة دمياط وبقيت البلاد بأيديهم على حالها فالله المحمود المشكور على ما أنعم به على الإسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو وكفاهم شر التتر على ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

(ذكر عدة حوادث) فى هذه السنة فى المحرم كانت ببغداد فتنة بين أهل المأمونية وبين أهل باب الأزج

Marfat.com

بسبب قتل سبع وزاد الشر بينهم واقتتلوا فجرح بينهم كثير فحضر نائب الباب وكفهم عن ذلك فلم يقبلوا ذلك وأسمعوه ما يكره فأرسل من الديوان أمير من مماليك الخليفة فرد أهل كل محلة إلى محلتهم وسكنت الفتنة . وفيها كثر الفار ببلدة دجيل من أعمال بغداد فكان الإنسان لا يقدر أن يجلس إلا معه عصا يرد الفار عنه وكان يرى الكثير منه ظاهرا يتبع بعضه بعضا وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة لم يشاهد فى قديم الزمان مثلها وأشرفت بغداد على الغرق فركب الوزير وكافة الأمراء والأعيان وجمعوا الخلق العظيم من العامة وغيرهم لعمل القورج حول البلد وقلق الناس لذلك وانزعجوا وعاينوا الهلاك وأعدوا السفن لينجوا فيها وظهر الخليفة للناس وحثهم على العمل وكان مما قال لهم لو كان يفدى ما أرى بمال أو غيره لفعلت ولو دفع بحرب لفعلت ولكن أمر الله لا يرد ونبع الماء من البلاليع والآبار من الجانب الشرقى وغرق كثير منه وغرق مشهد أبى حنيفة وبعض الرصافة وجامع المهدى وقرية الملكية والكشك وانقطعت الصلاة بجامع السلطان وأما الجانب الغربى فتهدم أكثر القرية ونهر عيسى والشطيات وخربت البساتين ومشهد باب التين ومقبرة أحمد بن حنبل والحريم الظاهرى وبعض باب البصرة والدور التى على نهر عيسى وأكثر محلة قطفتا . وفيها توفى أحمد بن أبى الفضائل عبد المنعم ابن أبى البركات محمد بن طاهر بن سعيد بن فضل الله بن سعيد بن أبى الخير الميهنى الصوفى أبو الفضل شيخ رباط الخليفة ببغداد وكان صالحا من بيت التصوف والصلاح . (١)

﴿ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر وفاة الملك القاهر وولاية ابنه نور الدين وما كان من الفتن بسبب موته إلى أن استقرت الأمور﴾

فى هذه السنة توفى الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل ليلة الإثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الأول وكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهر وكان موته أنه أخذته حمى ثم فارقته الغد وبقى يومين موعوكا ثم عاودته الحمى مع قىء كثير وكرب شديد وقلق متتابع ثم برد بدنه وعرق وبقى كذلك إلى وسط الليل ثم توفى وكان كريما حليما قليل الطمع فى أموال الرعية كافا عن أذى يوصله إليهم مقبلا على لذاته كأنما ينهبها ويبادر بها الموت وكان عنده رقة شديدة ويكثر ذكر الموت ، حكى لى بعض من كان يلازمه قال كنا ليلة قبل وفاته بنصف شهر عنده فقال لى قد وجدت ضجرا من القعود فقم بنا نتمشى إلى الباب العمادى قال فقمنا فخرج من داره نحو الباب العمادى فوصل التربة التى عملها لنفسه عند داره فوقف عندها مفكرا لا يتكلم ثم قال لى والله ما نحن فى شىء أليس مصيرنا إلى ههنا وندفن تحت الأرض وأطال الحديث فى هذا ونحوه ثم عاد إلى الدار فقلت له ألا نمشى إلى الباب العمادى فقال ما بقى عندى

---

(١) وفيها توفى الأمير بدر الدين محمد بن أبى القاسم الهكارى بانى المدرسة التى بالقدس ، كان من خيار الأمراء وكان يتمنى الشهادة دائما فقتله الفرنج بحصن الطور ، ودفن بالقدس بتربة عاملها وهو يزار إلى الآن رحمه الله . وفيها توفى الشجاع محمود المعروف بابن الدماع كان من أصدقاء العادل يضحكه ، فحصل أموالا جزيلة منهم ، كانت داره داخل باب الفرج فجعلتها زوجته عائشة مدرسة للشافعية والحنفية ، ووقفت عليها أوقافا دارة . وفيها توفيت الشيخة الصالحة العابدة الزاهدة شيخة العالمات بدمشق ، تلقب بدهن اللوز ، بنت نورنجان ، وهى آخر بنانه وفاة وجعلت أموالها وقفا على تربة أختها بنت العصبة المشهورة .

Marfat.com

نشاط إلى هذا ولا إلى غيره ودخل داره وتوفى بعد أيام وأصيب أهل بلاده بموته وعظم عليهم فقده وكان محبوبا إليهم قريبا من قلوبهم ففى كل دار لأجله رنة وعويل ولما حضرته الوفاه أوصى بالملك لولده الأكبر نورالدين أرسلانشاه وعمره نحو عشر سنين وجعل الوصى عليه والمدبر لدولته بدرالدين لؤلؤ وهو الذى كان يتولى دولة القاهر ودولة أبيه نورالدين قبله وقد تقدم من أخباره مايعرف به محله وسيرد منها أيضا مايزيد الناظر بصيرة فيه فلما قضى نحبه قام بدر الدين بأمر نورالدين أجله فى مملكة أبيه وأرسل إلى الخليفة يطلب له التقليد والتشريف وأرسل إلى الملوك وأصحاب الأطراف المجاورين لهم يطلب تجديد العهد لنورالدين على القاعدة التى كانت بينهم وبين أبيه فلم يصبح إلا وقد فرغ من كل مايحتاج إليه وجلس للعزاء وحلف الجند والرعايا وضبط المملكة من التزلزل والتغير مع صغر السلطان وكثرة الطامعين فى الملك فإنه كان معه فى البلد أعمام أبيه وكان معه عمادالدين زنكى بن أرسلانشاه بولايته وهى قلعة عقرالحميدية يحدث نفسه بالملك لايشك فى أن الملك يصير إليه بعد أخيه فرفع بدر الدين دلك الخرق ورتق ذلك الفتق وتابع الإحسان والخلع على كافه الناس وغير ثياب الحدادعنهم ولم يخص بذلك شريفا دون مشروف ولا كبيرا دون صغير وأحسن السيرة وجلس لكشف ظلامات الناس وإنصاف بعضهم من بعض وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة لنور الدين بالولاية ولبدر الدين بالنظر فى أمر دولته والتشريفات لهما أيضا وأتتهم رسل الملوك بالتعزية وبذل ماطلب منهم من العهود واستقرت القواعد لهما .

(ذكر ملك عماد الدين زنكى قلاع الهكارية والزوزان) قد ذكرنا عند وفاة نور الدين سنة سبع وستمائة أنه أعطى ولده الأصغر زنكى قلعتى العقروشوش وهما بالقرب من الموصل فكان تارة يكون بالموصل وتارة بولايته متجنيا لكثرة تلونه وكان بقلعة العمادية مستحفظ من مماليك جده عز الدين مسعود بن مودود قيل إنه جرى له مع زنكى مراسلات فى معنى تسليم العمادية اليه فنمى الخبر بذلك إلى بدرالدين فبادره بالعزل مع أمير كبير وجماعة من الجند لم يمكنه الامتناع وسلم القلعة إلى نائب بدر الدين كذلك وجعل بدر الدين فى غير العمادية من القلاع نوابا له وكان نور الدين بن القاهر لا يزل مريضا من جروح كانت به وغيرها من الأمراض وكان يبقى المدة الطويلة لايركب ولا يظهر للناس فأرسل زنكى إلى من بالعمادية من الجند يقول إن ابن أخى توفى ويريد بدر الدين يملك البلاد وأنا أحق بملك آبائى وأجدادى فلم يزل حتى استدعاه الجند منها وسلموا اليه ثامن عشر رمضان سنة خمس عشرة وستمائة وقبضوا على النائب البدرى وعلى من معه فوصل الخبر إلى بدرالدين ليلا فجد فى الأمر ونادى فى العسكر لوقته بالرحيل فساروا مجدين إلى العمادية وحصروها وكان الزمان شتاء والبرد شديد والثلج هناك كثير فلم يتمكنوا من القتال من بها لكنهم أقاموا يحصرونها وقام مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين صاحب إربل فى نصر عماد الدين وتجرد لمساعدته فراسله بدر الدين يذكره الأيمان والعهود التى من جملتها أنه لايتعرض إلى شىء من أعمال الموصل ومنها قلاع الهكارية والزوزان باسمائها ومتى تعرض اليها أحد من الناس من كان منعه بنفسه وعساكره وأعان نور الدين وبدرالدين على منعه ويطالبه بالوفاء بها ثم نزل عن هذا ورضى منه بالسكوت لا لهم ولا عليهم فلم يفعل وأظهر معاضدة عماد الدين زنكى فحينئذ لم تكن مكاثرة زنكى بالرجال والعساكر لقرب هذا الخصم وأعمالها إلا أن العسكر البدرى محاصر للعمادية وبها زنكى ثم إن بعض الأمراء من عسكر الموصل ممن لاعلم له بالحرب وكان شجاعا وهو جديد الإمارة أراد أن يظهر

شجاعته ليزداد بها تقدما وأشار على من هناك من العسكر بالتقدم إلى العمادية ومباشرتها بالقتال وكانوا قد تأخروا عنها شيئا يسيرا لشدة البرد والثلج فلم يوافقوه وقبحوا رأيه فتركهم ورحل متقدما اليهم ليلا فاضطروا إلى اتباعه خوفا عليه من أذى يصيبه ومن معه فساروا اليه على غير تعبية لضيق المسلك ولأنه أعجلهم عن ذلك وحكم الثلج عليهم أيضا فسمع زنكى ومن معه فنزلوا ولقوا أوائل الناس وأهل مكة أخبر بشعابها فلم يثبتوا لهم وانهزموا وعادوا إلى منزلهم ولم يقف العسكر عليهم فاضطروا إلى العود فلما عادوا راسل زنكى باقى قلاع الهكارية والزوزان واستدعاهم إلى طاعته فأجابوه وسلموا اليه فجعل فيها الولاة وتسلمها وحكم فيها .

﴿ذكر اتفاق بدر الدين مع الملك الأشرف﴾ لما رأى بدر الدين خروج القلاع عن يده واتفاق مظفر الدين وعماد الدين عليه ولم ينفع معهم اللين ولا الشدة وأنهما لا يزالان يسعيان فى أخذ بلاده ويتعرضان إلى أطرافها بالنهب والأذى أرسل إلى الملك الأشرف موسى بن الملك العادل وهو صاحب ديار الجزيرة كلها إلا القليل وصاحب خلاط وبلادها يطلب منه الموافقة والمعاضدة وانتمى اليه وصار فى طاعته منخرطا فى سلك موافقته فأجابه الأشرف بالقبول والفرح به والاستبشار ، وبذل له المساعدة والمعاضدة والمحاربة دونه ، واستعادة ما أخذ من القلاع التى كانت له ، وكان الملك الأشرف حينئذ بحلب نازلا بظاهرها لما ذكرناه من تعرض كيكاوس ملك بلاد الروم التى بيد المسلمين قونية وغيرها إلى أعمالها وملكوا بعض قلاعها فأرسل إلى مظفر الدين يقبح هذه الحالة ويقول له إن هذه القاعدة تقررت بين جميعنا بحضور رسلك وأننا نكون على الناكث إلى أن يرجع إلى الحق ولا بد من إعادة ما أخذ من بلد الموصل لندوم على اليمين التى استقرت بيننا فإن امتنعت وأصررت على معاضدة زنكى ونصرته فأنا أجيء بنفسى وعساكرى وأقصد بلادك وغيرها واسترد ما أخذتموه وأعيده إلى أصحابه والمصلحة أنك توافق وتعود إلى الحق لنجعل شغلنا جمع العساكر وقصد الديار المصرية وإجلاء الفرنج عنها قبل أن يعظم خطبهم ويستطير شرهم فلم يحصل بالإجابة منه إلى شىء من ذلك وكان نصر الدين محمود صاحب الحصن وآمد قد امتنع عن موافقة الأشرف وقصد بعض بلاده ونهبها وكذلك صاحب ماردين واتفقا مع مظفر الدين ، فلما رأى الأشرف ذلك جهز عسكرا وسيره إلى نصيبين نجدة لبدر الدين إن احتاج إليهم

﴿ذكر انهزام عماد الدين زنكى من العسكر البدرى﴾ لما عاد العسكر البدرى من حصار العمادية وبها زنكى كما ذكرناه قويت نفسه وفارقها وعاد إلى قلعة العقر التى له ليتسلط على أعمال الموصل بالصحراء فإن بلد الجبل كان قد فرغ منه وأمده مظفر الدين بطائفة كثيرة من العسكر فلما اتصل الخبر بيدر الدين سير طائفة من عسكره إلى أطراف بلد الموصل يحمونها فأقاموا على أربعة فراسخ من الموصل ، ثم إنهم اتفقوا بينهم على المسير إلى زنكى وهو عند العقر فى عسكره ومحاربته ، ففعلوا ذلك ولم يأخذوا أمر بدر الدين بل أعلموه بمسيرهم جريدة ليس معهم إلا سلاحهم ودوابهم يقاتلون عليها فساروا ليلتهم وصبحوا زنكى بكرة الأحد لأربع بقين من المحرم من سنة ست عشرة وستمائة فالتقوا واقتتلوا تحت العقر وعظم الخطب فأنزل الله نصره على العسكر البدرى فانهزم عماد الدين وعسكره وسار إلى إربل منهزما وعاد العسكر البدرى إلى منزلته التى كان بها وحضرت الرسل من الخليفة الناصر لدين الله ومن الملك الأشرف فى تجديد الصلح فاصطلحوا وتحالفوا بحضرة الرسل .

﴿ذكر وفاة نور الدين صاحب الموصل وملك أخيه﴾ ولما تقرر الصلح توفى نور الدين أرسلان شاه بن الملك القاهر صاحب الموصل وكان لا يزال مريضا بعدة امراض فرتب بدر الدين فى الملك بعده أخاه ناصر الدين

Marfat.com

Marfat.com

وله من العمر نحو ثلاث سنين ولم يكن للقاهر ولد غيره وحاف له الجند وركبه فطابت نفوس الناس ، لأن نور الدين كان لا يقدر على الركوب لمرضه فلما ركبوا هذا علموا أن لهم سلطانا من البيت الأتابكى فاستقروا واطمأنوا وسكن كثير من الشغب بسببه .

(ذكر انهزام بدر الدين من مظفر الدين) لما توفى نور الدين وملك أخوه ناصر الدين تجدد لمظفر الدين ولعماد الدين طمع لصغر سن ناصر الدين فجمعا الرجال وتجهزا للحركة فظهر ذلك وقصد بعض أصحابهم طرف ولاية الموصل بالنهب والفساد ، وكان بدر الدين قد سير ولده الأكبر فى جمع صالح من العسكر ، إلى الملك الأشرف بحلب نجدة له بسبب اجتماع الفرنج بمصر ، وهو يريد أن يدخل بلاد الفرنج التى بساحل الشام ينهبها ويخربها ليعود بعض من بدمياط إلى بلادهم ، فيخف الأمر على الملك الكامل صاحب مصر ، فلما رأى بدر الدين تحرك مظفر الدين وعماد الدين وإن بعض عسكره بالشام أرسل إلى عسكر الملك الأشرف الذى بنصيبين يستدعيهم ليعتضد بهم وكان المقدم عليهم مملوك الأشرف اسمه أيبك فسار إلى الموصل رابع رجب سنة ست عشرة فلما رآهم بدر الدين استقلهم لأنهم كانوا أقل من العسكر الذى له بالشام أو مثلهم فألح أيبك على عبور دجلة وقصد بلاد إربل فمنعه بدر الدين من ذلك وأمره بالاستراحة فنزل بظاهر الموصل أياما وألح على عبور دجلة فعبرها بدر الدين موافقة له ونزلوا على فرسخين من الموصل شرقى دجلة فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره وسار إليهم ومعه زنكى فعبر الزاب وسبق خبره فسمع به بدر الدين فعبى أصحابه وجعل أيبك فى الجالشية ومعه شجعان أصحابه وأكثر معه منهم بحيث إنه لم يبق معه إلا اليسير وجعل فى ميسرته أميرا كبيرا وطلب الانتقال عنها إلى الميمنة فنقله فلما كان وقت العشاء الآخرة أعاد ذلك الأمير الطلب بالانتقال من الميمنة إلى الميسرة والخصم بالقرب منهم فمنعه بدر الدين وقال متى انتقلت أنت ومن معك فى هذا الليل ربما ظنه الناس هزيمة فلا يقف أحد فأقام بمكانه وهو فى جمع كبير من العسكر فلما انتصف الليل سار أيبك فأمره بدر الدين بالمقام إلى الصبح لقرب العدو منهم فلم يقبل لجهله بالحرب فاضطر الناس لاتباعه فتقطعوا فى الليل والظلمة والتقوا هم والخصم فى العشرين من رجب على ثلاثة فراسخ من الموصل فأما عز الدين فإنه تيامن والتحق بالميمنة وحمل فى اطلابه هو والميمنة على ميسرة مظفر الدين فهزمها وبها زنكى وكان الأمير الذى انتقل إلى الميمنة قد أبعد عنها فلم يقاتل فلما رأى أيبك قد هزم الميسرة تبعه وتقدم إليه مظفر الدين فيمن معه فى القلب لم يتفرقوا فلم يمكنه الوقوف فعاد إلى الموصل وعبر دجلة إلى القلعة ونزل منها إلى البلد فلما رآه الناس فرحوا به وساروا معه وقصد باب الجسر والعدو بإزائه بينهما دجلة فنزل مظفر الدين فيمن سلم معه من عسكره وزايل حصن نينوى فأقام ثلاثة أيام فلما رأى اجتماع العسكر البدرى بالموصل وأنهم لم يقفوا منهم إلا اليسيرة وبلغه الخبر إن بدر الدين يريد العبور إليه ليلا بالفارس والراجل على الجسور وفى السفن ويكبسه فرحل ليلا من غير أن يضرب كاسا أو بوقا وعادوا نحو إربل فلما عبروا الزاب نزلوا ثم جاءت الرسل وسعوا فى الصلح فاصطلحوا على أن كل من بيده شىء هو له وتقررت العهود والأيمان على ذلك .

(ذكر ملك عماد الدين قلعة كواشى وملك بدر الدين تل يعفر وملك الملك الأشرف سنجار) كواشى هذه من أحصن قلاع الموصل وأعلاها وأمنعها وكان الجند الذين بها لما رأوا ما فعل أهل العمادية وغيرها من التسليم إلى زنكى وأنهم قد تحكموا فى القلاع لا يقدر أحد على الحكم عليهم أحبوا أن يكونوا كذلك

Marfat.com

فأخرجوا نواب بدر الدين عنهم وامتنعوا بها وكانت رهائنهم بالموصل وهم يظهرون طاعة بدرالدين ويبطنون المخالفة فترددت الرسل فى عودهم إلى الطاعة فلم يفعلوا وراء ملوك زنكى فى المجىء اليهم وتسلم القلعة وأقام عندهم فروسل مظفر الدين يذكر بالإيمان القريبة العهد ويطلب منه إعادة كواشى فلم تقع الإجابة إلى حينئذ بدر الدين إلى الملك الأشرف وهو بحلب يستنجده فسار وعبر الفرات إلى حران واختلفت عليه الأمور من عدة جهات منعته من سرعة السير وسبب هذا كان الاختلاف أن مظفر الدين كان يراسل الملوك أصحاب الأطراف ليستميلهم ويحسن لهم الخروج على الأشرف ويخوفهم منه إذا خلى وجهه فأجابه إلى ذلك عزالدين كيكاوس كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الزوم وصاحب آمد وحصن كيفا وصاحب ماردين واتفقوا كلهم على طاعة كيكاوس وخطبوا له فى بلادهم ونحن نذكر ما كان بينه وبين الأشرف عند منبج لما قصد بلاد حلب فهو موغر الصدر عليه فاتفق أن كيكاوس مات فى ذلك الوقت وكفى الأشرف وبدر الدين شره ولا جدالا ما أقعص عنك الرجال وكان مظفرالدين قد راسل جماعة من الأمراء الذين مع الأشرف واستمالهم فأجابوه منهم أحمد بن علىبن المشطوب الذى ذكرنا أنه فعل على دمياط مافعل وهوأكبر أمير معه ووافقه غيره منهم عزالدين محمد بن بدر الحميدى وغيرهما وفارقوا الأشرف ونزلوا بدنيسر تحت ماردين ليجتمعوا مع صاحب آمد ويمنعوا الأشرف من العبور إلى الموصل لمساعدة بدر الدين فلما اجتمعوا هناك عاد صاحب آمد إلى موافقة الأشرف وفارقهم واستقر الصلح بينهما وسلم إليه الأشرف مدينة حانى وجبل جوز وضمن له أخذ دارا وتسليمها إليه فلما فارقهم صاحب آمد انحل أمرهم فاضطر بعض أولئك الأمراء إلى العود إلى طاعة الأشرف وبقى ابن المشطوب وحده فسار إلى نصيبين ليسير إلى إربل فخرج إليه شحنة نصيبين فيمن عنده من الجند فاقتتلوا فانهزم ابن المشطوب وتفرق من معه من الجمع ومضى منهزما فاجتاز بطرف بلد سنجارفسير إليه صاحبها فروخ شاه بن زنكى بن مودود بن زنكى عسكرا فهزموه وأخذوه أسيرا وحملوه إلى سنجار وكان صاحبها موافقا للأشرف وبدر الدين فلما صار عندهابن المشطوب حسن له مخالفة الأشرف فأجابه إلى ذلك وأطلقه فاجتمع معه من يريد الفساد فقصدوا البقعاء من أعمال الموصل ونهبوا فيها عدة قرى وعادوا إلى سنجار ثم ساروا وهو معهم إلى تل يعفر وهى لصاحب سنجار ليقصدوا بلد الموصل وينهبوا فى تلك الناحية فلما سمع بدر الدين بذلك سير إليه عسكرا فقاتلوهم فمضى منهزما وصعد إلى تل يعفر واحتمى بها منهم ونازلوه وحصره فيها فسار بدر الدين من الموصل اليه يوم الثلاثاء لتسع بقين من ربيع الأول سنة سبع عشرة وستمائة وجد فى حصره وزحف اليها مرة بعد أخرى فملكها سابع عشر ربيع الآخرة من هذه السنة وأخذ ابن المشطوب معه إلى الموصل فسجنه بها ثم أخذه منه الأشرف فسجن بحران إلى أن توفى فى ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستمائة ولقاه الله عقوبة ما صنع بالمسلمين بدمياط وأما الملك الأشرف فإنه لما أطاعه صاحب الحصن وآمد وتفرق الأمراء كما ذكرناه رحل من حران إلى دنيسر فنزل عليها واستولى على بلد ماردين وشحن عليه وأقطعه ومنع الميرة عن ماردين وحضر معه صاحب آمد وترددت الرسل بينه وبين صاحب ماردين فى الصلح فاصطلحوا على أن يأخذ الأشرف رأس العين وكان هو قد أقطعها لصاحب ماردين ويأخذ منه أيضا ثلاثين ألف دينار ويأخذ منه صاحب آمد الموزر من بلد شبختان فلما تم الصلح سار الأشرف من دنيسر إلى نصيبين يريد الموصل فبينما هو فى الطريق لقيه رسل صاحب سنجار يبذل تسليمها اليه ويطلب

Marfat.com

العوض عنها مدينة الرقة وكان السبب فى ذلك أخذ تل يعفر منه فانخلع قلبه وانضاف إلى ذلك أن ثقاته ونصحاءه خانوه وزادوه رعبا وخوفا لأنهم تهددوه فتغدوا به قبل أن يتعشى بهم ولأنه قطع رحمه وقتل أخاه الذى ملك سنجار بعد أبيه قتله كما نذكره إن شاء الله وملكها فلقاه الله سوء فعله ولم يمتعه بها فلما تيقن رحيل الأشرف تحير فى الأمر فأرسل فى التسليم اليه فأجابه الأشرف إلى العوض وسلم اليه الرقة وتسلم سنجار مستهل جمادى الأولى سنة سبع عشرة وستمائة وفارقها صاحبها وإخوته بأهليهم وأموالهم وكان هذا آخر ملوك البيت الأتابكى بسنجار فسبحان الحى الدائم الذى ليس لملكه آخر وكان مدة ملكهم لها أربعا وتسعين سنة وهذا دأب الدنيا بأبنائها فتعسا لها من دار ماأغدرها بأهلها .

﴿ ذكر وصول الأشرف إلى الموصل والصلح مع مظفر الدين ﴾ لما ملك الملك الأشرف سنجار سار يريد الموصل ليجتاز منها فقدم بين يديه عساكره فكان يصل كل يوم منهم جمع كثير ثم وصل هو فى آخرهم يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة وكان يوم وصوله مشهودا وأتاه رسل الخليفة ومظفر الدين فى الصلح وبذل تسليم القلاع المأخوذة جميعها إلى بدر الدين ماعدا قلعة العمادية فإنها تبقى بيد زنكى وأن المصلحة قبول هذا لنزول الفتن ويقع الاشتغال بجهاد الفرنج وطال الحديث فى ذلك نحو شهرين ثم رحل الأشرف يريد مظفر الدين صاحب إربل فوصل إلى قرية السلامية بالقرب من نهر الزاب وكان مظفر الدين نازلا عليه من جانب إربل فأعاد الرسل وكان العسكر قد طال بيكاره والناس قد ضجروا وناصر الدين صاحب آمد يميل بهواه إلى مظفر الدين فأشار بالإجابة إلى مابذل وأعانه عليه غيره فوقعت الإجابة إليه واصطلحوا على ذلك وجعل لتسليمها أجل وحمل زنكى إلى الملك الأشرف يكون عنده رهينة إلى حين تسليم القلاع وسلمت قلعة العقر وقلعة شوش أيضا وهما لزنكى إلى نواب الأشرف رهنا على تسليم مااستقر من القلاع فإذا سلمت أطلق زنكى وأعيد عليه قلعة العقر وقلعة شوش وحلفوا على هذا وسلم الأشرف إلى زنكى القلعتين وعاد إلى سنجار وكان رحيله عن الموصل ثانى شهر رمضان من سنة سبع عشرة وستمائة فأرسلوا إلى القلاع لتسلم إلى نواب بدر الدين فلم يسلم إليه غير قلعة جل صورا من أعمال الهكارية وأما باقى القلاع فإن جندها أظهروا الامتناع من ذلك ومضى الأجل ولم يسلم الأجل صورا ولزم عماد الدين زنكى لشهاب الدين غازى بن الملك العادل وخدمه وتقرب إليه فاستعطف له أخاه الملك الأشرف فمال إليه وأطلقه وأزال نوابه من قلعة العقر وشوش وسلمها إليه وبلغ بدر الدين عن الملك الأشرف ميل إلى قلعة تل يعفر وإنها كانت لسنجار من قديم الزمان وحديثه وطال الحديث فى ذلك فسلمها إليه بدر الدين .

﴿ ذكر عود قلاع الهكارية والزوزان إلى بدر الدين ﴾ لما ملك زنكى قلاع الهكارية والزوزان لم يفعل مع أهلها ماظنوه من الإحسان والإنعام بل فعل ضده وضيق عليهم وكان يبلغهم أفعال بدر الدين مع جنده ورعاياه وإحسانه إليهم وبذله الأموال لهم وكانوا يريدون العود إليه ويمنعهم الخوف منه لما أسلفوه من ذلك فلما كان الآن أعلنوا بما فعل معهم فأرسلوا إلى بدر الدين فى المحرم سنه ثمان عشرة وستمائة فى التسليم إليه وطلبوا منه اليمين والعفو عنهم وذكروا شيئا من أقطاع تكون لهم فأجابهم إلى ذلك وأرسل إلى الملك الأشرف يستأذنه فى ذلك فلم يأذن له وعاد زنكى من عند الأشرف فجمع جموعا وحصر قلعة العمادية فلم يبلغ منهم غرضا وأعادوا مراسلة بدر الدين التسليم إليه فكتب إلى الملك الأشرف فى المعنى وبذل له قلعة جديدة ونصيبين وولاية

بين الهرين ليأذن له فى أخذها فأذن له فأرسل إليها النواب وتسلموها وأحرز إلى أهلها ورحل زنكى عنها ووفى له بدر الدين بما بذله له فلما سمع جنديا فى القلاع بما فعلوا وما وصلهم من الإحسان والزيادة ورغبوا كلهم فى التسليم فسير إليهم النواب واتفقت كلمة أهلها على طاعته والانقياد إليه والعجب أن العساكر اجتمعت من الشام والجزيرة وديار بكر وخلاط وغيرها فى استعادة هذه القلاع فلم يقدروا على ذلك فلما تفرقوا حضر أهلها وسألوا أن تؤخذ منهم فعادت صفوا عفوا بغير منة ولقد أحسن من قال :

لاسهل إلا ماجعلت سهلا ٥ وإن تشأ تجعل بحزن وحلا

فتبارك الله الفعال لما يريد لامانع لما أعطى ولامعطى لما منع وهو على كل شىء قدير .

﴿ ذكر قصد كيكاوس ولاية حلب وطاعة صاحبها للأشرف وانهزام كيكاوس ﴾ فى هذه السنة سار عزالدين كيكاوس بن كيخسرو ملك الروم إلى ولاية حلب قصدا للتغلب عليها ومعه الأفضل بن صلاح الدين يوسف وسبب ذلك أنه كان بحلب رجلان فيهما شر كثير وسعاية بالناس فكانا ينقلان إلى صاحبها الملك الظاهر بن صلاح الدين عن رعيته فأوغروا صدره فلقى الناس منهما شدة فلما توفى الظاهر وولى الأمر شهاب الدين طغرل أبعدهما وغيرهما ممن يفعل فعلهما وسد هذا الباب على فاعله ولم يطرق إليه أحدا من أهله فلما رأى الرجلان كساد سوقهما لزما بيوتهما وثار بهما الناس وآذوهما وتهددوهما لما كانا أسلفاه من الشر فخافا فارقا حلب وقصدا كيكاوس فاطمعاه فيها وقررا فى نفسه أنه متى قصدها لايثبت بين يديه وأنه يملكها ويهون عليه ملك مابعدها فلما عزم على ذلك أشار عليه ذوو الرأى من أصحابه وقالوا له لايتم لك هذا إلا بأن يكون معك أحد من بيت أيوب ليسهل على أهل البلاد وجندها الانقياد إليه وهذا الأفضل بن صلاح الدين هو فى طاعتك والمصلحة أنك تستصحبه معك وتقرر بينكما قاعدة فيما تفتحانه من البلاد فمتى كان معك أطاعك الناس وسهل عليك ماتريد فأحضر الأفضل من سميساط إليه وأكرمه وحمل إليه شيئا كثيرا من الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك واستقرت القواعد بينهما أن يكون مايفتحه من حلب وأعمالها للأفضل وهو فى طاعة كيكاوس والخطبة له ذلك أجمع ثم يقصدون ديار الجزيرة فما يفتحونه مما بيد الملك الأشرف مثل حران والرها من البلاد الجزرية تكون لكيكاوس وجرت الأيمان على ذلك وجمعوا العساكر وساروا فملكوا قلعة رعبان فتسلمها الأفضل فمال الناس حينئذ إليهما ثم ساروا إلى قلعة تل باشر وفيها صاحبها ابن بدر الدين دلدرم إليارو قى فحصروه وضيقوا عليه وملكوها منه فأخذها كيكاوس لنفسه ولم يسلمها إلى الأفضل فاستشعر الأفضل من ذلك وقال هذا أول الغدر وخاف أنه إن ملك حلب يفعل به هكذا فلا يحصل إلا أن يكون قد قلع بيته لغيره ففترت نيته وأعرض عما كان يفعله وكذلك أيضا أهل البلاد فكانوا يظنون أن الأفضل يملكها فيسهل عليهم الأمر فلما رأوا ضد ذلك وقفوا وأما شهاب الدين أتابك ولد الظاهر صاحب حلب فإنه ملازم قلعة حلب لاينزل منها ولا يفارقها البتة وهذه كانت عادته مذمات الظاهر خوفا من ثائر يثور به فلما حدث هذا الأمر خاف أن يحصروه وربما سلم أهل البلد والجند المدينة إلى الأفضل لميلهم إليه فأرسل إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل صاحب الديار الجزرية وخلاط وغيرها يستدعيه لتكون طاعتهم له ويخطبون له ويجعل السكة باسمه ويأخذ من أعمال حلب ماختار ولأن ولد الظاهر هو ابن أخته فأجاب إلى ذلك وسار إليهم فى عساكره التى عنده وأرسل إلى الباقين يطلبهم إليه وسره ذلك للمصلحة العامة لجميعهم وأحضر إليه

Marfat.com

Marfat.com

العرب من طيء وغيرهم ونزل بظاهر حلب ، ولما أخذ كيكاوس تل باشر كان الأفضل يشير بمعاجلة حلب قبل اجتماع العساكر بها وقبل أن يحتاطوا ويتجهزوا فعاد عن ذلك وصار يقول الرأى أننا نقصد منبج وغيرها لئلا يبقى لهم وراء ظهورنا شيء قصدا للنمادى ومرور الزمان فى لاشيء فتوجهوا من تل باشر إلى جهة منبج وتقدم الأشرف نحوهم وسارت العرب فى مقدمته وكان طائفة من عسكر كيكاوس نحو ألف فارس قدسبقت مقدمته له ، فالتقوا هم والعرب ومن معهم من العسكر الأشرفى ، فاقتتلوا ، فانهزم عسكر كيكاوس ، وعادوا إليه منهزمين ، وأكثر العرب الأسر منهم ، والنهب لجودة خيلهم ، ودير خيل الروم ، فلما وصل إليه أصحابه منهزمين لم يثبت بل ولى على أعقابه يطوى المراحل إلى بلاده خائفا يترقب فلما وصل إلى أطرافها أقام وإنما فعل هذا لأنه صبي وغر لا معرفة له بالحرب وإلا فالعساكر مابرحت تقع مقدماتها بعضها على بعض فسار حينئذ الأشرف فملك رعبان وحصر تل باشر وبها جمع من عسكر كيكاوس فقاتلوه حتى غلبوا فأخذت القلعة منهم وأطلقهم الأشرف فلما وصلوا إلى كيكاوس جعلهم فى دار وأحرقها عليهم فهلكوا فعظم ذلك على الناس كافة واستقبحوه واستضعفوه لاجرم لم يمهله الله تعالى وعجل عقوبته للؤم قدرته وشدة عقوبته ولعدم الرحمة فى قلبه ومات عقيب هذه الحادثة وسلم الأشرف تل باشر وغيرها من بلد حلب إلى شهاب الدين أتابك صاحب حلب وكان عازما على اتباع كيكاوس ويدخل بلاده فأتاه الخبر بوفاء أبيه الملك العادل فاقتضت المصلحة العود إلى حلب لأن الفرنج بديار مصر ومثل ذلك السلطان العظيم إذا توفى ربما جرى خلل فى البلاد لاتعرف العاقبة فيه فعاد إليها وكنى كل منهما أذى صاحبه .

﴿ذكر وفاة الملك العادل وملك أولاده بعده﴾ توفى الملك العادل أبو بكر بن أيوب سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشر وستمائة ، وقد ذكرنا ابتداء دولتهم عند ملك عمه أسد الدين شيركوه ديار مصر سنة أربع وستين وخمسمائة ، ولما ملك أخوه صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر بعد عمه وسار إلى الشام استخلفه بمصر ثقة به واعتمادا عليه ، وعلما بما هو عليه من توفر العقل وحسن السيرة ، فلما توفى أخوه صلاح الدين ملك دمشق كما ذكرناه وبقى مالكا للبلاد إلى الآن ، فلما ظهر الفرنج كما ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة قصد هو مرج الصفر فلما سار الفرنج إلى ديار مصر انتقل هو إلى عالقين فأقام به ومرض وتوفى وحمل إلى دمشق فدفن بالتربة التى له وكان عاقلا ذا رأى سديد ومكر شديد وخديعة صبورا حليما ذا أناة يسمع ما يكره ويغض عليه حتى كأنه لم يسمعه كثير الحرج وقت الحاجة لا يقف فى شيء وإذا لم تكن حاجة فلا وكان عمره خمسا وسبعين سنة وشهورا لأن مولده كان فى المحرم من سنة أربعين وخمسمائة ؛ وملك دمشق فى شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة من الأفضل ابن أخيه وملك مصر فى ربيع الآخر من سنة ست وتسعين منه أيضا ومن أعجب مارأيت من منافاة الطوالع أنه لم يملك الأفضل مملكة قط إلا وأخذها منه عمه العادل فأول ذلك أن صلاح الدين أعطى ابنه الأفضل حران والرها وميافارقين سنة ست وثمانين بعد وفاة تقى الدين فسار إليها فلما وصل إلى حلب أرسل أبوه الملك العادل بعده فرده من حلب وأخذ هذه البلاد منه ثم ملك الأفضل بعد وفاة أبيه مدينة دمشق فأخذها منه ثم ملك مصر بعد وفاة أخيه الملك العزيز فأخذها أيضا منه ثم ملك صرخد فأخذها منه وأعجب من هذا أننى رأيت بالبيت المقدس سارية من الرخام ملقاة فى بيعة صهيون ليس يوجد مثلها فقال القس الذى بالبيعة هذه كان قد أخذها الملك الأفضل لينقلها إلى دمشق ثم إن العادل أخذها بعد ذلك من الأفضل طلبها منه فأخذها

وهذا غاية وهو من أعجب مايحكى وكان العادل قد قسم البلاد فى حياته بين أولاده فجعل بمصر الملك الكامل محمدا وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط وأعمالها لابنه الملك الأشرف موسى وأعطى الرها لولده شهاب الدين غازى وأعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه فلما توفى ثبت كل منهم فى المملكة التى أعطاه إياها أبوه واتفقوا اتفاقا حسنا لم يجر بينهم من الاختلاف ماجرت العادة أن يجرى بين أولاد الملوك بعد آبائهم بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق إلى الآخر بحيث يحضر عنده منفردا من عسكره ولايخافه فلاجرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الأمر والحكم مالم يره أبوهم ولعمرى أنهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الإسلام وفى نوبة دمياط كفاية وأما الملك الأشرف فليس للمال عنده محل بل يمطره مطرا كثيرا كعفته عن أموال الرعية دائم الإحسان لايسمع سعاية ساع .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى ذى القعدة رحل الملك الكامل بن العادل عن أرض دمياط لأنه بلغه أن جماعة من الأمراء قد اجتمعوا على تمليك أخيه الفائز عوضه لخافهم ففارق منزلته فانتقل الفرنج إليها وحصروا حينئذ دمياط برا وبحرا وتمكنوا من ذلك وقد تقدم مستقصى سنة أربع عشرة وستمائة . وفيها فى المحرم توفى شرف الدين محمد بن علوان بن مهاجر الفقيه الشافعى وكان مدرسا فى عدة مدارس بالموصل وكان صالحا كثير الخير والدين سليم القلب رحمه الله . وفيها توفى عزالدين نجاح الشرابى خاص الخليفة وقرب الناس إليه ، وكان الحاكم فى دولته كثير العدل والإحسان والمعروف والعصبية للناس وأما عقله وتدبيره فإليه كانت النهاية وبه يضرب المثل ، وفيها توفى على بن نصر بن هرون أبوالحسن الحلى النحوى الملقب بالحجة . قرأ على الخشاب وغيره[1] .

﴿ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة﴾

﴿ذكر وفاة كيكاوس وملك كيقباذ أخيه﴾ فى هذه السنة توفى الملك العالب عزالدين كيكاوس بن كيخسرو ابن قلج أرسلان صاحب قونية واقصرا وملطية ومابينهما من بلاد الروم وكان قد جمع عساكره وحشد وسار إلى ملطية على قصد بلاد الملك الأشرف لقاعدة استقرت بينه وبين ناصر الدين صاحب آمد ومظفر الدين صاحب إربل وكانوا قدخطبوا له وضربوا اسمه على السكة فى بلادهم واتفقوا على الملك الأشرف وبدرالدين بالموصل فسار كيكاوس إلى ملطية ليمنع الملك الاشرف عن المسير إلى الموصل نجدة لصاحبها بدرالدين لعل مظفرالدين يبلغ من الموصل غرضا وكان قد علق به السل ، فلما اشتد مرضه عاد عنها فتوفى وملك بعده أخوه كيقباذ وكان محبوسا قد حبسه أخوه كيكاوس لما أخذ البلاد وأشار عليه بعض أصحابه بقتله فلم يفعل ، فلما توفى لم يخلف

(١) وفيها توفى أبواليمن نجاح بن عبدالله الحبشى السودانى نجم الدين مولى الخليفة الناصر ، كان يسمى سلمان دار الخلافة ، وكان لا يفارق الخليفة ، فلما مات وجد عليه الخليفة وجدا كثيرا ، وكان يوم جنازته يوماً مشهودا ، كان بين يدى نعشه مائة بقرة وألف شاة وأحمال من التمر والخبز والماورد ، وقد صلى عليه الخليفة بنفسه تحت التاج ، وتصدق عنه بعشرة آلاف دينار على المشاهد ، ومثلها على المجاورين بالحرمين ، وأعتق مماليكه ووقف عنه خمسمائة مخلد . وفيها توفى أبو المظفر محمد بن علوان بن مهاجر بن الموصلى ، تفقه بالنظامية وسمع الحديث ، ثم عاد إلى الموصل فساد أهل زمانه بها ، وتقدم فى الفتوى والتدريس بمدرسة بدر الدين لؤلؤ وغيرها ، وكان صالحا دينا .

Marfat.com

Marfat.com

ولدا يصلح للملك لصغرهم فأخرج الجند كيقباذ وملكوه ومن بغى عليه لينصرنه الله وقيل بل أرسل كيكاوس لما اشتد مرضه فأحضره عنده من السجن ووصى له بالملك وحلف الناس له ، فلما ملك خالفه عمه صاحب أرزن الروم وخاف أيضا من الروم المجاورين لبلاده فأرسل إلى الملك الأشرف وصالحه وتعاهدا على المصافاة والتعاضد وتصاهرا وكفى الأشرف شر تلك الجهة وتفرغ باله لإصلاح مابين يديه ولقد صدق القائل (وجدك طعان بغير سنان) وهذا ثمرة حسن النية فإنه حسن النية لرعيته وأصحابه كافا عن أذى يتطرق إليهم منه غير قاصد إلى البلاد المجاورة لبلاده بأذى وملك مع ضعف أصحابها وقوته لاجرم تأتيه البلاد صفوا عفوا .

﴿ذكر موت صاحب سنجار وملك ابنه ثم قتل ابنه وملك أخيه﴾ وفى هذه السنة ثامن صفر توفى قطب الدين محمد بن زنكى بن مودود بن زنكى ، صاحب سنجار ، وكان كريما ، حسن السيرة فى رعيته ، حسن المعاملة مع التجار كثير الإحسان إليهم وأما أصحابه فكانوا معه فى أرغد عيش يعمهم بإحسانه ولا يخافون أداه وكان عاجزا عن حفظ بلده مسلما الأمور إلى نوابه ولما توفى ملك بعده ابنه عماد الدين شاهانشاه وركب الناس معه وبقى مالكا لسنجار عدة شهور وسار إلى تل أعفر وهى له فدخل عليه أخوه عمر بن محمد بن زنكى ومعه جماعة فقتلوه وملك أخوه عمر بعده فبقى كذلك إلى أن سلم سنجار إلى الملك الأشرف على ماذكره إن شاء الله تعالى ولم يمتع بملكه الذى قطع رحمه وأراق الدم الحرام لأجله ولما سلم سنجار أخذ عوضها الرقة ثم أخذت منه عن قريب وتوفى بعد أخذها منه بقليل وعدم روحه وشبابه وهذه عاقبة قطيعة الرحم فإن صلتها تزيد فى العمر وقطيعتها تهدم العمر .

﴿ذكر إجلاء بنى معروف عن البطائح وقتلهم﴾ فى هذه السنة فى ذى القعدة أمر الخليفة الناصر لدين الله الشريف معدا متولى بلاد واسط أن يسير إلى قتال بنى معروف فتجهز وجمع معه من الرحالة من تكريت وهيت والحديثة والأنبار والحلة والكوفة وواسط والبصرة وغيرها خلقا كثيرا وسار اليهم ومقدمهم حينئذ معلى بن معروف وهم قوم من ربيعة وكانت بيوتهم بغربى الفرات تحت سوراء وما يتصل بذلك من البطائح وكثر فسادهم وأذاهم لما يقاربهم من القرى وقطعوا الطريق وأفسدوا فى النواحى المقاربة لبطيحة الغراف فشكا أهل تلك البلاد الديوان منهم فأمر معدا أن يسير اليهم فى الجمع فسار اليهم فاستعد بنو معروف لقتاله فاقتتلوا بموضع يعرف بالمغير وهو تل كبير بالبطيحة بقرب الغراف وكثر القتل بينهم ثم انهزم بنو معروف وكثر القتل فيهم والأسر والغرق وأخذت أموالهم وحملت رؤس كثيرة من القتلى إلى بغداد فى ذى الحجة من السنة .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة فى المحرم انهزم عماد الدين زنكى من عسكر بدر الدين . وفيها فى العشرين من رجب انهزم بدر الدين من مظفر الدين صاحب إربل وعاد مظفر الدين إلى بلده وقد تقدم ذلك مستوفى فى سنة خمس عشرة وستمائة . وفيها فى السابع والعشرين من شعبان ملك الفرنج مدينة دمياط وقد ذكر سنة أربع عشرة مشروحا . وفيها توفى افتخار الدين عبد المطلب بن الفضل الهاشمى العباسى الفقيه الحنفى رئيس الحنفية بحلب روى الحديث عن عمر البسطامى نزيل بلخ وعن أبى سعد السمعانى وغيرهما . وفيها توفى أبو البقاء عبدالله بن الحسن بن عبدالله العكبرى الضرير النحوى . وفيها توفى أبو الحسن على بن أبى محمد القاسم بن على بن الحسن بن عبدالله الدمشقى الحافظ بن الحافظ المعروف بابن عساكر وكان قد قصد خراسان وسمع بها الحديث

Marfat.com

فأكثر وعاد إلى بغداد فوقع على القفل حرامية فجرح وبقى ببغداد وتوفى فى جمادى الأولى رحمه الله (١)

﴿ ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة ﴾

﴿ذكر خروج التتر إلى بلاد الإسلام﴾ لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم إليه رجلا وأوخر أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك فياليت أمى لم تلدنى وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا إلا أنى حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا فنقول هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا فإن التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولا مايدانيها . ومن أعظم مايذكرون من الحوادث مافعله بختنصر ببنى إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس وماالبيت المقدس بالنسبة إلى ماخرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس . وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا فان أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل ولعل الخلق لايرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج وأما الدجال فانه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فانا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح فان قوما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون ثم منها إلى بلاد ماوراء النهر مثل سمرقند وبخارا وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ماذكره ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها

---

(١) وفيها توفيت ست الشام واقفة المدرستين البرانية والجوانية الست الجليلة المصونة خاتون ست الشام بنت أيوب بن شادى ، أخت الملوك وعمة أولادهم ، وأم الملوك ، كان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون مشكا ، منهم شقيقها المعظم توران شاه بن أيوب صاحب اليمن ، وهو مدفون عندها فى القبر القبلى من الثلاثة ، وفى الأوسط منها زوجها وابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادى صاحب حمص ، وكانت قد تزوجته بعد أبى ابنها حسام الدين عمر بن لاجين ، وهى وابنها حسام الدين عمر فى القبر الثالث ، وهو الذى يلى مكان الدرس ، ويقال للتربة والمدرسة الحسامية نسبة إلى ابنها هذا حسام الدين عمر بن لاجين ، وكان من أكابر العلماء عند خاله صلاح الدين ، وكانت ست الشام من أكثر النساء صدقة وإحسانا إلى الفقراء والمحاويج ، وكانت تعمل فى كل سنة فى دارها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعقاقير وغير ذلك وتفرقه على الناس ، وكانت وفاتها يوم الجمعة آخر النهار السادس عشر من ذى القعدة من هذه السنة فى دارها التى جعلتها مدرسة ، وهى عند المارستان وهى الشاميه الجوانية ونقلت منها إلى تربتها بالشامية البرانية ، وكانت جنازتها حافلة رحمها الله .

وفيها توفى أبو عبد الله الحسين بن محمد بن أبى بكر المجلى الموصلى ، يعرف بابن الجهنى ، شاب فاضل ولى كتابة الإنشاء لبدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل ، ومن شعره :

نفسى فداء الذى فكرت فيه وقد * غدرت أغرق فى بحر من العجب
يبدو بليل على صبح على قمر * على قضيب على وهم على كثب

Marfat.com

ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا ثم يتجاوزونها إلى الرى وهمذان وبلد الجبل وما فيه من البلاد إلى حد العراق ثم بلاد أذربيجان وأرانية ويخربونها ويقتلون أكثر أهلها ولم ينج إلا الشريد النادر فى أقل من سنة هذا مالم يسمع بمثله ثم لما فرغوا من أذربيجان وأرانية ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه ولم يسلم غير القلعة التى بها ملكهم وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز ومن فى ذلك الصقع من الأمم المختلفة فأوسعوهم قتلا ونهبا وتخريبا ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم فهرب الباقون إلى الغياض ورؤس الجبال وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فعلوا هذا فى أسرع زمان لم يلبثوا إلا بمقدار مسيرهم لاغير ومضى طائفة أخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها ومايجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل فعل هؤلاء وأشد هذا مالم يطرق الأسماع مثله فإن الإسكندر الذى اتفق المؤرخون على إنه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة إنما ملكها فى نحو عشر سنين ولم يقتل أحد إنما رضى من الناس بالطاعة وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه وأكثره عمارة وأهلا وأعدل أهل الأرض أخلاقا وسيرة فى نحو سنة ولم يبت أحد من البلاد التى لم يطرقوها إلا وهو خائف يترقبهم ويترقب وصولهم إليه ثم إنهم لايحتاجون إلى ميرة ومدد يأتيهم فإنهم معهم الأغنام والبقر والخيل وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لاغير وأما دوابهم التى يركبونها فإنها تحفر الأرض بحوافرها وتأكل عروق النبات لاتعرف الشعير فهم إذا نزلوا منزلا لايحتاجون إلى شىء من خارج وأما ديانتهم فإنهم يسجدون للشمس عند طلوعها ولايحرمون شيئا فإنهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب والخنازير وغيرها ولا يعرفون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال فاذا جاء الولد لايعرف أباه. ولقد بلى الإسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم منها. هؤلاء التتر قبحهم الله أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال التى يستعظمها كل من سمع بها وستراها مشروحة متصلة إن شاء الله تعالى. ومنها خروج الفرنج لعنهم الله من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم ثغر دمياط منها وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها، على أن يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم وقد ذكرناه سنة أربع عشرة وستمائة ومنها أن الذى سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة على ساق وقد ذكرناه أيضا فانا لله وإنا إليه راجعون نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين، نصرا من عنده، فإن الناصر والمعين والذاب عن الإسلام معدوم (وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال) فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع وسبب عدمه أن خوارزمشاه محمدا كان قد استولى على البلاد وقتل ملوكها وأفناهم وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها فلما انهزم منهم لم يبق فى البلاد من يمنعهم ولا من يحميها (ليقضى الله أمرا كان مفعولا) وهذ حين نذكر ابتداء خروجهم إلى البلاد.

﴿ذكر خروج التتر إلى تركستان وما وراء النهر ومافعلوه﴾ فى هذه السنة ظهر التتر إلى بلاد الإسلام وهم نوع كثير من الترك ومساكنهم جبال طمغاج من نحو الصين وبينها وبين بلاد الإسلام مايزيد على ستة أشهر وكان السبب فى ظهورهم أن ملكهم ويسمى بجنكزخان المعروف بتموجين كان قد فارق بلاده وسار إلى نواحى تركستان وسير جماعة من التجار والأتراك ومعهم شىء كثير من النقرة والقندر وغيرهما إلى بلادماوراء النهر سمرقند وبخارا ليشتروا له ثيابا للكسوة فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمى أوترار وهى آخر ولاية

خوارزمشاه وكان له نائب هناك فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الأموال فبعث إليه خوارزمشاه يأمر بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال وإنفاذه إليه فقتلهم وسير مامعهم وكان شيئا كثيرا فلما وصل إلى خوارزمشاه فرقه على تجار بخارا وسمرقند وأخذ ثمنه منهم وكان بعد أن ملك ما وراء النهر من الخطا قد سد الطرق عن بلاد تركستان وما بعدها من البلاد وأن طائفة من التتر أيضا كانوا قد خرجوا قديما والبلاد للخطا فلما ملك خوارزمشاه البلاد بما وراء النهر من الخطا وقتلهم واستولى هؤلاء التتر على تركستان كاشغار وبلاساغون وغيرها صاروا يحاربون عساكر خوارزمشاه فلذلك منع الميرة عنهم من الكسوات وغيرها وقيل فى سبب خروجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك مما لايذكر فى بطون الدفاتر :

فكان ماكان مما لست أذكره • فظن خيرا ولاتسأل عن الخبر

فلما قتل نائب خوارزمشاه أصحاب جنكزخان أرسل جواسيس إلى جنكزخان لينظر ماهو وكم مقدار مامعه من البزك وما يريد أن يعمل فمضى الجواسيس وسلكوا المفازة والجبال التى على طريقهم حتى وصلوا إليه فعادوا بعد مدة طويلة وأخبروه بكثرة عددهم وأنهم يخرجون عن الإحصاء وأنهم من أصبر خلق الله على القتال لايعرفون هزيمة وأنهم يعملون مايحتاجون إليه من السلاح بأيديهم فندم خوارزمشاه على قتل أصحابهم وأخذ أموالهم وحصل عنده فكر زائد فأحضر الشهاب الحيوفى وهو فقيه فاضل كبير المحل عنده لايخالف ما يشير به فحضر عنده فقال له قد حدث أمر عظيم لابد من الفكر فيه فأخذ رأيك فى الذى نفعله وذاك أنه قد تحرك إلينا خصم من ناحية الترك فى كثرة لاتحصى فقال له عساكرك كثرة وتكاتب الأطراف ونجمع العساكر ويكون النفير عاما فإنه يجب على المسلمين كافة مساعدتك بالمال والنفس ثم نذهب بجميع العساكر إلى جانب سيحون وهو نهر كبير يفصل بين بلاد الترك وبلاد الإسلام فتكون هناك فإذا جاء العدو وقد سار مسافة بعيدة لقيناه ونحن مستريحون وهو عساكره قد مسهم النصب والتعب فجمع خوارزمشاه أمراءه ومن عنده من أرباب المشورة فاستشارهم فلم يوافقوه على رأيه بل قالوا نتركهم يعبرون سيحون إلينا ويسلكون هذه الجبال والمضايق فإنهم جاهلون بطرقهم ونحن عارفون بها فنقوى حينئذ عليهم ونهلكهم فلا ينجو منهم أحد فبينما الأتراك كذلك إذ ورد رسول من هذا اللعين جنكزخان معه جماعة يتهدد خوارزمشاه ويقول تقتلون أصحابى وتأخذون أموالهم استعدوا للحرب فإنى واصل اليكم بجمع لاقبل لكم به وكان جنكزخان قد سار إلى تركستان فملك كاشغار وبلاساغون وجميع البلاد وأزال عنها التتر الأولى فلم يظهر لهم خبر ولا بقى لهم أثر بل بادوا كما أصاب الخطا وأرسل الرسالة المذكورة إلى خوارزمشاه فلما سمعها خوارزمشاه أمر بقتل رسوله فقتل وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا معه وأعادهم إلى صاحبهم جنكزخان يخبرونه بما فعل بالرسول ويقولون له إن خوارزمشاه يقول لك أنا سائر إليك ولو أنك فى آخر الدنيا حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك وتجهز خوارزمشاه وسار بعد الرسول مبادرا ليسبق خبره ويكبسهم فأدمن السير فمضى وقطع مسيرة أربعة أشهر فوصل إلى بيوتهم فلم ير فيها إلا النساء والصبيان والأطفال فأوقع بهم وغنم الجميع وسبى النساء والذرية وكان سبب غيبة الكفار عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملك من ملوك الترك يقال له كشلوخان فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا فلقيهم فى الطريق الخبر بما فعل خوارزمشاه بمخلفيهم فجدوا السير

Marfat.com

Marfat.com

فأدركوه قبل أن يخرج عن بيوتهم وتصافوا للحرب واقتتلوا قتالا لم يسمع بمثله فبقوا فى الحرب ثلاثة أيام بلياليها فقتل من الطائفتين مالا يعد ولم ينهزم أحد منهم أما المسلمون فإنهم صبروا حمية للدين وعلموا أنهم إن انهزموا لم يبق للمسلمين باقية وأنهم يؤخذون لبعدهم عن بلادهم وأما الكفار فصبروا لاستنفاذ أهليهم وأموالهم واشتد بهم الأمر حتى إن أحدهم كان ينزل عن فرسه ويقاتل قرنه راجلا ويتضاربون بالسكاكين وجرى الدم على الأرض حتى صارت الخيل تزلق من كثرته واستنقد الطائفتان وسعهم فى الصبر والقتال هذا القتال جميعه مع ابن جنكزخان ولم يحضر أبوه الوقعة ولم يشعر بها فأحصى من قتل من المسلمين فى هذه الوقعة فكانوا عشرين ألفا وأما من الكفار فلا يحصى من قتل منهم فلما كان الليلة الرابعة افترقوا فنزل بعضهم مقابل بعض فلما أظلم الليل أوقد الكفار نيرانهم وتركوها بحالها وساروا وكذلك فعل المسلمون أيضا كل منهم سئم القتال فأما الكفار فعادوا إلى ملكهم جنكزخان وأما المسلمون فرجعوا إلى بخارا فاستعد للحصار لعلمه بعجزه لأن طائفة من عسكره لم يقدر خوارزمشاه على أن يظفر بهم فكيف إذا جاؤا جميعهم مع ملكهم فأمر أهل بخارا وسمرقند بالاستعداد للحصار وجمع الذخائر للامتناع وجعل فى بخارا عشرين ألف فارس من العسكر يحملونها وفى سمرقند خمسين ألفا وقال لهم احفظوا البلد حتى أعود إلى خوارزم وخراسان وأجمع العساكر وأستنجد بالمسلمين وأعود اليكم فلما فرغ من ذلك رحل عائدا إلى خراسان فعبر جيحون ونزل بالقرب من بلخ فعسكر هناك وأما الكفار فإنهم رحلوا بعد أن استعدوا يطلبون ماوراء النهر فوصلوا إلى بخارا بعد خمسة أشهر من وصول خوارزمشاه وحصروها وقاتلوها ثلاثة أيام قتالا شديدا متتابعا فلم يكن للعسكر الخوارزمى بهم قوة ففارقوا البلد عائدين إلى خراسان فلما أصبح أهل البلد وليس عندهم من العسكر أحد ضعفت نفوسهم فأرسلوا القاضى وهو بدر الدين قاضيخان ليطلب الأمان للناس فأعطوهم الأمان وكان قد بقى من العسكر طائفة لم يمكنهم الهرب مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة فلما أجابهم جنكزخان إلى الأمان فتحت أبواب المدينة يوم الثلاثاء رابع ذى الحجة من سنة ست عشرة وستمائة فدخل الكفار بخارا ولم يتعرضوا إلى أحد بل قالوا لهم كل ما هو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيره أخرجوه الينا وساعدونا على قتال من بالقلعة وأظهروا عندهم العدل وحسن السيرة ودخل جنكزخان بنفسه وأحاط بالقلعة ونادى فى البلد بأن لا يتخلف أحد، ومن تخلف قتل فحضروا جميعهم فأمرهم بطم الخندق فطموه بالأخشاب والتراب، وغير ذلك، حتى إن الكفار كانوا يأخذون المنار وربعات القرآن فيلقونها فى الخندق فإنا لله وإنا إليه راجعون وبحق سمى الله نفسه صبورا حليما وإلا كان خسف بهم الأرض عند فعل مثل هذا ثم تابعوا الزحف إلى القلعة وبها نحو أربعمائة فارس من المسلمين فبذلوا جهدهم ومنعوا القلعة اثنى عشر يوما يقاتلون جمع الكفار وأهل البلد فقتل بعضهم ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا إليهم ووصل النقابون إلى سور القلعة فنقبوه واشتد حينئذ القتال ومن بها من المسلمين يرمون بكل ما يجدون من حجارة ونار وسهام، فغضب اللعين ورد أصحابه ذلك اليوم وباكرهم من الغد فجدوا فى القتال، وقد تعب من بالقلعة ونصبوا وجاءهم مالا قبل لهم به فقهرهم الكفار ودخلوا القلعة وقاتلهم المسلمون الذين فيها حتى قتلوا عن آخرهم فلما فرغ من القلعة أمر أن يكتب له رؤوس البلد ورؤساؤهم ففعلوا ذلك فلما عرضوا عليه أمر بإحضارهم فحضروا فقال أريد منكم النقرة التى باعكم خوارزمشاه فإنها لى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم فأحضر كل من كان عنده شىء منها بين يديه ثم أمرهم بالخروج من البلد

Marfat.com

فخرجوا من البلد مجردين من أموالهم ليس مع أحد منهم غير ثيابه التى عليه ودخل الكفار البلد فنهبوه وقتلوا من وجدوا فيه وأحاط بالمسلمين فأمر أصحابه أن يقتلوهم فافتلوهم وكان يوما عظيما من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدى سبا وتمزقوا كل ممزق واقتسموا النساء أيضا وأصبحت بخارا خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس وارتكبوا من النساء العظيم والناس ينظرون ويبكون ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئا مما نزل بهم فمنعهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل ومن فعل ذلك واختار أن يقتل ولا يرى مانزل بالمسلمين الفقيه الإمام ركن الدين إمام زاده وولده فإنهما لما رأيا مايفعل بالحرم قاتلا حتى قتلا وكذلك فعل القاضى صدر الدين خان ومن استسلم أخذ أسيرا وألقوا النار فى البلد والمدارس والمساجد وعذبوا الناس بأنواع العذاب من طلب المال ثم رحلوا نحو سمرقند وقد تحققوا عجز خوارزمشاه عنهم وهم بمكانه بين ترمذ وبلخ واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارا أسارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة فكل من أعيا وعجز عن المشى قتل فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والأسارى والأثقال وراءهم حتى تقدموا شيئا فشيئا ليكون أرعب لقلوب المسلمين فلما رأى أهل البلد سوادهم استعظموه فلما كان اليوم الثانى وصل الأسارى والرجالة والأثقال ومع كل عشرة من الأسارى علم فظن أهل البلد إن الجميع عساكر مقاتلة وأحاطوا بالبلد وفيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية وأما عامة البلد فلا يحصون كثرة فخرج إليهم شجعان أهله وأهل الجلد والقوة رجالة ولم يخرج معهم من العسكر الخوارزمى أحد لما فى قلوبهم من خوف هؤلاء الملاعين ، فقاتلوهم الرجالة بظاهر البلد ، فلم يزل التتر يتأخرون وأهل البلد يتبعونهم ، ويطمعون فيهم وكان الكفار قد كمنوا لهم كمينا ، فلما جاوزوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد ، ورجع الباقون الذين أنشبوا القتال أولا فبقوا فى الوسط وأخذهم السيف من كل جانب فلم يسلم منهم أحد قتلوا عن آخرهم شهداء رضى الله عنهم وكانوا سبعين ألفا على ماقيل فلما رأى الباقون من الجند والعامة ذلك ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند وكانوا أتراكا نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلون نطلبوا الأمان فأجابوهم إلى ذلك ففتحوا أبواب البلد ولم يقدر العامة على منعهم وخرجوا إلى الكفار بأهلهم وأموالهم فقال لهم الكفار ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيركم إلى مأمنكم ففعلوا ذلك فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم فلما كان اليوم الرابع نادوا فى البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخر قتلوه فخرج جميع الرجال والنساء والصبيان ففعلوا مع أهل بخارا من النهب والقتل والسبى والفساد ودخلوا البلد فنهبوا مافيه وأحرقوا الجامع وتركوا باقى البلد على حاله وافتضوا الأبكار وعذبوا الناس بأنواع العذاب فى طلب المال وقتلوا من لم يصلح للسبى وكان ذلك فى المحرم سنة سبع عشرة وستمائة وكان خوارزمشاه بمنزلته كلما اجتمع إليه عسكر سيره إلى سمرقند فيرجعون ولا يقدرون على الوصول إليها نعوذ بالله من الخذلان سير مرة عشرة آلاف فارس فعادوا وسير عشرين ألفا فعادوا أيضا .

﴿ ذكر مسير التتر إلى خوارزمشاه وانهزامه وموته ﴾ لما ملك الكفار سمرقند عمد جنكزخان لعنه الله وسير عشرين ألف فارس وقال لهم اطلبوا خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه وهذه الطائفة تسميها التتر المغربة لأنها سارت نحو غرب خراسان ليقع الفرق بينهم وبين غيرهم منهم لأنهم هم الذين أوغلوا فى البلاد فلما أمرهم جنكزخان بالمسير ساروا وقصدوا موضعا يسمى فنج اب ومعناه خمس مياه فوصلوا

إليه فلم يجدوا هناك سفينة فعملوا من الخشب مثل الأحواض الكبار والبسوها جلود البقر لئلا يدخلها الماء ووضعوا فيها سلاحهم وأمتعتهم وألقوا الخيل فى الماء وأمسكوا أذنابها وتلك الحياض التى من الخشب مشدودة إليهم فكان الفرس يجذب الرجل والرجل يجذب الحوض المملوء من السلاح وغيره فعبروا كلهم دفعة واحدة فلم يشعر خوارزمشاه إلا وقد صاروا معه على أرض واحدة وكان المسلمون قد ملئوا منهم عبا وخوفا وقد اختلفوا فيما بينهم أنهم كانوا يتماسكون بسبب إن نهر جيحون بينهم فلما عبروه إليهم لم يقدروا على الثبات ولا على المسير مجتمعين بل تفرقوا أيدى سبا وطلب كل طائفة منهم جهة ورحل خوارزمشاه لا يلوى على شىء فى نفر من خاصته وقصدوا نيسابور فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر فلم يستقر حتى وصل أولئك التتر إليها وكانوا لم يتعرضوا فى مسيرهم لشىء لا بنهب ولا قتل بل يجدون السير فى طلبه لا يمهلون حتى يجمع لهم فلما سمع بقربهم منه رحل إلى مازندران وهى له أيضا فرحل التتر المغربون فى أثره ولم يعرجوا على نيسابور بل تبعوه فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان تعرف باب سكون وله هناك قلعة فى البحر فلما نزل هو وأصحابه فى السفن وصلت التتر فلما رأوا خوارزمشاه وقد دخل البحر وقفوا على ساحل البحر فلما أيسوا من لحاق خوارزمشاه رجعوا لهم الذين قصدوا الرى وما بعدها على ما نذكره إن شاء الله هكذا ذكر لى بعض الفقهاء ممن كان ببخارا وأسروه معهم إلى سمرقند ثم نجا منهم ووصل إلينا وذكر غيره من التجار أن خوارزمشاه سار من مازندران حتى وصل إلى الرى ثم منها إلى همذان والتتر أثره ففارق همذان فى نفر يسير جريدة ليستر نفسه ويكتم خبره وعاد إلى مازندران وركب فى البحر إلى هذه القلعة وكان هذا هو الصحيح فإن الفقيه كان حينئذ مأسورا وهؤلاء التجار أخبروا أنهم كانوا بهمذان ووصل خوارزمشاه ثم وصل بعده من أخبره بوصول التتر ففارق همذان وكذلك أيضا هؤلاء التجار فارقوها ووصل التتر اليها بعدهم ببعض نهار فهم يخبرون عن مشاهدة ولما وصل خوارزمشاه إلى هذه القلعة المذكورة توفى فيها .

﴿ذكر صفة خوارزمشاه وشىء من سيرته﴾ هو علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش وكان مدة ملكه إحدى وعشرين سنة وشهورا تقريبا واتسع ملكه وعظم محله وأطاعه العالم بأسره ولم يملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه فإنه ملك من حد العراق إلى تركستان وملك بلاد غزنة وبعض الهند وملك سجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس وفعل بالخطا الأفاعيل العظيمة وملك بلادهم وكان فاضلا عالما بالفقه والأصول وغيرهما وكان مكرما للعلماء محبا لهم محسنا اليهم يكثر مجالستهم ومناظراتهم بين يديه وكان صبورا على التعب وإدمان السير غير متنعم ولا مقبل على اللذات إنما همه فى الملك وتدبيره وحفظه وحفظ رعاياه وكان معظما لأهل الدين مقبلا عليهم متبركا بهم حكى لى بعض خدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم وقد عاد من خراسان قال وصلت إلى خوارزم فنزلت ودخلت الحمام ثم قصدت باب السلطان علاء الدين فحين حضرت لقينى إنسان فقال ما حاجتك فقلت له أنا من خدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فأمرنى بالجلوس وانصرف عنى ثم عاد إلى وأخذنى وأدخلنى إلى دار السلطان فتسلمنى منه حاجب من حجاب السلطان وقال لى قد أعلمت السلطان خبرك فأمر بإحضارك عنده فدخلت اليه وهو جالس فى صدر إيوان كبير فحين توسطت صحن الدار قام قائما ومشى إلى بين يدى فأسرعت السير فلقيته فى وسط الإيوان فأردت أن أقبل يده فمنعنى واعتنقنى وجلس وأجلسنى إلى جانبه وقال لى أنت تخدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فقلت

Marfat.com

Marfat.com

نعم فأخذ يدى وأمرها على وجهه وسألنى عن حالنا وعيشتنا وصفة المدينة ومقدارها وأطال الحديث معى فلما خرجت من عنده قال لولا إننا على عزم السفر هذه الساعة لما ودعتك إنما نريد أن نعبر جيحون إلى الخطا وهذا طريق مبارك حيث رأينا من خدم حجرة النبى صلى الله عليه وسلم ثم ودعنى وأرسل إلى جملة كثيرة من النفقة ومضى وكان منه ومن الخطا ماذكرناه وبالجملة فاجتمع فيه ماتفرق فى غيره من ملوك العالم رحمه الله ولو أردنا ذكر مناقبه لطال .

﴿ذكر استيلاء التتر المغربة على مازندران﴾ لما أيس التتر المغربة من إدراك خوارزمشاه عادوا فقصدوا بلاد مازندران فملكوها فى أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول اليها وامتناع قلاعها فإنها لم تزل ممتنعة قديم الزمان وحديثه حتى إن المسلمين لما ملكوا بلاد الأكاسرة جميعها من العراق إلى أقاصى خراسان بقيت أعمال مازندران يؤخذ منهم الخراج ولا يقدرون على دخول البلاد إلى أن ملكت أيام سليمان بن عبد الملك سنة تسعين وهؤلاء الملاعين ملكوها صفوا عفوا لأمر يريده الله تعالى ولما ملكوا بلد مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا البلاد ولما فرغوا من مازندران سلكوا نحو الرى فرأوا فى الطريق والدة خوارزمشاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم التى لم يسمع بمثلها من الأعلاق النفيسة وكان سبب ذلك أن والدة خوارزمشاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت ففارقت خوارزم وقصدت نحو الرى لتصل إلى أصفهان وهمذان وبلد الجبل تمتنع فيها فصادفوها فى الطريق فأخذوها وما معها قبل وصولها إلى الرى فكان فيه ما لا عيون بهم وقلوبهم ومالم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع ونفيس من الجواهر وغير ذلك وسيروا الجميع إلى جنكزخان بسمرقند .

﴿ذكر وصول التتر إلى الرى وهمذان﴾ فى سنة سبع عشرة وستمائة وصل التتر لعنهم الله إلى الرى فى طلب خوارزمشاه محمد لأنهم بلغهم أنه مضى منهزما منهم نحو الرى فجدوا السير فى أثره وقد انضاف إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار وكذلك أيضا من المفسدين من يريد النهب والشر فوصلوا إلى الرى على حين غفلة من أهلها فلم يشعروا إلا وقد وصلوا إليها وملكوها ونهبوها وسبوا الحريم واسترقوا الأطفال وفعلوا الأفعال التى لم يسمع بمثلها ولم يقيموا ومضوا مسرعين فى طلب خوارزمشاه فنهبوا فى طريقهم كل مدينة وقرية مروا عليها وفعلوا فى الجميع أضعاف مافعلوا فى الرى ، وأحرقوا وخربوا ووضعوا السيف فى الرجال والنساء والأطفال فلم يبقوا على شىء وتموا على حالهم إلى همذان وكان خوارزمشاه قد وصل إليها فى نفر من أصحابه ففارقها وكان آخر العهد به فلا يدرى ما كان منه فيما حكاه بعضهم عنه ، وقال غير ذلك وقد ذكرناه فلما قاربوا همذان خرج رئيسها ومعه الحمل من الأموال والثياب والدواب وغير ذلك يطلب الأمان لأهل البلد فأمنوهم ثم فارقوها وساروا إلى زنجان ففعلوا أضعاف ذلك ثم وصلوا إلى قزوين فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم فقاتلوهم وجدوا فى قتالهم ودخلوها عنوة بالسيف فاقتتلوا هم وأهل البلد فى باطنه حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين فقتل من الفريقين مالا يحصى ثم فارقوا قزوين فعد القتلى من أهل قزوين فزادوا على أربعين ألف قتيل .

﴿ذكر وصول التتر إلى أذربيجان﴾ لما هجم الشتاء على التتر فى همذان وبلد الجبل رأوا بردا شديدا وثلجا مقرا كما فساروا إلى أذربيجان ففعلوا فى طريقهم بالقرى والمدن الصغار من القتل والنهب مثل ما تقدم منهم وخربوا وأحرقوا ووصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان أوزبك بن البهلوان فلم يخرج إليهم ولا حدث

Marfat.com

نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشرب ليلا ونهارا لا يفيق. وإنما أرسل إليهم وصالحهم على مال وثياب ودواب وحمل الجميع إليهم فساروا من عنده يريدون ساحل البحر لأنه يكون قليل البرد ليشتوا عليه والمراعى به كثيرة لأجل دوابهم فوصلوا إلى موفان وتطرفوا فى طريقهم إلى بلاد الكرج فجاء إليهم من الكرج جمع كثير من العسكر نحو عشرة آلاف مقاتل فقاتلوهم فانهزمت الكرج وقتل أكثرهم وأرسل الكرج إلى أوزبك صاحب أذربيجان يطلبون منه الصلح والاتفاق معهم على دفع التتر فاصطلحوا ليجتمعوا إذا انحسر الشتاء وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف بن الملك العادل صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الموافقة عليهم وظنوا جميعهم أن التتر يصبرون فى الشتاء إلى الربيع فلم يفعلوا كذلك بل تحركوا وساروا نحو بلاد الكرج وانضاف إليهم مملوك تركى من مماليك أوزبك اسمه أقوش وجمع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم، فاجتمع معه خلق كثير وراسل التتر فى الانضمام إليهم فأجابوه إلى ذلك ومالوا إليه للجنسية فاجتمعوا وساروا فى مقدمة التتر إلى الكرج فملكوا حصنا من حصونهم وخربوه ونهبوا البلاد وخربوها وقتلوا أهلها ونهبوا أموالهم حتى وصلوا إلى قريب تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها إليهم فلقيهم أقوش أولا فيمن اجتمع إليه فاقتتلوا قتالا شديدا صبروا فيه كلهم فقتل من أصحاب أقوش خلق كثير وأدركهم التتر وقد تعب الكرج من القتال. وقتل منهم أيضا كثير. فلم يثبتوا للتتر. وانهزموا أقبح هزيمة وركبهم السيف من كل جانب فقتل منهم مالا يحصى كثرة وكانت الوقعة فى ذى القعدة من هذه السنة ونهبوا من البلاد ما كان سلم منهم ولقد جرى لهؤلاء التتر مالم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضى عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية ويجاوزون العراق من ناحية همذان وتاقه لا أشك أن من يجىء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها والحق بيده فمتى استبعد ذلك فلينظر أنا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ فى أزماننا هذه فى وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم فلقد دفعوا من العدو إلى عظيم ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه ولم ينل المسلمين أذى وشدة مذ جاء النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا الوقت مثل مادفعوا إليه الآن هذا العدو الكافر التتر قد وطئوا بلاد ماوراء النهر وملكوها وخربوها وناهيك به سعة بلاد وتعدت طائفة منهم النهر إلى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك ثم إلى الرى وبلد الجبل وأذربيجان وقد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم والعدو الآخر الفرنج قد ظهر من بلادهم فى أقصى بلاد الروم بين الغرب والشمال ووصلوا إلى مصر فملكوا مثل دمياط وأقاموا فيها ولم يقدر المسلمون على إزعاجهم عنها ولا إخراجهم منها وباقى ديار مصر على خطر فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. ومن أعظم الأمور على المسلمين أن سلطانهم خوارزمشاه محمدا قد عدم لا يعرف حقيقة خبره فتارة يقال مات عند همذان وأخفى موته وتارة دخل أطراف بلاد فارس ومات هناك وأخفى موته لئلا يقصدها التتر فى أثره وتارة يقال عاد إلى طبرستان وركب البحر فتوفى فى جزيرة هناك وبالجملة فقد عدم ثم صح موته ببحر طبرستان وهذا عظيم مثل خراسان وعراق العجم أصبح سائبا لا مانع له ولا سلطان يدفع عنه والعدو يجوس البلاد يأخذ ما أراد، ويترك ما أراد، على أنهم لم يبقوا على مدينة إلا خربوها وكل ما مروا عليه نهبوه ومالا يصلح لهم أحرقوه، فكانوا يجمعون الإبريسم تلالا ويلقون فيه النار وكذلك غيره من الأمتعة

(ذكر ملك التتر مراغة) فى صفر سنة ثمان عشر وستمائة ملك التتر مدينة مراغة من أذربيجان وسبب ذلك أننا ذكرنا سنة سبع عشرة وستمائة مافعله التتر بالكرج وانقضت تلك السنة وهم فى بلاد الكرج فلما دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة ساروا من ناحية الكرج لأنهم رأوا أن بين أيديهم شوكة قوية ومضايق تحتاج إلى قتال وصداع فعدلوا عنهم وهذه كانت عادتهم إذا قصدوا مدينة ورأوا عندها امتناعا عدلوا عنها فوصلوا إلى تبريز وصانعهم صاحبها بمال وثياب ودواب فساروا عنه إلى مدينة مراغة فحصروها وليس بها صاحب يمنعها لأن صاحبها كانت امرأة وهى مقيمة بقلعة رويندز وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة فلما حصروها قاتلهم أهلها فنصبوا عليها المجانيق وزحفوا إليها وكانت عادتهم إذا قاتلوا مدينة قدموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون فإن عادوا قتلوا فكانوا يقتلون كرها وهم المساكين كما قيل كالاشقر إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقر وكانوا هم يقاتلون وراء المسلمين فيكون القتل فى المسلمين الأسارى وهم بنجوة منه فأقاموا عليها عدة أيام ثم ملكوا المدينة عنوة وقهرا رابع صفر ووضعوا السيف فى أهلها فقتل منهم مايخرج عن الحد والإحصاء ونهبوا كل ماصلح لهم ومالا يصلح لهم وأحرقوه واختفى بعض الناس منهم فكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم نادوا فى الدروب أن التتر قد رحلوا فإذا نادى أولئك خرج من اختفى فيؤخذ ويقتل (وبلغنى) أن امرأة من التتر دخلت دارا وقتلت جماعة من أهلها وهم يظنون نهار جلا فوضعت السلاح وإذا هى امرأة فقتلها رجل أخذته أسيرا (وسمعت) من بعض أهلها أن رجلا من التتر دخل دربا فيه مائة رجل فمازال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ولم يمد أحد يده إليه بسوء ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا نعوذ بالله من الخذلان ثم رحلوا عنها نحو مدينة إربل ووصل الخبر إلينا بذلك بالموصل فخفنا حتى إن بعض الناس هم بالجلاء خوفا من السيف وجاءت كتب مظفر الدين صاحب إربل إلى بدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدة من العساكر فسير جمعا صالحا من عسكره وأراد أن يمضى إلى طرف بلاده من جهة التتر ويحفظ المضايق لئلا يجوزها أحد فإنها جميعها جبال وعرة ومضايق لايقدر أن يجوزها إلا الفارس بعد الفارس ويمنعهم من الجواز إليه ووصلت كتب الخليفة ورسله إلى الموصل وإلى مظفر الدين يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا ليمنعوا التتر فإنهم ربما عدلوا عن جبال إربل لصعوبتها إلى هذه الناحية ويطرقون العراق فسار مظفر الدين من إربل فى صفر وسار إليهم جمع من عسكر الموصل وتبعهم من المتطوعة كثير وأرسل الخليفة أيضا إلى الملك الأشرف يأمره بالحضور بنفسه فى عساكره ليجتمع الجميع على قصد التتر وقتالهم فاتفق إن الملك المعظم ابن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الأشرف وهو بحران يستنجده على الفرنج الذين بمصر وطلب منه أن يحضر بنفسه ليسيروا كلهم إلى مصر ليستنقذوا دمياط من الفرنج فاعتذر إلى الخليفة بأخيه وقوة الفرنج وإن لم يتداركها خرجت هى وغيرها وشرع يتجهز للمسير إلى الشام ليدخل مصر وكان ماذكرناه من استنقاذ دمياط فلما اجتمع مظفر الدين والعساكر بدقوقا سير الخليفة إليهم مملوكه قشتمر وهو أكبر أمير بالعراق ومعه غيره من الأمراء فى نحو ثمانمائة فارس فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقى عسكر الخليفة وكان المقدم على الجميع مظفر الدين فلما رأى قلة العسكر لم يقدم على قصد التتر (وحكى مظفر الدين) قال لما أرسل إلى الخليفة فى معنى التتر قلت له إن العدو قوى وليس لى من العسكر ماألقاه به فإن اجتمع معى عشرة آلاف فارس استنقذت ماأخذ من البلاد فأمرنى بالمسير وواعدنى بوصول

Marfat.com

العسكر فلما سرت لم يحضر عندى غير عدد لم يبلغوا ثمانمائة طواشى فأقمت ومارأيت المخاطرة بنفسى وبالمسلمين ولما سمع التتر باجتماع العساكر لهم رجعوا القهقرى ظنا منهم أن العسكر يتبعهم فلما لم يروا أحدا يطلبهم أقاموا وأقام العسكر الإسلامى عند دقوقا فلما لم يروا أن العدو يقصدهم ولا المدد يأتيهم تفرقوا وعادوا إلى بلادهم.

﴿ذكر ملك التتر همذان وقتل أهلها﴾ لما تفرق العسكر الإسلامى عاد التتر إلى همذان فنزلوا بالقرب منها وكان لهم بها شحنة يحكم فيها فأرسلوا اليه يأمرونه ليطلب من أهلها مالا وثيابا وكانوا قد استنفدوا أموالهم فى طول المدة وكان رئيس همذان شريفا علويا وهو من بيت رياسة قديمة لهذه المدينة وهو الذى يسعى فى أمور أهل البلد مع التتر ويوصل اليهم مايجمعه من الأموال فلما طلبوا الآن منهم المال لم يجد أهل همذان مايحملونه اليهم فحضروا عند الرئيس ومعه إنسان فقيه قد قام فى اجتماع الكلمة على الكفار قياما مرضيا فقالوا لهما هؤلاء الكفار قد أفنوا أموالنا ولم يبق لنا مانعطيهم وقد هلكنا من أخذهم أموالنا وما يفعله النائب عنهم بنا من الهوان وكانوا قد جعلوا بهمذان شحنة لهم يحكم فى أهلها بما يختاره فقال الشريف إذا كنا نعجز عنهم فكيف الحيلة فليس لنا إلا مصانعتهم بالأموال فقالوا له أنت أشد علينا من الكفار وأغلظوا له فى القول فقال أنا واحد منكم فاصنعوا ماشئتم فأشار الفقيه بإخراج شحنة التتر من البلد والامتناع فيه ومقاتلة التتر فوثب العامة على الشحنة فقتلوه وامتنعوا فى البلد فتقدم التتر إليهم وحصروهم وكانت الأقوات متعذرة فى تلك البلاد جميعها لخرابها وقتل أهلها وجلاء من سلم منهم فلا يقدر أحد على الطعام إلا قليلا وأما التتر فلا يبالون لعدم الأقوات لأنهم لا يأكلون إلا اللحم ولا تأكل دوابهم إلا نبات الأرض حتى إنها تحفر بحوافرها الأرض عن عروق النبات فتأكلها فلما حصروا همذان قاتلهم أهلها والرئيس والفقيه فى أوائلهم فقتل من التتر خلق كثير وجرح الفقيه عدة جراحات وافترقوا ثم خرجوا من الغد فاقتتلوا أشد من القتال الأول وقتل أيضا من التتر أكثر من اليوم الأول وجرح الفقيه أيضا عدة جراحات وهو صابر وأرادوا أيضا الخروج فى اليوم الثالث فلم يطق الفقيه الركوب وطلب الناس الرئيس العلوى فلم يجدوه وكان قد هرب فى سرب صنعه إلى ظاهر البلد هو وأهله إلى قلعة هناك على جبل عال فامتنع فيها فلما فقده الناس بقوا حيارى لا يدرون مايصنعون إلا أنهم اجتمعت كلمتهم على القتال إلى أن يموتوا فأقاموا فى البلد ولم يخرجوا منه وكان التتر قد عزموا على الرحيل لكثرة من قتل منهم فلما لم يروا أحدا خرج إليهم من البلد طمعوا واستدلوا على ضعف أهله فقصدوهم وقاتلوهم فى رجب من سنة ثمان عشرة وستمائة ودخلوا المدينة بالسيف وقاتلهم الناس فى الدروب فبطل السلاح للزحمة وافتتلوا بالسكاكين فقتل من الفريقين مالا يحصيه إلا الله تعالى وقوى التتر على المسلمين فأفنوهم قتلا ولم يسلم إلا من كان عمل له نفقا يختفى فيه وبقى القتل فى المسلمين عدة أيام ثم ألقوا النار فى البلد فأحرقوه ورحلوا عنها إلى مدينة أردويل. وقيل كان السبب فى ملكها أن أهل البلد لما شكوا إلى الرئيس الشريف مايفعل بهم الكفار أشار عليهم بمكاتبة الخليفة لينفذ اليهم عسكرا مع أمير يجمع كلمتهم فاتفقوا على ذلك فكتب إلى الخليفة ينهى اليه ماهم عليه من الخوف والذل ومايركبهم به العدو من الصغار والخزى ويطلب نجدة ولو ألف فارس مع أمير يقاتلون معه ويجتمعون عليه فلما سار القصاد بالكتب أرسل بعض من علم بالحال إلى التتر يعلمهم ذلك فأرسلوا إلى الطريق فأخذوهم وأخذوا الكتب منهم وأرسلوا إلى الرئيس ينكرون عليه الحال فجحد فأرسلوا اليه كتبه وكتب الجماعة فسقط فى أيديهم

Marfat.com

وتقدم اليهم التتر حينئذ وقاتلوهم وجرى فى القتال كما ذكرنا .

(ذكر مسير التتر إلى أذربيجان وملكهم أردويل وغيرها) لما فرغ التتر من همذان ساروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى أردويل فملكوها وقتلوا فيها وأكثروا وخربوا أكثرها وساروا منها إلى تبريز وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائى وجمع كلمة أهلها وقد فارقها صاحبها أوزبك بن البهلوان وكان أميرا متخلفا لا يزال منهمكا فى الخمر ليلا ونهارا يبقى الشهر والشهرين لا يظهر وإذا سمع هيعة طار مجفلا لها وله جميع أذربيجان وأران وهو أعجز خلق الله عن البلاد من عدو يريدها ويقصدها فلما سمع بمسير التتر من همذان فارق هو تبريز وقصد نقجوان وسير أهله ونساءه إلى خوى ليبعد عنهم فقام هذا الطغرائى بأمر البلد وجمع الكلمة وقوى نفوس الناس على الامتناع وحذرهم عاقبة التخاذل والتوانى وحصن البلد بجهده وطاقته فلما قاربه التتر وسمعوا بما أهل البلد عليه من اجتماع الكلمة على قتالهم وأنهم قد حصنوا المدينة وأصلحوا أسوارها وخندقها أرسلوا يطلبون منهم مالا وثيابا فاستقر الأمر بينهم على قدر معلوم من ذلك فسيروه اليهم فأخذوه ورحلوا إلى مدينة سراو فنهبوها وقتلوا كل من فيها ورحلوا منها إلى بيلقان من بلاد أران فنهبوا كل ما مروا به من البلاد والقرى وخربوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها فلما وصلوا إلى بيلقان حصروها فاستدعى أهلها منهم رسولا يقررون معه الصلح فأرسلوا اليهم رسولا من أكابرهم ومقدميهم فقتله أهل البلد فزحف التتر اليهم وقاتلوهم ثم إنهم ملكوا البلد عنوة فى شهر رمضان سنة ثمان عشرة ووضعوا السيف فلم يبقوا على صغير ولا كبير ولا امرأة حتى إنهم يشقون بطون الحبالى ويقتلون الأجنة وكانوا يفجرون بالمرأة ثم يقتلونها وكان الإنسان منهم يدخل الدرب فيه الجماعة فيقتلهم واحدا بعد واحد حتى يفرغ من الجميع لا يمد أحد منهم اليه يدا فلما فرغوا منها استقصوا ما حولها من النهب والتخريب وساروا إلى مدينة كنجة وهى أم بلاد أران فعلموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لكثرة دربتهم بقتال الكرج وحصانتها فلم يقدموا عليها فأرسلوا إلى أهلها يطلبون منهم المال والثياب فحملوا اليهم ما طلبوا فساروا عنهم .

(ذكر وصول التتر إلى بلاد الكرج) لما فرغ التتر من بلاد المسلمين بأذربيجان وأران بعضه بالملك وبعضه بالصلح وساروا إلى بلاد الكرج من هذه الأعمال أيضا وكان الكرج قد أعدوا لهم واستعدوا وسيروا جيشا كثيرا إلى طرف بلادهم ليمنعوا التتر عنها فوصل اليهم التتر فالتقوا فلم يثبت الكرج بل ولوا منهزمين فأخذهم السيف فلم يسلم منهم إلا الشريد ولقد بلغنى أنهم قتل منهم نحو ثلاثين ألفا ونهبوا ما وصلوا اليه من بلادهم وخربوها وفعلوا بها ما هو عادتهم فلما وصل المنهزمون إلى تفليس وبها ملكهم جمع جموعا أخرى وسيرهم إلى التتر أيضا ليمنعوهم من توسط بلادهم فرأوا التتر وقد دخلوا البلاد لم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا غير ذلك فلما رأوا فعلهم عادوا إلى تفليس فأخلوا البلاد ففعل التتر فيها ما أرادوا من النهب والقتل والتخريب ورأوا بلادا كثيرة المضايق والدربندات فلم يتجاسروا على الوغول فيها فعادوا عنها وداخل الكرج منهم خوف عظيم حتى سمعت عن بعض أكابر الكرج وكان قدم رسولا أنه قال من حدثكم أن التتر انهزموا وأسروا فلا تصدقوه وإذا حدثتم أنهم قتلوا فصدقوا فإن القوم لا يفرون أبدا ولقد أخذنا أسيرا منهم فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر إلى أن مات ولم يسلم نفسه للأسرة .

(ذكر وصولهم إلى دربندشروان ومافعلوه) لما عاد التتر من بلد الكرج قصدوا دربندشروان فحصروا

مدينة شماخى وقاتلوا أهلها فصبروا على الحصر ثم إن التتر صعدوا سورها بالسلاليم وقيل بل جمعوا كثيرا من الجمال والبقر والغنم وغير ذلك ومن قتلى الناس منهم وممن قتل من غيرهم وألقوا بعضه فوق بعض فصار مثل الغل وصعدوا عليه فأشرفوا على المدينة وقاتلوا أهلها فصبروا واشتد القتال ثلاثة أيام فأشرفوا على أن يؤخذوا فقالوا السيف لابد منه فالصبر أولى بنا نموت كراما فصبروا تلك الليلة فأنتنت تلك الجيف وانهضمت فلم يبق للتتر على السور استعلاء ولا تسلط على الحرب فعاودوا الزحف وملازمة القتال فضجر أهلها ومسهم التعب والكلال والإعياء فضعفوا فملك التتر البلد وقتلوا فيه كثيرا ونهبوا الأموال واستباحوها فلما فرغوا منه أرادوا عبور الدربند فلم يقدروا على ذلك فأرسلوا رسولا إلى شروان شاه ملك دربند شروان يقولون له ليرسل اليهم رسولا يسعى بينهم فى الصلح فأرسل عشرة رجال من أعيان أصحابه فأخذوا أحدهم فقتلوه ثم قالوا للباقين إن أنتم عرفتمونا طريقا نعبر فيه فلكم الأمان وإن لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا فقالوا لهم إن هذا الدربند ليس فيه طريق البتة ولكن فيه موضع هو أسهل مافيه من الطرق فساروا معهم إلى ذلك الطريق فعبروا فيه وخلفوه وراء ظهورهم

﴿ذكر مافعلوه باللان وقفجان﴾ لما عبر التتر دربند شروان ساروا فى تلك الأعمال وفيها أمم كثيرة منهم اللان واللكز وطوائف من الترك فنهبوه وقتلوا من اللكز كثيرا وهم مسلمون وكفار وأوقعوا بمن عداهم من أهل تلك البلاد ووصلوا إلى اللان وهم أمم كثيرة وقد بلغهم خبرهم فجدوا وجمعوا عندهم جمعا من قفجاق فقاتلوهم فلم تظفر إحدى الطائفتين بالأخرى فأرسل التتر إلى قفجاق يقولون نحن وأنتم جنس واحد وهؤلاء اللان ليسوا منكم حتى تنصروهم ، ولا دينكم مثل دينهم ونحن نعاهدكم أننا لانعترض إليكم ونحمل إليكم من الأموال والثياب ماشئتم وتتركون بيننا وبينهم فاستقر الأمر بينهم على مال حملوه وثياب وغير ذلك فحملوا إليهم ما استقر وفارقهم قفجاق فأوقع التتر باللان فقتلوا منهم وأكثروا ونهبوا وسبوا وساروا إلى قفجاق وهم آمنون متفرقون لما استقر بينهم من الصلح فلم يسمعوا بهم إلا وقد طرقوهم ودخلوا بلادهم فأوقعوا بهم الأول فالأول ، وأخذوا منهم أضعاف ماحملوا إليهم وسمع من كان بعيد الدار من قفجاق الخبر ففروا من غير قتال وأبعدوا وبعضهم اعتصم بالغياض وبعضهم بالجبال وبعضهم لحق ببلاد الروس وأقام التتر فى بلاد قفجاق وهى أرض كثيرة المراعى فى الشتاء والصيف ، وفيها أماكن باردة فى الصيف كثيرة المرعى ، وأماكن حارة فى الشتاء كثيرة المرعى وهى ، غياض على ساحل البحر ووصلوا إلى مدينة سوداق وهى مدينة قفجاق التى منها مادتهم فإنها على بحر خزرية والمراكب تصل إليها وفيها الثياب فتشترى منهم وتبيع عليهم الجوارى والمماليك والبرطاسى والقندر والسنجاب وغير ذلك مما هو فى بلادهم وبحر خزرية هذا بحر متصل بخليج القسطنطينية ، ولما وصل التتر إلى سوداق ملكوها وتفرق أهلها منها فبعضهم صعد الجبال بأهله وماله وبعضهم ركب البحر وسار إلى بلاد الروم التى بيد المسلمين من أولاد قلج أرسلان .

﴿ ذكر مافعله التتر بقفجاق والروس ﴾ لما استولى التتر على أرض قفجاق كما ذكرنا سار طائفة كثيرة منهم إلى بلاد الروس وهى بلاد كثيرة طويلة عريضة تجاورهم وأهلها يدينون بالنصرانية فلما وصلوا إليهم اجتمعوا كلهم واتفقت كلمتهم على قتال التتر إن قصدوهم وأقام التتر بأرض قفجاق مدة ثم إنهم ساروا سنة عشرين وستمائة إلى بلاد الروس فسمع الروس وقفجاق خبرهم وكانوا مستعدين لقتالهم فساروا إلى طريق التتر ليلقوهم قبل أن يصلوا إلى بلادهم ليمنعوهم عنها فبلغ مسيرهم التتر فعادوا على أعقابهم راجعين فطمع الروس

Marfat.com

وقفجاق فيهم وظنوا أنهم عادوا خوفا منهم وعجزا عن قتالهم فجدوا فى اتباعهم ولم يزل التتر راجعين وأولئك يقفون أثرهم اثنى عشر يوما ثم إن التتر عطفوا على الروس وقفجاق فلم يشعروا بهم إلا وقد لقوهم على غرة منهم لأنهم كانوا قد أمنوا التتر واستشعروا القدرة عليهم فلم يجتمعوا للقتال إلا وقد بلغ التتر منهم مبلغا عظيما فصبر الطائفتان صبرا لم يسمع بمثله ودام القتال بينهم عدة أيام ثم إن التتر ظفروا واستظهروا فانهزم قفجاق والروس هزيمة عظيمة بعد أن أثخن فيهم التتر وكثر القتل فى المنهزمين فلم يسلم منهم إلا القليل ، ونهب جميع ماهعهم ومن سلم وصل إلى البلاد على أقبح صورة لبعد الطريق والهزيمة وتبعهم كثير يقتلون وينهبون ويخربون البلاد حتى خلا أكثرها فاجتمع كثير من أعيان تجار الروس وأغنيائهم وحملوا ما يعز عليهم وساروا يقطعون البحر إلى بلاد الإسلام فى عدة مراكب فلما قاربوا المرسى الذى يريدونه انكسر مركب من مراكبهم فغرق إلا أن الناس نجوا وكانت العادة جارية أن السلطان له المركب الذى ينكسر فأخذ من ذلك شيئا كثيرا وسلم باقى المراكب وأخبره من بها بهذه الحال .

﴿ ذكر عود التتر من بلاد الروس وقفجاق إلى ملكهم ﴾ لما فعل التتر بالروس ما ذكرناه ونهبوا بلادهم عادوا عنها وقصدوا بلغار أواخر سنة عشرين وستمائة فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم فى عدة مواضع وخرجوا إليهم فلقوهم واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فبقوا فى الوسط وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل قيل كانوا نحو أربعة آلاف رجل فساروا إلى سقين غائدين إلى ملكهم جنكزخان وخلت أرض قفجاق منهم فعاد من سلم منهم إلى بلادهم وكان الطريق منقطعا منذ دخلها التتر فلم يصل منهم شىء من البرطاسى والسنجاب والقندر وغيرها مما يحمل من تلك البلاد فلما فارقوها عادوا إلى بلادهم واتصلت الطريق وحملت الأمتعة كما كانت هذا أخبار التتر المغربة قد ذكرناها سياقة واحدة لئلا تنقطع .

﴿ ذكر مافعله التتر بما وراء النهر بعد بخارا وسمرقند ﴾ قد ذكرنا مافعله التتر المغربة التى سيرها ملكهم جنكزخان لعنه الله إلى خوارزمشاه وأما جنكزخان فإنه بعد أن سير هذه الطائفة إلى خوارزمشاه وبعد انهزام خوارزمشاه من خراسان قسم أصحابه عدة أقسام فسير قسما منها إلى بلاد فرغانة ليملكوها وسير قسما آخر منها إلى ترمذ وسير قسما منها إلى كلانة وهى قلعة حصينة على جانب جيحون من أحصن القلاع وأمنع الحصون فسارت كل طائفة إلى الجهة التى أمرت بقصدها ونازلتها واستولت عليها وفعلت من القتل والأسر والسبى والنهب والتخريب وأنواع الفساد مثل مافعل أصحابهم فلما فرغوا من ذلك عادوا إلى ملكهم جنكزخان وهو بسمرقند فجهز جيشا عظيما مع أحد أولاده وسيره إلى خوارزم وسير جيشا آخر فعبروا جيحون إلى خراسان .

﴿ ذكر ملك التتر خراسان ﴾ لما سار الجيش المنفذ إلى خراسان عبروا جيحون وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنوهم فسلم البلد سنة سبع عشرة وستمائة ولم يتعرضوا إليه بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة وساروا وقصدوا الزوزان وسمند واندخوى وقاريات فملكوا الجميع وجعلوا فيه ولاة ولم يتعرضوا إلى أهلها بسوء ولا أذى سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتى وصلوا إلى الطالقان وهى ولاية تشتمل على عدة بلاد وفيها قلعة حصينة يقال لها متصوركوه لا ترام علوا وارتفاعا وبها رجال يقاتلون شجعان فحصروها مدة ستة أشهر يقاتلون أهلها ليلا ونهارا ولا يظفرون منها بشىء فأرسلوا إلى جنكزخان

Marfat.com

Marfat.com

يعرفونه عجزهم عن ملك هذه القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها فسار بنفسه وبمن عنده من جموعه إليهم وحصرها ومعه خلق كثير من المسلمين أسرى فأمرهم بمباشرة القتال وإلا قتلهم فقاتلوا معه وأقام عليها أربعة أشهر أخرى فقتل من التتر عليها خلق كثير فلما رأى ملكهم ذلك أمر أن يجمع له من الحطب والأخشاب ما أمكن جمعه ، ففعلوا ذلك ، وصاروا يعملون صفا من خشب ، وفوقه صفا من تراب ، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلا عاليا يوازى ، القلعة فاجتمع من بها ، وفتحوا بابها ، وخرجوا منها ، وحملوا حملة رجل واحد فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب وأما الرجالة فقتلوا ودخل التتر القلعة وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال والأمتعة ثم إن جنكزخان جمع أهل البلاد التى أعطاهم الأمان ببلخ وغيرها وسيرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو فدخلوا اليها وقد اجتمع بها من الأعراب والأتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين مايزيد على مائتى ألف رجل وهم معسكرون بظاهر مرو وهم عازمون على لقاء التتر ويحدثون نفوسهم بالغلبة لهم والاستيلاء عليهم فلما وصل التتر إليهم التقوا واقتتلوا فصبر المسلمون وأما التتر فلا يعرفون الهزيمة حتى إن بعضهم أسر فقال وهو عند المسلمين إن قيل إن التتر يقتلون فصدقوا وإن قيل انهم ينهزمون فلا تصدقوا فلما رأى المسلمون صبر التتر وإقدامهم ولوا منهزمين فقتل التتر منهم وأسروا الكثير ولم يسلم إلا القليل ونهبت أموالهم وسلاحهم ودوابهم وأرسل التتر إلى ماحولهم من البلاد يجمعون الرجال لحصار مرو فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدموا إلى مرو وحصروها وجدوا فى حصرها ولازمو القتال وكان أهل البلد قد ضعفوا بانهزام ذلك العسكر وكثرة القتل والأسر فيهم فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل التتر إلى الأمير الذى بها متقدما على من فيها يقولون له لا تهلك نفسك وأهل البلد واخرج إلينا فنحن نجعلك أمير هذه البلدة ونرحل عنك فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد فأمنهم فخرج إليهم فخلع عليه ابن جنكزخان واحترمه وقال له أريد أن تعرض على أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطياه أقطاعا ويكون معنا فلما حضروا عنده وتمكن منهم قبض عليهم وعلى أميرهم وكتفوهم فلما فرغ منهم قال لهم اكتبوا إلى تجار البلد ورؤساءه وأرباب الأموال فى جريدة واكتبوا إلى أرباب الصناعات والحرف فى نسخة أخرى وأعرضوا ذلك علينا ففعلوا ما أمرهم فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهلهم فخرجوا كلهم ولم يبق فيه أحد فجلس على كرسى من ذهب وأمر أن يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم فأحضروا وضربت رقابهم صبرا والناس ينظرون إليهم ويبكون . وأما العامة فإنهم قسموا الرجال والنساء والأطفال فكان يوما مشهودا من كثرة الصراخ والبكاء والعويل وأخذوا أرباب الأموال فضربوهم وعذبوهم بأنواع العقوبات فى طلب الأموال فربما مات أحدهم من شدة الضرب ولم يكن بقى له مايفتدى به نفسه ثم إنهم أحرقوا البلد ، وأحرقوا تربة السلطان سنجر ونبشوا القبر طلبا للمال فبقوا كذلك ثلاثة أيام فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافة ، وقال هؤلاء عصوا علينا فقتلوهم أجمعين وأمر بإحصاء القتلى فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيل فإنا لله وإنا إليه راجعون مما جرى على المسلمين ذلك اليوم ثم ساروا إلى نيسابور فحصروها خمسة أيام وبها جمع صالح من العسكر الإسلامى فلم يكن لهم بالتتر قوة فملكوا المدينة وأخرجوا أهلها إلى الصحراء ، فقتلوهم وسبوا حريمهم وعاقبوا من اتهموه بمال كما فعلوا بمرو وأقاموا خمسة عشر يوما يخربون ويفتشون المنازل عن الأموال وكانوا لما قتلوا أهل مرو قيل لهم إن قتلاهم سلم منهم كثير ، ونجوا إلى بلاد الإسلام فأمروا بأهل

نيسابور أن تقطع رؤوسهم لئلا يسلم من القتل أحد ، فلما فرغوا من ذلك سيروا طائفة منهم إلى طوس ففعلوا بها كذلك أيضا وخربوها وخربوا المشهد الذى فيه على بن موسى الرضا والرشيد حتى جعلوا الجميع خرابا ثم ساروا إلى هراة ، وهى من أحصن البلاد ، فحصروها عشرة أيام ، فملكوها وأمنوا أهلها وقتلوا منهم البعض وجعلوا عند من سلم منهم شحنة وساروا إلى غزنة فلقيهم جلال الدين بن خوارزم شاه فقاتلهم.وهزمهم على مانذكره إن شاء الله فوثب أهل هراة على الشحنة فقتلوه فلما عاد المهزمون اليهم دخلوا البلد قهرا وعنوة وقتلوا كل من فيه ونهبوا الأموال وسبوا الحريم ونهبوا السواد وخربوا المدينة جميعها وأحرقوها وعادوا إلى ملكهم جنكزخان وهو بالطالقان يرسل السرايا إلى جميع بلاد خراسان ففعلوا بها كذلك ولم يسلم من شرهم وفسادهم شىء من البلاد وكان جميع مافعلوه بخراسان سنة سبع عشرة .

﴿ذكر ملكهم خوارزم وتخريبها﴾ وأما الطائفة من الجيش التى سيرها جنكزخان إلى خوارزم فإنها كانت أكثر السرايا جميعها لعظم البلدفساروا حتى وصلوا إلى خوارزم وفيها عسكر كبير وأهل البلد معروفون بالشجاعة والكثرة فقاتلوهم أشد قتال سمع به الناس ودام الحصر لهم خمسة أشهر فقتل من الفريقين خلق كثير إلا أن القتلى من التتر كانوا أكثر لأن المسلمين كان يحميهم السور فأرسل التتر إلى ملكهم جنكزخان يطلبون المدد فأمدهم بخلق كثير فلما وصلوا إلى البلد زحفوا زحفا متتابعا فملكوا طرفا منه فاجتمع أهل البلد وقاتلوهم فى طرف الموضع الذى ملكوا فلم يقدروا على إفراجهم ولم يزالوا يقاتلونهم والتتر يملكون منهم محلة بعد محلة وكلما ملكوا محلة قاتلهم المسلمون فى المحلة التى تليهم فكان الرجال والنساء والصبيان يقاتلون فلم يزالوا كذلك حتى ملكوا البلد جميعه وقتلوا كل من فيه ونهبوا كل مافيه ثم إنهم فتحوا السكر الذى يمنع ماء جيحون عن البلد فدخله الماء فغرق البلد جميعه وتهدمت الأبنية وبقى موضعه ماء ولم يسلم من أهله أحد البتة فإن غيره من البلاد قد كان يسلم بعض أهله فمنهم من يختفى ومنهم من يهرب ومنهم من يخرج ثم يسلم ومنهم من يلقى نفسه بين القتلى فينجو وأما أهل خوارزم فمن اختفى من التتر غرقه الماء أوقتله الهدم فأصبحت خرابا يبابا :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ٭ أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وهذا لم يسمع بمثله فى قديم الزمان وحديثه نعوذ بالله من الخور بعد الكور ، ومن الخذلان بعد النصر فلقد عمت هذه المصيبة الإسلام وأهله ، فكم من قتيل من أهل خراسان وغيرها لأن القاصدين من التجار وغيرهم كانوا كثيرا مضى الجميع تحت السيف ولما فرغوا من خراسان وخوارزم عادوا إلى ملكهم بالطالقان .

﴿ذكر ملك التتر غزنة وبلاد الغور﴾ لما فرغ التتر من خرسان وعادوا إلى ملكهم جيشا كثيفا وسيره إلى غزنة وبها جلال الدين بن خوارزمشاه مالكالها وقد اجتمع اليه من سلم من عسكر أبيه قيل كانوا ستين ألفا فلما وصلوا إلى أعمال غزنة خرج اليهم المسلمون مع ابن خورزمشاه إلى موضع يقال له بلق فالتقوا هناك واقتتلوا قتالا شديدا وبقوا كذلك ثلاثة أيام ثم أنزل الله نصره على المسلمين فانهزم التتر وقتلهم المسلمون كيف شاؤا ومن سلم منهم عاد إلى ملكهم بالطالقان فلما سمع أهل هراة بذلك ثاروا بالوالى الذى عندهم للتتر فقتلوه فسير اليهم جنكزخان عسكرا فملكوا البلد وخربوه كماذكرناه فلما انهزم التتر أرسل جلال الدين رسولا إلى جنكزخان يقول له فى أى موضع تريد يكون الحرب حتى نأتى اليه فجهز جنكزخان عسكرا كثيرا أكثر من الأول مع

Marfat.com

Marfat.com

بعض أولاده وسيره اليه فوصل إلى كابل فتوجه العسكر الإسلامى اليهم وتصافوا هناك وجرى بينهم قتال عظيم فانهزم الكفار ثانيا فقتل كثير منهم وغنم المسلمون مامعهم وكان عظيما وكان معهم من أسارى المسلمين خلق كثير فاستنقذوهم ثم إن المسلمين جرى بينهم فتنة لأجل الغنيمة وسبب ذلك أن أميرا منهم يقال له سيف الدين بغراق أصله من الأتراك الخلج كان شجاعا مقدار ماذا رأى فى الحرب ومكيدة واصطلى الحرب مع التتر بنفسه وقال لعسكر جلال الدين تأخروا أنتم فقد ملئتم منهم رعبا وهو الذى كسر التتر على الحقيقة وكان من المسلمين أيضا أمير كبير يقال له ملك خان بينه وبين خوارزمشاه نسب وهو صاحب هراة فاختلف هذان الأميران فى الغنيمة فاقتتلوا فقتل بينهم أخ لبغراق فقال بغراق أنا أهزم الكفار ويقتل أخى لأجل هذا السحت فغضب وفارق العسكر وسار إلى الهند فتبعه من العسكر ثلاثون ألفا كلهم يريدونه فاستعطفه جلال الدين بكل طريق وسار بنفسه إليه وذكره الجهاد وخوفه من الله تعالى وبكى بين يديه فلم يرجع وسار مفارقا فانكسر لذلك المسلمون وضعفوا فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر أن جنكزخان قد وصل فى جموعه وجيوشه فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين لأجل من فارقهم من العسكر ولم يقدر على المقام سار نحو بلاد الهند فوصل إلى ماء السند وهو نهر كبير فلم يجد من السفن مايعبر فيه وكان جنكزخان يقص أثره مسرعا فلم يتمكن جلال الدين من العبور حتى أدركه جنكزخان فى التتر فاضطر المسلمون حينئذ إلى القتال والصبر لتعذر العبور عليهم وكانوا فى ذلك كالأشقر إن تقدم ينحر وإن تأخر يعقر فتصافوا واقتتلوا أشد قتال اعترفوا كلهم أن كل ماضى من الحروب كان لعبا بالنسبة إلى هذا القتال فبقوا كذلك ثلاثة أيام فقتل الأمير ملك خان المقدم ذكره وخلق كثير وكان القتل فى الكفار أكثر والجراح أعظم فرجع الكفار عنهم فأبعدوا ونزلوا فلما رأى المسلمون أنهم لامدد لهم وقد ازدادوا ضعفا بمن قتل منهم وجرح ولم يعلموا بما أصاب الكفار من ذلك فأرسلوا يطلبون السفن فوصلت وعبر المسلمين ليقضى الله أمرا كان مفعولا فلما كان الغد عاد الكفار إلى غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين الماء إلى جهة الهند وبعدهم فلما وصلوا إليها ملكوها لوقتها لخلوها من العساكر والمحامى فقتلوا أهلها ونهبوا الأموال وسبوا الحريم ولم يبق أحد وخربوها وأحرقوها وفعلوا بسوادها كذلك ونهبوا وقتلوا وأحرقوا فأصبحت تلك الأعمال جميعها خالية من الأنيس خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس .

﴿ذكر تسليم الأشرف خلاط إلى أخيه شهاب الدين غازى﴾ أواخر هذه السنة أقطع الملك الأشرف موسى ابن العادل مدينة خلاط وجميع الأعمال أرمينية ومدينة ميافارقين من ديار بكر ومدينة حانى أخاه شهاب الدين غازى بن العادل وأخذ منه مدينة الرها ومدينة سروج من بلاد الجزيرة وسيره إلى خلاط أول سنة ثمان عشرة وستمائة وسبب ذلك أن الكرج لما قصد التتر بلادهم وهزموهم ونهبوها وقتلوا كثيراً من أهلها أرسلوا إلى أوزبك صاحب أذربيجان وأران يطلبون منه المهادنة والموافقة على دفع التتر وأرسلوا إلى الملك الأشرف فى هذا المعنى وقالوا للجميع إن لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم ، ودفعهم عن بلادنا ، وتحضروا بنفوسكم وعساكركم لهذا المهم والإصالحناهم عليكم فوصلت رسلهم إلى الأشرف يتجهز إلى الديار المصرية لأجل الفرنج وكانوا عنده أهم الوجوه لأسباب أولها إن الفرنج كانوا قد ملكوا دمياط وقد أشرفت الديار المصرية على أن تملك فلو ملكوها لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملك لأحد وثانيها أن الفرنج أشد شكيمة وطالبو ملك فإذا ملكوا قرية لايفارقونها إلا بعد أن يعجزوا عن حفظها يوما واحدا وثالثها أن الفرنج قد طمعوا فى كرسى

ملكه البيت العادلى وهى مصر والتتر لم يصلوا إليها ولم يجاوزوا شيئا من بلادهم وليسوا أيضا ممن يريد المنازعة فى الملك وما غرضهم إلا النهب والقتل وتخريب البلاد والانتقال من بلد إلى آخر فلما أتاه وصل الكوخ بما ذكرناه أجابهم يعتذر بالمسير إلى مصر لدفع الفرنج ويقول لهم إننى قد أقطعت ولاية خلاط لأخى وسيرته إليها ليكون بالقرب منكم وتركت عنده العساكر فمتى احتجتم إلى نصرته حضر لدفع التتر وسار هو إلى مصر كما ذكرناه .

(ذكر عدة حوادث) فى هذه السنة فى ربيع الآخر ملك بدر الدين قلعة تل أعفر . وفيها فى جمادى الأولى ملك الأشرف مدينة سنجار . وفيها أيضا وصل الموصل وأقام بظاهرها ثم سار يريد إربل لقصد صاحبها فترددت الرسل بينهم فى الصلح فاصطلحوا فى شعبان ، وقد تقدم هذا جميعه مفصلا سنة خمس عشرة وستمائة ، وفيها وصل التتر الرى فملكوها وقتلوا كل من فيها ونهبوها وساروا عنها فوصلوا إلى همذان فلقيهم رئيسها بالطاعة والحمل فأبقوا على أهلها وساروا إلى أذربيجان فخربوا وحرقوا البلاد وقتلوا وسبوا وعملوا مالم يسمع بمثله وقد تقدم أيضا مفصلا . وفيها توفى نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الذى كان وزير الخليفة وصلى عليه بجامع القصر وحضره أرباب الدولة ودفن بالمشهد . وفيها توفى صدر الدين أبو الحسن محمد بن عمر بن حمويه الجوينى شيخ الشيوخ بمصر والشام وكان موته بالموصل وردها رسولا وكان فقيها فاضلا وصوفيا صالحا من بيت كبير من خراسان رحمه الله كان نعم الرجل وفيها عاد جمع بنى معروف إلى مواضعهم من البطيحة وكانوا قد ساروا إلى الأجنا والقطيف فلم يمكنهم المقام لكثرة أعدائهم فقصدوا شحنة البصرة وطلبوا منه أن يكاتب الديوان ببغداد بالرضا عنهم فكتب معهم بذلك وسيرهم مع أصحابه إلى بغداد فلما قاربوا واسط لقيهم قاصد من الديوان بقتلهم فقتلوا (١)

(ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة)

(ذكر وفاة قتادة أمير مكة وملك ابنه الحسن وقتل أمير الحاج) فى هذه السنة فى جمادى الآخرة توفى قتادة ابن إدريس العلوى ثم الحسينى أمير مكة حرسها الله وكان عمره نحو سبعين سنة ، وكانت ولايته قد اتسعت من حدود اليمن إلى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم وله قلعة ينبع بنواحى المدينة وكثر عسكره واستكثر من المماليك وخافه العرب فى تلك البلاد خوفا عظيما وكان أول ملكه لما ملك مكة حرسها الله حسن السيرة أزال عنها العبيد المفسدين وحمى البلاد وأحسن إلى الحجاج وأكرمهم وبقى كذلك مدة ثم أنه بعد ذلك أساء السيرة وجدد المكوس بمكة وفعل أفعالا شنيعة ونهب الحاج فى بعض السنين كما ذكرناه ، ولما مات ملك بعده ابنه الحسن وكان له ابن آخر اسمه راجح مقيم فى العرب بظاهر مكة يفسد وينازع أخاه فى ملكه ، فلما سار حاج العراق كان الأمير عليهم مملوكا من مماليك الخليفة الناصر لدين الله اسمه اقباش وكان حسن السيرة مع الحاج

---

(١) وفيها توفى أبو عبدالله الحسين بن محمد بن أبى بكر المجلى الموصلى ، ويعرف بابن الجهنى ، شاب فاضل ولى كتابة الإنشاء لبدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل ، ومن شعره :

نفسى فداء الذى فكرت فيه وقد ٭ غدوت أغرق فى بحر من العجب

يبدو بليل على صبح على قمر ٭ على قضيب على وهم على كثب

Marfat.com

Marfat.com

فى الطريق كثير الحماية فقصده راجح بن قتادة وبذل له وللخليفة مالا ليساعده على ملك مكة فأجابه إلى ذلك ووصلوا إلى مكة ونزلوا بالزاهر وتقدم إلى مكة مقاتلا لصاحبها حسن وكان حسن قد جمع جموعا كثيرة من العرب وغيرها فخرج إليه من مكة وقاتله وتقدم أمير الحاج من بين يدى عسكره منفرداً وصعد الجبل إدلالا بنفسه وأنه لايقدم أحد عليه فأحاط به أصحاب حسن وقتلوه وعلقوا رأسه فانهزم عسكر أمير المؤمنين وأحاط أصحاب حسن بالحاج لينهبوهم فأرسل إليهم حسن عمامته أمانا للحجاج فعاد أصحابه ولم ينهبوا منهم شيئا وسكن الناس وأذن لهم حسن فى دخول مكة وفعل مايريدونه من الحج والبيع وغير ذلك ، وأقاموا بمكة عشرة أيام وعادوا فوصلوا إلى العراق سالمين وعظم الأمر على الخليفة فوصلت رسل حسن يعتذرون ويطلبون العفو عنه فأجيب إلى ذلك ، وقيل فى موت قتادة إن ابنه حسنا خنقه فمات وسبب ذلك أن قتادة جمع جموعا كثيرة وسار عن مكة يريد المدينة فنزل بوادى الفرع وهو مريض وسير أخاه على الجيش ومعه ابنه الحسن بن قتادة فلما أبعدوا بلغ الحسن أن عمه قال لبعض الجند : إن أخى مريض ، وهو ميت لا محالة ، وطلب منهم أن يحلفوا له ليكون هو الأمير بعد أخيه قتادة فحضر الحسن عند عمه واجتمع إليه كثير من الأجناد والمماليك الذين لأبيه فقال الحسن لعمه قد فعلت كذا وكذا ، فقال لم أفعل فأمر حسن الحاضرين بقتله فلم يفعلوا وقالوا أنت أمير وهذا أمير ولانمد أيدينا إلى أحدكما فقال له غلامان لقتادة : نحن عبيدك ، فمرنا بما شئت ، فأمرهما أن يحملا عمامة عمه فى عنقه ففعلا ثم قتله ، فسمع قتادة الخبر فبلغ منه الغيظ كل مبلغ وحلف ليقتلن ابنه وكان على ماذكرناه من المرض فكتب بعض أصحابه إلى الحسن يعرفه الحال ويقول له أبدا به قبل أن يقتلك فعاد الحسن إلى مكة فلما وصلها قصد دار أبيه فى نفر يسير فوجد على باب الدار جمعا كثيراً فأمرهم بالانصراف إلى منازلهم ففارقوا الدار وعادوا إلى مساكنهم ودخل الحسن إلى أبيه فلما رآه أبوه شتمه وبالغ فى ذمه وتهديده فوثب إليه الحسن فخنقه لوقته وخرج إلى الحرم الشريف . وأحضر الأشراف وقال : إن أبى قد اشتد مرضه وقد أمركم أن تحلفوا لى أن أكون أنا أميركم فحلفوا له ثم إنه أظهر تابوتا ودفنه ليظن الناس أنه مات وكان قد دفنه سرا فلما استقرت الإمارة بمكة له أرسل إلى أخيه الذى بقلعة الينبع على لسان أبيه يستدعيه وكتم موت أبيه عنه فلما حضر أخوه قتله أيضا واستقر أمره وثبت قدمه وفعل بأمير الحاج ماتقدم ذكره ، فارتكب عظيما قتل أباه وعمه وأخاه فى فى أيام يسيرة ، لاجرم لم يمهله الله سبحانه وتعالى ، نزع ملكه وجعله طريداً شريداً خائفا يترقب . وقيل إن قتادة كان يقول شعراً ، فمن ذلك أنه طلب ليحضر عند أمير الحاج كما جرت عادة أمراء مكة فامتنع . فعوتب من بغداد ، فأجاب بأبيات شعر منها :

ولى كبد ضرغام أدل ببطشها * وأشرى بها بين الورى وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها * وفى سطحها للمجد بين ربيع
أأجعلها تحت الرحا ثم ابتغى * خلاصا لها إنى إذاً لرقيع
وما أنا إلا المسك فى كل بلدة * يضوع ، وأما عندكم فيضيع

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة استعاد المسلمون مدينة دمياط بالديار المصرية من الفرنج وقد تقدم ذكرها مشروحا مفصلا . وفيها فى صفر ملك التتر مراغة وخربوها وأحرقوها وقتلوا أكثر أهلها ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وسار التتر منها إلى همذان وحصروها فقاتلهم أهلها وظفر بهم التتر وقتلوا منهم

مالا يحصى ونهبوا البلد وساروا إلى أذربيجان فأعادوا النهب ونهبوا مابقى من البلاد ولم ينهبوه أولا ووصلوا إلى بيلقان من بلاد أران فحصروها وملكوها وقتلوا أهلها حتى كادوا يفنونهم وقتل منهم كثير ونهبت أموالهم وأكثر بلادهم وقصدوا دربند شروان فحصروا مدينة شماخى وملكوها وقتلوا كثيرا من أهلها وساروا إلى بلد اللان واللكز ومن عندهم من الأمم فأوقعوا ورحلوا عن قفجاق وأجلوهم عنهم واستولوا عليها وساحوا فى تلك الأرض حتى وصلوا إلى بلاد الروس وقد تقدم ذكر جميعه مستقصى وإنما أوردناه ههنا جملة ليعلم الذى كان فى هذه السنة من حوادثهم . وفيها توفى صديقنا أمين الدين ياقوت الكاتب الموصلى ولم يكن فى زمانه من يكتب مايقاربه ولا من يؤدى طريقة ابن البواب مثله وكان ذا فضائل جمة من علم الأدب وغيره وكان كثير الخير نعم الرجل مشهورا فى الدنيا والناس متفقون على الثناء الجميل عليه والمدح له ، ولهم فيه أقوال كثيرة نظما ونثرا فمن ذلك ماقاله نجيب الدين الحسين بن على الواسطى من قصيدة يمدحه بها .

جامع شارد العلوم ولولا ٭ ه لكانت أم الفضائل ثكلى
ذو يراع تخاف سطوته الأسـد وتعنو له الكتائب ذلا
وإذا أفتر ثغره عن سواد ٭ فى بياض فالبيض والسمر خجلى
أنت بدر والكاتب بن هلال ٭ كأبيه لا فخر فيمن تولى

ومنها

إن يكن أولا فإنك بالتفضيل أولى لقد سبقت وصلى

وهى طويلة والكاتب بن هلال هو ابن البواب الذى هو أشهر من أن يعرف . وفيها توفى جلال الدين الحسن وهو من أولاد الحسن بن الصباح الذى تقدم ذكره صاحب ألموت وكردكوه وهو مقدم الاسماعيلية وقد ذكرنا أنه كان قد أظهر شريعة الإسلام من الأذان والصلاة وولى بعده ابنه علاء الدين محمد (١)

---

(١) وفيها توفى أبو الغيث شعيب بن أبى طاهر بن كليب بن مقبل الضرير الفقيه الشافعى ، أقام ببغداد إلى أن توفى ، وكانت لديه فضائل وله رسائل ، ومن شعره وقوله :

إذا كنتم للناس أهل سياسة ٭ فسوسوا كرام الناس بالوجود والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا ٭ عليه ، فان الذل أصلح للنذل

وفيها توفى أبو العزشرف بن على ابن أبى جعفر بن كامل الخالصى المقرى الضرير الفقيه الشافعى ، تفقه بالنظامية وسمع الحديث ورواه ، وأنشد عن الحسن بن عمرو الحلبى :

تمثلتم لى والديار بعيدة ٭ فخيل لى أن الفؤاد لكم معنى
وناجاكم قلبى على البعد بيننا ٭ فأوحشتم لفظا وآنستم معنى

وفيها توفى أبو المظفر عبد الودود بن محمود بن المبارك بن على بن المبارك بن الحسن الواسطى الأصل ، البغدادى الدار والمولد ، كمال الدين المعروف والده بالمجيد ، تفقه على أبيه وقرأ عليه علم الكلام ، ودرس بمدرسته عند باب الأزج ، ووكله الخليفة الناصر واشتهر بالديانة والأمانة ، وباشر مناصب كباراً ، وحج مراراً عديدة ، وكان متواضعاً حسن الأخلاق وكان يقول :

وما تركت ست وستون حجة ٭ لنا حجة أن نركب اللهو مركبا

وكان ينشد :

العلم يأتى كل ذى خفض ٭ ويأبى على كل آبى
كالماء ينزل فى الرما ٭ دولبس يعد فى الروابى

Marfat.com

﴿ ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة ﴾

﴿ ذكر خروج طائفة من قفجاق إلى أذربيجان وما فعلوه بالكرج وما كان منهم ﴾ لما استولى التتر على أرض قفجاق تفرق قفجاق فطائفة قصدت بلاد الروس وطائفة تفرقت فى جبالهم واجتمع طائفة كثيرة منهم وساروا إلى دربند شروان وأرسلوا إلى صاحبه واسمه رشيد وقالوا له إن التتر قد ملكوا بلادنا ونهبوا أموالنا وقد قصدناك لنقيم فى بلادك ونحن مماليك لك ونفتح البلاد لك وأنت سلطاننا فمنعهم من ذلك وخافهم فأعادوا الرسالة إليه إننا نحن نرهن عندك أولادنا ونساءنا على الطاعة والخدمة لك والانقياد لحكمك فلم يجبهم إلى ماطلبوا فسألوه أن يمكنهم ليتزودوا من بلده تدخل عشرة عشرة فإذا اشتروا مايحتاجون إليه فارقوا بلاده فأجابهم إلى ذلك فصاروا يدخلون متفرقين ويشترون مايريدون ويخرجون ثم إن بعض كبرائهم والمقدمين منهم جاء إلى رشيد وقال إننى كنت فى خدمة السلطان خوارزمشاه وأنا مسلم والدين يحملنى على نصحك ، اعلم أن قفجاق أعداؤك ويريدون الغدر بك فلا تمكنهم من المقام ببلادك فاعطنى عسكرا حتى أقاتلهم وأخرجهم من البلاد ففعل ذلك وسلم إليه طائفة من عسكرة وأعطاهم مايحتاجون إليه من سلاح وغيره فساروا معه فأوقعوا بطائفة من قفجاق فقتل منهم جماعة ونهب منهم فلم يتحرك قفجاق لقتال بل قالوا نحن مماليك الملك شروان شاه رشيد ولولا ذلك لقاتلنا عسكره فلما عاد ذلك المقدم القفجانى ومعه عسكر رشيد سالمين فرح بهم ثم إن قفجاق فارقوا موضعهم فساروا ثلاثة أيام فقال ذلك القفجاقى لرشيد أريد عسكراً أتبعهم فأمر له من العسكر بما أراد فسار يقفو أثر القجاق فأوقع بأواخرهم وغنم منهم وقصده جمع كثير من قفجاق من الرجال والنساء يبكون وقد جزوا شعورهم ومعهم تابوت وهم محيطون به يبكون حوله وقالوا له إن صديقك فلانا قد مات وقد أوصى أن نحمله إليك فتدفنه فى أى موضع شئت ونكون نحن عندك فحمله معه والذين يبكون عليه أيضا وعاد إلى شروان شاه رشيد وأعلمه أن الميت صديق له وقد حمله معه وقد طلب أهله أن يكونوا عنده فى خدمته فأمر أن يدخلوا البلد وأنزلهم فيه فكان أولئك الجماعة يسيرون مع ذلك المقدم ويركبون بركوبه ويصعدون معه إلى القلعة التى لرشيد ويقعدون عنده ويشربون معهم ونساؤهم فأحب رشيد امرأة ذلك الرجل الذى قيل له إنه ميت ولم يكن مات وإنما فعلوا هكذا مكيدة حتى دخلوا البلد والذى أظهروا موته معهم فى المجلس ولا يعرفه رشيد هو من أكبر مقدمى قفجاق فبقوا كذلك عدة أيام فكل يوم يجىء جماعة من قفجاق متفرقين فاجتمع بالقلعة منهم جماعة وأرادوا قبض رشيد وملك بلاده ففطن لذلك فخرج عن القلعة من باب السر وهرب ومضى إلى شروان وملك قفجاق القلعة وقالوا لأهل البلد نحن خير لكم من رشيد وأعادوا باقى أصحابهم إليهم وأخذوا السلاح الذى فى البلد جميعه واستولوا على الأموال التى كانت لرشيد فى القلعة ورحلوا عن القلعة وقصدوا قبلة وهى للكرج فنزلوا عليها وحصروها فلما سمع رشيد بمفارقتهم القلعة رجع إليها وملكها وقتل من بها من قفجاق ولم يشعر القفجاق الذين عند قبلة بذلك فأرسلوا طائفة منهم إلى القلعة فقتلهم رشيد أيضا فبلغ الخبر إلى القفجاق فعادوا إلى دربند فلم يكن لهم فى القلعة طمع وكان صاحب قبلة لما كانوا يحصرونه قد أرسل إليهم وقال لهم أنا أرسل إلى ملك الكرج حتى يرسل إليكم الخلع والأموال ونجتمع نحن وأنتم ونملك البلاد فكفوا عن نهب ولايته أياما ثم إنهم مدوا أيديهم بالنهب والفساد ونهبوا بلاد قبلة جميعها وساروا إلى قريب كنجة من بلاد أران وهى

Marfat.com

Marfat.com

المسلمين فنزلوا هناك فأرسل إليهم الأمير بكنجة وهو مملوك لأوزبك صاحب آذربيجان اسمه كوشخرة عسكرا فمنعهم من الوصول إلى بلاده وسير رسولا إليهم يقول لهم غدرتم بصاحب شروان وأخذتم قلعته وغدرتم بصاحب قبلة ونهبتم بلاده فما يثق بكم أحد فأجابوا أننا ماجئنا إلا قصدا لخدمة سلطانكم فمنعنا شروان شاه عنكم فلهذا قصدنا بلاده وأخذنا قلعته ثم تركناها من غير خوف وأما صاحب قبلة فهو عدو لكم ولو أردنا أن تكون عند الكرج لما كنا جعلنا طريقنا على دربند شروان فإنه أصعب وأشق وأبعد وكنا جئنا إلى بلادهم على عادتنا ونحن نوجه الرهائن إليكم فلما سمع هذا سار إليهم فسمع به قفجاق فركب أميران منهم هما مقدماهم فى نفر يسير وجاؤا إليه ولقوه وخدموه وقالوا له قد أتيناك جريدة فى قلة من العدد لتعلم أننا ماقصدنا إلا الوفاء والخدمة لسلطانكم فأمرهم كوشخرة بالرحيل والنزول عند كنجة وتزوج ابنة أحدهم وأرسل إلى صاحبه أوزبك يعرفه حالهم فأمر لهم بالخلع والنزول بجبل كيلكون ففعلوا ذلك وخافهم الكرج فجمعوا لهم ليكبسوهم فوصل الخبر بذلك إلى كوشخرة أمير كنجة فأخبر قفجاق وأمرهم بالعود والنزول عند كنجة فعادوا ونزلوا عندها وسار أمير من أمراء قفجاق فى جمع منهم إلى الكرج فكبسهم وقتل كثيرا منهم وهزمهم وغنم مامعهم وأكثر القتل فيهم والأسر منهم وتمت الهزيمة عليهم ورجع قفجاق إلى جبل كيلكون فنزلوا فيه كما كانوا فلما نزلوا أراد الأمير الآخر من أمراء قفجاق أن يؤثر فى الكرج مثل مافعل صاحبه فسمع كوشخرة فأرسل إليه ينهاه عن الحركة إلى أن يكشف له خبر الكرج فلم يقف فسار إلى بلادهم فى طائفته ونهب وخرب وأخذ الغنائم فسار الكرج من طريق يعرفونها وسبقوه فلما وصل إليهم قاتلوه وحملوا عليه وعلى من معه على غرة وغفلة فوضعوا السيف فيهم وأكثروا القتل فيهم واستنقذوا الغنائم منه فعاد هو ومن معه على أقبح حالة وقصدوا برذعة وأرسلوا إلى كوشخرة يطلبون أن يحضر عندهم هو بنفسه وعسكره ليقصدوا الكرج فيأخذوا بثارهم منهم فلم يفعل وأخافهم وقال أنتم خالفتمونى وعملتم برأيكم فلا أنجدكم بفارس واحد فأرسلوا يطلبون الرهائن الذين لهم فلم يعطهم فاجتمعوا وأخذوا كثيرا من المسلمين عوضا من الرهائن فثار بهم المسلمون من أهل البلاد وقاتلوهم فقتلوا منهم جماعة كثيرة فخافوا وساروا نحو شروان وجازوا إلى بلد اللكز فطمع الناس فيهم المسلمون والكرج واللكز وغيرهم فأفنوهم قتلا ونهبا وأسرا وسبيا بحيث أن المملوك منهم كان يباع فى دربند شروان بالثمن البخس.

﴿ ذكر نهب الكرج بيلقان ﴾ فى هذه السنة فى شهر رمضان سار الكرج من بلادهم إلى بلاد أران وقصدوا مدينة بيلقان وكان التتر قد خربوها ونهبوها كما ذكرناه قبل فلما سار التتر إلى بلاد قفجاق عاد من سلم من أهلها إليها وعمروا ما أمكنهم عمارته من سورها فبينما هم كذلك إذا أتاهم الكرج ودخلوا البلد وملكوه وكان المسلمون فى تلك البلاد ألفوا من الكرج أنهم إذا ظفروا ببلد صانعوهم بشىء من المال فيعودون عنهم فكانوا أحسن الأعداء مقدرة فلما كان هذه الدفعة ظن المسلمون أنهم يفعلون مثل مأتقدم فلم يبالغوا فى الامتناع منهم ولا هربوا من بين أيديهم فلما ملك الكرج المدينة وضعوا السيف فى أهلها وفعلوا من القتل والنهب مافعل بهم التتر هذا جميعه يجرى وصاحب بلاد أذربيجان أوزبك بن البهلوان بمدينة تبريز ولا يتحرك فى صلاح ولا يتجه لخير بل قد قنع بالأكل وإدمان الشرب والفساد فقبحه الله ويسر للمسلمين من يقوم بنصرهم وحفظ بلادهم بمحمد وآله.

﴿ ذكر ملك بدرالدين قلعة شوش ﴾ فى هذه السنة ملك بدرالدين صاحب الموصل قلعة شوش من

Marfat.com

أعمال الحميدية وبينها وبين الموصل اثنا عشر فرسخا وسبب ذلك أنها كانت هى وقلعة العقر متجاورتين لعماد الدين زنكى بن أرسلانشاه وكان بينهما من الخلف ماتقدم ذكره فلما كان هذه السنة سار زنكى إلى أذربيجان ليخدم صاحبها أوزبك بن البهلوان فاتصل به وصار معه وأقطعه أقطاعات وأقام عنده فسار بدر الدين إلى قلعة شوش لحاصرها وضيق عليها وهى على رأس جبل عال فطال مقامه عليها لحصانتها فعاد إلى الموصل وترك عسكره محاصرا لها فلما طال الأمر على من بها ولم يروا من يرحله عنهم ولا من ينجدهم سلموها على قاعدة استقرت بينهم من أقطاع وخلع وغير ذلك فتسلمها نوابه فى التاريخ ورتبوا أمورها وعادوا إلى الموصل.

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة فى العشرين من شعبان ظهر كوكب فى السماء فى الشرق كبير له ذؤابة طويلة غليظة وكان طلوعه وقت السحر فبقى كذلك عشرة أيام ثم إنه ظهر أول الليل فى الغرب مما يلى الشمال فكان كل ليلة يتقدم إلى جهة الجنوب نحو عشرة أذرع فى رأى العين فلم يزل يقرب من الجنوب حتى صار غربا محضا ثم صار غربا مائلا إلى الجنوب بعد أن كان غربا مما يلى الشمال فبقى كذلك إلى آخر شهر رمضان من السنة ثم غاب. وفيها توفى ناصر الدين محمود بن محمد قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وآمد وكان ظالما قبيح السيرة فى رعيته قيل إنه كان يتظاهر بمذهب الفلاسفة فى أن الأجساد لاتحشر كذبوا لعنهم الله ولما مات ملك إبنه الملك المسعود (١)

﴿ ثم دخلت سنة عشرين وستمائة ﴾

﴿ ذكر ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى ﴾ فى هذه السنة سار الملك المسعود اتسز بن الملك الكامل محمد صاحب مصر إلى مكة وصاحبها حينئذ حسن بن قتادة بن إدريس العلوى الحسينى قد ملكها بعد أبيه كما ذكرنا، وكان حسن قد أساء إلى الأشراف والمماليك الذين كانوا لأبيه، وقد تفرقوا عنه ولم يبق عنده غير أخواله من غيره فوصل صاحب اليمن إلى مكة ونهبها عسكره إلى العصر فحدثنى بعض المجاورين المتأهلين أنهم نهبوها حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهم، وأمر صاحب اليمن أن ينبش قبر قتادة ويحرق فنبشوه فظهر التابوت الذى دفنه ابنه الحسن والناس ينظرون إليه فلم يروا فيه شيئا فعلموا حينئذ أن الحسن دفن أباه سرا وأنه لم يجعل فى التابوت شيئا وذاق الحسن عاقبة قطيعة الرحم وعجل الله مقابلته وأزال عنه ماقتل أباه وأخاه وعمه لأجله خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

﴿ ذكر حرب بين المسلمين والكرج بأرمينية ﴾ فى هذه السنة فى شعبان سار صاحب قلعة سرمارى وهى من أعمال أرمينية إلى خلاط لأنه كان فى طاعة صاحب خلاط وهو حينئذ شهاب الدين غازى بن العادل أبى بكر ابن أيوب فحضر عنده واستخلف ببلده أميراً من أمرائه فجمع هذا الأمير جمعا وسار إلى بلاد الكرج فنهب

---

(١) وفيها توفى قطب الدين العادل بالفيوم ونقل إلى القاهرة. وفيها توفى إمام الحنابلة بمكة. وفيها توفى الشيخ نصر بن أبى الفرج المعروف بابن الحصرى، جاور بمكة مدة لم يسافر، ثم ساقته المنية إلى اليمن، فمات بها فى هذه السنة. قد سمع الحديث من جماعة من المشايخ. وفيها فى ربيع الأول توفى بدمشق الشهاب عبد الكريم بن نجم النيلى أخو البهاء والناصح، وكان فقيها مناظرا بصيرا بالمحاكمات. وهو الذى أخرج مسجد الوزير من يد الشيخ علم الدين السخاوى رحمه الله تعالى بمنه وكرمه.

Marfat.com

منها عدة قرى ، وعاد فسمعت الكرج بذلك فجمع صاحب دوين واسمه شلوة وهو من أكابر أمراء الكرج عسكره وسار إلى سرمارى ، فحصرها أياما ونهب بلدها وسوادها ورجع فسمع صاحب سرمارى الخبر فعادى إلى سرمارى فوصل إليها فى اليوم الذى رحل الكرج عنها فأخذ عسكره وتبعهم فأوقع بساقتهم فقتل منهم وغنم واستنقذ ما أخذوا من غنائم بلاده ثم إن صاحب دوين جمع عسكره وسار إلى سرمارى ليحصرها فوصل الخبر إلى صاحبها بذلك فحصنها وجمع الذخائر ومايحتاج إليه فأتاه من أخبره أن الكرج نزلوا بواد بين دوين وسرمارى وهو واد ضيق فسار بجميع عسكره جريدة وجد السير ليكبس الكرج فوصل إلى الوادى الذى هم فيه وقت السحر ففرق عسكره فرقتين ، فرقة من أعلى الوادى وفرقة من أسفله ، وحملوا عليهم وهم غافلون ووضعوا السيف فيهم فقتلوا وأسروا فكان فى جملة الأسرى شلوة أمير دوين فى جماعة كثيرة من مقدميهم ومن سلم من الكرج عاد إلى بلدهم على حال سيئة ثم إن ملك الكرج أرسل إلى الملك الأشرف موسى بن العادل صاحب ديار الجزيرة وهو الذى أعطى خلاط وأعمالها الأمير شهاب الدين يقول له كنا نظن أننا على صلح والآن فقد عمل صاحب سرمارى هذا العمل فإن كنا على الصلح فنريد إطلاق أصحابنا من الأسر وإن كان الصلح قدانفسخ بيننا فتعرفنا حتى ندبر أمرنا فأرسل الأشرف إلى صاحب سرمارى يأمره بإطلاق الأسرى وتجديد الصلح مع الكرج ففعل ذلك واستقرت قاعدة الصلح وأطلق الأسرى .

﴿ذكر الحرب بين غياث الدين وبين خاله﴾ فى هذه السنة فى جمادى الآخرة انهزم إيغان طائسى وهو خال غياث الدين بن خوارزمشاه محمد بن تكش وهذا غياث الدين هو صاحب بلاد الجبل والرى وأصبهان وغير ذلك وله أيضا بلاد كرمان وكان سبب ذلك أن خاله إيغان طائسى كان معه وفى خدمته وهو أكبر أمير معه لايصدر غياث الدين إلا عن رأيه والحكم إليه فى جميع المملكة فلما عظم شأنه حدث نفسه بالاستيلاء على الملك وحسن له ذلك غيره وأطعمه فيه قيل إن الخليفة الناصر لدين الله أقطعه البلاد سرا وأمره بذلك فقويت نفسه على الخلاف فاستفسد جماعة من العسكر واستمالهم فلما تم له أمره أظهر الخلاف على غياث الدين وخرج عن طاعته أوزبك وصار فى البلاد يفسد ويقطع الطريق وينهب ما أمكنه من القرى وغيرها وانضاف إليه جمع كثير من أهل العنف والفساد ومعه مملوك آخر اسمه أيبك الشامى كانا متفقين على العصيان فقوى بهما وساروا جميعهم إلى غياث الدين ليقاتلوه ويملكوا بلاده ويخرجوه منها فجمع غياث الدين عسكره والتقوا بنواحى (٣) واقتتلوا فانهزم خال غياث الدين ومن معه وقتل من عسكره وأسر كثير وعاد المنهزمون إلى أذربيجان على أقبح حال وأقام غياث الدين فى بلاده وثبت قدمه .

﴿ حادثة غريبة لم يوجد مثلها ﴾ كان أهل مملكة الكرج لم يبق منهم غير امرأة وقد انتهى الملك إليها فوليته وقامت بالأمر فيهم وحكمت فطلبوا لها رجلا يتزوجها ويقوم بالملك نيابة عنها ويكون من أهل بيت مملكة فلم يكن فيهم من يصلح لهذا الأمر وكان صاحب أرزن الروم هذا الوقت هو مغيث الدين طغرلشاه بن قلج أرسلان بن مسعود قلج أرسلان وبيته مشهور من أكابر ملوك الإسلام وهم من الملوك السلجوقية وله ولد كبير فأرسل إلى الكرج يطلب الملكة لولده ليتزوجها فامتنعوا من إجابته وقالوا لانفعل هذا لأنا لا يمكننا أن يملك أمرنا مسلم فقال لهم إن ابنى يتنصر ويتزوجها فأجابوه إلى ذلك فأمر ابنه فتنصر ودان بالنصرانية وتزوج الملكة وانتقل إليها وأقام عند الكرج حاكما فى بلادهم واستمر على النصرانية نعوذ بالله من الخذلان

Marfat.com

ونسأله أن يجعل خير أعمالنا آخرها وخير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم نلقاه ثم كانت هذه الملكة الكرجية تهوى مملوكا لها فكان زوجها يسمع عنها القبائح ولا يمكنه الكلام لعجزه ثم إنه يوما دخل عليها فرآها نائمة مع مملوكها فى فراش فأنكر ذلك وواجهها بالمنع منه فقالت إن رضيت بهذا وإلا فأنت أخبر فقال إننى لاأرض بهذه فنقلته إلى بلد آخر ووكلت به من يمنعه من الحركة وحجرت عليه وأرسلت إلى بلد اللان وأحضرت رجلين كانا قد وصفا بحسن الصورة فتزوجت أحدهما فبقى معها يسيرا ثم إنها فارقته وأحضرت إنسانا آخر من كنجة وهو مسلم فطلبت منه أن يتنصر ليتزوجها فلم يفعل فأرادت أن تتزوجه وهو مسلم فقام عليها جماعة الأمراء ومعهم إيوانى وهو مقدم العساكر الكرجية فقالوا لها قدافتضحنا بين الملوك بما تفعلين ثم تريدين أن يتزوجك مسلم وهذا لا نمكن منه أبدا والأمر بينهم متردد والرجل الكنجى عندهم لم يجبهم إلى الدخول فى النصرانية وهى تهواه .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة كان الجراد فى أكثر البلاد وأهلك كثيرا من الغلات والخضر بالعراق والجزيرة وديار بكر وكثير من الشام وغيرها . وفيها فى رمضان توفى عبدالرحمن بن هبة الله بن عساكر الفقيه الشافعى الدمشقى بها وكان غزير العلم عالما بالمذهب كثير الصلاح والزهد والخير رحمه الله . وفيها تجمع العرب فى خلق كثير على حجاج الشام وأرادوا قطع الطريق عليهم وأخذهم وكان الأمير على الحجاج شرف يعقوب بن محمد وهو من أهل الموصل أقام بالشام وتقدم فيه فمنعهم بالرغبة والرهبة ثم صانعهم بمال وثياب وغير ذلك فأعطى الجميع من ماله ولم يأخذ من الحجاج الدرهم الفرد وفعل فعلا جميلا وكان عنده كثير من العلوم ويرجع إلى دين متين . (١)

﴿ ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة ﴾

﴿ ذكر عود طائفة من التتر إلى الرى وهمذان وغيرهما ﴾ أول هذه السنة وصل طائفة من التتر من عند

---

(١) وفيها توفى الشيخ أبو الحسن الروزبهارى دفن بالمكان المنسوب إليه عند باب الفراديس . وفيها توفى الشيخ عبدالرحمن اليمنى كان مقيما بالمنارة الشرقية ، كان صالحا زاهدا ورعا وفيه مكارم أخلاق ، ودفن بمقابر الصوفية . وفيها توفى الرئيس عز الدين المظفر بن أسعد بن حمزة التميمى ابن القلانسى ، أحد رؤساء دمشق وكبرائها ، وجده أبو يعلى حمزة له تاريخ ذيل به على ابن عساكر ، وقد سمع عز الدين هذا الحديث من الحافظ أبى القاسم ابن عساكر وغيره ، ولزم مجالسة الكندى وانتفع به . وفيها توفى الأمير الكبير أحد حجاب الخليفة محمد بن سليمان بن قتلش ابن تركانشاه بن منصور السمرقندى ، وكان من أولاد الأمراء ، وولى حاجب الحجاب بالديوان العزيز الخليفتى ، وكان يكتب جيدا وله معرفة حسنة بعلوم كثيرة ، منها الأدب وعلوم الرياضة ، وعمر دهرا وله حظ من نظم الشعر الحسن ومن شعره قوله :

سئمت تكاليف هذى الحياة ٭ وكذا الصباح بها والمساء
وقد كنت كالطفل فى عقله ٭ قليل الصواب كثير المراء
أنام إذا كنت فى مجلس ٭ وأسهر عند دخول الغناء
وقصر خطوى قيد المشيب ٭ وطال على ما عنانى عناء
وغودرت كالفرخ فى عشه ٭ وخلفت حلى وراء وداء
وما جر ذلك غير البقاء ٭ فكيف بدا سوء فعل البقاء

ملكهم جتكزخان وهؤلاء غير الطائفة الغربية التى ذكرنا أخبارها قبل وصول هؤلاء الرى وكان من سلم من أهلها قد عادوا إليها وعمروها فلم يشعروا بالتتر إلا وقد وصلوا إليهم فلم يمتنعوا عنهم فوضعوا فى أهلها السيف وقتلوهم كيف شاؤا ونهبوا البلد وخربوه وساروا إلى ساوة ففعلوا بها كذلك ثم إلى قم وقاشان وكانتا قد سلمتا من التتر أولا فانهم لم يقربوهما ولا أصاب أهلهما أذى فأتاهما هؤلاء وملكوهما وقتلوا أهلهما وخربوهما وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب ، ثم ساروا فى البلاد يخربون ويقتلون وينهبون ثم قصدوا همذان وكان قداجتمع بها كثير ممن سلم من أهلها فأبادوهم قتلا وأسرا ونهبا وخربوا البلد وكانوا لما وصلوا إلى الرى رأوا بها عسكرا كثيرا من الخوارزمية فكبسوهم وقتلوا منهم وانهزم الباقون إلى أذربيجان فنزلوا بأطرافها فلم يشعروا إلا والتتر أيضا قد كبسوهم ووضعوا السيف فيهم فولوا منهزمين فوصل طائفة منهم إلى تبريز وأرسلوا إلى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون إن كنت موافقنا فسلم إلينا من عندك من الخوارزمية وإلا فعرفنا أنك غير موافق لنا ولا فى طاعتنا فعمد إلى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم وأسر بعضهم وحمل الأسرى والرؤس إلى التتر وأنفذ معها من الأموال والثياب والدواب شيئا كثيرا ، فعادوا عن بلاده نحو خراسان فعلوا هذا وليسوا فى كثرة كانوا نحو ثلاثة آلاف فارس وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف فارس وعسكر أوزبك أكثر من الجميع ومع هذا فلم يحدث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين من يقوم بنصرتهم فقد دفعوا إلى أمر عظيم من قتل النفوس ونهب الأموال واسترقاق الأولاد وسبى الحريم وقتلهن وتخريب البلاد .

﴿ذكر ملك غياث الدين بلاد فارس﴾ قد ذكرنا أن غياث الدين بن خوارز مشاه محمد كان بالرى وله معها أصفهان وهمدان وما بينهما من البلاد وله أيضا بلاد كرمان فلما هلك أبوه كما ذكرناه وصل التتر الى بلاده وامتنع بأصفهان وحصره التتر فيها فلم يقدروا عليها فلما فارق التتر بلاده وساروا إلى بلاد قفجاق عاد وملك البلاد وعمر ما أمكنه منها وأقام بها إلى أواخر سنة عشرين وستمائة وجرى له ما ذكرناه فى آخر سنة عشرين سار إلى بلاد فارس فلم يشعر صاحبها وهو أتابك سعد بن دكلا إلا وقد وصل غياث الدين إلى أطراف بلاده ، فلم يتمكن من الامتناع فقصد قلعة اصطخر فاحتمى بها وسار غياث الدين إلى مدينة شيراز وهى كرسى مملكة فارس وأكبرها وأعظمها فملكها بغير تعب أول سنة إحدى وعشرين وستمائة وبقى غياث الدين بها واستولى على أكثر البلاد ولم يبق بيد سعد الدين إلا الحصون المنيعة فلما طال الأمر على سعد الدين صالح غياث الدين على أن يكون لسعد الدين من البلاد قسم اتفقوا عليه ولغياث الدين الباقى وأقام غياث الدين بشيراز وازداد إقامة وعزما على ذلك لما سمع أن التتر قد عادوا إلى الرى والبلاد التى له وخربوها .

﴿ذكر عصيان شهاب الدين غازى على أخيه الملك الأشرف وأخذ خلاط منه﴾ كان الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيوب قد أقطع أخاه شهاب الدين غازى مدينة خلاط وجميع أعمال أرمينية وأضاف إليها ميافارقين وحانى وجبل جور ولم يقنع بذلك حتى جعله ولى عهده فى البلاد التى له جميعها وحالف له جميع النواب والعساكر فى البلاد فلما سلم إليه أرمينية سار إليها كما ذكرناه وأقام بها إلى آخر سنة عشرين وستمائة فأظهر مغاضبة أخيه الملك الأشرف والتجنى عليه والعصيان والخروج عن طاعته فراسله الأشرف يستميله ويعاتبه على مافعل فلم يرعو ولا ترك ماهو عليه بل أصر على ذلك واتفق هو وأخوه المعظم عيسى صاحب

Marfat.com

Marfat.com

دمشق ومظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل على الخلاف للأشرف والاجتماع على محاربته وأظهروا ذلك وعلم الأشرف فأرسل إلى أخيه الكامل بمصر يعرفه ذلك وكانا متفقين وطلب منه نجدة فجهز العساكر وأرسل إلى أخيه صاحب دمشق يقول له إن تحركت من بلدك سرت إليه وأخذته وكان قد سار نحو ديار الجزيرة للميعاد الذى بينهم فلما وصلت إليه رسالة أخيه وسمع بتجهيز العساكر عاد إلى دمشق وأما صاحب إربل فإنه جمع العساكر وسار إلى الموصل فكان منه ما نذكره إن شاء الله وأما الأشرف فإنه لما اتفق عصيان أخيه جمع العساكر من الشام والجزيرة والموصل وسار إلى خلاط فلما قرب منها خافه أخوه غازى ولم يكن له قوة على أن يلقاه محاربا ففرق عسكره فى البلاد ليحصنها وانتظر أن يسير صاحب إربل إلى مايجاوره من الموصل وسنجار وأن يسير أخوه صاحب دمشق إلى بلاد الأشرف عند الفرات الرقة وحران وغيرهما فيضطر الأشرف حينئذ إلى العود عن خلاط فسار الأشرف إليه وقصد خلاط وكان أهلها يريدونه ويختارون دولته لحسن سيرته كانت فيهم وسوء سيرة غازى فلما حصرها سلمها أهلها إليه يوم الإثنين ثانى عشر جمادى الآخرة وبقى غازى فى القلعة ممتنعا فلما جنه الليل نزل إلى أخيه معتذرا ومتنصلا فعاتبه الأشرف وأبقى عليه ولم يعاقبه على فعله لكن أخذ البلاد منه وأبقى عليه ميافارقين .

﴿ ذكر حصار صاحب إربل الموصل ﴾ قد ذكرنا اتفاق مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على صاحب إربل وشهاب الدين غازى صاحب خلاط والمعظم عيسى صاحب دمشق على قصد بلاد الملك الأشرف فأما صاحب دمشق فإنه سار عنها مراحل يسيرة وعاد إليها لأن أخاه صاحب مصر أرسل إليه يتهدده إن سار عن دمشق أنه يقصدها ويحصرها فعاد وأما غازى فإنه استحصر فى خلاط وأخذت منه كما ذكرناه وأما صاحب إربل فإنه جمع عسكره وسار إلى بلد الموصل وحصرها ونازلها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة ظنا منه أن الملك الأشرف إذا سمع بنزوله عليها رحل عن خلاط ويخرج غازى فى طلبه فتتخبط أحواله وتقوى نفس صاحب دمشق على المجىء إليهم فلما نازل الموصل كان صاحبها بدر الدين لؤلؤ قد أحكم أمورها من استخدام الجند على الأسوار وإظهار آلة الحصار وإخراج الذخائر وإنما قوى طمع صاحب إربل على حصر الموصل لأن أكثر عسكرها كان قد سار إلى الملك الأشرف إلى خلاط وقد قل العسكر فيها وكان الغلاء شديدا فى البلاد جميعها والسعر فى الموصل كل ثلاث مكاكى بدينار فلهذا السبب أقدم على حصرها فلما نزل عليها أقام عشرة أيام ثم رحل عنها يوم الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة وكان سبب رحيله أنه رأى امتناع البلد عليه وكثرة من فيه وعندهم من الذخائر مايكفيهم الزمان الكثير ووصل إليه خبر الملك الأشرف أنه ملك خلاط فانفسخ عليه كل ما كان يؤمله من صاحبها ومن دمشق وبقى وحده متلبسا بالأمر فلما وصلت الأخبار إليه بذلك سقط فى يده ورأى أنه قد أخطأ الصواب فرحل عائدا إلى بلده وأقام على الزاب ومدة مقامه على الموصل لم يقاتلها إنما كان فى بعض الأوقات يجىء بعض الترك الذين له يقاتلون البلد فيخرج إليهم بعض الفرسان وبعض الرجالة فيجرى بينهم قتال ليس بالكثير ثم يتفرقون وترجع كل طائفة إلى صاحبها .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة أول آب جاء ببغداد مطر برعد وبرق وجرت المياه بباب البصرة والحربية وكذلك بالمحول بحيث إن الناس كانوا يخوضون فى الماء والوحل بالمحول . وفيها سار صاحب المخزن إلى يعقوبا فى ذى القعدة فعسف أهلها فنقل إليه عن إنسان منها أنه يسبه فأحضره وأمر بمعاقبته وقال له لم تسبنى فقال له

انتم تسبون أبا بكر وعمر لأجل أخذهما فدك وهى عشر نخلات لفاطمة عليها السلام وأنتم تأخذون منى الف نخلة ولا أتكلم فعفا عنه . وفيها وقعت فتنة بواسط بين السنية والشيعة على جارى عادتهم . وفيها قلت الأمطار فى البلاد فلم يجىء منها شىء إلى شباط ثم إنها كانت تجىء فى الأوقات المتفرقة مجيئا قريبا لايحصل منه الرى للزرع فجاءت الغلات قليلة ثم خرج عليها الجراد ولم يكن فى الأرض من النبات ما يشتغل به عنها فأكلها إلا القليل وكان كثيراً خارجا عن الحد فغلت الأسعار فى العراق والموصل وسائر ديار الجزيرة وديار بكر وغيرها وقلت الأقوات إلا أن أكثر الغلاء كان بالموصل وديار الجزيرة (١) .

﴿ ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين وستمائة ﴾

﴿ ذكر حصر الكرج مدينة كنجة ﴾ فى هذه السنة سارت الكرج فى جموعها إلى مدينة كنجة من بلاد أران قصدا لحصرها وامتدوا لها بما أمكنهم من القوة لأن أهل كنجة كثير عددهم قوية شوكتهم وعندهم شجاعة كبيرة من طول ممارستهم للحرب مع الكرج ، فلما وصلوا إليها وقاربوا قاتلوا أهلها عدة أيام من وراء السور ولم يظهر من أهلها أحد ، ثم فى بعض الأيام خرج أهل كنجة ومن عندهم من العسكر من البلد وقاتلوا الكرج بظاهر البلد أشد قتال وأعظمه فلما رأى الكرج ذلك علموا أنهم لاطاقة لهم بالبلد فرحلوا بعد أن أثخن أهل كنجة فيهم (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا) .

﴿ ذكر وصول جلال الدين بن خوارزمشاه إلى خوزستان والعراق ﴾ فى أول هذه السنة وصل جلال الدين ابن خوارزمشاه محمد بن تكش إلى بلاد خوزستان والعراق وكان مجيئه من بلاد الهند لأنه كان وصل إليها لما قصد التتر غزنة وقد ذكرنا ذلك فلما تعذر عليه المقام ببلاد الهند سار عنها على كرمان ووصل إلى أصفهان وهى بيد أخيه غياث الدين وقد تقدمت أخباره فملكها وسار عنها إلى بلاد فارس وكان أخوه قد استولى على بعضها كما ذكرناه . فأعاد ما كان أخوه أخذه منها إلى أتابك سعد صاحبها وصالحه وسار من عنده إلى خوزستان فحصر مدينة تستر فى المحرم وبها الأمير مظفر الدين المعروف بوجه السبع مملوك الخليفة الناصر لدين الله ، حافظا لها وأميرا عليها فحصره جلال الدين وضيق عليه فحفظها وجه السبع وبالغ فى الحفظ والاحتياط وتفرق الخوارزمية ينهبون حتى وصلوا إلى بادرايا وباكسايا وغيرهما وانحدر بعضهم إلى ناحية البصرة فنهبوا هنالك فسار إليهم شحنة البصرة وهو الأمير ملتكين فأوقع بهم وقتل منهم جماعة ، فدام الحصار نحو شهرين ثم رحل عنها بغتة وكانت عساكر الخليفة مع مملوكه جمال الدين قشتمر بالقرب منه ، فلما رحل جلال الدين لم يقدر العسكر على منعه فسار إلى أن وصل إلى يعقوبا وهى قرية مشهورة بطريق خراسان بينها وبين بغداد نحو سبعة

---

(١) وفيها توفى محمد بن أبى الفرج بن بركة الشيخ فخر الدين أبو المعالى الموصلى ، قدم بغداد واشتغل بالنظامية وأعاد بها ، وكانت له معرفة بالقراءات ، وصنف كتابا فى مخارج الحروف ، وأسند الحديث وله شعر لطيف . وفيها توفى أبو بكر بن حلبة الموازينى البغدادى كان فردا فى علم الهندسة وصناعة الموازين يخترع أشياء عجيبة ، من ذلك أنه ثقب حبة خشخاش سبعة ثقوب وجعل فى كل ثقب شعرة ، وكان له حظوة عند الدولة . وفيها توفى أيضاً أحمد بن جعفر بن أحمد بن محمد أبو العباس الدبيثى البيع الواسطى ، شيخ أديب فاضل له نظم ونثر ، عارف بالأخبار والسير ، وعنده كتب جيدة كثيرة ، وله شرح قصيدة لأبى العلاء المعرى فى ثلاث مجلدات ، وقد أورد له ابن الساعى شعرا حسنا فصيحا حلوا لذيذا فى السمع لطيفا فى القلب .

Marfat.com

Marfat.com

فراسخ فلما وصل الخبر إلى بغداد تجهزوا للحصار وأسلحوا السلاح من الجروخ والقسى والنشاب والنفط وغير ذلك وعاد عسكر الخليفه إلى بغداد ، وأما عسكر جلال الدين فنهب البلاد وأهلها ، وكان قدوصل هو وعسكره إلى خوزستان فى ضر شديد وجهد جهيد وقلة من الدواب ، والذى معهم فهو من الضعف إلى حد لا ينتفع به فغنموا من البلاد جميعها واستغنوا وأكثروا من أخذ الخيل والبغال فإنهم كانوا فى غاية الحاجة إليها وسار من يعقوبا إلى دقوقا فحصرها فصعد أهلها إلى السور وقاتلوه وسبوه وأكثروا من التكبير فعظم ذلك عنده وشق عليه وجد فى قتالهم ففتحها عنوة وقهرا ونهبتها عساكره وقتلوا كثيرا من أهلها فهرب من سلم منهم من القتل وتفرقوا فى البلاد ولما كان الخوارزميون على دقوقا سارت سرية منهم إلى البت والراذان فهرب أهلها إلى تكريت فتبعهم الخوارزميون فجرى بينهم وبين عسكر تكريت وقعة شديدة فعادوا إلى العسكر ولقد رأيت بعض أعيان أهل دقوقا وهم بنو يعلى وهم أغنياء فنهبوا وسلم أحدهم ومعه ولدان له وشىء يسير من المال فسير ما سلم معه إلى الشام مع الولدين ليتجر بما ينتفعون به وينفقونه على نفوسهم فمات أحد الولدين بدمشق واحتاط الحاكم على مامعهم فلقد رأيت أباهم على حالة شديدة لا يعلمها إلا الله يقول أخذت الأملاك وقتل بعض الأهل وفارقنا من سلم منهم والوطن بهذا القدر الحقير أردنا نكف به وجوهنا من السؤال ونصون أنفسنا فقد ذهب الولد والمال ثم سار إلى دمشق ليأخذ ما سلم مع ابنه الآخر فأخذه وعاد إلى الموصل ، فلم يبق غير شهر حتى توفى ٥ إن الشقى بكل حبل يخنق ٥ وأما جلال الدين فإنه لما فعل بأهل دقوقا مافعل خافه أهل البوازيج ، وهى لصاحب الموصل فأرسلوا إليه يطلبون منه إرسال شحنة إليهم يحميهم وبذلوا له شيئا من المال فأجابهم إلى ذلك وسير إليهم من يحميهم ، قيل كان بعض أولاد جنكزخان ملك التتر أسره جلال الدين فى بعض حروبه مع التتر فأكرمه فحماهم وأقام بمكانه إلى أواخر ربيع الآخر والرسل مترددة بينه وبين مظفر الدين صاحب إربل فاصطلحوا فسار جلال الدين إلى أذربيجان ، وفى مدة مقام جلال الدين بخوزستان والعراق ثارت العرب فى البلاد يقطعون الطريق وينهبون القرى ويخيفون السبيل فنال الخلق منهم أذى شديد وأخذوا فى طريق العراق قفلين عظيمين كانوا سائرين إلى الموصل فلم يسلم منهم شىء البتة .

﴿ذكر وفاة الملك الأفضل وغيره من الملوك﴾ فى هذه السنة فى صفر توفى الملك الأفضل على بن صلاح الدين يوسف بن أيوب فجأة بقلعة سميساط وكان عمره نحو سبع وخمسين سنة ، وقد ذكرنا سنة تسع وثمانين وخمسمائة عند وفاة والده رحمه الله ملكه مدينة دمشق والبيت المقدس وغيرهما من الشام وذكرنا سنة اثنتين وتسعين أخذ الجميع منه ، ثم ذكرنا سنة خمس وتسعين ملكه ديار مصر ، وذكرنا سنة ست وتسعين أخذها منه وانتقل إلى سميساط وأقام بها ولم يزل بها إلى الآن فتوفى بها وكان رحمه الله من محاسن الزمان لم يكن فى الملوك مثله كان خيراً عادلا فاضلا حليما كريما قل إن عاقب على ذنب ولم يمنع طالبا وكان يكتب خطا حسنا وكتابة جيدة وبالجملة ، فاجتمع فيه من الفضائل والمناقب ماتفرق فى كثير من الملوك لاجرم حرم الملك والدنيا وعاداه الدهر ومانعه بموته كل خلق جميل وفعل حميد فرحمه الله ورضى عنه ورأيت من كتابته أشياء حسنة ، فما بقى على خاطرى منها أنه كتب إلى أصحابه لما أخذت دمشق منه كتاباً من فصوله ، وأما أصحابنا بدمشق فلا علم لى بأحد منهم وسبب ذلك أنى :

أى صديق سألت عنه فنى الذل وتحت الخمول فى الوطن

Marfat.com

وأى ضد سألت حالته ٭ سمعت مالا تحبه أذنى

فتركت السؤال عنهم وهذا غاية الجودة فى الاعتذار ، عن ترك السؤال عنهم ، ولما مات اختلف أولاده وعمهم قطب الدين موسى ، ولم يقو أحد منهم على الباقين ، ليستبد بالأمر ، ومات فى هذه السنة صاحب أرزن الروم ، وهو مغيث الدين طغرل بن قلج أرسلان ، وهو الذى سير ولده إلى الكرج ، وتنصر وتزوج ملكة الكرج ، ولما مات ملك بعده ابنه ومات فيها ملك أرزنكان ، وتوفى فيها عز الدين الخضر بن إبراهيم بن أبى بكر بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان صاحب خرت برت وملك بعده ابنه نور الدين أرتق شاه وكان المدبر لدولته ودولة والده معين الدين عبد الرحمن .

﴿ ذكر خلع شروان شاه وظفر المسلمين بالكرج ﴾ فى هذه السنة ثار على شروان شاه ولده فنزعه من الملك وأخرجه من البلاد وملك بعده وسبب ذلك أن شروان شاه كان سىء السيرة كثير الفساد والظلم يتعرض إلى أموال الرعايا وأملاكهم وقيل أيضا إنه كان يتعرض إلى النساء والولدان فاشتدت وطأته على الناس فاتفق بعض العسكر مع ولده وأخرجوا أباه من البلاد وملك الإبن وأحسن السيرة فأحبه العساكر والرعية وأرسل الولد إلى أبيه يقول له إنى أردت أن أتركك فى بعض القلاع وأجرى لك الجرايات الكثيرة ولكل من تحب أن يكون عندك والذى حملنى على مافعلت معك سوء سيرتك وظلمك لأهل البلاد وكراهيتهم لك ولدولتك فلما رأى الأب ذلك سار إلى الكرج واستنصر بهم وقرر معهم أن يرسلوا معه عسكرا يعيدونه إلى ملكه ويعطيهم نصف البلاد فسيروا معه عسكرا كثيرا فسار حتى قارب مدينة شروان فجمع ولده العسكر وأعلمهم الحال وقال إن الكرج متى حصرونا ربما ظفروا بنا وحينئذ لا يبقى أبى على أحد منا ويأخذ الكرج نصف البلاد وربما أخذوا الجميع وهذا أمر عظيم إننا نسير إليهم جريدة ونلقاهم فإن ظفرنا بهم فالحمد لله وإن ظفروا بنا فالحصر بين أيدينا فأجابوه إلى ذلك فخرج فى عسكره وهم قليل نحو ألف فارس ولقوا الكرج وهم فى ثلاثة آلاف مقاتل فالتقوا واقتتلوا وصبر أهل شروان فانهزم الكرج فقتل كثير منهم وأسر كثير ومن سلم عاد بأسوأ حال وشروان شاه المخلوع معهم فقال له مقدموا الكرك إننا لم نلق بسببك خيرا ولا نؤاخذك بما كان منك فلا تقم ببلادنا ففارقهم وبقى متردداً لا يأوى إلى أحد واستقر ولده فى الملك وأحسن إلى الجند والرعية وأعاد إلى الناس أملاكهم ومصادراتهم فاغتبطوا بولايته .

﴿ ذكر ظفر المسلمين بالكرج أيضا ﴾ وفى هذه السنة أيضا سار جمع من الكرج من تفليس يقصدون أذربيجان والبلاد التى بيد أوزبك فنزلوا وراء مضيق فى الجبال لا يسلك إلا للفارس معه الفرس فنزلوا آمنين من المسلمين استضعافا لهم واغترارا بحصانة موضعهم وأنه لا طريق إليهم وركب طائفة من العساكر الإسلامية وقصدوا الكرج فوصل إلى ذلك المضيق فجازوه مخاطرين فلم يشعر الكرج إلا وقد غشيهم المسلمون ووضعوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاؤا وولى الباقون منهزمين لا يلوى والد على ولده ولا أخ على أخيه وأسر منهم جمع كثير صالح فعظم الأمر عليهم وعزموا على الأخذ بثارهم والجد فى قصد أذربيجان واستئصال المسلمين منه وأخذوا يتجهزون على قدر عزمهم فبينما هم فى ذلك إذ وصل إليهم الخبر بوصول جلال الدين بن خوارزمشاه إلى مراغة على ما ذكره إن شاء الله فتركوا ذلك وأرسلوا إلى أوزبك صاحب أذربيجان يدعونه إلى الموافقة على رد جلال الدين وخوفوه منه إن لم نتفق نحن وأنت وإلا أخذك ثم أخذنا فعاجلهم جلال الدين قبل

Marfat.com

اتفاقهم واجتماعهم فكان ماذكره إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر ملك جلال الدين آذربيجان ﴾ فى هذه السنة استولى جلال الدين على آذربيجان وسبب ذلك أنه لما سار من دقوقا كما ذكرناه قصد مراغة فملكها وأقام بها وشرع فى عمارة البلد فاستحسنه فلما وصل إليها أتاه الخبر أن الأمير أيغان طائيسى وهو خال أخيه غياث الدين قد قصد همذان قبل وصول جلال الدين بيومين وكان إيغان طائيسى هذا قد جمع عسكرا يتجاوز خمسين ألف فارس ونهب كثيرا من آذربيجان وسار إلى البحر من بلد أران فشتى هنالك لقلة البرد ولما عاد إلى همذان نهب آذربيجان أيضا مرة ثانية وكان سبب مسيره إلى همذان أن الخليفة الناصر لدين الله راسله وأمره بقصد همذان وأقطعه إياها وغيرها فسار ليستولى عليها كما أمر فلما سمع جلال الدين بذلك سار جريدة إليه فوصل إلى أيغان طائيسى ليلا وكان إذا نزل جعل حول عسكره جميع ماغنموا من آذربيجان وأران من خيل وبغال وحمير وبقر وغنم فلما وصل جلال الدين أحاط بالجميع فلما أصبح عسكر أيغان طائيسى ورأى العسكر والجتر الذى يكون على رأس السلطان علموا أنه جلال الدين فسقط فى أيديهم لأنهم كانوا يظنونه عند دقوقا فأرسل أيغان طائيسى زوجته وهى أخت جلال الدين تطلب له الأمان فأمنه وأحضره عنده وانضاف عسكره إلى جلال الدين وبقى أيغان طائيسى وحده إلى أن أضاف إليه جلال الدين عسكرا غير عسكره وعاد إلى مراغة وأعجبه المقام بها وكان أوزبك بن البهلوان صاحب آذربيجان وأران قد سار من تبريز إلى كنجة خوفا من جلال الدين وأرسل جلال الدين إلى من فى تبريز من وال وأمير ورئيس يطلب منهم أن يتردد عسكره إليهم يمتارون فأجابوه إلى ذلك وأطاعوه فتردد العسكر إليها وباعوا واشتروا الأقوات والكسوات وغيرها ومدوا أيديهم إلى أموال الناس فكان أحدهم يأخذ الشىء ويعطى الثمن مايريد فشكا بعض أهل تبريز إلى جلال الدين منهم فأرسل إليهم شحنة يكون عندهم وأمره أن يقيم بتبريز ويكف أيدى الجند عن أهلها ومن تعدى على أحد منهم صلبه فأقام الشحنة ومنع الجند من التعدى على أحد من الناس وكانت زوجة أوزبك وهى ابنة السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه مقيمة بتبريز وهى كانت الحاكمة فى بلاد زوجها وهو مشغول بلذاته من أكل وشرب ولعب ثم إن أهل تبريز شكوا من الشحنة وقالوا إنه يكلفنا أكثر من طاقتنا فأمر جلال الدين إنه لايعطى إلا مايقيم به لاغير ففعلوا ذلك وسار جلال الدين إلى تبريز وحصرها خمسة أيام وقاتل أهلها قتالا شديدا وزحف إليها فوصل العسكر إلى السور فأذعن أهلها بالطاعة وأرسلوا يطلبون الأمان منه لأنه كان يذمهم ويقول قتلوا أصحابنا المسلمين وأرسلوا رؤسهم إلى التتر الكفار وقد تقدمت الحادثة سنة إحدى وعشرين وستمائة فخافوا منه لذلك فلما طلبوا الأمان ذكر لهم فعلهم بأصحاب أبيه وقتلهم فاعتذروا بأنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك وإنما فعله صاحبهم ولم يكن لهم من القدرة مايمنعونه فعذرهم وأمنهم وطلبوا منه أن يؤمن زوجة أوزبك ولايعارضها فى الذى لها بأذربيجان ومدينة خوى وغيرها من ملك ومال وغيره فأجابهم إلى ذلك وملك البلد سابع عشر رجب من هذه السنة وسير زوجة أوزبك إلى خوى ومعها طائفة من العسكر مع رجل كبير القدر عظيم المنزلة وأمرهم بخدمتها فإذا وصلت إلى خوى عادوا عنها ولما رحل جلال الدين إلى تبريز أمر أن لايمنعوا عنه أحدا من أهلها فأتاه الناس مسلمين عليه فلم يحجبوا عنه وأحسن إليهم وبث فيهم العدل ووعدهم الإحسان والزيادة منه وقال لهم قد رأيتم مافعلت بمراغه من الإحسان والعمارة بعد أن كانت خرابا وسترون كيف أصنع معكم من العدل فيكم

وعمارة بلادكم وأقام إلى يوم الجمعة فحضر الجامع فلما خطب الخطيب ودعا للخليفة قام قائما ولم يزل كذلك حتى فرغ من الدعاء وجلس ودخل إلى كشك كان أوزبك قد عمره وأخرج عليه من الأموال كثيرا فهو فى غاية الحسن مشرف على البساتين فلما طاف فيه خرج منه وقال وهذا مسكن الكسالى لايصلح لنا وأقام أياما استولى فيها على غيرها من البلاد وسير الجيوش إلى بلاد الكرج .

﴿ذكر انهزام الكرج من جلال الدين﴾ قد ذكرنا فيما تقدم من السنين ما كان الكرج يفعلونه فى بلاد الإسلام خلاط وأعمالها وأذربيجان وأران وأرزن الروم ودربند شروان وهذه ولايات تجاور بلادهم وما كانوا يسفكون من دماء المسلمين وينهبون من أموالهم ويملكون من بلادهم والمسلمون معهم فى هذه البلاد تحت الذل والخزى كل يوم قد أغاروا وفتكوا فيهم وقاطعوهم على ماشاؤا من الأموال فكنا كلما سمعنا بشىء من ذلك سألنا الله تعالى نحن والمسلمون فى أن ييسر للإسلام والمسلمين من يحميهم وينصرهم ويأخذ بثارهم فإن أوزبك صاحب أذربيجان منعكف على شهوة بطنه وفرجه لايفيق من سكره وإن أفاق فهو مشغول بالقمار بالبيض وهذا مالم يسمع أن أحدا من الملوك فعله لايهتدى لمصلحة ولايغضب لنفسه بحيث إن بلاده مأخوذة وعساكره طماعة ورعيته قد قهرها وقد كان كل من أراد أن يجمع جمعا ويتغلب على بعض البلاد فعل كما ذكرناه من حال بغدى وأيبك الشامى وإيغان طائيسى فنظر الله تعالى إلى أهل هذه البلاد المساكين بعين الرحمة فرحمهم ويسر لهم جلال الدين هذا ففعل بالكرج ماتراه وانتقم للإسلام والمسلمين منهم فنقول فى هذه السنة كان المصاف بين جلال الدين وبين الكرج فى شهر شعبان فإن جلال الدين من حين قصد إلى هذه النواحى لايزال يقول إننى أريد أقصد بلاد الكرج وأقاتلهم وأملك بلادهم فلما ملك أذربيجان أرسل اليهم يؤذنهم فأجابوه بأننا قد قصدنا التتر الذين فعلوا بأيبك وهو أعظم منك ملكا وأكثر عسكرا وأقوى نفسا ماتعلمه وأخذوا بلادكم فلم نبال بهم وكان قصاراهم السلامة منا وشرعوا يجمعون العساكر فجمعوا مايزيد على سبعين ألف مقاتل . فسار اليهم فملك مدينة دوين وهى للكرج كانوا قد أخذوها من المسلمين كما ذكرناه وسار منها اليهم فلقوه وقاتلوه أشد قتال وأعظمه وصبر كل منهم لصاحبه فانهزم الكرج وأمر أن يقتلوا بكل طريق ولايبقوا على أحد منهم فالذى تحققنا أنه قتل منهم عشرون ألفا وقيل أكثر من ذلك فقيل الكرج جميعهم قتلوا وافترقوا وأسر كثير من أعيانهم من جملتهم شلوة فتمت الهزيمة عليهم ومضى إيوانى منهزما وهو المقدم على الكرج جميعهم ومرجعهم اليه ومعولهم عليه وليس لهم ملك إنما الملك امرأة ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة فلما انهزم إيوانى أدركه الطلب فصعد قلعة لهم على طريقهم فاحتمى فيها وجعل جلال الدين عليها من يحصرها ويمنعه من النزول وفرق عساكره فى بلاد الكرج ينهبون ويقتلون ويسبون ويخربون البلاد فلولا ماأتاه من تبريز مما أوجب عوده لملك البلاد بغير تعب ولامشقة لأن أهلها كانوا قد هلكوا فهم بين قتيل وأسير وطريد .

﴿ذكر عود جلال الدين إلى تبريز وملكه مدينة كنجة ونكاحه زوجة أوزبك﴾ لما فرغ جلال الدين من هزيمة الكرج ودخل البلاد وبث العساكر فيها أمرهم بالمقام بجامع أخيه غياث الدين وعاد إلى تبريز وسبب عوده أنه كان قد خلف وزيره شرف الملك فى تبريز ليحفظ البلد وينظر فى مصالح الرعية فبلغه عن رئيس تبريز وشمس الدين الطغرائى وهو المقدم على كل من فى البلد وعن غيرهما من المقدمين أنهم قد اجتمعوا وتحالفوا

Marfat.com

على الامتناع على جلال الدين وإعادة البلد إلى أوزبك وقالوا إن جلال الدين قد قصد بلاد الكرج فلا يقدر على المقام ويجتمع أوزبك والكرج ويقصدونه فينحل نظام أمره وتتم عليه الهزيمة فبنوا أمرهم على إن جلال الدين يسير الهوينا إلى بلاد الكرج ويتريث فى الطريق احتياطا منهم فلما اتفقوا على ذلك أتى الخبر إلى الوزير فأرسل إلى جلال الدين يعرفه الحال فأتاه الخبر وقد قارب بلاد الكرج فلم يظهر من ذلك شيئا وسار نحو الكرج مجدا فلقيهم وهزمهم فلما فرغ منهم قال لأمراء عسكره إننى قد بلغنى من الخبر كذا وكذا فتقيمون أنتم فى البلاد على ما أنتم عليه من قتل من ظفرتم به وتخريب ما أمكنكم من بلادهم فإننى خفت أن أعرفكم قبل هزيمة الكرج لئلا يلحقكم وهن وخوف فأقاموا على حالهم وعاد هو إلى تبريز وقبض على الرئيس والطغرائى وغيرهما فأما الرئيس فأمر أن يطاف به على أهل البلد وكل من له عليه مظلمة فليأخذها منه وكان ظالما ففرح الناس بذلك ثم قتله وأما الباقون فحبسوا فلما فرغ منهم واستقام له أمر البلد تزوج زوجة أوزبك ابنة السلطان طغرل وإنما صح له نكاحها لأنه ثبت عن أوزبك أنه حلف بطلاقها أنه لا يقتل مملوكا له اسمه ..... ثم قتله فلما وقع الطلاق بهذا اليمين نكحها جلال الدين وأقام بتبريز مدة وسير منها جيشا إلى مدينة كنجة فملكوها وفارقها أوزبك إلى قلعة كنجة فتحصن فيها فبلغنى أن عساكر جلال الدين تعرضوا إلى أعمال هذه القلعة بالنهب والأخذ فأرسل أوزبك إلى جلال الدين يشكو ويقول كنت لا أرضى بهذه الحال لبعض أصحابى فأنا أسأل أن نكف الأيدى المتطرقة إلى هذه الأعمال عنها فأرسل جلال الدين اليها من يحميها من التعرض لها من أصحابه وغيرهم .

﴿ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله﴾ فى هذه السنة آخر ليلة من شهر رمضان توفى الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله أبى محمد الحسن بن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله أبى العباس محمد بن المقتدى بأمر الله أبى القاسم عبدالله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبى جعفر عبد الله بن القادر بالله أبى العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله أبى الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبى العباس أحمد بن الموفق أبى أحمد محمد بن جعفر المتوكل على الله ولم يكن الموفق خليفة وإنما كان ولى عهد أخيه المعتمد على الله فمات قبل المعتمد فصار ولده المعتضد بالله ولى عهد المعتمد على الله وكان المتوكل على الله بن المعتصم بالله أبى اسحق محمد بن هرون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبدالله أبى جعفر بن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنهم .

نسب كأن عليه من شمس الضحى * نورا ومن فلق الصباح عمودا

فكان فى آبائه أربعة عشر خليفة وهم كل من له لقب والباقون غير خلفاء وكان فيهم من ولى العهد محمد بن القائم والموفق بن المتوكل وأما باقى الخلفاء من بنى العباس فلم يكونوا من آبائه فكان السفاح أبو العباس عبدالله أخا المنصور ولى قبله وكان موسى أخا الرشيد ولى قبله وكان محمد الأمين وعبدالله المأمون ابنا الرشيد أخوى المعتصم وليا قبله ، وكان محمد المنتصر بن المتوكل ولى بعد ، ثم ولى بعد المنتصر بالله المستعين بالله أبو العباس أحمد بن محمد ابن المعتصم وولى بعد المستعين المعتز بالله محمد وقيل طلحة وهو ابن المتوكل وولى بعد المعتز المهتدى بالله محمد ابن الواثق ثم ولى بعده المعتمد على الله أحمد بن المتوكل فالمنتصر والمعتز والمعتمد أخوه الموفق والمهتدى ابن عمه والموفق من أجداد الناصر لدين الله ، ثم ولى المعتضد بعد المعتمد وولى بعد المعتضد ابنه أبو محمد على المكتفى بالله

Marfat.com

وهو أخو المقتدر بالله وولى بعد المقتدر أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد وولى بعد القاهر الراضى بالله أبو العباس محمد بن المقتدر ثم ولى بعده المقتفى لله أبو إسحق إبراهيم بن المقتدر ، ثم ولى بعده المكتفى بالله أبو القاسم عبدالله بن المكتفى بالله على بن المعتضد ، ثم ولى بعده المطيع لله أبو بكر عبدالكريم فالقاهر أخو المقتدر والراضى والمقتفى والمطيع بنوه والمستكفى ابن أخيه المكتفى ، ثم ولى بعد الطائع القادر بالله وهو من أحداد الناصر لدين الله ، ثم ولى بعد المستظهر بالله ، ثم ولى بعده ابنه المسترشد بالله أبو منصور وولى بعد المسترشد بالله ابنه الراشد أبو جعفر فالمسترشد أخو المقتفى والراشد ابن أخيه فجميع من ولى الخلافه ممن ليس فى سياق نسب الناصر تسعة عشر خليفة وكانت أم الناصر ام ولد تركيه اسمها زمرد وكانت خلافته ستا وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمانية وعشرين يوما وكان عمره نحو سبعين سنة تقريبا فلم يل الخلافة أطول مدة منه إلا مقيل عن المستنصر بالله العلوى صاحب مصر فإنه ولى ستين سنة ولا اعتبار به فإنه ولى له سبع سنين فلا تصح ولايته وبقى الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا عن الحركة بالكلية وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصارا ضعيفا وفى آخر الأمر أصابه دوسنطاريا عشرين يوما ومات ووزر له عدة وزراء وقد تقدم ذكرهم ولم يطلق فى طول مرضه شيئا كان أحدثه من الرسوم الجائرة وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما فخرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان يفعل الشىء وضده فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ليفطر الناس عليها فى رمضان ، فبقيت مدة ثم قطع ذلك ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها وأطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصة ثم أعادها وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطل الفتوة فى البلاد جميعها إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك أيضا منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق إلا من ينتمى إليه فأجابه الناس بالعراق وغيره إلى ذلك إلا إنسانا واحدا يقال له ابن السفت من بغداد فإنه هرب من العراق ولحق بالشام فأرسل إليه يرغبه فى المال الجزيل ليرمى عنه وينتسب فى الرمى إليه فلم يفعل فبلغنى أن بعض أصدقائه نكر عليه الامتناع من أخذ المال فقال يكفينى فخرا إنه ليس فى الدنيا أحد إلا رمى للخليفة إلا أنا فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور وكان سبب ماينسبه العجم إليه صحيحا من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم .

(ذكر خلافه الظاهر بأمر الله) قد ذكرنا سنة خمس وثمانين وخمسمائة الخطبه للأمير أبى نصر محمد بن الخليفه الناصر لدين الله بولاية العهد فى العراق وغيره من البلاد ثم بعد ذلك خلعه الخليفة من ولاية العهد ، وأرسل إلى البلاد فى قطع الخطبه له وإنما فعل ذلك لأنه كان يميل إلى ولده الصغير على فاتفق أن الولد الصغير توفى سنة اثنتى عشرة وستمائة ولم يكن للخليفة ولد غير ولى العهد فاضطر إلى إعادته إلا أنه تحت الاحتياط والحجر لايتصرف فى شىء ، فلما توفى أبوه ولى الخلافة وأحضر الناس لأخذ البيعة وتلقب بالظاهر بأمر الله وعنى أن أباه وجميع أصحابه أرادوا صرف الأمر عنه ، فظهر وولى الخلافة بأمر الله لايسعى من أحد ، ولما ولى الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين ، فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقا بإنه أعاد من الأموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله شيئا كثيرا وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ما جدده أبوه وكان كثيرا لايحصى فمن ذلك أن

Marfat.com

Marfat.com

قرية يعقوبا كان يحصل منها قديما نحو عشرة آلاف دينار ، فلما تولى الناصر لدين الله كان يؤخذ منها كل سنة ثمانون ألف دينار فحضر أهلها واستغاثوا وذكروا أن أملاكهم أخذت حتى صار يحصل منها هذا المبلغ فأمر أن يؤخذ الخراج الأول ؛ وهو عشرة آلاف دينار فقيل له إن هذا المبلغ يصل إلى المخزن فمن أين يكون العوض ، فأقام لهم العوض من جهات أخرى فإذا كان المطلق من جهة واحدة سبعين ألف دينار فما الظن بباقى البلاد ومن أفعاله الجميلة أنه أمر بأخذ الخراج الأول من باقى البلاد جميعها فحضر كثير من أهل العراق وذكروا أن الأملاك التى كان يؤخذ منها الخراج قديما قديبس أكثر أشجارها وخربت وهى طولبوا بالخراج الأول لاينى دخل الباقى بالخراج فأمر أن لا يؤخذ الخراج إلا من كل شجرة سليمة ، وأما الذهب فلا يؤخذ منه شىء وهذا عظيم جدا ، ومن ذلك أيضا أن المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التى للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه إلى الوزير وأوله (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أووزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، قد بلغنا أن الأمر كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن إلى الصنجة التى يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى) . فكتب بعض النواب إليه يقول : إن هذا مبلغ كثير وقد حسبناه فكان فى السنة الماضية خمسة وثلاثين ألف دينار ، فأعاد الجواب ينكر على القائل ، ويقول لو أنه ثلثمائة الف وخمسون ألف دينار يطلق وكذلك أيضا فعل فى إطلاق زيادة الصنجة التى للديوان وهى فى كل دينار حبة وتقدم إلى القاضى أن كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده إليه من غير إذن وأقام رجلا صالحا فى ولاية الحشرى وبيت المال وكان الرجل حنبليا فقال إننى من مذهبى أن أورث ذوى الأرحام فإن أذن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك وليت وإلا فلا ، فقال له أعط كل ذى حق حقه ، واتق الله ولا تتق سواه . ومنها أن العادة كانت ببغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة إلى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض ، على نزهة أو سماع أوغير ذلك ، ويكتب ماسوى ذلك من صغير وكبير فكان الناس من هذا فى حجر عظيم ؛ فلما ولى هذا الخليفة جزاه الله خيرا أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال أى غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم ، فلا يكتب أحد إلينا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا ، فقيل له : إن العامة تفسد بذلك ، ويعظم شرها فقال نحن ندعو الله فى أن يصلحهم . ومنها انه لما ولى الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار اليها أيام الناصر لتحصيل الأموال فأصعد ومعه من المال مايزيد على مائة الف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر مامعه ويستخرج الأمر فى حمله فأعاد الجواب بأن يعاد إلى أربابه فلا حاجة لنا اليه فأعيد عليهم ومنها أنه أخرج كل من كان فى السجون وأمر بإعادة ماأخذ منهم وأرسل إلى القاضى عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس فى حبس الشرع وليس له مال ومن حسن نيته للناس أن الأسعار فى الموصل وديار الجزيرة كانت غالية فرخصت الأسعار وأطلق حمل الأطعمة إليها وأن يبيع كل من أراد البيع للغلة فحمل منها الكثير الذى لايحصى فقيل له إن السعر قد غلا شيئا والمصلحة منع حمله فقال أولئك مسلمون وهؤلاء مسلمون وكما يجب علينا النظر فى أمر هؤلاء كذلك يجب علينا النظر لأولئك وأمر أن يباع من الأهراء التى له طعام أرخص مما يبيع غيره ففعلوا ذلك فرخصت الأسعار عندهم أيضا أكثر مما كانت أولا وكان السعر فى الموصل لما ولى كل مكوكين بدينار وثلثى قيراط فصار كل أربعة مكاكيك بدينار فى أيام قليلة وكذلك

باقى الأشياء من التمر والدبس والأرز والسمسم وغيرها فالله تعالى يؤيده وينصره ويبقيه فإنه غريب فى هذا الزمان الفاسد ولقد سمعت عنه كلمة أعجبتنى جدا وهى أنه قيل له فى الذى يخرجه ويطلقه من الأموال التى لاتسمح نفس ببعضها فقال لهم أنا فتحت الدكان بعد العصر فاتركونى أفعل الخير فكم أعيش وتصدق ليلة عيد الفطر من هذه السنة وفرق فى العلماء وأهل الدين مائة ألف دينار .

﴿ذكر ملك بدر الدين قلعتى العمادية وهرور﴾ فى هذه السنة ملك بدرالدين قلعة العمادية من أعمال الموصل وقد تقدم ذكر عصيان أهلها عليه سنة خمس عشرة وستمائة وتسليمها إلى عماد الدين زنكى ثم عودهم إلى طاعة بدر الدين وخلافهم على عمادالدين فلما عادوا إلى بدر الدين أحسن إليهم وأعطاهم الأقطاع الكثير وملكهم القرى ووصلهم بالأموال الجزيلة والخلع السنية فبقوا كذلك مدة يسيرة ثم شرعوا يراسلون عمادالدين زنكى ومظفر الدين صاحب إربل وشهاب الدين غازى بن العادل لما كان بخلاط ويعدون كلا منهم بالانحياز إليه والطاعة له وأظهروا من المخالفة لبدر الدين ما كانوا يبطنونه فكانوا يمكنون أن يقيم عندهم من أصحاب بدر الدين إلا من يريدونه ويمنعون من كرهوه فطال الأمر وهو يحتمل فعلهم ويداريهم وهم لايزدادون إلا طمعا وخروجا عن الطاعة وكانوا جماعة فاختلفوا فقوى بعضهم وهم أولاد خواجه إبراهيم وأخوه ومن معهم على الباقين فأخرجوهم عن القلعة وغلبوا عليها وأصروا على ماكانوا عليه من النفاق فلما كان هذه السنة سار بدر الدين اليهم فى عساكره فأتاهم بغتة فحصرهم وضيق عليهم وقطع الميرة عنهم وأقام بنفسه عليهم وجعل قطعة من الجيش على قلعة هرور يحصرونها وهى من أمنع الحصون وأحصنها لايوجد مثلها وكان أهلها أيضا قد سلكوا طريق أهل العمادية من عصيان وطاعة ومخادعة فأتاهم العسكر وحصروهم وهم فى قلة من الذخيرة فحصروها أياما ففنى مافى القلعة فاضطر أهلها إلى التسليم فسلموها ونزلوا منها وعاد العسكر إلى العمادية فأقاموا عليها مع بدر الدين فبقى بدر الدين بعد أخذ هرور يسيرا وعاد إلى الموصل وترك العسكر بحاله مقيما عليهم مع نائبه أمين الدين لؤلؤ فبقى الحصار إلى أول ذى القعدة فأرسلوا يذعنون بالطاعة ويطلبون العوض عنها ليسلموها فاستقرت القواعد على العوض من قلعة يحتمون فيها وأقطاع ومال وغير ذلك فأجابهم بدر الدين إلى ماطلبوا وحضر نوابهم ليحلفوا بدر الدين فبينما هو يريد أن يحلف لهم وقد أحضر من يشهد اليمين إذ قد وصل طائر من العمادية وعلى جناحه رقعة من أمين الدين لؤلؤ يخبر أنه قد ملك العمادية قهرا وعنوة وأسر بنى خواجه الذين كانوا تغلبوا عليه فامتنع بدر الدين من اليمين وأما سبب غلبة أمين الدين عليها فإنه كان قد ولاه بدرالدين عليها لما عاد أهلها إلى طاعته فبقى فيها مدة فأحسن اليهم وأحسن السيرة فيهم واستمال جماعة منهم ليتقوى بهم على الحزب الذين عصوا أولا فنمى الخبر اليهم فأساؤا مجاورته واستقالوا من ولايته عليهم ففارقهم إلى الموصل وكان أولئك الذين استمالهم يكاتبونه ويراسلونه فلما حصرهم كانوا أيضا يكاتبونه فى النشاب يخبرونه بكل مايفعله أولاد خواجه من إنفاذ رسول وغير ذلك وبما عندهم من الذخائر إلا أنهم لم يكونوا فى الكثرة إلى أنهم يقهرون أولئك فلما كان الآن واستقرت القواعد من التسليم لم يذكر أولاد خواجه أحدا من جند القلعة فى نسخة اليمين بمال ولاغيره من إمام وأقطاع فسخطوا هذه الحال وقالوا لهم قد حلفتم لأنفسكم بالحصون والقرى والمال ونحن قد خربت بيوتنا لأجلكم فلم تذكرونا فأهانوهم ولم يلتفتوا اليهم فحضر عنده أمين الدين رجلان منهم ليلا وطلبوا منه أن يرسل اليهم جمعا يصعدونهم إلى القلعة ويثبون بأولئك ويأخذونهم فامتنع

Marfat.com

وقال أخاف أن لا يتم هذا الأمر وينفسد علينا كل ما فعلناه فقالوا نحن نقبض عليهم غدا بكرة وتكون أنت والعسكر على ظهر فإذا سمعتم النداء باسم بدرالدين وشعاره تصعدون إلينا فأجابهم إلى ذلك وركب بكرة هو والعسكر على العادة وأما أولئك فانهم اجتمعوا وقبضوا على أولاد خواجه ومن معهم ونادوا بشعار بدرالدين فبينما العسكر قيام إذا الصوت من القلعة باسم بدرالدين فصعدوا اليها وملكوها وتسلم أمين الدين أولاد خواجه فحبسهم وكتب الرقعة على جناح الطائر بالحال وملكوا القلعة صفوا عفوا بغير عوض وكان يريد أن يغرم مالا جليلا وأقطاعا كثيرة وحصنا منيعا فتوفر الجميع عليه وأخذ منهم كل ما احتمبوه وادخروه وإذا أراد الله أمرا فلا مرد له .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة ليلة الأحد والعشرين من صفر زلزلت الأرض بالموصل وديار الجزيرة والعراق وغيرها زلزلة متوسطة وفيها اشتد الغلاء بالموصل وديار الجزيرة جميعها فأكل الناس الميتة والكلاب والسنانير فقل الكلاب والسنانير بعد أن كانوا كثيرا ولقد دخلت يوما إلى دارى فرأيت الجوارى يقطعن اللحم ليطبخوه فرأيت سنانير استكثرتها فعددتها فكانت اثنى عشر سنورا ورأيت اللحم فى هذا الغلاء فى الدار وليس عنده من يحفظه من السنانير لعدمها وليس بين المرتين كثير وغلا مع الطعام كل شىء فبيع الرطل الشيرج بقيراطين بعد أن كان بنصف قيراط قبل الغلاء وأما قبل ذلك فكان كل ستين رطلا بدينار ومن العجب أن السلق والجزر والسلجم بيع كل خمسة أرطال بدرهم وبيع التفسج كل ستة أرطال بدرهم وبيع فى بعض الأوقات كل سبعة أرطال بدرهم وهذا مالم يسمع بمثله ولقد رأينا مالم نر ولاسمعنا بمثله فإن الدنيا مازالت قديما وحديثا إذا غلت الأسعار متى جاء المطر رخصت إلا هذه السنة فإن الأمطار مازالت متتابعة من أول الشتاء إلى آخر الربيع ، وكلما جاء المطر غلت الأسعار ، وهذا مالم يسمع بمثله ، فبلغت الحنطة مكوك وثلث بدينار وقيراط يكون وزنه خمسة وأربعين رطلا دقيقا بالبغدادى وكان الملح مكوك بدرهم فصار المكوك بعشرة دراهم ، وكان الأرز مكوك باثنى عشر درهما فصار المكوك بخمسين درهما وكان التمر كل أربعة أرطال وخمسة أرطال بقيراط . فصار كل رطلين بقيراط . ومن عجيب مايحكى أن السكر النادر الأسمر كان كل رطل بدرهم . وكان السكر الأبلوج المصرى النقى كل رطل بدرهمين فصار السكر الأسمر كل رطل بثلاثة دراهم ونصف والسكر الأبلوج كل رطل بثلاثة دراهم وربع وسببه أن الأمراض لما كثرت واشتد الوباء قال النساء هذه الأمراض باردة والسكر الأسمر حار فينفع منها والأبلوج بارد يقويها وتبعهن الأطباء استمالة لقلوبهن ولجهلهن فغلا الأسمر بهذا السبب وهذا من الجهل المفرط وما زالت الأشياء هكذا إلى أول الصيف واشتد الوباء وكثر الموت والمرض فى الناس فكان يحمل على النعش الواحد عدة من الموتى ، فممن مات فيه شيخنا عبد المحسن ابن عبدالله الخطيب الطوسى خطيب الموصل . وكان من صالحى المسلمين وعمره ثلاث وثمانون سنة وشهور وفيها انخسف القمر ليلة الثلاثاء خامس عشر صفر . وفيها هرب أمير حاج العراق وهو حسام الدين أبو فراس الحلى الكردى الوارمى وهو ابن أخى الشيخ ورام كان عمه من صالحى المسلمين وخيارهم من أهل الحلة السيفية فارق الحاج بين مكة والمدينة وسار إلى مصر . حكى لى بعض أصدقائه أنه إنما حمله على الهرب كثرة الخرج فى الطريق وقلة المعونة من الخليفة ولما فارق الحاج خافوا خوفا شديدا من العرب فأمن الله خوفهم ولم يرعهم ذاعر فى جميع الطريق ووصلوا آمنين إلا أن كثيرا من الجمال هلك أصابها غدة عظيمة لم يسلم إلا القليل . وفيها فى

آب جاء مطر شديد ورعد وبرق ودام حتى جرت الأودية وامتلأت الطرق بالوحل ثم جاء الخبر من العراق والشام والجزيرة وديار بكر أنه كان عندهم مثله ولم يصل الينا أحد إلا وأخبر أن المطر كان عندهم فى ذلك التاريخ وفيها كان فى الشتاء ثلج كثير ونزلت بالعراق فسمعت أنه نزل فى جميع العراق حتى فى البصرة أما إلى واسط فلاشك فيه وأما البصرة فإن الخبر لم يكثر عندنا بنزوله فيها . وفيها خرجت قلعة الزعفران من أعمال الموصل وهى حصن مشهور يعرف قديما بدير الزعفران وهو على جبل عال قريب من فرشابور . وفيها أيضا خربت القلعة الجديدة من بلد الهكارية من أعمال الموصل أيضا وأضيف عملها وقراها إلى العمادية . وفيها فى ذى الحجة سار جلال الدين بن خوارزم شاه من تبريز إلى بلد الكرج قاصدا لأخذ بلادهم واستئصالهم وخرجت السنة ولم يبلغنا أنه فعل بهم شيئا ونحن نذكر مافعله بهم سنة ثلاث وعشرين وستمائة إن شاء الله . وفيها ثالث شباط سقط ببغداد ثلج وبرد الماء بردا شديدا وقوى البرد حتى مات به جماعة من الفقراء . وفيها فى ربيع الأول زادت دجلة زيادة عظيمة واشتغل الناس بإصلاح سكر القورج وخافوا فبلغت الزيادة قريبا من الزيادة الاولى ثم نقص الماء واستبشر الناس . (١)

---

(١) وفيها توفى الفخر بن تيمية محمد بن أبى القاسم بن محمد الشيخ فخر الدين أبو عبدالله بن تيمية الحرانى ، عالمها وخطيبها وواعظها ، اشتغل على مذهب الإمام أحمد وبرع فيه وبرز وحصل وجمع تفسيرا حافلا فى مجلدات كثيرة وله الخطب المشهورة المنسوبة إليه ، وهم عم الشيخ مجدالدين صاحب المنتقى فى الأحكام ، قال أبو المظفر سبط ابن الجوزى : سمعته يوم جمعة بعد الصلاة وهو يعظ الناس ينشد :

أحبابنا قد ندرت مقلتى * ماتلتقى بالنوم أونلتقى
رفقا بقلب مغرم واعطفوا * على سقام الجسد المحرق
كم تمطلونى بليالى اللقا * قد ذهب العمر ولم نلتقى

وقد ذكرنا أنه قدم بغداد حاجا بعد وفاة شيخه أبى الفرج ابن الجوزى ووعظ بها فى مكان وعظه . وتوفى أيضا الوزير بن شكر صفى الدين أبو محمد عبدالله بن على بن عبدالخالق بن شكر ، ولد بالديار المصرية بدميرة بين مصر واسكندرية سنة أربعين وخمسمائة ، ودفن بتربته عند مدرسته بمصر ، وقد وزر للملك العادل وعمل أشياء فى أيامه منها تبليط جامع دمشق وأحاط سور المصلى عليه ، وعمل الفوارة ومسجدها وعمارة جامع المزة ، وقد نكب وعزل سنة خمس عشرة وستمائة وبقى معزولا إلى هذه السنة فكانت فيها وفاته ، وقد كان مشكور السيرة ومنهم من يقول كان ظالما فالله أعلم . وفيها توفى أبو الفضل عبدالرحيم بن نصرالله بن على بن منصور بن الكيال الواسطى من بيت الفقه والقضاء ، وكان أحد المعدلين ببغداد ومن شعره :

فتبا لدنيا لايدوم نعيمها * تسر يسيرا ثم تبدى المساويا
تريك رواء فى النقاب وزخرفا * وتسفر عن شوهاء طحياء عاميا

ومن ذلك قوله : إن كنت بعد الطاعتين تسامحت * بالفحص أجفانى فما أجفانى
أو كنت من بعد الأحبة ناظرا * حسنا بانسانى فما أنسانى
الدهر مغفور له زلاته * إن عاد أوطانى على أوطانى

وفيها توفى أيضا أبو على الحسن بن على ابن الحسن بن على بن الحسن بن على بن عمار بن فهر بن وقاح الياسرى نسبة إلى عمار بن ياسر ، شيخ بغدادى فاضل ، له مصنفات فى التفسير والفرائض ، وله خطب ورسائل وأشعار حسنة وكان مقبول الشهادة عند الحكام .

Marfat.com

﴿ ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة ﴾

﴿ذكر ملك جلال الدين تفليس﴾ فى هذه السنة ثامن ربيع الاول فتح جلال الدين بن خوارزمشاه مدينة تفليس من الكرج وسبب ذلك اما قد ذكرنا سنة اثنتين وعشرين وستمائة الحرب بينه وبينهم وانهزامهم منه وعوده إلى تبريز بسبب الخلف الواقع فيها فلما استقر الأمر فى أذربيجان عاد إلى بلد الكرج فى ذى الحجة من السنة وخرجت سنة اثنتين وعشرين وستمائة ودخلت هذه السنة فقصد بلادهم وقد عادوا وحشدوا وجمعوا من الأمم المجاورة لهم اللان واللكز وقفجاق وغيرهم فاجتمعوا فى جمع كثير لا يحصى فطمعوا بذلك ومنتهم أنفسهم الأباطيل ووعدهم الشيطان الظفر (ومايعدهم الشيطان إلا غرورا) فلقيهم وجعل لهم الكمين فى عدة مواضع والتقوا واقتتلوا فولى الكرج منهزمين لا يلوى الأخ على أخيه ولا الوالد على ولده وكل منهم قد أهمته نفسه وأخذتهم سيوف المسلمين من كل جانب فلم ينج منهم إلا اليسير الشاذ الذى لا يعبأ به وأمر جلال الدين عسكره أن لا يبقوا على أحد وإن يقتلوا من وجدوا فتبعوا المنهزمين يقتلونهم وأشار عليه أصحابه بقصد تفليس دار ملكهم فقال لا حاجة لنا إلى أن نقتل رجالنا تحت الأسوار إنما إذا أفنيت الكرج أخذت البلاد صفوا عفوا ولم تزل العساكر تتبعهم وتستقصى فى طلبهم إلى أن كادوا يفنونهم فحينئذ قصد تفليس ونزل بالقرب منها وسار فى بعض الأيام فى طائفة من العسكر وقصدها لينظر اليها ويبصر مواضع النزول عليها وكيف يقاتلها فلما قاربها كمن أكثر العسكر الذى معه فى عدة مواضع ثم تقدم اليها فى نحو ثلاثة آلاف فارس فلما رآه من بها من الكرج طمعوا فيه لقلة من معه ولم يعلموا ما معهم فظهروا اليه فقاتلوه فتأخر عنهم فقوى طمعهم فظنوه منهزما فتبعوه فلما توسطوا العساكر خرجوا عليهم ووضعوا السيف فيهم فقتل أكثرهم وانهزم الباقون إلى المدينة فدخلوها وتبعهم المسلمون فلما وصلوا اليها نادى المسلمون من أهلها بشعار الإسلام وباسم جلال الدين فألقى الكرج بأيديهم واستسلموا لأنهم كانوا قد قتل رجالهم فى الوقعات المذكورة فقل عددهم وملئت قلوبهم خوفا ورعبا فملك المسلمون البلد عنوة وقهرا بغير أمان وقتل كل من فيه من الكرج ولم يبق على كبير ولا صغير إلا من أذعن بالإسلام وأقر بكلمتى الشهادة فإنهم أبقى عليهم وأمرهم فتختنوا وتركهم ونهب المسلمون الأموال وسبوا النساء واسترقوا الأولاد وصل إلى المسلمين الذين بها بعض الأذى من قتل ونهب وغيره وهذه تفليس من أحصن البلاد وأمنعها وهى على جانبى نهر الكرج وهو نهر كبير ولقد جل هذا الفتح وعظم موقعه فى بلاد الإسلام وعند المسلمين فإن الكرج كانوا قد استطالوا عليهم وفعلوا بهم ما أرادوا فكانوا يقصدون أى بلاد أذربيجان أرادوا فلا يمنعهم عنها مانع ولا يدفعهم عنها دافع وهكذا أرزن الروم حتى إن صاحبها لبس خلعة ملك الكرج ورفع على رأسه علما منه فى أعلاه صليب وتنصر ولده رغبة فى نكاح ملكة الكرج وخوفا منهم ليدفع الشر عنه وقد تقدمت القصة، وهكذا دربند شروان وعظم أمرهم إلى حد أن ركن الدين بن قلج أرسلان صاحب قونية واقصرا وملطية وسائر بلاد الروم التى للمسلمين جمع عساكره وحشد معها غيرها فاستكثر، وقصد أرزن الروم وهى لأخيه طغرل شاه بن قلج أرسلان، فأتاه الكرج وهزموه وفعلوا به وبعسكره كل عظيم وكان أهل دربند شروان معهم فى الضنك والشدة، وأما أرمينية فإن الكرج دخلوا مدينة أرجيش، وملكوا قرس وغيرها، وحصروا خلاط، فلولا أن الله سبحانه،

Marfat.com

من على المسلمين باسر إيوانى مقدم عساكر الكرج لملكوها ، فاضطر أهلها إلى أن بنوا لهم بيعة فى القلعة ، يضرب فيها الناقوس ، فرحلوا عنهم ، وقد تقدم تفصيل هذه الجملة ، ولم يزل هذا الثغر من أعظم الثغور ضررا ، على المجاورين من الفرس قبل الإسلام وعلى المسلمين بعدهم من أول الإسلام إلى الآن ولم يقدم أحد عليهم هذا الإقدام ولا فعل بهم هذه الأفاعيل فإن الكرج ملكوا تفليس سنة خمس عشرة وخمسمائة والسلطان حينئذ محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى وهو من أعظم السلاطين منزلة وأوسعهم مملكة وأكثرهم عساكر فلم يقدر على منعهم عنها هذا مع سعة بلاده فإنه كان له الرى وأعمالها وبلد الجبل وأصفهان وفارس وخوزستان والعراق وأذربيجان وأران وأرمينية وديار بكر والجزيرة والموصل والشام وغير ذلك وعمه السلطان سنجر له خراسان وما وراء النهر فكان أكثر بلاد الإسلام بأيديهم ومع هذا فإنه جمع عساكره سنة تسع عشرة وخمسمائة وسار إليهم بعد أن ملكوها فلم يقدر عليهم ثم ملك بعده أخوه السلطان مسعود فكذلك وملك الدكز بلد الجبل والرى وأذربيجان وأران وأطاعه صاحب خلاط وصاحب فارس وصاحب خوزستان وجمع وحشد لهم وكان قصاراه أن يتخلص منهم ثم ابنه الهلوان بعده وكانت البلاد فى أيام أولئك كثيرة الأموال والرجال فلم يحدثوا أنفسهم بالظفر بهؤلاء حتى جاء هذا السلطان والبلاد خراب قد أضعفها الكرج أولا ثم استأصلتها التتر لعنهم الله على ماذكرنا ففعل بهم هذه الأفاعيل فسبحان من إذا أراد أمرا قال له كن فيكون .

﴿ ذكر مسير مظفر الدين صاحب أربل إلى الموصل وعوده عنها ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الآخرة سار مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل إلى أعمال الموصل قاصدا إليها وكان السبب فى ذلك أنه استقرت القاعدة بينه وبين جلال الدين بن خوارزمشاه وبين الملك المعظم صاحب دمشق وبين صاحب آمد وبين ناصر الدين صاحب ماردين ليقصدوا البلاد التى بيد الأشرف ويتغلبوا عليها ويكون لكل منهم نصيب ذكره واستقرت القواعد بينهم على ذلك فبادر مظفر الدين إلى الموصل وأما جلال الدين فإنه سار من تفليس يريد خلاط فأتاه الخبر أن نائبه ببلاد كرمان واسمه بلاق حاجب قد عصى عليه على ماذكره فلما أتاه الخبر بذلك ترك خلاط ولم يقصدها إلا أن عسكره نهب بعض بلدها وخربوا كثيرا منه وسار مجدا إلى كرمان فانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه إلا أن مظفر الدين سار من إربل ونزل على جانب الزاب ولم يمكنه العبور إلى بلد الموصل وكان بدر الدين قد أرسل من الموصل إلى الأشرف وهو بالرقة يستنجده ويطلب منه أن يحضر بنفسه الموصل ليدفعوا مظفر الدين فسار منها إلى حران ومن حران إلى دنيسر فخرب بلد ماردين وأهلكه تخريبا ونهبا وأما المعظم صاحب دمشق فإنه قصد بلد حمص وحماة وأرسل إلى أخيه الأشرف يقول إن رحلت عن ماردين وحلب وأنا عن حمص وحماة وأرسلت إلى مظفر الدين ليرجع عن بلد الموصل فرحل الأشرف عن ماردين وعاد كل منهم إلى بلده وخربت أعمال الموصل وأعمال ماردين بهذه الحركة فإنها كانت قد أجحف بها تتابع الغلاء وطول مدته وجلاء أكثر أهلها فأتتها هذه الحادثة فازدادت خرابا .

﴿ ذكر عصيان كرمان على جلال الدين ومسيره إليها ﴾ فى هذه السنة فى جمادى الآخرة وصل الخبر إلى جلال الدين أن نائبه بكرمان وهو أمير كبير اسمه بلاق حاجب قد عصى عليه وطمع فى البلد أن يتملكها ويستبد بها لعبد جلال الدين عنها واشتغاله بما ذكرناه من الكرج وغيرهم وأنه أرسل إلى التتر يعرفهم قوة جلال الدين وملكه كثيرا من البلاد وإن أخذ الباقى عظمت مملكته وكثرت عساكره وسار إليكم وأخذ

Marfat.com

Marfat.com

ما بأيديكم من البلاد فلما سمع جلال الدين ذلك وكان قد سار يريد خلاط فتركها وسار إلى كرمان يطوى المراحل أرسل بين يديه رسولا إلى صاحب كرمان ومعه الخلع ليطمئن ويأتيه وهو غير محتاط ولا مستعد للامتناع منه فلما وصل الرسول علم أن ذلك مكيدة عليه لما يعرفه من عادته فأخذ مايعز عليه وصعد إلى قلعة منيعة فتحصن بها وجعل من يثق إليه من أصحابه فى الحصون يمتنعون بها وأرسل إلى جلال الدين يقول إننى أنا العبد والمملوك ولما سمعت بمسيرك إلى هذه البلاد أخليتها لك لأنها بلادك ولو علمت أنك تبقى على لحضرت بابك ولكنى أخاف هذا جميعه والرسول يحلف له أن جلال الدين بتفليس وهو لا يلتفت إلى قوله فعاد الرسول فعلم جلال الدين أنه لا يمكنه أخذ ما بيده من الحصون لأنه يحتاج أن يحصرها مدة طويلة فوقف بالقرب من أصفهان وأرسل إليه الخلع وأقره على ولايته فبينما الرسل تتردد اذ وصل رسول من وزير جلال الدين إليه من تفليس يعرفه أن عسكر الملك الأشرف الذى بخلاط قد هزموا بعض عسكره وأوقعوا بهم ويحثه على العود إلى تفليس فعاد إليها مسرعا .

﴿ ذكر الحرب بين عسكر الأشرف وعسكر جلال الدين ﴾ لما سار جلال الدين إلى كرمان ترك بمدينة تفليس عسكرا مع وزيره شرف الملك فقلت عليهم الميرة فساروا إلى أعمال أرزن الروم فوصلوا إليها ونهبوها وسبوا النساء وأخذوا من الغنائم شيئا كثيرا لا يحصر وعادوا فكان طريقهم على أطراف ولاية خلاط فسمع النائب من الأشرف بخلاط وهو الحاجب حسام الدين على الموصل فجمع العسكر وسار إليهم فأوقع بهم واستنقذ مامعهم من الغنائم وغنم كثيرا مما معهم وعاد هو وعساكره سالمين فلما فعل ذلك خاف وزير جلال الدين منهم فأرسل إلى صاحبه بكرمان يعرفه الحال ويحثه على الوصول إليه ويخوفه عاقبة التوانى والإهمال فرجع فكان ماذكره إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله ﴾ فى هذه السنة فى الرابع عشر من رجب توفى الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله وقد تقدم نسبه عند وفاة أبيه رضى الله عنهما فكانت خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما وكان نعم الخليفة جمع الخشوع مع الخضوع لربه والعدل والإحسان إلى رعيته وقد تقدم عند ذكر ولايته الخلافة من أفعاله مافيه كفاية ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعية فرضى الله عنه وأرضاه وأحسن متقلبه ومثواه فلقد جدد من العدل ما كان دارسا وأذكر من الإحسان ما كان منسيا وكان قبل وفاته أخرج توقيعا إلى الوزير بخطه على أرباب الدولة وقال الرسول (أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال) فقرؤه فإذا فى أوله بعد البسملة (اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا ولا إغضاؤنا إغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ماسلف من إخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة وإظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاحتياج استيفاء واستدرا كا لأغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا وبفقركم غنى وبباطلكم حقا ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم

وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله تعالى فيخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم والسلام) ولما توفى وجدوا فى بيت فى داره ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقيل له ليفتحها فقال لاحاجة لنا فيها كلها سعايات ولم أزل علم الله سبحانه منذ ولى الخلافة أخاف عليه قصر المدة لخبث الزمان وفساد أهله وأقول لكثير من أصدقائنا وما أخوفنى أن تقصر مدة خلافته لأن زماننا وأهله لا يستحقون خلافته فكان كذلك .

﴿ذكر خلافة ابنه المستنصر بالله﴾ لما توفى الظاهر بأمر الله بويع بالخلافة ابنه الأكبر أبو جعفر المنصور ولقب المستنصر بالله وسلك فى الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه رضى الله عنه وأمر فنودى ببغداد بإفاضة العدل ولمن من كان له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته فلما كان أول جمعة أتت على خلافته أراد أن يصلى الجمعة فى المقصورة التى كان يصلى فيها الخلفاء فقيل له إن المطبق الذى يسلك فيه اليها خراب لا يمكن سلوكه فركب فرسا وسار إلى الجامع جامع القصر ظاهرا يراه الناس بقميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين حرير ولم يترك أحدا يمشى معه من أصحابه بالصلاة إلى الموضع الذى كان يصلى فيه وسار هو ومعه خادمان وركابدار لاغير فصلى وعاد وكذلك الجمعة الثانية حتى أصلح له المطبق وكان السعر قد تحرك بعد وفاة الظاهر بأمر الله رضى الله عنه فبلغت الكارة ثمانية عشر قيراطا فأمر أن تباع الغلات التى له كل كارة بثلاثة عشر قيراطا فرخصت الأسعار واستقامت الأمور .

﴿ذكر الحرب بين كيقباذ وصاحب آمد﴾ فى هذه السنة فى شعبان سار علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان ملك بلاد الروم إلى بلاد الملك المسعود صاحب آمد وملك عدة من حصونه وسبب ذلك ماذكرناه من اتفاق صاحب آمد مع جلال الدين خوارزمشاه والملك المعظم صاحب دمشق وغيرهما على خلاف الأشرف فلما رأى الأشرف ذلك أرسل إلى كيقباذ ملك الروم وكانا متفقين يطلب منه أن يقصد بلد صاحب آمد ويحاربه وكان الأشرف حينئذ على ماردين فسار ملك الروم إلى ملطية وهى له فنزل عندها وسير العساكر إلى ولاية صاحب آمد ففتحوا حصن منصور وحصن شمكا زاد وغيرها فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الأشرف وعاد إلى موافقته فأرسل الأشرف إلى كيقباذ يعرفه ذلك ويقول له ليعيد إلى صاحب آمد ماأخذ منه فلم يفعل وقال لم أكن نائبا للأشرف يأمرنى وينهانى فاتفق أن الأشرف سار إلى دمشق ليصلح أخاه الملك المعظم وأمر العساكر التى له بديار الجزيرة بمساعدة صاحب آمد إن أصر ملك الروم على قصده فسارت عساكر الأشرف إلى صاحب آمد وقد جمع عسكره ومن ببلاده ممن يصلح للحرب وسار إلى عسكر ملك الروم وهم يحاصرون قلعة الكختا فالتقوا هناك فى شوال فانهزم صاحب آمد ومن معه من العساكر هزيمة عظيمة وجرح كثير وأسر كثير وملك عسكر كيقباذ قلعة الكختا بعد الهزيمة وهى من أمنع الحصون والمعاقل فلما ملكوه عادوا إلى صاحبهم .

﴿ذكر حصر جلال الدين مدينتى آنى وقرس﴾ فى هذه السنة فى رمضان عاد جلال الدين من كرمان كما ذكرناه إلى تفليس وسار منها إلى مدينة آنى وهى للكرج وبها إيوانى مقدم عساكر الكرج فيمن بقى معه من أعيان الكرج فحصره وسير طائفة من العسكر إلى مدينة قرس وهى للكرج أيضا وكلاهما من أحصن البلاد وأمنعها فنازلها وحصرهما وقاتل من بهما ونصب عليهما المجانيق وجد فى القتال عليهما وحفظهما الكرج

Marfat.com

Marfat.com

وبالغوا فى الحفظ والاحتياط لخوفهم منه أن يفعل بهم ما فعل بأشياعهم من قبل بمدينة تفليس وأقام عليهما إلى أن مضى بعض شوال ثم ترك العسكر عليهما يحصرونهما وعاد إلى تفليس وسار من تفليس مجدا إلى بلاد انخاز وبقايا الكرج فأوقع بمن فيها فنهب وقتل وسبى وخرب البلاد وأحرقها وغنم عساكره ما فيها وعاد منها إلى تفليس .

﴿ذكر حصر جلال الدين خلاط﴾ قد ذكرنا أن جلال الدين عاد من مدينة آنى إلى تفليس ودخل بلاد انخاز وكان رحيله مكيدة لأنه بلغه أن النائب عن الملك الأشرف وهو الحاجب حسام الدين على بمدينة خلاط قد احتاط واهتم بالأمر وحفظ البلد لقربه منه فعاد إلى تفليس ليطمئن أهل خلاط وتركوا الاحتياط والاستظهار ثم يقصدهم بغتة فكانت غيبته ببلاد انخاز عشرة أيام وعاد وسار مجدا على عادته فلو لم يكن عنده من يراسل نواب الأشرف بالأخبار لفجأهم على غفلة منهم وإنما كان عنده بعض ثقاته يعرفهم أخباره وكتب اليهم يحذرهم فوصل الخبر اليهم قبل وصوله بيومين ووصل جلال الدين فنازل مدينة ملازكرد يوم السبت ثالث عشر ذى القعدة ثم رحل عنها فنازل مدينة خلاط يوم الاثنين خامس عشرة فلم ينزل حتى زحف اليها وقاتل أهلها قتالا شديدا فوصل عسكره سور البلد وقتل بينهم قتلى كثيرة ثم زحف إليها مرة ثانية وقاتل أهل البلد قتالا عظيما فعظمت نكاية العسكر فى أهل خلاط ووصلوا إلى سور البلد ودخلوا الربض الذى له ومدوا أيديهم فى النهب وسبى الحريم فلما رأى أهل خلاط ذلك تذامروا وحرض بعضهم بعضا فعادوا إلى العسكر فقاتلوهم فأخرجوهم من البلد وقتل بينهم خلق كثير وأسر العسكر الخوارزمى من أمراء خلاط جماعة وقتل منهم كثير وترجل الحاجب على ووقف فى نحر العدو وأبلى بلاء عظيما ثم إن جلال الدين استراح عدة أيام وعاود الزحف مثل أول يوم فقاتلوه حتى أبعدوا عسكره عن البلد وكان أهل خلاط مجدين فى القتال حريصين على المنع عن أنفسهم لما رأوا من سوء سيرة الخوارزميين ونهبهم البلاد ومافيهم من الفساد فهم يقاتلون قتال من يمنع عن نفسه وحريمه وماله ثم أقام عليها إلى أن اشتد البرد ونزل شىء من الثلج فرحل عنها يوم الثلاثاء السبع بقين من ذى الحجة من السنة وكان سبب رحيله مع خوف الثلج مابلغه عن التركمان الإيوائية من الفساد ببلاده .

﴿ذكر إيقاع جلال الدين بالتركمان الإيوائية﴾ كان التركمان الإيوائية قد تغلبوا على مدينة أشنو وأرمية من نواحى أذربيجان وأخذوا الخراج من أهل خوى ليكفوا عنهم واغتروا باشتغال جلال الدين بالكرج وبعدهم بخلاط وازداد طمعهم وانبسطوا بأذربيجان ينهبون ويقطعون الطريق والأخبار تأتى إلى خوارزمشاه جلال الدين وهو يتغافل عنهم لاشتغاله بما هو أهم عنده وبلغ من طمعهم أنهم قطعوا الطريق بالقرب من تبريز وأخذوا من تجار أهلها شيئا كثيرا ومن جملة ذلك أنهم اشتروا غنما من أرزن الروم وقصدوا بها تبريز فلقيهم الإيوائية قبل وصولهم إلى تبريز فأخذوا جميع مامعهم ومن جملته عشرون ألف رأس غنم فلما اشتد ذلك على الناس وعظم الشر أرسلت زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل ونوابه فى البلاد إليه يستغيثون ويعرفونه أن البلاد قد خربها الإيوائية ولئن لم يلحقها وإلا هلكت بالمرة فاتفق هذا إلى خوف الثلج فرحل عن خلاط وجد السير إلى الإيوائية وهم آمنون مطمئنون لعلمهم أن خوارزمشاه على خلاط وظنوا أنه لايفارقها فلولا هذا الاعتقاد لصعدوا إلى جبال لهم منيعة شاهقة لايرتقى إليها إلا بمشقة وعناء فإنهم كانوا إذا خافوا صعدوا

إليها وامتنعوا بها فلم يرعهم إلا والعساكر الجلالية قد أحاطت بهم وأخذهم السيف من كل جانب فأكثروا القتل فيهم والنهب والسبي واسترقوا الحريم والأولاد وأخذوا من عندهم مالا يدخل تحت الحصر فرأوا كثيرا من الأمتعة التي أخذوها من التجار بحالها في الشذوات لم تحل هذا سوى ما كانوا قد حلوه وفصلوه فلما فرغ عاد إلى تبريز .

﴿ ذكر الصلح بين المعظم والأشرف ﴾ نبتدئ بذكر سبب الاختلاف فنقول لما توفى الملك العادل أبو بكر بن أيوب اتفق أولاده الملوك بعده اتفاقا حسنا وهم الملك الكامل محمد صاحب مصر والملك المعظم عيسى صاحب دمشق والبيت المقدس ومايجاورها من البلاد والملك الأشرف موسى وهو صاحب ديار الجزيرة وخلاط واجتمعت كلمتهم على دفع الفرنج عن الديار المصرية ولما رحل الكامل عن دمياط لما كان الفرنج يحصرونها صادفه أخوه المعظم من الغد وقويت نفسه وثبت قدمه ولولا ذلك لكان الأمر عظيما وقد ذكرنا ذلك مفصلا ثم إنه عاد من مصر وسار إلى أخيه الأشرف ببلاد الجزيرة مرتين يستنجده على الفرنج ويحثه على مساعدة أخيه الكامل ولم يزل به حتى أخذه وسار إلى مصر وأزالوا الفرنج عن الديار المصرية كما ذكرناه قبل فكان اتفاقهم سببا لحفظ بلاد الإسلام وسر الناس أجمعون بذلك فلما فارق الفرنج مصر وعاد كل من الملوك أولاد العادل إلى بلاده بقوا كذلك يسيرا ثم سار الأشرف إلى أخيه الكامل بمصر فاجتاز بأخيه المعظم بدمشق فلم يستصحبه معه وأطال المقام بمصر فلا شك أن المعظم سار إلى مدينة حماة وحصرها وأرسل إليه أخواه من مصر ورحلاه عنها كارها فازداد نفورا وقيل إنه نقل إليه عنهما أنهما اتفقا عليه والله أعلم بذلك ثم انضاف إلى ذلك أن الخليفة الناصر لدين الله رضي الله عنه كان قد استوحش من الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن بمكة من الاستهانة بأمير الحاج العراقي فأعرض عنه وعن أخيه الأشرف لاتفاقهما وقاطعهما وراسل مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين علي صاحب إربل لعلمه بانحرافه عن الأشرف واستمالة واتفقا على مراسلة المعظم وتعظيم الأمر عليه فمال إليهما وانحرف عن أخويه ثم اتفق ظهور جلال الدين وكثرة ملكه فاشتد الأمر على الأشرف بمجاورة جلال الدين خوارزمشاه ولاية خلاط ولأن المعظم بدمشق يمنع عنه عساكر مصر أن تصل إليه وكذلك عساكر حلب وغيرها من الشام فرأى الأشرف أن يسير إلى أخيه المعظم بدمشق فسار إليه في شوال واستمالة وأصلحه فلما سمع الكامل بذلك عظم عليه وظن أن اتفاقهما عليه ثم إنهما راسلاه وأعلماه بنزول جلال الدين على خلاط وعظما الأمر عليه وأعلماه أن هذه الحال تقتضي الاتفاق لعمارة البيت العادلي وانقضت السنة والأشرف بدمشق والناس على موضعهم ينتظرون خروج الشتاء مايكون من الخوارزميين وسنذكر ما يكون سنة أربع وعشرين وستمائة إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر الفتنة بين الفرنج والأرمن ﴾ في هذه السنة جمع البرنس الفرنجي صاحب أنطاكية جموعا كثيرة وقصد الأرمن الذين في الدروب من بلاد ابن ليون فكان بينهم حرب شديدة وسبب ذلك أن ابن ليون الأرمني صاحب الدروب توفي قبل ولم يخلف ولدا ذكرا إنما خلف بنتا فملكها الأرمن عليهم ثم علموا أن الملك لايقوم بامرأة فزوجوها من ولد البرنس فتزوجها وانتقل إلى بلدهم واستقر في الملك نحو سنة ثم ندموا على ذلك وخافوا أن يستولي الفرنج على بلادهم فثاروا بابن البرنس فقبضوا عليه وسجنوه فأرسل أبوه يطلب أن يطلق ويعاد في الملك فلم يفعلوا فأرسل إلى بابا ملك الفرنج برومية الكبرى يستأذنه في قصد بلادهم وهذا

Marfat.com

ملك رومية أمره عند الفرنج لا يخالف فمنعه عنهم وقال إنهم أهل ملتنا ولايجوز قصد بلادهم فخالفه وأرسل إلى علاء الدين كيقباذ ملك قونية وملطية وما بينهما من بلاد المسلمين وصالحه ووافقه على قصد بلاد ابن ليون والاتفاق على قصدها ، فاتفقا على ذلك وجمع البرنس عساكره ليسير إلى بلاد الأرمن فخالف عليه الداوية والاسبتار وهما جرة الفرنج فقالوا إن ملك رومية نهانا عن ذلك إلا أنه أطاعه غيرهم فدخل أطراف بلاد الأرمن وهى مضايق وجبال وعرة فلم يتمكن من فعل مايريد ، وأما كيقباذ فإنه قصد بلاد الأرمن من جهته وهى أسهل مدخلا من جهة الشام فدخلها سنة اثنتين وعشرين وستمائة فنهبها وأحرقها وحصر عدة حصون ففتح أربعة حصون وأدركه الشتاء فعاد عنها فلما سمع بابا ملك الفرنج برومية أرسل إلى الفرنج بالشام يعلمهم أنه قد حرم البرنس فكان الداوية والاسبتارية وكثير من الفرنج لايحضرون معه ولا يسمعون قوله وكان أهل بلاده وهى أنطاكية وطرابلس إذا جاءهم عيد يخرج من عندهم ، فإذا فرغوا من عيدهم دخل البلد ، ثم إنه أرسل إلى ملك رومية يشكو من الأرمن وأنهم لم يطلقوا ولده فأرسل إلى الأرمن يأمرهم بإطلاق ابنه وإعادته إلى الملك ، وإن فعلوا وإلا فقد أذن له فى قصد بلادهم ، فلما بلغتهم الرسالة لم يطلقوا ولده ، فجمع البرنس ، وقصد بلاد الأرمن ، فأرسل الأرمن إلى الأتابك شهاب الدين بحلب ، يستنجدونه ويخوفونه من البرنس إن استولى على بلادهم لأنها تجاور أعمال حلب ، فأمدهم بجند وسلاح ، فلما سمع البرنس ذلك ، صمم العزم على قصد بلادهم ، فسار إليهم وحاربهم ، فلم يحصل على غرض ، فعاد عنهم ه حدثنى بهذا رجل من عقلاء النصارى ممن دخل تلك البلاد وعرف حالها وسألت غيره فعرف البعض وأنكر البعض .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة انخسف القمر مرتين أولاهما ليلة رابع عشر صفر . وفيها كانت أعجوبة بالقرب من الموصل حامة تعرف بعين القيارة شديدة الحرارة تسميها الناس عين ميمون ويخرج مع الماء قليل من القار فكان الناس يسبحون فيها دائما فى الربيع والخريف لأنها تنفع من الأمراض الباردة كالفالج وغيره نفعا عظيما ، فكان من يسبح فيها يجد الكرب الشديد من حرارة الماء ، فى هذه السنة برد الماء فيها حتى كان السابح فيها يجد البرد فتركوها وانتقلوا إلى غيرها . وفيها كثرت الذئاب والخنازير والحيات ، فقتل كثير . فلقد بلغنى أن ذئبا دخل الموصل فقتل فيها . (وحدثنى) صديق لنا له بستان بظاهر الموصل أنه قتل فيه فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة جميع الصيف حيتين . وقتل هذه السنة إلى أول حزيران سبع حيات لكثرتها وفيها انقطع المطر بالموصل وأكثر البلاد الجزرية من خامس شباط إلى ثانى عشرة نيسان ولم يجر شىء يعتد به لكنه سقط اليسير منه فى بعض القرى فجاءت الغلات قليلة . ثم خرج الجراد الكثير فازدادت الناس أذى وكانت الأسعار قد صلحت شيئا فعادت لكثرة الجراد غلت ونزل أيضا فى كثير من القرى برد كبير أهلك زروع أهلها وأفسدها واختلفت أقاويل الناس فى أكبره كان وزن بردة مائتى درهم وقيل رطل وقيل غير ذلك إلا أنه أهلك كثيرا من الحيوان وانقضت هذه السنة والغلاء باق واشتد بالموصل . وفيها اصطاد صديق لنا أرنبا فرآه وله انثيان ، وذكر وفرج أنثى ، فلما شقوا بطنها رأوا فيها حريفين ، سمعت هذا منه ومن جماعة كانوا معه . وقالوا مازلنا نسمع أن الأرنب يكون سنة ذكرا وسنة أنثى ، ولا نصدق بذلك ، فلما رأينا هذا علمنا أنه قد حمل وهو أنثى ، وانقضت السنة فصار ذكرا . فإن كان كذلك فيكون فى الأرانب كالخنثى من بنى آدم يكون لأحدهم فرج الرجل وفرج الأنثى . فإنى كنت بالجزيرة ولنا جار له بنت اسمها صفية فبقيت كذلك

Marfat.com

نحو خمس عشرة سنة ، وإذا قد طلع لها ذكر رجل ونبتت لحيتها فكان لها فرج امرأة وذكر رجل . وفيها ذبح إنسان عندنا رأس غنم فوجد لحمه مرا شديد المرارة حتى رأسه وأكارعه ومعلاقه وجميع أجزائه وهذا مالم يسمع بمثله . وفيها فى يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذى القعدة ضحوة النهار زلزلت الأرض بالموصل وكثير من البلاد العربية والعجمية ، وكان أكثرها بشهرزور فإنها خرب أكثرها لاسيما القلعة فإنها أجحفت بها وخرب من تلك الناحية ست قلاع وبقيت الزلزلة تتردد فيها نيفا وثلاثين يوما ، ثم كشفها الله عنهم ، وأما القرى بتلك الناحية فخرب أكثرها . وفيها فى رجب توفى القاضى حجة الدين أبو منصور المظفر بن عبدالقاهر ابن الحسن بن على بن القاسم الشهرزورى قاضى الموصل بها وكان قد أضر قبل وفاته بنحو سنتين ، وكان عالما بالقضاء عفيفا نزها ذا رياسة كبيرة وله صلات دارّة للمقيم والوارد رحمه الله ، فلقد كان من محاسن الدنيا ولم يخلف غير بنت توفيت بعده بثلاثة أشهر(١) .

﴿ثم دخلت سنة أربع وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر دخول الكرج مدينة تفليس وإحراقها﴾ فى هذه السنة فى ربيع الأول وصل الكرج مدينة تفليس ولم يكن بها من العسكر الإسلامى من يقوم بحمايتها وسبب ذلك أن جلال الدين لما عاد من خلاط كما ذكرنا قبل ، وأوقع بالإيوانية فرق عساكره إلى المواضع الحارة الكثيرة المرعى ليشتوا بها ، وكان عسكره قد أساؤا السيرة فى رعية تفليس وهم مسلمون وعسفوهم فكاتبوا الكرج يستدعونهم إليهم ليملكوهم البلد فاغتنم الكرج ذلك لميل أهل البلد إليهم وخلوه من العسكر فاجتمعوا وكانوا بمدينتى قرس وآنى وغيرهما من الحصون وساروا إلى تفليس وكانت خاليه كما ذكرناه ، ولأن جلال الدين استضعفه الكرج لكثرة من قتل منهم ولم يظن فيهم حركة فملكوا البلد ووضعوا السيف فيمن بقى من أهله وعلموا أنهم لا يقدرون على حفظ البلد من جلال الدين فأحرقوها جميعها وأما جلال الدين فإنه لما بلغه الخبر سار فيمن عنده من العساكر ليدركهم فلم يرمنهم أحدا كانوا قد فارقوا تفليس لما أحرقوها .

﴿ذكر نهب جلال الدين بلد الإسماعيلية﴾ فى هذه السنة قتل الإسماعيلية أميرا كبيرا من أمراء جلال الدين وكان قد أقطعه جلال الدين مدينة كنجة وأعمالها وكان نعم الأمير كثير الخير حسن السيرة ينكر على جلال الدين مايفعله عسكره من النهب وغيره من الشر فلما قتل ذلك الأمير عظم قتله على جلال الدين واشتد عليه

---

(١) وفيها توفى أبو محمد محمود بن مودود بن محمود البلدجى الحنفى الموصلى ، وله بها مدرسة تعرف به ، وكان من أبناء الترك ، وصار من مشايخ العلماء وله دين متين وشعر حسن جيد ، فمنه قوله .

من ادعى أن له حالة ٭ تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحباً ٭ فانه خره بلا نفع

كانت وفاته بالموصل فى السادس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وله نحو من ثمانين سنة . وفيها توفى ياقوت ويقال له يعقوب بن عبدالله نجيب الدين متولى الشيخ تاج الدين الكندى ، وقد وقف إليه الكتب التى بالخزانة بالزاوية الشرقية الشمالية من جامع دمشق ، وكانت سبعمائة وإحدى وستين مجلدا ، ثم على ولده من بعده ثم على العلماء فتمحقت هذه الكتب وبيع أكثرها ، وقد كان ياقوت هذا لديه فضيلة وأدب وشعر جيد ، وكانت وفاته ببغداد فى مستهل رجب ، ودفن بمقبرة الخيزران بالقرب من مشهد أبى حنيفة :

Marfat.com

سار فى عساكره إلى بلاد الإسماعيلية من حدود المديت إلى كردكوه بخراسان فخرب الجميع وقتل أهلها ونهب الأموال وسبى الحريم واسترق الأولاد وقتل الرجال وعمل بهم الأعمال العظيمة وانتقم منهم وكانوا قد عظم شرهم وازداد ضررهم وطمعوا مذخرج التتر إلى بلاد الإسلام إلى الآن فكف عاديتهم وقمعهم ولقاهم الله ماعملوا بالمسلمين.

﴿ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر﴾ لما فرغ جلال الدين من الإسماعيلية بلغه الخبر ان طائفة من التتر عظيمة قد بلغوا إلى دامغان بالقرب من الرى عازمين على بلاد الإسلام فسار اليهم وحاربهم واشتد القتال بينهم فانهزموا منه فأوسعهم قتلا وتبع المنهزمين عدة أيام يقتل ويأسر فبينما هو كذلك قد أقام بنواحى الرى خوفا من جمع آخر للتتر إذأتاه الخبر بأن كثيرا منهم واصلون اليه فأقام ينتظرهم وسنذكر خبرهم سنة خمس وعشرين وستمائة.

﴿ذكر دخول العساكر الأشرفية إلى أذربيجان وملك بعضها﴾ فى هذه السنة فى شعبان سار الحاجب على حسام الدين وهو النائب عن الملك الأشرف بخلاط والمقدم على عساكرها إلى بلاد أذربيجان فيمن عنده من العساكر وسبب ذلك أن سيرة جلال الدين كانت جائرة وعساكره طامعة فى الرعايا وكانت زوجته ابنة السلطان طغرل السلجوقى وهى التى كانت زوجة أوزبك بن البهلون صاحب أذربيجان فتزوجها جلال الدين كما ذكرناه قبل وكانت مع أوزبك تحكم فى البلاد جميعها ليس له ولا لغيره معها حكم فلما تزوجها جلال الدين أهملها ولم يلتفت اليها فخافته مع حرمته من الحكم والأمر والنهى فأرسلت هى وأهل خوى إلى حسام الدين الحاجب يستدعونه ليسلموا البلاد له فسار ودخل البلاد بلاد أذربيجان فملك مدينة خوى وما يجاورها من الحصون التى بيد امرأة جلال الدين وملك مرندو كاتبه أهل مدينة نقجوان فمضى اليهم فسلموها اليه وقويت شوكتهم بتلك البلاد ولو داموا لملكوها جميعها إنما عادوا إلى خلاط واستصحبوا معهم زوجة جلال الدين ابنة السلطان طغرل إلى خلاط وسنذكر باقى خبرهم سنة خمس وعشرين إن شاء الله تعالى.

﴿ذكر وفاة المعظم صاحب دمشق وملك ولده﴾ فى هذه السنة توفى الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب دمشق يوم الجمعة سلخ ذى القعدة وكان مرضه دوسنطاريا وكان ملكه لمدينة دمشق من حين وفاة والده الملك العادل عشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما وكان عالما بعدة علوم فاضلا فيها منها الفقه على مذهب أبى حنيفة فإنه كان قد اشتغل به كثيرا وصار من المتميزين فيه ومنها علم النحو فإنه اشتغل به أيضا اشتغالا زائدا وصار فيه فاضلا وكذلك اللغة وغيرها وكان قد أمر أن يجمع له كتاب فى اللغة جامع كبير فيه كتاب الصحاح للجوهرى ويضاف إليه مافات الصحاح من التهذيب للأزهرى والجمهرة لابن دريد وغيرهما وكذلك أيضا أمر بأن يرتب مسند أحمد بن حنبل على الأبواب ويرد كل حديث إلى الباب الذى يقتضيه معناه مثاله أن يجمع أحاديث الطهارة وكذلك يفعل فى الصلاة وغيرها من الرقائق والتفسير والغزوات فيكون كتابا جامعا وكان قد سمع المسند من بعض أصحاب ابن الحصين ونفق الدلم فى سوقه وقصده العلماء من الآفاق فأكرمهم وأجرى عليهم الجرايات الوافرة وقربهم وكان يجالسهم ويستفيد منهم ويفيدهم وكان يرجع إلى علم وصبر على سماع مايكره لم يسمع أحد ممن يصحبه منه كلمة تسوءه وكان حسن الاعتقاد يقول كثيرا إن اعتقادى فى الأصول ماسطره أبو جعفر الطحاوى ووصى عند موته بأن يكفن فى البياض ولا يجعل فى أكفانه ثوب فيه

ذهب وأن يدفن فى لحد ولا يبنى عليه بناء بل يكون قبره فى الصحراء تحت السماء ويقول فى مرضه لى عند الله تعالى فى أمر دمياط ماأرجو أن يرحمنى به ولما توفى ولى بعده ابنه داود ويلقب الملك الناصر وكان عمره قد قارب عشرين سنة .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى هذه السنة دام الغلاء فى ديار الجزيرة ودامت الأسعار تزيد قليلا وتنقص قليلا وانقطع المطر جميع شباط وعشرة أيام من أذار فازداد الغلاء فبلغت الحنطة كل مكوكين بالموصل بدينار وقيراطين بالموصل والشعير كل ثلاثة مكاكيك بالموصلى بدينار وقيراطين أيضا وكل شىء بهذه النسبة فى الغلاء وفيها فى الربيع قل لحم الغنم بالموصل وغلا سعره حتى بيع كل رطل لحم بالبغدادى بحبتين بالصنجة وربما زاد فى بعض الأيام على هذا الثمن وحكى لى من يتولى بيع الغنم بالموصل أنهم باعوا خروفا واحدا لاغير وفى بعضها خمسة أرؤس وفى بعضها ستة وأقل وأكثر وهذا مالم يسمع بمثله ولا رأيناه فى جميع أعمارنا ولاحكى لنا مثله لأن الربيع مظنة رخص اللحم لأن التركمان والأكراد والكيلكان ينتقلون من الأمكنة التى شتوا بها إلى الزوزان فيبيعون الغنم رخيصا وكان اللحم كل سنة فى هذا الفصل يكون سعره كل ستة أرطال وسبعة بقيراط صار هذه السنة الرطل بحبتين . وفيها عاشر أذار وهو العشرون من ربيع الأول سقط الثلج مرتين وهذا غريب جدا لم يسمع بمثله فأهلك الأزهار التى خرجت كزهر اللوز والمشمش والإجاص والسفرجل وغيرها ووصلت الأخبار من العراق جميعه مثل ذلك فهلكت به أزهار الثمار أيضا وهذا أعجب من حال ديار الجزيرة والشام فإنه أشد حرا من جميعها . وفيها ظفر جمع من التركمان كانوا بأطراف أعمال حلب بفارس مشهور من الفرنج الداوية بأنطاكية فقتلوه فعلم الداوية بذلك فساروا وكبسوا التركمان فقتلوا منهم وأسروا وغنموا من أموالهم فبلغ إلى أتابك شهاب الدين المتولى لأمور حلب فراسل الفرنج وتهددهم بقصد بلادهم واتفق أن عسكر حلب قتلوا فارسين كبيرين من الداوية أيضا فأذعنوا بالصلح وردوا إلى التركمان كثيرا من أموالهم وحريمهم وأسراهم . وفيها فى رجب اجتمع طائفة كثيرة من ديار بكر وأرادوا الإغارة على جزيرة ابن عمر ، وكان صاحب الجزيرة قد قتل فلما قصدوا بلد الجزيرة اجتمع أهل قرية كبيرة من بلد الجزيرة اسمها سلكون ولقوهم من ضحوة النهار إلى العصر وطال القتال بينهم ثم حمل أهل القرية على الأكراد فهزموهم وقتلوا فيهم ونهبوا مامعهم وعادوا سالمين .

﴿ ثم دخلت سنة خمس وعشرين وستمائة ﴾

﴿ ذكر الخلف بين جلال الدين وأخيه ﴾ فى هذه السنة خاف غياث الدين بن خوارزمشاه وهو أخو جلال الدين من أبيه أخاه وخافه معه جماعة من الأمراء واستشعروا منه وأرادا الخلاص منه فلم يتمكنوا من ذلك إلى أن خرجت التتر واشتغل بهم جلال الدين فهرب غياث الدين ومن معه وقصدوا خوزستان وهى من بلاد الخليفة فلم يمكنهم النائب بها من الدخول إلى البلد خوفا أن تكون هذه مكيدة فبقى هناك فلما طال عليه الأمر فارق خوزستان وقصد بلاد الإسماعيليه فوصل إليهم واحتمى بهم واستجار بهم وكان جلال الدين قد فرغ من أمر التتر وعاد تبريز فأتاه الخبر وهو بالميدان يلعب بالكرة أن أخاه قد قصد أصفهان فألقى الجوكان من يده وسار بجدا فسمع أن أخاه قصد الإسماعيلية ملتجئا إليهم ولم يقصد أصفهان فعاد إلى بلاد الاسماعيلية لينهب بلادهم

Marfat.com

Marfat.com

إن لم يسلموا إليه أخاه وأرسل يطلبه من مقدم الإسماعيلية فأعاد الجواب يقول إن أخاك قد قصدنا وهو سلطان ابن سلطان ولا يجوز لنا أن نسلمه لكن نحن نتركه عندنا ولا نمكنه أن يقصد شيئا من بلادك ونسألك أن تشفعنا فيه والضمان علينا بما قلنا ومتى كان منه ماتكره فى بلادك فبلادنا حينئذ بين يديك تفعل فيها ماتختار فأجابهم إلى ذلك واستحلفهم على الوفاء بذلك وعاد منهم وقصد خلاط على مانذكره إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر الحرب بين جلال الدين والتتر ﴾ فى هذه السنة عاود التتر الخروج إلى الرى وجرى بينهم وبين جلال الدين حروب كثيرة اختلف الناس علينا فى عددها كان أكثرها عليه وفى الأخير كان الظفر له وكانت فى أول حرب بينهم عجائب غريبة وكان هؤلاء التتر قد سخط ملكهم جنكزخان على مقدمهم وأبعده عنه وأخرجه من بلاده فقصد خراسان فرآها خرابا فقصد الرى لينغلب على تلك النواحى والبلاد فلقيه بها جلال الدين فاقتتلوا أشد قتال ثم انهزم جلال الدين وعاود ثم انهزم وقصد أصفهان وأقام بينها وبين الرى وجمع عساكره ومن فى طاعته فكان فيمن أتاه صاحب بلاد فارس وهو ابن أتابك سعد ملك بعد وفاة أبيه كما ذكرناه وعاد جلال الدين إلى التتر فلقيهم فبينما هم مصطفون كل طائفة مقابل الأخرى انفرد غياث الدين أخو جلال الدين فيمن وافقه من الأمراء على مفارقة جلال الدين واعتزلوا وقصدوا الجهة ساروا اليها فلما رآهم التتر قد فارقوا العسكر ظنوهم يريدون أن يأتوهم من وراء ظهورهم ويقاتلوهم من جهتين فانهزم التتر لهذا الظن وتبعهم صاحب بلاد فارس وأما جلال الدين فإنه لما رأى مفارقه اخيه إياه ومن معه من الأمراء ظن أن التتر قد رجعوا خديعة ليستدرجوه فعاد منهزما ولم يجسر يدخل أصفهان لئلا يحصروه فمضى إلى سميدم وأما صاحب فارس فلما أبعد فى أثر التتر ولم ير جلال الدين ولا عسكره معه خاف التتر فعاد عنهم وأما التتر فلما لم يروا فى آثارهم أحدا يطلبهم وقفوا ثم عادوا إلى أصفهان فلم يجدوا فى طريقهم من يمنعهم فوصلوا إلى أصفهان فحصروها وأهلها يظنون أن جلال الدين قد عدم فبينما هم كذلك والتتر يحصرونهم إذ وصل قاصد من جلال الدين اليهم يعرفهم سلامته ويقول إنى متعوق أو يجتمع إلى من سلم من العسكر وأقصدكم ونتفق أنا وأنتم على إزعاج التتر ونرحلهم عنكم فأرسلوا اليه يستدعونه اليهم ويعدونه البصرة والخروج معه إلى عدوه وفيهم شجاعة عظيمة فسار اليهم واجتمع بهم وخرج أهل أصفهان معه فقاتلوا التتر فانهزم التتر أقبح هزيمة وتبعهم جلال الدين إلى الرى يقتل ويأسر فلما أبعدوا عن الرى أقام بها وأرسل اليه ابن جنكزخان يقول إن هؤلاء ليسوا من أصحابنا إنما نحن أبعدناهم عنا فلما أمن جانب جنكزخان أمن وعاد إلى أذربيجان .

﴿ ذكر خروج الفرنج إلى الشام وعمارة صيدا ﴾ وفى هذه السنة خرج كثير من الفرنج من بلادهم التى هى فى الغرب من صقلية وما وراءها من البلاد إلى بلادهم التى بالشام عكا وصور وغيرهما من ساحل الشام فكثر جمعهم وكان قد خرج قبل هؤلاء جمع آخر أيضا إلا أنهم لم تمكنهم الحركة والشروع فى أمر الحرب لأجل أن ملكهم الذى هو المقدم عليهم هو ملك الألمان ولقبه إنبرور قيل معناه ملك الأمراء ولأن المعظم كان حيا وكان شهما شجاعا مقدما فلما توفى المعظم كما ذكرناه وولى بعده ابنه وملك دمشق طمع الفرنج وظهروا من عكا وصور وبيروت إلى مدينة صيدا وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين وسورها خراب فعمروها واستولوا عليها وأزالوا عنها حكم المسلمين وإنما تم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها تبنين وهونين وغيرهما وقد تقدم ذكر ذلك قبل مستقصى فعظمت شوكة الفرنج وقوى طمعهم واستولى فى طريقه على جزيرة قبرس

Marfat.com

وملكها وسار منها إلى عكا فارتاع المسلمون لذلك والله تعالى يخذله وينصر المسلمين بمحمد وآله ثم إن ملكهم إنبرور وصل إلى الشام .

﴿ذكر ملك كيقباذ أرزنكان﴾ وفى هذه السنة ملك علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان وهو صاحب قونية واقصرا وملطية وغيرها من بلاد الروم أرزنكان وسبب ملكه إياها أن صاحبها وبهرام شاه وكان قد طال ملكه لها وجاوز ستين سنة توفى ولم يزل فى طاعة قلج أرسلان وأولاده بعده فلما توفى ملك بعده ولده علاء الدين داود شاه فأرسل اليه كيقباذ يطلب منه عسكرا ليسير معه إلى مدينة أرزن الروم ليحصرها ويكون هو مع العسكر ففعل ذلك وسار فى عسكره اليه فلما وصل قبض عليه وأخذ مدينة أرزنكان منه وله حصن من أمنع الحصون اسمه كماخ وفيه مستحفظ لداود شاه فأرسل اليه ملك الروم يحضره فلم يقدر العسكر على القرب منه لعلوه وارتفاعه وامتناعه فتهدد داود شاه إن لم يسلم كماخ فأرسل إلى نائبه فى التسليم فسلم القلعة إلى كيقباذ . وأراد كيقباذ المسير إلى أرزن الروم ليأخذها وبها صاحبها ابن عمه طغرل شاه بن قلج أرسلان فلما سمع صاحبها بذلك أرسل إلى الأمير حسام الدين على النائب عن الملك الأشرف بخلاط يستنجده وأظهر طاعة الأشرف فسار حسام الدين فيمن عنده من العساكر وكان قد جمعها من الشام وديار الجزيرة خوفا من ملك الروم خافوا أنه إذا ملك أرزن الروم يتعدى أو يقصد خلاط فسار الحاجب حسام الدين إلى أرزن الروم ومنع عنها ولما سمع كيقباذ بوصول العساكر إليها لم يقدم على قصدها فسار من أرزنكان إلى بلاده وكان قد أتاه الخبر أن الروم الكفار المجاورين لبلاده قد ملكوا منه حصنا يسمى صنوب وهو من أحصن القلاع مطل على البحر بحر الخزر فلما وصل إلى بلاده سير العسكر إليه وحصره برا وبحرا فاستعاده من الروم وسار إلى أنطاكية ليشتى بها على عادته .

﴿ذكر خروج الملك الكامل﴾ فى هذه السنة فى شوال سار الملك الكامل محمد بن الملك العادل صاحب مصر إلى الشام فوصل إلى البيت المقدس حرسه الله تعالى وجعله دار الإسلام أبدا ثم سار عنه وولى بمدينة نابلس وشحن على تلك البلاد جميعها وكانت من أعمال دمشق وهو إلى الملك المعظم فخاف أن يقصده ويأخذ دمشق منه فأرسل إلى عمه الملك الأشرف يستنجده ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه جريدة فدخل دمشق فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم اليه لأن البلد منيع وقد صار به من يمنعه ويحميه وأرسل اليه الملك الأشرف يستعطفه ويعرفه أنه ماجاء إلى دمشق إلا طاعة له وموافقة لأغراضه والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد فأعاد الكامل الجواب يقول إننى ماجئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج فانهم لم يكن فى البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضى الأعصار وعمر الأيام فإن أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحدوثة ماينا قض ذلك الذكر الجميل الذى ادخره عمنا وأى وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى ثم إنهم مايقنعون حينئذ بما أخذوه ويتعدون إلى غيره وحيث قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر واحفظ أنت البلاد ولست بالذى يقال عنى أنى قاتلت أخى أو حصرته حاشى لله تعالى وتأخر عن نابلس نحو الديار المصرية ونزل تل العجول فخاف الأشرف والناس قاطبة بالشام وعلموا أنه إن عاد استولى الفرنج على البيت المقدس وغيره مما يجاوره لامانع دونه فترددت الرسل وسار الأشرف

بنفسه إلى الكامل أخيه فحضر عنده وكان وصوله ليلة عيد الأضحية ومنعه من العود إلى مصر فأقاما بمكانهما.

﴿ذكر نهب جلال الدين بلاد أرمينية﴾ فى هذه السنة وصل جلال الدين خوارزمشاه إلى بلاد خلاط وتعدى خلاط إلى صحراء موش وجبل حور ونهب الجميع وسبى الحريم واسترق الأولاد وقتل الرجال وخرب القرى وعاد إلى بلاده ولما وصل الخبر إلى البلاد الجزرية حران وسروج وغيرهما أنه قد جاز خلاط إلى جور وأنه قد قرب منهم خاف أهل البلاد أن يجىء إليهم لأن الزمان كان شتاء وظنوا أنه يقصد الجزيرة ليشتى بها لأن البرد بها ليس بالشديد وعزموا على الانتقال من بلادهم إلى الشام ووصل بعض أهل سروج إلى منبج من أرض الشام فأتاهم الخبر أنه قد نهب البلاد وعاد فأقاموا وكان سبب عوده أن الثلج سقط ببلاد خلاط كثيرا لم يعهد مثله فأسرع العود.

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة رخصت الأسعار بديار الجزيرة جميعها وجاءت الغلات لهم من الحنطة والشعير جيدا إلا أن الرخص لم يبلغ الأول الذى كان قبل الغلاء إنما صارت الحنطة كل خمس مكاكيك بدينار والشعير كل سبعة عشر مكوكا بالموصلى بدينار (١)

﴿ثم دخلت سنة ست وعشرين وستمائة﴾

﴿ذكر تسليم البيت المقدس إلى الفرنج﴾ فى هذه السنة أول ربيع الآخر تسلم الفرنج لعنهم الله البيت المقدس صلحا أعاده الله إلى الإسلام سريعا وسبب ذلك ماذكرناه سنة خمس وعشرين وستمائة من خروج الإنبرور وملك الفرنج من بلاد الفرنج داخل البحر إلى ساحل الشام وكانت عساكره قد سبقته ونزلوا بالساحل وأفسدوا من يجاورهم من بلاد المسلمين ومضى إليهم وهم بمدينة صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لمدينة صور وأطاعوهم وصاروا معهم وقوى طمع الفرنج بموت الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب دمشق، ولما وصل الإنبرور إلى الساحل نزل بمدينة عكا وكان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج من الديار المصرية يريد الشام بعد وفاة أخيه المعظم وهو نازل بتل العجول يريد أن يملك دمشق من صلاح الدين داود بن المعظم وهو صاحبها يومئذ، وكان داود لما سمع بقصد عمه الملك الكامل له، قد أرسل إلى عمه الملك الأشرف صاحب البلاد الجزرية يستنجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه عنه فسار إلى دمشق فترددت الرسل بينه وبين أخيه الملك الكامل فى الصلح فاصطلحا واتفقا وسار الملك الأشرف إلى الملك الكامل واجتمع به فلما اجتمعا ترددت الرسل بينهما وبين الإنبرور ملك الفرنج دفعات كثيرة فاستقرت القاعدة على أن يسلموا إليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده ويكون باقى البلاد مثل الخليل ونابلس والغور وطبرية وغير ذلك بيد المسلمين ولا يسلم إلى الفرنج إلا البيت المقدس والمواضع التى استقرت معه وكان سور البيت المقدس خرابا قد خربه الملك المعظم. وقد ذكرنا ذلك وتسلم الفرنج البيت المقدس واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم مالا يمكن وصفه. يسر الله فتحه. وعوده إلى المسلمين بمنه وكرمه. آمين.

---

(١) وفيها توفى أبو المعالى أسعد بن يحيى بن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهب الفقيه الشافعى البخارى، شيخ أديب فاضل خير، له نظم ونثر ظريف، وله نوادر حسنة وجاوز التسعين. قد استوزره صاحب حماة فى وقت. وفيها توفى أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن حمدان الطبى المعروف بالصائن، أحد المعيدين بالنظامية، ودرس بالنقفية، وكان عارفا بالمذهب والفرائض والحساب، صنف شرحا للتنبيه. ذكره ابن الساعى.

Marfat.com

(ذكر ملك الملك الأشرف مدينة دمشق) وفى هذه السنة يوم الاثنين ثانى شعبان ملك الملك الأشرف ابن الملك العادل مدينة دمشق من ابن أخيه صلاح الدين داود بن المعظم وسبب ذلك ماذكرناه أن صاحب دمشق لما خاف من عمه الملك الكامل أرسل إلى عمه الأشرف يستنجده ويستعين به على دفع الكامل فسار إليه من البلاد الجزرية ودخل دمشق وفرح به صاحبها وأهل البلد وكانوا قد احتاطوا وهم يتجهزون للحصار فأمر بإزالة ذلك وترك ماعزموا عليه من الاحتياط وحلف لصاحبها على المساعدة والحفظ له ولبلاده عليه وراسل الملك الكامل واصطلحا وظن صاحب دمشق أنه معهما فى الصلح وسار الأشرف إلى أخيه الكامل واجتمعا فى ذى الحجة من سنة خمس وعشرين يوم العيد وسار صاحب دمشق إلى بيسان وأقام بها وعاد الملك الأشرف من عند أخيه واجتمع هو وصاحب دمشق ولم يكن الأشرف فى كثرة من العسكر فبينما هما جالسان فى خيمة لهما وإذ قد دخل عزالدين أيبك مملوك المعظم الذى كان صاحب دمشق وهو أكبر أمير مع ولده فقال لصاحبه داود قم اخرج وإلا قبضت الساعة فأخرجه ولم يمكن الأشرف منعه لأن أيبك كان قد أركب العسكر الذى له جميعه وكانوا أكثر من الذين مع الأشرف فخرج داود وسار هو وعسكره إلى دمشق وكان سبب ذلك أن أيبك قيل له إن الأشرف يريد القبض على صاحبه وأخذ دمشق منه ففعل ذلك فلما عادوا وصلت العساكر من الكامل إلى الأشرف وسار فنازل دمشق وحصرها وأقام محاصرا لها إلى أن وصل إليه الملك الكامل فحينئذ اشتد الحصار وعظم الخطب على أهل البلد وبلغت القلوب الحناجر وكان من أشد الأمور على صاحبها أن المال عنده قليل لأن أمواله بالكرك ولوثوقه بعمه الأشرف لم يحضر منها شيئا فاحتاج إلى أن باع حلى نسائه وملبوسهم وضاقت الأمور عليه فخرج إلى عمه الكامل وبذل له تسليم دمشق على أن يبقى عليه الكرك وقلعة الشويك والغور ونابلس وتلك الأعمال وأن يبقى على أيبك قلعة صرخد وأعمالها وتسليم الكامل دمشق وجعل نائبه بالقلعة إلى أن سلم إليه أخوه الأشرف حران والرها والرقة وسروج ورأس العين من الجزيرة فلما تسلم ذلك سلم قلعة دمشق إلى أخيه الأشرف فدخلها وأقام بها وسار الكامل إلى الديار الجزرية فأقام بها إلى أن استدعى أخاه الأشرف بسبب حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط فلما حضر عنده بالرقة عاد الكامل إلى ديار مصر وأما الأشرف فكان منه مانذكره إن شاء الله تعالى.

(ذكر القبض على الحاجب على وقتله) وفى هذه السنة أرسل الملك الأشرف مملوكه عز الدين أيبك وهو أمير كبير فى دولته إلى مدينة خلاط وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدين على بن حماد وهو المتولى لبلاد خلاط والحاكم فيها من قبل الأشرف ولم تعلم شيئا يوجب القبض عليه لأنه كان مشفقا عليه ناصحا له حافظا لبلاده حسن السيرة مع الرعية ولقد وقف هذه المدة الطويلة فى وجه خوارزمشاه جلال الدين وحفظ خلاط حفظا يعجز غيره عنه وكان مهتما بحفظ بلاده وذابا عنها، وقد تقدم من ذكر قصده بلاد جلال الدين والاستيلاء على بعضها مايدل على همة عالية وشجاعة تامة، وصار لصاحبه به منزلة عظيمة فإن الناس يقولون بعض غلمان الملك الأشرف يقاوم خوارزمشاه وكان رحمه الله كثير الخير والإحسان لا يمكن أحداً من ظلم وعمل كثيراً من أعمال البر من الخانات فى الطرق والمساجد فى البلاد وبنى بخلاط بيمارستانا وجامعا وعمل كثيرا من الطرق وأصلحها كان يشق سلوكها، فلما وصل أيبك إلى خلاط قبض عليه ثم قتله غيلة لأنه كان عدوه ولما قتل ظهر أثر كفايته فإن جلال الدين حصر خلاط بعد قبضه وملكها على ماذكره إن شاء الله، ولم يمهل الله

Marfat.com

أيبك بل انتقم منه سريعا فإن جلال الدين أخذ أيبك أسيرا لما ملك خلاط مع غيره من الامراء ، فلما اصطلح الأشرف وجلال الدين أطلق الجميع وذكر أن أيبك قتل وكان سبب قتله أن مملوكا للحاجب على كان قد هرب إلى جلال الدين فلما أسر أيبك طلبه ذلك المملوك من جلال الدين ليقتله بصاحبه الحاجب على فسلمه إليه فقتله وبلغنى أن الملك الأشرف رأى فى المنام كأن الحاجب عليا قد دخل إلى مجلس فيه أيبك فأخذ منديلا وجعله فى رقبة أيبك وأخذه وخرج فأصبح الملك الأشرف وقال قد مات أيبك فإنى رأيت فى المنام كذا وكذا .

﴿ذكر ملك الكامل مدينة حماة﴾ وفى هذه السنة أواخر شهر رمضان ملك الملك الكامل مدينة حماة وسبب ذلك أن الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر وهو صاحب حماة توفى على ماذكره ، ولما حضرته الوفاة حلف الجند وأكابر البلد لولده الأكبر ويلقب بالملك المظفر وكان قد سيره أبوه إلى الملك الكامل صاحب مصر لأنه كان قد تزوج بابنته ، وكان لمحمد ولد آخر اسمه قلج أرسلان ولقبه صلاح الدين وهو بدمشق فحضر إلى مدينة حماة فسلمت إليه واستولى على المدينة وعلى قلعتها فأرسل الملك الكامل يأمره أن يسلم البلد إلى أخيه الأكبر فإن أباه أوصى له به ، فلم يفعل وترددت الرسل فى ذلك إلى الملك المعظم صاحب دمشق فلم تقع الإجابة ، فلما توفى المعظم وخرج الكامل إلى الشام وملك دمشق سير جيشا إلى حماة فحصرها ثالث شهر رمضان . وكان المقدم على هذا الجيش أسد الدين شيركوه صاحب حمص وأمير كبير من عسكره يقال له فخر الدين عثمان ومعهما ولد محمد تقى الدين الذى كان عند الكامل فبقى الحصار على البلد عدة أيام وكان الملك الكامل قد سار عن دمشق ونزل على سلمية يريد العبور إلى البلاد الجزرية حران وغيرها ، فلما نازلها قصده صاحب حماة صلاح الدين ونزل إليه من قلعته ولم يكن لذلك سبب إلا أمر الله تعالى . فإن صلاح الدين قال لأصحابه أريد النزول إلى الملك الكامل فقالوا له ليس بالشام أحصن من قلعتك وقد جمعت من الذخائر مالا حد له . فلأى شىء تنزل إليه ليس هذا برأى فأصر على النزول وأصروا على منعه ، فقال فى آخر الامر أتركونى أنزل وإلا ألقيت نفسى من القلعة فحينئذ سكتوا عنه فنزل فى نفر يسير ووصل إلى الكامل فاعتقله إلى أن سلم مدينة حماة وقلعتها إلى أخيه الأكبر الملك المظفر وبقى بيده قلعة بارين حسب فإنها كانت له . وكان هو كالباحث بظلفه على حتفه .

﴿ذكر حصر جلال الدين خلاط وملكها﴾ وفى هذه السنة أوائل شوال حصر جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط وهى للملك الأشرف وبها عسكره فامتنعوا بها وأعانهم أهل البلد خوفا من جلال الدين لسوء سيرته وأسرفوا فى الشتم والسفه فأخذه اللجاج معهم وأقام عليهم جميع الشتاء محاصرا وفرق كثيرا من عساكره فى القرى والبلاد القريبة من شدة البرد وكثرة الثلج فإن خلاط من أشد البلاد بردا وأكثرها ثلجا وأبان جلال الدين عن عزم قوى وصبر تحار العقول منه ونصب عليها عدة منجنيقات ولم يزل يرميها بالحجارة حتى خرب بعض سورها فأعاد أهل البلد عمارته ولم يزل مصابرهم وملازمهم إلى أواخر جمادى الأولى من سنة سبع وعشرين فزحف إليها زحفا متتابعا وملكها عنوة وقهرا يوم الأحد الثامن والعشرين من جمادى الأولى سلمها إليه بعض الأمراء غدرا فلما ملك البلد صعد من فيه من الأمراء إلى القلعة التى لها وامتنعوا بها وهو منازلهم ووضع السيف فى أهل البلد وقتل من وجد به منهم وكانوا قد قلوا فإن بعضهم فارقوه خوفا وبعضهم خرج منه من شدة الجوع وبعضهم مات من القبلة وعدم القوت فإن الناس فى خلاط أكلوا الغنم ثم البقر ثم الجواميس ثم الخيل ثم الحمير ثم البغال والكلاب والسنانير وسمعنا أنهم كانوا يصطادون الفار ويأكلونه وصبروا صبرا لم

Marfat.com

يلحقهم فيه احد ولم يملك من بلاد خلاط وغيرها وما سواها من البلاد لم يكونوا ملكوه وخربوا خلاط وأكثروا القتل فيها ومن سلم هرب فى البلاد وسبوا الحريم واسترقوا الأولاد وباعوا الجميع فتمزقوا كل ممزق وتفرقوا فى البلاد ونهبوا الأموال وجرى على أهلها مالم يسمع بمثله لاجرم لم يمهله الله تعالى وجرى عليه من الهزيمة بين المسلمين والتتر ماذكره إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر عدة حوادث ﴾ فى أواخر هذه السنة قصد الفرنج حصن بارين بالشام ونهبوا بلاده وأعماله وأسروا وسبوا ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين فى ولاية بارين فأخذوا الجميع ولم يسلم منهم إلا النادر الشاذ والله أعلم .

﴿ ثم دخلت سنة سبع وعشرين وستمائة ﴾

﴿ ذكر انهزام جلال الدين من كيقباذ والأشرف ﴾ فى هذه السنة يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان انهزم جلال الدين خوارزمشاه من علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم قونية واقصرا وسيواس وملطية وغيرها ومن الملك الأشرف صاحب دمشق وديار الجزيرة وخلاط وسبب ذلك أن جلال الدين كان قد أطاعه صاحب أرزن الروم وهو ابن عم علاء الدين ملك الروم وبينه وبين علاء الدين عداوة مستحكمة وحضر صاحب أرزن الروم عند جلال الدين على خلاط وأعانه على حصرها فخافهما علاء الدين فأرسل إلى الملك الكامل وهو حينئذ بحران يطلب منه أن يحضر أخاه الأشرف من دمشق فإنه كان مقيما بها بعد أن ملكها وتابع علاء الدين الرسل بذلك خوفا من جلال الدين فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف من دمشق فحضر عنده ورسل علاء الدين إليهما متتابعة يحث الأشرف على المجىء إليه والاجتماع به حتى قيل إنه فى يوم واحد وصل إلى الكامل والأشرف من علاء الدين خمسة رسل ويطلب مع الجميع وصول الأشرف إليه ولو وحده فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار إلى علاء الدين فاجتمعا بسيواس وسارا نحو خلاط فسمع جلال الدين بهما فسار إليهما مجدا فى السير فوصل إليهما بمكان يعرف بباسى حمار (١) وهو من أعمال أرزنجان فالتقوا هناك وكان مع علاء الدين خلق كثير قيل كانوا عشرين ألف فارس وكان مع الأشرف نحو خمسة آلاف إلا أنهم من العساكر الجيدة الشجان لهم السلاح الكثير والدواب الفارهة من العربيات وكل منهم قد جرب الحرب وكان المقدم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له عز الدين عمر ابن على وهو من الأكراد الهكارية ومن الشجاعة فى الدرجة العليا وله الأوصاف الجميلة والأخلاق الكريمة فلما التقوا بهت جلال الدين لما رأى من كثرة العساكر لاسيما لما رأى عسكر الشام فإنه شاهد من تجملهم وصلاحهم ودوابهم ماملأ صدره رعبا فانشب عز الدين بن على القتال ومعه عسكر حلب فلم يقم لهم جلال الدين ولا صبر ومضى منهزما هو وعسكره لايلوى الأخ على أخيه وتفرقت أصحابه وتمزقوا كل ممزق وعاد إلى خلاط فاستصحبوا معهم من فيها من أصحابهم وعادوا إلى أذربيجان فنزلوا عند مدينة خوى ولم يكونوا قد استولوا على شىء من أعمال خلاط سوى خلاط. ووصل الملك الأشرف إلى خلاط فرآها خاوية على عروشها خالية من الأهل والسكان قد جرى عليهم ماذكرناه قبل .

﴿ ذكر ملك علاء الدين أرزن الروم ﴾ قد ذكرنا أن صاحب أرزن الروم كان مع جلال الدين على خلاط. ولم يزل معه وشهد معه المصاف المذكور فلما انهزم جلال الدين أخذ صاحب أرزن الروم أسيرا فأحضر عند

Marfat.com

Marfat.com

علاء الدين كيقباذ ابن عمه فأخذه وقصد أرزن الروم فسلمها صاحبها إليه هى ومايتبعها من القلاع والخزائن وغيرها فكان كما قيل (خرجت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين) وهكذا هذا المسكين جاء إلى جلال الدين يطلب الزيادة فوعده بشىء من بلاد علاء الدين فأخذ ماله ومابيديه من البلاد وبقى أسيرا . فسبحان من لا يزول ملكه

﴿ذكر الصلح بين الأشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين﴾ لما عاد الأشرف إلى خلاط ومضى جلال الدين منهزما إلى خوى ترددت الرسل بينهما فاصطلحوا كل منهم على مابيده واستقرت القواعد على ذلك وتحالفوا فلما استقر الصلح وجرت الأيمان عاد الأشرف إلى سنجار وسار منها إلى دمشق فأقام جلال الدين ببلاده من أذربيجان إلى أن خرج عليه التتر على ماذكره إن شاء الله تعالى .

﴿ذكر ملك شهاب الدين غازى مدينة أرزن﴾ كان حسام الدين صاحب مدينة أرزن من ديار بكر لم يزل مصاحبا الملك الأشرف مناصحا له مشاهدا جميع حروبه وخوادثه وينفق أمواله فى طاعته ويبذل نفسه وعساكره فى مساعدته فهو يعادى أعداءه ويوالى أولياءه ومن جملة موافقته أنه كان فى خلاط لما حصرها جلال الدين ولقى من الشدة والخوف مالقيه بها وصبر إلى أن ملكها جلال الدين فأسره جلال الدين وأراد أن يأخذ منه مدينة أرزن فقيل له إن هذا من بيت قديم عريق فى الملك وأنه ورث هذه أرزن من أسلافه وكان لهم سواها من البلاد فخرج الجميع من أيديهم فعطف عليه ورق له وأبقى عليه مدينته وأخذ عليه العهود والمواثيق أنه لايقاتله فعاد إلى بلده وأقام به فلما جاء الملك الأشرف وعلاء الدين محاربين لجلال الدين سار شهاب الدين غازى ابن الملك العادل وهو أخو الأشرف وله مدينة ميافارقين ومدينة حانى وهو بمدينة أرزن فحصره بها ثم ملكها صلحا وعوضه عنها بمدينة حانى من ديار بكر وحسام الدين هذا نعم الرجل حسن السيرة كريم جواد لايخلو بابه من جماعة يريدون إليه يستمنحونه وسيرته جميلة فى ولاينه ورعيته وهو من بيت قديم يقال له بيت طغان أرسلان كان لهم مع أرزن بدليس ووسطان وغيرهما ويقال لهم بيت الأحدب وهذه البلاد معهم من أيام ملكشاه ابن ألب أرسلان السلجوقى فأخذ بكتمر صاحب خلاط منهم بدليس أخذها من عم حسام الدين هذا لأنه كان موافقا لصلاح الدين يوسف بن أيوب فقصده بكتمر لذلك وبقيت أرزن بيد هذا إلى الآن فأخذت منه ولكل أول آخر . فسبحان من لا أول له ولا آخر لبقائه .

﴿ذكر ملك صونج قشيالوا قلعة روينذر﴾ وفى هذه السنة ظهر أمير من أمراء التركمان اسمه صونج ولقبه شمس الدين واسم قبيلته قشيالوا وقوى أمره وقطع الطريق وكثر جمعه وكان بين إربل وهمذان وهو ومن معه يقطعون الطريق ويفسدون فى الارض ثم إنه تعدى إلى قلعة منيعة اسمها سارو وهى لمظفر الدين وقتل عندها أميرا كبيرا من أمراء مظفر الدين يعرف بعز الدين الحميدى فجمع مظفر الدين وأراد استعادتها منه فلم يمكنه لحصانتها ولكثرة الجموع مع هذا الرجل فاصطلحا على ترك القلعة بيده وكان عسكر لجلال الدين خوارزمشاه يحصرون قلعة روينذز وهى من قلاع أذربيجان من أحصن القلاع وأمنعها لايوجد مثلها وقد طال الحصار على من بها فأذعنوا بالتسليم فأرسل جلال الدين بعض خواص أصحابه وثقاته ليتسلمها وأرسل معه الخلع والمال لمن بها فلما صعد ذلك القاصد إلى القلعة وتسلمها أعطى بعض من بالقلعة ولم يعط البعض واستظلم وطمع فيهم حيث استولى على الحصن فلما رأى من لم يأخذ شيئا من الخلع والمال مافعل بهم أرسلوا إلى صونج يطلبونه ليسلموا إليه القلعة فسار إليهم فى أصحابه فسلموها إليه ؛ فسبحان من إذا أراد أمرا سهله ؛ هذه قلعة

روبندز لم تزل تتقاصر عنها قدرة أكابر الملوك وعظمائهم من قديم الزمان وحديثه وتضرب الامثال بحصاناتها لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يملكها هذا الرجل الضعيف سهل له الأمور فملكها بغير قتال ولا تعب وأزال عنها أصحاب مثل جلال الدين الذى كل ملوك الأرض تهابه وتخافه وكان أصحاب جلال الدين كما قيل رب ساع لقاعد ، فلما ملكها صونج طمع فى غيرها ، لاسيما مع اشتغال جلال الدين بما أصابه من الهزيمة ومجىء التتر فنزل من القلعة إلى مراغة وهى قريب منها فحصرها فأتاه سهم غرب فقتله فلما قتل ملك روبندز أخوه ثم إن هذا الأخ الثانى نزل من القلعة وقصد أعمال تبريز ونهبها وعاد إلى القلعة ليجعل فيها من ذلك النهب والغنيمة ذخيرة خوفا من التتر وكانوا قد خرجوا فصادفه طائفة من التتر فقتلوه وأخذوا ما معه من النهب ولما قتل ملك القلعة ابن أخت له وكان هذا جميعه فى مدة سنتين ، فأف لدنيا لا تزال تتبع فرحة بترحة وكل حسنة بسيئة .

﴿ ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وستمائة ﴾

﴿ ذكر خروج التتر إلى أذربيجان وما كان منهم ﴾ فى أول هذه السنة وصل التتر من بلاد ما وراء النهر إلى أذربيجان وقد ذكرنا قبل كيف ملكوا ماوراء النهر وماصنعوه بخراسان وغيرها من البلاد من النهب والتخريب والقتل واستقر ملكهم بما وراء النهر وعادت بلاد ماوراء النهر انعمرت وعمروا مدينه تقارب مدينة خوارزم عظيمة وبقيت مدن خراسان خرابا لايجسر أحد من المسلمين يسكنها ، وأما التتر فكانوا تغير كل قليل طائفة منهم ينهبون ما يرونه بها ، فالبلاد خاوية على عروشها ، فلم يزالوا كذلك ، إلى أن ظهر منهم طائفة سنة خمس وعشرين ، فكان بينهم وبين جلال الدين ماذكرناه . وبقوا كذلك ، فلما كان الآن وانهزم جلال الدين من علاء الدين كيقباذ ، ومن الأشرف كما ذكرناه سنة سبع وعشرين أرسل مقدم الإسماعيلية الملاحدة إلى التتر يعرفهم ضعف جلال الدين بالهزيمة الكائنة عليه ، ويحثهم على قصده ، عقيب الضعف ويضمن لهم الظفر به للوهن ، الذى صاروا إليه ، وكان جلال الدين سىء السيرة ، قبيح التدبير ، لملكه لم يترك أحدا من الملوك المجاورين له إلا عاداه ، ونازعه الملك وأساء مجاورته ، فمن ذلك أنه أول ماظهر فى أصفهان ، وجمع العساكر قصد خوزستان ، فحصر مدينة ششتر وهى للخليفة ، فحصرها ، وسار إلى دقوقا فنهبها ، وقتل فيها فأكثر وهى خليفة أيضا ، ثم ملك أذربيجان ، وهى لأوزبك ، فملكها ، وقصد الكرج وهزمهم ، وعاداهم ، ثم عادى الملك الأشرف ، صاحب خلاط ، ثم عادى علاء الدين صاحب بلاد الروم ، وعادى الإسماعيلية ، ونهب بلادهم وقتل فيهم ، فأكثر وقرر عليهم وظيفة من المال كل سنة ، وكذلك غيرهم ، فكل من الملوك تخلى عنه ، ولم يأخذ بيده فلما وصلت كتب مقدم الإسماعيلية إلى التتر يستدعيهم إلى قصد جلال الدين بادر طائفة منهم فدخلوا بلاده ، واستولوا على الرى وهمذان وما بينهما من البلاد ، ثم قصدوا أذربيجان ؛ فخربوا ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها وجلال الدين لا يقدم على أن يلقاهم ولا يقدر على منعهم عن البلاد قد ملىء رعبا وخوفا وانضاف إلى ذلك أن عسكره اختلفوا عليه وخرج وزيره عن طاعته فى طائفة كثيرة من العسكر وكان السبب أن غريبا أظهر من قلة عقل جلال الدين مالم يسمع بمثله وذلك أنه كان له خادم خصى وكان جلال الدين يهواه واسمه قلج فاتفق أن الخادم مات فأظهر من الهلع والجزع عليه مالم يسمع بمثله ولا لمجنون ليلى وأمر الجند والأمراء أن يمشوا فى جنازته رجالة وكان موته بموضع بينه وبين تبريز عدة فراسخ فمشى الناس رجالة ومشى

Marfat.com

بعض الطريق راجلا فألزمه أمراؤه ووزيره بالركوب فلما وصل إلى تبريز أرسل إلى أهل البلد فأمرهم بالخروج عن البلد لتلقى تابوت الخادم ففعلوا فأنكر عليهم حيث لم يبعدوا ولم يظهروا من الحزن والبكاء أكثر مما فعلوا وأراد معاقبتهم على ذلك فشفع فيهم أمراؤه فتركهم ثم لم يدفن ذلك الخصى وإنما كان يستصحبه معه أين ساروا وهو يلطم ويبكى فامتنع من الأكل والشراب وكان إذا قدم له طعام يقول احملوا من هذا إلى قلج ولا يتجاسر أحد يقول إنه مات فإنه قيل له مرة إنه مات فقتل القائل له ذلك إنما كانوا يحملون إليه الطعام ويعودون يقولون إنه يقبل الأرض ويقول إننى الآن أصلح مما كنت فلحق أمراءه من الغيظ والأنفة من هذه الحالة ماحملهم على مفارقة طاعته والانحياز عنه مع وزيره فبقى حيران لايدرى مايصنع لاسيما لما خرج التتر فحينئذ دفن الغلام الخصى وراسل الوزير واستماله وخدعه إلى أن حضر عنده فلما وصل إليه بقى أياما وقتله جلال الدين وهذه نادرة غريبة لم يسمع بمثلها .

﴿ ذكر ملك التتر مراغة ﴾ وفى هذه السنة حصر التتر مراغة من أذربيجان فامتنع أهلها ثم أذعن أهلها بالتسليم على أمان طلبوه فبذلوا لهم الأمان وتسلموا البلد وقتلوا فيه إلا أنهم لم يكثروا القتل وجعلوا فى البلد شحنة وعظم حينئذ شأن التتر واشتد خوف الناس منهم بأذربيجان فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصرا من عنده فما نرى فى ملوك الإسلام من له رغبة فى الجهاد ولا فى نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو وقال الله تعالى (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة).

﴿ ذكر وصول جلال الدين إلى آمد وانهزامه عندها وما كان منه ﴾ لما رأى جلال الدين مايفعله التتر فى بلاد أذربيجان وأنهم مقيمون بها يقتلون وينهبون ويخربون السواد ويجبون الأموال وهم عازمون على قصده ورأى ماهو عليه من الوهن والضعف فارق أذربيجان إلى بلاد خلاط وأرسل إلى النائب بها عن الملك الأشرف يقول له ماجئنا للحرب ولا للأذى إنما خوف هذا العدو حملنا على قصد بلادكم وكان عازما على أن يقصد ديار بكر والجزيرة ويقصد باب الخليفة يستنجده وجميع الملوك على التتر ويطلب منهم المساعدة على دفعهم ويحذرهم عاقبة إهمالهم فوصل إلى خلاط فبلغه أن التتر يطلبونه وهم مجدون فى أثره فسار إلى آمد وجعل البزك فى عدة مواضع خوفا من البيات فجاءت طائفة من التتر يقصدون أثره فوصلوا إليه على غير الطريق الذى فيه البزك فأوقعوا به ليلا وهو بظاهر مدينة آمد فمضى منهزما على وجهه وتفرق من معه من العسكر فى كل وجه فقصد طائفة من عسكره حران فأوقع بهم الأمير صواب مقدم الملك الكامل بحران ومعه العسكر فأخذوا مامعهم من مال وسلاح ودواب وقصد طائفة منهم نصيبين والموصل وسنجار وإربل وغير ذلك من البلاد فتخطفهم الملوك والرعايا وطمع فيهم كل أحد حتى الفلاح والكردى والبدوى وغيرهم وانتقم منهم وجازاهم على سوء صنيعهم وقبيح فعلهم فى خلاط وغيرها وبما سعوا فى الأرض فسادا والله لايحب المفسدين فازداد جلال الدين ضعفا إلى ضعفه ووهنا إلى وهنه بمن تفرق من عسكره وبما جرى عليهم فلما فعل التتر بهم ذلك ومضى منهزما منهم دخلوا ديار بكر فى طلبه لأنهم لم يعلموا أين قصد ولا أى طريق سلك فسبحان من بدل أمنهم خوفا وعزهم ذلا وكثرتهم قلة فتبارك الله رب العالمين الفعال لما يشاء .

﴿ ذكر دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه فى البلاد من الفساد ﴾ لما انهزم جلال الدين من التتر على آمد نهب التتر سواد آمد وأرزن وميافارقين وقصدوا مدينة أسعرد فقاتلهم أهلها فذل لهم التتر الأمان

فوثقوا منهم واستسلموا فلما تمكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم فلم يسلم منهم إلا من اختفى وقليل ماهم (حكى) لى بعض التجار وكان قدوصل آمد أنهم حزروا القتلى مايزيد على خمسة عشر ألف قتيل ، وكان مع هـذا التاجر جارية من أسعرد ، فذكرت أن سيدها خرج ليقاتل وكان له أم فمنعته ولم يكن لهـا ولد سواه فلم يصغ إلى قولهـا فمشت معه فقتلا جميعا وورثها ابن الأخ للأم فباعها من هـذا التاجر وذكرت من كثرة القتلى أمرا عظيما ، وأن مدة الحصار كانت خمسة أيام ثم ساروا منها إلى مدينة طنزة ففعلوا فيها كذلك وساروا من طنزة إلى واد بالقرب من طنزة يقال له وادى القريشية فيه طائفة من الأكراد يقال لهم القريشية وفيه مياه جارية وبساتين كثيرة والطريق إليه ضيق فقاتلهم القريشية فمنعوهم عنه وامتنعوا عليهم وقتل منهم كثير فعاد التتر ولم يبلغوا منهم غرضا ، وساروا فى البلاد لامانع يمنعهم ، ولا أحديقف بين أيديهم فوصلوا إلى ماردين ، فنهبوا ماوجدوا من بلدها واحتمى صاحب ماردين وأهل دنيسر بقلعة ماردين وغيرهم ممن جاور القلعة ، احتمى بها أيضا ، ثم وصلوا إلى نصيبين الجزيرة فأقاموا عليها بعض نهار ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به ، وغلقت أبوابهـا ، فعادوا عنهـا ، ومضوا إلى بلد سنجار ، ووصلوا إلى الجبال ، من أعمال سنجار فنهبوها ، ودخلوا إلى الخابور ، فوصلوا إلى عرابان ، فنهبوا ، وقتلوا ، وعادوا ، ومضى طائفة منهم على طريق الموصل فوصلوا إلى قرية تسمى المؤنسة وهى على مرحلة من نصيبين بينها وبين الموصل فنهبوها واحتمى أهلها وغيرهم بخان فيهـا فقتلوا كل من فيـه . (وحكى) لى عن رجل منهم أنه قال اختفيت منهم ببيت فيـه تبن فلم يظفروا بى ، وكنت أراهم من نافذة فى البيت ، فكانوا إذا أرادوا قتل إنسان فيقول لا بالله فيقتلونه فلما فرغوا من القرية ، ونهبوا مافيها ، وسبوا الحريم ، رأيتهم وهم يلعبون على الخيل ، ويضحكون ويغنون بلغتهم بقول (لا بالله) ومضى طائفة منهم إلى نصيبين الروم وهى على الفرات وهى من أعمال آمد فنهبوها وقتلوا فيها ثم عادوا إلى آمد ثم إلى بلد بدليس فتحصن أهلها بالقلعة وبالجبال فقتلوا فيها يسيرا وأحرقوا المدينة (وحكى) إنسان من أهلها قال لوكان عندنا خمسمائة فارس لم يسلم من التتر أحد لأن الطريق ضيق بين الجبال والقليل يقدر على منع الكثير ثم ساروا من بدليس إلى خلاط فحصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لهـا باكرى وهى من أحصن البلاد فملكوها عنوة وقتلوا كل من بها وقصدوا مدينة أرجيش من أعمـال خلاط وهى مدينة كبيرة عظيمة ففعلوا كذلك وكان هذا فى ذى الحجة ولقد حكى لى عنهم حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذى ألقاه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الناس منهم حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد لايتجاسر أحد يمد يده إلى ذلك الفارس ولقد بلغنى أن إنسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التترى مايقتله به فقال له ضع رأسك على الأرض ولا تبرح فوضع رأسه على الأرض ومضى التترى أحضر سيفا فقتله به (وحكى) لى رجـل قال كنت أنا ومعى سبعة عشر رجـلا فى طريق فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضا فشرع أصحابى يفعلون ما أمرهم فقلت لهم هـذا واحدا فلم لا نقتله ونهرب فقالوا نخاف فقلت هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعل الله يخلصنا فوالله ما جسر أحد يفعل ذلك فأخذت سكينا وقتلته وهربنا فنجونا وأمثال هذا كثير .

﴿ذكر وصول طائفة من التتر إلى إربل ودقوقا﴾ فى هذه السنة فى ذى الحجة وصل طائفة من التتر من أذربيجان إلى أعمال إربل فقتلوا من على طريقهم من التركمان الإيوائية والأكراد الجوزقان وغيرهم إلى أن دخلوا بلد

Marfat.com

Marfat.com

إربل فنهبوا القرى وقتلوا من ظفروا به أهل تلك الأعمال وعملوا الأعمال الشنيعة التى لم يسمع بمثلها من غيرهم وبرز مظفر الدين صاحب إربل فى عساكره واستمد عساكر الموصل فساروا اليه فلما بلغه عود التتر إلى أذربيجان أقام فى بلاده ولم يتبعهم فوصلوا إلى بلد الكرخينى وبلد دقوقا وغير ذلك وعادوا سالمين لم يذعرهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه مايقاربها فالله سبحانه وتعالى يلطف بالمسلمين ويرحمهم ويرد هذا العدو عنهم وخرجت هذه السنة ولم نتحقق لجلال الدين خبرا ولا نعلم هل قتل أواختفى لم يظهر نفسه خوفا من التتر أو فارق البلاد إلى غيرها والله أعلم .

﴿ذكر طاعة أهل أذربيجان للتتر﴾ فى أول هذه السنة أطاع أهل بلاد أذربيجان جميعها للتتر وحملوا اليهم الاموال والثياب الخطائى والخوبى والعتابى وغير ذلك وسبب طاعتهم أن جلال الدين لما انهزم على آمد من التتر وتفرقت عساكره ونمزقوا كل ممزق ونخطفهم الناس وفعل التتر بديار بكر والجزيرة وإربل وخلاط ما فعلوا ولم يمنعهم أحد ولا وقف فى وجوههم فارس وملوك الإسلام منحجرون فى الأثقاب وانضاف إلى هذا انقطاع أخبار جلال الدين فإنه لم يظهر له خبر ولا عملوا له حالا سقط فى أيديهم وأذعنوا للتتر بالطاعة وحملوا اليهم ما طلبوا منهم من الأموال والثياب من ذلك مدينة تبريز التى هى أصل بلاد أذربيجان ومرجع الجميع اليها وإلى من بها فإن ملك التتر نزل فى عساكره بالقرب منها وأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته ويتهددهم إن امتنعوا عليه فأرسلوا اليه المال الكثير والتحف من أنواع الثياب الإبريسم وغيرها وكل شىء حتى الخمر وبذلوا له الطاعة فأعاد الجواب يشكرهم ويطلب منهم أن يحضر مقدموهم عنده فقصده قاضى البلد ورئيسه وجماعة من أعيان أهله وتخلف عنهم شمس الدين الطغرائى وهو الذى يرجع الجميع اليه إلا أنه لا يظهر شيئا من ذلك فلما حضروا عنده سألهم عن امتناع الطغرائى فقالوا إنه رجل منقطع ما له بالملوك تعلق ونحن الأصل فسكت ثم طلب أن يحضروا عنده من صناع الثياب الخطائى وغيرها ليستعمل لملكهم الأعظم فإن هذا هو من أتباع ذلك الملك فأحضروا الصناع فاستعملهم فى الذى أرادوا ووزن أهل تبريز الثمن وطلب منهم خركاة لملكهم أيضا فعملوا له خركاة لم يعمل مثلها وعملوا غشاءها من الأطلس الجيد المركش وعملوا من داخلها السمور والقندر فجاءت عليهم بجملة كثيرة وقرر عليهم من المال كل سنة شيئا كثيرا ومن الثياب كذلك وترددت رسلهم إلى ديوان الخلافة وإلى جماعة من الملوك يطلبون منهم أنهم لاينصرون خوارزمشاه ولقد وقفت على كتاب وصل من تاجر من أهل الرى كان قد انتقل إلى الموصل واقام بها هو ورفقاء له ثم سافر إلى الرى فى العام الماضى قبل خروج التتر فلما وصل التتر إلى الرى وأطاعهم أهلها وساروا إلى أذربيجان سار هو معهم إلى تبريز فكتب إلى أصحابه بالموصل يقول إن الكافر لعنه الله مانقدر نصفه ولا كثرة جموعه حتى لاتنقطع قلوب المسلمين بإن الأمر عظيم ولا تظنوا أن هذه الطائفة التى وصلت إلى نصيبين والخابور والطائفة الأخرى التى وصلت إلى إربل ودقوقا كان قصدهم النهب إنما أرادوا أن يعلموا هل فى البلاد من يردهم أم لا فلما عادوا أخبروا ملكهم بخلو البلاد من مانع ومدافع وإن البلاد خالية من ملك وعساكر فقوى طمعهم وهم فى الربيع يقصدونكم وما يبقى عندكم مقام إلا إن كان فى بلد الغرب فإن عزمهم على قصد البلاد جميعها فانظروا لانفسكم هذا مضمون الكتاب فانا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وأما جلال الدين فإلى آخر سنة ثمان وعشرين لم يظهر له خبر وكذلك إلى سلخ صفر سنة تسع لم نقف له

على حال ، والله المستعان .

﴿ذكر عدة حوادث﴾ فى هذه السنة قلت الأمطار بديار الجزيرة والشام لاسيما حلب وأعمالها فإنها كانت قليلة بالمرة وغلت الأسعار بالبلاد . وكان أشدها غلاء حلب إلا أنه لم يكن بالشديد مثل ماتقدم فى السنين الماضية ، فأخرج أتابك شهاب الدين ، وهو والى الأمر بحلب والمرجع إلى أمره ونهيه ، وهو المدبر لدولة سلطانها الملك العزيز ابن الملك الظاهر والمربى له من المال والغلات كثيرا وتصدق صدقات دارة وساس البلاد سياسة حسنة بحيث لم يظهر للغلاء أثر فجزاه الله خيرا ؛ وفيها بنى أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة قلعة عند سلمية وسماها سميس ، وكان الملك الكامل لما خرج من مصر إلى الشام قد خدمه أسد الدين ونصح له وله أثر عظيم فى طاعته والمقاتلة بين يديه فأقطعه مدينة سلمية ، فبنى هذه القلعة بالقرب من سلمية وهى على تل عال . وفيها قصد الفرنج الذين بالشام مدينة جبلة وهى بين جملة المدن المضافة إلى حلب ودخلوا إليها وأخذوا منها غنيمة وأسرى فسير أتابك شهاب الدين إليهم العساكر مع أمير كان أقطعها فقاتل الفرنج وقتل منهم كثيرا واسترد الأسرى والغنيمة ؛ وفيها توفى القاضى ابن غنائم بن العديم الحلبى الشيخ الصالح ؛ وكان من المجتهدين فى العبادة والرياضة والعاملين بعلمهم ؛ فلو قال قائل إنه لم يكن فى زمانه أعبد منه لكان صادقا فرضى الله عنه وأرضاه ، فإنه من جملة شيوخنا ؛ سمعنا عليه الحديث ، وانتفعنا برؤيته وكلامه ، وفيها أيضا فى الثانى عشر من ربيع الأول ، توفى صديقنا أبو القاسم عبدالمجيد بن العجمى الحلبى ، وهو وأهل بيته مقدمو السنة بحلب وكان رجلا ذا مروأة غزيرة ؛ وخلق حسن ، وحلم وافر ، ورياسة كثيرة ، يحب إطعام الطعام ، وأحب الناس إليه من يأكل طعامه ، ويقبل بره ، وكان يلقى أضيافه بوجه منبسط ، ولا يقعد عن إيصال راحة ، وقضاء حاجة ؛ فرحمه الله رحمة واسعة .

﴿ثم دخلت سنة تسع وعشرين وستمائة﴾

﴿تم بعون الله تعالى الجزء التاسع من كتاب الكامل فى التاريخ ، وبه تم الكتاب﴾

﴿والحمد لله أولا وآخرا﴾

Marfat.com

فهرست الجزء التاسع

من كتاب الكامل فى التاريخ

صفحة

٢ سنة ست وثلاثين وخمسمائة . انهزام السلطان سنجر من الأتراك الخطا وملكهم ماوراء النهر

٤ مافعله خوارزم شاه بخراسان . عدة حوادث . سنة سبع وثلاثين وخمسمائة . ملك عماد الدين أتابك زنكى قلعة أشب وغيرها من المكارية

٦ حصر فرنج طرابلس الغرب . عدة حوادث . سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة . صلح الشهيد السلطان مسعود وأتابك زنكى

٧ ملك أتابك بعض ديار بكر . أمر العيارين ببغداد . حصر سنجر خوارزم وصلحه مع خوارزم شاه . عدة حوادث

٨ سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . فتح الرها وغيرها من البلاد الجزرية

٩ قتل نصير الدين جقر وولاية زين الدين على جوكج قلعة الموصل

١٠ عدة حوادث . سنة أربعين وخمسمائة . اتفاق بوزابه وعباس على منازعة السلطان

١١ استيلاء على بن دبيس بن صدقة على الحلة . عدة حوادث

صفحة

١٢ سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ملك الفرنج طرابلس الغرب . حصر زنكى حصن جعبر وفتكه

١٣ قتل أتابك عماد الدين زنكى وشىء من سيرته ملك ولديه سيف الدين غازى ونور الدين محمود

١٤ عصيان الرها لما قتل أتابك . استيلاء عبد المؤمن على جزيرة الأندلس

١٥ قتل عبد الرحمن طغايرك وعباس صاحب الرى . عدة حوادث

١٦ سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة . قتل بوزابه . طاعة أهل قابس للفرنج وغلبة المسلمين عليها

١٧ حادثة ينبغى للعاقل أن يحتاط من مثلها . ملك الفرنج المرية وغيرها من الأندلس . ملك نور الدين محمود بن زنكى عدة مواضع من بلد الفرنج أخذ الحلة من على بن دبيس وعوده إليها . عدة حوادث

١٨ سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . ملك الفرنج مدينة المهدية بأفريقية

٢١ ملك نور الدين محمود بن زنكى حصن العزيمة الخلف بين السلطان مسعود وجماعة من الأمراء

٢٢ انهزام الفرنج ببغرى . ملك الغورية غزنة وعودهم عنها

٢٣ ملك الفرنج مدنا من الأندلس . عدة حوادث . سنة أربع وأربعين وخمسمائة . وفاة سيف الدين غازى بن أتابك زنكى

٢٤ استيلاء نور الدين على سنجار . وفاة الحافظ وولاية الظافر ووزارة ابن السلار

٢٥ عودة جماعة من الأمراء إلى العراق . قتل البرنس صاحب أنطاكية وهزيمة الفرنج

٢٦ الخلف بين صاحب صقلية وملك الروم . عدة حوادث

٢٧ سنة خمس وأربعين وخمسمائة . أخذ العرب الحجاج . فتح حصن فامية

٢٨ حصر الفرنج قرطبة ورحيلهم عنها . ملك الغورية هراة . عدة حوادث

٢٩ سنة ست وأربعين وخمسمائة . انهزام نور الدين من جوسلين وأسر جوسلين بعد ذلك

Marfat.com

صفحة

٣٠ حصر غرناطة والمرية من بلاد الأندلس عدة حوادث . سنة سبع وأربعين وخمسمائة . ملك عبد المؤمن بجاية وملك بنى حماد

٣١ ظفر عبد المؤمن بصنهاجة . وفاة السلطان مسعود وملك ملكشاه محمد بن محمود

٣٢ الحرب بين نور الدين محمود وبين الفرنج

٣٣ الحرب بين سنجر والغورية

٣٤ ملك غياث الدين وشهاب الدين الغوريين . ملك غياث الدين غزنة وما جاورها من البلاد . ملك شهاب الدين لهاوور .

٣٥ انقراض دولة سبكتكين . الخطبة لغياث الدين بالسلطنة . ملك غياث الدين هراة وغيرها من خراسان

٣٦ ذكر ملك شهاب الدين مدينة آجرة من بلاد الهند . ظفر الهند على المسلمين . ظفر المسلمين بالهند

٣٧ عدة حوادث . سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . ذكر انهزام سنجر من الغز ونهبهم خراسان وما كان منهم

٤٠ ملك المؤيد نيسابور وغيرها

٤١ ملك ايتاخ الرى . قتل ابن السلار وزير الظافر ووزارة عباس .

صفحة

الحرب بين العرب وعساكر عبد المؤمن

٤٢ ملك الفرنج مدينة بونة وموت رجار وملك ابنه غليالم . وفاة بهرام شاه صاحب غزنة . ملك الفرنج مدينة عسقلان . حصر عسكر الخليفة تكريت وعودهم عنها

٤٣ عدة حوادث سنة تسع وأربعين وخمسمائة قتل الظافر وولاية ابنه الفائز

٤٤ وزارة الملك الصالح بن رزيك . حصر تكريت ووقعة بكمزا

٤٥ ملك نور الدين محمود مدينة دمشق

٤٦ قصد الاسماعيلية خراسان والظفر بهم ملك نور الدين تل باشر . عدة حوادث

٤٧ سنة خمسين وخمسمائة سنة احدى وخمسين وخمسمائة . عصيان الجزائر وأفريقية على ملك الفرنج بصقلية وما كان منهم

٤٨ القبض على سليمان شاه وحبسه بالموصل

٤٩ حصر نور الدين قلعة حارم

٥٠ وفاة خوارزم شاه اتسز وغيره من الملوك هرب السلطان سنجر من الغز . البيعة لمحمد بن عبد المؤمن بولاية عهد أبيه استعمال عبد المؤمن أولاده على البلاد

٥١ حصر السلطان محمد بغداد

٥٢ عدة حوادث

٥٣ سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة . الزلازل بالشام . ملك نور الدين حصن شيزر

٥٥ وفاة الدبيسى صاحب جزيرة ابن عمر واستيلاء قطب الدين مودود على الجزيرة وفاة السلطان سنجر . ملك المسلمين مدينة للرية وانقراض دولة الملثمين بالأندلس

٥٦ غزو صاحب طبرستان الاسماعيلية . أخذ حجاج خراسان . الحرب بين المؤيد والأميراتق . الحرب بين المؤيد وسنقر العزيزى

٥٧ ملك نور الدين بعلبك . عدة حوادث . سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة . الحرب بين سنقر وأرغش

٥٨ الحرب بين شملة وقايماز السلطانى . معاودة الغز الفتنة بخراسان

٥٩ أسر المؤيد وخلاصه . اجماع السلطان محمود مع الغز وعودهم إلى نيسابور

٦٠ حصر صاحب حتلان ترمذ وعوده وموته . عود المؤيد إلى نيسابور وتخريب ما بقى منها .

Marfat.com

صفحة

ملك ملكشاه خوزستان

٦١ الحرب بين التركمانى والاسماعيلية بخراسان . عدة حوادث

٦٣ سنة أربع وخمسين وخمسمائة . ملك عبد المؤمن مدينة المهدية من الفرنج وملكه جميع أفريقية

٦٥ ايقاع عبد المؤمن بالعرب . غرق بغداد

٦٦ عود سنقر الهمذانى إلى اللحف وانهزامه . الفتنة بين عامة استراباذ وفاة الملك محمد بن محمود بن محمد ابن ملكشاه

٦٧ أخذ حران من نور الدين وعودها إليه عدة حوادث

٦٨ سنة خمس وخمسين وخمسمائة . مسير سليمان شاه إلى همذان . وفاة الفائز وولاية العاضد العلويين . وفاة الخليفة المقتفى لأمر الله وشىء من سيرته : خلافة المستنجد بالله

٦٩ الحرب بين عسكر خوارزم شاه والأتراك البرزية أحوال المؤيد بخراسان هذه السنة

٧٠ الحرب بين شاه ما زندران ويغمرخان . وفاة خسروشاه صاحب غزنة وملك ابنه بعده . الحرب بين ايناق وبغراتكين

٧١ وفاة ملكشاه بن محمود . عدة حوادث

صفحة

٧٢ سنة ست وخمسين وخمسمائة : الفتنة ببغداد . قتل ترشك . قتل سليمان شاه والخطبة لأرسلان

٧٣ الحرب بين ابن آق سنقر وعسكر ايلدكز . الحرب بين ايلدكز وايتانج

٧٤ وفاة ملك الغور وملك ابنه محمد . الفتنة بنيسابور وتخريبها . خلع السلطان محمود ونهب طوس وغيرها من خراسان

٧٥ عمارة شاذياخ بنيسابور . قتل الصالح بن رزيك ووزارة ابنه رزيك

٧٦ الحرب بين العرب وعسكر بغداد . حصر المؤيد شارستان

٧٧ ملك الكرج مدينة آنى . ولاية عيسى مكة حرسها الله تعالى . عدة حوادث

٧٨ سنة سبع وخمسين وخمسمائة . فتح المؤيد طوس وغيرها . أخذ ابن مردنيش غرناطة من عبد المؤمن وعودها إليه

٧٩ حصر نور الدين حارم . ملك الخليفة قلعة الماهكى . الحرب بين المسلمين والكرج

٨٠ عدة حوادث

٨١ سنة ثمان وخمسين وخمسمائة . وزارة شاور للعاضد بمصر ثم وزارة الضرغام بعده . وفاة عبد المؤمن وولاية ابنه يوسف

٨٢ ملك المؤيد أعمال قومس والخطبة للسلطان ارسلان بخراسان : قتل الغز ملك الغور

انهزام نور الدين محمود من الفرنج

٨٣ إجلاء بنى أسد من العراق

٨٤ عدة حوادث . سنة تسع وخمسين وخمسمائة . مسير شيركوه وعساكر نور الدين إلى ديار مصر وعودهم عنها

٨٦ هزيمة الفرنج وفتح حارم

٨٧ ملك نور الدين قلعة بانياس من الفرنج أيضا . أخذ الأتراك غزنة من ملكشاه وعوده إليها . وفاة جمال الدين الوزير وشىء من سيرته

٨٩ إجلاء القارغلية من وراء النهر . استيلاء سنقر على الطالقان وغرشتان

٩٠ قتل صاحب هراة . ملك شاه مازندران قومس وبسطام . عصيان غمارة بالمغرب . عدة حوادث . سنة ستين وخمسمائة . وفاة شاه مازندران وملك ابنه بعده

٩١ حصر عسكر المؤيد نسا ورحيلهم عنها . استيلاء المؤيد على هزا

Marfat.com

صفحة

الحرب بين قلج أرسلان وبين ابن الدانشمند الفتنة بين نور الدين وقلج أرسلان

٩٢ عدة حوادث

٩٤ سنة إحدى وستين وخمسمائة . فتح المنيطرة من الفرنج . قتل خطلوبرس مقطع واسط . عدة حوادث . سنة اثنتين وستين وخمسمائة . عود أسد الدين شيركوه

٩٥ ملك أسد الدين الاسكندرية وعوده إلى الشام

٩٦ ملك نور الدين صافيثا وعريمة . قصد ابن شنكا البصرة قصد شملة العراق

٩٧ عدة حوادث . سنة ثلاث وستين وخمسمائة . فراق زين الدين الموصل وتحكم قطب الدين فى البلاد الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة

٩٨ عدة حوادث سنة أربع وستين وخمسمائة . ملك نور الدين قلعة جعبر

٩٩ ملك أسد الدين مصر وقتل شاور

١٠١ وفاة أسد الدين شيركوه

١٠٢ ملك صلاح الدين مصر

١٠٣ وقعة السودان بمصر

١٠٤ ملك شملة فارس وإخراجه عنها .

صفحة

ملك إيلدكز الرى . عدة حوادث

١٠٥ سنة خمس وستين وخمسمائة . حصر الفرنج دمياط

١٠٦ حصر نور الدين الكرك . غزوة لسرية نورية . الزلزلة وما فعلته بالشام . وفاة قطب الدين مودود بن زنكى وملك ابنه سيف الدين غازى

١٠٧ حالة ينبغى الملوك أن يحترزوا من مثلها

١٠٨ الحرب بين عساكر ابن عبد المؤمن وابن مردنيش . وفاة صاحب كرمان والخلف بين أولاده . عدة حوادث . سنة ست وستين وخمسمائة وفاة المستنجد بالله

١٠٩ ملك نور الدين الموصل وإقرار سيف الدين عليها

١١٠ غزوة صلاح الدين بلاد الفرنج وفتح أيلة . ما اعتمده صلاح الدين بمصر هذه السنة . عدة حوادث

١١١ سنة سبع وستين وخمسمائة . إقامة الخطبة العباسية بمصر وانقراض الدولة العلوية

١١٢ الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين باطنا

صفحة

١١٣ غزوة إلى الفرنج بالشام

١١٤ وفاة ابن مردنيش وملك يوسف بن عبد المؤمن بلاده . عبور الخطا جيحون والحرب بينهم وبين خوارزم شاه . عدة حوادث . سنة ثمان وستين وخمسمائة . وفاة خوارزم شاه ايل أرسلان . وملك ولده سلطان شاه وبعده والده الآخر تكش وقتل المؤيد وملك ابنه

١١٨ غارة الفرنج على بلد حوران وغارة المسلمين على بلد الفرنج . مسير شمس الدولة إلى بلد النوبة

١١٩ ظفر مليح بن ليون بالروم . وفاة إيلدكز . وصول الترك إلى أفريقية وملكهم طرابلس وغيرها . غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس

١٢٠ نهب نهاوند . قصد نور الدين بلاد قلج أرسلان . رحيل صلاح الدين من مصر إلى الكرك وعوده عنها

١٢١ عدة حوادث

١٢٢ سنة تسع وستين وخمسمائة . ملك شمس الدولة زبيد وغيرها من بلاد اليمن

١٢٣ قتل جماعة من المصريين أرادوا الوثوب بصلاح الدين

Marfat.com

صفحة

١٢٤ وفاة نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله

١٢٦ ملك ولده الملك الصالح

١٢٧ ملك سيف الدين البلاد الجزرية حصر الفرنج بانياس وعودهم عنها

١٢٨ عدة حوادث .

١٢٩ سنة سبعين وخمسمائة وصول أسطول صقلية إلى مدينة الاسكندرية وانهزامهم منها

١٣٠ خلاف الكنز بصعيد مصر . ملك صلاح الدين دمشق

١٣١ ملك صلاح الدين مدينتى حمص وحماة

١٣٢ حصر صلاح الدين حلب وعوده عنها وملك قلعة حمص وبعلبك

١٣٣ حصر سيف الدين أخاه عماد الدين بسنجار انهزام سيف الدين من صلاح الدين وحصره مدينة حلب ملك صلاح الدين قلعة بعرين

١٣٤ ملك البهلوان مدينة تبريز . وفاة شملة . هرب قطب الدين قايماز من بغداد

١٣٥ عدة حوادث . سنة إحدى وسبعين وخمسمائة . انهزام سيف الدين من صلاح الدين

١٣٦ ماملكه صلاح الدين بعد

صفحة

الكسرة من بلاد الصالح بن نور الدين

١٣٧ حصر صلاح الدين مدينة حلب والصلح عليها . الفتنة بمكة وعزل أميرها وإقامة غيره

١٣٨ عدة حوادث

١٣٩ سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . نهب صلاح الدين بلد الاسماعيلية . ظفر المسلمين بالفرنج وللفرنج بالمسلمين .

١٤٠ عصيان صاحب شهرزور على سيف الدين وعوده إلى طاعته . فرج بعد شدة يتعلق بالتاريخ

١٤١ نهب البندنيجين . عدة حوادث . سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . انهزام صلاح الدين بالرملة

١٤٢ حصر الفرنج مدينة حماة . قتل كمشتكين، وحصر الفرنج حارم

١٤٣ عدة حوادث

١٤٤ سنة أربع وسبعين وخمسمائة . قصد الفرنج مدينة حماة أيضا

١٤٥ عصيان ابن المقدم على صلاح الدين وحصر بعلبك وأخذ البلد منه الغلاء والوباء العام غارات الفرنج على بلاد المسلمين

١٤٦ عدة حوادث

١٤٧ سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

صفحة

تخريب الحصن الذى بناه الفرنج عند مخاضة الأحزان

١٤٨ الحرب بين عسكر صلاح الدين وعسكر قلج أرسلان . وفاة المستضىء بأمر الله وخلافة الناصر لدين الله

١٤٩ عدة حوادث

١٥٠ سنة ست وسبعين وخمسمائة . وفاة سيف الدين صاحب الموصل وولاية أخيه عز الدين بعده . مسير صلاح الدين لحرب قلج أرسلان

١٥١ قصد صلاح الدين بلد ابن ليون الأرمنى . ملك يوسف ابن عبد المؤمن مدينة قفصة بعد خلاف صاحبها عليه

١٥٢ عدة حوادث . سنة سبع وسبعين وخمسمائة . غزاة إلى بلد الكرك من الشام

١٥٣ تلبيس ينبغى أن يحتاط من مثله . إرسال صلاح الدين العساكر إلى اليمن وفاة الملك الصالح وملك ابن عمه عز الدين مسعود مدينة حلب

١٥٤ تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سنجار عوضا عنها حصر صاحب ماردين قلعة البيرة

Marfat.com

صفحة

ومسير صاحبها مع صلاح الدين .
عدة حوادث
١٥٥ سنة ثمان وسبعين وخمسمائة .
مسير صلاح الدين إلى الشام
وإغارته على الفرنج . ملك
المسلمين شقيفا من الفرنج .
إرسال سيف الإسلام إلى
اليمن وتغلبه عليه
١٥٦ إغارة صلاح الدين على انغور
وغيره من بلاد الفرنج وأعمالها .
حصر بيروت عبور صلاح
الدين الفرات وملكه ديار
الجزيرة
١٥٧ حصر صلاح الدين للموصل
١٥٨ ملكه مدينة سنجار
١٥٩ عود صلاح الدين إلى حران
اجتماع عز الدين وشاه أرمن .
الظفر بالفرنج فى بحر عيذاب
١٦٠ عدة حوادث
١٦١ سنة تسع وسبعين وخمسمائة .
ملك صلاح الدين آمد وتسليمها
إلى صاحب الحصن ملك
صلاح الدين تل خالد وعينتاب
من أعمال الشام
١٦٢ وقعتين مع الفرنج فى البحر
والشام . ملك صلاح الدين
حلب
١٦٣ فتح صلاح الدين حارم .

صفحة

القبض على مجاهد الدين وماحصل
من الضرر بذلك
١٦٤ غزو بيسان . غزو الكرك
وملك العادل حلب . عدة
حوادث .
١٦٥ سنة ثمانين وخمسمائة إطلاق
مجاهد الدين من الحبس وانهزام
العجم وفاة يوسف بن عبد المؤمن
وولاية ابنه يعقوب . غزو
صلاح الدين الكرك
١٦٦ ملك الملثمين بجاية وعودها إلى
أولاد عبد المؤمن وفاة صاحب
ماردين وملك ولده
١٦٧ عدة حوادث . سنة إحدى
وثمانين وخمسمائة . حصر
صلاح الدين الموصل ورحيله
عنها لوفاة شاه أرمن
١٦٩ وفاة نور الدين صاحب الحصن .
ملك صلاح الدين ميافارقين
١٧٠ عود صلاح الدين إلى بلد
الموصل والصلح بينه وبين
أتابك عز الدين . الفتنة بين
التركمان والأكراد بديار
الجزيرة والموصل
١٧١ ملك الملثمين والعرب أفريقية
وعودها إلى الموحدين
١٧٢ عدة حوادث . سنة اثنتين
وثمانين وخمسمائة نقل العادل

صفحة

من حلب والملك العزيز إلى
مصر وإخراج الأفضل من
مصر إلى دمشق وإقطاعه إياها
١٧٣ وفاة البهلوان وملك أخيه قزل
١٧٤ اختلاف الفرنج بالشام وانحياز
القمص صاحب طرابلس إلى
صلاح الدين . غدر البرنس
ارناط . عدة حوادث
١٧٥ سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة .
حصر صلاح الدين الكرك
١٧٦ الغارة على بلد عكا . عود
صلاح الدين إلى عسكره
ودخوله إلى الفرنج . فتح
صلاح الدين طبرية
١٧٧ انهزام الفرنج بحطين
١٧٩ عود صلاح الدين إلى طبرية
وملك قلعتها مع المدينة . فتح
مدينة عكا . فتح مجدل بابا .
فتح عدة حصون
١٨٠ فتح يافا فتح تبنين وصيدا
وجبيل وبيروت
١٨١ خروج المركيش إلى صور .
فتح عسقلان وما يجاورها
١٨٢ فتح البلاد والحصون المجاورة
لعسقلان فتح البيت المقدس
١٨٦ رحيل صلاح الدين إلى صور
ومحاصرتها
١٨٧ الرحيل عن صور إلى عكا

Marfat.com

صفحة

وتفريق العساكر . فتح هونين

١٨٨ حصر صفد وكوكب . والكرك الفتنة بعرفات وقتل ابن المقدم

١٨٩ قوة السلطان طغرل على قزل ملك شرسنى من الهند وانهزام المسلمين بعدها . عدة حوادث

١٩٠ سنة أربع وثمانين وخمسمائة . حصر صلاح الدين كوكب : رحيل صلاح الدين إلى بلد الفرنج . فتح جبلة

١٩١ فتح لاذقية . حال اسطول صقلية

١٩٢ فتح صهيون وعدة من الحصون . فتح حصن بكاس والشغر

١٩٣ فتح سرمينية . فتح برزية

١٩٤ فتح درب ساك

١٩٥ فتح بغراس . الهدنة بين المسلمين وصاحب انطاكية

١٩١ فتح الكرك وما يجاوره . فتح قلعة صفد . فتح كوكب

١٩٧ ظهور طائفة من الشيعة بمصر . انهزام عسكر الخليفة من السلطان طغرل

١٩٨ عدة حوادث

١٩٩ سنة خمس وثمانين وخمسمائة . فتح شقيق أرنوم . وقعة البزك مع الفرنج

صفحة

٢٠٠ وقعة ثانية للغزاة المتطوعة . وقعة ثالثة . مسير الفرنج إلى عكا ومحاصرتها

٢٠٢ وقعة أخرى ووقعة العرب . الوقعة الكبرى على عكا

٢٠٤ رحيل صلاح الدين عن الفرنج وتمكنهم من حصر عكا . وصول عسكر مصر والأسطول المصرى فى البحر . عدة حوادث

٢٠٥ سنة ست وثمانين وخمسمائة . وقعة الفرنج واليزك وعود صلاح الدين إلى منازلة الفرنج . إحراق الأبراج ووقعة الأسطول

٢٠٧ وصول ملك الألمان إلى انشام وموته

٢٠٨ وقعة للمسلمين والفرنج على عكا

٢٠٩ خروج الفرنج من خنادقهم

٢١٠ تسيير البدل إلى عكا والتفريط فيه حتى أخذت . وفاة زين الدين يوسف صاحب إربل ومسير أخيه مظفر الدين إليها

٢١١ ملك الفرنج مدينة شلب وعودها إلى المسلمين الحرب بين غياث الدين وسلطانشاه بخراسان . عدة حوادث . سنة سبع وثمانين وخمسمائة . حصر عز الدين صاحب الموصل الجزيرة

صفحة

٢١٢ عبور تقى الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومسيره إلى خلاط وموته

٢١٣ وصول الفرنج من الغرب فى البحر إلى عكا

٢١٤ ملك الفرنج عكا

٢١٥ رحيل الفرنج إلى ناحية عسقلان وتخريبها

٢١٦ رحيل الفرنج إلى نطرون

٢١٧ مسير صلاح الدين إلى القدس . عود الفرنج إلى الرملة

٢١٨ قتل قزل أرسلان . عدة حوادث . سنة ثمان وثمانين وخمسمائة . عمارة الفرنج

٢١٩ قتل المركيس وملك الكندهرى . نهب بنى عامر البصرة . ما كان من ملك انكلتار

٢٢٠ استيلاء الفرنج على عسكر للمسلمين وقفل . سير الأفضل والعادل إلى بلاد الجزيرة

٢٢١ عود الفرنج إلى عكا . ملك صلاح الدين يافا . الهدنة مع الفرنج وعود صلاح الدين إلى دمشق

٢٢٢ وفاة قلج أرسلان

٢٢٣ ملك شهاب الدين أجمير وغيرها من الهند

Marfat.com

صفحة

٢٢٤ عدة حوادث

٢٢٥ سنة تسع وثمانين وخمسمائة وفاة صلاح الدين وبعض سيرته

٢٢٦ حال أهله وأولاده بعده

٢٢٧ ذكر مسير أتابك عزالدين إلى بلادالعادل وعوده بسبب مرضه

٢٢٨ وفاة أتابك عز الدين وشيء من سيرته . قتل بكتمر صاحب خلاط

٢٢٩ عدة حوادث . سنة تسعين وخمسمائة . الحرب بين شهاب الدين وملك بنارس الهندى

٢٣٠ قتل السلطان طغرل وملك خوارزمشاه الرى ووفاة أخيه سلطانشاه

٢٣١ مسيروزيرالخليفة إلىخوزستان وملكها . حضر العزيز مدينة دمشق . عدة حوادث . سنة إحدى وتسعين وخمسمائة . ملك وزير الخليفة همذان وغيرها من بلاد العجم

٢٣٢ غزو ابن عبد المؤمن الفرنج بالأندلس

٢٣٣ مافعله اللثم بأفريقية

٢٣٤ ملك عسكر الخليفة أصفهان . ابتداء حال كوكجه وملكه بلد الرى وهمذان وغيرها . حصر العزيز دمشق ثانية وانهزامه عنها

صفحة

٢٣٥ عدة حوادث . سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة . ملك شهاب الدين بهنكر وغيرها من بلاد الهند . ملك العادل مدينة دمشق من الأفضل

٢٣٦ عدة حوادث

٢٣٧ سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة . إرسال الأمير أبى الهيجاء إلى همذان وما فعله . ملك العادل يافا من الفرنج وملك الفرنج بيروت من المسلمين وحصر الفرنج تبنين ورحيلهم عنها

٢٣٨ وفاة سيف الإسلام وملك ولده

٢٣٩ عدة حوادث . سنة أربع وتسعين وخمسمائة . وفاة عماد الدين وملك ولده قطب الدين محمد

٢٤٠ ملك نور الدين نصيبين . ملك الغورية مدينة بلخ من الخطا الكافرة

٢٤١ انهزام الخطا من الغورية . ملك خوارزمشاه مدينة بخارا

٢٤٢ عدة حوادث

٢٤٣ سنة خمس وتسعين وخمسمائة . وفاة الملك العزيز وملك أخيه الأفضل ديار مصر

٢٤٤ حصر الأفضل مدينة دمشق وعوده عنها

صفحة

٢٤٥ وفاة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وولاية ابنه محمد . عصيان أهل المهدية على يعقوب وطاعتها لولده محمد

٢٤٦ رحيل عسكر الملك العادل عن ماردين

٢٤٧ الفتنة بفيروز كوه من خراسان

٢٤٨ مسير خوارزمشاه إلى الرى . عدة حوادث

٢٤٩ سنة ست وتسعين وخمسمائة . ملك العادل الديار المصرية

٢٥٠ وفاة خوارزمشاه . عدة حوادث

٢٥١ سنة سبع وتسعين وخمسمائة . ملك الملك الظاهر صاحب حلب منبج وغيرها من الشام وحصره هو وأخوه الأفضل مدينة دمشق وعودهما عنها

٢٥٣ ملك غياث الدين وأخيه ماكان لخوارزمشاه بخراسان

٢٥٤ قصد نور الدين بلاد العادل والصلح بينهما

٢٥٥ ملك شهاب الدين نهرواله . ملك ركن الدين ملطية من أخيه وارزن الروم وفاة سقمان صاحب آمد وملك أخيه محمود . عدة حوادث

٢٥٦ سنة ثمان وتسعين وخمسمائة . ملك خوارزمشاه ما كان

Marfat.com

Marfat.com

صفحة
أخذه الغورية من بلاده
٢٥٧ حصر خوارزمشاه هراة وعوده عنها
٢٥٨ عدة حوادث
٢٥٩ سنة تسع وتسعين وخمسمائة : حصر العادل ماردين وصلحه مع صاحبها . وفاة غياث الدين ملك الغور وشيء من سيرته
٢٦٠ أخذ الظاهر قلعة نجم من أخيه الأفضل . ملك الكرج مدينة دوين
١٦١ عدة حوادث . سنة ستمائة . حصار خوارزمشاه هراة ثانية . عود شهاب الدين من الهند وحصر خوارزمشاه وانهزامه من الخطا
٢٦٣ قتل طائفة من الاسماعيلية بخراسان . ملك القسطنطينية من الروم
٢٦٤ انهزام نور الدين صاحب الموصل من العساكر العادلية
٢٦٥ خروج الفرنج بالشام إلى بلاد الإسلام والصلح معهم . قتل كوكجة ببلاد الجبل وولاية ايتغمش . وفاة ركن الدين ابن قلج أرسلان وملك ابنه بعده
٢٦٦ قتل الباطنية بواسط استيلاء

صفحة
محمود على مرباط وغيرها من حضر موت . عدة حوادث
٢٦٧ سنة إحدى وستمائة . ملك كيخسرو بن قلج أرسلان بلاد الروم من ابن أخيه
٢٦٨ حصر صاحب آمد خرت برت ورجوعه عنها الفتن ببغداد
٢٦٩ غارة الكرج على بلاد الإسلام . الحرب بين أمير مكة وأمير المدينة عدة حوادث
٢٧٠ سنة اثنتين وستمائة . الفتنة بهراة . قتال شهاب الدين الغورى بنى كوكر
٢٧١ الظفر بالتيراهية
٢٧٢ قتل شهاب الدين الغورى
٢٧٣ ما فعله الدز . بعض سيرة شهاب الدين
٢٧٤ مسير بهاء الدين سام إلى غزنة وموته . ملك علاء الدين غزنة وأخذها منه
٢٧٥ ملك الدز غزنة
٢٧٦ حال غياث الدين بعد قتل عمه
٢٧٧ استيلاء خوارز مشاه على بلاد الغورية بخراسان
٢٧٩ ملك خوارزمشاه ترمذ وتسليمها إلى الخطا
٢٨٠ عود أصحاب باميان إلى غزنة
٢٨١ عود الدز إلى غزنة

صفحة
٢٨٢ قصد صاحب مراغة وصاحب إربل أذربيجان . ايقاع أيتغمش بالإسماعيلية . وصول عسكر خوارزم إلى بلاد الجبل وما كان منهم العارة من ابن ليون على أعمال حلب
٢٨٣ نهب الكرج أرمينية . عدة حوادث
٢٨٥ سنة ثلاث وستمائة ملك عباس باميان وعودها إلى ابن أخيه . ملك خوارزمشاه الطالقان
٢٨٦ حال غياث الدين مع الدز وايبك
٢٨٨ وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده . ملك غياث الدين كيخسرو مدينة أنطاكية . عزل ولد بكتمر صاحب خلاط وملك بلبان ومسير صاحب ماردين إلى خلاط وعوده
٢٨٩ ملك الكرج مدينة قرس وموت ملكة الكرج
٢٩٠ الحرب بين عسكر الخليفة وصاحب كرستان . عدة حوادث
٢٩١ سنة أربع وستمائة . ملك خوارزمشاه ماوراء النهر وما كان بخراسان من الفتن وإصلاحها
٢٩٢ قتل ابن خرميل وحصر هراة وأسر خوارزمشاه وخلاصه

صفحة

٢٩٣ مافعله خوارزمشاه بخراسان

٢٩٤ قتل غياث الدين محمود . عود خوارزمشاه إلى الخطا . غدر صاحب سمرقند بالخوارزميين

٢٩٥ الوقعة التى أفنت الخطا

٢٩٦ ملك نجم الدين بن الملك العادل خلاط

٢٩٧ غارات الفرنج بالشام الفتنة بخلاط وقتل كثير من أهلها . ملك أبى بكر بن البهلوان مراغه . عزل نصير الدين وزير الخليفة

٢٩٨ عدة حوادث . سنة خمس وستمائة . ملك الكرج أزجيش وعودهم عنها

٢٩٩ قتل سنجرشاه وملك ابنه محمود

٣٠٠ عدة حوادث

٣٠١ سنة ست وستمائة . ملك العادل الخابور ونصيبين وحصر سنجار وعوده عنها واتفاق نور الدين أرسلان شاه ومظفر الدين

٣٠٢ عدة حوادث . سنة سبع وستمائة . عصيان سنجر مملوك الخليفة بخوزستان ومسير العساكر إليه

٣٠٣ وفاة نور الدين أرسلان شاه وشىء من سيرته

٣٠٤ ولاية ابنه الملك القاهر

صفحة

٣٠٥ عدة حوادث . سنة ثمان وستمائة . استيلاء منكلى على بلاد الجبل وأصفهان وغيرها وهرب ايتغمش نهب الحاج بمنى

٣٠٦ عدة حوادث سنة تسع وستمائة . قدوم ابن منكلى بغداد

٣٠٧ عدة حوادث . سنة عشر وستمائة . قتل ايتغمش عدة حوادث

٣٠٨ سنة إحدى عشرة وستمائة . ملك خوارزمشاه علاء الدين كرمان ومكران والسند عدة حوادث

٣٠٩ سنة اثنتى عشرة وستمائة قتل منكلى وولاية أغلمش ما كان بيده من الممالك وفاة ابن الخليفة

٣١٠ ملك خوارزمشاه غزنة وأعمالها . استيلاء الدز على لهاوور وقتله

٣١١ عدة حوادث

٣١٢ سنه ثلاث عشرة وستمائة وفاة الملك الظاهر . عدة حوادث .

سنه أربع عشرة وستمائه . ملك خوارزمشاه بلد الجبل

٣١٤ ماجرى لأتابك سعد مع أولاده ظهور الفرنج إلى الشام ومسيرهم إلى ديار مصر وملكهم مدينه

صفحه

دمياط وعودها إلى المسلمين

٣١٥ حصر الفرنج قلعه الطور وتخريبها . حصر الفرنج دمياط إلى أن ملكوها

٣١٧ ملك المسلمين دمياط من الفرنج

٣١٨ عدة حوادث

٣١٩ سنه خمس عشرة وستمائه . وفاة الملك القاهر وولايه ابنه نور الدين وما كان من الفتن بسبب موته إلى أن استقرت الأمور

٣٢٠ ملك عماد الدين زنكى قلاع الهكارية والزوزان

٣٢١ اتفاق بدر الدين مع الملك الأشرف . . انهزام عماد الدين زنكى من العسكر البدرى . وفاة نور الدين صاحب الموصل وملك أخيه

٣٢٢ انهزام بدر الدين من مظفر الدين . ملك عماد الدين قلعة كواشى وملك بدر الدين تل يعفر وملك الملك الأشرف سنجار

٣٢٤ وصول الأشرف إلى الموصل والصلح مع مظفر الدين . عود قلاع الهكارية والزوزان إلى بدر الدين

٣٢٥ قصد كيكاوس ولاية حلب وطاعة صاحبها للأشرف

Marfat.com

صفحة

وانهزام كيكاوس

٣٢٦ وفاة الملك العادل وملك أولاده بعده

٣٢٧ عدة حوادث . سنة ست عشرة وستمائة . وفاة كيكاوس وملك كيقباذ أخيه

٣٢٨ موت صاحب سنجار وملك ابنه ثم قتل ابنه وملك أخيه . إجلاء بنى معروف عن البطائح وقتلهم . عدة حوادث

٣٢٩ سنة سبع عشرة وستمائة . خروج التتر الى بلاد الإسلام

٣٣٠ خروج التتر الى تركستان وما وراء النهر وما فعلوه

٣٣٣ مسير التتر الى خوارزمشاه وانهزامه وموته

٣٣٤ صفة خوارزمشاه وشىء من سيرته

٣٣٥ استيلاء التتر المغربة على مازندران . وصول التترالى الرى وهمذان . وصول التترالى اذربيجان

٣٣٧ ملك التتر مراغة

٣٣٨ ملك التتر همذان وقتل أهلها

٣٣٩ مسير التترالى اذربيجان وملكهم أردويل وغيرها . وصول التترالى بلاد الكرج .

صفحة

وصولهم إلى دربند شروان وما فعلوه

٣٤٠ مافعلوه باللان وقفجاق . مافعله التتر بقفجاق والروس

٣٤١ عود التتر من بلاد الروس وقفجاق إلى ملكهم . ما فعله التتر بما وراء النهر بعد بخارا وسمرقند ملك التتر خراسان

٣٤٣ ملكهم خوارزم وتخريبها . ملك التتر غزنه وبلاد الغور

٣٤٤ تسليم الأشرف خلاط إلى أخيه شهاب الدين غازى

٣٤٥ عدة حوادث . سنة ثمان عشرة وستمائة وفاة قتادة أمير مكة وملك ابنه الحسن وقتل أمير الحاج

٣٤٦ عدة حوادث

٣٤٨ سنة تسع عشرة وستمائة . خروج طائفة من قفجاق إلى اذربيجان وما فعلوه بالكرج وما كان منهم

٣٤٩ نهب الكرج بيلقان . ملك بدر الدين قلعة شوش

٣٥٠ عدة حوادث . سنة عشرين وستمائة . ملك صاحب اليمن مكة حرسها الله تعالى . حرب بين المسلمين والكرج بأرمينية

٣٥١ الحرب بين غياث الدين وبين

صفحة

خاله حادثة غريبة لم يوجد مثلها

٣٥٢ عدة حوادث . سنة إحدى وعشرين وستمائة . عود طائفة من التتر الى الرى وهمذان وغيرهما

٣٥٣ ملك غياث الدين بلاد فارس . عصيان شهاب الدين غازى على أخيه الملك الأشرف وأخذها خلاط منه .

٣٥٤ حصار صاحب إربل الموصل . عدة حوادث

٣٥٥ سنة اثنتين وعشرين وستمائة . حصر الكرج مدينة كنجة . وصول جلال الدين بن خوارزمشاه إلى خوزستان والعراق

٣٥٦ وفاة الملك الأفضل وغيره من الملوك

٣٥٧ خلع شروانشاه وظفر المسلمين بالكرج ظفر المسلمين بالكرج أيضا

٣٥٨ ملك جلال الدين أذربيجان

٣٥٩ انهزام الكرج من جلال الدين . عود جلال الدين إلى تبريز وملكه مدينة كنجة ونكاحه زوجة أوزبك

٣٦٠ وفاة الخليفة الناصر لدين الله

٣٦١ خلافة الظاهر بأمر الله

Marfat.com

Marfat.com

صفحة

٣٦٣ ملك بدر الدين قلعتى العمادية وهرور

٣٦٤ عدة حوادث

٣٦٦ سنة ثلاث وعشرين وستمائة . ملك جلال الدين تفليس

٣٦٧ مسير مظفر الدين صاحب إربل إلى الموصل وعوده عنها . عصيان كرمان على جلال الدين ومسيره إليها

٣٦٨ الحرب بين عسكر الأشرف وعسكر جلال الدين . وفاة الخليفة الظاهر بأمر الله

٣٦٩ خلافة ابنه المستنصر بالله . الحرب بين كيقباذ وصاحب آمد حصر جلال الدين مدينتى آنى وقرس

٢٧٠ حصر جلال الدين خلاط . إيقاع جلال الدين بالتركمان الإيوائية

٢٧١ الصلح بين المعظم والأشرف . الفتنة بين الفرنج والأرمن

٣٠٢ عدة حوادث

٢٧٣ سنة أربع وعشرين وستمائة .

صفحة

دخول الكرج مدينة تفليس وإحراقها . نهب جلال الدين بلد الإسماعيلية

٢٧٤ الحرب بين جلال الدين والتتر . دخول العساكر الأشرفية إلى أذربيجان وملك بعضها . وفاة المعظم صاحب دمشق وملك ولده

٢٧٥ عدة حوادث . سنة خمس وعشرين وستمائة . الخلف بين جلال الدين وأخيه

٢٧٦ الحرب بين جلال الدين والتتر . خروج الفرنج إلى الشام وعمارة صيدا

٢٧٧ ملك كيقباذ ارزنكان

خروج الملك الكامل

٢٧٨ نهب جلال الدين بلاد أرمينية

عدة حوادث

سنة ست وعشرين وستمائة

تسليم البيت المقدس إلى الفرنج

ملك الملك الأشرف مدينة دمشق

٢٧٩ القبض على الحاجب على وقتله

٣٨٠ ملك الكامل مدينة حماة

حصر جلال الدين خلاط

صفحة

وملكها

٣٨١ عدة حوادث

سنة سبع وعشرين وستمائة

انهزام جلال الدين من كيقباذ والأشرف

ملك علاء الدين ارزن الروم

٣٨٢ الصلح بين الأشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين

ملك شهاب الدين غازى مدينة ارزن

ملك صونج قشيالو اقلعة رويندز

٣٨٣ سنة ثمان وعشرين وستمائة

خروج التتر الى أذربيجان وما كان منهم

٣٨٤ ملك التترمراغة

وصول جلال الدين إلى آمد وانهزامه عندها وما كان منه

دخول التتر ديار بكر والجزيرة وما فعلوه فى البلاد من الفساد

٣٨٥ وصول طائفة من التتر الى أربل ودقوقا

٣٨٦ طاعة أهل أذربيجان للتتر

٣٨٧ عدة حوادث

Marfat.com